المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التاريخ والتراث العربي والعالمي
تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب - بغداد

العدد (٢٧) - السنة الثانية عشرة
١٩٨٦ - ١٤٠٦

شروط نشر البحوث في المجلة

١ .ان يعتمد البحث الاسس العلمية في اعداد وكتابة البحوث .
٢ .ان يكون منسجما مع اهدافه اتحاد المؤرخين العرب .
٣ .ان لايزيد عدد صفحاته عن (٥٠) صفحة .
٤ .ان يكون قد سبق نشره ، او قبل للنشر في مجلة اخرى ، على ان يقدم كاتب البحث تعهدا يؤكد ذلك مرفقا برسالة مع البحث موجهة الى مدير التحرير .
٥ .تقبل البحوث في جميع فروع المعرفة التاريخية ، وباللغتين العربية والانكليزية .
٦ .يطبع عنوان البحث على ورقة مستقلة ، ويفضل ان يكون مختصرا ، ويثبت اسم الباحث او اسماء الباحثين الكاملة والعنوان لكل منهم
٧ .يطبع البحث على وجه واحد من الورقة ، وتأخذ كل ورقة رقمها الخاص ، ويقدم بنسختين .
٨ .بالنسبة للبحوث المقدمة الى المؤتمرات او الندوات او كان مستلا من رسالة او اشراف عليها مقدم البحث وتأشير ذلك في حاشية البحث .
٩ .لامور فنية خاصة بالطباعة يجب ان توحد الهوامش الخاصة بالبحث من اول هامش في البحث الى اخر هامش فيه ، وتعطي تسلسلا واحدا .
١٠ .يحال البحث المقدم للنشر الى خبير مختص ، ويعاد الى كاتبه لاجراء التعديلات المقترحة ان وجدت على ان يعاد الى مدير التحرير في غضون خمسة ايام .
١١ .رتبت البحوث لاعتبارات فنية وهي تعبر عن اراء اصحابها مع التأكيد على ان مجلة المؤرخ العربي منبرا تاريخيا قوميا تنطق باسم القضية العربية الكبرى ، والبحوث التي ترد للمجلة لاتسترجع الى اصحابها في حالة عدم نشرها .

ترسل البحوث بأسم مدير التحرير
ص.ب : (٤٠٨٥) بغداد – الجمهورية العراقية
مجلة المؤرخ العربي – اتحاد المؤرخين العرب
ت : (٤٤٤٨٠٠٦)

الاشتراكات السنوية في مجلة المؤرخ العربي

١ .الدوائر الرسمية في داخل العراق (٥٠) دينارا ، وفي خارج العراق (١٥٠) دولار امريكي .

٢ .للمؤرخين في داخل العراق (٢٠) دينار ، وفي خارج العراق (٦٠) دولار امريكي .

٣ .لطلبة التاريخ في داخل العراق (١٠) دينار ، وفي خارج العراق (٣٠) دولار امريكي .

تعنون كافة التسديدات والاشتراكات السنوية باسم الناشر صباح صادق صاحب مطبعة دار القادسية ــ بغداد الاعظمية هـ ٤٢٢٨١٧٤ ص. ب ٤٠١٨

هيئة التحرير

المحتويات

بحوث التاريخ الحديث والمعاصر

بحوث التاريخ العربي - الاسلامي

٩ . الدكتور عبد القادر
المعاضيدي
قسم التاريخ / كلية التربية / جامعة بغداد
دور أمراء العراق في حركات تحرير المشرق
في العصر الأموي

١٠ . الدكتور ابراهيم خليل
احمد
قسم التاريخ / كلية التربية / جامعة الموصل
اثر عز الدين ابن الاثير في تطوير الكتابة
التاريخية العربية

١١ . الدكتور سوادي عبد
محمد
قسم التاريخ / كلية التربية / جامعة البصرة
حاجب باب النوبي

١٢ . الدكتور محمد جاسم
حمادي المشهداني
قسم الدراسات التاريخية / معهد الدراسات
القومية / الجامعة المستنصرية
الكتابة في مثالب العرب جانب من جوانب
التحدي الشعوبي للامة العربية

١٣ . الدكتور خليل ابراهيم
السامرائي
قسم التاريخ / كلية التربية / جامعة الموصل
اثر العراق الحضاري على الاندلس

١٤ . الدكتور محمود ياسين قسم التاريخ / كلية الآداب / جامعة
الموصل
الرؤية التاريخية عند ابن الاثير

١٥ . الدكتور خليل شاكر
حسين
قسم التاريخ / كلية التربية / جامعة الموصل
دور ابراهيم بن مالك الاشتر.

١٦ . الدكتور شاكر محمود
عبد المنعم
معهد اعداد المعلمين / بغداد
نظرة في مؤلفات الخزرجي مؤرخ اليمن

١٧ . السيد صالح مهدي
عباس
مركز احياء التراث / بغداد
محمد بن رافع السلامي سيرته ومؤلفاته

١٨ . الدكتور حسن عيسى
الحكيم
كلية الفقه / الجامعة المستنصرية
مع النجاشي الاسدي في كتابة الفهرست

١٩ . الدكتور صلاح الدين
امين
قسم التاريخ / كلية التربية / جامعة الموصل
حركة عمرو بن سعيد الاشدق

كلمة العدد

بمزيد من الفخر والاعتزاز تصدر الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب هذا العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربي ، وهو العدد السابع والعشرون في هذا الزمن الصعب الذي تمر به امتنا العربية المجيدة ، الامر الذي يلقي على المؤرخ العربي مهام كبيرة ، كي يجعل التاريخ عاملا من عوامل تصدي الامة العربية للطامعين ، لذلك فالمؤرخين العرب يستحضرون روح الماضي ، وتاريخه العريق من اجل ان يساهم التاريخ في نهضة الامة وازدهارها ، ولكي يساهم المؤرخ العربي في ابراز الوجه المشرق للامة العربية بعد ان تكالبت عليها قوى الشر والعدوان ، متأمرة على ذاتها وتاريخها .

وهنا تتوضح اهمية الرسالة والمهام العظيمة الملقاة على عاتق اتحاد المؤرخين العرب في هذا الزمن الصعب ، ولذلك ندعوا العرب للعمل بجد واخلاص من اجل اعادة كتابة تاريخ الامة العربية كتابة عربية اصيلة نابعة من ضمير الانسان العربي وقيمه النقية ، ومعبرة عن وجدانه أصدق تعبير ولذلك تم تشكيل الهيئة العربية العليا لاعادة كتابة تاريخ الامة وعليه فأن من ابرز العوامل المساعدة لانجاح مهمة الاتحاد هو الاخذ بهذاالاتجاه القومي الذي سيكون عاملا مشتركا لالتفاف كافة المؤرخين العرب حول اتحادهم المعبر عن وجهة نظرهم والساعي من اجل تحقيق وحدتهم .

والله من وراء القصد .

الاستاذ الدكتور مصطفى عبد القادر النجار
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب
رئيس التحرير

أثر الملاحقة النازية لليهود على تطور الحركة الصهيونية

الدكتور نظام العباسي
جامعة اليرموك

يرتبط ذكر اسم الحركة النازية في مخيلة المتوسط العام للفرد العربي ارتباطا وثيقا بالعداء السافر الذي مارسته ضد اليهود. ولا شك فأن الصراع العربي الاسرائيلي خلال هذا القرن أحد العوامل الاساسية التي تجعل الكثيرين منا ينظرون الى الحركة النازية «كحركة تحرر» حاولت تخليص المانيا من اليهود. ويؤكد هذا الادعاء تلك الاصوات التي تنطلق، عند التطرق الى موضوع النازية قائلة بأن هتلر لم يقم باعدام ستة ملايين يهودي، بل اقل من هذا العدد بكثير، او اولئك الذين يقولون – ولو بصوت خافت –: عداء هتلر لليهود له ما يبرره!

لن اتطرق في هذا البحث الى مثل هذه الادعاءات. فسواء قتل هتلر ستة ملايين أو أقل من هذا العدد، فلا شك بأن الحكم النازي كان مجرما ليس فقط بحق اليهود، بل بحق كل شعوب العالم ومن ضمنها الشعب الالماني نفسه ايضا. لقد كانت محصلة الحكم النازي والذي امتد اثني عشر عاما (١٩٣٣ – ١٩٤٥)، ان قتل حوالي ٥٥ مليون نسمة من سكان هذا العالم في جميع قاراته. وبالرغم من النهاية الدموية للعهد النازي على يد قوى الحلفاء الا اننا نستطيع القول بأن جميع شعوب ودول العالم اصيبت بالضرر، او لنقل خرجت مهزومة في محصلتها النهائية نتيجة صراعها مع النازي رغم انتصارها عليه، سوى الحركة الصهيونية، والتي يمكن اعتبارها المستفيد الاول في هذا العالم من التجربة النازية.

فمنذ انطلاقتها، اعلنت الحركة الصهيونية الحرب على انصهار اليهود في المجتمعات الاوربية وما زالت.... يقول ارثر روبين Arthur Ruppin احد اشهر وجالاتها في خطاب له امام المؤتمر الصهيوني السادس عشر الذي عقد في زيورخ ١٩٢٩: «ان انصهار اليهود بين ظهراني المجتمعات التي يعيشون بينها يشكل ظاهرة تحطيم لليهودية»[١] ويصف ناحوم غولدمان Nahum Goldmann خطر انصهار اليهود بين المجتمعات الاوروبية في لقاء له مع ممثل صحيفة اللومند الفرنسية بتاريخ ١٩٦٦/١/١٣ اى بعد سبع وثلاثون عاما من روبين، بقوله: «ان الخطر الذي يشكله انصهار اليهود بالمجتمعات التي يعيشون بينها اقوى من أى خطر خارجي عليهم.....»[٢].

اذا نستطيع القول بأن وضوح الرؤيا لدى قادة الحركة الصهيونية والفهم العميق لطبيعة حياة اليهود بين المجتمعات الاوربية قد ادى الى رسمهم لخطة عمل منظمة حاولوا من خلالها استغلال الاوضاع القائمة على الساحة الدولية لتحقيق هدفهم الاستراتيجي والذي انتهى باقامة كيان قومي لهم في فلسطين.

أهم العقبات التي واجهتهم آنذاك، كان الرفض المطلق للغالبية الساحقة من يهود العالم لمبادئ الحركة الصهيونية. وقبل ان ننتقل الى توضيح هذه النقطة علينا ان نلاحظ هنا ان عدد اليهود المنتمين للحركة الصهيونية مقارنة مع يهود المانيا والذين انتموا الى تجمعات واحزاب يهودية غير صهيونية كان ضئيلا وقدروا بحوالي ٥٪ بينما وقفت الغالبية الساحقة ٩٥٪ اما ضدهم وكانت لها اهتمامات اخرى غير تلك التي للحركة الصهيونية.[٣]

---

(١) انظر: Hollstein' Walter : Kein Frieden um Israel'Frankfurt 1973' S. 38.
(٢) انظر هذا اللقاء في حاشية نفس المصدر السابق ص ٤٠
(٣) انظر: Yahya' Faris : Zionist Relation with Nazi – Germany. Beirut' 1978' s. 16.

وقف اليهود غير الصهاينة موقف المعادي للصهاينة وسياسة النازي القمعية ضد اليهود. وتؤكد الخطابات الكثيرة التي وجهوها الى رئيس الجمهورية الالمانية وهتلر شخصيا منذ استلامه السلطة على صحة ما نقول.

فقد طيرت رئاسة تجمع الطائفة اليهودية في برلين برقية الى رئيس الحكومة الالمانية[٤] والى هتلر شخصيا، بعد شهرين من استلامه منصب المستشارية تضمنت «اننا على ثقة بأن رئيس وحكومة الرايخ ستحافظ على حقوقنا القانونية ومقومات حياتنا في وطن اباتنا وأجدادنا الالماني ولن تمسها بسوء......»[٥].

وفي رسالة اخرى من تجمع اليهود الوطنيين الاشتراكيين والذي تزعمه الدكتور ماكس ناومان DR. Max Naumann، اوضح اهداف تجمعه هذا، واعتبر المشكلة اليهودية قائمة بسبب تخلف اليهود عن الانصهار في المجتمع الالماني، وطالب باتخاذ اجراءات مناسبة لحل هذه المشكلة. اضافة الى ذلك فقد هاجم الصهاينة بعنف بسبب ادعائهم بأن حل المشكلة اليهودية سيكون عن طريق تهجير اليهود الى فلسطين وليس بانصهارهم في «وطن ابائهم وأجدادهم المانيا»[٦].

وبالطبع لم يرق لقادة النازي والذين عملوا منذ استلامهم للسلطة في المانيا عام ١٩٣٣ على انهاء الوجود اليهودي في المانيا كونهم السبب الاساسي الذي ادى الى فساد العرق الارى الخلاق والمبدع بالتزاوج معهم، مما ادى الى خروج المانيا مهزومة في الحرب العالمية الاولى!

اما الصهاينة فلم يعتبروا اليهود المانا بل يهود يحملون الجنسية الالمانية. ومن هنا كان عليهم ترويض اليهود غير الصهاينة لكي يحولوا انتاءهم من المان الى يهود اصحاب عادات وتقاليد خاصة واسلوب عمل يخدم الاهداف الصهيونية. ولذا فقد اعلنوها حربا على اولئك اليهود الذين اعلنوا بأنه لا يربطهم شيء ببعض سوى الدين الواحد او كما عبر عنها السير ايدوين مونتغيوا SIR Edwin Montaqu اليهودي الانكليزي المشهور يقول «انه وعائلته يعيشون منذ اجيال في بريطانيا..... ولا يربطهم ببقية يهود العالم شيء سوى الدين الواحد، ويؤكد «انني أؤكد انه لا يوجد شيء اسمه امة يهودية»[٧].

اذا ومنذ قيام الحركة النازية في عام ١٩٢٠ والتي اعلنت عن رغبتها بأقتلاع اليهود الالمان ومحاربتهم قصد طردهم من المانيا، كان التوافق مع الحركة الصهيونية موجودا، والتي وحتى قبل قيام الحركة النازية نادت باخراج اليهود من البلدان التي عاشوا فيها لتصديرهم الى فلسطين.

رافق هذا التوافق النظرى في الايدولجيتين النازية والصهيونية تطبيق عملي – وان كانت الحركة الصهيونية هي المبادرة في هذا الميدان، كون تأسيسها سبق انطلاق الحركة النازية – ففي ٢٠ ايار مايو ١٩٣٢ وحين تظاهر بضع مئات من المنتمين للحزب النازي في شوارع مدينة بريزلاو Braeslau منادين باخراج اليهود من المانيا قابلتها على الفور مظاهرة نظمها انصار الحركة الصهيونية منادين «اتركوا اليهود يذهبون الى فلسطين»[٨].

وقد اختلف الوضع تماما بعد ان استلم الحزب النازي في ٣٠ كانون الثاني زمام الحكم في المانيا بعد ان تولى هتلر منصب المستشارية في المانيا، حيث قدر لهذه السياسة ان تأخذ طابع الشرعية في ملاحقتها لليهود.

فأولئك اليهود الذين لم يؤمنوا حتى الان بالحركة الصهيونية ويهاجروا من المانيا الى فلسطين بدأ النازي يلوح لهم بالعصا مما ادى الى تدفق سيل الهجرة من يهود المانيا الى فلسطين. ويؤكد ناحوم غولدمان احد ابرز قادة الحركة الصهيونية والذي كان شاهدا على ذلك حين كتب يقول: «في برلين كانت دائرة فلسطين وابتداء من شهر كانون الثاني ١٩٣٣ محاطة منذ الصباح وحتى المساء بالمراجعين اليهود الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر استلام الاوراق الخاصة التي تمكنهم من الهجرة الى فلسطين»[٩].

وقد مكنت شرعية استلام النازي السلطة في المانيا ايضا اقامة علاقات رسمية مع الحركة الصهيونية، ليس فقط للتنسيق في تهجير اليهود الالمان الى فلسطين، بل وايضا في مجال تقرير مصير اولئك اليهود الذين وقفوا ضد هذه السياسة التي تحاول اقتلاعهم من موطنهم، حيث لا حقتهم السلطات النازية فاعتقلت وقتلت اعدادا كبيرة منهم. مقابل ذلك افسحت المجال بل ودعمت نشاط الحركة الصهيونية وجعلتها التنظيم الوحيد المسموح بنشاطه بين مجموع التنظيمات اليهودية الكثيرة العدد والتي كانت قائمة قبل اعتلاء النازي سدة الحكم في المانيا،

(٤) كان رئيس الجمهورية الالمانية آنذاك الجنرال فن هندنبورغ – General von Hindenburg.

(٥) انظر رسالة الهيئة الادارية لتجمع الطائفة اليهودية في برلين والموجهة الى رئاسة الجمهورية الالمانية بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٣٣ في معهد الوثائق لالمانيا الاتحادية: – Bundesarchiv Koblenz 'Akt. NR. R43 II' s. 31.
ومن الجدير بالذكر ان هتلر استلم منصبه كمستشار لحكومة المانيا بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣

(٦) نفس المصدر السابق ص ١١٣ – ١١٤.

(٧) Hollstein' Ebd. ' 32

(٨) Yahya' Ebd. ' 16

(٩) Goldmann' Nahum: Ein leben Fur Israel' Bd. II' Frankfurt 1959' s. 137.

وبذلك تخلصت الحركة الصهيونية من الد اعدائها انذاك وهم اليهود بتنظيماتهم القوية والذين وقفوا موقف المعادي لأهدافها ومنعوها من التزود بالعنصر البشري الضروري لاستيطان فلسطين.

وقدر بارك هتلر شخصيا نشاط الحركة الصهيونية بعد استلامه السلطة، وانتهت شكوكه بصدق نواياها في تهجير اليهود الالمان الى فلسطين والتي راودته قبل استلام منصب المستشارية حين قال مغيرا فكرته عنها «اذا كانوا هم الصهاينة الذين اعلنوا تنظيف المانيا من اليهود» [١٠]

قادت هذه التطورات بلا ادنى شك الى دعم الحركة الصهيونية، ولذا ليس من الغريب ان نرى الازدياد المضطرد لاعداد النسخ لصحيفة الحركة الصهيونية الرسمية المسماه يودش رند شاو DIE Judische Rundschau ٥-٧ الاف نسخة في الاشهر الاولى لاستلام النازي الحكم عام ١٩٣٣ الى حوالي ٤٠ الف نسخة بعيد ذلك [١١].

اما حول العلاقات الرسمية التي نسجتها الحركة الصهيونية مع الحكومة النازية، فقد تمثلت بشكل اساسي في عقد اتفاقية الهافار، او ما اطلق عليها الالمان ترانسفير Transfer اى الترانزيت. وقعت هذه الاتفاقية في شهر يونيو / حزيران ١٩٣٣، اى راسا بعد تصفية هتلر لكل المعارضة السياسية الالمانية والتي تمثلت آنذاك بالاحزاب المختلفة.

ويمكن اجمال هذه الاتفاقية بما يلي: من اجل تسهيل امور المهاجرين اليهود الى فلسطين فقد اتفق الجانبان (الالماني والصهيوني) على ان تودع ممتلكات هؤلاء المهاجرين في بنك الهافار، البنك الالماني في برلين Die deutshe Bank in Berlin على رقم حساب خاص بالهافار او في هامبورغ في بنك فسر مان Wassermann وبقيمة هذه الاموال المودعة تبتاع الحركة الصهيونية من الحكومة الالمانية بضائع المانية شملت الالات الزراعية والماكنات وغيرها وترسلها الى فلسطين.

وبعد تسويق هذه المنتجات وبيعها في فلسطين او في السوق العربية عن طريق الحركة الصهيونية ووكالاتها في البلدان العربية المجاورة يستلم المهاجر اليهودي الالماني في فلسطين ما اودعه قبل هجرته من المانيا بعد اقتطاع ما اطلق عليه Spesen اى العمولة والتي وصلت في بعض الاحيان الى ٤٠٪ من المبلغ المودع.

وقد تحددت القيمة الاجمالية لهذه المبالغ المودعة في عام ١٩٣٣ في حدها الاعلى بثلاثة ملايين رايخ مارك. اما في السنوات اللاحقة فقد ارتفع هذا الحد الاعلى بشكل مضطرد، حيث حول فعليا في عام ١٩٣٤ ٧ر٦ ملايين رايخ مارك ووصل هذا المبلغ في عام ١٩٣٧ الى ٥ر١٨ مليون رايخ مارك. [١٢]

اما على مستوى اللقاءات الرسمية بين بعض اركان النازي وقادة الحركة الصهيونية فلم تنقطع ابدا، ولا ادل على ذلك من تلك الزيارة السرية التي قام بها رودلف ايخمان Rudolf Eichmann احد مؤسسي فرق الصاعقة الالمانية SS (Storm – schutz) واحد مسؤولي معسكرات الاعتقال النازية في ٧ مايو عام ١٩٣٧م بدعوة من قيادة جيش الهاغانا، قوات جيش الدفاع الاسرائيلي الحالي.

ويوضح التقرير السري الذي كتبه ايخمان بعد زيارته لفلسطين والموجود في معهد الوثائق الالماني الاتحادي / كوبلنز موقف الصهاينة من اضطهاد النازي ليهود المانيا والذين كما يقول التقرير «بدو مرتاحين لان ذلك (الاضطهاد ن.ع) سيؤدى الى زيادة كبيرة في عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين بحيث يستطيعوا تشكيل اغلبية عددية على المهاجرين اليهود الى فلسطين بحيث يستطيعوا تشكيل اغلبية عددية على المدى القريب في فلسطين» [١٣].

على اثر ذلك رفضت الحكومة الالمانية اتخاذ اى اجراء ضد الهجرة اليهودية الى فلسطين او الغاء معاهدة الهافارا السابقة الذكر، رغم الحاح القنصل الالماني في القدس دوله Dohle والمبعوث المفوض لالمانيا في بغداد فرتس غروبا Fritz Grobba على ذلك، بسبب النهوض الوطني للثورة الفلسطينية في منتصف الثلاثينات ضد حكومة الانتداب الانكليزي والصهيونية اضافة الى الضغط الذي وجه به هذان المبعوثان من قبل حركة التحرر العربي مطالبين الحكومة الالمانية انذاك لاتخاذ موقف واضح من المسألة الفلسطينية. اوضحت الحكومة الالمانية سريا موقفها من هذه القضية لممثليها هؤلاء حين ادعوا بأن التهجير الممكن

---

(١٠) Yahya' Ebd.' s. 17

(١١) Hollstein' Ebd.' s. 17

(١٢) حول تفاصيل هذه المعاهدة انظر:

Fleischenfeld' Werner : Das Haavara — Transfer nach Palastina und Einwanderung deutscher Juden 1933 — 1939' Tubingen 1972.

— علي محافظة: العلاقات الالمانية الفلسطينية ١٩٤١ — ١٩٤٥، بيروت ١٩٨١

E Yahya : Ebd.

(١٣) انظر تقرير ايخمان في معهد الوثائق الاتحادي / كوبلنز في ملفات

-Sicherheitsdienst des Rt + SS' sd — Hauptmann' Palastina — reise — Bericht; Sachakten II 112' 26E 26E 3.

تحت عنوان:

Bericht uber Palastinareise von SS — Hptscharf. Eichmann und STE Oscharf. Hagen. (4. November 1937).

لليهود يجب ان يكون عن طريق الصهيونية ، لام المهاجرين اليهود يؤسسون مركز مقاومة لهم في اي بقعة يتجهون اليها ماعدا فلسطين ويؤثرون بالتالي اعلاميا وسياسيا واقتصاديا على الحكومة الالمانية «في اي بقعة من بقاع العالم اكثر مما لو ارسلوا الى فلسطين»(١٤)

مقابل ذلك رفضت الحركة الصهيونية اتخاذ اجراء ضد الحكومة النازية والتي كانت آنذاك في قمة نشاطها لذبح اليهود ومطاردتهم . وقد جاء ذلك رسميا بعد انتهاء المؤتمر الصهيوني الثامن عشر والذي عقد في براغ بتاريخ ٢١ اغسطس / آب ١٩٣٣ حين اعلن المؤتمر ان الاصوات اليهودية التي تطالب بمقاطعة المانيا ليست صهيونية وليس لها اية علاقة مع الصهيونية(١٥) بقيت هذه العلاقة المتميزة للحركة الصهيونية مع حكام المانيا من النازيين تتطور سنة بعد اخرى حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية حين فرضت بريطانيا حصارا حديديا على مراقبتهم للحركات الصهيونية محجمة بذلك هذه العلاقة ، خاصة بعد ان اعلنت بريطانيا عن سياستها في كتابها الابيض لعام ١٩٣٩ والذي اصدرته بعد فشل المفاوضات في مؤتمر الدائرة المستديرة بلندن في مطلع ذلك العام ، وانهت في ١٢ سبتمبر/ ايلول ١٩٣٩ معاهدة الهافارا حين استولت على رقم حسابها في بنك هانوتيا بتل ابيب تنفيذا لاحكام القانون العسكري الذي ينص بالاستيلاء على املاك العدو(١٦) .

(Custodiaship of Enemy Property).

خلال الحرب العالمية الثانية لم تقطع اواصل العلاقة بين الحركة الصهيونية وحكومة المانيا النازية وان عادت خطوات كبيرة الى الخلف وذلك امر بديهي ، فتطور الاوضاع العالمية كان العامل الحاسم الذي وقف امام نمو وتطور هذه الحركة بشكل متقدم .

ويؤكد استمرار هذه العلاقة ذلك الاتفاق الذي تم الوصول اليه بين الدكتور رودولف كستنر DR. R. Kasstner في بودابست كممثل عن الحركة الصهيونية ، ورودولف ايخمان R. Eichmann السابق الذكر ، على تحرير اليهود من المعتقلات النازية هناك شريطة ان يرسلوا الى فلسطين(١٧) .

يتضح مما سبق ان التعاون الصهيوني النازي والذي ابتدأ في مطلع الثلاثينات وخاصة ، منذ استلام النازي زمام الحكم في المانيا ، وقد تطور فيما بعد ، ووصل الى ابعاد خطيرة متآمرة على حياة اليهود ، بالقدر الذي سمح بتطوره نازيوا المانيا .

فالرغبة النازية الصهيونية المشتركة في جعل يهود المانيا غرباء عن موطنهم الالماني وجهت لتكون الدينامو المحرك ، بل النواة الاساسية التي شكلت نجاح البرنامج الصهيوني في جعل فلسطين مستودع بشري لليهود من اجل الاستيلاء عليها .

ان هذه السياسة التي اتجهت في بدايتها ضد انصار اليهود في المجتمعات الاوربية عامة والالمانية خاصة قد نمت وترعرعت واثمرت من وجهة نظر الحركتين الصهيونية والنازية ، بل وامتدت لتطال وبالتصفية الجسدية كل اولئك الذين لم يتفقوا معها من يهود المانيا قبل الحرب العالمية الثانية . وشملت كل الاراضي الاوروبية التي احتلها النازي الالماني خلال الحرب العالمية الثانية .

من الواضح اذا ، ان الصهاينة هم الوحيدين في هذا العالم ، الذين استثمروا عدوانية النازي ضد اليهود بين اعوام ١٩٣٣-١٩٤٥ ، بل من عدوانية ضد البشرية جمعاء ، حين بقوا الوحيدين على الساحة الدولية والذين تاجروا وبشكل منظم بحياة الملايين من ابرياء اليهود ليقنعوا ديمقراطيات الغرب بعدالة قضيتهم ، والتي اثمرت مثلا باجبار بريطانيا على التخلي عن سياسة الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ في نهاية الحرب العالمية الثانية .

لم تكتف الحركة الصهيونية وحتى بعيد نهاية الحرب العالمية الثانية وقيام الدولة الصهيونية في ١٥ ايار عام ١٩٤٨ بما تاجرت به من دماء يهودية رفضت الانصياع لبرامجهم بل استمرت تطالب الحكومة الالمانية بعد الحرب العالمية الثانية بدماء ضحايا جرائمها بالاشتراك مع النازي ضد اليهود .

وهكذا هرولت حكومة المانيا الاتحادية تلبي مطالب الصهيونية . وابتدأت المباحثات بين الحكومة الصهيونية والالمانية في مطلع الخمسينات من هذا القرن تحت شعار «التعويض من اجل ازالة الضرر» Wiedergutmachung والتي انتهت بالاتفاق شريطة ان تعوض المانيا لاسرائيل عما لحق باليهود من ضرر خلال عهد الرايخ الالماني الثالث . اما نوعية التعويض فلم تكن فقط ما يقارب ٧٥ مليار دولار ، وانما اتخذت شكل بناء المشاريع الصناعية والمرافق الاقتصادية .

في مطلع الخمسينات التزمت المانيا الاتحادية بدفع ٣ مليارات دولار كدفعة اولى لاسرائيل ، كان ثلث هذه القيمة عن طريق امداد

(١٤) انظر : وثائق وزارة الخارجية الالمانية المنشورة :
Akten zur deutschen Auswärtiqenpolitik' Bd. V. s. 660.

(١٥) انظر : Yahya' Ebd. ' s. 22 – 23

(١٦) انظر : Fleischenfeld' Ebd. ' 72

(١٧) انظر : Biss' andress : Der Stopp der Endlosunq' s. 195

اسرائيل بالبترول والباقي على شكل اقامة مشاريع صناعية في اسرائيل[١٨] .

ومن وسائل هذا الدعم الالماني كان على سبيل المثال بناء انفاق واسعة جدا بطول ٢٨٠ لايصال المياه الى صحراء النقب واهدائها ٥٩ سفينة ، منها ٤١ سفينة نقل بضائع ، ٤ سفن لنقل البترول ، ٨ لصيد الاسماك ، ٢ زوارق سريعة لمكافحة التهريب واربع سفن سياحية لنقل الركاب اضافة الى الاف الاطنان من المواد الخام[١٩] .

اما من وجهة النظر السياسية فقد مكن هذا الدعم المادي اسرائيل من اتخاذ مواقف متطرفة في ابتلاع الاراضي الفلسطينية والعربية ، ووصلت قمة هذا التطرف في : رفض اسرائيل – التي قامت بموجب قرار من الامم المتحدة ذاتها – الالتزام بقرار هذه الهيئة الدولية التي اعطت قيامها الشرعية والسماح للاجئين الفلسطينيين من العودة الى بلدهم بعد عام ١٩٤٨ ، الهجوم على غزة في فبراير / شباط ١٩٥٥ ، المشاركة في الهجوم على قناة السويس عام ١٩٥٦ اضافة الى احتلال الضفة الغربية وسيناء والجولان عام ١٩٦٧ وكان اخر محصلة لها احتلال جنوب لبنان عام ١٩٨٢ .

وحين حاول العرب التصدي لهذا الدعم اللامحدود لاسرائيل من قبل حكومة المانية الاتحادية ، وقف كونراد اديناور Konrad Adenauer أول/رئيس لحكومة المانيا الاتحادية بعد الحرب العالمية الثانية مبررا هذا الدعم حين قال : «ان الاتفاقية مع اسرائيل ليست مجردا اتفاقية بين دولتين . انها تحكمنا من خلال واجبنا الاخلاقي ان جمهورية المانيا الاتحادية تصر في حدود امكانياتها التعويض عما لحق باليهود من اذى خلال العهد النازي . انه سيكون من المخجل اذا اهتز قرارنا هذا بدعم اسرائيل ، فقط لان في ذلك تهديد لالحاق اضرار اقتصادية بنا (من قبل العرب ن.ع) فهناك اشياء اسمى من عقد الصفقات المربحة»[٢٠] .

اما ضحايا هذا الدعم من العرب فقد تناساهم كونراد اديناور Konrad Adenauer وقادة اسرائيل من الصهاينة بالضبط كما تناسى هتلر والحركة الصهيونية ذبح اليهود الالمان انذاك .

وهكذا استفادت اسرائيل وتستفيد من العهد النازي رغم اندثاره قبل ثمانية وثلاثين عاما .

---

(١٨) انظر : Kenneth M. Lewan : Die undesrepublik und Israel' s. 2–3.

(١٩) نفس المصدر السابق ص ٤ .

(٢٠) انظر مذكرات : Adenauer' Konrad : Erinnerungen 1953 – 1955' 1960' s. 155.

حالة السودان الاجتماعية والسياسية من ١٩٢٥ - ١٩٣٦

الدكتور احمد ابراهيم دياب
قسم البحوث والدراسات التاريخية
معهد البحوث والدراسات العربية

كانت قمة الاحداث السياسية والعسكرية التي بدأت في الخرطوم في نوفمبر ١٩٢٤، اغتيال استاك حاكم عام السودان وسردار الجيش المصري في نوفمبر ١٩٢٤ في القاهرة على يد بعض الفدائيين المصريين. وقد أتاح اغتيال السردار ستاك الفرصة المتفاة للعسكرية البريطانية في وادي النيل شماله وجنوبه، فقد كان لها بمثابة حادث سراجيفو بالنسبة للعسكرية البروسية في عام ١٩١٤. فكشف الاستعمار البريطاني عن انيابه واستسلمت له القيادة الوطنية في كل من مصر والسودان. وهكذا انهارت حركة ١٩٢٤ في السودان واعتقل من زعمائها من بقي على قيد الحياة، ومن لم يتمكن منهم من الفرار او الهجرة الى مصر، وقدم للمحاكمة وحكم على اربعة منهم بالاعدام رميا بالرصاص ونفذ الحكم في ثلاثة منهم اما الاخرون فحكم عليهم بالسجن مددا طويلة.

ومن الناحية السياسية كانت ردود فعل الادارة البريطانية في السودان لحركة ١٩٢٤ مختلفة، فقد نقضت عهدها الذي قطعته للزعامات الصورية في ساعة شدة الاحداث، ووضعت على الرف مشروع الحكومة المحلية والمجلس الاستشاري وكذلك عملت على تخفيف نفوذ مصر في السودان وان كانت العلاقات لم تقطع رسميا بين البلدين. كما أمر الحاكم العام الجديد سير جون مافي (John Maii) بالاندفاع في سياسة قبلية واسعة النطاق والاسراع في فصل اقاليم السودان الشمالية عن المديريات الجنوبية والاستعانة بصورة خاصة في هذا الشأن بالارساليات المسيحية (١).

وفي الجانب الشعبي اختفى من ميدان النضال قادة الحركة وروائدوا الكفاح، فهاجر بعضهم الى مصر ليجد ان النفوذ البريطاني يسيطر على سياستها بل ويسير شئونها الداخلية كما هو الحال في السودان. وخرج من بقي على قيد الحياة في السودان من سجنه الى مجتمع سوداني جديد، مجتمع مابعد النكسة، فوجده مجتمعا مزيجا من عنصرين احدهما جاهل لتاريخ الحركة الوطنية وحركة ١٩٢٤ والظروف التي لابستها والاخر متنكرا لها (٢).

وادركت الادارة البريطانية في السودان ان البلاد تجتاز فترة من الضعف والانحلال فقررت ان تعجل ببرنامج استعماري وفقا للسياسة التقليدية التي تسير عليها الامبراطورية في البلاد المستعمرة الاخرى قبل ان تضيع الفرصة فنزعت نقاب الحيطة والحذر واندفعت بأقصى مالديها لتنفيذ البرنامج.

وكان المظهر النظري لتلك السياسة في الجهاز الاداري اصدار تشريعات الادارة القبلية. اما مظهرها في التطبيق فكان اضطهاد المتعلمين والتضييق عليهم وتشجيع غير المتعلمين ودفعهم لتقدم الصفوف وتولي القيادة (٣).

وصار موقف الادارة ازاء الطبقة المتعلمة موقفا عدائيا بصورة عامة. ويحفظ الطلاب (٤) الذين ذهبوا الى كلية فردون في الفترة التي تلت سنة ١٩٢٤ ذكريات قاسية عن معلميهم البريطانيين في وقت صارت العصا جزءا مكملا للمعدات التي يحتفظ بها المعلم (٥) ويعطي ادوارد عطية (٦)

(١) مدثر عبد الرحيم: الامبريالية والقومية في السودان (ص ٩٧)

(٢) احمد خير: كفاح جيل (ص ٥٥)

(٣) Hott P. M: Moden Histoyoy the Sudam page 136

(٤) قابلت بعض هؤلاء ومنهم ابراهيم يوسف سليمان والهادي ابو بكر ومحمود الفضلي

(٥) محمد احمد محجوب وعبد الحليم محمد: موت دنيا (ص ٢٦)

(٦) لبناني الأصل تخرج في جامعة اكسفورد بانجلترا وعين مدرسا في الكلية ثم تركها للعمل في مكتب المخابرات حيث كان يعمل عمه صمويل عطية.

انطباعته عن كلية فردون في تلك الايام فيروى في مؤلفه كيف مارس المدرسون البريطانيون نوعا من السلطة العسكرية وضبطهم للسلوك كانت تفوح منه بقوة رائحة الثكنات العسكرية . فقد كانت كلية فردون معهدا عسكريا لا معهدا انسانيا . كانت مدرسة حكومية في بلد حكومته اجنبية استعمارية . وكان المدرسون اعضاء في الخدمة السياسية ، وكان وجودهم في الكلية بصفة مزدوجة صفة المدرسين وصفة الحكام . وكانت الصفة الثانية تطغى على الاولى ، وكذلك كان ينتظر من الطلاب ان يظهروا والهم لا الاحترام العادى الواجب على الطلاب نحو معلمهم بل الخضوع المطلوب من التابع ، وذلك لان المعلم ذاته قد يصير يوما حاكما لمنطقة فيحكم طلابه القدامى ويتحكم في ابائهم[٧] .

تعاونت جميع هذه الظروف فخلقت في نفوس انصار الحركة الوطنية رد فعل مميت ، كما خلقت بين بعضهم البعض كثيرا من سوء الظن وفقدان الثقة وطغت على البلاد .موجة كثيفة من الكبت والاضطهاد لاحقت جميع الافراد والطبقات ونشأت بين طبقة الموظفين منافسة وتسابق لارضاء حكامهم الانجليز بعد أن رأوا – ماناله مناصروا الاستعمار ابان حركة ١٩٢٤ وبعد انتكاستها حين اغدقت الامبراطورية على هؤلاء رتب فارس والقاب سير مع عدد وفير من الاوسمة والنياشين في سنة ١٩٢٦ .

امتدت فترة الانحلال والضعف هذه مدة من العسير تحديدها على وجه التحقيق في جميع انحاء السودان لانها قد طالت في القرى والمدن النائية بقدر ماقصرت في المدن الكبيرة . واخذ المثقفون بعدها يفيقون شيئا فشيئا في صحراء مجهولة ، يلتفتون حولهم ويتسائلون عما الم بهم وبوطنهم ثم جعلوا يراجعون حساب احداث حركة ١٩٢٤ السياسية والعسكرية .

كان الاجماع بين المثقفين منعقدا ، كما يقول احمد خير في كتابه ، على أن اشد ماالحق بالحركة من اضرار راجع الى نقص الوعي واليقظة بين افراد الشعب من جهة وعجز القادة في مصر والسودان على السواء عن ان ينتزعوا شعاراتهم من صميم الحياة التي يعيش فيها الشعب لتتضح الاهداف وتستبين الاغراض التي من اجلها يهب الشعب لنصرتهم وتأييدهم . فقد اتضح أن شعار حركة ١٩٢٤ «لتحيا مصر» لغز يتعذر مدلوله ، فيفسره البعض تفسيرا دينيا لان مصر ورثت في نظرهم زعامة الاسلام بعد تركيا ويرجعه البعض الاخر الى ماقبل المهدية[٨] ، ويكفي لقبوله عند فريق ثالث ان الشعار «المغيظ» للادارة البريطانية في السودان[٩] .

(٧) Atiyia E: AN Aab tells his page 138

(٨) احمد خير: كفاح جيل (٥٦)

(٩) احمد خير: كفاح جيل (٥٧)

كما ان اى حركة وطنية يراد لها النجاح يجب ان تستند الى تأييد شعبي ساحق .

ويتطلب هذا وعيا سياسيا قويا عند الجماهير ، كما يتطلب عند القادة الماما تاما بالتطورات السياسية في العالم وبتاريخ الحركات الشعبية الاخرى . فلا بد اذن من استزادة المحصول العلمي بالجهد الشخصي وفهم احوال المجتمع السوداني فهما علميا ، كما لابد ايضا من تنوير افراد الشعب وتنبيههم الى حقوقهم على الدولة وواجباتهم لها ، واخيرا لابد من قيام الارتباط بين الجيل القديم والجيل الجديد .

ولما وجد الوطنيون انفسهم تحت رحمة ادارة قوية ومعادية لهم رأوا انه من الملائم ان يتجنبوا الظهور في ذلك الحين . فان الضغط الذي فرضته عليهم الادارة البريطانية كان يتطلب نوعا من التمويه في الكفاح . وبما ان العمل السياسي والعسكري المنظم لم يكن له مجال حينئذ فقد كان لابد من ان يسلك الكفاح مسلكا اجتماعيا وادبيا ولذلك فان النوع الغالب للتعبير الادبي في الفترة التي جاءت مباشرة بعد سنة ١٩٢٤ اتخذ اتجاه القصائد والاغاني الوطنية المجهولة المصدر[١٠] التي كثيرا ما كانت تحتوي على تلميحات الى مصر المحبوبة التي ابعدت ، غير انها كانت تنطوي على التعبير عن عواطف اكثر رجولة وعنفا . وقد كان اكثر واضعي تلك الاغاني شهرة كما عرف فيما بعد المرحوم عبيد عبد النور المدرس بكلية فردون انذاك . وكان اكثر المطربين شعبية في تلك الايام خليل فرح الذي اعتبر المنشد الاول للاغاني الوطنية[١١] .

وظل مكتب المخابرات منذ ١٩٢٤ رقيبا على تحركات المثقفين واعمال الزعماء – الدينيين في مواجهة محاولات الانجليز لكي تكون كفة السلطة القبلية موازية لاولئك المثقفين والزعماء . وذلك لان اعضاء مكتب المخابرات كانوا قلقين لاحتمال تحالف السيد عبد الرحمن المهدي مع المثقفين الوطنيين من ناحية رغم تحالفه مع السلطات القبلية من المشايخ والعمد وزعماء القبائل[١٢] .

وقد بدأ السيد عبد الرحمن المهدى امام الادارة البريطانية كخطر ماثل مفاجئ لربط حركة المتعلمين الضعيفة الحول والحيطة – بمفردها – بمشاعر واحاسيس ابناء الريف والبادية . وقد القت صفوة المتعلمين بزمام قيادتها واتجاهها في يد السيد عبد الرحمن المهدي ووضعت امالها فيه لتحقيق استقلال السودان .

وفي هذه الفترة كانت تدور رحى معركة خفية ولكنها بالغة الحدة

(١٠) جمع خسم لجيلة عددا مت تلك الاغاني في كتابه ملامح من المجتمع السوداني مثل ماهو عارف قدم المفارق ياعط امل السلام

(١١) ومدثر عبد الرحيم : الامبريالية والقومية في السودان ص ٩٦

(١٢) جعفر محمد علي بخيت : الادارة البريطانية (ص ٩٩ الحركة الوطنية)

والضعف بين الادارة البريطانية في السودان من جهة وبين الجيل الجديد من جهة اخرى ، فقد كانت الادارة البريطانية تعمل على اثارة النعرة القبلية ويصف جيمس كوري مدير المعارف انذاك الطريقة التي اتبعت لجمع شتات القبائل بقوله «بعد الاحداث التي انتهت بمقتل سيرلي ستاك ، خافت الادارة البريطانية المحلية من عدم ولاء الطبقة السودانية المتعلمة لها ، فصار من المناظر المألوفة مشاهدة صغار الاداريين البريطانيين وهم يبحثون عن قبائل لا وجود لها ومشايخ وزعماء انتهى امرهم منذ امد بعيد ، محاولين أن يعيدوا نظاما اجتماعيا اندثر للابد[١٣] وهكذا اعيدت العنصرية القبلية من جديد ووضعت لها سياسة خاصة سارت عليها . فقد تبلورت تلك السياسة في لائحة سلطات المشايخ لسنة ١٩٢٧ الذي وضع خصيصا لزيادة السلطات الممنوحة لزعماء ورؤساء القبائل[١٤] .

وعلى اساس القبلية صدرت خرائط التقسيم الاداري وصار التعصب للقبلية والتمسك بها مفتاح النجاح وسلم الترقي في دوائر الخدمة المدنية . وعلى العكس فان الحديث عن جنسية سودانية واغفال القبلية ومحاربتها اعتبر اتجاها معاديا ومتعارضا مع سياسة الادارة البريطانية ويستوجب اللوم وفي بعض الاحيان العقوبة والجزاء .

غير ان الادارة البريطانية وصناعها لم يستطيعوا الوقوف طويلا للنضال امام قوانين التطور الاجتماعي السليم التي تعاونت وتكاتفت وصمدت للاستعمار والرجعية السودانية حتى انتصرت عليها ، وقد ساهمت في هذا الكفاح عوامل مختلفة : اولها الحركة الصناعية في خزان سنار والجزيرة وثانيها ارتباط القطر كله عن طريق السيارات وعامل ثالث ساهم به الفنانون السودانيون وهو غنائهم للوطنية السودانية .

وهكذا انتصرت حركة المقاومة السرية لتأييد الوطنية السودانية على سياسة الادارة البريطانية . وبعث ذلك الانتصار الخفي روح الثقة بين افراد الطبقة المثقفة وجعلها تفكر في السير الى الامام ، مما ادى الى نشوء الجمعيات الادبية والمدارس الفكرية السرية منذ سنة ١٩٢٩ ، حين بدأت تتلمس احسن الوسائل بنشاط وطني[١٥] وقد اورد مكتب المخابرات في تقرير من تقاريره عن تلك الفترة باسم التاريخ السياسي السوداني من ١٩٢٤ الى ١٩٣١ عبارة هامة مؤداها بأن المتعلمين . . . وان ثبت انه يمكن ان يكون من اعظم الفئات خطورة في المستقبل ، الا انهم ليسوا – على أي حال – القوة الحقيقية في البلاد . ذلك انهم ربما كانوا يمثلون أقل من ١٪ من السكان وليس لهم – فيما عدا فئة ضئيلة تنتمي عادة الى الزعماء الدينيين – نفوذ خارج المدن .

(١٣) Holt: Ibid page 136

(١٤) Holt: Ibid page 136

(١٥) خضر حمد مذكراته غير منشورة ص ٣٧

وربما بنى مكتب المخابرات رأيه على اساس ان الخريجين في العاصمة انصرفوا الى قراءة الادب العربي عامة ورواية الشعر بصفة خاصة والمنافسات – الداخلية للجان اندية الخريجين والمناقشة بين الاعضاء واخذ التنافس بين الزعماء منهم والتعصب لهم .

الا ان فكرة مكتب المخابرات نحو الخريجين قد تغيرت بعد ذلك فظهر هذا التغيير في قولها «ليس هنالك شك في ان الشباب المتعلمين شديدو – الاعجاب بغاندي ، وانهم عندما كانت الحركة في الهند في اعلى ذروتها كانوا يتتبعون الاخبار باهتمام عظيم ، ويبحثون في اجتماعاتهم الخاصة كفاءة سلاح المقاطعة وقد اتفقوا على ان غاندي قد اكتشف في ذلك السلاح الوحيد الذي يستطيع الشرق الفقير الجاهل استخدامه بطريقة فعالة ضد الاستعمار[١٦] .

وفي سنة ١٩٢٩ اصبحت الادارة البريطانية في السودان في موقف يسمح لها تماما بأطلاق سراح معظم زعماء وقادة حركة ١٩٢٤ . الذين سجنوا في ١٩٢٤[١٧] . وسافر عدد منهم للقاهرة بعد اطلاق سراحهم ولكنهم صدموا من عدم مبالاة الاحزاب المصرية فقادوا السودان بقلوب كبيرة ملؤها الكراهية لمصر مثل صالح عبد القادر وعرفات محمد عبد الله فاغتنمت الادارة البريطانية الفرصة واحتضنتهم .

وفي هذه الفترة ٢٤ – ١٩٣١ لم تكن بالسودان صحافة حرة انما كانت هناك جريدة «حضارة السودان» التي شجعت على قيامها ادارة السودان ومنحت امتيازها الى الزعماء الثلاثة . الميرغني والمهدى والهندى . وصدرت كجريدة شبه رسمية وهي وان كانت قد سمحت بنشر بعض المقالات الا انها لم تكن تعبر فيها عن رأي الشعب ولا تهتم الا بما تريده الادارة البريطانية فكانها صوت الادارة البريطانية في السودان تدافع عن سياستها وتحمي ظهرها من اى هجوم خارجي وفي نفس الوقت توهم العالم ان بالسودان صحافة . ورئيس تحريرها تختاره الادارة ممن تثق بهم او على الاقل ممن تطمئن اليهم وتعتقد انهم لايثيرون عليها المشاكل او يفسحون صدر الجريدة لمشاغب او ثائر .

ولذلك لم يكن لجريدة حضارة السودان اثر محسوس . الا ان الصحف التي ظهرت بعد ذلك مثل مجلتي النهضة والفجر وصحيفتي النيل والسودان كانت اكثر جرأة من صحافة الادارة . في سنة ١٩٣١ اصدر المرحوم محمد عباس ابو الريش مجلة النهضة السودانية التي سلكت مسلكا ادبيا خالصا[١٨] والادب دائما هو الشرارة وهو الوسيلة لنشر الوعي والمعرفة .

(١٦) ملف الامن ١/١/٧ : تاريخ السودان السياسي ١٩٢٤-١٩٣١

(١٧) تقرير المخابرات : ابريل ١٩٢٩ – دار الوثائق الخرطوم

(١٨) خضر حمد / مذكراته (غير منشورة) ص ٣٨

وفي هذه الفترة من فترات الركود السياسي قامت المدرسة الاهلية بامدرمان . ولقد قامت المدرسة عقب اصرار الارسالية الامريكية تعليم ابناء المعلمين الديانة المسيحية وطالبات اولياء امورهم بكتابة اقرار بموفقتهم على تعليم ابناءهم المسيحية او سحبهم من المدارس الارسالية ، فتحمس المواطنون وانشأوا المدرسة الاهلية[١٩] فكان قيامها تحديا صامتا للاستعمار البريطاني .

وفتحت المدرسة في منزل تبرع به احمد حسن عبد المنعم ، ووضع الحجر الاساس للبناء الجديد في سنة ١٩٢٧ . ويقول خضر حمد في مذكراته «ولما التحقت بها عضوا سنة ١٩٣٠ كانت مدرسة وسطى كاملة ذات اربع فصول وعشت فيها[٢٠] .

اما عن وضع السودان واثره في العلاقات المصرية البريطانية في هذه الفترة ، فقد ظلت المفاوضات المصرية البريطانية منذ ١٩٢٤ ابتدأ الا لتنتهي على مشكلة السودان . وظلت الحكومات الوفدية تتعاقب وتبعد عن الحكم لكى تحل محلها وزارات مماثلة للحكومات البريطانية المتعاقبة . غير ان الوطنيين المصرين لم يفعلوا الا قليلا لحلفائهم السودانيين الذين صاروا اكثر نفورا[٢١] . وخلافا لما حدث من المثقفين السودانيين عام ١٩٢٤ ، لاذ الخريجون بالصمت خلال المفاوضات المصرية البريطانية اللاحقة لانه لم يكن هناك تعبير عن رأي واحد بطريقة أو باخرى بل لم تكن هناك محاولة حتى لتنظيم ذلك التعبير ، على حسب تعبير مكتب المخابرات . ذلك لأنه لم تتوفر رعاية منظمة من القاهرة وترك الخريجون للاعتماد على انفسهم وحدهم منذ ١٩٢٤ ففشلوا في تنظيم انفسهم ولم تكن لديهم قيادة موحدة وظلوا قلقين مترددين من جراء بطش السياسة البريطانية وخيبة الامل التي اصابتهم من جراء فشل حركة ١٩٢٤[٢٢] .

اضراب طلبة كلية غردون في ١٩٣١ :

منذ سنة ١٩٢٩ أصبحت الازمة الاقتصادية العالمية ممكنة بخانق المصدر الاول للدخول في السودان الناتج عن بيع القطن واضحى مشروع الجزيرة الذي كان منجما للذهب الابيض في سنة ١٩٢٨ مصدرا للخسارة ، ومن ثم توقفت جميع التطورات في البلاد وفي نهاية عام ١٩٣٠ تطور الميزان التجاري في غير صالح السودان فانخفض من ١/٢ ٩ مليون في ١٩٢٩ الى ١/٢ ٥ مليون جنيه . وكان لابد من الاستغناء عن خدمات بعض الموظفين حسب رأي الادارة البريطانية لخفض المصروفات فقررت فصل الف موظف[٢٣] . وعلى ذلك وقع عبئ الازمة الاقتصادية على رجال الخدمة المدنية من السودانيين والمصرين والسوريين . وقد خفضت مرتبات جميع الموظفين ماعدا الانجليز وعانى الموظفون المصريون والسوريون كثيرا من ذلك بأشد مما عانى السودانيون[٢٤] .

ورغم ذلك اعطت الازمة الاقتصادية الخريجين السودانين سببا كاملا كان بوسعهم تحويله الى حركة اكثر شعبية ولكنهم لم يحسنوا استغلال الفرصة دليلا على الجمود الطويل في تطور التنظيم السياسي والوجدان الوطني .

كما نادوا بتعديل واصلاح النظام التعليمي وفتح اقسام للتجارة والقانون والزراعة والبيطرة والعلوم في كلية غردون[٢٥]

لقد كانت هذه العريضة التي كتبت بكل حذر اول عمل منظم من جانب الخريجين ، وقد اظهرت وجهة نظر المعتدلين ورغبتهم في كسب جانب الادارة البريطانية التي لم تكن مستعدة للنظر في مطالبهم كما لم تكن مستعدة في المقام الاول في الاعتراف بحق الخريجين في الحديث نيابة عن الموظفين وثانيا انها لم ترض بالمقترحات عن كيفية حل المشكلة الاقتصادية لان القروض في نظرها لايمكن ان تؤجل[٢٦] .

ومهما يكن من امر فقد نظم طلبة غردون صفوفهم بقيادة مكى المنا تنظيما دقيقا وقرروا الاضراب وفي اليوم المحدد للاضراب وهو صباح السبت ٢٤ اكتوبر ١٩٣١ ذهب الطلاب الى حجرات الدراسة كالمعتاد في اتم نظام وتلقوا دروسهم حتى قبيل الساعة العاشرة في جد واهتمام مما اذهل الاساتذة السودانيين «الذين كانوا يعرفون موعد اضرابنا فما كانوا منتظرين منا ان نقبل على دروسنا كأحسن مايكون الاقبال»[٢٧] وقول مكى المنا هذا يؤكد بأن الطلبة قبل الاضراب كانوا على صلة وثيقة بمعلميهم السوادنيين الذين عادوا من بيروت كما يقول ازهرى «يحملون الى السودان افكارا جديدة في الحياة من وراء الحدود وخبرة جديدة عن الحياة الجامعية[٢٨] ومن هؤلاء الاساتذة عبيد عبد النور وعبد الفتاح

(١٩) خضر حمد : مذكراته ص ٦٧

(٢٠) احمد خير كفاح جيل ص ٦١ وخضر حمد : مذكراته ص ٦٤

(٢١) جعفر محمد علي بخيت : الحركة الوطنية للادارة البريطانية ص ٢٢٣

(٢٢) ملف الامن ١/٩/٧ تاريخ السودان السياسي (Political Mistory of the sudan) ٢٤-١٩٣٢ - دار الوثائق المركزية الخرطوم

(٢٣) ملف الامن ١/١/٧ دار الوثائق المركزية - الخرطوم

(٢٤) جعفر محمد علي بخيت : الحركة الوطنية والادارة البريطانية ص ٢٢٧

(٢٥) العريضة منشورة في ملحق كتاب محمد عمر بشير Revolution & nationalism

(٢٦) Bashiv, M, O: Revolution and Nationalism in the Sudan page 115

(٢٧) مكى المنا : مقالة له في جريدة الرأي العام عدد ٣١ مايو ١٩٥٦ ص ١٥

(٢٨) مذكرات ازهرى : الحلقة ١٦ - جريدة الايام في ١٩٥٧/٦/٢٠

المغربي ومحمد عثمان ميرغني ومحجوب الضوي واسماعيل الازهري الذين كانوا «يعملون لتوجيه الطلبة وجهة وطنية جديدة ويبثون فيهم روح الحماسة للعمل العام . وكان يقابلنا فريق اخر يناهض ما اتينا به من بيروت . وكان هذا الفريق يقاوم نزعتنا التحررية ويتألف من الاساتذة الانجليز يؤيدهم ويسايرهم في سياستهم عبد الرحمن علي طه الذي كان حينذاك مدرسا بالكلية معنا»[٢٩] .

ويقول تقرير المخابرات أن فكرة الاضراب قد تم مناقشتها بواسطة مجموعة من الخريجين لم تكن راضية عن مسلك الادارة البريطانية تجاه عريضة الموظفين ، وهم خضر حمد وعبد الله ميرغني وعثمان حسن عثمان ومكاوى سليمان وعبد الرحمن النور وميرغني حمزة ومحمد ابراهيم النور وكلهم من مدرسة ابوروف ، مع عدد من طلبة السنة النهائية في الكلية في الاجازة الصيفية[٣٠] على رأسهم مكي المنا . ومحمد عبد الكريم وصديق المهدى ويوسف بدرى وحسن محجوب وعبد الرحمن ابو القاسم فكان معظمهم من ابناء عائلات الانصار[٣١] .

وما كاد يؤذن الوقت المحدد للاضراب وهو الساعة العاشرة من صباح السبت ٢٤ اكتوبر ١٩٣١ ومن غير مقدمات اقفل طالب درج ادواته وترك هو وزملائه فصولهم في هدوء وصرامة وقوة وعزم وذهبوا الى اماكن اقامتهم في الداخليات من غير أن ينبوا ببنت شفة . وما أن وصلوا الى هناك حتى اجتمعوا وقرروا انتخاب لجنة شئونهم وتفاوض عنهم فكونوها من ستين عضوا من وجهات النظر المختلفة[٣٢] كما اقسم الطلاب على المصحف الا يواصلوا دراستهم حتى تغير الادارة البريطانية قرارها الخاص بتخفيض مرتب الخريج .

لقد كان لجدة الحادث من جهة واتصاله بالازمة الاقتصادية موضوع الساعة ، من جهة اخرى اثر عنيف زاد من اهتمام الرأي العام بالقضية فأنضم على الفور الى جانب الطلبة ، واعتبر قرار التخفيض تعسفا لاتقره العدالة ولا مبرر ولا موجب له ، ولاسيما وأن الوفر الناتج عن ذلك الاجراء لايبلغ بضع جنيهات في العام يبتلعها مرتب بريطاني واحد[٣٣] .

كان اضراب طلبة كلية غردون على هذا النحو في حد ذاته ظاهرة غريبة تحدث لاول مرة ولذا كان كما يقول خضر حمد «مثار كثير من الاحاديث في مختلف الاوساط كما كان سببا ليعيد الانجليز النظر في

(٢٩) مذكرات ازهرى : الحلقة ١٦ – جريدة الايام في ١٩٥٧/٦/٢٠

(٣٠) تقرير عن اضراب كلية غردون بتاريخ ٣١/١٢/٣٠ رقم ٢٠/١ المديرية الشمالية دار الوثائق المركزية الخرطوم

(٣١) المرجع السابق (التقرير)

(٣٢) مكي المنا : مقالة في جريدة الرأي العام عدد ٣١ مارس ١٩٥٦ ص ١٥

(٣٣) احمد خير : كفاح جيل ص ٦٧

سياستهم التي كانوا يسلكونها مع السودانين عامة[٣٤] وقد فوجئ الانجليز – مع حذرهم الشديد وايديهم الكثيرة واذنابهم المنتشرة في كل مكان – فوجئوا بهذا الاضراب وعجبوا كيف دبر وتم دون ان يكون لهم علم به قبل حدوثه»[٣٥] .

واستعانت الحكومة بكل من ظنت انه يستطيع ان يثني الطلبة عن اضرابهم واعتصامهم ولكن مساعيها باءت بالفشل الذريع[٣٦] . وعندما تعقدت الامور واقسم الطلبة على الاستمرار في الاضراب تتابعت وفود الاساتذة والخريجين الذين كانوا يعطفون على القضية وكانوا يشفقون على الطلبة وعلى الكلية من ان يعصف بها مكايكل في ثورة غضبه وذهوله . لقد استخدم مكايكل وسائل السياسي الداهية ليجر الطلبة الى اتخاذ خطوة ايجابية تمكنه من التنكيل بهم .[٣٧] وزار السيد عبد الرحمن المهدى الطلبة وهم بداخلياتهم فكان بصحبة فريق من كبار الخريجين يقودهم محمد علي شوقي وصغارهم يقودهم محمد احمد جاءوا ليثنوا الطلبة عن الاضراب .[٣٨] ولكن تدخل السيد عبد الرحمن المهدى لم يزحزح الطلبة عن موقفهم قيد انملة لان الطلبة لم يكونوا يريدون أن يوجههم كبار المواطنين لانهم كانوا كما ذكر مكي المنا يرغبون في مواجهة الحكومة ليقولوا لها قولا لم تسمعه في تاريخ استعمارها الطويل العريض ، ولكن الحكومة اثرت العاقبة واستترت وراء هذا النصر الكريم من كبار المواطنين ليعيدوا لها الطلبة في ذلة وانكسار[٣٩] .

ويرجع ازهرى تدخل السيد عبد الرحمن المهدى ليثني الطلبة عن مواصلة الاضراب – لوجود ابنه الصديق بين الطلبة المضربين وقد كان حينذاك في السنة الرابعة[٤٠] . وبينما اعتبره احمد خير من جمهرة الانتهازيين حين قال «لاحت للانتهازيين فرصة التدخل» .

وتتابعت الوفود تنصح الطلبة بالعودة الى دروسهم ريثما يصلون مع الحكومة الى قرار عادل ، واخيرا وفد على الطلبة السيد عبد الرحمن المهدى[٤١] ورفض الطلبة ان يلتفتوا اليهم ولم يتزحزحوا عن موقفهم وطالبوا جميع الوسطاء ، دون استثناء ، أن ينظروا الى المسألة من زاوية وطنية ، وان ينتصروا كلما نشب خلاف بين السودان و الحكومة الى

(٣٤) مذكرات خضر حمد : غير المنشورة ص ٣٢

(٣٥) مذكرات خضر حمد : غير منشورة ص ٣٢

(٣٦) سير هرولد مكايكل كان يشغل منصب السكرتير الاداري انذاك وقد الف عدد من الكتب عن السودان .

(٣٧) مكي المنا : مقالة في جريدة الرأي العام عدد ٣١ مارس ١٩٥٦ ص ١٥

(٣٨) مذكرات ازهرى – الحلقة ١٦ جريدة الايام ١٩٧٥/٦/٢٠

(٣٩) مكي المنا : مقالة في جريدة الرأي العام عدد ٣١/مارس ١٩٥٦ ص ١٥

(٤٠) مذكرات : ازهرى – الحلقة ١٦ .

(٤١) احمد خير : كفاح جيل ص ٦٧

الاول (٤٢)

وفي نفس الوقت كان فريق من وثيق الصلة بالطلبة منذ البداية يشاركهم الرأي والعاطفة ويزودهم بالمعلومات . فعمل هؤلاء على ان يعقد الخريجون اجتماعا عاما واجتمع الخريجون وكان هذا الاجتماع بعد الاجتماعات للمتعددة التي عقدت لدراسة موضوع الاضراب ومعالجته . وتحول الشعور العام بعد ذلك لان يجتمع الخريجون ويدرسوا الموقف من نواحي مختلفة ويتقدموا للحكومة بمطالب يكون فيها الحل لمشاكل المجتمع المختلفة (٤٣) .

وكان الخوف من فشل الاجتماع هو الذي شغل اذهان صغار الخريجين ، وتم الاجتماع العام وفيه تم انتخاب عشرة من كبار الخريجين ليقابلوا الحاكم العام ويرفعوا اليه مطالب الخريجين او مايدور في اذهانهم من اعمال من حكومتهم (٤٤) . وكان العشرة هم نفس العشرة الذين رفعوا عريضة يوليو ١٩٣١ وسميت اللجنة بلجنة العشرة وتألفت برئاسة الشيخ احمد السيد الفيل (٤٥) . ويقول احمد خير في مؤلفه أن المهمة التي اوكلت للجنة أن تتخذ من الاجراءات ماتراه كفيلا بأنصاف الطلبة (٤٦) . بينا يقول جعفر بخيت في كتابه ان مهمة اللجنة كانت لكتابة وتقديم مذكرة للحكومة (٤٧) .

والاثنان متفقان فأحمد خير يقصد اللجنة الثانية التي كونت بعد الاضراب وجعفر بخيت يقصد اللجنة الاولى التي كونت في يوليو وقدمت مذكرة ٢٠ يوليو اي قبل الاضراب .

واوفدت لجنة العشرة ثلاثة من اعضائها لمقابلة الحاكم العام والاجتماع به . ويرى احمد خير بأن اللجنة بعملها هذا قد سلكت طرقا غامضة ملتوية وانتهت عن طريق الالتماس والاستعطاف لا عن طريق المطالبة بالعدالة والحق الى الحصول على موافقة الحكومة لرفع المرتب . . كما كسبت سخط الرأي العام منها (٤٨) . ويفسر خضر حمد في مذكراته هذه الطرق الملتوية في قوله عن اجتماع مندوبي اللجنة مع الحاكم العام وكيف تردد في مقابلتهم أولاً ثم رضى ان يجتمع بهم في قوله «والحقيقة ان لم يزد على اجتماع واحد سماه الانجليز (مقابلة) قابل وفدنا الحاكم العام في هذه المقابلة ورفعوا له امورا لا اظن انها كانت مدروسة لانها كانت متواضعة جدا . وجاء فيا دون أن – الموفدين طالبوا برفع مستوى الموظفين السودانين وافساح الطريق امامهم للترقية الى وظيفة الباشكاتب كما انهم تحدثوا عن وظيفة قاضي القضاة التي كان يملأها الى ذلك الوقت قاض مصري ، وكان الانجليز يهمهم جدا ان يطالب السودانيون بهذه الوظيفة حتى ينتهوا من اخر وظيفة لمصري في السودان (٤٩) .

وتدل هذه المقابلة التي قامت بها لجنة العشرة أن المتعلمين اضحوا معتدلين في تفكيرهم وانحصروا في الاهتمام بالمصالح المهنية وانه لم تكن لديهم قيادة مبجدة نزاعة الى نقل لهيب الحركة من المدن الى الأقاليم النائية. وأظهر النقاش الذي دار في المقابلة والذي تبعته مذكرة في ١٩ يناير ١٩٣٢ (٥٠) ، إن الوطنية قد تم اخمادها في اقل من عشرة سنوات من جراء التجارب الخانقة لواقع المعترك السياسي . وان الشعلة المضيئة التي اوقدتها جمعية اللواء الابيض كان عليها ان تنتظر مجئ جيل جديد ليعيد اليها بريقها .

وكنتيجة لهذه المقابلة وما دار فيها وما دار بعدها من مذكرة وجه الخريجون اللوم لمن استشيروا من لجنة العشرة وذلك لانهم لم يقوموا اطلاقاً بأخطار الخريجين الذين انتخبوهم بما دار بينهم وبين رجال الادارة (٥١) . وقد سكت الخريجون عن الامر وتركوا لجنة العشرة تموت موتاً طبيعياً او تموت بالاهمال وكانت هذه اول تجربة لعمل عام (٥٢) .

لم تكن محاولة لجنة العشرة محاولة ناجحة لاسباب عديدة منها عدم التجانس بين اعضائها ومنها ان بعض الاعضاء جاء بهم الاجتماع ولم يكن لهم سابق اهتمام بالامر وبعضهم كان من الموالين للحكومة بحيث يبلغها ما يدور في الاجتماعات اولاً بأول (٥٣) وكذلك فقدان الثقة بين الاعضاء مما بث فيهم روح التخاذل والخوف والتردد مما جعلهم يشعرون بأن مهمتهم انتهت بمقابلتهم للحاكم العام الذي اتفق على رفع المرتب الابتدائي للخريج عند تعيينه الى ٦٫٥٠٠ ستة جنيهات ونصف بدلاً من خمسة جنيهات ونصف بشرط الامتناع عن اتخاذ اي اثارة جماعية بعد ذلك ، كما وافق على عدم اتخاذ اي اجراء تأديبي ضد الطلبة .

لفت اجتماع الخريجين وانتخاب لجنة العشرة بالرغم مما انتهى اليه من نتيجة غير مرضية ، نظر كثير من الخريجين الى استخلاص عبرة وتقرير مبدأ ، ذلك ان اجتماعهم وتعاونهم امر سهل ميسور في ذاته ، وانهم بالتعاون سيحققون كثيراً مما يتحدثون عنه ويأملونه وعلى قدر اتحادهم وتآزرهم يكون نجاحهم .

(٤٢) احمد خير : المرجع السابق ص ٦٧
(٤٣) مذكرات خضر حمد غير المنشورة ص ٣٣
(٤٤) المرجع السابق ص ٣٣
(٤٥) مذكرات الزهرى الحلقة ١٦ في ١٩٥٧/٦/٢٠
(٤٦) احمد خير : كفاح جيل ص ٦٨
(٤٧) جعفر بخيت : الحركة الوطنية ص ٢٢٨
(٤٨) احمد خير : كفاح جيل ص ٦٨
(٤٩) خضر حمد : مذكراته ص ٣٣
(٥٠) المذكرة منشورة في كتاب محمد عمر بشير ص ٢٥٦
(٥١) جعفر محمد علي بخيت : الحركة الوطنية ص ٢٢٨
(٥٢) خضر حمد : مذكراته ص ٣٤
(٥٣) خضر حمد : مذكراته (ص ٣٤)

اما طلبة كلية غردون فأنهم وبعد اسبوع من الاضراب حزموا امرهم على ان يعودوا الى اهليهم وديارهم ويقول مكي المنا رئيس لجنة الطلاب «وفي اليوم التاسع والعشرين من نوفمبر بدأنا نودع بعضنا البعض ونرحل عن الخرطوم في نظام تنسيق فوتنا بها اخر فرصة الحكومة في ضربنا مجتمعين[٥٤] . وعندما عاد الطلبة للدراسة فيما بعد لم يتخذ ضدهم اي جزاء تأديبي حسب اتفاق الحاكم العام مع مندوبي لجنة العشرة التي توصلت مع الحاكم العام الى رفع المرتب الى ٦٫٥٠٠ بدلاً من ٥٫٥٠٠ المطلب الذي اضربوا من اجله .

وكان لهذا الاضراب اثره في تغيير سياسة الحكومة تغيراً شاملاً . فقد كانت صلة الود مقطوعة بين الاساتذة الانجليز والطلبة وكان الاساتذة الانجليز عامة والمشرفون على الداخليات منهم خاصة لاتربطهم بالطلبة الا صلة حجرات الدراسة وبعدها مظاهر التحكم والاستبداد ليتدربوا كيف يكونون حكاماً في السودان[٥٥] وعندما حدث الاضراب اشعرهم ذلك بالخطأ الذي كانوا واقعين فيه . وبدأ الانجليز في سلوك سياسة جديدة مع الطلبة خاصة والخريجين عامة وهي سياسة التقرب الى السودانيين في كل المجالات . في صفوف الطلبة بدأوا يخلقون صداقات ويقول خضر حمد واخذ المشرفون على الداخليات في اوقات منتظمة يزورون هذه الداخليات ويختلطون بالطلبة في اوقات الفراغ[٥٦] .

وفي مكاتب الحكومة اوعز الى كبار الموظفين من البريطانيين ان يخلقوا صلات ود وصداقة مع السودانيين ومع الشباب على الخصوص وبدأت حفلات الشاي تعقب لعب التنس[٥٧] . وكان الهدف من كل هذه اللقاءات والحفلات هو ان يكسب البريطانيون ود الخريجين في الاعتبار الاول .

ومن نتائج اضراب طلبة الكلية وفشل لجنة العشرة في مهمتها امام الخريجين ان نكسب الخريجون بحركة انقسام شديدة فقد انقسم اعضاء نادي الخريجين الى فريقين احدهما من مؤيدي الشيخ احمد السيد الفيل رئيس العشرة ومن اصدقاء السيد علي الميرغني والفريق الاخر من مؤيدي محمد علي شوقي الذي ينتمي الى طائفة الانصار ومن اصدقاء السيد عبد الرحمن المهدي .

النقسام الاول بين الخريجين :

لم يقم الخلاف بين الخريجين على مبدأ ، وان الاسس التي قام عليها لاتمت الى المصلحة العامة في شئ ، بل على شخص الرئيس حين انتحل كل فريق من

(٥٤) Atiyia: Ibid page 140
(٥٥) خضر حمد مذكراته (ص ٣٢) .
(٥٦) خضر حمد : مذكراته (ص ٣٢).
(٥٧) مذكرات خضر حمد ص ٣٢ .

الفريقين من اسم الرئيس لقباً ونعتاً فسمي انصار محمد علي شوقي «شوقت» او «شوقين» Shawgist وكان معه من كبار الخريجين محمد صالح الشنقيطي وابراهيم احمد ومحمد الخليفة شريف وعبد الله خليل وعبد الكريم محمد . وكذلك نسب الذين يؤيدون الشيخ احمد السيد الفيل فاصبحوا «فليست» Feelist او فيلين وكان مع الفيل كل من درديري محمد عثمان ميرغني حمزة ومحمد الحسن دياب وعمر اسحق وعثمان حسن عثمان وخلف الله خالد[٥٨] .

وعندما بدأ الانقسام في عام ١٩٣١ بعد اضراب طلبة الكلية ، كان الفريق المسيطر على النادي هو فريق محمد علي شوقي الذي كان يعتمد في تأييده على السيد عبد الرحمن المهدي ماديا وادبيا وعدديا . ويقول ازهري في ذلك[٥٩] «كان وكيل النادي عند انتخابي سكرتيرا له عام ١٩٣١ السيد محمد علي شوقي[٦٠] . اما الفريق الثاني فقد كان زعماؤه من انصار السيد علي الميرغني لكنه كان يرتكز في القاعدة على جمهرة – الثائرين على القيادة الدينية ، المتطلعين الى فجر جديد ، ولم يكن الانسجام كاملا بين القيادة والقادة لان اتفاق المصالح وحده جمع بينهم[٦١] . وكان هؤلاء الثائرين يتمثلون فيما عرف بالابروفين[٦٢] . وقد كان هدفهم ان يخلقوا حركة جديدة في النادي وذلك بتغير الاوضاع القديمة «وزحزحة اولئك الذين كانوا يسيطرون على النادي سيطرة تامة ولاعوام عديدة . ويقصد خضر بهؤلاء فريق محمد علي شوقي .

وبدأت الحركة بين الفريقين تتسع واخذ الجانبان يجندان الانصار والمؤيدين وكان على رأس المعارضة الشيخ احمد السيد الفيل . وكلما قرب موعد معركة الانتخابات السنوية كلما زاد حماس الجانبين في جمع المؤيدين ، فكر رواد النادي وزاد الحماس له وجذبت تلك الحركة الذين لا شأن لهم بالنادي ، وخرج الحماس والتخريب الى خارج النادي ، بل الى جماهير الشعب واصبح عصبية وطائفية اكثر منه منافسة على لجنة النادي[٦٣] .

وقد استخدمت في المعركة انواع من وسائل الدعاية التي لم تكن من قبل في النادي مثل النشرات الملونة تدعو لهذا او ذلك وكان البريد يحمل الى الخريجين في كل مكان النشرات التي يصدرها الفريقان[٦٤] . ولم يكن الخلاف ذا صلة قريبة او بعيدة بمصلحة الخريجين بل كان يهدف اولا واخيرا لمنفعة زعمائه . وكما يقول ازهري «كان كبار الخريجين في ذلك الوقت يسعون ليكونوا مكان الرعاية والعناية من الحكومة وكان سبيلهم فرض زعامتهم على الخريجين ومكانتهم وذلك كلما كان الواحد منهم بارزا بين صفوف الخريجين وكلما تبوأ احدهم مركزا كبيرا كلما كانت فرصته في كسب عناية الحكومة وتقديرها عظيماً»[٦٥] .

(٥٨) وزارة الاستعلامات / الاحتفال الخمسين لنادي الخريجين – كلمة محمود الفضلي .
(٥٩) كان رئيس النادي بحكم دستوره مدير مصلحة المعارف الانجليزي او من ينوب عنه من الانجليز .
(٦٠) مذكرات ازهري – الحلقة ١٧ جريدة الايام في ٢١ / ٦ / ١٩٧٥ .
(٦١) احمد خير كفاح جيل ص ٧٠ .
(٦٢) مجموعة من الخريجين الشباب الذين يسكنون في حي ابوروف بامدرمان ونسبوا اليه .
(٦٣) مذكرات خضر حمد غير منشورة ص ٤٩ .
(٦٤) مذكرات ازهري الحلقة ١٧ جريدة الايام في ٢١ / ٦ / ١٩٥٧ .
(٦٥) مذكرات ازهري الحلقة ١٧ جريدة الايام في ٢١ / ٦ / ١٩٥٧ .

وجاء اليوم الموعود وكان جانب «الشوقيين» ارجح ففازوا على فريق الشيخ الفيل «الفيليين» ولم يحتمل الفيليون النتيجة فقرروا الانسحاب من النادي كتلة واحدة وكان معهم الابروفيون[٦٦] .

لقد كان هذا الانقسام بداية ظهور الخريجين في صفوف الطائفة[٦٧] ظهورا واضحا فقد صارت الطائفية تعتمد على كبار الخريجين او في الحقيقة على كبار الموظفين وكان كل من السيدين ، علي الميرغني وعبد الرحمن المهدي ، حريصا على ان يجمع حوله عددا من هؤلاء . وكانت الطائفية كل شيء في نظر الادارة البريطانية التي كانت تقوى من شأنها لتحقر او تصغر من شأن الطبقة المتعلمة كما كانت الادارة البريطانية تشجع التنافس والتناصر بين الطائفتين (المهدية والميرغنية) فكانت تبتسم يوما لهذه لتقطب في وجهها غدا لتبتسم في وجه الاخرى .

وكانت ترفع هذه يوما لتثير ذلك ثم تعود لتصاله هذه او لتخلص ذاك وهكذا كان الاستعمار البريطاني يضمن لنفسه الاستقرار فقد شغل الناس بانفسهم عنه .

وكانت الطائفية على اشدها في اوائل الثلاثينات اثناء انقسام الخريجين وخاصة من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٣٦ وكانت ميادينها التي برز فيها الخلاف كثيرا وكان الخلاف لايقوم الا بين طائفتي الختمية والانصار وقد كان مجال الاحتفال بالمولد النبوي هو محك الثاني بعد انقسام نادي الخريجين لهذا التنافس . وكم من الاموال كانت تصرف في الاضاءة وفي الاعلام والزينات وكان كبار رجال الطائفتين يتقدمون هذه الاحتفالات ويبذلون من حماسهم وجهدهم الشيء الكثير ، وكل ذلك لتظهر كل طائفة بمظهر العظمة والفخامة يوم بروز الحاكم العام ميدان المولد في الليلة الاخيرة وحول كل زعيم جماعة يشد بهم ازره ويبرزهم عند الحاجة كما يبرز البضاعة على الواجهة للعرض . وكان في هذه البضائع الانسانية عدد من المتعلمين او في الحقيقة من كبار الموظفين الذين كان التفافهم حول زعيم من هذين الزعيمين شيئا عند الحكومة .

اصبح هؤلاء المتعلمون او الموظفون الكبار حاشية للسادة الميرغني والمهدي وجمهور للطائفية وصبغت هذه الصبغة انتخابات نادي الخريجين حتى قضيت عليه وزهد الخريجون الذين لاينتمون لأيّ من الطائفتين من ناديهم وبدأوا يبتعدون عنه عاما بعد عام ورفضوا العودة اليه ونزلت العضوية فيه الى اقل من ثلاثين عضواً يحضرون الاجتماع العام وهم كل مشتركي النادي . ويروى ازهري في مذكراته عن النادي في هذه الفترة فيقول «فاذا كنت تزوره في تلك الايام فتجده خاليا الا من قليل من الشباب»[٦٨] .

وفي عام ١٩٣٣ بلغ الخلاف ذروته بين الفريقين (الفيليين والشوقيين) ووصل حد القطيعة والعداء السافر ولعل من الاسباب التي ادت الى تعميق الخلاف وجود الشيخ الفيل ومحمد علي شوقي في مصلحة واحدة – المصلحة القضائية . ويبدو ان الانجليز نصحوا لهما بترك النادي ففجأة اختفى منه شوقي والفيل ، وبذلك خلا النادي لرجال الصف الثاني من انصارهم[٦٩] . وعندما برزت فكرة مؤتمر الخريجين لم يكن الطريق ممهدا لان الخريجين كان قد عبث بهم الخلاف ومزقتهم ايدى سبأ ولم يقم مؤتمر الخريجين بعد ذلك الا بعد جهد كبير[٧٠]

(٦٦) مذكرات خضر حمد غير المنشورة ص ٤٩ .

(٦٧) يقصد بالطائفية في هذا البحث طائفتي الختمية التي زعيمها السيد علي الميرغني والتي دخلت السودان في منتصف القرن التاسع عشر على يد جده الحسن الميرغني وقد ضعف نفوذها اثناء الحكم المهدي الا انها قويت في بداية الاستعمار . والطائفية الثانية هي المهدوية او الانصار التي انشأت دولة المهدية وخمدت بعد دخول الاستعمار ثم بدأت تمارس نفوذها في اوائل العشرينات من هذا القرن تحت رعاية وحماية الإدارة البريطانية .

(٦٨) مذكرات ازهري جريدة الايام – الحلقة ١٧ – بتاريخ ٢١ / ٦ / ١٩٥٧ .

(٦٩) مذكرات ازهري الحلقة ١٧ من جريدة الايام في ٢١ / ٦ / ١٩٥٧ .

(٧٠) مذكرات خضر حمد – غير المنشورة (ص ٥٤) .

أثر عز الدين ابن الأثير في تطوير الكتابة التاريخية العربية

الدكتور ابراهيم خليل أحمد
قسم التاريخ ـ كلية
التربية جامعة الموصل

١ ـ مقدمة :

١ ـ ١ قد لا نكون مخطئين اذا قلنا : ان العرب من اكثر الامم في العالم اهتماما بدراسة التاريخ والكتابة فيه . لهذا اصبح التاريخ عندهم جزءا من تطورهم الثقافي العام . ان اسباب هذا الاهتمام ترجع الى عوامل تتعلق بتاريخية الاسلام اولاً ، وتكوين الدولة العربية الاسلامية والاحتكاك بين الاراء والتيارات الفكرية ثانيا ، وتطور الامة وتجاربها وخبراتها وحاجاتها ثالثا[١] .

٢ ـ ١ ولم تقف انجازات العرب الرائعة في حقل المعرفة التاريخية عند حدود التدوين التاريخي فحسب ، بل ظهرت مدارس وتفسيرات تاريخية مختلفة دللت على استيعابهم لكثير من اهداف علم التاريخ وفلسفته . كما تنوعت اساليبهم الكتابية في التاريخ لذلك ظهر اهتمام كبير بتوطيد التاريخ (علما) له مناهجه وطرقه وقواعده ومكانته في منظومة الفكر العربي[٢] .

٣ ـ ١ ولقد كان من ابرز ملامح هذا التميز ، ان اعطت الامة العربية للتراث التاريخي العالمي نماذج قيمة من الكتابات التاريخية احتلت منزلة مرموقة في المكتبة التاريخية العالمية وعز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الاثير ٥٥٥هـ ـ ٦٣٠هـ (١١٦٠ ـ ١٢٣٢ م) ، هذا المؤرخ العظيم الذي نحتفل به اليوم وبأخويه مجد الدين وضياء الدين واحد من اولئك الذين جادت بهم هذه الامة المعطاة . فهو يتمتع – بحق بشهرة بارزة بين كافة المؤرخين العرب ، لم يصل اليها أحد ، الا[٣] الطبري الذي توفي قبله بقرنين من الزمان تقريبا (٣١٠هـ / ٩٢٣م) .

٤ ـ ١ وليس غرضنا في هذه الورقة متابعة حياة عز الدين بن الاثير واسرته ومؤلفاته وظروف حياته وما شاكل . فقد تصدى عدد من الكتاب العرب والاجانب لمعالجة ذلك[٤] . وانما يقتصر بحثنا على الاشارة الى بضع نقاط نراها اساسية في معرفة اثره في تطور الكتابة التاريخية العربية وهي مصادر ثقافية ، ودواعي اهتمامه بالتاريخ ومفهومه للتاريخ وأسلوبه في معالجة الحدث التاريخي ومن ثم حجم الاضافات التي قدمها في مجال الكتابة التاريخية .

٢ . مصادر ثقافة ابن الاثير :

للثقافة العامة في حقول المعرفة البشرية أثر كبير في تطوير تقنية المؤرخ وفهمه للاحداث وتفسيره لها . كما ان هناك مؤهلات شخصية ينبغي توفرها عند من يريد التصدى للكتابة التاريخية ، ومنها مايتصل بالصفات والسجايا الشخصية التي تجعل منه المؤرخ القدير في البحث عن الحقيقة . وفوق هذا وذاك فأن للظروف الحياتية التي يعيش المؤرخ في ظلها دوراً كبيراً في فهم التاريخ ومحركاته[٥] . وهذا يدعونا الى الوقوف عند مصادر ثقافة (ابن الاثير) علها تقربنا من فهم منهجه في الوصول الى الحقيقة . ومن أبرز هذه المصادر :

(*) بحث القي في ندوة ابناء الاثير المنعقدة في جامعة الموصل في اذار ـ نيسان ١٩٨٢

(١) للتفاصيل انظر : عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، (بيروت ، ١٩٦٠) وكذلك شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، جـ١ ، (بيروت ، ١٩٧٩) ، ص ٥٧-٦٢

(٢) للتفاصيل انظر : عبد العزيز الدوري وآخرون ، تفسير التاريخ (بغداد لا . ت) ص ٩ وسنشير اليه بـ (الدوري وآخرون) .

(٣) محسن محمد حسين ، موضوعات في التاريخ الكردي ، (بغداد ، ١٩٧٦) ص ٥

(٤) للتفاصيل انظر : عبد القادر أحمد طليمات ، ابن الاثير الجزري المؤرخ (القاهرة ، ١٩٦٩) .

(٥) حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ، ط ٤ (القاهرة ، ١٩٧٦) ص ٢٢-٢٣ .

١ – ٢ يؤكد كثير من المفكرين ان عهود النكبات في التاريخ كانت دائماً حافزاً الى التفكير في الماضي وفي المصير ومثيرة للاهتمام في تفسير التاريخ وتعليله[٦] . ومن هنا فان العصر الذي عاش فيه ابن الاثير تميز بالتقلب والفوضى والاضطراب[٧] . وهذا لاشك كان مصدرا من مصادر اهتمامه بجمع الحقائق التاريخية في عصره وعصر من سبقوه .

٢ – ٢ ان ابن الاثير ينتمي الى اسرة اهتمت بالعلم وعرفت قيمته فوالده شغل مناصب حكومية عديدة اهلته لها ثقافته[٨] . فضلا عن كونه واحد من ثلاثة اخوة برزوا في مجالات الحديث النبوي والتفسير واللغة والادب والشعر[٩] .

٣ – ٢ تلقى ابن الاثير علومه الاولى على ايدي شيوخ وعلماء بارزين وخلال رحلاته العديدة الى بعض الاقطار العربية والاسلامية احتك بعلماء وشيوخ كثيرين وعقد صلات شخصية معهم[١٠] .

٤ – ٢ ابن الاثير من الذين تسلحوا بعلوم القرآن والحديث ورجاله وكان لاتقانه ذلك أثر كبير في تطوير ثقافته التاريخية[١١] . فقد كان «اماما في حفظ الحديث ومعرفته ومايتعلق به»[١٢] وصلة علم التاريخ بعلم الحديث ، كما هو معروف ، وثيقة تستحق اهتماماً خاصا من حيث التركيز على الأسناد وماهيته ، علما بأن الأسناد في التاريخ لم يبلغ مابلغه في الحديث لما عرف به المؤرخون من تساهل في الاسانيد ورواتها[١٣] . ومع هذا فقد كان ابن الاثير حريصاً على معرفة مايهمه ، بوصفه مؤرخاً ، من قوانين (الجرح والتعديل)[١٤] .

٥ – ٢ كان ابن الاثير خبيرا في علم الانساب وادبياته ، ولقد قيل عنه : إنه كان عارفاً بالرجال خبيرا بالانساب وإنه كان (اماما نسابة)[١٦] .

وقد اعطاه هذا قابلية شديدة في تتبع مسار الادوار التاريخية التي تقوم بها الشخصيات البارزة .

٦ – ٢ لم يكن ابن الاثير من المؤرخين الذين كتبوا مؤلفاتهم في غرف مقفلة بل انغمس في الحياة السياسية العملية ، وكانت صلته الشخصية بادارة الموصل في عهد الحكام الزنكيين قد جعلته في وضع سمح له بالاطلاع على المستندات والوثائق والاوامر الرسمية ومعرفة الوقائع الخارجية وما شاكل ذلك[١٧] . وقد يسر له خروجه محاربا ومشاهدا مع صلاح الدين الايوبي القائد العربي المعروف في الشام لقتال الصليبيين في سنة ٥٨٤هـ وصف المعارك واوقفه على بعض الجوانب في خطط الايوبي واساليبه العسكرية ، وتوجيه النقد الى بعضها . تضاف الى هذا مشاركته في الدفاع عن الموصل كلما تعرضت لحصار[١٨] . ولاشك في ان ماشاهده ابن الاثير شخصيا وماسمعه من معاصريه الذين شهدوا الاحداث بانفسهم او سمعوها يؤلف مصدرا ثرا من مصادره التاريخية كان له اثر كبير في تكوين ثقافته وتوسيع مدى اداركه لكثير من وقائع التاريخ[١٩] .

٧ – ٢ أما قراءاته التاريخية واهتماماته بما وقع تحت يديه من كتب تاريخية فلها أثر كبير في جعل كتاباته لاتقتصر على لون واحد من الألوان التأريخية التي عرفها علم التأريخ العربي[٢٠] . فلقد كان حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة «ولم يزل ، كما يقول ، محبا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة مافيها مؤثرا للاطلاع على الجلي من حوادثها ومافيها»[٢١] . وقد ساعده هذا على المشاركة في أربعة أنواع من الكتابة التأريخية والبروز فيها جميعا . فكتابه (الكامل) في التاريخ العام ، وكتابه (الباهر) في تاريخ الاسر الحاكمة ، وكتابه (أسد الغابة) في التراجم وكتابه (اللباب) في علم الانساب[٢٢]

(٦)
(٧) للتفاصيل انظر طليمات ، المصدر السابق ، ص ٧-١٢
(٨) المصدر نفسه ، ص ١٣-١٧؛
(٩) أما الاخوان الاخران فهما مجد الدين أبو السعادات وكانت مولده في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) وضياء الدين نصر الله وولد في سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٢ م) . وقد اشتهر الاول محدثا ومفسراً ولغوياً . أما الثاني فقد عرف اديباً شاعراً . انظر طليمات . المصدر السابق ص ١٤-١٦ شاكر مصطفى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١١١ .
(١٠) عباس العزاوي ، التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ، (بغداد ، ١٩٥٧) ، ص ٢٧
(١١) المصدر نفسه ، ص ٢٥
(١٢) أحمد بن ابراهيم ابن خلكان : وفيات الاعيان وانباء الزمان ، (القاهرة ، ١٢٩٩) جـ ١ ، ص ٤٩٤
(١٣) انظر : أسد رستم ، مصطلح التاريخ ، ط ٣ ، (بيروت ، ١٩٥٥) ص (ز)
(١٤) العزاوي ، المصدر السابق ، ص ٤٨
(١٥) ابن خلكان ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٩٤
(١٦) العزاوي ، المصدر السابق ، ص ٣٠

(١٧) طليمات ، المصدر السابق ، ص ٧٦-٧٩ ، ١٢٣ وكذلك محسن محمد حسين . المصدر السابق ، ص ٥
(١٨) للتفاصيل انظر : عز الدين ابي الحسن ابن الاثير . الكامل في التاريخ ، المجلد الاول ، دار صادر ، (بيروت ، ١٩٦٥) جـ ١١ . ص ص ٥١٢ ، ٢١٥-٢١٦ .
(١٩) فريد عبد القادر نوري ، سياسة صلاح الدين الايوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة ، (بغداد ، ١٩٧٦) ، ص ٢٧ .
(٢٠) طليمات ، المصدر السابق ، ص ٥٣ . شاكر مصطفى ، المصدر السابق جـ ٢ ، ص ١١٢ ، العزاوي ، المصدر السابق ، ص ٢٩ .
(٢١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١ ، ص ٢ .
(٢٢) راجع مؤلفات ابن الاثير وهي :
(–) أسد الغابة في معرفة الصحابة (المطبعة الوهبية/القاهرة ١٢٨٠هـ)
(–) التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات (القاهرة ١٩٦٣)
(–) الكامل في التاريخ ، (بيروت ، ١٩٦٥)
(–) اللباب في تهذيب الانساب ، (القاهرة ، ١٣٥٧هـ) .

٨ – ٢ لقد شكلت كتب أيام العرب وسيرهم مصدرا مهما من مصادر ثقافة ابن الأثير . بل لقد عد من اوائل المؤرخين العرب الذين انتبهوا الى اهمية «الايام» مصدرا لتاريخ العرب قبل الاسلام . اذ حاول ان يورد أخبار أيام العرب ويضعها ضمن تسلسل تاريخي[٢٣] . ومن هنا فقد وصف بأنه كان «مؤرخا اخبارياً»[٢٤] .

٩ – ٢ وبالنظر لامتزاج التاريخ بالتراجم في عهد متقدم عند العرب فان ابن الاثير كان من المؤرخين الذين عنوا بالتراجم ولاسيما تراجم الصحابة . ونحن اذا علمنا ان عدد الذين ترجم لهم ابن الاثير بلغ سبعة الاف وخمسمائة وخمسين صحابيا تعرف مدى سعة ثقافة هذا المؤرخ ومدى النشاط الذي يحتاج اليه جمع المعلومات عن هذه الالاف وتدوينها[٢٥] . ناهيك عن كثرة قراءاته الادبية من شعر ونثر ، وعمقها ، بحيث جعلت منه أديباً ذواقة ، لذوقه أثر في أجادته لعرض الحوادث التاريخية والرشاقة وبساطة الاسلوب في التعبير عنها[٢٦] .

٣ – دواعي اهتمامه بالتاريخ والتأليف فيه :

١ – ٣ يتساءل الكثيرون عن جدوى الاهتمام التاريخي . وابن الاثير من أبرز المؤرخين الذين اجابوا على هذا التساؤل من خلال ادراكه هدف التاريخ وعنايته بدراسة تجارب الامة وخبراتها وتدوين الاحداث التي مرت بها وذلك لغرض «الاتعاظ» و «العبرة» وتوجيه الحكام وتعريف الحاضر بالماضي والتوسل الى تنظيم حياة الانسان[٢٧] .

٢ – ٣ ولقد كان لتعرض الامة العربية للتحديات الاجنبية (الغزو الصليبي من الغرب والغزو المغولي من الشرق) وتعاقب الاعداء عليها في تسلسل زمني مستهدفين وحدتها وتقدمها أثر كبير في اندفاع ابن الاثير في تتبع هذه التحديات والاخطار والكتابة عنها ، وكما هو معروف فالمؤرخ هو ابن عصره ، واضطراب الاوضاع سبب رئيس يدفعه الى الاهتمام بالتاريخ ووقائعه وعبره محاولا رسم الطريق امام ابناء امته وتجنبهم الكوارث والهزائم .

ولم يغفل ابن الاثير ان يضع يده على العوامل الداخلية التي يسرت على الاجانب غزوهم وسهلته ومن ذلك الانقسامات والصراعات الاسرية وحالة التجزئة والتخلف التي كانت تعيشها الامة العربية انذاك[٢٨] .

٣ – ٣ ومن اهداف الكتابة التاريخية عند ابن الاثير كونها اداة ترويح عن النفس ومادة طيبة مؤنسة في المجالس تزين المتكلم وتجذب اليه الحاضرين .

قال ابن الاثير في هذا الصدد :

«ومنها مايتجمل به الانسان في المجالس والمحافل من ذكر شيءٍ من معارفها ، ونقل طريفة من طرائفها ، فترى الاسماع مصغية اليه . والوجوه مقبلة عليه ، والقلوب متأملة مايورده ويصدره»[٢٩] .

٤ – مفهومه للتأريخ :

اما مفهوم التأريخ عند ابن الاثير فيمكن تلخيصه بما يلي :

١ – ٤ ان حال الاتاريخ عنده حال وضعه عند من سبقوه من المؤرخين العرب والاوائل وفي مقدمتهم الطبري فهو تعبير عن المشيئة الالهية المتمثلة في توالي الرسالات واخرها واكملها الاسلام واصبح بعد ذلك تاريخ امة هي الامة العربية .[٣٠]

٢ – ٤ الا ان هذا لايعني اهمال الدور الانساني وفعاليات البشر . ومن هنا فابن الاثير اهتم كذلك بتخليد الاعمال المهمة للانسان وتسجيل الاحداث البشرية المتميزة . ومع هذا وذاك فهو يتابع تعاقب الامم والدول : نشأتها وسقوطها اي يتابع ديناميكية التقدم في التاريخ[٣١] .

٣ – ٤ وكما ان الحديث دراية ورواية ، فالتاريخ عند ابن الاثير دراية ورواية ايضا . ليس مهمته تعقب القشور وظواهر الاحداث وانما البحث والتدقيق في بواطن الامور . ومن هنا يمكن القول ان ابن الاثير سبق ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢–٨٠٨هـ / ١٣٣٢ – ١٤٠٦م) في الاعلان بان التاريخ في ظاهره الرواية وفي باطنه النظر والتحقيق وبذلك يعد ابن الاثير من اوائل المؤرخين العرب الذين ارسوا قواعد واسس الميثودلوجيا التاريخية[٣٢] .

٥ – اسلوبه في اعادة تشكيل الحدث التأريخي وتفسيره :

١ – ٥ لقد لفت ابن الاثير الانظار اليه لمنهجيته التاريخية ولسلامة اسلوبه

(٢٣) الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، ص ١٣
(٢٤) العزاوي ، المصدر السابق ، ص ٣٠
(٢٥) أمين مدني ، التاريخ العربي ومصادره (القاهرة ، ١٩٧١) ، ص ٣٢٣
(٢٦) المصدر نفسه ، ص ٣٢٣–٣٢٣
(٢٧) انظر : الكامل في التاريخ ، جـ ١ ، ص ٤–٥ وكذلك العزاوي المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٢٨) طلبات ، المصدر السابق ، ص ٧–١٠
(٢٩) الكامل في التاريخ ، جـ ١ ، ص ٥
(٣٠) الدوري وآخرون ، المصدر السابق ، ص ٩
(٣١ و ٣٢) قارن : الكامل في التاريخ ، جـ ١ ، ص ١ مع عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المقدمة ، (بيروت ، لا . ت) ، ص ٣ وكذلك انظر : العزاوي المصدر السابق ، ص ٣٣

في معالجة الحدث التاريخي وتفسيره . اذ اتبع طريقة الحوليات كغيره من المؤرخين العرب الاوائل ، وراعى ترتيب السنين ولقد تعرض لنقد من جراء هذه الطريقة التي لم تراع تسلسل الحوادث المماثلة واطرادها . ويتصدى احد المؤرخين مدافعا عن طريقة ابن الاثير قائلا : «وهذا مغتفر في تاريخ عام . . يدون كافة الحوادث ويتعرض لجميع الوقائع والحكومات مراعيا سلسلة ترتيبها ، وتاريخ وقوعها فكأنه سجل أو بحر وقائع نغرف منه مانشاء . فلا وجه للنقد الموجه اليه من هذه الجهة . . لان الوقائع غير محدودة ، وتصنيفها مختلف تتباين فيه الاذواق وتتضارب الفهوم . . وتثبت الحوادث اصل ، والامور الاخرى متفرعة عنه»[٣٣] .

٢ – ٥ كان ابن الاثير يفقه اصول الكتابة التاريخية ويعرف تقنياتها وقد اتضح ذلك في خطوات البحث العلمي التي كان يسير عليها وهي جمع الاصول التاريخية وحسن اختيار الحقائق وعرضها للقارئ ، فهو يقول : «لم انقل الا من التواريخ المذكورة والكتب المنشورة . ولم اكن كالحاطب في ظلماء الليالي ، ولا كمن يجمع بين الحصباء واللآلئ»[٣٤] . فقد كان يربط بين الاحداث المتقاربة ، ويوحد الاسباب ويحرص على تعليل الظواهر التاريخية ونقدها . ومعنى هذا انه لم يكن مجرد مسجل احداث واخبار وانما كان ناقدا ممتازا ، نقد اصحاب مصادره وناقش كثيرا من اخبارهم[٣٥] .

٣ – ٥ وكان يكثر من استخدام (لو) في التاريخ مما جعله هدفا لنقد بعض الكتاب الذين رأوا في ذلك ضعفاً في قيمة كتاباته التاريخية[٣٦] وقد استندوا في ذلك على المثل الشائع الذي يقول (لو) زرعت وخضرت اي ان (لو) عقيمة عندما تزرع لاتخضر ولا تورق . ان استخدام (لو) امر قد يبدو غير صحيح بالنسبة للتاريخ (الفعل–الحدث) ولكن التاريخ (الفكر) شيئ اخر وبامكان المؤرخ ان يزرع فيه (لو) ثم يراقبها لتخضر وتورق وتنمو . ومن هنا فان من حق المؤرخ ، كما نرى ، ان يتساءل ويستفسر بل ويستخدم (لو)[٣٧] .

٦ – حجم الاضافات التي قدمها ابن الاثير في مجال تطوير كتابة التاريخ :

١ – ٦ لقد كان ابن الاثير مؤرخا مفكرا . مدركا واعيا . ويتضح ذلك في قدرته على مراعاة التوازن المعقول بين الاحداث التاريخية وانصافه للاحداث والشخصيات دون اخلال[٣٨] .

٢ – ٦ وفوق هذا كله فهو يمتلك إحساساً تاريخيا حقيقيا لاسيما في التنبيه إلى خطر المغول واعتباره الغزو الصليبي للشام استمرارا لمضايقة عرب الاندلس . ولم يكتف بذلك بل كان يذكر المواطنين بدورهم في رد العدوان الاجنبي والاحتفاظ بالارض والشرف . وهو في هذا يعد من المؤرخين الذين نظروا الى التاريخ بوصفه سلاحا نضاليا[٣٩] .

٣ – ٦ ولم يغفل ابن الاثير دور الابطال وأثرهم في ديناميكية الحدث التاريخي وانما حاول ان يبرز دورهم في صنع حركة التاريخ . ومن هنا جاء اهتمامه بتدوين سير عظماء الامة وفي مقدمتهم الصحابة لان سيرهم هي سنن الهداية والقدوة للعرب والمسلمين[٤٠] .

٤ – ٦ وعظمة ابن الاثير تكمن في اهتمامه بمساحة واسعة من التاريخ العربي الأسلامي (مكانا وزمانا) . فهو لم يقتصر على تتبع العصور السالفة وإنما أهتم بعصره كذلك . ولم يقتصر أهتمامه على المشرق العربي وإنما اهتم بالمغرب العربي كذلك بل وانتقد من سبقوه من المؤرخين في عدم العناية بهذا الجزء من العالم الاسلامي[٤١] . ولو لم يكتب لنا ابن الاثير ماكتب لضاعت علينا حقائق كثيرة على مدى قرون متصلة .

فهو المؤرخ الوحيد الذي ضمن كتابه اخبار الحروب الصليبية حتى الثلث الاول من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) . كما حوى كتابه اخبار الغزو المغولي منذ بدايته في سنة ٦١٦هـ وحتى سنة ٦٢٨هـ وهي السنة التي وقف عندها كتاب ابن الاثير (الكامل في التاريخ) .

فبعد الطبري لم يظهر كتاب يغطي أخبار طولها اكثر من ثلاثة قرون اي مابين وفاة الطبري ٣١٠هـ وظهور كتاب الكامل في سنة ٦٣٠هـ[٤٢] .

٥ – ٦ لقد اعتقد ابن الاثير ان التاريخ ليس الا حوارا متصلا بين المؤرخ ووقائعه . لذلك فهو لم يقف عند حدود النظرة الرانكوية (نسبة الى ليوبولد رانكة المؤرخ الالماني المعروف ١٧٥٩–١٨٨٦) التي تذهب الى ان مهمة المؤرخ هي تسجيل ماحدث من وقائع بالضبط ، بل وصل به الامر الى حد الانفعال مع الاحداث الخطيرة وابراز انفعالاته بالنقد

(٣٣) العزاوي ، المصدر السابق ، ص ٣٠–٣١
(٣٤) الكامل في التاريخ ، جـ ١ ، ص ٣
(٣٥) العزاوي ، المصدر السابق ، ص ٣٣ ، طليات ، المصدر السابق ص ص ٤ ، ٣٩
(٣٦) دريد عبد القادر نورى ، المصدر السابق ، ص ٢٨ وللمقارنة انظر : الكامل في التاريخ ، جـ ١٢ ص ٣٤ و ٣٥ ، ٣٩ ، ٧٠
(٣٧) انظر : خلدون ساطع الحصري ، مقدمة مذكرات طه الهاشمي (بيروت ، ١٩٦٧) ص ٣٩–٣٠

(٣٨) طليات ، المصدر السابق ، ص ٤٠
(٣٩) انظر : العزاوي ، المصدر السابق ، ص ٤٧
(٤٠) للمقارنة انظر كتاب ابن الاثير ، اسد الغابة في معرفة الصحابة ، والمشار اليه آنفاً . راجع كذلك : شاكر مصطفى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١١٥
(٤١) انظر : الكامل في التاريخ ، جـ ١ ، ص ٢
(٤٢) طليات ، المصدر السابق ، ص ٣–٥ ، دريد عبد القادر نوري ، المصدر السابق ، ص ٢٨

والتعليق والابتهال والدعاء ، فهو على اية حال ليس مؤرخا موضوعيا حياديا[٤٣] . ولقد تأكدت هذه المسألة من خلال موقفه السلبي من الايوبيين وصلته الشخصية بالزنكيين ومما يجدر ذكره ان للمواقف السياسية للمؤرخ ودرجة صلته بالمؤسسة الحاكمة اثرا كبيرا في تشكيل مفاهيمه التاريخية . لذلك فمن الحق وصف ابن الاثير بانه مؤرخ رسمي ارتبطت حياته وكتاباته ومواقفه بالاسرة الزنكية الموصلية التي عاش في كنفها سنوات عديدة هو ووالده وأخواه[٤٤] . فمادته التاريخية عكست فلسفة الدولة الزنكية ووجهة نظرها المخالفة للايوبيين وهذا الاختلاف الحاصل في ايراد الروايات ، لاشك يحفز الباحث الى المزيد من التحري عن الروايات المتناقضة للوصول الى الحقيقة عن طريق نقدها ومعارضة بعضها لبعض[٤٥] .

٦ - ٦ وابن الاثير وان كان ينقل عن غيره من المؤرخين السابقين له ، الا انه يضيف معلومات جديدة غير موجودة في تلك المصادر . فهو قد انفرد بمعلومات قيمة لايشير الى مصدرها الاساسي . إذ كثيراً ما كان يستخدم الاسناد المجهول كأن يقول «بلغني من خبره وحدثني من اثق به وحكى بعض اصحابنا (مما يدل على انه نقلها من مصدر لم يصل الينا ولا شك انه في ذلك يساعدنا في استكمال الروايات التاريخية[٤٦] . واكمال النواقص التي وجدها في بعض المؤلفات التاريخية ولا سيما في ميل بعضها الى التطويل والاسهاب ، وميل البعض الاخر الى الاختصار المخل بالاحداث ، او ترك الاحداث المهمة والاهتمام بصغائر الامور او اختلال بعض الدراسات في ترتيب الاحداث التاريخية وعرضها ، ومن هنا فهو لم يمتنع عن توجيه النقد التاريخي الى من يستحقه مهما علت منزلة ذلك الذي ينقده[٤٧] . ان التزامه بمنهجيته التاريخية تتمثل في طرح الروايات المختلفة وذات المواقف المتقاطعة و بعد عرضها يوجه لها نقداً او يبرز موقفه تجاهها في ميله الى رواية منها وترجيحها[٤٨] .

٧ - ٦ واخيراً فان ابن الاثير لم يهتم بالتاريخ السياسي وحده وانما تضمنت اهتماماته وكتبه ملاحقة للجوانب المتنوعة من العملية التاريخية . فثمة تفاصيل كثيرة في كتاباته من الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة في الوطن العربي والعالم الاسلامي انذاك .[٤٩]

(٤٣) المصدر نفسه ، ص ٣ . دريد عبد القادر نوري . المصدر نفسه . ص ٢٣ طلبات ، المصدر السابق ، ص ٤ ، محسن محمد حسين ، المصدر السابق ، ص ١١ .

(٤٤) انظر على سبيل المقارنة : نظير حسان سعداوي ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، (القاهرة ، ١٩٦٢) ، ص ٩

(٤٥) دريد عبد القادر نوري ، المصدر السابق ، ص ٢٨

(٤٦) واجه ابن الاثير لذلك نقداً شديداً اعتمد اساساً على ان ابن الاثير قصد من ذلك تضليل قصد بعدم ذكر تلك المصادر . انظر سعداوي . المصدر السابق ، ص ٩

(٤٧) انظر للتفاصيل : الكامل في التاريخ ، جـ ١ ، ص ٢

(٤٨) محمد جلوب فرحان ، منهجية ابن الاثير في كتابه الكامل التاريخ مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد ١٢ (ايار ، ١٩٨١) ص ١٥٣

(٤٩) يمكن للقارئ ملاحظة ذلك من خلال النظر في مؤلفات ابن الاثير المشار اليها انفا . انظر كذلك شاكر مصطفى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١١٤ .

الصراع بين روسيا وانكلترا في آسيا الوسطى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

الدكتور نوري السامرائي
كلية الآداب – قسم التاريخ
جامعة بغداد

تشمل أسيا الوسطى في الوقت الحاضر ذلك الجزء من الأراضي السوفيتيه الممتدة من بحر اورال شمالاً حتى هضبة البامير جنوباً ومن بحر قزوين غرباً حتى جبال تيان شان شرقاً . وتكون عددٍ من جمهوريات الاتحاد السوفيتي وهي : ازبكستان وتاجيكستان وقرغيزيا وتركمانيا والقسم الجنوبي من جمهورية كازاخستان تسكنها قوميات متعددة : اشهرها ، الازبك والتاجيك والتركمان والقازاق والقرغيز . وتدين جميع هذه الشعوب بالديانة الاسلامية . وكانت هذه الشعوب في القرن التاسع عشر تعاني من التخلف الاقتصادي والسياسي والثقافي . كان بعضها يحترف الزراعة مثل الازبك والتاجيك ، اما البقية فكانوا رعاة رحل . وكان مستوى الزراعة متدنياً للغاية وكانت الصناعة في مرحلة حرف العصور الوسطى . وكان النظام الأجتماعي السائد فيها هو النظام الاقطاعي . وظهرت في اسيا الوسطى عبر التاريخ ثلاث دول كبيرة : هي امارة خيوة ويبلغ عدد سكانها مليون نسمة وبخارى ٢٫٥ مليون نسمة وقوقند ٣ مليون نسمة . وكانت هذه الدول في حروب طاحنة فيما بينها . وتتمتع هذه المنطقة بأهمية كبرى لوقوعها على طرق التجارة البرية بين الصين والهند من جهة واوربا من جهة أخرى . واشهر مدنها طشقند وبخارى وقوقند وسمرقند وخيوة ، وكانت الاراضي كلها ملكاً للدولة ورجال الدين والاقطاعيين ، وكان الفلاحون يدفعون نصف المحصول الزراعي مقابل استخدام الارض . وقد استغل الاقطاعيون عمل الرقيق في الزراعة . وكان مصدر الرقيق هم اسرى الحرب والغارات على القبائل والشعوب المجاورة وكانت هناك اسواق للرقيق في معظم مدن اسيا الوسطى .

لقد اشتد الصراع بين انكلترا وروسيا حول هذه المناطق الواسعة من السهوب والبراري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى العقد الاول من القرن العشرين ، أي منذ بداية الأحتلال الروسي لآسيا الوسطى في العقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر وحتى قيام الاتفاق الانكليزي الروسي عام ١٩٠٧ . وقد جلب هذا الصراع انتباه الكثيرين من الكتاب والمؤرخين والسياسيين من الانكليز والروس فألفوا عنه الكثير من المقالات والكتب[١] .

(1) A. Burnes E Travels into Boukhara L 1831

(2) Mohan. L. – Travels in Panjab' Afqhanistan and Turkistan to Balkh' Herat' Bukhara L 1848

(3) Rawlinson – Enqland and Russia in the Eest L 1875

(4) Mayer and Paqel – Afqhanistan ' its Political ' Mibitary' History' L 1879

(5) Boulqer ' D. c. – Enqland' Russia in the Central Asia L 1879

(6) Marvin. c. – Reconnoitrinq Central Asia L 1884

(7) Ferrir – History of the Afqhans L 1885

(8) Bambery' Arminius – the Cominq struqqle for India 1885

(9) Curzon' G. N. – Russian in Central Asia' and the Anqlo – Russian puestin L 1889

(10) T. J. Adye – Indian Frontier Poliey L1897

(11) – Hutton – Central Asia L 1879

(12) – Humbold – Asie Centrale L 1846

(13) – Coipuhoun' Archibad' R. – Russia aqainst – India' the

Struqqle for Asia – New Xork L 1900

وبالروسية .

١ – جلو خوفسكي – أهمية بخارى الى روسيا – بتروغراد ١٨٦٧ .

٢ – أرمين بامبيري – رحلة في اسيا الوسطى – بتروغراد ١٨٦٥ .

٣ – رومانو فسكي – ملاحظات حول مشكلة أسيا الوسطى . بتروغراد ١٨٦٨ .

٤ – تاركافي – روايات الكتاب المسلمين حول السلاف والروس – بتروغراد ١٨٧٠ .

٥ كوروباتكين – ملاحظات جغرافيه وتاريخيه حول اسيا الوسطى . بتروغراد ١٨٧٩

٦ – مار تينس – روسيا وانكلترا النزاع الانكليزي الافغاني – بتروغراد ١٨٨٠ .

٧ – كوبوليف – النزاع الانكليزي الافغاني – بتروغراد ١٨٨٢ .

٨ – ماك جريجور – الدفاع عن الهند – بتروغراد ١٨٩١

٩ – هوف فسكي – ملاحظات عسكرية حول الهند – بتروغراد ١٨٩٩ .

١٠ – نيقولا ايجناتوفا – بعثة الى بخارى وخيوة – بتروغراد ١٨٩٧ .

١١ – كور نيلوف – رحلة الى الهند – بتروغراد ١٩٠٣ .

١٢ – سينساريف – الهند – المشكلة الاساسيه في الشرق الاوسط – بتروغراد ١٩٠٦ .

١٣ – تير نشيف – تاريخ احتلال اسيا الوسطى – بتروغراد ١٩٠٦ .

١٤ – جوكو فسكي – علاقة الروس مع بخارى وخيوة في ال ٣٠٠ سنة الأخيرة – بتروغراد ١٩١٥ .

حاول هؤلاء المؤلفون سواء كانوا من الروس أو الانكليز أن يثبتوا أن القصد من وراء احتلال اسيا الوسطى والهند هو تحضير الشعوب المتخلفة التي تسكن تلك الاقاليم الواسعة – بينما كان الهدف الحقيقي هو التوسع الاستعماري سواء كان من جانب روسيا أو انكلترا . اذ أن الموقع الستراتيجي للمنطقة ومواردها الاوليه واسواقها الواسعة هي التي دفعت كلاً من روسيا وانكلترا الى العمل من أجل احتلالها .

ترجع العلاقات بين الروس واسيا الوسطى الى القرن التاسع الميلادي بل القرن الثامن حيث وردت معلومات حول العلاقات التجارية بين الروس وشعوب اسيا الوسطى [٢] . وبعد ظهور الدولة الروسيه في القرن التاسع الميلادي وتطورها بدأ التوسع الروسي يتجه نحو الشرق – الى سيبريا بدافع الاستغلال الاستعماري ، فبدأ الروس استغلال تلك الشعوب في سيبريا واستراخان وكازان والتي كانت في بداية تطورها الحضاري فوقعت تحت رحمة التجار الروس . ومنذ ذلك الوقت بدأت العلاقات التجارية بين موسكو من جهة وبخارى وخيوة من جهة أخرى [٣] . وقد رحبت حكومة موسكو بتجار اسيا الوسطى القادمين الى المدن الروسيه وخاصة تجار بخارى الذين وصلوا مدينة يوراسلافل [٤] . وقامت حكومة موسكو بارسال سفرائها الى امراء خيوة وبخارى من أجل اقامة علاقات الصداقة مع حكام تلك المناطق بدافع حماية التجار الروس الذين لهم علاقات تجارية مع تلك المناطق [٥] . وهناك الكثير من الرسائل التي بعث بها حكام خيوة وبخارى الى حكومة موسكو في القرن السادس عشر [٦] طالبين فيها المساعدة العسكرية لحماية طرق القوافل بين اسيا الوسطى من جهة والمدن الروسية من جهة أخرى والتي تتعرض دائماً لهجمات القبائل البدوية [٧] . فلبت حكومة موسكو طلباتهم لأدراكها أهمية تقوية العلاقات التجارية بين أسيا الوسطى وروسيا . ولهذا السبب فإن امراء اسيا الوسطى أراقوا دماء القبائل الرحل بمساعدة الروس من أجل تطوير علاقاتهم التجارية مع المدن الروسيه .

لقد أدت هذه العلاقات التجارية الى انعاش بعض المدن الروسيه

(٢) – تاركافي – روايات الكتاب المسلمين حول الروس والسلاف – بتروغراد ١٨٧٠ ص ٤٤ ٥٨ (باللغة الروسية) .

(٣) معلومات حول تاريخ شعوب الاتحاد السوفيتي . الاصدار الثالث أوراق السفراء الروس الى امراء خيوة وبخارى والمناطق الاخرى ١٥٧٨ – ١٧٠٥ الجدول الثاني سفارة امير بخارى وخيوة الى قيصر موسكو ١٥٧٨ – ١٧٠٥ الجدول الثالث والرابع

(٤) نفس المصدر ص ١٤٢

(٥) نفس المصدر ص ١٤٣

(٦) نفس المصدر ص ٤٠٢

(٧) نفس المصدر ص ٤٠٨

وتحويلها الى مراكز تجارية منذ بداية القرن السادس عشر. مثل مدينة استراخان الواقعة على مصب نهر الفولفا في بحر قزوين ونوفكورود السفلى الواقعة في الشمال الغربي من روسيا . ومنذ نهاية القرن السابع عشر ازدادت أهتمامات حكومة موسكو بأسواق أسيا الوسطى فضاعفت جهودها في سبيل تقوية علاقاتها التجارية معها وأخذت تكثر من ارسال السفارات والوكلاء الى حكام اسيا الوسطى للغرض نفسه . وجاء هذا الأهتمام المتزايد بسبب الحاجة الملحة الى منتجات اسيا الوسطى مثل القطن والاقمشة المزركشة التي كانت رخيصة بالنسبة للروس . ومنذ هذا الوقت تقريباً تبدأ محاولات التجار الروس من أجل الوصول الى الهند . فإن التجار والسفراء الروس الذاهبين الى أسيا الوسطى لم يقتصر نشاطهم على التجارة فحسب بل كان لهم دور واضح في السياسة والحروب الدائرة بين الحكام والامراء الاقطاعيين والقبائل الرعوية في تلك المناطق الواسعة من السهوب والبراري . فقد رفع سفير حكومة موسكو باسل داود لدى امارة خيوة الى قيصر موسكو فيودور الكسيفيج تقريراً حول الحروب الدائرة في امارة خيوة بين الاقطاعيين من جهة وامير خيوة من جهة أخرى ومدى تأثير هذه الحروب على العلاقات التجارية بين أمارة خيوة من جهة وروسيا من جهة أخرى(٨) . وهناك معلومات قيمة حول اعمال ونشاطات التجار والسفراء الروس لدى حكام اسيا الوسطى ومدى تدخلهم في الشؤون الداخليه والسياسة الخارجيه وجمع المعلومات حول الطرق المؤديه الى الهند وسبل الوصول اليها (٩) .

لم يقتصر الأهتمام بالهند في هذه الفترة على الروس بل أن انكلترا حاولت أيضاً معرفة بعض الشيء عن الهند في هذا الوقت المتقدم . فمنذ بداية النصف الثاني من القرن السادس حاول التجار الانكليز الوصول الى اسيا الوسطى وفارس والهند من خلال روسيا . في عام ١٥٥٨ م ارسلت شركة لندن التجارية :

(The Company of The Merchant Advantures for The Dieeovery of Reqions' Islands Places Unknow) ممثلاً عنها وهو جينكنسون يحمل رسالة من الملكة اليزابيث الى امير بخارى وشاه فارس حول اقامة علاقات تجارية معها ، الا أن جهوده لم تسفر عن أية نتائج ايجابيه ولاسيا مع فارس(١٠) . عندها قام جينكنسون بتأسيس فرع لشركته في موسكو عام ١٥٦٧ باسم (Russian of Moskovy) وأسس لها الكثير من المخازن في المدن الروسيه الأخرى مثل استراخان ونوفكورود . فقامت هذه الشركة بتصدير البضاعة الانكليزيه عبر روسيا الى بخاري والهند والصين وذلك بموافقة حكومة موسكو . الا انه سرعان ما شعر التجار الروس بخطورة ذلك المشروع اذ أصبح من الصعب على البضاعة الروسيه منافسة البضاعة الانكليزية الرخيصة والجيدة . فبدأوا يطالبون بمنع مرور البضاعة الاوربيه – خاصه الانكليزيه – عبر روسيا الى أسيا الوسطى والهند والصين فأستجابت حكومة موسكو الى طلباتهم فأصدرت قانون عام ١٦٤٦ الذي حرم بموجبه مرور البضاعة الانكليزيه والمتاجرة بها إلا من خلال ميناء «أرخانجل» فقط الواقع على بحر الشمال – البحر الابيض – وفرض ضرائب مضاعفة عليها(١١) . ويعتبر هذا أول اصطدام في المصالح التجاريه بين روسيا وانكلترا في اسيا الوسطى . لكن انكلترا وجدت طريقاً أخر لها للوصول الى الهند والصين واسيا الوسطى . وهو طريق البحر . كما حاولت حكومة موسكو في هذه الفترة اقامة علاقات تجارية مع الهند لكنها لم تحقق أي نجاح في هذا المضمار . اذ أن سفيري القيصر الاسكندر ميخائيل وهما نيقولا سيريوجين وفلاديمير شورين . اللذين عزما على السفر لمقابلة خان المغول العظيم جاهاتكير لم يسمح لهما بالوصول الى الهند عبر فارس فرجعا فاشلين الى موسكو . في الوقت الذي أصبح فيه لتجار امارة بخارى علاقات واسعة مع الهند فلم يرغبوا تماماً أن يكون لهم منافس في هذا المضمار متمثلاً بالتجار الروس(١٢) . وفي عام ١٦٧٥ حددت حكومة موسكو محاولاتها في ارسال سفارة الى الهند فتوجهت الى هناك سفارة نسيم داود لمقابلة خان المغول العظيم ار مينجازيو(١٣) . لكن خان المغول رفض مقابلة اعضاء السفارة كما رفض اقامة أي علاقة مع موسكو . وعلق على ذلك بقوله : ان سفارة موسكو الى الشاه كان القصد من ورائها الحصول على الغنى والثروة وليس من أجل أي شيء أخر(١٤) . وربما اتخذ خان المغول هذا الموقف بتأثير التجار الانكليز وتجار أسيا الوسطى .

وبعد مرور عشرين عاماً جددت حكومة موسكو محاولاتها في ارسال سفارة الى الهند . وفي هذه المرة تمكنت السفارة الروسيه من مقابلة خان المغول العظيم والذي أرسل الى بطرس الكبير هدية عبارة عن فيل صغير

(٨) نفس المصدر ص ٣٣٩
(٩) كارمان – نشاطات الروس في اسيا الوسطى بتروغراد ١٨٤٩ ص ٢٦٤ – ٢٦٥ «باللغة الروسية»
(10) Humboldt — Asie Central' Vol L 1846 P 223 — 226

(١١) وثائق الأرشيف الحكومي المركزي – بتروغراد – المجموعة الماليه لسنه ١٦٦٤ وثيقه ٢٢ ورقه ١٤ .
(١٢) معلومات حول تاريخ شعوب الاتحاد السوفيتي – الاصدار الثالث ورقه ١٤ ص ٣٣٦ – ٣٣٧ لسنه ١٦٧١ «باللغة الروسية»
(١٣) نفس المصدر ص ٣٣٩
(١٤) وثائق الارشيف التاريخي الحكومي لسنه ١٨٥١ الاصدار الخامس ص ٢٨٣ – ٢٨٥

ويظهر أن السفارة لم تحقق شيئاً اكثر من هذه الهدية[15].

والى هذا الوقت لم يحصل أي تصادم بين التجار الروس وتجار اسيا الوسطى فكانوا يزاولون نشاطهم سوية بكل سلام رغم وجود بعض المنافسة بينهم من أجل السيطرة على الاسواق التجارية[16]. ولكن منذ بداية القرن الثامن عشر اراد الرأسمال الروسي أن يكون هو المحتكر والمسيطر على اسواق أسيا الوسطى ، فبدأ يوجه سياسة حكومة موسكو الى اسلوب استعمال القوة مع حكام أسيا الوسطى من أجل تحقيق ذلك . وبعد فشل جيوش بطرس الاكبر امام العثمانيين في معركة نهر بروت وتنازله الى العثمانيين عن ميناء أزوف على البحر الاسود عام ١٧١١ ضعفت تجارة روسيا في البحر الاسود ، فنقلت نشاطها الى منطقة بحر قزموين .

لقد كان لروسيا في هذه المنطقة نشاط تجاري قبل هذا ولكنه لم يكن على نطاق واسع فكانت تلك التجارة بالمقايضة مع قبائل التركمان والقبائل الأخرى خاصة في منطقة منجيتلات الواقعة على السواحل الشرقية لبحر قزوين . أما التجارة مع اسواق فارس فكانت محتكرة من قبل التجار الهنود والارمن وشركة جولفا لتجارة بحر قزوين . وقد فكر بطرس الاكبر باسلوبين لتوسيع نشاط تجارة روسيا في اسيا الوسطى .

١ - تحويل مجرى نهر امودار وجعله يصب في بحر قزوين وبدلاً من مصبه في بحر اورال ، وعندها ستتوجه كل تجارة اسيا عن طريق روسيا .

٢ - ضم امارة خيوة الى روسيا بعد تعهد الحكومة الروسيه بضمان حق اميرها في عرش الامارة . ودعوة خانات اسيا الوسطى الأخرين للموافقه على قبول المساعدات العسكريه الروسيه والاتفاق معهم على تواجد الجيوش الروسيه فوق اراضيهم[17] . ولكن لم يوافق أي واحد من حكام اسيا الوسطى على تلك الاقتراحات . وكما ذكرنا اعلاه من أن تجار بخارى وخيوة كانت لهم علاقات تجارية ناجحة مع جيرانهم من قبائل القرغيز والقازاق ومع فارس وافغانستان بحيث تمكنوا من الوصول الى الهند عن طريق مساعدة حكام افغانستان . ويذكر العالم الاقتصادي الروسي «نيبوللسن» صاحب الاطلاع الواسع في شؤون اسيا الوسطى في القرن التاسع عشر : إن بخارى كانت مركزاً تجارياً لجميع مناطق السهوب والبراري ، فهي تستورد منهم منتجاتهم المحلية وتصدر إليهم البضائع من مختلف المصنوعات الروسيه والانكليزيه والهنديه[18] . وبعد فشل الأجراءات العسكريه والدبلوماسيه والتي اراد عن طريقها بطرس الاكبر تقوية نفوذ روسيا السياسي والأقتصادي في أسيا الوسطى . نلاحظ أن بطرس قد لجأ الى اسلوب أخر لأنعاش التجارة الروسيه . فإذا ما دققنا في التعليمات التي اصدرها الى سفرائه : فولينكي وبيكوفج وكوجين نلاحظ أن معظم تلك التعليمات كانت تتعلق بجمع المعلومات حول البضاعة الأجنبيه التي يمكن أن تكون ملائمة ومناسبة للتصدير الى روسيا وبعدها من روسيا الى الخارج وخاصة الى اسواق أسيا الوسطى . واستناداً الى تلك المعلومات يمكن القول أن التجار الروس في تلك الفترة كان نشاطهم الاساسي يقوم على اساس الوساطة بصورة تامة بين اوربا واسيا وخاصة بالنسبة للبضاعة الاوربيه وغير المألوفة في اسيا واذا ما اطلعنا على نوعية البضاعة المستوردة من اسيا الوسطى الى روسيا ومن خلالها الى اوربا يتضح لنا انها كانت بصورة عامة بضاعة كمالية للبذخ والترف ولم تكن على درجة كبيرة من الضرورة والحاجة الملحة . ومن خلال الاطلاع على قوائم المكوس لمدن استراخان الواقعة على مصب الفولغا في بحر قزوين واورنبرغ الواقعة على نهر الاورال وخاصة ارخانجيلسك الواقعة على البحر الابيض الشمالي والتي من خلالها مرت كل البضاعة الى اسواق اوربا . يلاحظ أن أشهر البضائع المستوردة من أسيا الوسطى هي : المصنوعات القطنية الجاهزة والجواهر من الكتان والأحجار الكريمة والحلي الذهبيه والقماش الخام والأقمشة الهندية الكتانية النادرة والسجاد وجلود الحيوانات النادرة والفرو النادر والياقوت واللؤلؤ والزمرد والنيلة والتوابل . اما البضاعة الروسيه التي صدرت الى اسواق أسيا الوسطى فهي : معاطف الفرو والجلود والبضاعة الاوربية والسلع الصغيرة والخردوات والاواني المنزليه . ولكن من الصعب احصاء كمية هذه البضاعة وقيمتها ولكن يظهر أنها كانت على درجة من الأهمية في القيمة فمثال على ذلك في عام ١٧٥٣ فقط مرت من خلال مدينتي اونبورغ وترونسك في الاورال بضاعة قيمتها ٥٣٠ ألف روبل ماعدا الأحجار الكريمة الغالية الثمن[19] . ومع ذلك فإن دور تجار أسيا الوسطى في التجارة بين إنكلترا واسيا الوسطى كان اكثر نشاطاً من دور التجار الروس في هذا المجال . فقد جاءوا بالبضائع الانكليزيه الى اسواق اسيا الوسطى عن طريق فارس وافغانستان والهند . وكان أبرز تلك البضائع الأقمشة القطنيه الرخيصة التي لاقت رواجاً واسعاً في وسط

(١٥) وثائق الارشيف الحربي الاركان العامه مجموعة اخزال بيحكوف لسنه ١٨٧١ ص ٢١٥ ٢٢٠

(١٦) معلومات حول تاريخ شعوب الاتحاد السوفيتي . الاصدار الثالث . القسم الاول رقم ٧٥ ص ٢٠٠

(١٧) مجموعة وصايا الاباطرة الروس من ٣٠ / ٧/ ١٧٠٠ جراموتايو . جينسكي » باللغة الروسيه »

(١٨) وثائق الارشيف الحكومي المركزي لسنه ١٨٥٥ وثيقة ١٠ ورقة ١٦٦ (ملاحظات حول تجارة روسيا مع اسيا الوسطى)

(١٩) وثائق الارشيف الحكومي المركزي : X١ رقم ٨٨لسنه ١٧٤٤ ١٧٦٢ وثيقة ١٦ورقة ٣٢ - ٣٣ بتروغراد ١٨٩٠

شعوب أسيا الوسطى الفقيرة وقدراتها الشرائيه الضعيفة بحيث اصبح لها سوق رائجة في اسيا الوسطى وحققت ارباحاً طائلة لمنتجيها الأنكليز وتجار أسيا الوسطى على الرغم من ضرائب المكوس التي كان يدفعها التجار للعدد الكبير من الامراء والحكام عبر مرورها بالهند وافغانستان وفارس . اما البضاعة المصدرة من اسيا الوسطى الى اوربا عن هذا الطريق فهي بضاعة مترفة للبذخ والترف والابهة وليست لها أهمية لسواد الناس .

واذا كان التجار الانكليز منافسين للتجار الروس في اسيا الوسطى ، فإن التجار الروس كانوا اكثر خطورة على التجار الانكليز لانهم في نهاية المطاف سيصلون الى اسواق الهند كما يدعي الاقتصادي الروسي نيبولسن في القرن التاسع عشر .

وهكذا منذ القرن التاسع عشر بدأت كل من إنكلترا وروسيا تحاول كل منهما ازاحة الاخرى من اسواق أسيا . وعلى هذا الاساس فإن مشروع القيصر الروسي بافل الاول ١٧٩٦ - ١٨٠١ من أجل انتزاع الهند من انكلترا بمساعدة فرنسا يعتبر امتداداً لتلك السياسة . لكن حكام فرنسا وعلى رأسهم نابليون الاول على الرغم من رغبتهم في أن تفقد إنكلترا سيادتها على مسرح السياسة العالميه ، فقد وجهوا إنتقادات لاذعه الى ذلك المشروع الخطر . عندها قرر الامبراطور بافل الاول أن يقوم بهذا المشروع منفرداً . فقرر ارسال حملة عسكرية الى الهند من أجل تحطيم التجارة الانكليزيه هناك وطرد الانكليز منها والحاقها بالامبراطورية الروسية[٢٠] . لكن هذا المشروع لم يتم تنفيذه لأن القيصر الروسي قد اغتيل في ٢ أذار عام ١٨٠١ بمؤامرة قام بها انصار ولي العهد الاسكندر الاول والدبلوماسيه الانكليزية .

على أن مشروع بافل الاول حفز انكلترا للعمل الجاد من أجل حماية حدود الهند الشماليه من الخطر الروسي المزعوم خاصة بعد أن تم توقيع معاهدة تلست عام ١٨٠٧ بين الاسكندر الاول ونابليون الاول . حيث اصبح الكلام بعدها مستمراً وبصورة واضحة حول امكانية الحملة الروسيه - الفرنسيه المشتركة على مهاجمة الهند حسب ادعاءات الدبلوماسيه الانكليزيه وعندها بدأت إنكلترا تعمل بصورة سريعة لتثبيت اقدامها في الشرق الاوسط تحت حجة دره ذلك الخطر . في عام ١٨٠٩ وقعت معاهدة مع حكام بلاد فارس وكانت تأكيداً لمعاهدة ١٨٠١ والتي جاء فيها تعهد حكومة فارس بعدم السماح الى أي جيش اوربي بالمرور عبر اراضيها الى الهند لقاء تعهد إنكلترا بتقديم مساعدة ماليه الى حكومة فارس قدرها ٢٠٠ ألف تومان سنوياً .

(٢٠) مجموعة الوثائق التاريخية ج ×× وثيقة ١٦ ص ٣٢ - ٣٣ بتروغراد ١٨٩٠

وبعد أن تم التوقيع في تشرين الاول عام ١٨١٣ على معاهدة جيلان ستان بين روسيا وفارس وقعت إنكلترامعاهدة أخرى مع فارس عام ١٨١٤ ، تعهدت فارس بموجبها أن تحاول منع احتلال خوارزم وبخارى وسمرقند وتستعمل كل قواتها من أجل منع مرور أي جيش اجنبي الى هناك[٢١] .

كانت مسألة السيطرة على اسيا الوسطى قد اصبحت من ضمن الاهداف الاساسيه لسياسة كل من انكلترا وروسيا في القرن التاسع عشر ، فقد استخدمت كل منهما شتى الاساليب لتحقيق ذلك الهدف فقد بدأ الرأسمال الروسي يضع الخطط الفعالة وبصعد الروح العسكرية والأحتلال العسكري لأراضي الغير لدى السلطة القيصريه . في خلال الفترة الممتدة من ٤٠ - ٨٠ من القرن التاسع عشر ظهرت في المطبوعات الروسيه الكثير من الشعارات الهادفه الى ضرورة توسيع السوق الداخليه ، لروسيا بكل حماس . فقد ظهر الكثير من الكتب والمقاولات تحمل هذه الافكار . ولم تقتصر على معالجة مشكلة أسيا الوسطى وروسيا فقط ، بل مشكلة تجارة الهند ايضاً . وقد برزت في هذه المؤلفات روح العداء لانكلترا باعتبارها العدو الرئيسي لروسيا . واكدت الكثير من المقالات خاصة المجلات العسكرية بأن الحرب شئ حتمي بين إنكلترا وروسيا . كما الف الكثير من الكتب حول أهمية شركة الهند الشرقيه الانكليزيه وما تلاقيه من نجاح والدعوة الى تأسيس شركة روسيه شبيهة لها[٢٢] . كما صدرت الكثير من الكتب باللغات الفرنسية والانكليزية والالمانية حول مسألة الصراع بين روسيا وانكلترا في الشرق ، لا سيا في أسيا الوسطى والهند . أن ظهور هذه المطبوعات في المكتبات الاوربيه وطبع اعداد كبيرة منها لدليل على مدى أهتمام الاوربيين في المسألة المذكورة . وخاصة في فرنسا التي التزمت جانب روسيا ضد انكلترا . ومن المعروف أن الصراع بين انكلترا وفرنسا حول المستعمرات قد ادى الى قيام الحرب بين الدولتين مراتٍ عديدة[٢٣] .

ونتيجة لهذا الصراع أخذت تتطور في إنكلترا فكرة مقاومة روسيا . فمنذ عام ١٨٢٤ ارسلت الحكومة الانكليزيه وكلائها الى اسيا الوسطى متسترين بمختلف الحجج كالسياحة والاغراض الخاصة . وكان اشهرهم : موركرافت وكونولين وبيرس وورد وستود دارت وايون وشكسبير . وسرعان ما ظهر بعدهم الوكلاء الروس لأجل رصد

(21) E Freneh — Russo — Indian questions L 1809 P 1 — 31 Rawlinson — Enqland and Russia in the Eest L 1875 P 24

(٢٢) مقالات الجنرال جولوبكو فسكي - مجلة موسكو ١٨٤٣ - ١٨٥٠ مقالات الجنرال جولوبكو فسكي - المجلة العسكريه بتروغراد ١٨٦١

(23) L' Iode' Anqlaise Par Capt. de Warron P 1884

نشاطاتهم [٢٤] .

جمع الوكلاء الانكليز معلومات حول تجارة اسيا الوسطى ومسألة توغل التجار الروس نحو الهند . فقد وصل كل من الوكلاء الانكليز وود وبيرنس في نهر السند حتى حدود الصين بصورة سرية ليطلقوا على مدى صلاحية هذا النهر للملاحة للأستفادة منه في نقل البضاعة الانكليزيه الى اسواق اسيا الوسطى ، مما يجعل البضاعة الانكليزية رخيصة فتتمكن من ازاحة البضاعة الروسيه من تلك الاسواق ، يضاف الى ذلك التفتيش عن مكان ملائم على شواطئ نهر السند ليكون مركزاً تجارياً لانكلترا لكي يتمكن تجارها من ازاحة التجار الروس والأسيويين من اسواق الهند وفي سنه ١٨٣٨ اشتد الصراع بين انكلترا وروسيا على مدينة هرات ، فعندما ارادت فارس احتلال هرات ايدتها روسيا في ذلك ، أما انكلترا فمن الطبيعي أن تلتزم جانب افغانستان ، وهكذا فإن إنتصار فارس والواقعة تحت تأثير روسيا يعني بذلك انتصار روسيا ، لكن إنكلترا ربحت الجوله ، اذ إن الجيش الافغاني وبمساعدة الخبراء الانكليز منع تقدم الجيوش الفارسيه نحو هرات .

وبعد فترة قصيرة جابهت إنكلترا مشكلة جديدة وهي المحاولات العسكرية التي قام بها الجنرال الروسي بيروفسكي لأحتلال امارة خيوة عام ١٨٣٩ كبداية للأستيلاء على امارات أسيا الوسطى وضمها الى الامبراطورية الروسيه . عند ئذ ارسلت إنكلترا على جناح السرعة وكلائها الى : بخارى وخيوة وقوقند وهم : ستوددارت وابوت وشكسبير وكونولين . وطلبت منهم افتداء الاسرى الروس لدى خانات أسيا الوسطى . وذلك لادعاء الروس بأن السبب الرئيسي لحملتهم العسكرية الفاشلة على خيوة هو «ضرورة مسيحية واجبة» وهي تحرير الاسرى الروس المسيحيين الذين وقعوا بيد المسلمين . فقد ارادت انكلترا القضاء على حجة روسيا هذه بسرعة ووضعها امام الامر الواقع بالاعلان عن أهدافها الصحيحة من وراء حملاتها العسكرية على امارات أسيا الوسطى أو الكف عن مثل تلك الحملات . اما الهدف الثاني من وراء ارسال وكلائها فهو أن يقوم هؤلاء الوكلاء بالاتفاق مع امراء اسيا الوسطى بأن لا يثيروا لهم أي مشكلة مع حكام روسيا في المستقبل لكي لا يعطوا الحجة لروسيا لتحتل اراضيهم وتحطم استقلالهم [٢٥] .

أن خوف إنكلترا من الأحتلال الروسي لامارات أسيا الوسطى لم يكن مبعثه أنها – انكلترا – ستفقد سوقاً تجاريه واسعة بل أن سقوط هذه الامارات تحت الحكم الروسي خاصة قوقند ستجعل هذه المنطقة موقعاً ستراتيجياً مهماً ومتقدماً للهجوم على الهند ، غم أن هذا التخوف لم يصدق .

لقد فشلت أنكلترا في هذه الجولة اذتم الاتفاق بين الحكومة الروسيه وأمير بخارى بأن تقدم روسيا للأمير مساعدات مادية ملائمة لنمط حاجاته لقاء تعهده بتسهيل اعمال التجار الروس في اماراته [٢٦] . كما رفض امير خيوة الدخول بحلف دفاعي وهجومي مع إنكلترا [٢٧] .

ويظهر أن حكام دويلات أسيا الوسطى في هذه المرحلة كانوا اكثر اهتماماً بالصداقة مع روسيا بسبب علاقاتهم التجاريه مع المدن الروسيه . فقد طدروا الكثير من البضاعة الى الاسواق الروسيه وحصلوا على الذهب بديلاً عنها . يضاف الى ذلك إن تجار أسيا الوسطى كانوا على صداقة وعلاقة متينة مع تجار موسكو الذين قدموا لهم البضائع الكثيرة نسيئة وهكذا فشل الوكلاء الانكليز المبعوثون الى أسيا الوسطى ففي عام ١٨٤٢ قتل في بخارى كل من الوكلاء الانكليز كونولين وستوددارت بينما ازدادت العلاقات التجارية بين روسيا واسيا الوسطى ففي فترة ١٨٤٠ – ١٨٥٠ ارتفعت كمية البضاعة الروسيه المصدرة الى اسواق أسيا الوسطى بنسبة ١٥٪ عما كانت عليه قبل تلك الفترة . [٢٨] لقد أخذت السياسة القيصريه في القرن التاسع عشر تعمل على احتواء اراضي الغير بالقوة . وذلك لأن الرأسمال الروسي بدأ يفتش عن الاسواق الجديدة ولابد أن يؤدي ذلك الى الأصطدام بالمصالح الانكليزيه ويكون على حسابها وهذا ما حصل في أسيا الوسطى اذ كانت مسرحاً للصراع بين إنكلترا وروسيا . فأيدت الطبقات المتنفذة في روسيا سياسة الأحتلال العسكري التي انتهجتها السلطة القيصرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في أسيا الوسطى لأن ذلك يحقق الأهداف التالية :

١ – الحصول على اراضي جديدية مما يتفق مع طموحات النبلاء الروس .

٢ – الحاجة الملحة للبرجوازية التجاريه والصناعيه الروسيه الى اسواق جديدة ومصادر للمواد الأوليه وخاصة القطن . كما أن الحصول على الاسواق الجديدة مما يضعف الصراع بين الرأسمالية النامية والاقطاع داخل روسيا .

٣ – إن سيطرة روسيا على اسيا الوسطى وقبائلها والتي تقع بالقرب من بحر قزوين وجنوب الاورال وغرب الفولغا يمثل أهمية ستراتيجيه بالنسبة للدفاع عن قلب روسيا ووسطها .

(24) A. Burnes – Travels into Boukhara L 1834 P 124 – 132

(25) Kaye – History of the wor in Afqhaniston – Chapter – the qreat qame' aCentral Asia L 1881

(٢٦) وثائق الارشيف التاريخي – القسم الاسيوي رقم ١ – ٦ سنه ١٨٣٨

(27) – Rawlinson – England and Russia in the East L 1875 P 154 – 59

(٢٨) ارلوو سميتوف – دراسة الجذور التاريخيه للصناعة والتجارة في روسيا بتروغراد ١٨٥٩ ص ١٩٣ – ١٩٤ (باللغة الروسية) .

٤ – ان تواجد روسيا في أسيا الوسطى يساعدها على تحقيق بعض التنازلات من انكلترا في شبه جزيرة البلقان والمضايق . وهكذا كلما ازداد توغل البرجوازية الروسيه وبضاعتها في اسواق أسيا الوسطى وابقائها على قواتها العسكرية هناك كلما ازداد حذر إنكلترا من سياسة روسيا الاستعمارية التوسعيه .

لقد سببت افغانستان مشاكل كثيرة لانكلترا بدون انقطاع فبعد أن حصل الاصطدام بين المصالح الانكليزية والروسيه حول صحراء هرات في عام ١٨٣٨ بدأت كل من انكلترا وروسيا تعد العدة لكسب افغانستان الى جانبها . فحضر الى قصر امير افغانستان دفعة واحدة مبعوث روسي وهو الجنرال فيتكوفش وآخر انكليزي يدعى السير بيرنس . وقد بدأ هذان الدبلوماسيان صراعاً عنيفاً من أجل السيطرة على امير افغانستان وفي هذا الوقت بدأ اميرافغانستان دست محمد خان يميل الى جانب روسيا ، اذ ان المبعوث الروسي فيتكوفش لم يبخل بالهدايا والوعود التي قطعها للأمير الافغاني خاصة وان روسيا في هذا الوقت لم تكن تمثل خطراً مباشراً عليه لأن جيوشها لاتزال بعيدة عن حدود افغانستان ولا تهددها بصورة مباشرة .

إن هذا التقارب الذي حصل بين روسيا وافغانستان زاد من قلق إنكلترا على الهند وبدأت تتمنى تحطيم التحالف الافغاني – الروسي فتدخلت في شؤون افغانستان عندما اعلنت الحرب عليها عام ١٨٣٨ – ١٨٤٢ . والتي كلفتها ١٨ ألف قتيل و١٥ مليون جنيه استرليني .

وقد بررت إنكلترا هذا التدخل على اساس : أن وجود إنكلترا في اسيا الوسطى شيء قانوني بالنسبة للأمة الانكليزيه لأجل احباط كل الخطط الموجهة ضد حدودها الشماليه الغربيه في الهند[٢٩] . وكان الرد الروسي على هجوم إنكلترا على افغانستان هو الحملة العسكرية التي قادها الجنرال بيروفسكي عام ١٨٣٩ لأحتلال امارة خيوة . اذ كان أحد أهداف الحملة الاساسيه هو تقوية النفوذ السياسي والتجاري لروسيا في اسيا الوسطى واضعاف النفوذ الانكليزي هناك[٣٠] . وفي عام ١٨٥٣ وبعد صراع طويل تمكن الجيش الروسي من احتلال حصن اكميشيت ويعتبر هذا كخطوة اولى لأحتلال منطقة طشقند التي كانت تابعة الى امارة قوقند والتي تعتبر غنيه بمواردها الاوليه وسوقها الواسعة . لكن نشوب حرب القرم عرقل النشاط الروسي في اسيا الوسطى .

وقد صرح الحاكم العسكري لمنطقة اورنبرغ أن القصد من احتلال قلعة اكميشيت هو ضم امارة قوقند الى الأراضي الروسيه وتحويل قبائل

(29) Kaye – P 68

(٣٠) وثائق الارشيف التاريخي – القسم الاسيوي رقم ١٢٠٩ لسنه ١٨٣٩

القزغيز الى التبعية الروسيه[٣١] . ومن الواضح أن الحدود بين امارات اسيا الوسطى لم تستقر بعد وكذلك حدودها مع الاراضي الروسيه . وكانت الدبلوماسيه الروسيه ترى أن تأخير تثبيت الحدود من صالحها[٣٢] . وفي عام ١٨٥٠ حاولت انكلترا أن توحد حكام اسيا الوسطى ضد روسيا فقد كتب الحاكم العسكري الروسي لمقاطعة اورنبرغ الى وزارة الخارجيه ان سفارة امير افغانستان في بخارى طلبت من أمير بخارى الموافقة على وجود قوة افغانيه في بخارى لاستعمالها في الحرب ضد روسيا[٣٣] . لكن امير بخارى رفض ذلك ولم يكتف بذلك بل طرد البعثة الافغانيه من بلاده وارسل ١٢ ألف من جنوده الى حدود امارته مع افغانستان للدفاع عنها وحصلت بعض المناوشات مع القوات الافغانية[٣٤] .

ان سياسة إنكلترا بعد فشلها في حربها مع افغانستان ١٨٣٨ – ١٨٤٢ وفشل سفاراتها في اسيا الوسطى ومقتل وكلائها في هرات كانت تقوم على أساس تقوية نفوذها في الشرق الاوسط . وقبيل اندلاع حرب القرم ١٨٥٣ تمكنت انكلترا من احباط محاولات الاتفاق بين فارس وروسيا حول قيام فارس بمهاجمة الاراضي العثمانيه . كما نجحت إنكلترا في الحصول على تعهد من الشاه بعدم القيام بالتدخل في شؤون هرات وأن لا يكون لديه هناك تمثيل دبلوماسي[٣٥] .

وعملت الدبلوماسية الانكليزية على اثارة اكراد فارس ضد النفوذ الروسي[٣٦] . وقد ارادت إنكلترا من وراء مساهمتها في حرب القرم ١٨٥٣ – ١٨٥٦ ليس فقط الدفاع عن ممتلكات الدولة العثمانيه من الغزو الروسي وطموحاته في السيطرة على البحر الاسود لكنها ارادت أيضاً ابعاد روسيا عن القفقاس وسد الطريق في وجهها الى اسيا الوسطى . فقد وضعت في لندن الخطط من أجل انتزاع شبه جزيرة القرم والقفقاس من روسيا وتأسيس حكومة اسلاميه – الحكومة التركيه – برئاسة شامل بك ودولة اسلامية أخرى برئاسة دست محمد خان امير افغانستان تضم افغانستان وجزءاً من اسيا الوسطى وتكون هذه الدول الاسلامية جبهة موحدة ضد التوسع الروسي في اسيا الوسطى والمضايق .

وبعد أن اكملت انكلترا احتلالها للمقاطعات الهنديه عام ١٨٥٦ استغلت ضعف روسيا بعد حرب القرم وارادت العمل وفق سياسة

(٣١) نفس المصدر رقم ٨ لسنه ١٨٧٩ ص ٤٤٢ – ٤٦٩

(٣٢) نفس المصدر رقم ٩٢ لسنه ١٨٥٠ ص ٤

(٣٣) وثائق الارشيف التاريخي لجمهورية ازبكستان رقم ٧١٥ وثيقه ٢٢ ورقه ٤٨٦ – ٤٨٧

(٣٤) نفس المصدر ورقه ٤٨٧

(٣٥) ريتيكس – ملاحظات حول سياسة حكومة فارس – بتروغراد ١٨٨٠ ص ٢٥٢ – ٥٤

(٣٦) وثائق الارشيف التاريخي رقم ١٠ وثيقه ١ ٩ ورقه ٢٩ لسنه ١٨٥٤

الأحتلال للمناطق الجديدة في الشرق خاصة في اسيا الوسطى ومناطق بحر قزوين ، ففي عام ١٨٥٥ وقعت معاهدة صداقة في مدينة بيشاور مع أمير افغانستان ضد روسيا كما حاولت الاستيلاء على هرات[٣٧] . ويظهر ان نفوذ إنكلترا بين حكام أسيا الوسطى ازداد بعد حرب القرم ففي ٢٦ شباط عام ١٨٥٥ بعث القائد العام للجيش الروسي في منطقة سيبريا الجنوبيه الى وزارة الحربيه يخبرها بوصول مبعوث انكليزي الى امير بخارى يطلب منه السماح بمرور القوات البريطانيه الى الاراضي الروسيه على حدود سيبريا وهو يحمل توصية من السلطان العثماني عبد المجيد الأول .

الى امير بخارى يطلب منه السماح بمرور القوات البريطانيه الى الاراضي الروسيه وقد وافق الامير على ذلك[٣٨] . وهذا يدل على أن الوكلاء الانكليز في اسيا الوسطى كانوا على علاقة حسنة مع السلطان العثماني . وبعد هذا الحادث بوقت قصير كتب الحاكم العسكري الروسي لمنطقة قرغيزيا الى وزارة الحربيه بأن الوكلاء الانكليز يعملون من أجل اثارة قبائل القرغيز ضد الوجود الروسي[٣٩] . مما يدل على محاولات إنكلترا لأثارة خانات أسيا الوسطى ضد روسيا والتوغل في سيبريا ، ودفع امير افغانستان لأحتلال بخارى ، وذلك ما اعلنه الحاكم العام الروسي لمقاطعة اورنبرغ برسالته الى وزارة الحربية[٤٠] . كما اعلن عن وصول الوكلاء الانكليز الى امارة خيوة وبخارى[٤١] .

إن محاولات إنكلترا في الاستيلاء على اسيا الوسطى دفع روسيا الى الهجوم السريع على اسيا الوسطى لكي تسبق إنكلترا الى ذلك . علماً بأن تطور الصناعه الروسيه جعل أسيا الوسطى تمثل حاجة ملحة لها كسوق لتصريف منتجاتها وللحصول على المواد الاوليه للصناعة خاصة القطن لكي يسد حاجة صناعة النسيج ويجعلها تستغني عن استيراده من الخارج . وفي عام ١٨٥٤ تمكنت السلطة القيصرية من تثبيت اقدامها في كازخستان الجنوبية بعد بناء حصن فيرنويه الذي تحول فيما بعد الى مدينة ألما - أتا عاصمة كازخستان وقد ادى ضم كازخستان الجنوبية الى الامبراطورية الروسية الى اصطدام مع امارة قوقند وبخارى واحتلت الجيوش الروسية في عام ١٨٦٥ مدينة طشقند التابعة لامارة قوقند . وفي عام ١٨٧٣ اعترفت امارة خيوة بالتبعية الروسية ومنحت الاستقلال الذاتي في ادارة شؤونها الداخلية والغي الرق فيها واصبح لروسيا حق الملاحة في نهر امودار وحرية التجارة في كافة ارجاء الامارة وان تدفع الى روسيا غرامة نقديه قدرها ٥ ر ٢ مليون روبل خلال عشرين سنة . اما سياستها الخارجية فتكون تحت اشراف الحاكم العام لتركستان الروسية .

وفي عام ١٨٧٨ وقعت اتفاقيه بين روسيا وامارة بخارى تشبه المعاهدة الموقعة مع حاكم امارة خيوة . اما امارة قوقند فقد بقيت محافظة على استقلالها حتى كانون الثاني عام ١٨٧٦ عندما احتل الجنرال الروسي سكو بيليف عاصمتها أنيجان وفي ١٩ شباط عام ١٨٧٦ أعلن عن الغاء امارة قوقند وتم تشكيل ما يسمى بمقاطعة فرغانة كجزء من تركستان الروسيه .

إن الغاء امارة قوقند يعني أن روسيا قد تمكنت من أحتلال اسيا الوسطى وأنشأت من الاراضي المحتلة حاكمية تركستان التي قسمت الى مقاطعات على رأسها حكام عسكريون . واصبحت طشقند مركز الحاكم العام للأقليم .

أما إنكلترا التي كانت تطمح في السيطرة على اسيا الوسطى وما وراء القفقاس فقد باءت بالفشل اذ لم تتمكن من اختراق هضبة هندكوش وتصل الى حوض نهري سيردار وامودار . وهكذا فإن هدف انكلترا في اضعاف روسيا في اسيا لم يتحقق إلا انها استمرت ترصد بكل انتباه تحركات روسيا في منطقة سهوب تركستان وفي طريقها الى مرو . كما فشلت محاولات إنكلترا في اقامة منطقة محايدة في اسيا الوسطى تفصل بين مناطق النفوذ الانكليزية والروسيه لكي تخفف الاصطدام بين الدولتين فوافقت روسيا على ذلك بشرط أن تكون افغانستان ضمن المنطقة المحايدة ، لكن إنكلترا لم توافق على ذلك بل ارادت أن تكون المنطقة المحايدة تتكون من الاراضي الواقعة على نهر امودار المحاذية لامارة بخارى ، وهذا يعني إن انكلترا ارادت طرد روسيا من امارة خيوة وحوض نهر امودار وهكذا لم يتوصل الى نتيجة . كانت هذه المحاولة قد تمت في عام ١٨٦٩ عندما اقترح ذلك وزير خارجية إنكلترا كلاريندون على وزير خارجية روسيا برابنوف[٤٢] .

إن نجاح روسيا في فرض سيطرتها على اسيا الوسطى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفشل الدبلوماسيه الأنكليزيه في اقامة منطقة محايدة هناك مما أثار موجة من الهلع والخوف في الاوساط الأجتماعيه والسياسيه في انكلترا . فقد كانت الصحافة الأنكليزيه تراقب تحركات

(٣٧) بافلوفا - بوشيفا - الهجوم الانكليزي على فارس ١٨٥٦ - ١٨٥٧ موسكو ١٩٥٢ ص ١٢٤

(٣٨) هالفن - العثمانيين والانكليز في اسيا الوسطى في ٥٠ - ٨٠ من القرن التاسع عشر طشقند ١٩٥٧ ص ٢٩ - ٤٨ (باللغة الروسية) .

(٣٩) وثائق الارشيف التاريخي لجمهورية اوزبكشان ملف ٧١٧ وثيقه ١٦ ورقه ٥٣ لسنه ١٨٥٥

(٤٠) نفس المصدر ملف ٧١٥ وثيقه ١٧ ورقه ٢٠٢ - ٢٠٣ لسنه ١٨٥٦ .

(٤١) نفس المصدر ملف ٧١٥ وثيقه ٢٢ ورقه ٢٢٩ لسنه ١٨٥٦

(٤٢) - فيودورمار تنس - روسيا وانكلترا في اسيا الوسطى - بتروغراد ١٨٨٠ ص ٤٢ (باللغة الروسية)

روسيا في اسيا الوسطى بكل انتباه فأطلقت على روسيا اسم الدولة الطموحة وان احتلال الهند والقسطنطينية أحب شيْ الى أي مواطن روسي اعلنت ذلك صحيفة التايمس اللندنيه في سلسلة المقالات التي نشرتها في عام ١٨٧٣ . فساندت الدبلوماسية الانكليزية والدوائر العسكريه العليا شعار الخطر الروسي على الهند والذي اكدت عليه الصحافة البريطانيه . في الوقت الذي ازداد اهتمام انكلترا في الهند بعد أن فقدت مستعمراتها في العالم الجديد . حتى وصفها أحد رجال السياسة بقوله : بقيت الهند الجوهرة الوحيدة اللامعة في الامبراطورية البريطانية[٤٣] . في سنه ١٨٦٥ ذكر السائح الهنغاري أرميني فامبيرا» : أن احتلال روسيا لتركستان يساعدها على احتلال افغانستان ثم شمال الهند[٤٤] . وفي عام ١٨٦٨ جاء في محاضرة الخبير العسكري الأنكليزي هنري راولسن : أن تحرك الجيش الروسي الى اسيا الوسطى يعني غزو الهند من الاتجاهات التالية :

١ - بحر قزوين من خلال اورنبرغ وسهوب سيبريا ثم الى ارتوش .

٢ - استراباد - هرات - قندهار - كابل وهذا يعطي الى روسيا مفتاح بوابة الهند[٤٥] .

وبعد احتلال روسيا امارة خيوة عام ١٨٧٣ جاء في محاضرة له في الجمعية الجغرافية الملكية في لندن : اصبحت روسيا تسيطر على الطريق الذي يؤدي بها الى الهند[٤٦] . ومما زاد من شدة هذه المخاوف وضع إنكلترا في داخل الهند ، اذ كانت مشغوله في القضاء على الثورات القومية التحررية التي زادت حدتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بتأثير المجاعات المتكررة . كما أن تخلف شبكات الخطوط الحديديه في الهند وبعدها عن المتربول - انكلترا - كل هذه تكون صعوبات في نقل الجيوش البريطانية الى ساحة الحرب المطلوبة في اسيا ضد روسيا . وفي الوقت الذي تملك فيه روسيا كل الافضليات بالنسبة الى هذه المشاكل . فمن خلال بحر اورال ونهر امودار يسهل عليها نقل جيوشها الى ساحة الحرب حتى حدود افغانستان الا أن السلطة القيصرية في روسيا لم تكن متهيأة للهجوم على الهند حتى ذلك الوقت .

لقد اصبحت الرأسماليه الروسيه قوية في أسيا الوسطى بعد الأحتلال التام لوادي نهر سيردار وامارة . بخارى وخيوة وقوقند وأخذت الوكالات

(43) Maninq. H. T. — British Colonial Government after American Revolution 1782 — 1820 L 1933 P 290

(٤٤) ارميني فامبيري - رحلة في اسيا الوسطى - بتروغراد ١٨٦٥ ص ٢٢٠ .

(٤٥) سوبو ليف - الصراع الانكليزي . الافغاني - بتروغراد ١٨٨٥ ص :٣٥٩ (باللغه الروسيه) .

(٤٦) وثائق الارشيف الحربي - الاركان العامة وثيقه ١٨٢٩٦ ورقه ١٤ - ١٥ لسنه ١٨٧٣ .

التجارية الروسية تزيح البضاعة الأنكليزية عن اسواق اسيا الوسطى بحيث اصبحت الحدود الجنوبية لتركستان بعد فترة وجيزة مغلقة في وجه البضاعة الأنكليزيه . وفي عام ١٨٩٤ منعت البضاعة الأنكليزية من الدخول الى اسواق خيوة وبخارى ، فأعتبرت انكلترا هذه الأجراءات مما يحطم مصالحها الأقتصادية في اسواق اسيا الوسطى . وصار الموقف على درجة من الجدية ، اذ أن روسيا لم تمنع إنكلترا من التدخل في شؤون اسيا الوسطى فقط بل جعلتها قلقه من احتمال قيام الروس بالهجوم على الهند وقد تظاهروا بالتهيؤ للهجوم . اذ صدرت الاوامر بتنظيم قوات من القوقاز وجيش تركستان والدعوة لخدمة الأحتياط ليس في تركستان فقط بل في غرب سيبريا ايضاً[٤٧] . الا أن السلطة القيصريه لم تكن قادرة على القيام بعمل عسكري على حدودها في اسيا الوسطى لأنها في هذه الفترة كانت في موقع صعب اكثر من انكلترا لاسيما وان انكلترا غيرت نظامها الدفاعي في الهند عما كان عليه قبل عام ١٨٦٨ . فقد اعادت النظر بالتوزيع الجغرافي لقواتها العسكرية في الهند . كما قامت ببناء شبكة من الخطوط الحديديه هناك وبعد احتلال حصن اكميجينت على يد القوات الروسيه في عام ١٨٥٣ بدأ المهندسون الانكليز بعملية اصلاح الطرق البرية في هضبة هندكوش[٤٨] . كما أن افتتاح قناة السويس سهل عملية نقل الجيوش من المتربول - الجزر البريطانيه - الى ساحة الحرب في اسيا . أما بالنسبة الى روسيا فلم تكن تملك قوات عسكرية كافية في تركستان ، يضاف الى ذلك صعوبة نقل الجيوش من اقسامها الاوربيه الى اسيا الوسطى بسبب قلة شبكة الخطوط الحديديه في هذه المساحات الواسعة من منطقة السهوب والبراري واضطراب الوضع الداخلي فيها واشتداد حركة المطالبة بالاصلاحات الجذريه . فأستغلت الدبلوماسية الانكليزية هذا الموقف الصعب الذي مرت به السلطة القيصرية ، فكان لها دور واضح في تحريض العثمانيين على رفض مشروع التسوية السلمية لحل النزاع بين العثمانيين وروسيا ، مما اضطر السلطة القيصرية الى اعلان الحرب على العثمانيين في عام ١٨٧٧ والتي انتهت بمعاهدة «سان ستيفانو» في أذار ١٨٧٨ والمعدلة بمؤتمر برلين في صيف ١٨٧٨ والذي سلب من روسيا حصيلة انتصاراتها على العثمانيين وبدأت نشاطها مجدداً في اسيا الوسطى وافغانستان . في الوقت الذي ضاعفت فيه روسيا نشاطها على الساحة الاوربيه . فبعد أن احكمت قبضتها على امارات اسيا الوسطى بدأت نشاطها للسيطرة على افغانستان فأشتدت الخلافات بين الدولتين

(٤٧) وثائق الارشيف المركزي التاريخي - القسم الاسيوي لسنه ١٨٧٧ رقم ٦١ ، ٥٩ لسنه ١٨٧٨ .

(٤٨) وثائق الارشيف الحربي - وثيقه ١٨٢٩١ ورقه ١ - ٨ لسنه ١٨٥٣

روسيا وانكلترا – في العقد التاسع من القرن التاسع عشر الى درجة اصبحت روسيا على قيد شعرة من الحرب مع إنكلترا .

في عام ١٨٧٨ أرسلت السلطة القيصرية الى كابل سفارة الجنرال ستوليتوف لتقوية أواصر الصداقة بين روسيا وافغانستان ومحاولة اقناع أمير افغانستان للوقوف الى جانب روسيا في حالة حربها مع إنكلترا وفضح سياسة إنكلترا في خرقها للقوانين وعزل الحكام المحليين ، بينما كانت علاقة روسيا مع حكام أسيا الوسطى قائمة على أساس الصداقة والمنفعة المتبادلة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية فأبقت الحكام الشرعيين على عروشهم مع كافة سلطاتهم القانونية [٤٩] . لكن حكام افغانستان أدركوا نوايا كل من إنكلترا وروسيا بالنسبة الى بلادهم . فهناك قصة لطيفة تحدث بها الامير دست محمد خان الى ابنائه : ان امير افغانستان كالوزة التي تسبح في بحيرة يجلس على حدودها الجنوبيه الاسد الأنكليزي يتودد للوزة للأقتراب منه ويجلس في الشاطئ الشمالي دب روسي يتودد اليها ايضاً . وبالنسبة للوزة فإن المكان الأمن لها هو أن تسبح في وسط البحيرة . ولكن اذا جفت البحيرة فسوف يلتقي الأسد والدب ويشتد الصراع بينهما وفي كل الأحوال سينتف ريش الوزة ويقصد بذلك افغانستان [٥٠] .

وعندما تسلم حزب المحافظين السلطة عام ١٨٧٤ بزعامة دزرائيلي عمل على احتلال افغانستان ، فأحتلت القوات الهنديه مدينه جيلان ومدينة كفيتو الواقعة داخل الاراضي الافغانيه . وكانت روسيا قد وعدت افغانستان بتقديم المساعدة لها في حالة تعرضها الى اعتداء خارجي لكن افغانستان كانت في موقف صعب ، فقد اصبحت بين الحشود الروسيه في منطقة امودار وبين الجيوش الانكليزيه في كفيتو . واستناداً الى وعود ستوليتوف كان امير افغانستان يأمل في الحصول على الدعم العسكري من روسيا عند حربه مع إنكلترا . وعندما بدأت الجيوش الانكليزيه زحفها صوب الاراضي الافغانيه عام ١٨٧٩ كتب الامير شير علي خان حاكم افغانستان الى وزير خارجية روسيا كايفهان يطلب منه المساعدة ولكن لم يلب طلبه فأحتلت الجيوش الأنكليزيه والهنديه العاصمة كابل وتنازل الامير شير علي خان الى أبنه يعقوب خان وتم توقيع معاهدة بين الطرفين أصبح بموجبها لايحق لأفغانستان الأتصال بأية دولة أجنبيه الا عن طريق حكومة الهند كما سيطرت القوات البريطانيه على المواقع الاستراتيجيه الفاصلة بين الهند وافغانستان مثل ممرات خيبر وتعهدت بريطانيا بتقديم مساعدة ماليه سنويه للحكومة الافغانية قدرها ٦٠ ألف

(٤٩) وثائق الارشيف المركزي التاريخي – القسم الاسيوي رقم ٥٥٩ لسنه ١٨٧٨ .
(50) J. Wheeler — the Ameer Apdur Rahman L 1881 P 122.

جنيه استرليني . وبعد توقيع المعاهدة صرح دزرائيلي في مجلس العموم البريطاني : ألأن اصبح للهند حدود مدروسه [٥١] . إن الموقف الروسي المحايد من الحرب الأنكليزية – الافغانية ، جاء بسبب أن السلطة المحليه في تركستان لا تملك القوة العسكرية الكافية للقيام بمجابهة عسكرية مع إنكلترا ، اضافة الى أنها لم تلق التأييد المشجع من العاصمة بتروغراد .

وبعد هذه النجاحات السالفة الذكر والتي حققتها إنكلترا في افغانستان وجه الروس نشاطهم باتجاه مدينة هرات – بوابة الهند – في عام ١٨٨١ احتلت القوات الروسيه مدينة عشق أباد الواقعة بالقرب من الحدود الافغانية – الفارسية . وفي عام ١٨٨٤ تم احتلال مدينة مرو . وقد امتعضت إنكلترا كثيراً من احتلال القوات الروسية هذه المدينة حتى اضطر أحد وزراء كلادستون الى الأستقالة وعندمااحتجت حكومة الهند على تحركات روسيا الأخيرة كان جواب وزير خارجية روسيا أن مدينة مرو لا تقع داخل الحدود الافغانية . ولذلك لا تجد روسيا القيصرية أي اساس لأدعاءات الحكومة الأنكليزية سيما وأن هذه المدينة تمثل الحاجز القوي لصد قبائل التركمان الشرسة عن الأراضي الروسية في منطقة بحر قزوين [٥٢] . إن اندفاع الجيوش الروسيه باتجاه الحدود الافغانية واقترابها منها ارهب انكلترا وجعلها تخشى على الهند من الغزو الروسي ، فوصلت الى هرات قوات انكليزية – هنديه . ودفعت الجيش الافغاني الى الأشتباك مع الجيوش الروسية التي كانت تحت قيادة الجنرال كماروف ، لكن الجيش الروسي الحق بها ضربة قوية وتمكن من تحطيمها في عام ١٨٨٥ . وأخذت الدول الاوربية تتوقع قيام الحرب بين روسيا وانكلترا وتصورت انها اصبحت حتميه ، لكن انشغال إنكلترا بشؤون الدولة العثمانية منعها من التدخل لنصرة افغانستان عندها تم توقيع المعاهدة الروسية – الافغانية لعام ١٨٨٥ ، وفي عام ١٨٨٧ تم الأتفاق بين الدولتين على تثبيت خط الحدود بينهما [٥٣] .

وبعد هذا التقارب الروسي – الافغاني ازدادت مخاوف الأنكليز على الهند ففكروا بالتحالف مع السلطان العثماني وكان من شروط التحالف المقترحة أن تقوم السلطات العثمانيه بالتعبئة الجزئيه واصلاح طرق مواصلاتها في المناطق القريبة من الحدود الروسيه خاصة في منطقة القفقاس [٥٤] . ويمكن أن يكون مشروع الأتفاق مع الباب العالي

(51) Selected Speeches and decumonts on British Coloniol Policy 1763 — 1917 by A. B. Keith L 1918 P 71 — 72.
(٥٢) وثائق الأرشيف الحربي – هيئة الاركان العامة رقم ٧٢ عام ١٨٨٤ .
(٥٣) مجموعة من المؤرخين السوفيت – تاريخ الاتحاد السوفيتي ج٢ ، موسكو ١٩٦٣ ص ١٥٦ «باللغة الروسية» .
(٥٤) وثائق الأرشيف الحربي – هيئة الاركان العامة – الوثائق السريه رقم ٥٨٧ لسنة ١٨٨٨

كوسيلة للضغط على روسيا تستغلها إنكلترا . وقد تصور القواد العسكريون الانكليز بأن الحملة الروسيه على الهند شيّ حتمي ، ولذلك فقد بدأت هيئة الاركان العامة للجيش الهندي بوضع مختلف الخطط العسكرية لمجابهة الغزو الروسي للهند . ويمكن ملاحظة الكثير من تلك الخطط في كتاب ماك جريجور الذي صدر عن هيئة الاركان العامة الهندية[٥٥] . بينما فكرت روسيا بأستغلال مشكلة غزوها للهند كوسيلة للضغط على إنكلترا للتساهل امام السياسة الروسيه في اوربا . فقد أعلن الجنرال الروسي سكو بيليف في تقريره الذي قدمه لهيئة الاركان العامة في ١٨٨٨/٨/٧ أن تقسيم افغانستان الى قسمين تفصل بينهما هضبة هندكوش عن طريق مساعدة اسحاق خان خصم عبد الرحمن خان تمثل نصراً كبيراً للسياسة الروسيه وهذا مما يسهل حل مشكلة البحر الاسود . وان الأنكليز سيضطرون الى تنازلات كثيرة لصالحنا في سبيل الحفاظ على الهند . وعندها سنملي عليهم شروطنا حسب مصالحنا[٥٦] . وهكذا تتضح الأهداف الاساسية من وراء سياسة روسيا وهو استغلال مشكلة الهند كوسيلة ضغط على عدوتها إنكلترا من أجل تحقيق طموحاتها في القسطنطينية والبحر الاسود وشبه جزيرة البلقان .

لقد أصاب الصراع الروسي – الأنكليزي شيّ من الفتور في نهاية القرن التاسع عشر بعد ظهور المشكلة البلقانية وطموحات النمسا في السيطرة على المنطقة اضافة الى ظهور الخطر الالماني المهدد لمصالح الدولتين – إنكلترا وروسيا – في الشرق الاوسط وهذا مما خفف من حدة الخلافات بينهما وجعل روسيا تركز جهودها حول شبه جزيرة البلقان .

لهذه الاسباب لم تشتد حدة الصراع الروسي – الانكليزي في أسيا الوسطى في نهاية القرن التاسع عشر ، مما أدى الى انتعاش العلاقات التجارية بين الهند من جهة وروسيا وأسيا الوسطى من جهة أخرى حتى أن الشركات الروسية الكبيرة نظمت علاقاتها التجارية مع الهند مثل شركة الخزفيات والاواني المنزلية «لوشينا» وشركة المنتجات النفطية «مانتاشيف» وبدأت هذه الشركات تطالب السلطة القيصرية بفتح قنصلية روسية في بومباي .

إن حرب البوير في جنوب افريقيا ١٨٩٩ – ١٩٠٢ حولت نشاطات انكلترا العسكرية والدبلوماسيه لفترة من الزمن من أسيا الى افريقيا . كما حاولت روسيا استغلال ذلك الظرف الصعب الذي احاط بانكلترا لأجل تقوية نفوذها في فارس والخليج العربي والشرق الأقصى . لكن اندحار البوير في تلك الحرب جعل إنكلترا تتمكن من القضاء على الخطر الروسي بسرعة . ومما ساعد إنكلترا على ذلك هو اليابان التي حطمت الاسطول الروسي في معركة بورت أرثر عام ١٩٠٤ . اما في بلاد فارس فقد استغلت انكلترا الحركة الدستورية القوية ضد الشاه فألتزمت جانب الحركة الثورية وارادت من وراء ذلك تحطيم سمعة روسيا التي كانت تساند الحكام الرجعيين في فارس . وفي بداية القرن العشرين بدأت روسيا القيصريه تؤمن بوجهة النظر القائلة – بأن علاقتها مع إنكلترا يجب أن تكون علاقة سلام . في الوقت الذي ساد الاعتقاد في صفوف المسؤولين الانكليز بأن اليابان ليس ذلك الحليف الذي يركن اليه كثيراً ، ذلك لأن اليابان تطمح في أن تكون سيدة الموقف في اسيا وخاصة في الشرق الاقصى والصين ، يضاف الى ذلك ظهور الخطر الالماني المشترك الذي بدأ يهدد مصالح الدولتين . فمنذ بداية القرن العشرين أصبحت المانيا احدى الدول الرأسماليه الكبيرة وبدأت تتحرك بكل نشاط في الأقطار الأسيويه خاصة في فارس مستغلة التناقضات بين روسيا وانكلترا لكنها لم تعمل من أجل احتلال فارس لانها في تلك الفترة – أي المانيا – لم تكن تملك القدرة على احتلال تلك البلاد وتنفرد بها لوحدها . في هذه الحالة يكون من مصلحة المانيا أن تبقى فارس مستقلة وتتبع سياسة الباب المفتوح في التجارة لجميع الدول[٥٧] .

وبتأثير هذه الظروف الجديدة هدأ الصراع بين إنكلترا وروسيا في أسيا الوسطى وفي معاهدة ١٩٠٧/٨/٣١ تم تقسيم فارس الى منطقة نفوذ روسيه في الشمال وانكليزيه في الجنوبيه ومنطقة محايدة في الوسط أما بالنسبة لافغانستان فقد طبق مبدأ تكافؤ الفرص في التجارة بالنسبة لروسيا وانكلترا ، وأن تكون سياستها الخارجية تحت أشراف حكومة الهند وتعهدت إنكلترا بعدم احتلالها أي جزء من أفغانستان طالما أن امير افغانستان يحترم تعهداته تجاهها كما تعهدت الدولتان بعدم التدخل في شؤون التبت .

وفي الختام يمكن القول أن الصراع الروسي – الأنكليزي في أسيا الوسطى منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى توقيع معاهدة ١٩٠٧ بين الدولتين – إنكلترا وروسيا – عبر عن أهداف الرأسماليه في حاجتها الى احتلال أراضي الغير كلما ازداد تطورها . وقد ازداد اهتمام روسيا القيصريه في أسيا الوسطى بعد فشلها في السياسة الاوربيه خاصة بعد حرب القرم ١٨٥٣ و١٨٧٧ . اذ أنها ارادت أن تعوض عن خسارتها في اوربا بتحقيق بعض النجاحات في أسيا الوسطى . علماً أن

(٥٥) ماك جريجور – الدفاع عن الهند – بتروغراد ١٨٩١ ص ٧ – ٢٢ «الترجمة الروسية» .
(٥٦) وثائق الارشيف الحربي – هيئة الاركان العامة – الوثائق السرية رقم ٦٠٣ لسنة ١٨٨٨ .

(٥٧) – خطاب وزير خارجية المانيا بيلوف في الرايخ الالماني ١٩٠٧/٣/٢٨ «الترجمة الروسية» .

من المبادئ الأساسيه للسياسة الروسيه: السيطرة على المضايق والدخول بحرية الى المياه الدوليه التي كانت تسيطر عليها إنكلترا(٥٨) . فعند فشل روسيا في المضايق تتجه الى اسيا الوسطى لأستغلالها كسوق لتصريف منتجاتها والأستفادة من مواردها الطبيعيه في الصناعة واتخاذها وسيلة للضغط على خصمها إنكلترا بتظاهرها بغزو الهند .

وفي الختام فليس هناك فرق بالاهداف الحقيقه من وراء ادعاء كل من روسيا وانكلترا بحجة حماية المسيحيين المضطهدين من قبل المسلمين في اسيا الوسطى أو ادعائها بالقيام بمهمة التحضر التي تقوم بها الدول الاوربيه لشعوب أسيا الوسطى ، وان الدافع الحقيقي لكل منهما – روسيا وانكلترا – هو استعمار شعوب اسيا الوسطى واستغلالها .

(٥٨) بوكروفسكي – سياسة روسيا الخارجية موسكو ١٩٥٨ ص ٥٣ «باللغة الروسية» .

التغلغل الألماني

في

المشرق العربي

قبيل الحرب

العالمية الأولى

الدكتور هاشم صالح التكريتي
كلية الأداب/قسم التاريخ/جامعة بغداد

من المبادئ الاساسيه للسياسة الروسيه: السيطرة على المضايق والدخول بحرية الى المياه الدوليه التي كانت تسيطر عليها إنكلترا[٥٨] . فعند فشل روسيا في المضايق تتجه الى اسيا الوسطى لأستغلالها كسوق لتصريف منتجاتها والأستفادة من مواردها الطبيعيه في الصناعة واتخاذها وسيلة للضغط على خصمها إنكلترا بتظاهرها بغزو الهند .

وفي الختام فليس هناك فرق بالاهداف الحقيقه من وراء ادعاء كل من روسيا وانكلترا بحجة حماية المسيحيين المضطهدين من قبل المسلمين في اسيا الوسطى أو ادعائها بالقيام بمهمة التحضر التي تقوم بها الدول الاوربيه لشعوب أسيا الوسطى ، وان الدافع الحقيقي لكل منهما – روسيا وانكلترا – هو استعمار شعوب اسيا الوسطى واستغلالها .

(٥٨) بوكروفسكي – سياسة روسيا الخارجية موسكو ١٩٥٨ ص ٥٣ «باللغة الروسية» .

التغلغل الألماني

في

المشرق العربي

قبيل الحرب

العالمية الأولى

الدكتور هاشم صالح التكريتي
كلية الأداب/قسم التاريخ/جامعة بغداد

قامت ثورة ١٨٤٨ في المانيا لانجاز مهمات قومية وديموقراطية هي الغاء التجزئة السياسية وتحقيق الوحدة القومية للشعب الالماني والقضاء على الانظمة الاقطاعية في الريف واسقاط انظمة الحكم القائمة في دول الاتحاد الالماني والغاء الامتيازات الطبقية التي كان النبلاء يتمتعون بها . لكن الثورة لم تنجح في تحقيق اي من هذه المهمات اذ لم يلبث المد الثوري ان انحسر وانتصرت في نهاية المطاف الرجعية الاقطاعية .

ومع ذلك استمر التطور الاقتصادي في المانيا ولكنه كان يجري ، بسبب فشل الثورة في ظروف النظام شبه المستبد وبقايا الانظمة والقيم الاقطاعية التي ظلت سائدة في كثير من اوجه الحياة . غير ان انجاز الوحدة الالمانية وقيام الامبراطورية الالمانية في ١٨٧١ اعطى زخماً قوياً للتطور الاقتصادي في المانيا بحيث اصبح العقد الثامن من القرن التاسع عشر نقطة تحول في تطور المانيا الاقتصادي ، فاذا ما كانت المانيا قبل ذلك قوة اقتصادية صغيرة لايعتد بها بالقياس الى بريطانيا مثلاً فان صناعتها اخذت بالتطور السريع ابتداءً من سبعينات القرن التاسع عشر بحيث انها انتقلت بسرعة قياسية من المرتبة الرابعة في العالم من حيث مستوى التطور الصناعي الى المرتبة الثانية بعد بريطانيا بل واخذت تنافس هذه الاخيرة على المرتبة الاولى[1] .

لقد كانت وراء هذا التطور العاصف في الصناعة الالمانية في العقدين الذين اعقبا قيام الامبراطورية الالمانية اسباب مهمة منها : العلاقات التجارية التي تربط المانيا منذ القدم ببريطانيا والثروات الطبيعية الهائلة وعلى الاخص توفر خامات بعض المعادن والفحم بكميات كبيرة ووجود

(*) كان معظم الاقطار العربية في المشرق انذاك خاضعاً على نحو مباشر او غير مباشر للدولة العثمانية ولذا يصعب ان نتناول بالبحث قضايا تخص تلك الاقطار بانفصال عن تلك الدولة ، ومما يكرس ذلك ان الاسلوب الذي اتبعته المانيا في تغلغلها في المشرق العربي يقضي بتنفيذ ذلك عن طريق الحكومة العثمانية المركزية ذاتها . وهذا ما سيكشف عنه هذا البحث ، وعليه لايمكننا سوى ان نبحث شؤون تلك الاقطار انذاك في اطار الدولة العثمانية ، وماينطبق على هذه يصح على تلك .

(1) G. L. Bondarevisky, Bagdadsk aye Dorogai proniknovenia Germanskovo Imperialisma Na Bliznem Vostoke. Tashkent, 1955, STr. 21.

الانهر الصالحة للملاحة كالراين والاودر والألب التي استخدمت منذ القدم طرقاً تجارية تربط وسط اوربا بالبحر وتطور العلوم في المانيا وخبرتها المتراكمة في التنظيم وكذلك اقتطاع اقليمي الألزاس واللورين الغنيين بالحديد من فرنسا والغرامة الحربية الكبيرة التي فرضتها على فرنسا بموجب معاهدة صلح فرانكفورت ١٨٧١[٢] .

ولكي ندرك حجم التطور الصناعي في المانيا وسرعته انذاك يكفي ان نعلم بان نسبة سكان الارياف انخفضت خلال الاربع والعشرين سنة التي مرت منذ تحقيق الوحدة وقيام الامبراطورية (١٨٧١-١٨٩٥) من ٦٤٪ في ١٨٧١ الى ٨ر٤٩٪ في ١٨٩٥ في حين ازدادت نسبة سكان المدن في الفترة ذاتها من ٣٦٪ الى ٢ر٥٠٪ على التوالي[٣] ، وان كمية الفحم المستخرج في المانيا التي كانت ٣ر١٢ مليون طن في ١٨٦٠ أخذت بالزيادة حتى بلغ المعدل السنوي للانتاج ٥٢ مليون طن في السنوات الخمس ١٨٧٦-١٨٨٠ و ٧٢ مليون طن (بل ٩٢ مليون طن اذا ادخلنا ضمنها انتاج فحم الليجينت) في ١٨٩١-١٨٩٥ .

ونذكر للمقارنة ان معدل الانتاج السنوي للفحم في هذه السنوات الخمس الاخيرة بلغ ٧ر٢٦ مليون طن في فرنسا و ٣٦ مليون طن (بما في ذلك انتاج الليجينت) في النمسا . اما انتاج الحديد الزهر فقد اصابه هو ايضاً تطور سريع فبعد ان كان معدل انتاجه في المانيا في السنوات الخمس ١٨٦٦-١٨٧٠ : ١٢٤٥٠٠٠ طن اي اقل بقليل من فرنسا التي بلغ معدل الانتاج السنوي فيها للفترة نفسها ٠٠٠ ٢٥٠ ١ طن ، ازداد بسرعة بحيث اصبح في ١٨٩١ - ١٨٩٥ : ٥٠٨٠٠٠٠ طن متجاوزاً الانتاج الفرنسي الذي كان معدله السنوي في الفترة نفسها ٢٠٠٠٦٠٠ طن[٤] . وهكذا ازدادت حصة المانيا في الانتاج العالمي للحديد الزهر والفحم ويظهر الجدول التالي بشكل واضح هذا التقدم الذي حققته المانيا بالمقارنة مع بريطانيا التي اخذت تفقد احتكارها الصناعي السابق[٥] :

(٢) يذكر احد الباحثين ان المانيا شهدت خلال السنوات الثلاث التي كانت فرنسا تدفع فيها هذه الغرامة (١٨٧١-١٨٧٣) فقط ظهور ٩٢٨ شركة جديدة بلغ مجموع رأسمالها ٧ر٢ مليار مارك .

I. S. Galkin, (Germanskaya Lmperia 1871 – 1891) Novaya Istoria, Tom Tretii 1870–1918, pod. red. I.S. Galkina, N. E. Zastenkera, V.M.Khvostova, Moskva 1960, Str. 64.

(3) F. A. Roshtein, Mezdonarodnie Otnoshenie V kontse xix veka, Moskva – Leningrad 1960. Str. 57.

(4) Ibid p. 58

(5) Galkin, Germanskaya Lmpetia ...) Str. 63

المادة	الدولة	حصتها في الانتاج العالمي	
		١٨٧٠	١٩٠٠
الفحم	بريطانيا	٥١ر٥٪	٢٩ر٧٪
	المانيا	١٥ر٨٪	١٨ر٤٪
الحديد	بريطانيا	٥٠٪	٢٢ر١٪
	المانيا	١٠ر٤٪	١٧ر٦٪

واستمر التطور الصناعي في المانيا على التصاعد في بداية القرن العشرين كما تشير الى ذلك الزيادة الحاصلة في استخراج الخامات المختلفة وعلى الاخص الفحم والحديد وفي انتاج الفولاذ فلقد ازداد المعدل السنوي لاستخراج الفحم من ١٦٢ مليون طن في ١٩٠١-١٩٠٥ الى ٢٣٤ مليون طن في ١٩١١ اي بمقدار ٧٢ مليون طن . اما عن الحديد فقد كانت الكمية التي استخرجت من خاماته في المانيا ٨ر١٦ مليون طن في ١٩٠١ مقابل بريطانيا التي استخرجت في السنة نفسها ٢ر١٢ مليون طن وقد ازدادت هذه الكمية فبلغت في ١٩١٠ - ٢ر٢٨ مليون طن في المانيا و ٢ر١٥ مليون طن فقط في بريطانيا . وقد تكررت الصورة نفسها في انتاج الحديد الزهر الذي كان معدل انتاجه السنوي في المانيا ٥ر٩ مليون طن في ١٩٠١-١٩٠٥ و ٥ر١٥ مليون طن في ١٩١١ و ٨٨ر١٧ مليون طن في ١٩١٢ في حين كان معدل انتاجه في بريطانيا ٩٦ر٨ مليون طن في ١٩٠١-١٩٠٥ و٠٣ر١٠ مليون طن في ١٩١١ و ٩ ملايين طن في ١٩١٢ . اما في انتاج الفولاذ فقد استطاعت المانيا ان تتجاوز بريطانيا في ١٩٠٠ فأحتلت المركز الثاني بعد الولايات المتحدة حيث بلغت كمية الانتاج فيها في السنة المذكورة ٦ر٦ مليون طن في حين كانت كمية الانتاج في بريطانيا ٩ر٤ مليون طن وظل الفرق بين الدولتين في هذا المجال يتسع لصالح المانيا حتى بلغت كمية الانتاج الالماني في ١٩١٠ اكثر من كمية الانتاج البريطاني باكثر من مرتين (٥ر١٣ مليون طن مقابل ٥ر٦ مليون طن)[٦] .

ومع تطور الصناعة في المانيا بدأت عملية تمركز الانتاج وكانت تجري هناك بسرعة اكبر مما جرت فيها في اي بلد اوربي اخر بحيث بدأت الاتحادات الاحتكارية بالظهور ولم تلبث ان شملت جميع فروع الصناعة الالمانية بما في ذلك فروع الصناعة التي ظهرت حديثا ولم تكن موجودة من قبل مثل صناعة المعدات والادوات الكهربائية والصناعة الكيمياوية التي كانت المانيا تحتل فيها المركز الاول لا في اوربا فقط بل في العالم كله . وقد ارتبطت هذه المنظمات الاحتكارية بالبنوك الالمانية الكبيرة وتحولت الى اقوى دافع للتوسع الامبريالي الالماني[٧] . وفي الوقت نفسه كانت تجري عملية تمركز رأس المال وكانت هي الأخرى تسير بوتائر اسرع مما هي عليه في اي قطر اوربي اخر بحيث تضاعف رأسمال البنوك الالمانية خلال الثلاثين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر عدة مرات فغدت البنوك الالمانية قادرة لا على تمويل الصناعة الالمانية باجمعها فقط وانما وبسبب ذلك أصبحت تسيطر عليها وتوجهها باتجاه التعجيل بعملية تركيزها وانشاء المنظمات الاحتكارية الكبيرة[٨] . وهكذا اصبحت هذه المنظمات الاحتكارية «تؤدي دوراً حاسماً في الحياة الاقتصادية للبلد وكانت على رأسها دائرة تضيق باستمرار من المؤسسات والمصرفيين ومدراء الكونسيرنات الكبيرة ورجال الاعمال الذين يؤلفون الاوليكاركية المالية واصبح هؤلاء هم المسيطرون الحقيقيون على البلد حيث كانوا ، دون ان يتقلدوا مناصب حكومية او سياسية رسمية ، يبدون تأثيراً حاسماً في سياسة المانيا الداخلية والخارجية»[٩] .

لقد اقترن تطور الصناعة الالمانية بضيق في السوق الداخلية حتمه وجود بقايا اقطاعية لايستهان بها الامر الذي جعل الرأسمال الالماني يولي اهتماماً متزايداً للاسواق الخارجية ، وهكذا ساعدت الظروف التاريخية التي جرى فيها التطور الاقتصادي في المانيا على تفاقم التناقض بين الانتاج المتنامي باستمرار وضيق ومحدودية السوق الداخلية الامر الذي شدد من مساعي الاوساط الحاكمة في المانيا لحل المشاكل التي نجمت عن ذلك بالعدوان والتوسع الخارجي . كذلك كان التطور السريع للعسكرية الالمانية يسير بالاتجاه نفسه فوجود ماكنة عسكرية متقدمة[١٠] وصناعة

(6) Roshtein, io. cit. o. 200

(7) Bondarevisky, Baghdad skaya poroga ... Str. 22 ;

(٨) حول تنامي دور وقدرة البنوك الالمانية في هذه الفترة ونشاطها في اوربا وبقية انحاء العالم انظر :- Roshtein, op. cit. pp. 207 – 212.

(9) Bondarevisky, Bagdadskaya Doroga. . . Str. 22

حول هذا الموضوع انظر ايضاً :
I. S. Galkin, (Germania v 1897 — 1914), Novaya Istoria, Tom Tetii 1870—1918, pod red. I.S.Galkina, N. E. zastenkera V. M. Khvostova, Moskva 1960, Str. 322.

(١٠) كانت المانيا تمتلك افضل جيش بري في العالم وكان عدد افراده الموجودين في الخدمة يتزايد باستمرار فقد كان عددهم في سنة ١٨٧٤ يبلغ ٠٠٠ر٤٠٠ ازداد الى ٠٠٠ر٤٢٧ في سنة ١٨٨٠ والى ٠٠٠ر٤٨٩ في سنة ١٨٨٨ علماً بان ذلك لايشمل كل من يمكن تجنيدهم فقد كانت المانيا من سنة ١٨٨٥ تستطيع في حالة الحرب ان تزيد عدد افراد جيشها الى ٠٠٠ر٨٠٠ر١ وذلك عن طريق دعوة الاحتياط والرجال الذين تدربوا عسكرياً منذ ١٨٨٠ :- بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥-١٩١٤ ، تعريب دكتور جلال يحيى ، دار المعارف بمصر د . ت ، ص ٤٨٩-٤٩٠

عالية التطور كان دافعاً قوياً جديداً للتوسع الاستعماري .

وهكذا بدأت المانيا تظهر على المسرح الدولي قوة استعمارية تسعى بنشاط للحصول على مستعمرات وبدأ ساستها يطالبون بذلك علناً فلقد صرح بيلوف وزير الخارجية الالماني[١١] في نهاية القرن التاسع عشر في الرايخشتاغ بقوله : «لقد ذهب الوقت الذي كانت فيه الشعوب الاخرى تقتسم فيما بينها الارض والمياه في حين نكتفي نحن الالمان بالسماء الزرقاء فقط . . . اننا نطالب لانفسنا ايضاً بمكان تحت الشمس»[١٢] . لكن ظهور المانيا على المسرح الاستعماري جاء متأخراً لان الدول الاستعمارية الاخرى كانت قد سبقتها في هذا المجال واستولت على اكثر الاسواق اهمية واغنى المستعمرات وافضلها . ولهذا «فقد تحتم على المانيا ان تفكر لا بالاستيلاء على اراضي «شاغرة» بل بانتزاع المستعمرات ومناطق النفوذ من الدول الرأسمالية الاخرى»[١٣] . وهكذا كان على المانيا ان تخوض صراعاً عنيفاً من أجل اعادة اقتسام الاسواق والمستعمرات واستطاعت ان تحقق في هذا المجال بعض النجاح منذ ثمانينات القرن التاسع عشر فاستولت على مناطق لايستهان بها في افريقيا واسيا وفي المحيط الهادي[١٤] ، ولكن ذلك لم يكن ليقنع الاوساط الاستعمارية في المانيا ولاسيما ان هذه المستعمرات لم تكن ذات مردود اقتصادي كبير وان بريطانيا استطاعت ان تقلص لدرجة كبيرة الافضليات التي يمكن ان تجنيها منها المانيا في المجال السياسي[١٥] لذلك كانت تلك الاوساط ترى في تلك الممتلكات مجرد رأس جسر فقط تستخدمه المانيا في صراعها العنيف من أجل اعادة اقتسام المستعمرات ومناطق النفوذ وهو امر بدأت الاوساط الحاكمة في المانيا تدرك بأنه لن يتم الا بالحرب .

وبهدف الاعداد الايدولوجي للحرب من أجل اعادة اقتسام المستعمرات وتهيئة الرأي العام لذلك تألفت في ١٨٩١ في المانيا منظمة عرفت بـ «الاتحاد الجرماني» . وكان هذا الاتحاد يضم كبار الصناعيين واليونكر وكبار العسكريين وبعض المثقفين ويستمد تمويله من اساطين

(١١) اصبح في الفترة ١٩٠٠-١٩٠٩ مستشاراً لالمانيا .

(12) Quoted in Galkim (Germania v 1897 — 1914). . . p.325

(13) B. M. klvostor, Istoria Diplomatii, Tom II, Moskva, 1963, Str. 282.

(٣١) انظر :

Galkin, (Germanskaya Impetia....)... Str. 80,

Galkin, (Germania V 1897 — 1914)... Str. 325 — 326

(١٤) انظر تفاصيل ذلك في :-

Roshtein, op. cit. pp. 128 — 130, prim. N 104. p. 128, prim. N, 105 . p. 129.

(١٥) انظر :

Khvostov, op. cit. Str. 287 — 290

(16) Bondarevisky, Bagdadskaya Doroga... Str. 28 — 29.

الصناعة الثقيلة الذين كانوا الموجهين الحقيقين له . لقد كان هذا الاتحاد يؤكد في ممارساته واعماله الدعائية تفوق الالمان على جميع الشعوب الاخرى ويعتبر الثقافة الالمانية اعلى وافضل من اي ثقافة اخرى ويدعو الى اعتماد سياسة القوة لانشاء امبراطورية كولنيالية واسعة تضم اقطاراً عديدة في آسيا وافريقيا وامريكا الجنوبية بل ويدعو الى الاستيلاء على بعض اراضي الدول الاوربية الاخرى مثل بلجيكا وهولندا وشمال سويسرا ومناطق من فرنسا واكرانيا والقفقاس وغيرها[١٦] وفي ١٨٩٨ تألفت في المانيا منظمة اخرى لايقل دورها في الدعوة لسيادة المانيا على العالم عن دور «الاتحاد الجرماني» هي «اتحاد الاسطول الالماني» الذي كان يطالب بانشاء قوة بحرية كبيرة لتحطيم الاسطول البريطاني وبسط السيادة الالمانية على جميع البحار والمحيطات . كذلك تألفت في الربع الاخير من القرن التاسع عشر جمعية اخرى كان لها ايضاً باع طويل في الدعوة للتوسع الاستعماري هي «الجمعية الكولنيالية الالمانية» وكانت هي ايضاً تمول من الصناعيين واصحاب البنوك[١٧] .

وكانت الدولة العثمانية وعلى الاخص اقطار المشرق العربي الخاضعة لها تحتل مكان الصدارة في مخططات المانيا التوسعية . فلقد كانت هذه الدولة حتى بعد ان اقتطعت الدول الاستعمارية الكثير من اقاليمها وفقدت مناطق واسعة اخرى نتيجة للثورات التحررية التي قامت بها كثير من الشعوب الخاضعة لها ، لاتزال تمتلك اراضي واسعة جداً كان يقطنها في بداية القرن العشرين ٢ر٣٢ مليون نسمة موزعين كالآتي : ٣ر٦ مليون في اقاليمها الاوربية و ٦ر٢٤ مليون في اقطارها الاسيوية و ٣ر١ مليون في اقاليمها الافريقية[١٨] ولهذا كانت هذه الدولة والاقطار العربية التابعة لها بالذات تؤلف بما تمتاز به من ثروات طبيعية هائلة وموقع ستراتيجي مهم غنيمة يسيل لها لعاب المستعمرين الالمان ولا ادل على ذلك من ان فكرة التوسع الالماني في هذه المناطق كانت قد راودت بعض الالمان منذ وقت طويل ، فهي لم تكن من بنات افكار قادة وانصار «الاتحاد الجرماني» او من اختراع دهاقنة الصناعة والمال في المانيا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وان كان هؤلاء قد طوروها لكي تتلائم وظروف هذه المرحلة كما سنرى لاحقاً . فقد شغلت افكار التوسع في تلك الاقطار مفكري المانيا واقتصادييها منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر اي حتى قبل ان تتوحد المانيا في دولة واحدة ، حيث وجه اقتصاديو المانيا وسياسيوها وعسكريوها انظارهم الى اسيا الصغرى والعراق منذ ذلك الوقت المبكر . «ان الالمان - كما لاحظ احد الباحثين الانكليز بحق -

(17) A. D. Novichev, Ey Turtsia, Kratkaya Istoria, Moskva, 1965, Str. 108.

(18) E. W. Lewim, The German Rood to the East, London, 1916, pp. 25 — 26.

كانوا يفهمون ان مصالحهم تكمن في تأمين السيطرة الاقتصادية ومن ثم السياسة على هذه الاقطار ﴿اسيا الصغرى ومابين النهرين — هـ . ت﴾ وذلك قبل ان يتمكنوا من انجاز توحيد بلادهم المجزأة»[١٩]

ولكي نقتنع بان الدولة العثمانية ومن ضمنها الاقطار العربية في المشرق ولاسيما العراق كانت انذاك تشغل بالفعل حيزاً بارزاً في خطط المانيا التوسعية يكفي ان نلقي نظرة على ماكان يكتبه الاقتصاديون والمفكرون والعسكريون الالمان انذاك . فلقد اجهد الجنرال البروسي مولتكة نفسه مثلا عندما كان يعمل خبيراً في الجيش العثماني في الفترة ١٨٣٥-١٨٣٩ في نشر العديد من المقالات في الصحف الالمانية يدعو فيها الاوساط الحاكمة في برلين الى العمل على ان يستوطن الالمان في منطقة ازمير ووادي الفرات مشيراً الى الثروات الهائلة التي تتمتع بها هذه المناطق بل انه كتب يقول بصراحة :

«مما يدعو الى الأسف ان نلاحظ بان مختلف الاقاليم والاراضي العثمانية تقع تحت نفوذ روسيا او فرنسا او بريطانيا ولكن ليس تحت النفوذ الالماني»[٢٠] ولم يكن مولتكة وحيداً في دعواته هذه فلقد جهر بمثل هذه الدعوات الكثير من رجال الفكر الالمان من امثال روشير وروس والاقتصاديان المعروفان ليست وروبرتوس وغيرهم .

وقد ازدادت هذه الدعوات كما وكيفاً بعد ان توحدت المانيا واخذت بالتطور الاقتصادي على النحو الذي اشرنا اليه فلقد اغرقت المانيا باكداس من الكتب والبحوث والروايات والتقارير والمقالات الصحفية كتبها العشرات من الكتاب والمختصين والمستشرقين والصحفيين الالمان وكان ينتظمها جميعاً هدف واحد هو التدليل على «حق» المانيا في وراثة الدولة العثمانية . وسنكتفي هنا بعرض بعض الامثلة منها مما يتعلق باقطار المشرق العربي لكي ندرك ما كان يبيته الالمان لهذه الاقطار[٢١] .

في ١٨٨٦ نشر البروفيسور شبرنجر وكان قد قام بسفرة طويلة في الدولة العثمانية كتابا بعنوان : «بابل اغنى بلد في الماضي واكثر المناطق ملاءمة للاستيطان في الحاضر» اشاد فيه ببلاد «مابين النهرين» واسهب في وصف ترتيبها ومناخها وجميع ماتمتاز به من خصائص وخلص من ذلك كله الى التأكيد على انه لايوجد في العالم كله منطقة اكثر منها ملاءمة لاستيطان الالمان فلقد كتب يقول : «ان سوريا واشور اكثر بلدان الارض ملائمة للاستيطان . . . فهناك لاتوجد غابات عذراء ولا عقبات طبيعية اخرى . يلزم فقط خدش الارض ورمي البذور ثم الحصاد . ان الشرق الادنى هو المنطقة الوحيدة التي لم تستول عليها بعد اي دولة اوربية كبرى مع انها افضل حقل للاستيطان واذا لم تفلت المانيا الفرصة وتبادر الى الاستيلاء عليها قبل ان يمد القوزاق ايديهم الى هناك فانها ستحصل على افضل جزء عند اقتسام العالم» .

وقد زار الدولة العثمانية في تسعينات القرن التاسع عشر بطلب من مختلف منظمات الاستيطان الالمانية العديد من المستشرقين المختصين وهدفهم البحث عن اكثر المناطق ملاءمة للاستيطان وظهرت الدراسات التي قاموا بها على شكل تقارير وكتب تدعو الى التعجيل باستيطان اسيا الصغرى وشمال العراق ومناطق اخرى من الدولة العثمانية واشتهر في هذا المجال كتابا زخاو «سفرة في سوريا ومابين النهرين» و «على دجلة والفرات» وكتاب اوبنهايم «من البحر المتوسط الى الخليج العربي» فقد اكد المؤلفان كلاهما ان شمال العراق هو اكثر المناطق ملاءمة للاستيطان نظراً لما يتمتع به من ثروات طبيعية كبيرة ومناخ جيد بحيث ان استيطان الالمان فيه سيؤدي الى ان يسود هناك «فردوس حقيقي للمزارع» على حد تعبير زخاو . ومن اللافت للنظر ان كلا المؤلفين كانا يريدان من الدولة العثمانية ان تساعد الالمان وتمهد لهم ظروف الاستيطان في تلك المناطق حيث اعتقدا بان على الدولة العثمانية «ان تعلم القبائل العربية العاصية العقل والبصيرة وان تلقنها احترام التقدم» . بهذا الشكل اراد المؤلفان التخلص من المقاومة العربية التي لابد ان تشتعل ضد مشاريع الاستيطان الالمانية .

اما جنوب العراق الذي يمتاز بجو حار لايفضله الالمان فان هؤلاء المفكرين خططاً اخرى بشأنه فشبرنجر يدعو الى انشاء مزارع المانية واسعة هناك يستغل فها اصحابها الالمان عمل العرب اهل المنطقة . وقد طور باول روورباخ وهو واحد من ابرز ايدولوجيي الامبريالية الالمانية هذه الافكار وتحمس للدعوة الى التوسع في انشاء تلك المزارع واستغلال عمل الاهالي في جنوب العراق فقد كتب في معرض حديثه عن هذا الموضوع يقول : «باي ألوان وبأي أمل حار بل بأي رغبة اصور لنفسي ذلك الوقت الذي سترتفع فيه صفوف الاشجار هناك ﴿في جنوب العراق — هـ . ت﴾ والاهالي السمر ينسابون الى الجنوب الى السهل الواسع لكي يجلبوا لنا نحن الالمان الكثير الكثير من الغلال» .

اما هوجو كروتة وهو مفكر اخر من مفكري الامبريالية الالمانية فقد اصدر في ١٩٠٢ كتاباً بعنوان : «سكة حديد بغداد والفلاحون الشفابيون فيما وراء القفقاس وفلسطين . افكار حول استيطان مابين

(١٩) حول اراء مولتكة وغيره من المفكرين الالمان بهذا الشأن انظر :-

R. W. Seton Watson. German, Slav and Magyar, A study in the origin of war, london, 1916, p. 138 FF.

(٢٠) اعتمدنا في عرض محتويات هذه المؤلفات على ما اورده بونداريفسكي في الصفحات ٣١-٣٢ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ من كتابه الانف الذكر حول سكة حديد بغداد .

(٢١) الشفابيون هم الالمان الذين يقطنون اقليم شفابيا في المانيا كان بعضهم قد نزح الى خارج المانيا واستوطن في فلسطين ومنطقة ماوراء القفقاس .

النهرين» طالب فيه بان يعترف بالمناطق التي تمتد فيها سكة حديد الانضول وكذلك سكة حديد بغداد عندما يتم انشاؤها كمناطق نفوذ لالمانيا واعتبر استيطان الالمان على نطاق واسع في الدولة العثمانية عاملاً من عوامل ترسيخ النفوذ الالماني في الشرق الادنى ولهذا نجده ينصح بالتعجيل بتأليف جمعية خاصة تعمل على استيطان الالمان فيما بين النهرين وكان على هذه الجمعية حسب رأيه ان ترتبط بسكة حديد بغداد. لقد طرح كروتة عدداً من المطالب عدّ تنفيذها شرطاً اساسياً للأستيطان منها اعفاء المستوطنين من الضرائب ومنحهم الحق في استيراد المواد التي يحتاجونها بدون ضرائب كمركية وانشاء خطوط ثانوية تتفرع من الخط الرئيسي لسكة حديد بغداد باتجاه البحر المتوسط وغير ذلك. واولى كروتة اهتماماً خاصاً لقضية «حماية» المستوطنات التي سيقيمها الالمان فطالب بانشاء «سلسلة كاملة من الطوابي الصغيرة المجهزة بحاميات» وبذلك يكون المستوطنون الالمان في الدولة العثمانية قد تحولوا الى «دولة داخل دولة» على حد تعبيره. وبحث كروتة بتفصيل كبير الظروف المناخية السائدة فيما بين النهرين وصعوبة تعود الالمان عليها وخلص من ذلك الى القول بامكانية تذليل تلك المصاعب مستنداً في حكمه هذا على نجاح المستوطنات التي اقامها فلاحو شفابيا فيما وراء القفقاس وفلسطين واقترح دعوة هؤلاء الفلاحين المجربين من هاذين الاقليمين لكي يؤلفوا طليعة الاستيطان الالماني فيما بين النهرين وفضل دعوة المستوطنين من فلسطين على الرغم من انهم اقل خبرة من مستوطني ماوراء القفقاس لانهم حافظوا على جنسيتهم الالمانية بعكس مستوطني ماوراء القفقاس الذين تحولوا الى التبعية الروسية. ولم يغفل كروتة الاعتبارات السياسية والستراتيجية حيث نجده يلح على الحكومة الالمانية بان تسعى من أجل ان تحصل جهة المانية على امتياز سكة حديد بغداد وطالب بان تحصل المانيا ايضاً على محطة للفحم في الكويت تستخدمها لتجهيز الاسطول الحربي الالماني بالوقود وطالب ايضاً بمد خط من امتلاك التلغراف يربط الخط التلغرافي لسكة حديد بغداد بخط تلغراف الشرق الاقصى الالماني.

نحن اذن امام خطة متكاملة ومدروسة بعناية تهدف لا الى استيطان اغنى مناطق الدولة العثمانية فقط وانما تدعو بصراحة لاقتسام تلك الدولة وضم اهم مناطقها واثراها ونعني مابين النهرين الى المانيا. وهذا هو السر في اصرار كروتة على ان يظل المستوطنون الالمان محتفظين بجنسيتهم الالمانية وفي ربطه الاستيطان فيما بين النهرين بانشاء سكة حديد بغداد واقامة قاعدة عسكرية بحرية في الكويت.

ادخل مفكر الماني اخر هو سيجموند شنايدر بعض التعديلات على خطة كروتة هذه حيث اقترح ان يشتمل النص النهائي لامتياز سكة حديد بغداد على بند خاص يقضي بمنح «شركة الانضول» مناطق واسعة نسبياً بمحاذاة خط سكة حديد بغداد المقبل لكي يستوطنها الالمان على ان يؤلفوا من بينهم «حرساً للسكك الحديد على غرار بوليس السكك الحديدية الكولينالي الانجليزي».

وهكذا يضرب شنايدر عصفورين بحجر واحد فهو باقتراحه هذا يضمن حصول الالمان على اراضي واسعة في اسيا الصغرى والعراق من جهة وانشاء قوة المانية مسلحة في الدولة العثمانية من جهة اخرى.

ولايفوتنا في هذا المجال ان نذكر الدعوات التي كان «الاتحاد الجرماني» يطلقها بهذا الشأن ذلك ان هذا الاتحاد اولى الدولة العثمانية ومعها اقطار المشرق العربي اهتماماً خاصاً في دعواته التوسعية. ويكفي بهذا الخصوص ان نلقي نظرة على الكراس الذي اصدره هذا الاتحاد في ١٩٠٤ بعنوان «مبدأ الجامعة الجرمانية» الذي حدد فيه نواياه تجاه الدولة العثمانية على النحو التالي:

«ان المانيا تعد الدولة العثمانية حقلاً للتجارب ملكاً لها فهي مخزن الماني للغلال في المستقبل ومصدر للصوف والنفط ومنطقة للاستيطان ومصدر لخامات جديدة للمنتجات الكولينالية الالمانية وحافز جديد للملاحة وسكة حديد عظيمة... من الطبيعي ان تتطلع المانيا الى الشرق فهي تمتلك سلطة اقتصادية على الدولة العثمانية بحيث تؤلف البلدان الثلاثة المانيا والنمسا – المجر والدولة العثمانية بشكل ما وحدة ثلاثية لاتتجزأ»[22] ولهذا فان جزءاً كبيراً من نشاط «الاتحاد الجرماني» كان مخصصاً للدعوة الى التوسع في الدولة العثمانية وتحويلها الى منطقة نفوذ لالمانيا. وقد اصدر الاتحاد لهذا الغرض العديد من النشرات والكراريس كما أن صحيفة (Alldeutsche Blatter) لسان الاتحاد كانت تنشر باستمرار مقالات دورية تدعو الى تجزئة الدولة العثمانية وتحويلها الى محمية بل الى مستعمرة لالمانيا من ذلك مثلاً قولها: «ينبغي ان يجري الاحتفاظ بالدولة العثمانية كتشكيل حكومي خاص موضوع تحت السيادة الالمانية على شكل محمية في اقل تقدير... وسيكون من الافضل لنا ان نمتلك مابين النهرين وسوريا من جهة وان تكون لنا من الجهة الاخرى السيادة على شكل حماية على اسيا الصغرى السلطانية التي يقطنها الاتراك بالأساس وان تجتذب الى دائرة المصالح الالمانية كذلك الجزيرة العربية مع المحافظة على الاستقلال الذاتي التام لسكانها»[23] وكانت اطماع «الاتحاد الجرماني» وخططه تجاه الدولة العثمانية تزداد وتتسع بمقدار ماكان النفوذ الالماني الاقتصادي والسياسي يترسخ فيها لهذا لم تلبث صحيفة الاتحاد ان عدّت دعواتها السابقة غير كافية اذ ينبغي على المانيا ان تستحوذ على اقطار الدولة العثمانية الواقعة في

(22) Quoted in Bondarevisky Bagdadskaya Doroga... Str. 44.

(23) Quoted in Ibid p. 44

اسيا حيث تجدها تقول : «يجب ان تمنح تركيا الاسيوية باجمعها – عدا ارمينيا – لالمانيا . ان المانيا هي وحدها التي تستطيع ان تقرر ما اذا كان سيسمح هناك بسيادة السلطان وحكم الاتراك او بالحكم الذاتي لشعوب اسيا الصغرى وباي درجة سيكون ذلك في الحالين وايضاً باي درجة ستأخذ هي ﴿ اي المانيا . هـ . ت﴾ على عاتقها الادارة المباشرة في وادي دجلة والفرات»(٢٤) .

وهكذا نرى ان جل الخطط الالمانية يتركز على الجزء الشمالي من العراق ولذلك اسباب معروفة اهمها ان تلك المنطقة هي المنطقة التي ستمتد فيها شبكة حديد بغداد وان اقاليم واقطار المشرق العربي الاخرى قد سبقت المانيا اليها غيرها من الدول الاستعمارية لاسيا بريطانيا وفرنسا .

تلك هي نوايا الاستعمار الالماني تجاه الدولة العثمانية وبالاخص اقطار المشرق العربي التابعة لها . وقد بادرت الحكومة الالمانية فوضعت كل ثقلها لتنفيذ هذه الخطط التوسعية لهذا نجد الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تتعرض لهجمة استعمارية المانية استهدفت مرافقها المختلفة وجوانب حياتها كافة ونشطت الشركات والمؤسسات الالمانية المختلفة للسيطرة على تلك المرافق وكانت تحظى في نشاطها هذا باسناد فعال من الحكومة الالمانية .

لقد اعطى قيام الامبراطورية الالمانية في ١٨٧١ كما لاحظنا زخماً قوياً جديداً للنوايا التوسعية للاوساط الحاكمة في المانيا فمنذ ذلك التاريخ اخذت المانيا تبرز اكثر فاكثر قوة ذات اثر متزايد في السياسة الدولية عامة وفي الصراع من اجل المستعمرات خاصة واخذت تبدي اهتماماً متزايداً بالدولة العثمانية .

والواقع ان علاقات المانيا بالدولة العثمانية في المجال العسكري تعود الى ثلاثينيات القرن التاسع عشر عندما كان الجنرال البروسي مولتكة الذي مر بنا ذكره وكان آنذاك مايزال ضابطاً صغيراً يعمل خبيراً عسكرياً لدى السلطان محمود الثاني . وظل الضباط الالمان يعملون في الجيش العثماني اثناء حرب القرم وبعدها . وعلى الرغم من أن السلطان عبد الحميد الثاني اقتصر في السنوات الاولى من حكمه على دعوة الضباط الفرنسيين الا ان العسكريين الالمان عادوا الى العمل في الجيش العثماني من عام ١٨٨٢ . وفي السنة التالية اي في ١٨٨٣ استدعيت للعمل في الدولة العثمانية بعثة عسكرية المانية كان على رأسها الجنرال فون دركولتز الذي اشغل منصب مساعد رئيس اركان الجيش العثماني دون صلاحيات قيادية . لقد كان الضباط والموظفون الالمان منذ ثمانينات القرن التاسع عشر يعملون مستشارين وخبراء في مختلف مؤسسات ومرافق الدولة العثمانية ابتداءاً من المالية والتجارة وانتهاءاً بمختلف صنوف القوات المسلحة مروراً بالزراعة والكمارك والعدل وغيرها . ولايخفى مالذلك من اهمية في مجال تقوية النفوذ الالماني في تلك الدولة وقد اعترفت بذلك صحيفة (**Kolnische Zaitung**) شبه الرسمية عندما كتبت في نهاية عام ١٨٨٣ تقول : «لا اساس هناك الان للصمت عن الحقائق التي تشير بشكل واضح الى ان تفوق المانيا في القرن الذهبي الذي حققه في حينه الكونت هاتسفيلد ﴿السفير الالماني لدى الدولة العثمانية في الفترة ١٨٧٤–١٨٨١–هـ . ت﴾ وحافظ عليه بعد ذلك رادوفتس ﴿السفير الالماني في اسطنبول في الفترة ١٨٨٢–١٨٩٢– هـ . ت﴾ مستمر دون تغيير . . لا احد يشك بانه في اللحظات الحاسمة وفي حالة قيام حوادث مهمة فان النفوذ الالماني سيتفوق على الاخرين»(٢٥) .

لقد تركزت اهداف الالمان في الدولة العثمانية في الاستيلاء على المناطق الغنية فيها واستخدام هذه الدولة كنقطة ارتكاز لتوسعهم اللاحق في الشرق وترسيخ النفوذ الالماني الاقتصادي والسياسي فيها . وكخطوة اولى لتحقيق هذه الاهداف أخذت المانيا تتقمص دور من يريد الخير للدولة العثمانية محاولة من خلال ذلك السيطرة على مختلف فروع الاقتصاد العثماني المتدهور .

وكانت تجارة الدولة العثمانية الخارجية أحد الحقول المهمة التي خاضت المانيا من أجل السيطرة عليه صراعاً عنيفاً ضد الدول الاوربية الاخرى ولاسيا ضد بريطانيا التي كانت تهيمن على هذا المفرع المهم من فروع الاقتصاد العثماني .

وهكذا نجد المانيا تعمل في البداية على حماية الاقتصاد العثماني وابعاده عن نفوذ الدول الاستعمارية الاخرى فتقيم مع الدولة العثمانية علاقات اقتصادية وثيقة ارتكزت على معاهدة تجارية عقدت بين الدولتين في ١٨٩٠ واستطاعت المانيا ان تستغلها لتحقيق نجاحات ملموسة في مجال توسيع نفوذها في تجارة الدولة العثمانية الخارجية . ان ذلك واضح من الجدول التالي الذي يبين تطور التجارة بين المانيا والدولة العثمانية بموجب المعطيات الالمانية(٢٦)

(24) Quoted in Ibid p. 44.

(25) Quoted In Roshtein, op. cit. prim. 29 Str 226.

(26) A. D. Novichev, ocherki Ekonomiki Turtsii do Mirovoy voyni, Moskva, 1937, Str. 181

السنة	قيمة صادرات الدولة العثمانية الى المانيا (بملايين الماركات)	قيمة واردات الدولة العثمانية من المانيا (بملايين الماركات)	النسبة المئوية
١٨٨٠	١ر٠	٧ر٦	١٠٠
١٨٩٠	٩ر٦	٣٤ر١	٥١٠
١٩٠٠	٣٠ر٢	٣٤ر٤	٧٥٢
١٩١٠	٦٧ر٥	١٠٤ر٩	٢٠٠٠
١٩١١	٧٧ر٦	١١٢ر٨	٢٢١٣

يظهر من ذلك ان حصة المانيا في تجارة الدولة العثمانية الخارجية كانت تزداد باضطراد على حساب حصة بريطانيا بالطبع ، فعلى الرغم من أن بريطانيا كانت تحتفظ بمكان الصدارة في هذا الحقل من حقول الاقتصاد العثماني الا انها فقدت مواقعها المهيمنة السابقة فقد ازدادت قيمة الواردات العثمانية من سنة ١٨٨٧ الى سنة ١٩١٠ من عشرة ملايين جنيه استرليني الى خمسة وعشرين مليون جنيه استرليني في حين لم تزد حصة بريطانيا من ذلك الا بحوالي مليوني جنيه استرليني (من ٦ر٢ الى ٨ر٨ مليون جنيه استرليني)[٢٧] اما حصة المانيا فكانت تزداد بوتائر سريعة جداً فاذا ما كانت نسبة زيادة الصادرات الانجليزية الى الدولة العثمانية في ١٨٩٤ — ١٩١٢ تؤلف ١٠٪ فان نسبة زيادة الصادرات الالمانية بلغت في الفترة نفسها ١٧٠٠٪[٢٨] .

لقد كانت المانيا في سنة ١٩١٠ تحتل المركز الرابع في الاستيراد العثماني فاصبحت في ١٩١٤ تحتل المركز الثاني .

وهكذا يبدو واضحاً ان المانيا احرزت نجاحات مهمة في الصراع مع بريطانيا التي كانت تحتل المركز الاول في تجارة الدولة العثمانية الخارجية وقد اشر هذه الحقيقة وزير الخارجية البريطانية نفسه عندما كتب الى سفيره في اسطنبول يقول : «لقد كان من المؤلم ان اجد عندما شغلت منصبي الراهن كم كنا قد ابعدنا عن التجارة في الدولة العثمانية وكيف كان من الميئوس منه الحصول على سند ما هناك»[٢٩] .

(27) Ibid.

(28) Bondarevisky, Bagdadskaya Doroga... Str. 34.

(29) Baitish Documents on The origins of war 1898—1914 Ed. by G.P. Gooch and H. Temperly, vol. V N. 208 Ed. add. P. 267.

وكان تصدير رأس المال احدى الوسائل الرئيسية التي لجأت اليها المانيا لاستغلال الدولة العثمانية فلقد خاضت المانيا على هذه الجبهة ايضاً نضالاً شاقاً لتفسح المجال الرأسمالي الالماني للتغلغل في اقطار الدولة العثمانية وجهدت البنوك الالمانية المختلفة لفتح فروع لها في مختلف اصقاع تلك الدولة الى ان انتقلت المبادرة في هذا المجال ايضاً الى الالمان فقد اسس الرأسماليون الالمان في عام ١٨٩٩ «البنك الالماني الفلسطيني» برأسمال قدره ٨٠٠ ألف مارك . وقد فتح هذا البنك فروعاً له في دمشق ويافا وحيفا والقدس وغيرها من المراكز الكبرى في الدولة العثمانية[٣٠] وذلك بالاضافة الى النشاط المتميز الذي كان يمارسه هناك «البنك الالماني» . وفي عام ١٩٠٦ اشتركت مجموعة من البنوك الالمانية في تأسيس البنك الالماني الشرقي في اسطنبول برأسمال قدره ١٦ مليون مارك ازداد بسرعة فاصبح في عام ١٩١١—٣٢ مليون مارك . وقد فتح هذا البنك فرعين آخرين له في مدينة اسطنبول وفرعاً واحداً في كل من بروسة ومرسين واطنة وديرساغاج وادرنة وستة فروع في مصر وعدداً من الفروع الاخرى في اقطار الشرق الادنى الاخرى[٣١] .

وهكذا شكلت البنوك الالمانية شبكة شملت جميع انحاء الدولة العثمانية تقريباً وكان عليها ان ترسخ النفوذ الالماني وتوسعه هناك فقامت بهذا الدور على اتم وجه فلقد شاركت في جميع العمليات التجارية والمالية في الدولة العثمانية فكانت بذلك ونتيجة لسيطرتها المتزايدة على الاقتصاد العثماني منافساً خطراً للبنك العثماني الامبراطوري الذي كان رأسماله انجليزياً وفرنسياً والذي كان يتمتع بسلطة اقتصادية واسعة في الدولة العثمانية . لقد قفزت المانيا نتيجة لذلك الى المركز الاول بين الدول التي تستثمر رؤوس اموال في الدولة العثمانية فلقد كانت رؤوس الاموال الاجنبية المستثمرة في الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى (باستثناء الدين العثماني العام) موزعة على النحو التالي : ٤٥ر٤٪ لالمانيا و ٢٥ر٩٪ لفرنسا و ١٦ر٩٪ لبريطانيا[٣٢] اما عن الدين العثماني العام فقد ازدادت نسبة مشاركة المانيا فيه من ٤ر٧٪ في ١٨٨١ الى ٢٠٪ في ١٩١٢ وبهذا تكون المانيا قد قفزت من المركز السادس الى المركز الثاني بعد فرنسا بين الدول الدائنة للدولة العثمانية[٣٣] . وكان ذلك كله يحقق للالمان ارباحاً هائلة فقد بلغت الاموال التي استنزفتها البنوك الالمانية من الدولة العثمانية كفوائد للرأسمال الالماني المستثمر فيها مايزيد على ٢٠ مليون مارك في السنة[٣٤] .

(30) Novichev, Ocherki Ekonomiki Turtsii... Str. 206.
(31) Ibid
(32) W. W. Gottlieb, Tainaya Diplomamia Vo Vrimiya pervoy Mirovoy Voyne. pere. S angliskovo, Moskva 1960, Str. 31.
(33) A. J. Toynbee, Turkey. a past and a future New — York 1917. p. 46.
(34) Bondarevisky, Bagdadskaya Doroga... Str. 36.

لقد كانت النجاحات التي حققتها المانيا في مجال التوسع التجاري في الدولة العثمانية مرتبطة بشكل وثيق بتطور الملاحة والاسطول التجاري في المانيا عموماً(٣٥) وبتطور الملاحة مع الدولة العثمانية خاصة . ففي ١٨٨٤ افتتح اول خط للملاحة يربط ميناء هامبورغ في المانيا بالعاصمة العثمانية اسطنبول وفي ١٨٩٠ باشرت بالعمل «شركة الشرق الادنى الالمانية للملاحة» التي كانت بواخرها تصل الى جميع الموانئ العثمانية تقريباً وفي ١٩٠٠ أقامت شركة «هامبورغ-امريكا» وهي اكبر شركة المانية للملاحة خطوطاً منتظمة للمواصلات لنقل الركاب والبضائع بين الموانئ الالمانية وموانئ الخليج العربي وفي ١٩٠٦ تأسست في برلين شركة خاصة لخدمة الموانئ العثمانية هي شركة «اطلس» . وبعد ذلك بقليل استطاعت الشركات الالمانية ان تحصل عن طريق ادارة سكة حديد الانضول على اسهم اكبر شركة عثمانية للملاحة وهي شركة «مخصوصية» التي كانت قبل ذلك في حوزة الرأسمال الانجليزي . ونتيجة لكل ذلك اصبحت المانيا في ١٩١٠ تحتل المركز الثالث من حيث حمولة البواخر التي تزور الموانئ العثمانية(٣٦) وقد كان هدف الالمان من ذلك كله هو السيطرة في البحر المتوسط والتغلغل في المحيط الهندي والخليج العربي وفي هذا السياق التفت الالمان الى ناحية اخرى كانوا يعدونها ذات اهمية استثنائية بالنسبة الى خططهم الستراتيجية في الدولة العثمانية ونعني بها السيطرة على خطوط الاتصالات التلغرافية في تلك الدولة التي كانت حتى ١٨٩٩ حكراً على الانجليز . ففي السنة المذكورة عقدت المانيا مع رومانيا اتفاقاً حول مد خط تلغرافي من برلين الى بخارست ومنها الى كونستانتا على البحر الاسود .

وفي الوقت نفسه حصل الالمان من الحكومة العثمانية على امتياز باقامة خط لاسلكي بين اسطنبول والعريش كما اخذوا على عاتقهم مد خط تلغرافي آخر من جزيرة تاشوس الى جزيرة امبروس ثم يستمر الى مضيق جناخ كالا .

وكان بناء السكك الحديد في الدولة العثمانية احدى الوسائل الفعالة التي لجأ اليها الاستعمار للتغلغل في تلك الدولة واستنزاف الكثير من مواردها فلقد كانت الدولة العثمانية بسبب متاعبها المالية غير قادرة على بناء السكك الحديد بنفسها الأمر الذي استغله استعماريو الدول الاوربية فأخذوا يبنون لها السكك ويكبلونها في اثناء ذلك بالكثير من الشروط المجحفة وهدفهم من ذلك بالاضافة الى نهب ثرواتها(٣٧) والسيطرة عليها مد نفوذهم الى الاقطار المجاورة لها . ولابد ان نلاحظ في هذا المجال بان بناء السكك في الدولة العثمانية لم يكن يجري وفق ماتتطلبه حاجاتها ومصالحها فهي لم تكن تبنى في المناطق التي تحتم الضرورة الاقتصادية بناءها فيها وانما في المناطق التي تحتاجها الشركات الاستعمارية . وفضلاً عن ذلك كان اصحاب الشركات المنفذة يلزمون الباب العالي بموجب الامتيازات التي يضعون هم شروطها ان يؤمن لهم دخلاً ثابتاً عن كل كيلومتر من السكة (وهذا ما كان يسمى بـ «الضمانات الكيلو مترية») وقد ادى ذلك الى زيادة ديون الدولة العثمانية للرأسماليين الاجانب . وهكذا كان بناء السكك الحديد في الدولة العثمانية ميداناً اصطدمت فيه بشدة وعنف مصالح الدول الاستعمارية المختلفة . وهنا ايضا حقق الالمان نجاحات لايستهان بها وخرجوا من صراعهم مع استعماريي الدول الاخرى في هذا الميدان بحصيلة مهمة فقد كانت عائدية السكك الحديد في الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى على النحو التالي : ٢٠٧٧ كم اي ٣٩ر٦٪ تعود الى فرنسا و ٢٥٦٥ كم اي ٤٩٪ الى المانيا و ٦١٠ كم اي ١١ر٤٪ الى بريطانيا . اما اذا نظرنا الى الامر من زاوية مقدار رؤوس الاموال المستثمرة في بناء السكك في الدولة العثمانية فان كفة فرنسا هي التي سترجح حيث يعود لها ٥٣٠ر٢ مليون فرنك اي ٤٨٪ من مجموع المبالغ المستثمرة في هذا الحقل في حين تبلغ حصة المانيا ٤٦٦ر١ مليون فرنك اي ١٤ر٤٪ وحصة بريطانيا ١١٤ر٧ مليون فرنك اي ١٠ر٦٪(٣٨) .

وكان الامبراطور الالماني وليم الثاني قد قام بزيارة للدولة العثمانية للمرة الثانية في ١٨٩٨ وقد تمخضت زيارته هذه عن نتائج مهمة بالنسبة للتغلغل الالماني في اقطار الدولة العثمانية ولعل اهم هذه النتائج هي حصول الالمان على موافقة السلطان على منحهم امتياز بناء سكة حديد بغداد وبذلك يكون قد بدأ فصل من اهم فصول الصراع بين الدول

(٣٥) حول تطور الملاحة والاسطول التجاري في المانيا نظر :

Roshtein, op. cit. pp. 201 — 202.

(36) Bondarevisky, Bagdadskaya Doroga... Str. . 35.

(٣٧) لكي ندرك مقدار الفائدة المادية التي كان الرأسماليون الاوربيون يجنونها من بناء السكك الحديد في الدولة العثمانية يكفي ان نذكر ان تجهيز المواد والمعدات اللازمة لبناء خط اسمت انقرة الذي تسلم الالمان امتياز انشائه ادى الى ان تتضاعف الصادرات الالمانية الى الدولة العثمانية ثلاث مرات في الفترة ١٨٨٣ - ١٨٩٣ . انظر :

Khvostov, op. cit. Tom II Str. 283.

كما ان الايراد الصافي لشركة سكك حديد الانضول بلغ في ١٨٩٠ - (٣٥٠ر٦١٦) فرنك وفي ١٩٠٠ (٣٦ر٢٨١٧) فرنك وفي ١٩١٢ (٨١٥ر١٥٤ر١١) فرنك اما الدخل الصافي من كل كيلومتر فكان في السنوات المذكورة ٩٦٥٤ و ٧٢٢٠ و ١٨٢٥٦ على التوالي :

انظر :

Novichev, ocherki Ekonomiki Turtsii... Str. 163.

(38) Novicher, Ocherki Fkonomiki Tursii... Str. 132 — 133.

الاستعمارية من أجل السيطرة السياسية على اقطار المشرق العربي واقطار المنطقة الاخرى ومن اجل الاستحواذ على مكان الصدارة في هذه المنطقة الغنية . لقد كانت سكة حديد بغداد موضوعاً تركزت حوله جميع التناقضات بين الدول الاستعمارية وتصادمت فيه بشدة مصالح هذه الدول ولاسيا مصالح بريطانيا والمانيا .

لقد حقق امتياز سكة حديد بغداد لالمانيا الكثير من الفوائد الاقتصادية والمالية تمثلت بما يدره استثمار البنوك الالمانية لرؤوس اموالها في انشاء السكة وفي تجهيز بناء الخط بما يحتاجه من ادوات ومعدات كالقضبان والقاطرات والعربات وغيرها . يضاف الى ذلك ان الامتياز الذي وقع في شكله النهائي عام ١٩٠٣ كان يعطي المانيا الحق في ان تنشئ ميناء نهرياً في بغداد وتسير سفناً في نهري دجلة والفرات وكذلك الحق في التنقيب عن النفط وقد بدأ التنقيب في منطقة الموصل بالفعل عام ١٩٠٤ (٣٩) . لكن الافضليات التي تمثلها سكة حديد بغداد بالنسبة للالمان لاتقتصر على الجانب الاقتصادي بل تتعداه الى الجانب السياسي فقد كانت تمثل في نظر الالمان وسيلة فعالة لتحجيم النفوذ الانجليزي من جهة ونشر النفوذ الالماني من جهة اخرى في العراق والجزيرة العربية ومصر والخليج العربي والهند . فالالمان في كفاحهم من اجل النفوذ في الدولة العثمانية ركزوا اهتمامهم على اكثر مناطقها غنى ولاسيا العراق حيث كانت في جزئه الجنوبي بريطانيا ولمدة طويلة الدولة الاوربية الوحيدة ذات النفوذ فلقد استطاعت طيلة سنين عديدة ان تركز نفوذها في هذا القطر الغني من اقطار الدولة العثمانية وان تحتكر حق الملاحة في نهري دجلة والفرات بواسطة شركة «لنج» الامر الذي يؤمن انتشار البضائع الانجليزية في ارجاء واسعة من المنطقة العربية والاقطار المجاورة لها . غير ان ذلك لم يمنع المانيا من محاولة التغلغل هناك محاولة استغلال مشاعر العداء التي كانت تتزايد في المنطقة ضد المستعمرين الانجليز . ومن هنا كان على سكة حديد بغداد ان تكون وسيلة لتحقيق نوايا الالمان لا في العراق فقط وانما في الشرق الاوسط عامة . وكانت فكرة الالمان ان تمتد السكة من اسطنبول الى بغداد ومن هناك الى الخليج العربي (٤٠) وبذلك تكون موازية للطريق البحري عبر قناة السويس فتؤمن لالمانيا خط مواصلات متصل الى اسيا عبر امبراطورية النمسا — المجر والبلقان مما يساعد على انتشار منتجات الصناعة الالمانية في المشرق العربي وايران والهند .

على اية حال ان اكثر ما اقلق الانجليز هو محاولة الالمان مد السكة الى جنوب العراق والخليج العربي وهي مناطق لاتسمح بريطانيا بان ينافس نفوذها فيها احد فضلاً عن أن توجه الالمان نحو الخليج العربي من شأنه ان يشكل تهديداً للمصالح البريطانية في الهند . ويبدو ان الالمان في اصرارهم على ايصال السكة الى الكويت كانوا مدفوعين بالاضافة الى العوامل المذكورة برغبتهم في الحد من النوايا الانفصالية لشيخ الكويت وهي النوايا التي كانت بريطانيا تعمل على استغلالها لتعزيز نفوذها في ذلك القطر . ففي رسالة وجهها في ٦ آذار ١٩٠١ وزير الخارجية الالماني الى سفير بلاده في اسطنبول يبدي الوزير قلقه من تزايد نشاط الدول الكبرى ولاسيا بريطانيا وروسيا في الخليج العربي ويعلمه باختيار الكويت لتكون النقطة التي تنتهي عندها سكة حديد بغداد ويؤكد ان اهم شرط لبناء هذه السكة يكمن في انها ينبغي ان تمر في كل امتدادها في اراضي لاتثير ملكية الدولة العثمانية لها شكاً لدى اي كان (مما يدل على الرغبة في عدم استفزاز شيخ الكويت وتأزيم علاقاته مع الحكومة العثمانية مما قد يدفعه الى التقرب اكثر من الانجليز الذين يشجعون نواياه الانفصاليه) ويطلب من السفير ان يقنع الباب العالي بان يستخدم وساطة والي البصرة لدفع شيخ الكويت الى اصدار اعلان خاص يؤكد فيه بانه لن يمنح بدون موافقة السلطان للرعايا الاجانب اية امتيازات او افضليات الى ان تضمن جميع مطاليب ممثلي سكة حديد بغداد (٤١) .

وعلى الرغم من ان هذه الرسالة تعكس جهلاً فاضحاً بحقيقة الاوضاع في المنطقة الا انها تكشف عن جانب من نوايا الالمان تجاه الاقطار العربية وتأتي في كل الاحوال منسجمة مع سياسة المانيا في المنطقة وهي السياسة التي تقوم على اسناد الحكومة العثمانية ضد الانجليز ومن يتعاون معهم وتحقيق الاهداف الالمانية عن هذا الطريق .

اثارت الافضليات التي [illegible] ستتمتع بها بواسطة سكة حديد بغداد ولاسيا وصول هذه السكة الى الخليج العربي قلقاً بالغاً لدى الحكومة البريطانية التي انبرت لاتخاذ اجراءات مضادة فبادرت الى اعلان الحماية على الكويت لكي تقطع الطريق على وصول السكة الى هناك من جهة ولجأت الى الضغط سياسياً واقتصادياً على السلطان في محاولة لابعاده عن المانيا من الجهة الاخرى ولهذا نجد بريطانيا ترفض طلب الحكومة العثمانية الموافقة على زيادة الضرائب الكمركية في الدولة العثمانية بل وتشجع كلاً من روسيا وفرنسا على الرفض ايضاً . وفي هذا

(39) I. S. Galkin, (Germania V 1897 — 1914). . . Str. 326.

(٤٠) كانت لجنة المانية خاصة قد اوصت الحكومة الالمانية بان الكويت تصلح تماماً لكي تكون نقطة النهاية لسكة حديد بغداد خصوصاً وانه من الممكن — حسب اعتقاد اللجنة — الاتفاق مع شيخ الكويت على بناء ميناء في اراضيه . — انظر :-

G. L. Bondarevisky, Angliskaya politika i Mezdonarodnii Otnoshenii V, Basseine Zaliva, Moskva, 1968, Str. 361.

(41) Bondarevisky, Angliskaya politika. . . . Str. 263.

السياق ايضا ينبغي فهم موقف الحكومة البريطانية اثناء الاضطرابات التي حدثت في مقدونيا في ١٩٠٢–١٩٠٣ .

لكن المانيا لم تقف مكتوفة اليدين في مسألة الكويت استدعى وزير الخارجية الالماني السفير العثماني في برلين عشية اعلان الحماية الانجليزية على الكويت واعلمه بنية الانجليز وطلب منه ان ينقل للسلطان نصيحتين : الاولى : ان يبذل كل الجهود لمصالحة القبائل التابعة لابن رشيد مع القبائل التابعة لشيخ الكويت وبذلك يجرد الانجليز من حجة ملائمة للتدخل والثانية «ان يضع في الكويت قوات عسكرية كافية لتأكيد حقوق السلطان العليا بشكل فعال في هذه المنطقة» ثم اكد الوزير للسفير استعداد المانيا لمساندة العثمانيين بقوله : «طالما ان الكويت جرى اختيارها كنقطة تنتهي عندها سكة حديد بغداد فان حكومة برلين من جانبها لن تتوانى عن لفت نظر الحكومة البريطانية الى ضرورة اخذ مصالح الدولة العثمانية بنظر الاعتبار»(٤٢) . ولم يقف الامر عند قضية الكويت فقد حظيت الحكومة العثمانية باسناد فعال من جانب المانيا في جميع القضايا التي برزت على مسرح الاحداث في تلك الفترة مثل طلب الحكومة العثمانية زيادة ضرائبها الكمركية والحرب بين الدولة العثمانية واليونان والاضطرابات في مقدونيا بل ان المانيا كانت قبل ذلك «قد خرجت من المحفل الاوربي عام ١٨٩٨ عندما اتخذ اغلب المشاركين فيه موقفاً مناهضاً للدولة العثمانية في قضية كريت»(٤٣) .

ولهذا كله لم تؤد الجهود التي بذلتها بريطانيا لابعاد الدولة العثمانية عن المانيا الى نتيجة بل على العكس فقد جرى التوقيع في شباط ١٩٠٣ على اتفاقية جديدة منحت بموجبها الشركة الالمانية القائمة ببناء سكة حديد بغداد امتيازاً رسمياً بايصال السكة الى بغداد فكان ذلك نقطة تحول في موقف بريطانيا من سكة حديد بغداد بل ومن الدولة العثمانية ككل .

على ان التغلغل الالماني في الدولة العثمانية لم يقتصر على الجانب الاقتصادي بل تعداه الى الجانب العسكري والسياسي فبالاضافة الى الافضليات الستراتيجية والسياسية التي توفرها سكة حديد بغداد اولت المانيا اهتماماً كبيراً للجيش العثماني واستطاعت ان تحقق في هذا المجال ايضاً نجاحات ملحوظة فالقسم الاغلب من اسلحة الجيش العثماني وتجهيزاته كانت من المانيا كما ان الحكومة الالمانية ارسلت في عام ١٩١٣ بعثة عسكرية برئاسة ليمان فون ساندرس للعمل في الجيش العثماني وهدفها من ذلك السيطرة على هذا الجيش والتأثير بواسطته على السياسة العثمانية وقد لعبت هذه البعثة بالفعل دوراً كبيراً في جر الدولة العثمانية الى الحرب العالمية الاولى الى جانب المانيا .

(42) Quoted In Ibid pp. 264 — 265

(43) K. hvostov, op. cit. Tom II Str. 441

وفضلاً عن ذلك كان الاتحاديون قد تحولوا بعد انقلاب ١٩١٣ نهائياً الى قوة رجعية وفقدوا الصلات الواهية جداً التي كانت تقربهم قبل ذلك من جماهير الشعب وبدأوا لهذا السبب يبحثون عن سند لهم بين الدول الكبرى فاختاروا المانيا لانها كانت تساند سياستهم الداخلية والخارجية وتشجع دعواتهم بشأن الجامعة الاسلامية والجامعة التركية . ولقد تحتم على الدولة العثمانية ان تدفع ثمناً غالياً لهذه المساندة حيث تحولت في عهد الثلاثي انور وطلعت وجمال الى شبه مستعمرة لالمانيا فلقد بذل هؤلاء الساسة ولا سيما انور باشا كل ما في وسعهم لتقوية النفوذ الالماني في الدولة العثمانية ومن ثم توريطها بدخول الحرب الى جانب الكتلة الالمانية .

وهكذا استطاعت المانيا عبر صراع شديد ضد منافسيها من الدول الاستعمارية الاخرى ان تحقق نجاحات كبيرة في التغلغل في الدولة العثمانية بحيث عندما قامت الحرب في ١٩١٤ كانت هذه الدولة قد تحولت الى شبه مستعمرة لالمانيا يبرز النفوذ الالماني في جميع مرافقها وتمتلك المانيا تأثيراً محسوساً على سياستها الداخلية والخارجية . وكان مما يسهل تحقيق نوايا المانيا في التغلغل في الامبراطورية العثمانية انه لم يكن بينها وبين العثمانيين ما كان بين هؤلاء والدول الاوربية الاخرى مما يثير العداء مثل توسع تلك الدول على حساب الممتلكات العثمانية فقد استولت بريطانيا مثلاً على قبرص واحتلت مصر ووسعت فرنسا نفوذها في بلاد الشام وغزت تونس وفرضت حمايتها عليها . اما روسيا فاطماعها معروفة في البلقان والمضايق في حين استولت النمسا – المجر على اقليمي البوسنة والهرسك .

وهكذا كانت ألمانيا الدولة الوحيدة التي ظلت بمنأى عن كل ذلك بالإضافة الى تأكيد ساستها إبتداء من بسمارك وإنتهاء بوليم الثاني على انه ليس لديهم أهداف سياسية في الشرق وإن كل ما يسعون إليه هو مصالح إقتصادية فقط. ثم أن ألمانيا كانت تتمتع بميزة اخرى تفتقر اليها الدول الاوروبية االكبرى الاخرى وهي انها لا تمتلك في مستعمراتها مناطق يقطنها مسلمون كما هو الحال بالنسبة لبريطانيا وفرنسا وروسيا وقد استغلت الحكومة الألمانية هذه الحقيقة بمهارة فأخذت تساند الجامعة الإسلامية التي كان السلطان العثماني ينادي بها والتي كانت تهدف الى توحيد مسلمي العالم جميعا بما فيهم المسلمون القاطنون في الإمبراطورية الروسية وفي مستعمرات بريطانيا وفرنسا فيما وراء البحار ، تحت سيادة السلطان العثماني وهي تهدف من وراء ذلك الى إثارة المسلمين ضد منافسيها من الدول الاوروبية من جهة وإلى كسب ود وصداقة السلطان من جهة ثانية والى تسميم العلاقات بين السلطان والدول الإستعمارية التي لها رعايا مسلمون من جهة ثالثة.

إن هذه الإعتبارات بالإضافة الى إن الدول الإستعمارية الاخرى كانت قد رسخت نفوذها في مختلف أقاليم وأقطار الدولة العثمانية وفي مقدمتها أقطار المشرق العربي جعلت المانيا تفضل انتهاج السياسة التي تمكنها من الاستيلاء على الدولة العثمانية ككل على السياسة التي ترمي الى تقسيم هذه الامبراطورية بين الدول الاوروبية لأن الالمان كانوا يرون ان الدولة العثمانية الموحدة غير المجزءة والواقعة تحت حماية المانيا بشكل غير رسمي والتي يمكن تحويلها بالتدريج الى مستعمرة المانية صرفة يمكنها أن توفر لهم امكانات هائلة فيما يتعلق بتوفير الخامات وأسواق التصريف للصناعة الألمانية بعكس الحالة فيما لو قسمت هذه الامبراطورية بين الدول الوروبية لأن مثل هذا التقسيم ولا سيما في ظل الظروف التي كانت سائدة انذاك لن يكون في صالح ألمانيا.

ومن الجهة الأخرى كان السلطان عبد الحميد الثاني يأمل من جانبه في أن يتمكن بالاعتماد على مساندة الألمان من تثبيت مركزه وتشديد مقاومته لحركات التحرر الوطني لشعوب الإمبراطورية العثمانية وفي مقدمتهم العرب. وقد وجد عبد الحميد إسنادا تاما لنواياه هذه من جانب الأوساط الحاكمة الألمانية وعلى رأسها الإمبراطور الألماني ذلك أن ألمانيا كانت من اجل ان تسهل عملية تغلغلها في الدولة العثمانية تعمل على إخماد حركة التحرر الوطني لمختلف شعوب الإمبراطورية وتقف عقبة أمام تحقيق أمانيها بالإنفصال عن الدولة العثمانية وتكوين دولها القومية المستقلة.(٤٤) .وهنا يكمن في الواقع جوهر التحدي الألماني الذي جابهته الأمة العربية في تلك المرحلة من تاريخها فلقد سعت ألمانيا إلى مجابهة الحركة القومية العربية الناهضة وتحجيمها إن لم يكن القضاء عليها وذلك بإسناد حكومة عبد الحميد ومن بعدها حكومة الإتحاديين التي كانت تقمع بدون هوادة أية بادرة قومية.

لقد أسهمت النجاحات التي حققتها ألمانيا في التغلغل في الدولة العثمانية إقتصاديا وسياسيا وكذلك تبني الإتحاديين لسياسة الجامعة الإسلامية والجامعة التركية، أسهمت في دفع الساسة البريطانيين إلى إعادة النظر في سياسة بريطانيا التقليدية تجاه الدولة العثمانية ذلك ان تقلص المواقع الإنجليزية في الحياة الإقتصادية للدولة العثمانية وتنامي النفوذ الألماني الإقتصادي والسياسي بالمقابل أدى إلى تقليل إهتمام بريطانيا بالمبدأ التقليدي الذي كانت ترتكز عليه سياستها تجاه الدولة العثمانية ونعني مبدأ المحافظة على كمال تلك الدولة وحصانة أقاليمها والوقوف بوجه الدول التي تسعى إلى إقتسامها. وبالمقابل أصبحت المانيا ذات المصالح الإقتصادية الواسعة في الدولة العثمانية والساعية للحفاظ على هذه المصالح وتوسيعها هي التي تدافع عن حصانة تلك الدولة وكمال أقاليمها.

في مثل هذه الظروف اخذت الحركة القومية العربية تمثل في نظر الساسة الإنجليز أهمية كبيرة حيث إعتقدوا بأنها توفر لهم سلاحا ماضيا في صراعهم مع خصومهم الألمان في المشرق العربي الذي يرتدي أهمية فائقة بالنسبة لبريطانيا وأداة يمكن أن تستغل لتعزيز نفوذ بريطانيا في المنطة. وهكذا نجد كتشنر وهو أحد أعمدة السياسة البريطانية في المشرق انذاك يرى بأن أحد أساليب مكافحة النفوذ الألماني، في الدولة العثمانية يكمن في «تشجيع الولايات العربية التابعة للامبراطورية العثمانية على تكوين دولة واحدة أو مجموعة من الدول مستقلة إستقلالا داخليا وترتبط ببريطانيا العظمى برباط الصداقة وتشمل المنطقة من شواطئ البحر الأبيض المتوسط غربا إلى حدود إيران شرقا وبذلك تصبح سدا انجليزيا عربيا يوقف المد التركي-الألماني»(٤٥).

لكن ذلك كله لم يكن يعني بأن بريطانيا كانت انذاك أي قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة على إستعداد لأن تقدم إسنادا شاملا للعرب ضد السيطرة العثمانية، فلقد تصرفت الدبلوماسية البريطانية في هذه القضية بما هو معروف عنها من مكر وخداع ذلك ان حقيقة أن يترك العرب خلافاتهم ويتحدوا ضد العدو المشترك لم تكن تروق بأي حال من الأحوال للمستعمرين الإنجليز الذين يعملون على الدوام وفق مبدئهم الشهير «فرق تسد». وقد كشف عن ذلك السفير البريطاني في إسطنبول

(٤٤) هكذا ظهر ان عبد الحميد الثاني ووليم الثاني يحتاج احدهما للاخر «الاول للحفاظ على المملكة والاحتفاظ بالسلطة المطلقة والثاني للتوسع الاقتصادي والثقافي» –
Zaki Saleh, Mesopotamia (Iraq) 1600 — 1914, A Study In Baritish Foreign Affairs, Baghdad, 1957, p. 238.

فكان ذلك اساساً لتقارب وثيق بينهما وصل ذروته في زيارة وليم الثاني للامبراطورية العثمانية للمرة الثانية في تشرين الأول والثاني من عام ١٨٩٨ حيث القى في دمشق خطابه المشهور الذي اعلن فيه نفسه «صديقاً ابدياً للسلطان العثماني وللثلاثمائة مليون مسلم الذين يعتبرونه خليفة لهم»

Khvostov, op. cit. Tom II Str. 443.

ولا ادل على النجاح السريع الذي حققته هذه الزيارة مما كتبه بيلوف وزير الخارجية الالماني الذي كان يرافق العاهل الالماني حيث قال: «لقد غادرت تركيا وانا مقتنع باننا اصبنا فيها حقلاً واسعاً لنشاطنا الاقتصادي وصديقاً شجاعاً ايضاً لوقت الخطر»
B. Bulow, Vospominaniya, pere. S Nemetskovo, M. 1935, Str. 131.

وبالفعل فقد حققت الزيارة جملة من المكاسب الاقتصادية للالمان ذكر بيلوف نفسه انها «امتياز لبناء ميناء في حيدر باشا وامتياز لمد خط «التلغراف - هـ. ت» من كونستانتا الى القسطنطينية وتعزيز علاقات العمل القائمة بين الحكومة العثمانية والشركات الالمانية الكبيرة»
Quoted In Khrostov, Op. Cit. Tom. II Str. 444

وكذلك موافقة السلطان على منح امتياز بناء سكة حديد بغداد للالمان.

(٤٥) جورج انطونيوس، يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة الدكتور ناصر الدين الاسد والدكتور احسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٦، ص ٢٠٨.

عندما كتب إلى وزير الخارجية البريطاني إدورد كري في ١٨ اذار ١٩١٤ يخبره بأن الشيوخ العرب قد تخلوا عن خلافاتهم الشخصية «لكي يعززوا النزعات القومية ضد الحكزمة المركزية (يقصد الحكومة العثمانية — هـ. ث)» ويحذره من إنه «إذا ما اتحد هؤلاء القادة في دعوة دستورية لصالح الإنفصال أو الإستقلال الذاتي أو في حركة إنفصالية مباشرة فإنهم في الحالين يمكن أن يسببوا دون شك صعوبات كبيرة»(٤٦) . وهكذا نرى أن مجرد التقارب الموقت بين عدد من شيوخ العرب يثير إلى هذالدرجة مخاوف مخططي السياسة البريطانية ولنا إذن أن نتصور موقفهم فيما لو كانت لذلك خطوات وحدوية جادة . إن هذا التقارب بين القادة العرب انذاك كان واحدا من أسباب عديدة جعلت بريطانيا في تلك المرحلة تلتزم جانب الحذر في تعاملها مع حركة العرب القومية الموجهة ضد السيطرة العثمانية .

على أية حال، تؤلف دراسة السياسة البريطانية تجاه الحركة القومية العربية في تلك المرحلة موضوعا مستقلا لا يدخل بشكل مباشر في نطاق هذا البحث . يهمنا فقط أن نقرر هنا بأن التغلغل الألماني في الدولة العثمانية ومنها الأقطار العربية في المشرق التي كانت تابعة لها كان واحدا من الأسباب الأساسية التي جعلت بريطانيا تزيد من إهتمامها بحركة العرب القومية فتعمل على التظاهر أمام العرب بإسنادها وتعمل في السر استغلالها لتحقيق أهداف الإستعمار البريطاني في المشرق العربي .

كذلك أدى التغلغل الألماني في الدولة العثمانية من الجهة الأخرى إلى تعزيز مواقع السلطة العثمانية في مكافحتها لحركة العرب القومية وذلك بفضل الاسناد والدعم الذي حظيت به من جانب المانيا الامر الذي زاد من المصاعب التي جابهت القومية العربية انذاك فبعد أن كان القوميون العرب يناضلون ضد السيطرة العثمانية لوحدها أصبحوا يناضلون ضدها مدعومة بالإستعمار الالماني فكان ذلك تحديا اضيف الى التحديات الكثيرة التي جابهت الأمة العربية في تلك المرحلة من تاريخها .

الأطماع الصهيونية في الأرض العربية

الدكتور هادى احمد مخلف
معهد الدراسات
القومية والاشتراكية
قسم الدراسات الدولية

(46) British Documents. . . Vol. x, part II Appendix pp. 827 — 828.

الأطماع الصهيونية

في الأرض العربية

الدكتور هادي احمد مخلف
معهد الدراسات
القومية والاشتراكية
قسم الدراسات الدولية

عندما كتب إلى وزير الخارجية البريطاني إدورد كري في ١٨ اذار ١٩١٤ يخبره بأن الشيوخ العرب قد تخلوا عن خلافاتهم الشخصية «لكي يعززوا النزعات القومية ضد الحكومة المركزية (يقصد الحكومة العثمانية — هـ. ث)» ويحذره من إنه «إذا ما اتحد هؤلاء القادة في دعوة دستورية لصالح الإنفصال أو الإستقلال الذاتي أو في حركة إنفصالية مباشرة فإنهم في الحالين يمكن أن يسببوا دون شك صعوبات كبيرة»(٤٦) . وهكذا نرى أن مجرد التقارب الموقت بين عدد من شيوخ العرب يثير إلى هذاالدرجة مخاوف مخططي السياسة البريطانية ولنا إذن أن نتصور موقفهم فيما لو كانت لذلك خطورات وحدوية جادة . إن هذا التقارب بين القادة العرب انذاك كان واحدا من أسباب عديدة جعلت بريطانيا في تلك المرحلة تلتزم جانب الحذر في تعاملها مع حركة العرب القومية الموجهة ضد السيطرة العثمانية .

على أية حال، تؤلف دراسة السياسة البريطانية تجاه الحركة القومية العربية في تلك المرحلة موضوعا مستقلا لا يدخل بشكل مباشر في نطاق هذا البحث . يهمنا فقط أن نقرر هنا بأن التغلغل الألماني في الدولة العثمانية ومنها الأقطار العربية في المشرق التي كانت تابعة لها كان واحدا من الأسباب الأساسية التي جعلت بريطانيا تزيد من إهتمامها بحركة العرب القومية فتعمل على التظاهر أمام العرب بإسنادها وتعمل في السر استغلالها لتحقيق أهداف الإستعمار البريطاني في المشرق العربي .

كذلك أدى التغلغل الألماني في الدولة العثمانية من الجهة الأخرى إلى تعزيز مواقع السلطة العثمانية في مكافحتها لحركة العرب القومية وذلك بفضل الاسناد والدعم الذي حظيت به من جانب المانيا الامر الذي زاد من المصاعب التي جابهت القومية العربية انذاك فبعد أن كان القوميون العرب يناضلون ضد السيطرة العثمانية لوحدها أصبحوا يناضلون ضدها مدعومة بالإستعمار الالماني فكان ذلك تحديا اضيف الى التحديات الكثيرة التي جابهت الأمة العربية في تلك المرحلة من تاريخها .

---

(46) British Documents. . . Vol. x, part II Appendix pp. 827 — 828.

يهدف هذا البحث تحديد حقيقة وابعاد واتجاهات الاطماع الصهيونية في الارض العربية نظرا لكون الكيان الصهيوني يمثل احد الاخطار التي تهدد حاضر ومستقبل الوطن العربي ارضا وشعبا ، كما هددته عبر الفترة الماضية وابتداء من المؤتمر الصهيوني الاول ولذلك سوف نتناول المشروع الصهيوني لربط البحر المتوسط بالبحر الميت الذي يمثل احد النوازع العدوانية الصهيونية على الوطن العربي .

حيث ان الكيان الصهيوني يؤمن بمفهوم الحدود العضوية التي طرحها الجيوبولتيكي الالماني فردريك راتزل والذي يقول :

«بان الحدود السياسية للدولة يجب ان تتفق مع الطبيعة العضوية لها توسع او تتقلص بالنسبة الى قوة الدولة او ضعفها وهو مفهوم ينبثق من فكرة ان الدولة كالكائن العضوي لها حياة . فالدولة القوية عليها ان تبتلع الدولة الضعيفة[1] . وعلى هذا الاساس فان تحليل الاطماع الصهيونية في الوطن العربي يعتبر احد المهمات التي ينبغي على الباحثين ابرازها بما يؤدي الى خلق المجابهة الفاعلة ضد تنفيذ الكيان الصهيوني لاطماعه» .

١ - تاريخ الأطماع الصهيونية في فلسطين والوطن العربي :

دأبت الحركة الصهيونية منذ عقد مؤتمرها الاول في مدينة بازل السويسرية في عام ١٨٩٧ على تخطيط وتنفيذ كل ما من شأنه ايجاد دولة صهيونية في مساحة او حيز جغرافي محاط بحدود طبيعية تؤمن الديمومة والبقاء لها ، من خلال تأمين اسس متينة لقوة عسكرية قادرة على تثبيت ذلك الكيان متبعة الاراء التي طرحها الجيوبولتيكي الالماني فردريك راتزل في النظرية العضوية (organice theory) أو المجال الحيوي (theory Vital Space) الذي اعتبر الدولة بأنها كائن حي يرتبط بالتربة ويتأثر بالطبيعة فتصبح نشاطات وخصائص السكان ودولتهم متأثرة بالخصائص الجغرافية خاصة في ذلك المجال . اذ اعتبر راتزل ان مجالا كبيرا من هذا النوع يحفظ الحياة ، لذلك فان الحيز الواسع امرا ضروريا لادامة الدولة وبقائها حتى لو تطلب الامر استخدام القوة عن طريق الحرب[2] . ويؤكد ما ذكر قيام المنظمة الصهيونية في ٣ شباط من عام ١٩١٩ تقديم مذكرة الى المجلس الاعلى لمؤتمر السلام في باريس طرحت فيه الحدود التي تجدها الحركة الصهيونية ملائمة لايجاد كيان سياسي ممثل لها . هذه الحدود تتبع الخطوط العامة التالية[3] :-

تبتدأ الحدود في الشمال بنقطة تقع على ساحل البحر المتوسط بالقرب من صيدا وتتبع مجاري مياة جبال لبنان حتى جسر القرعون سالكة الخط الفاصل بين السفوح الشرقية والغربية لجبل الشيخ حتى بيت جن . ومن ثم تتجه الحدود شرقا متبعة الضفة الشمالية لنهر مغنية بحيث تحاذي خط حديد سكة الحجاز غربا .

لقد تأكد وجود مثل هذا التخطيط في اقوال الصهيونيين وبروتوكولاتهم فقد ورد في البروتوكول الاول من بروتوكولات حكماء صهيون «ان الحق يكمن في القوة لان السياسة لاتتفق مع الاخلاق في شئ والحاكم المقيد بالاخلاق ليس سياسيا بارعاً و ان حقنا يكمن في القوة . وكلمة الحق فكرة مجردة قائمة على غير اساس فهي كلمة لا تدل على اكثر من اعطني ما اريد لتمكنني من ان ابرهن لك بهذا على اني اقوى منك . كذلك زوروا ما جاء في الكتب السماوية وفقا لنظرتهم (ففي سفر العدد ٣٢) يكتبون ان كل وضع تدوسه بطون اقدامكم لكم اعطية . كما كانت موسى من البرية . ولبنان هذا الى النهر الكبير . نهر الفرات جميع اراضي الحثيين والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم[4] . وكأنهم يريدون ان يقولوا ان الشرق العربي كله مكان دولتهم .

بعد قيام الكيان الصهيوني نتيجة تآمر قوى دولية متعددة على الشعب العربي وتشريد ملايين من ابنائه في فلسطين مقابل هجرة ملايين من الصهاينة من مختلف ارجاء العالم وتوطينهم مكان هذا الشعب ، كشفت تصريحات اركان الكيان الصهيوني عن حقيقة نواياهم التوسعية . في عام ١٩٥١ صرح بن غوريون اننا الآن فقط قد وصلنا الى بداية الاستقلال في جزء من بلادنا الصغيرة . وفي عام ١٩٥٣ قال ايضا (اضيف الان ان الدولة اليهودية قد اقيمت في جزء فقط من ارض (اسرائيل) . البعض متذور حينما يتعلق باستعادة حدودنا التاريخية كما وضعت منذ البداية (ويقصد مذكرة عام ١٩١٩) ولكن حتى اولئك المتشككين لايستطيعون انكار شذوذ الخطوط الحالية .

اذا اردنا ان نسوق الامثلة على عدوانية وتوسعية الحركة الصهيونية فهناك عشرات من الامثلة على ذلك . وقناة البحرين المتوسط والميت موضوع البحث واحدا من اهمها .

(١) الدكتور عبد الرزاق عباس حسين / الجغرافية السياسية مع التركيز على المفاهيم الجيوبولتيكية مطبعة اسعد / بغداد / ١٩٧٦ ص١١ .

(2) Norman J. G. Pound, political Geography, McGraw — Hill, Co. , New York, 1963, P. 408.

(٣) هشام الدجاني / اسرائيل ومشكلة المياه – مجلة افاق عربية – العدد ١ / السنة الرابعة / ايار / ١٩٧٩ ص ٢٦ .

(٤) صحيفة القبس الكويتية عدد ٩ / كانون الثاني / ١٩٨١ .

٢ – بدايات هذا المشروع الصهيوني :

بدأ التفكير بهذا المشروع الصهيوني منذ عام ١٨٥٠ فهو فكرة بريطانية . صهيونية لكل منها اهدافها المعلنة والخفية . بالنسبة لبريطانيا كانت تفكر باستمرار تأمين اقصر طرق ارتباطها مع الهند وشرقي قارة آسيا وذلك لاعتبارات اقتصادية بشكل اساس . قامت هذه الدولة عام ١٨٥٠ بارسال الكابتن الانكليزي وليام الن الى فلسطين لدراسة امكانية ربط البحر المتوسط مع البحر الميت ومن ثم بالبحر الأحمر وحتى المحيط الهندي وكذلك الى الهند . قام الموفد البريطاني بمهمته وقدم تقريرا لحكومته نشر تحت عنوان «البحر الميت طريق جديد الى الهند» .

لقد جاء في التقرير ان المشروع هو قناة تربط خليج حيفا بوادي الاردن ومن ثم بالبحر الميت بعدها يستمر المشروع الى خليج العقبة (حيث يتم انشاء ميناء عميق ومنها الى شرم الشيخ وحتى المحيط الهندي والهند . ووضع الن في ذلك التقرير خططاً تفصيلية لتنفيذ المشروع . على أن تحول بريطانيا الى مشروع قناة السويس ، بعد ان وجدت ان فرنسا بدأت التخطيط لذلك بالتعاون مع الخديوى المصري وخوف بريطانيا من تركيز نفوذها وسيطرتها على الطرق التجارية . هذا الامر اعطى الاولوية في خطط بريطانيا الى التفكير في تنفيذ مشروع قناة السويس بحيث يبقى المشروع الآخر امرا احتياطيا اذا مافشلت بريطانيا في السيطرة على قناة تربط البحر المتوسط بالبحر الاحمر(٥) .

اما بالنسبة للحركة الصهيونية فقد كانت بدايات المشروع ترجع الى الافكار التي كان يطرحها مؤسس الحركة تيودور هرتزل . ففي كتابه (الدولة اليهودية) عام ١٨٩٦ وصف المشروع بانه من المشاريع الحيوية جدا بالنسبة «للدولة اليهودية» التي ستقام وبالتالي فلا مناص من الشروع بتنفيذه حالما يستتب الاستقرار للحركة الصهيونية في فلسطين(٦) وفي عام ١٨٩٩ قدم مهندس سويسري يدعى ماكس بوركارت اقتراحا مكتوبا الى هرتزل يدعوه فيه الى مشروع من قناتين لتزويد (الدولة اليهودية) التي ستنشأ في المستقبل بالكهرباء ولسد حاجتها من المياه العذبة هي :-

القناة الاولى تمتد من حيفا وتجري في وادي جزريل ثم تهبط الى وادي الاردن ومن ثم الى البحر الميت هناك

القناة الثانية التي تمتد من الطرف الجنوبي لبحيرة طبريا على موازات نهر الاردن من جهة الغرب تماما .

كان المشروع الصهيوني يتضمن اقامة محطات لضخ المياه من قنوات فرعية حتى اعلى ذروة في سلسلة جبال السامرة حيث تخزن المياه في خزانات ضخمة ومن ثم توزيعها حسب الحاجة .

وفي كتاب هرتزل عام ١٩٠٢ الذي اطلق عليه اسم (البلاد الجديدة والقديمة) اكد فيه ايضا على المشروع حيث اشار الى ان انشاء قناة تربط البحرين المتوسط والميت . هذه القناة تنقل المياه من البحر المتوسط الى البحر الميت وذلك عبر انفاق معينة مما سيؤمن للدولة الصهيونية المرتقبة طاقات كهربائية تساعدها على استغلال كل اراضي فلسطين لصالح (اليهود) فضلا عن انها سوف تساعد في تغيير البيئة الصحراوية . مما تسهل اسكان اعدادا كبيرة من (اليهود) اضافة الى تحويل الصحراء الى مايشبه الجنة . وقد حدد هرتزل العام الذي يتم فيه تنفيذ المشروع على انه عام ١٩٢٣ .

في عام ١٩١٩ اقترح مهندس نرويجي يدعى بورت شق نفق مباشر تحت جبال القدس من البحر المتوسط حتى البحر الميت لنقل المياه وبالتالي انتاج الطاقة الكهربائية .

في عام ١٩٢٥ اقترح مهندس فرنسي يدعى بيير غندوبرن نقل المياه الى غور الاردن عن طريق مرج بن عامر وبناء محطتين لتوليد الكهرباء . الاولى في مداخل بيسان والثانية في مصب نهر الاردن .

في عام ١٩٣٧ قام بن غوريون بجولة ميدانية في مناطق الاغوار الجنوبية بغية الوصول الى قرار بشأن تنفيذ أفكار هرتزل . ولكن التطورات السياسية في فلسطين آنذاك حيث الثورة الفلسطينية ونتائجها . لم تكن تسمح للصهيونية بالاجهار في البدء بالتنفيذ .

في تشرين الاول عام ١٩٤٣ نشرت لجنة تسمى بلجنة تخطيط فلسطين تقرير عن القناة معد من قبل جون مسافاج وفالترلاودر جيلك اقترحوا فيه تحويل مياه نهر الاردن للري وسد النقص الذي سيعانيه البحر الميت من قلة المياه عن طريق نقلها من البحر المتوسط واستغلال الفارق في الارتفاع بين البحرين لانتاج الطاقة الكهربائية

في عام ١٩٤٤ صدر كتاب الاستاذ امريكي (والتركلاس لاودملك) خبير في الاراضي والري عنوانه (فلسطين ارض الميعاد) تحدث فيه عن امكانية شق قناة بين البحرين المتوسط والميت بعد ان تصور المشروع من طائرة اقلته عام ١٩٣٩ فوق منطقة اغوار الاردن التي تنخفض حوالي ٤٠٠ م عن سطح البحر ورأى ان مشروع القناة سينعش اقتصاديا وزراعيا وصناعيا حوالي ٤ ملايين (يهودي) من لاجئي اوربا . وان فلسطين كانت في حاجة الى المياه والكهرباء لانعاشها واسكان المزيد من المهاجرين .

(٥) نواف كشلي - في ظل كيب ديفيد / العدو الصهيوني / ينشط على طريق بناء دولته التوسعية الكبرى - صحيفة الثورة العراقية - عدد ٤٠٩٦ في ١٩٨١/٨/٤

(٦) صحيفة القبس الكويتية - بالرغم من ان المشروع الصهيوني تعترضه مشا كل نظرية وعملية - اسرائيل سائرة لتحقيق احلام هرتزل بانشاء قناة تربط البحر المتوسط بالبحر الميت عدد ٣٢٢٥ في ١٩٨١/٤/٣٠

في عام ١٩٤٦ صدر تقرير المهندس جيمس هيس رئيس لجنة تخطيط فلسطين اشتمل التقرير على شق ممرين لنقل المياه هما : ممر الغور ونفق آخر تحت جبال القدس يمر تحت المدينة المذكورة ويربط قرية سكرير (اشد ورماليا) بقرية حمدان الواقعة شمالي البحر الميت .

واعتمادا على تلك التقارير وبعد ان انتقل ارتباط لجنة تخطيط المياه في الكيان الصهيوني الى وزارة الزراعة بعد قيام الكيان السياسي للصهيونية في فلسطين اتصلت الوزارة بالمهندس والمصمم جون كوتون لاعداد خطة شاملة لتطوير الرى والطاقة الهيدروكهربائية في فلسطين المحتلة . وقد قدم كوتون ستة تقارير بين عام ١٩٥٠-١٩٥٥ كان التقرير الاول والثاني نتيجة تعاونه مع جيمس هيس . درس كوتون في التقرير الاول سبعة ممرات مختلفة لربط البحر المتوسط بالبحر الميت ، وتضمن اقتراحين لتدفق مياه البحر المتوسط المالحة في ممرات مختلفة الى بحيرة طبريا مباشرة . كذلك وضع خطة اخرى اقترح فيها نقل المياه من البحر المتوسط عبر نهر كيشون حتى حيفا ، والى حفر قناة مفتوحة الى منطقة الحميدية ومنها الى نهر الاردن . وقد اوصى كوتون بتنفيذ المشروع باسرع وقت ممكن .

وقد حذر كوتون في تقريره الذي صدر عام ١٩٥٥ من حدوث مشاكل سياسية نتيجة التنفيذ واشار الى انه يفضل انشاء نفق ومحطة ضخ من نهر كيشون الى نهر الاردن بعد استغلال جميع مياه نهر الاردن في مجالات الرى .

وتوصل الى نتيجة مفادها انه بعد تحويل نهري الاردن واليرموك سيصبح بالامكان ضخ كمية ثابتة من المياه بمعدل ٣٦م^3 / ث نحو البحر الميت للمحافظ على منسوبه الاعتيادي . وان المحطة الكهربائية المقامة ستولد طاقة قدرها ١١٠ ميغاواط . وقد قدرت تكاليف المشروع بـ ٢٥ مليون دولار تصل بعد خمس سنوات الى ٤٦ مليون دولار .

في عام ١٩٧٨ شكلت لجنة صهيونية برئاسة (يوفال نئمان) مؤسس أحد الاحزاب الصهيونية (حتحيا - النهضة) المتطرفة ، واحد السياسيين الصهاينة لدراسة وبحث التطبيق الفعلي لمشروع القناة وتحديد أي المواقع افضل للبدء بتنفيذ المشروع .

وهكذا كانت هذه اللجنة وعلى اساس الدراسات والتقارير التي وضعت طيلة الفترة المبتدأة منذ المؤتمر الصهيوني الاول الذي اشرنا اليه . كانت آخر لجنة تنفذ فعليا آراء وافكار هرتزل .

٣ - تفاصيل المشروع الصهيوني :

مضىها يقارب قرن ونصف على بداية التفكير الصهيوني الاستعماري بخصوص مشروع القناة الآنفة الذكر . وقد قامت الحكومات الصهيونية المتعاقبة بالعمل على اختيار طرق وممرات مفضلة لتنفيذ المشروع وتحقيق الاهداف الاستراتيجية التي يطمع الكيان الصهيوني في الوصول اليها ، اذا تذكرنا ان صحراء النقب ذات اهمية استراتيجية للكيان الصهيوني يتوضح لنا ما قاله بن غوريون عام ١٩٥٦ من (ان اعمار النقب والسكن فيه ضرورة مطلقة لسلامة (اسرائيل) وامنها ، وان (اليهود) القاطنين على الساحل لن يطول بقاؤهم اذا لم يرتفع عدد سكان النقب من شعبنا) هذا يعني ان الحركة الصهيونية تعتبر منطقة النقب من المناطق الضرورية لها ، وتتوقع فيما لو استثمرها لن تكون خطرا عليها . وفي ذات العام صرح بن غوريون (ان النقب هي اليوم نقطة الضعف في (اسرائيل) ومصدر الخطر على مستقبلها ، وفي النقب ترسم ايضا اعظم آمال (اليهود) . ان دولة (اسرائيل) الصغيرة لا تستطيع الصبر طويلا على وجود صحراء النقب على وضعها الحالي والتي تشكل نصف مساحة اراضيها . ذلك ان هذه الدولة ان لم تستغلها ، فان هذه الصحراء ذاتها سترسم النهاية الواضحة (لاسرائيل) . لذلك اعطت الحكومات الصهيونية في نهاية السبعينات اولويات تنفيذ مشروع القناة ، واستندت على اوسع دراسة قدمها يوفال نئمان لترح في هذه الدراسة ثلاث مسارات رئيسية لتنفيذ المشروع الصهيوني وهذه المسارات هي :-(٧)

المسار الاول : يسمى بالخط الشمالي يبدأ بنفق من حيفا الى مرج ابن عامر ثم يمر بوادي بيسان وحتى نهر الاردن . ونظرا لان شق القناة عبر الممر يؤدي الى تحويل مياه نهر الاردن الى نهر مالح فيؤدي الى دمار بيئوي لطبيعة الوادي فقد عزف الصهاينة عن تنفيذه رغم انه ينسجم مع افكار هرتزل القديمة حول مشروع هذه القناة .

المسار الثاني : يسمى الخط الوسط يبدأ من اشدود جنوب تل ابيب ثم يمر بخط مستقيم جنوب القدس وينتهي قرب منطقة قمران على البحر الميت بعد ان يمر في نفق عمقه ٢٠٠ م تحت مكامن المياه الحلوة (العذبة) .

ان صعوبة شق هذا النفق خاصة في المنطقة الجبلية ووجود عوائق جيولوجية لحفره بالقرب من منطقة القدس دفع حكومة العدو الى العزوف عنه كذلك .

المسار الثالث : يسمى الخط الجنوبي يبدأ من القطيف قرب دير البلح في الطرف الجنوبي لقطاع غزة المحتل . بين خان يونس ودير البلح ويمتد في ممر شبه مستقيم مع بعض التعرجات بالاتجاه الجنوبي نحو بئر السبع الى ان يصب في البحر الميت في منطقة عين بقيق بالقرب من مسبادا على طريق عين جرى . وقد وافقت حكومة العدو الصهيوني في جلستها بتاريخ

(٧) صحيفة القبس الكويتية الصادرة بتاريخ ١٩٨١/٨/٢٠

٢٤/آب/١٩٨٠ على مشروع القناة وعلى اختيار المسار الثالث للشروع بتنفيذ المشروع . حيث اقيم في ٢٩ آيار ١٩٨١ أحتفال قرب البحر الميت لتدشين العمل بالمشروع والبدء بالمراحل التنفيذية .

طول القناة ١١٠كم ٨٠كم منها في شكل انفاق في الهضاب المشرفة على البحر الميت ، كان المؤمل ان يتم سحب المياه من منطقة القطيف في غزة ، بعد رفعها الى مستوى ١٠٠ م الى مجرى مائي يتراوح طوله بين ١٠/١٥ كم قبل ضخها الى نفق يبلغ قطره ٥ أمتار ويصل عمقه في نهايته الى ٥٥٠م . ويقع الى الجنوب من بئر السبع . حتى تصل الى نقطة تقع جنوب البحر الميت حيث تنزل من مسقط كبير يبلغ ارتفاعه ٤٠٠ م بسبب انخفاض مستوى البحر الميت عن مستوى البحر المتوسط . على اساس الحسابات الصهيونية فان المشروع سوف ينجز بشكله النهائي بعد مضي عشر سنوات على بدء التنفيذ اى عام ١٩٩٠ في اكثر الاحتمالات .

قدرت تكاليف المشروع بين ٧٠٠-٨٠٠ مليون دولار بحسابات الكلفة في عام ١٩٨٠ . مضافا اليها ٦٠ مليون ليرة (اسرائيلية) تم توظيفها من ميزانية عام ١٩٧٩ لمتابعة عمليات التنظير والدراسات والبحث . وكذلك ٢٠٠ مليون ليرة وظفت من ميزانية عام ١٩٨٠ [٨] .

ان تمويل المشروع الصهيوني هذا سوف تقوم به مؤسسات امريكية وكندية ومؤسسات صهيونية داخل فلسطين واوربا وامريكا ، مقابل امتياز حق استقدام محطة هيدوكهربائية ، وبيع الكهرباء المولدة الى المستهلكين .

يتضح اذن ان الكيان الصهيوني جاد في تنفيذ المشروع وان المؤسسات الصهيونية داخل فلسطين واوربا وامريكا تقدم الدعم والعون الى هذا الكيان لتنفيذ المشروع اضافة الى مساهمات الدول الاستعمارية في هذا المجال .

٤ - اهداف الكيان الصهيوني من المشروع :

يسعى الكيان الصهيوني باستمرار الى العمل على كل ما من شأنه تثبيت كيانه والايمان بسياسة الامر الواقع . لذلك يعتقد ان كل مشروع يقوم به سوف يؤدي بالتالي الى اطالة عمره ، لكنه يدرك انه كيان شاذ لا شبيه له فيما يجاوره من الكيانات السياسية وما يوجد بينهما من روابط . اذ ما يزيد من التعقيد النفساني للحركة الصهيونية هو عدم الاعتراف بها في الوطن العربي رغم مرور اكثر من ثلاثة عقود من الزمن على تواجدها السياسي فيه . وعلى الرغم من العلاقات التي اراد السادات لها ان تكون طبيعية مع الكيان الصهيوني ، فان الكيان ذاته لم ولن يطمئن الى ان الشعب العربي في مصر سوف . . . يتنازل عن عروبته واصالته وانتمائه القومي وينسى جرائم الصهيونية عبر التاريخ وخاصة التاريخ الحديث ويتجانس معها .

ان اهداف الكيان الصهيوني من مشروع القناة متعددة وتنطوي على جوانب بشرية واقتصادية وعسكرية ومعنوية يمكن تحديدها كالآتي :-

(١) الحصول على الطاقة الكهربائية المولدة من الشلالات المتكونة نتيجة فارق الارتفاع الذي يبلغ ٤٠٠ م بين بداية المشروع على البحر المتوسط ونهايته على البحر الميت . حيث قدرت طاقة التوليد التي يمكن الحصول عليها بانها تصل الى ٦٠٠ ميغا واط وبمعدل تشغيل قدرة ٦ - ساعات يوميا فقط . وهذا يعني ان ٢٣٪ من احتياجات الكيان الصهيوني الحالية من الكهرباء سيوفرها هذا المشروع . وبناء على ذلك فسوف يوفر مليار دولار سنويا نتيجة الاستغناء عن شراء كميات من النفط لذلك الغرض و ٣٠٠ مليون دولار عن اقامة محطة كهربائية تعمل بالوقود و ٨٠٠ مليون دولار قيمة الوقود المستخدم في المحطة التي تحتاج الى الوقود .

(٢) الحصول على الطاقة الكهربائية عن طريق تحويل البحر الميت الى بركة شمسية للمياه مساحتها حوالي ١٠٠ كيلو متر مربع تسمح بانتاج ١٥٠٠ ميغا واط من الكهرباء وهو يقابل ثلاثة اضعاف انتاج المحطة الكهربائية . وبذلك يكون الكيان الصهيوني قد حصل على الطاقة الكهربائية من مشروع يتصف بالاستمرارية ولمدة لاتقل عن ٥٠ سنة في حالة اكماله [٩] .

(٣) سوف يستخدم الكيان الصهيوني مياه هذا المشروع لتبريد المفاعلات النووية المقامة في صحراء النقب كمفاعل ديمونا . وكذلك أستخدامها في تبريد المفاعلات النووية التي ستقام مستقبلا . اذ ان الحصول على المياه لتبريد المفاعلات النووية كانت احد المشكلات الكبيرة التي جابهت الكيان الصهيوني في سعيه لبناء المفاعلات النووية في المناطق الصحراوية .

(٤) سوف يقوم الكيان الصهيوني باستغلال الصخور الزيتية الموجودة في المناطق المحاذية للبحر الميت في عمليات انتاج الطاقة والتي يمكن ان تكون بديلاً عن النفط مستفيدة من مياه القناة لاستخدامها كمياه تبريد لانتاج الطاقة .

(٥) سوف يساعد مشروع القناة الكيان الصهيوني في حالة تنفيذه ، على

(٨) سعد الدين عزيز مصطفى - الرقيام اسرائيل والمشاريع التي تقوم بتنفيذها على المواصلات بين البلاد العربية ندوة المواصلات في الوطن العربي في السلم والحرب / بغداد - ايلول /١٩٨١ مركز الدراسات العربية ، نقابة المعلمين في الجمهورية العراقية ونقابة المهندسين العراقيين .

(٩) نواف كشلي - مصدر سابق

توسيع مستعمرات الاستيطان وتوجيه الاعلام الموالي له في الداخل والخارج للايحاء . . . للصهاينة الموجودين في الخارج بان في فلسطين ارض متوفرة لها كل مقومات الاستثمار عدا العامل البشري ، ولذلك على الصهاينة الهجرة الى فلسطين .

ان طموح الكيان الصهيوني هو ان يكون على ارض فلسطين ٦ ملايين صهيوني يستطيع الاعتماد عليهم في مجابهة العرب المحيطين به . مضافاً الى ذلك يعتقد الكيان الصهيوني انه سوف يكون قادراً على الحد من الهجرة المعاكسة من داخل فلسطين الى دول العالم الاخرى . وذلك بتطمينهم بأن فرص العمل والاستثمار ستكون مفتوحة امامهم بعد اكمال المشروع .

(٦) سوف يستخدم الكيان الصهيوني مياه مشروع القناة لاستصلاح الاراضي في صحراء النقب واستثمارها زراعيا مما سيترتب عليه توسيع رقعة الاراضي الصالحة للزراعة وبالتالي ايجاد مورد اقتصادي جديد للكيان الصهيوني سيؤدي الى تحقيق نوع من الاستقرار البشري يؤدي الى اطالة عمره .

(٧) ان سعة المساحة وكميات المياه الكبيرة التي يتضمنها مشروع القناة سيمكن الكيان الصهيوني من تنمية الثروة السمكية في البحيرات المرافقة للمشروع وسيؤدي الى اقامة منشآت سياحية تساهم في التخفيف عن الاقتصاد الصهيوني الذي يعاني عجزا كبيرا . اذ سيؤدي وجود الثروة السمكية الى وجود مادة غذائية وسيؤدي وجود المنشآت السياحية الى استقطاب سياح بتأثير الدعاية الصهيونية في الخارج . وبالتالي تكوين مصدر آخر للاقتصاد الصهيوني .

(٨) يهدف الكيان الصهيوني من اقامة محطات الطاقة الكهربائية بالقرب من البحر الميت حيث تصب القناة الى توفير الكهرباء الرخيصة لمصانع المغنيز والالمنيوم والفسفور والاسمدة والصناعات المعدنية والبتروكيميائية . وهذا ايضا سوف يؤدي الى انتاج سلع صناعية بكلفة اقل مما هي عليه سابقا .

(٩) نظرا لعدم قدرة الكيان الصهيوني في حالة تعرضه لهجوم من الانسحاب الى عمق جغرافي يتيح الفرصة له لكسب الوقت او الدفاع في العمق نتيجة لان المساحة التي اغتصبها رغم اهميتها الاستراتيجية كموقع الآ انها وبحكم ارتباطها الطبيعي مع اراضي الاقطار العربية المجاورة والتي تمثل كل منطقة عمقا جغرافيا للاخرى . فان الكيان الصهيوني سوف يستخدم مياه القناة في اغراق الاراضي المجاورة لكي يتكون مانع مائي قد يعيق الى حد ما من تقدم الجيوش العربية المحررة ولو لفترة زمنية يستخدمها لتعبئة وتنظيم قواه العسكرية . وكذلك وصول المساعدات الامريكية او غيرها له لتنقذه من الأنهيار .

(١٠) يحاول الكيان الصهيوني باستمرار بوسائل متعددة الايحاء للمواطن العربي بانه يمتلك التكنولوجيا والخبرة والقدرة على تنفيذ أي مشروع ويعتقد انه قادر على ان يغير ارتباط وايمان وولاء المواطن العربي لقضيته القومية وعدم اعترافه بشرعية الكيان الصهيوني . وهو ينسى ان أي مواطن عربي يحمل شرف الانتماء لهذه الامة بحق لا يمكن لأي وسيلة من تغيير ايمانه بضرورة زوال الكيان الطارئ على الامة العربية . وليس ادل من صمود شعبنا العربي في داخل الارض المحتلة سواء كانت اراضيهم التي احتلت قبل عام ١٩٦٧ أو بعده . هو مقارعتهم للكيان الصهيوني بكل الوسائل المتيسرة .

(١١) قد يكون من الاهداف المستقبلية التي يريد الكيان الصهيوني الحصول عليها من المشروع هو ان يكون منافسا لقناة السويس كطريق مواصلات يربط بين البحر المتوسط والبحر الاحمر في حالة مده الى خليج العقبة . وما يحملنا على وضع هذا الاحتمال هو ان بريطانيا سعت في فترة ١٨٥٠ ومابعدها لانشاء ذلك المشروع . قبل ان تتوجه لمشروع قناة السويس . واذا حصل ذلك فانه سيؤدي الى اضعاف اهمية قناة السويس وبالتالي اضعاف اهمية الموقع الجغرافي للقطر المصري بالدرجة الاولى . وهذا يعني ان الكيان الصهيوني سيتمتع بمرونة اكبر من التي هو عليها الآن . اذ ان ذلك المشروع سيؤدي الى فك جزء من حلقات الطوق المفروض عليه نتيجة للمقاطعة العربية .

(١٢) ان المشروع في حالة تنفيذه تطبيق لنظرية الصهيونية في التوسع وفي تطبيق الافكار التي طرحتها المؤتمرات الصهيونية واركانها ومنهم تيودور هرتزل .

هذه هي الاهداف التي يبتغيها الكيان الصهيوني من هذا المشروع التوسعي وقد تكون هناك اهداف اخرى لم نتطرق اليها .

٥ — مخاطر المشروع الصهيوني على الوطن العربي :

رغم ان الاهداف التي يبتغي الكيان الصهيوني تحقيقها من مشروع القناة تمثل مخاطر حقيقية على الوطن العربي بحكم انها تؤدي الى اطالة عمره . الآ ان هناك مخاطر مادية مباشرة منظورة لايمكن اغفالها هي : —

(١) سيؤدي المشروع الصهيوني بالتأكيد الى رفع منسوب المياه في البحر الميت . ذلك لان تدفق مليار متر مكعب سنويا سيؤدي الى رفع مستوى المياه في البحر الميت الى حوالي ٣٩٥ متر تحت سطح البحر في المستوى العام عام ٢٠١٠ بينما ستكون الحواجز في اوعية مشروع البوتاس الاردني بحلول عام ١٩٨٣ على مسافة ٣٩٧٫٥ متر تحت مستوى سطح البحر . وهذا من شأنه التأثير على منشآت مشروع البوتاس الاردني . اذ سيتسبب

المشروع الصهيوني في تقليل مردود البوتاس بنسبة ١٥٪ مشكلا خسارة سنوية تقدر بـ ١٠٠ مليون دولار . وقد يؤدي المشروع الى تعريض منشآت ذلك المشروع الى الغرق علما بانه يشكل مردودا . . اساسيا من الموارد الاقتصادية التي يعتمد عليها القطر الاردني .

تشير في هذا الجانب الى ان منشآت شركة البوتاس العربية التي تساهم فيها عدة اقطار عربية معرضة هي الاخرى لذات الاخطار التي سيتعرض لها المشروع الاردني[10] .

(٢) سيؤثر المشروع الصهيوني على نسبة الملوحة في مياه البحر الميت يترتب عليه انخفاض كمية انتاج الملح الذي يستخدم في اغراض صناعية ومنزلية عديدة ، نظراً لاختلاف نسبة الملوحة في مياه البحر المتوسط والبحر الميت .

(٣) سيؤدي المشروع الصهيوني وبحكم ارتفاع مستوى المياه في البحر الميت الى اغراق المنشآت السياحية التي تعتبر احد المصادر الاقتصادية المكونة للدخل القومي في القطر الاردني .

(٤) سيؤدي المشروع الصهيوني الى تناقص العديد من الخامات الموجودة في البحر الميت الاحتياطي الموجود في البحر يبلغ ٢٠٠٠ مليون طن من كلوريد البوتاسيوم و ١١٠٠٠ مليون طن من كلوريد الصوديوم و ٢٢٠٠٠ مليون طن من كلوريد المغنزيوم و ٩٨٠ مليون طن من بروميد المغنزيوم . هذا يعني ان ثروة اقتصادية عربية مهمة سوف لن تستثمر بشكل صحيح بسبب المشروع الصهيوني[11] .

(٥) سيؤدي المشروع الصهيوني الى التأثير على الرمال الزيتية في المناطق الشرقية المجاورة للبحر الميت عند غمرها بالمياه . وهذه الرمال تشكل عنصرا مهما في عمليات التنقيب على النفط في مناطق البحر الميت .

(٦) سيؤدي المشروع الصهيوني الى تدمير الاراضي الزراعية في الضفاف المجاورة للبحر الميت واغراقها او زيادة نسبة الملوحة فيها . ولما كانت منطقة الاغوار التي تعتبر من المناطق الزراعية الرئيسية في المنطقة التي ستتأثر سلبا بالمشروع الصهيوني مما يترتب عليه اضعاف لقطاع او نشاط رئيس سيؤدي الى الهجرة البشرية وبانخفاض الانتاج وتلاشيه في النهاية .

(٧) سيؤدي المشروع الصهيوني الى التأثير على خزانات المياه الجوفية في منطقة واسعة تحيط بالمشروع حيث ستتأثر نسب الاملاح اضافة الى اختلاف في مستويات المياه في كل ذلك تأثير سلبي على اهم الموارد الاحتياطية .

(٨) المشروع الصهيوني يمثل استهانة واستخفافاً كبير بالقوانين والاعراف الدولية فهو يقوم على اراضي عربية احتلت في عام ١٩٤٨ اضافة الى اراضي عربية اخرى احتلت عام ١٩٦٧ ، لم يكن الاحتلال في كلتا الحالتين شرعياً ومعترفاً به من قبل الشعب العربي . لذلك فان أي نوع من الاستثمار يقيمه الصهاينة على الارض العربية في فلسطين يؤكد نوازعها التوسعية العدائية . هذه حالة لابد ان تؤدي عاجلا أم آجلاً الى تأثر الذات العربية القومية .

ان الاعداد البشرية مع المتضمين للصهيونية التي ستهاجر الى المنطقة التي يمتد المشروع فيها ، والمستعمرات الاستيطانية التي ستقام سوف تدفع الكيان الصهيوني الى توسع تال يضيف مكاسب غير شرعية للمكاسب التي حققها على الارض العربية .

لذلك لابد من تأكيد القول ان أي عمل يقوم به الكيان الصهيوني للتأثير على وضع الأرض العربية والشعب العربي وتحت أي غطاء او مبرر لابد ان يمثل تنامي الخطر الصهيوني الذي يمكن تمثيله بالامراض الخبيثة التي تصيب الجسم البشري والتي لايكون علاجها ناجحاً الا بالبتر قبل استفحالها .

٦ - مواقف الاقطار العربية تجاه المشروع الصهيوني :

يظهر اذن ان مشروع قناة البحرين المتوسط والميت الذي يقوم الكيان الصهيوني بتنفيذه يحمل مخاطر جمة وكبيرة على الوطن العربي كأقطار ذات انظمة سياسية او كشعب يسكن ارض الوطن العربي عموما . لذلك فان المطلوب من الامة العربية كانظمة وجماهير ان تكون في مستوى الرد على هذه المخاطر . ورغم ان استعراض مواقف عدد من الانظمة العربية تجاه المخططات الصهيونية منذ عام ١٩٤٨ ، لايعطينا تفاؤلا كبيرا ، لان هناك من الانظمة العربية ماهو منشغلا بتغليب الثانويات على الولويات من الأمور التي تهم الامة . في حين يفترض ان يكون الحد الادنى من أي موقف عربي هو عدم الاعتراف بالكيان الصهيوني والتفاوض معه واحكام المقاطعة ضده ، هذا ما تميز به مؤتمر قمة بغداد عام ١٩٧٨ . وأي موقف يرتقي فوق ذلك يعتبر أكثر ايجابية من مواقف الحد الأدنى .

ان اغفال حقيقة المخاطر التي تترتب على وجود الكيان الصهيوني وتنفيذه للمخططات التوسعية وخاصة اطماعه في مياه نهر الليطاني ونهر الاردن ونهر النيل . سيؤدي بلا شك الى تفاقم خطر وجوده مما يؤثر بنتائج غير ايجابية على عموم الوطن العربي .

أصبح الكيان الصهيوني في ظل التناقضات والخلافات الموجودة بين الانظمة السياسية في الوطن العربي . اكثر قناعة بأن احتمالات الرد العربي

(١٠) زهير خضير ياسين / مخاطر المشروع الصهيوني لربط البحر المتوسط بالبحر الميت / صحيفة الثورة العراقية - عدد ٤٢٢٩ في ١٩٨١/١٢/٥ .

(١١) صحيفة الرأي الاردنية في ١٩٨٣/٤/٢٨ .

الموحد عن اجراءاته العدوانية ستكون إجراءات . . ضعيفة . هناك عشرات الاعتداءات قام بها العدو الصهيوني وعديد من المخططات التي قام بتنفيذها دون ان يجابه ردا عربيا موحدا فعالا ضمن اعتداءاته بعد عام ١٩٤٨ منها عدوانه عام ١٩٥٦ على القطر المصري . كذلك عدوانه عام ١٩٦٧ على الامة العربية وعدوانه على مطار بيروت عام ١٩٦٨ واعتداءاته المتكررة على جنوب لبنان وعدوانه على الامة العربية عام ١٩٧٣ ، وضم مدينة القدس العربية واعتبارها عاصمة لكيانه . كذلك عدوانه على المفاعل النووي العراقي للاغراض السلمية عام ١٩٨١ ، وضمه لمنطقة الجولان السورية عام ١٩٨١ ، ثم اجتياحه للقطر اللبناني عام ١٩٨٢ ايضا ومشروعه الذي ذكرناه مسبقا . وضمن هذه السياقات فسوف يعمد العدو مستقبلا لضم قطاع غزة والضفة الغربية واعمال عدوانية اخرى طالما لا تتجاوز ردود الفعل العربية سوى غضبا مؤقتا وادانة وشجب ودعوة لمجلس الامن الدولي وحينئذ تكون امريكا مستعدة لاستخدام حق الفيتو . طالما انه حق محدد ببعض الدول . ويؤدي الى تقوية علاقاتها مع هذا الكيان بشكل غير محدود . في اسوأ الاحتمالات فان امريكا تسمح باتخاذ قرار يدين الكيان الصهيوني عن عدوانه تجاه الامة العربية الا ان الكيان الصهيوني سوف لايهمه قرار الادانة لانه قائم على التوسع ومبدأ الغاية تبرر الوسيلة . ومن ثم يعاود التوسع والعدوان .

ان الكيان الصهيوني وكما اوضح السيد الرئيس القائد صدام حسين في احدى جلسات مجلس الوزراء لايمكن ان يقبل بحدود الحيز الذي اغتصبه ، وانه لابد ان يختلق أي حالة يتخذها مبررا لتوسعه وعدوانه على الامة العربية .

ان استمرار الوضع العربي تجاه الكيان الصهيوني بالمستوى الذي عليه الآن سيؤدي الى تشجيعه على العدوان . ولذلك نجد ضرورة العمل على الاصعدة السياسية والاقتصادية والعسكرية الموحدة لمنعه من تنفيذ مشاريعه التوسعية ومنها مشروع قناة البحرين . فعلى الصعيد السياسي لابد من تجاوز التناقضات الموجودة بين الانظمة العربية واعتبارها تناقضات . . ثانوية لا ترتقي الى مستوى التحدي الصهيوني . وهذا يؤدي بالضرورة الى موقف عربي موحد من الناحية السياسية وطرح موضوع قناة البحرين ومخاطره على هيئات دولية ومنها مجلس الامن الدولي والجمعية العامة للامم المتحدة لاستحصال قرارات تمنع الكيان الصهيوني عن الاقدام على تنفيذ أي عمل من شأنه التأثير على وضع الموارد الطبيعية والاقتصادية في فلسطين . ذلك لان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي . وان الشعب العربي الفلسطيني داخل الارض المحتلة وخارجها يملكان الحق باستثمار هذه الموارد ولايحق الصهاينة المهاجرين من بقاع مختلفة من العالم استثمار هذه الموارد لذلك يتوجب مطالبة الدول التي تساند الكيان الصهيوني في الضغط عليه لمنعه من تنفيذ تلك المشاريع مع ضرورة تواجد موقف سياسي عربي موحد ازاء أي دولة تلتزم الكيان . . الصهيوني في المحافل الدولية .

على الصعيد الاقتصادي لابد من أفهام أي دولة أو مؤسسة أو شركة أو جهة تتعاون مع الكيان الصهيوني في مجال الخبرة أو المعدات أو التمويل المالي انها ستكون معرضة لتصفية مصالحها في عموم الوطن العربي . واذا حصل ذلك فان ذلك الكيان سوف يكون غير قادر اطلاقا على استمرار تنفيذه لمشاريعه التوسعية ومنها المشروع الانف الذكر . ذلك لانه لايزال بحاجة لرأس المال والخبرة والمعدات لتحقيق ذلك[١٢] .

على الصعيد العسكري لابد من اتخاذ موقف رادع للصهاينة بعمل عسكري موحد يمنعهم من التفكير بتنفيذ أي مخطط توسعي على حساب ارض وشعب العرب . فاذا ماكانت الانظمة العربية طيلة الفترة السابقة تهدد بالكلام فانها مطالبة في الزمن الحاضر بأن تفهم كيان صهيون ان لغة السلاح والقوة هي التي ستجابهُ ازاء أى عمل يقوم به ، وان عليه ان يفكر مليا قبل قيامه بتنفيذ أي مخطط توسعي ان الكيان الصهيوني ليس كما يعتقد البعض بانه القوة التي لاتقهر . مهما امتلك من مظاهر القوة وانه ليس الحقيقة النهائية غير القابلة للتغيير في الوطن العربي . فقادسية صدام اكدت بما لايدعو الى الشك ان قهر الكيان الصهيوني امرا ممكنا اذا تواجد موقف عربي موحد يؤمن بالتحرير . ايران دولة خامسة في القوة العسكرية في الحسابات الدولية . وفي عدد سكانها الذي يتجاوز ٣٦ مليون نسمة ومساحتها الواسعة ومواردها المتعددة ، استطاع العراق بمساحته الصغيرة قياسا مع مساحة ايران وتعداد سكانه البالغ ثلث سكان ايران . وجيشه الحديث نسبيا في الاعداد فهو جيش الثلاثة عشر عاما . . . استطاع ان يقهر دولة من طراز تتفوق على الكيان الصهيوني من جوانب عديدة . فكيف اذا كانت كل القوى العربية السياسية والاقتصادية والعسكرية معبئة بشكل متكامل موحد ضد الكيان الصهيوني . وكيف اذا اعطيت الجماهير العربية دورها الحقيقي في ممارسة الكفاح الشعبي المسلح كطريق لتحرير فلسطين . وكيف اذا اعتبرنا ان فلسطين طريق الوحدة والوحدة طريق فلسطين ان كل ذلك كفيل بالتحرير الكامل .

وكخطوة اولى لمجابهة اطماع الصهيونية في وادي نهر الاردن ونهر الليطاني يتوجب على كل العرب دعم القطرين الاردني واللبناني في كل الامكانات التي تمكنها المجابهة الحاسمة ضده . واخيرا لابد من اقناع النظام السياسي في مصر بضرورة عدم تزويد الكيان الصهيوني بمياه النيل الطاهرة الى المستعمرات الصهيونية التي تساهم في اطالة عمره .

(١٢) انظر نص الاتفاق اللبناني الاسرائيلي في صحيفة الهدف الكويتية الصادرة في ٢٥/٥/١٩٨٣ .

حركة عمرو بن سعيد الأشدق في طلب الخلافة

٦٩ - ٧٠ هـ

الدكتور صلاح الدين امين طه
كلية الاداب / قسم التاريخ
جامعة الموصل

تمهيد

لم يسبق لاحد من المؤرخين ان خاض غمار هذا الحدث التاريخي المهم في حياة الدولة الاموية والذي استهدف نقل الخلافة من اسرة ابي العاص الى اسرة العاص (نعني : ابناء عمومتهم) متمثلين في شخص عمرو بن سعيد المعروف بالاشدق ، ومعظم ماكتب عنه مقتضب عموما ورد بشكل عرضي عند الكلام على الدولة الاموية ولعل من ابرز الذين كتبوا في هذا الموضوع الدكتور عبد الامير دكسن[١] في دراسته على الخليفة عبد الملك بن مروان الا ان ماكتبه لايقدم صورة دقيقة عنه فكل ما اورده معلومات عامة تتعلق بموقف عبد الملك من هذا الثائر وكيفية القضاء على ثورته ، ولم يتطرق في دراسته الى الجذور التاريخية لهذا الصراع وابعاده في رسم مستقبل الدولة الاموية كما انه لم يتناول الاسباب والدوافع التي دفعت هذا الثائر لاعلان ثورته وطرق معالجتها والنتائج التي ترتبت عليها ، كما انه لم يقدم في دراسته ما يلقي الضوء على حياة عمرو بن سعيد الاولى ومكانته والدور الذي لعبته في ادارة المدينة في اخطر الظروف التي مرت بها الدولة .

اما الدكتور عبد المنعم ماجد[٢] فقد تطرق اثناء كلامه على الدولة الاموية الى الصراع بين عبد الملك وعمرو بن سعيد واطلق عليه اسم (فتنة عمرو بن سعيد) الا ان كلامه عام اقتصر على سرد هذا الحدث دون مناقشة الاراء والنصوص التاريخية المختلفة التي قيلت في اسباب الثورة وتطورها . كما ان بحثه ناقص غير دقيق ، وانه ذكر هذا الصراع في مؤلفه كي يسد فراغا في الدراسة التي قدمها عن الدولة الاموية .

جذور الصراع :

ليس هذا الصراع الذي نتعرض له بالحدث الطارئ فأن له جذوره التاريخية العميقة التي تتصل بطموح هذه العائلة في السيطرة على الخلافة . وقبل الخوض في تفاصيل هذا الحدث لابد من تقديم صورة واضحة مفصلة عن شخصية هذا الثائر ونسبه والوظائف التي شغلها في الدولة الاموية .

ذكر أبن سعد في طبقاته ان عمرا ينتسب الى اسرة العاص فهو (عمرو بن سعيد أبن ابي أحيحة بن العاص بن أمية بن عبد شمس)[٣] ويكنى أبا أمية . اما امه فهي ام البنين بنت الحكم بن ابي العاص ، فهي أخت مروان وعمة عبد الملك[٤] .

لقد عرفت هذه الاسرة في مكة بسخائها وكرمها وشرفها وشجاعتها فأبو أحيحة سعيد بن العاص بن امية كان من اشراف قريش ، وقد تمتع بمنزلة فريدة في قومه بمكة وانه كان اذا اعتم بلون عمامة في مكة فلا يعتم بلون عمامته احد اعظاما له . وكان يقال له ذو التاج دلالة على زعامته[٥] . أما جده العاص بن سعيد بن العاص فكان شريفا حكيماً

(١) راجع ماكتبه في كتابه (الخلافة الاموية) عن ثورة عمرو بن سعيد الاشدق ص ٣٠٣-٢٠٦ .

(٣) ابن سعد : الطبقات : ٢٣٧/٥ ، انظر ايضا السدوسي : كتاب حذف من نسب قريش ص ٣٥ ، ابن حبيب : المحبر : ص ٦٧ ، ابن قتيبة : المعارف : ص ٢٩٦-٦١٥ ، ابن الاثير اسد الغابة : ٣٠٩/٢ ، ابن حجر : الاصابة : ٢٩٤/٥ ، المنجد . صلاح الدين : معجم بني امية : ص ١٣٦ .

(٢) راجع ماكتبه في كتابه (التاريخ السياسي للدولة العربية – عصر الخلفاء الامويين) ص ١٠٩-١١١ .

(٤) ن . م : ٢٣٧/٥ ، انظر ايضا البلاذري : انساب الاشراف ، ١٣٩/٤ مع اختلاف بالتفاصيل .

(٥) البلاذري : انساب الاشراف : ١٤١/٤ ، انظر ايضا : ابن عبد ربة : العقد الفريد ٤٦/٤ ، ابن الاثير : اسد الغابة : ٣١٠/٢ .

ذا حزم وعقل ، وقد قتل مشركا في معركة بدر .[٦] وأبوه سعيد بن العاص سليل اسرة أوضحنا مكانتها فهو اذن من اشراف قريش ممن جمع السخاء والفصاحة .

ويذكر ابن الاثير ان عربية القران اقيمت على لسانه لانه كان اشبههم برسول الله (ص)[٧] وكان احد الذين ساهموا في تدوين المصاحف لعثمان بن عفان(رض)[٨] واستعمله عثمان (رض) أميرا على الكوفة ففتح طبرستان وجرجان ثم توجه الى اذربيجان بعد انتفاضتها لاعادة فتحها . ثم عزله عثمان عندما اختار اهل الكوفة ابا موسى الاشعري بدلا عنه .[٩] ولاشك ان قوة شخصية سعيد وحزمه لعبا دورا في اختياره خاصة في مثل هذه الاماكن . وكان ذا بصيرة ثاقبة وبعيد النظر ، فهو لم يتدخل في الاحداث السياسية التي وقعت بعد مقتل عثمان (رض) وبقي محايدا رغم قرابته لعثمان . ولم يشهد الجمل ولا صفين ولا غيرهما . ورغم هذا الموقف فان معاوية بعد تأسيس دولته ولاه المدينة بعد ان عاتبه . وتعاقب مع مروان بن الحكم على حكمها .[١٠] وقد مدحه الشاعر الفرزدق عندما لجأ اليه هربا من عبيد الله ابن زياد فقال فيه .

ترى الغر الجحاجح من قريش
اذا ما الامر في الاحداث عالا
قياما ينظرون الى سعيد
كأنهم يرون به الهلالا

وكان مروان بن الحكم حاضرا هذا اللقاء فقال الفرزدق لو جعلتنا قعودا فقال له كلا يا أبا عبد الملك وانك فيهم لصافن .[١١]

مات سعيد بن العاص سنة ٥٩هـ وترك سبعة اولاد هم عمرو ومحمد وعبد الله ويحيى وعثمان وعنبسة وابان[١٢] . وقد برز من بين هؤلاء الابناء عمرو الذي قاد الثورة على عبد الملك بن مروان للحصول على الخلافة والذي يعرف بالاشدق[١٣] . ويذكر البلاذري ان سبب هذه التسمية تعود الى قوة عرضت له فأمالت شدقه كما يقال ان سبب هذه التسمية يرجع الى معاوية بن ابي سفيان اذ دعاه في غلمة من بني امية فاستنطقهم فاجابه عمرو بكلام اعجبه فقال عنه ان ابن سعيد لاشدق[١٤] دلالة على سرعة اجابته وطلاقة لسانه ، كما قيل ان سبب ذلك انه كان خطيبا مغاقا[١٥] وسمي ايضا لطيم الجن ولطيم الشيطان .

ويبدو من خلال تتبع سيرته انه وظف ذكاؤه ومقدرته في الوصول الى المراكز القيادية في الدولة لاسيما وان والده كان على علم بمقدرته فولاه منذ حداثة سنه امارة مكة[١٦] . ثم تقلد بعد وفاة ابيه ادارة المدينة ليزيد بن معاوية ، وعاصر خروج الحسين بن علي (رض) وحاول ان يثنيه عن عزمه في التوجه نحو العراق الا انه فشل[١٧] كما عاصر ايضا خروج عبد الله بن الزبير من المدينة الى مكة . وبذل جهدا في تنفيذ اوامر يزيد بن معاوية في القبض عليه الا ان جهوده لم تثمر ، لذلك اتهم بالتواطؤ وعزله يزيد عن المدينة[١٨] .

ويبدو ان عمرا قد تأثر كثيرا بهذا العزل واشتكى عند يزيد وبين مدى اخلاصه في عمله ودفاعه عن الدولة فقال (يأمير المؤمنين الشاهد يرى مالا يرى الغائب وان جل اهل مكة واهل المدينة قد مالوا اليه وهووه واعطوه الرضا . ودعا بعضهم بعضا سرا وعلانية ولم يكن معي جندا اقوى بهم عليه لو ناهضته ، وقد كان يحذرني ويتحرز مني وكنت ارفق به وادارية لاستمكن منه فاثب عليه مع اني قد ضيقت عليه ومنعته من اشياء كثيرة لو تركته واياها ماكانت له الا معونة وجعلت على مكة وطرقها وشعابها رجالا لايدعون احد يدخلها حتى يكتبوا اليّ باسمه واسم ابيه ومن اي بلاد الله هو وما جاء به ومايريد فان كان من اصحابه او ممن ارى انه يريده رددته صاغراً وان كان ممن لا اتهم خليت سبيله)[١٩] .

وقد ابدى عمرو رغبته في اعادته الى عمله حينما يقول (وما ارى يا امير المؤمنين ان احدا اولى بالقيام بتشديد سلطانك وتوهين عدوك والشدة

---

(٦) السدوسي : كتاب حذف من نسب قريش : ص ٣٥ ، انظر ايضا ابن عبد البر : الاستيعاب ٦٢٢/٢ ، ابن الاثير : اسد الغابة : ٣١٠/٢ . المنجد : معجم بني امية : ص ٥٥ .

(٧) اسد الغابة : ٣١٠/٢ . انظر ايضا المنجد : معجم بني امية : ص ٥٧ .

(٨) السدوسي : كتاب حذف من نسب قريش : ص ٣٥ ، انظر ايضا ابن الاثير : اسد الغابة : ٣١٠/٢ ، المنجد : معجم بني امية : ص ٥٥ .

(٩) خليفة خياط : التاريخ : ص ١٥٧ .

(١٠) الطبرى : التاريخ : ٢٨٠٨/١ ، ٢٨٣٥-٢٨٣٨ ، ٢٨٥٦ ، انظر ايضا ابن عبد البر الاستيعاب : ٦٢٢/٢ ، ابن الاثير : اسد الغابة : ٣١٠/٢ ، المنجد ، معجم بني امية : ص ٥٧ .

(١١) البلاذرى : انساب : ١٣٣/٤-١٣٤ .

(١٢) ابن قتيبة : المعارف ص ٢١٦ ، انظر ايضا ابن عبد البر : الاستيعاب : ٦٢٤/٢ ، اسد الغابة ٣١٠/٢ . المنجد . معجم بني امية : ص ٥٧ .

(١٣) انساب : ١٣٦/٤ .

(١٤) ن . م ١٣٦/٤ .

(١٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ١٨٤/١ .

(١٦) البلاذرى : انساب : ٢٣/٤ ، انظر ايضا الطبرى : التاريخ : ٢١٦/٢ ، ابن عبد ربة العقد الفريد : ١٣٣/٤ ، ابن الاثير : الكامل : ١٤/٤ .

(١٧) ابن الثير : الكامل : ٣٩/٤-٤٠ .

(١٨) الطبرى : التاريخ : ٣١٨/٢ ، ٣٩٩ رواية هشام ، انظر ايضا ، منجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ص ١٠٩-١١٠ .

(١٩) ن . م : ٤٠٠/٢-٤٠١ .

من نابذك مني»[٢٠]

ورغم عزله من امارة المدينة الا ان مكانته في المدينة بقيت كبيرة ، جعلته معتدا بنفسه قد افصح عن قوته وشكيمته عندما جابه عثمان بن محمد بن ابي سفيان امير المدينة قائلا «مهلا ياعثمان هو الله ما انا بحلو المذاق . واني لقمن المضرة ولقد ضرستني الامور وجرستني الدهور فزعا مرة وامنا مرة وان قريشا لتعلم اني ساكن الليل داهية النهار لا اتبع الظلال ولا اقص حاجتي ولايستنكر شبهي ولا ادعي لغير ابي»[٢١]

لايمدنا المؤرخون معلومات واضحة عن الاعمال التي اوكلت الى عمرو بن سعيد الاشدق بعد اعفائه من الامارة ويبدو انه كان يعمل ببعض الاعمال التي تدر عليه المال والراجح انه ترك المدينة فيما بعد وعاش في دمشق اذ كان لوالده دار بها تسمى دار النعم[٢٢] . وكل المعلومات المتوفرة عنه خلال هذه الفترة تشير الى ان يزيد بن معاوية استدعاه سنة ٦٣هـ ليوجهه الى المدينة لقتال اهلها بعد ان أقرأه رسالة عبد الملك التي يطلب فيها الغوث والنجدة بعد ان طرد الامويون من المدينة . وكان جواب عمرو قاسيا اذ قال ليزيد «قد كنت ضبطت لك البلاد واحكمت لك الامور فاما الان اذ صارت انما هي دماء قريش تهراق بالصعيد فلا احب ان اكون انا الذي اتولى ذلك يتولاها منهم من هو ابعد منهم مني»[٢٣] ولاشك ان استدعاء عمرو لهذه المهمة يدل على انه لا زال رجل المهمات الصعبة الا ان صلة الرحم والقرابة منعته من تحقيق طموح الخليفة .

استغل عمرو بن سعيد الظروف التي اعقبت وفاة يزيد بن معاوية ليظهر على المسرح السياسي من جديد كأحد الشخصيات الاموية التي تتمتع بمكانة كبيرة في الدولة وخاصة بعد تنازل معاوية الثاني عن الخلافة ، وكانت الظروف ملائمة لعمرو كي يلعب دورا رياديا في الحياة السياسية اذ ان تنازل معاوية الثاني عن الخلافة كان حدثا مفاجئا اذهل كبار رجال بني امية ، لاسيما اصحاب الطموح ، وكان اخوه خالد بن يزيد لايزال صغيرا لايصلح للخلافة وبقي منصب الخلافة شاغرا ينتظر اجتماع اصحاب الراى للبت فيه .

ان الظروف التي كانت تمر بها الدولة الاموية في غاية الصعوبة ، فمن جهة تنازل الخليفة عن الحكم ، ثم انتشار ثورة عبد الله بن الزبير وشمولها اقاليم واسعة اذ تمكن الحصول على بيعة اقليم الحجاز والعراق ومصر وارمينية واذربيجان . وامتد نفوذه حتى الشام والجزيرة حينما دعا له الضحاك بن قيس الفهري ، وان الاوضاع السياسية تزداد سوأ يوما بعد اخر لهذا قرر مروان بن الحكم وهو شيخ بني أمية ان يتوجه الى اقليم الحجاز لمبايعة عبد الله بن الزبير للخلافة واخذ الامان منه لبني امية[٢٤] .

وهنا يبرز دور عمرو بن سعيد وعبيد الله بن زياد عندما حاولا اقناع مروان بانه جذم قريش وشيخها وسيدها ، وانه احق الناس بالقيام بهذا الامر واشاروا عليه بان خالد بن يزيد غلام صغير ولا ينظر اليه الناس ونصحوه ان يتزوج امه وهي فاختة بنت ابي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ويكون في حجره[٢٥] ، وقد استجاب مروان لهذه الدعوة وجمع بني امية فبايعوه ، كما بايعه اهل تدمر[٢٦] . ولاشك ان استجابة مروان لدعوة عمرو كانت مبنية على اسس متينة تحقق في مجملها رجحان كفته في رسم مستقبل الشام ووحدته واستمرار الخلافة في البيت الاموي رغم كون مروان بن الحكم رجلا مسنا كبيرا .

وبالرغم من ان المؤرخين العرب لايشيرون في كتبهم الى اهداف عمرو بن سعيد من هذا الاجراء الا انه بدون شك لايخلو من مصالح خاصة يمكن ان يجني ثمارها فيما اذا سارت الامور بشكل اعتيادي . فهو يحافظ على استمرارية الخلافة في الاسرة الاموية وعدم نقلها الى عبد الله بن الزبير لاسيما انه يعرف مقدرته السياسية وكفاءته الادارية وهو مقتنع تماما بان ابن الزبير لايصلح لهذا المنصب . كما ان ترشيح مروان لهذا المنصب لايشكل خطورة على طموحه اذ ان مروان هذا رجل مسن وكبير ولم تمتد به الايام طويلا وهو من خلال مروان يمكن ان يبرز قابلياته وطموحه وهذا ما جعله يوظف كافة طاقاته في خدمة مروان ، كما ان هذا العمل يجعله من الرجال المقربين الى البلاط الاموي ومن المساهمين في ادارة دفة الدولة . وفعلا فقد تحقق طموح عمرو بن سعيد هذا حينما اوصى المبايعين في مؤتمر الجابية وبناء على مقترح من روح بن زنباع الجذامي بان تكون الخلافة لخالد بن يزيد بعد مروان ثم لعمرو بن سعيد الاشدق على ان تكون امارة دمشق لعمرو بن سعيد وامارة حمص لخالد بن يزيد[٢٧] . وقد لعب حسان بن بحدل الكلبي دورا رئيسيا في البيعة لمروان .

---

(٢٠) ن . م . والصفحة .

(٢١) ابن حبيب : المحبر : ص ٣٧٧ .

(٢٢) البكري : معجم بني امية ص ١٣٩ ; انظر ايضا ص ٥٥ .

(٢٣) الطبري : التاريخ : ٤٠٧/٢ رواية هشام الكلبي

(٢٤) ابن سعد : الطبقات : ٤٠/٥ ، انظر ايضا : البلاذري : انساب : ١٣٨/٤ ، ١٤١/٥ . ابن الاثير : الكامل : ١٥١/٤ .

(٢٥) ن . م : ٤٠/٥ ، انظر ايضا البلاذري : انساب : ١٤١/٥ ، الطبري : التاريخ ٤٨٢/٢ ، ابن الاثير : الكامل : ١٥١/٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ٢٤٩/٨ ، ماجد . التاريخ السياسي : ص ١١٠ .

(٢٦) الطبري : التاريخ : ٤٨٢/٢ رواية ابي مخنف انظر ابن الاثير : الكامل : ١٥١/٤ .

(٢٧) البلاذري : انساب : ١٣٥/٥ ، انظر ايضا اليعقوبي : التاريخ ٥/٣ ، الطبري : التاريخ ٤٧٩/٢ ، المسعودي : مروج الذهب : ٨٩/٣ ، ابن الاثير : الكامل : ١٤٨/٤ ، وفزون الدولة العربية : ص ١٧٠ مع اختلاف بالنص والتفصيل .

ويبدو ان مروان يعرف طموح عمرو بن سعيد في الخلافة لكن الظروف منعته من ان يتخذ موقفا منه لاسيما وان امام مروان مهمات صعبة في اعادة توحيد الدولة لهذا نلاحظ ان مروان قربه أليه ليطمئن الى طاعته والاستفادة منه خاصة وان اليمانية تقف الى جانبه (٢٨) . وأوكل اليه مهمات قتالية وادارية ويذكر البلاذرى ان عمرا كان اشد الناس في امر مروان واحسنهم معاونة ومكانفة له واجتهادا في صلاح امرة وافساد امر ابن الزبير ، فقاتل معه الضحاك ابن قيس الفهرى يوم المرج كما قاتل مصعبا عندما وجهه ابن الزبير الى فلسطين فلقيه قبل ان يدخلها ، فهزم مصعبا واصحابه حتى رجعوا الى المدينة (٢٩) كما قاتل مع مروان ابن جحدم عامل ابن الزبير على مصر حتى تمكن من استعادتها (٣٠) .

وبعد تمكن مروان من مصر والشام واستقرار الوضع سياسيا في هذين الاقليمين اعاد النظر بمسألة ولاية العهد وكان يفكر في التخلص من مقررات مؤتمر الجابية وترشيح ولديه عبد الملك وعبد العزيز من بعده وعزل خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الاشدق . ويبدو ان عمرا ادرك لعبة مروان فاخذ يشيع بين الناس انه ولي العهد بعده . ويذكر اليعقوبي ان حسان بن مالك بن بحدل الكلبي هو الذي رشحه لولاية العهد اذ سمع مروان في الصنبرة عندما عاد من مصر ان حسان قد بايع عمرو بن سعيد ، واحضره مروان واخبره بما سمع الا ان حسان حاول التخلص من ذلك وانكر هذا القول ، ولم يبرح مروان الصنبرة حتى بايع حسان لعبد الملك ولعبد العزيز من بعده . وهذا ما ادى الى خلع خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد (٣١) . ويذكر المسعودي ان ذلك كان قبل وفاته بثلاثة اشهر (٣٢) .

ان مروان بن الحكم لم يتمكن من اصدار قراره في ابعاد خالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد لولا تأييد حسان بن مالك بن بحدل الكلبي رغم كونه رهبيا لخالد بن يزيد ولعل السبب في ذلك يرجع الى رغبته في ابعاد عمرو بن سعيد عن هذا المنصب كما يذكر ولهاوزن (٣٣) . اذ جمع الناس ثم قال (يبلغ امير المؤمنين ويبلغنا ان رجالا يتمنون الاماني ويدعون الاباطيل ويحدثون انفسهم بما لم يجعله الله لهم وما اولئك بالراشدين ولا المسددين فقوموا ايها الناس فبايعوا لعبد الملك ابن أمير المؤمنين ولعبد العزيز من بعده ، فقام الناس فبايعوا مسرعين غير متثقلين عن اخرهم حتى لم يبق منهم احد) (٣٤) . وكان ذلك في مطلع سنة ٦٤هـ اول صفر (٣٥) .

والراجح ان مروان بن الحكم بهذا الاجراء قد وضع حدا لطموح عمرو السياسي في تولي الخلافة واغلق امامه كافة الابواب من خلال التفاف الكلبيين حوله . ولاشك ان سكوت عمرو بن سعيد عن هذا التغيير المفاجئ في سياسة مروان جعله يقف بالمرصاد لهذه العائلة متحينا الفرصة المواتية للانقضاض عليها لوقوفها ضده في تحقيق طموحه السياسي . اما بالنسبة الى خالد بن يزيد فكان مروان لا يألوا جهدا في اسقاطه من اعين الناس قبل اقدامه على عمله هذا فكان يصغر من شأنه امام الحاضرين (٣٦) ، كما ينعته بكلمات لاتليق به (٣٧) .

طبيعة حركة عمرو بن سعيد :

بعد تولي عبد الملك بن مروان الخلافة (بعد وفاة والده) كانت امامه عقبات سياسية كثيرة المطلوب منه تذليلها ، واهم ما فكر به عبد الملك بن مروان هو الاعتداءات الخارجية البيزنطية على الحدود العربية الاسلامية ، ثم مسألة اعادة وحدة الدولة العربية والقضاء على خطر المعارضة ، اما بالنسبة لعمرو بن سعيد فبالرغم من قلة الاشارات التاريخية من خلال حكم عبد الملك في سنيه الاولى فالبادي ان علاقاته كانت جيدة معه . الا ان هذه العلاقة لم يكتب لها الاستمرار اذ سرعان ما ظهرت بوادر طموح عمرو للخلافة من جديد وهذا ما قاده الى اعلان الثورة على عبد الملك في سنة ٦٩هـ (٣٨) . اما الدوافع التي دفعته الى اعلان الثورة فمختلف فيها بين المؤرخين . فابو مخنف يذكر انه لما مات مروان وبويع عبد الملك بالخلافة بلغه ان مصعب بن الزبير يريد فلسطين فسار عبد الملك حتى شارف الفرات ومعه عمرو بن سعيد الاشدق فقال له عمرو انك تشخص الى العراق وقد كان ابوك وعدني ان يوليني الامر بعده وعلى ذلك قمت بشأنه وحاربت معه فاجعل لي الامر بعدك فلم يجبه عبد الملك بشيء مما يسره فانصرف عن عبد الملك وقصد الى دمشق حتى دخلها (٣٩) اما اعوانه فيرجع اسباب الثورة الى خلافات

---

(٢٨) ابن قتيبة : الامامة والسياسة : ١٦/٢ .

(٢٩) انساب : ١٣٧/٤ ، ١٣٦/٥ ، ١٤٩ ، انظر ايضا ابن سعد : الطبقات ٤٢/٥ ، الطبرى : التاريخ : ٤٧٧/٢ ، ابن الاثير : الكامل : ١٤٨/٤ ١٥٤ ، ١٨٩-١٩٠ ، ٣٠٣ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة : ١٦٦/١-١٦٧ مع اختلاف بالنص والتفصيل .

(٣٠) ن . م . ١٣٧ .

(٣١) اليعقوبي : التاريخ : ٦/٣ ، انظر ايضا البلاذرى : انساب : ١٥٠/٥ .

(٣٢) مروج الذهب : ٨٩/٣ .

(٣٣) تاريخ الدولة العربية : ص ١٧٩ .

(٣٤) البلاذرى : انساب : ١٣٧/٤-١٣٨ ، ١٤٩/٥-١٥٠ ، انظر ايضا : الطبرى : التاريخ ٥٧٦/٢ ، ابن الاثير : الكامل : ١٨٩/٤-١٩٠ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة : ١٦٦/٢-١٦٧ .

(٣٥) خليفة : التاريخ : ٢٥٢/٢ .

(٣٦) ابن عبد ربة : العقد الفريد : ٣١٤/٤ ، انظر ايضا : ولهوزن : الدولة العربية : ص١٧٩

(٣٧) المسعودي : مروج الذهب : ٨٩/٣ .

(٣٨) دكسن : الخلافة الاموية : ص ٢٠٥ .

(٣٩) البلاذرى : انساب ١٣٨/٤-١٣٩ ، انظر ايضا الطبرى : التاريخ : ٧٨٤/٢ ، ابن الاثير : الكامل : ٣٠٣/٤ .

قديم بينهما فيقول : ان الذي كان بين عبد الملك وعمرو شر قديم ، وكانا ابنا سعيد امها ام البنين ، وكان عبد الملك ومعاوية ابني مروان فكانوا وهم غلمان لا يزالون يأتون ام مروان بن الحكم الكنانية يتحدثون عندها فكان ينطلق مع عبد الملك ومعاوية غلام لهم اسود . وكانت ام مروان اذا أتوها هيأت لهم طعاما ثم تأتيهم به فتضع بين يدي كل رجل صحفة على حدة . وكانت لاتزال تؤرش بين معاوية بن مروان ومحمد بن سعيد وبين عبد الملك وعمرو بن سعيد فيقتلون ويتصارعون حتى لايكلم بعضهم بعضا . وكانت تقول ان لم يكن عند هذين عقل فعند هذين وكان ذلك دأبها فكلما أتوها اثبتت الشحناء في صدورهم[40] . كما يذكر عوانه ايضا : ان اولاد عمرو بن سعيد دخلوا على عبد الملك بعد الجماعة وهم اربعة : امية وسعيد واسماعيل ومحمد فلما نظر اليهم عبد الملك قال لهم انكم اهل بيت لم تزالوا ترون لكم على جميع قومكم فضلا لم يجعله الله لكم ، وان الذي كان بيني وبين ابيكم لم يكن حديثا بل كان قديما في انفس اوليكم على اولينا في الجاهلية[41] . كما يذكر الطبري تفاصيل خلاف وقع بين سعيد بن العاص ومروان بن الحكم عندما كانا يتوليان امارة المدينة في خلافة معاوية بحيث ترك ذلك الخلاف اثارا سلبية ولدت القطيعة والشحناء وتوارث الاولاد ذلك[42] .

ويبدو من خلال استقراء ما اورده المؤرخون عن اسباب الثورة ان الرأي الاول هو الراجح وان الخلاف العائلي الذي كان بين اولاد سعيد واولاد مروان لم يمنعهم من التعاون فيما بينهم كما لاحظنا ان هذا الخلاف لايمكن ان يعد سببا في اعلان الثورة .

اما عن كيفية تفجير الثورة فيورد هشام الدمشقي في رواية انه بعد ان رفض عبد الملك تسمية عمرو وليا للعهد انخزل من عسكره ورجع الى دمشق ودعا الى نفسه فبويع واغلق ابواب المدينة واستعد للحصار[43] .

وذكر احمد بن ابراهيم الدورقي معلومات تختلف عما اورده الدمشقي عن ثورة عمرو اذ يقول ان اهل الشام والجزيرة بايعوا عبد الملك على الخلافة عدا زفر بن الحارث الكلابي فانه غلب على قرقيسياء وتحصن بها فخرج اليه عبد الملك بعد ان خلف مده عمرا الاشدق مكانه فغلب على دمشق واغلق ابوابها واعطى اهلها عطايا كثيرة[44] .

ومن خلال مناقشة هاتين الروايتين يتبين ان رواية الدورقي هي اقرب الى الواقع من رواية الدمشقي واكثر دقة . علما ان كلتا الروايتين نقلها البلاذرى . اذ لايعقل ان يخرج عمرو بن سعيد يقاتل في جيش عبد الملك ويتمكن ان يرجع مع قوة من الجيش الى دمشق معلنا ثورته دون ان يعرف عنه عبد الملك شيئا الا بعد دخوله دمشق واغلاق ابوابها واعلان الثورة فيضطر عبد الملك الى ايقاف زحفه والعودة لمعالجة الاوضاع المستجدة . ان حركة الجيش او جزء منه للتوجه الى اى مكان واضحة ومعلومة وهي لاتخفي على القيادة فهل يمكن ان يرجع عمرو من جيش عبد الملك دون علمه . ومما يعزز هذا الرأي ما اورده اليعقوبي من ان خبر ثورة عمرو بن سعيد وصل الى اسماع عبد الملك عندما كان في بطنان حبيب دون ان يشير الى عودته او انسلاخه عن عبد الملك[45] .

وبعد سيطرة عمرو على دمشق حاول تتبع العناصر الموالية لعبد الملك وكان على رأسها عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وكان خليفة عبد الملك على دمشق ولم يصبه فامر بداره فهدمت[46] . ثم التى على سور المدينة المسوح والخشب والكرابيس والفرش المحشوة وتهيأ للحصار واستعد له . وقد اهتم بامن المدينة وضبطها وعين احد المؤيدين له وهو عبد الله بن يزيد بن اسد بن كرز وهو ابو خالد القسري مديرا لشرطته وكان اول من بايعه على الخلافة[47] ، كما بايعه اهل دمشق لسخائه وجود كفه ، وانضم اليه حميد بن حريث ابن بحدل الكلبي وزهير بن الابرد الكلبي ،[48] وقد اعلن عمرو نفسه وعن هدفه عندما جمع الناس في الجامع وخطب فيهم خطبة بين فيها ابعاد ثورته قائلا : «ايها الناس انه لم يقم احد من قريش قبلي على هذا المنبر الا وزعم ان له جنة ونارا يدخل الجنة من اطاعه والنار من عصاه . واني اخبركم ان الجنة والنار بيد الله وانه ليس الى مّن ذلك شيءٌ غير ان لكم علم حسن المواساة والعطية»[49] ثم نزل . ولاشك ان هدفه من هذه الخطبة تحرير الناس من الانقياد لهذه العائلة وتحريرهم من الخوف من النار عند مخالفتهم لان الجنة والنار هي بيد الله وليس بيد الخلفاء ، ويذكر اليعقوبي ان عمرو بن سعيد حوى الاموال والخزائن الموجودة في بيوت الاموال[50] وذلك من اجل تمويل ثورته وتوزيع العطاء والاموال لانصاره .

اما عبد الملك بن مروان فعندما سمع باخبار ثورة عمرو وتحصنه

(٤٠) الطبرى : التاريخ : ٢/٧٩٣–٧٩٤ رواية عوانة .

(٤١) ن . م : ٢/٧٩٤–٧٩٥ .

(٤٢) الطبرى : التاريخ ٢/٩٦٤–٧٦٥ .

(٤٣) البلاذرى : انساب : ٤/١٤٠ ، ٥/٢٩٩ ، انظر ايضا : الطبرى : التاريخ ٢/٧٨٤ ، ابن سعد : الطبقات : ٥/٢٢٧ ، ابن الاثير : الكامل : ٤/٢٩٧ ابن كثير : البداية والنهاية : ٧/٣٠٧ ، ولهوزن : الدولة العربية : ١٨٤–١٨٥–مع اختلاف بالتفصيل .

(٤٤) ن . م : ٤/١٤٥ ، انظر ايضا : الطبرى : التاريخ ٢/٧٨٣ ، ابن عبد ربة : العقد الفريد : ٤/٤٠٨ ، المسعودي : مروج الذهب : ٣/١٠٢ ، المنجد : معجم بني امية : ص ٧٣٦-١٣٧ .

(٤٥) التاريخ : ٣/١٨ .

(٤٦) خليفة : التاريخ : ٢/٢٦٣ ، انظر ايضا : اليعقوبي : التاريخ : ٣/١٨ ، الطبرى التاريخ ٢/٧٨٤ ، ابن الاثير : الكامل : ٤/٢٩٧ مع اختلاف بالنص والتفصيل .

(٤٧) ن . م : ٤/١٣٨–١٣٩ ، انظر ايضا ابن سعد : الطبقات : ٥/٢٢٧ مع اختلاف .

(٤٨) الطبرى : التاريخ : ٢/٧٨٤ ، انظر ايضا ابن الاثير : الكامل ٤/٢٩٧ .

(٤٩) ن . م : ٢/٧٨٤–٧٨٥ ، انظر ايضا ابن الاثير : الكامل : ٤/٢٩٧ مع اختلاف .

(٥٠) التاريخ : ٣/١٨ ، انظر ايضا ابن كثير : البداية والنهاية : ٨/٣٠٧ .

بدمشق عاد مسرعا اليها وحاصرها من كافة جهاتها وجرت معارك عسكرية بين الطرفين وقد قدم عوانة وصفا لتلك المعارك التي شارك فيها رجاء بن سراج وحميد بن حريث بن بحدل وزهير بن الابرد الكلبي وقاتل مع عبد الملك عبد الرحمن بن سليم وسفيان بن الابرد الكلبي وحسان بن مالك بن بحدل الكلبي واخرون . وكانت مدة حصار عبد الملك لمدينة دمشق ستة عشر يوما كما يذكر المؤرخون[٥٢] .

ويبدو ان عبد الملك استعمل كافة الوسائل لاجبار عمرو على التسليم الا انه لم ينجح في محاولاته لهذا حاول ان يستغل صفة القرابة بينهما لاجباره على انهاء ثورته فارسل اليه رسالة ورد فيها «انك افسدت امر اهل بيتك واطمعت فيهم عدوهم وفيما صنعت قوة لابن الزبير ، ارجع الى بيعتك وطاعتك فاني اجعل لك العهد وانفذ كل ما اعطيت من الاموال»[٥٣] ويبدو ان عمرا استجاب لدعوة عبد الملك بعد ان فرض عليه شروطا .

بيد ان المؤرخين لم يقدموا لنا تفاصيل هذا الاتفاق ، الا ان نتفا منه قد وصلت بصورة مرضية في ثنايا الكتب . ومن هذه الشروط ان يكون مع عمرو بن سعيد خمسمائة مقاتل حيث يتزلون حيث نزل[٥٤] وان لايقطع عبد الملك شيئا دونه ولا ينفذ امرا الا بحضوره[٥٥] كما تعهد عبد الملك ان يوليه بين المال والديوان[٥٦] . وان يكون لعمرو مع كل عامل عاملا[٥٧] . وان لعمرو الخلافة بعد عبد الملك[٥٨] .

والراجح ان قبول عمرو بن سعيد بعرض عبد الملك يعود الى تحقيق طموحه في تولي الخلافة بعده اضافة الى رغبته في فك حصار مدينة دمشق الذي استغرق اكثر من اسبوعين علما انه لايتمكن من مقاومة عبد الملك لاسيما وان معه جيش منظم كبير .

(٥١) لزيادة التفاصيل رجع الطبري : التاريخ : ٧٨٥/٢ ، انظر ايضا ابن الاثير : الكامل ٢٩٧/٤-٢٩٨ .

(٥٢) البلاذري : انساب : ١٣٩/٤ ، ١٤٥ انظر ايضا ابن سعد : الطبقات : ٢٧٧/٥ . المنجد : معجم بني امية : ص ١٣٧ .

(٥٣) ن . م : ١٣٩/٤ ، ١٤٥ ، انظر ايضا : المسعودي : مروج الذهب : ١٠٢/٣ ، ابن كثير البداية والنهاية : ٣١١/٨ .

(٥٤) ن . م : ١٣٩/٤ .

(٥٥) ابن قتيبة : الامامة والسياسة : ١٧/٢ .

(٥٦) البلاذري ، انساب : ١٣٩/٤ .

(٥٧) خليفة : التاريخ : ٢٦٣/٢ ، انظر ايضا اليعقوبي : التاريخ : ١٨/٣ ، ابن عبد ربة : العقد الفريد : ٤٠٨/٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٧/٨ .

(٥٨) ن . م : ٢٦٣/٢ ، انظر ايضا : البلاذري : انساب : ١٤٥/٤ ، المسعودي : مروج الذهب ٢٠٢/٣ . ماجد : التاريخ السياسي : ص ١١٠ .

مقتل عمرو بن سعيد :

لاشك ان العمل الذي اقدم عليه عمرو بن سعيد في دمشق ترك اثرا بليغا في نفس عبد الملك وشغله عن تنفيذ خططه في اعادة وحدة الدولة العربية والقضاء على الاخطار المحدقة بها وخاصة من قبل البيزنطيين ، كما اجبره على البقاء في دمشق مدة سنة خوفا من تكرار حدث الثورة ثانية . ويذكر اليعقوبي ان عبد الملك ابن مروان كان قد خطأ نفسه عند خروجه من دمشق[٥٩] لانه يعرف طموح عمرو ، وبالنظر لعدم تمكنه من مغادرة دمشق للقضاء على حركات المعارضة خارج الشام ورغبته في توطيد الاستقرار والامن في داخل الاقليم راى ان الملك لايصلح الا اذا تخلص من هذا الثائر[٦٠] والقيود التي فرضها وذلك عن طريق قتله وقد مهد عبد الملك – لهذه الخطة محاولا استدراج عمر للايقاع به . وقد حانت هذه الفرصة عندما كان يتحدث معه فاغلظ له عمر بالجواب وقال له : اني لاحق بالخلافة منك فان شئت فافسخ الصلح واعد الحرب . وكان هذا الجواب سببا في اسراع عبد الملك في التخلص منه .

تذكر المصادر التاريخية ان عبد الملك بن مروان ارسل الى عمرو يدعوه للحضور الى البلاط[٦١] . ويبدو ان هذه الدعوة كانت غريبة . وحاول عبد الله بن معاوية منعه من تلبيتها وقال له (يا ابا امية انت احب الي من سمعي ومن بصري وارى لك ان لاتاتيه . . . الخ . فاجابه عمرو والله لو كنت نائما ما تخوفت ان ينبهني ابن الزرقاء ولا كان يجترئ على ذلك مني)[٦٢] وقرر الذهاب اليه . ويورد الطبري تفاصيل الاحداث التي وقعت في بلاط عبد الملك فيقول «فلما كان العشي لبس عمرو درعا حصينة بين قباء قوهي وقميص قوهي وتقلد سيفه وعنده امرأته الكلبية وحميد بن حريث بن بحدل الكلبي . فلما نهض متوجها عثر بالبساط فقال له حميد اما والله لئن اطعتني لم تاته ، وقالت امرأته تلك المقالة ايضا فلم يلتفت الى قولها ومضى في مائة رجل من مواليه[٦٣] . وقد بعث عبد الملك الى بني مروان فاجتمعوا عنده ، فلما بلغ عبد الملك انه بالباب امر ان يحبس من كان معه واذن له فدخل ، ولم يزل اصحابه يحبسون عند كل باب حتى دخل عمرو قاعة الدار وما معه الا وصيف له فرمى عمرو

(٥٩) التاريخ : ١٨/٣ .

(٦٠) ن . م : ١٨/٣ ، انظر ايضا ابن سعد : الطبقات : ٢٢٧/٥ .

(٦١) البلاذري : انساب : ١٤١/٤ . انظر ايضا جواب عمرو كما اورده الطبري في تاريخه ٧٨٨/٢ المسعودي : مروج الذهب : ١٠٣/٣ .

(٦٢) ابن سعد : الطبقات : ١٦٨/٥ ، انظر ايضا : الطبري : التاريخ : ٧٨٦/٢ ، ابن عبد ربة : العقد الفريد : ٤٠٨/١ ، ابن الاثير : الكامل ٢٩٨/٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ٣٠٧/٨-٣٠٨ .

(٦٣) ويورد ابن قتيبة : الامامة والسياسة : ٢٦/٢ انهم كانوا . . . ٤ رجل .

بيصره نحو عبد الملك فاذا حوله بنو مروان وفيهم حسان بن مالك بن بحدل الكلبي وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي فلما راى جماعتهم أحس بالشر[64] .

ويبدو ان عمرا قد وقع في الفخ الذي نصبه له عبد الملك الذي بادر فجرده من سيفه وقال له (انك حيث خلعتني آليت بيميني ان أنا ملأت عيني منك وأنا مالك لك ان اجمعك في جامعة ، فقال له بنو مروان ثم تطلقه يا امير المؤمنين قال ثم اطلقه وما عسيت ان أصنع بأبي امية فقال بنو مروان : أبرِ قسم أمير المؤمنين فقال عمرو : قد أبر الله قسمك يا امير المؤمنين فاخرج من تحت فراشك جامعة فطرحها اليه ثم قال ياغلام قم فاجمعه فيها ، فقام الغلام فجمعه فيها)[65] وبعد عتاب مرير على ما قام به عمرو قال له «والله لو اعلم انك تبقى علي ان ابقي عليك وتصلح قريش لاطلقتك ولكن ما اجتمع رجلان قط في بلدة على مثل ما نحن الا اخرج احدهما صاحبه» فادرك عمرو ماقاله عبد الملك وقال له «اغدرا يا ابن الزرقاء فامر به عبد الملك فقتل»[66] .

وقد اختلف المؤرخون فيمن قتل هذا الثائر ، فعوانة يذكر ان عبد الملك عندما خرج يصلي صلاة العصر امر اخاه عبد العزيز بن مروان بقتله فقام اليه بالسيف فقال له عمرو اذكرك الله والرحم ان تلي انت قتلي ويتولى ذلك من هو ابعد رحما منك فالقى عبد العزيز السيف ولم يقتله[67] .

اما رواية المدائني التي نقلها البلاذري فتشير الى ان مولى عبد الملك ابا الزعيزعة هو الذي قتله والقى برأسه الى اصحابه وكانوا مجتمعين يطلبونه[68] .

ويروى عوانة ان عبد الملك هو الذي قتله ويقول انه طلب من غلامه ان ياتيه بالحربة فاتاه بها فهزها ثم طعنه بها فلم تجز ثم ثنى فلم تجز فضرب بيده الى عضد عمرو فوجد مس الدرع فضحك وقال ودارع ايضا يابا امية ، ان كنت لمعدا : ياغلام ائتني بالصمصامة فاتاه بسيفه (يعني سيف عمرو بن سعيد) ثم امر بعمرو فصرع وجلس على صدره فذبحه وهو يقول :

يا عمرو ان تدع شتمي ومنقصتي
اضربك حيث تقول الهامة اسقوني[69]

ولاشك ان هذه الروايات تحوي الكثير من المبالغة لاسيما رواية عوانة اذ لايعقل ان يمارس الخليفة القتل شخصيا وذلك لصلة القرابة والرحم الموجودة بينهما فهو ابن عمته وان السبب الذى منع عبد العزيز من تنفيذ القتل يمنع عبد الملك عن ذلك ايضا خاصة وان عبد الملك رئيس الدولة ويمكن ان يستعين باحد المقربين اليه لتنفيذ مهمة القتل . والراجح ان ابا الزعيزعة هو الذي قتله ومما يؤيد ذلك اشارة هشام بن عمار الى انه سمع ان ابا الزعيزعة ادخل سيفه في ظهر عمرو حتى اخرجه من بطنه ثم جذبه ففاضت روحه[70] .

نتائج قتل عمرو بن سعيد

لايمكن التقليل من اهمية العمل الذي اقدم عليه عبد الملك بن مروان في قتله لعمرو . ويبدو انه نفسه قدر قيمة عمله عندما اتخذ كافة الاحتياطات اللازمة للمحافظة على الامن والاستقرار عندما وضع تحت تصرفه اثنى عشر الفا من جنوده ومواليه[71] ، وكان لعمرو مكانته في نفوس اهل الشام فهم يطيعونه لاسيما اليمانية منهم[72] . وقد راقب انصاره ومواليه حركة عبد الملك وعندما خرج لصلاة العصر دون ان يصحب معه عمرا بدأت الشكوك في مصيره واوصلوا خبر ذلك الى اخيه يحيى بن سعيد فاقبل في حشود من مواليه حتى باب عبد الملك وكان من ضمنهم الف عبد لعمرو يصحبهم حميد بن حريث وزهير بن الابرد الكلبي ، وكانوا يصيحون اسمعنا صوتك يا ابا امية ، وكسروا باب المقصورة وضربوا الناس بالسيوف وضرب عبد لعمرو يقال له مصقلة

(٦٤) التاريخ : ٢/٧٨٧-٧٨٨ . انظر ايضا ابن سعد : الطبقات : ٥/٢٢٧ ، ابن الاثير : الكامل : ٤/٢٩٨ . مع اختلاف بالنص والتفصيل .

(٦٥) الطبرى : التاريخ : ٢/٧٨٨ . انظر ايضا ابن قتيبة : الامامة : ٢/٢٧ ، اليعقوبي : التاريخ ٣/١٨-١٩ ، المسعودي : مروج الذهب : ٣/١٠٣ ، ابن الاثير : الكامل ٤/٢٩٩-٣٠٠ .

(٦٦) خليفة : التاريخ : ٢/٢٦٣ . انظر ايضا البلاذرى : انساب : ٤/١٤١ ، ١٤٥ ، اليعقوبي التاريخ : ٣/١٩ ، الطبرى : التاريخ ٢/٧٨٩ ، ابن عبد ربة : العقد الفريد : ١/٤٠٨-٤٠٩ ، المسعودي : مروج الذهب : ٣/١٠٤ ، ابن الاثير : الكامل : ٤/٢٩٩-٣٠٠ مع اختلاف بالنص والتفصيل .

(٦٧) ن . م . ٢/٢٦٣ انظر ايضا : البلاذرى : انساب ٤/١٤٣ ، ابن قتيبة : الامامة : ٢/٢٧ ، ٣/١٩ ، الطبرى : التاريخ : ٢/٧٨٩ ، ابن عبد ربة : العقد الفريد : ١/٤٠٩ ، المسعودي / مروج الذهب : ٣/١٠٣-١٠٤ ، ابن الاثير : الكامل : ٤/٣٠٠ مع اختلاف بالتفصيل .

(٦٨) البلاذرى : انساب : ٤/١٤١ ، ١٤٥ ، انظر ايضا : ابن قتيبة : الامامة : ٢/٢٧ ، المسعودي ، مروج الذهب : ٣/١٠٣ ، ابن الاثير : الكامل : ٤/٣٠٠-٣٠١ .

(٦٩) ن . م : ٤/١٤٢-١٤٣ ، انظر ايضا ابن سعد / الطبقات : ٥/١٦٨-١٦٩ ، الطبرى : التاريخ : ٢/٧٩٠-٧٩١ ، ابن الاثير : الكامل : ٤/٣٠٠-٣٠١ مع اختلاف ، والبيت من شعر ذي الاصبع العدواني في قصيدة له مشهورة .

(٧٠) البلاذرى : انساب : ٤/١٤١ .

(٧١) الجهشيارى : الزوراء : ص ٢١٢ انظر ايضا : الجومرد : داهية العرب ابو جعفر المنصور : ص ١٦٨ .

(٧٢) ابن سعد : الطبقات : ٥/٢٣٨ ، انظر ايضا ابن قتيبة : الامامة : ٢/١٦ ، المسعودي : مروج ٣/١٠٤ .

الوليد بن عبد الملك على رأسه واحتمله ابراهيم بن عربي صاحب الديوان وادخله بين القراطيس[73] . ودخل يحيى بن سعيد ومن معه على بني مروان الدار فجرحوهم ومن كان معهم من مواليهم فقاتلوا يحيى واصحابه[74] . ولما تطورت الاحداث امر عبد الملك فاحتز راس عمرو ورمى به على انصاره وقام عبد العزيز فاخذ المال في البدر يلقيها على الناس . وبنفس الوقت هناك من يخطب ويقول ان امير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والامر النافذ ولكم على امير المؤمنين عهد الله وميثاقه ان يحمل راجلكم ويكسو عاريكم ويغني فقيركم ويبلغكم الى اكمل مايكون من العطاء والرزق ويبلغكم الى المئين في الديوان فاعترضوا على ديوانكم واقبلوا امره واسكنوا الى عهده يسلم لكم دينكم ودنياكم فصاحوا نعم سمعا وطاعة يا امير المؤمنين[75] ولاشك ان هذا الاعلان يرجع الى ايمان الامويين بمذهب الجبر وذلك من اجل تبرير مافعله عبد الملك بعمرو بن سعيد باعتبار ان هذا الفعل من قضاء الله وقدره . ولما رأى الناس الاموال ورأوا الراس اخذوا الاموال وتفرقوا بعد ان انتهب انصار عمرو ما وجدوه في بيت المال وتمكن عبد الملك من استعادته[76] .

وبعد ان هدأت الاوضاع ارسل عبد الملك عمر بن علي الفهري وهو احد بني محارب الى دار عمرو ليفتش فيها وذكر ابن عبد الحكم : انه وجد كتبا تضم اسماء من بايعه على الخلافة فاحرقها[77] . ولاشك ان هذه الاسماء تمثل من اهل دمشق الوجوه الذين بايعوا عمرا على الخلافة وابدوه . وعندما سال عبد الملك عمر بن سعيد عن سبب حرق هذه الاسماء فاجاب : لو قرأتها لما صح لك قلب شامي ولا استقامت طاعته اذا علم انك قد علمت بخلافة اياك[78] واقتنع عبد الملك بذلك وكان مقتل عمرو بن سعيد سنة ٧٠هـ[79] .

وبعد فقد تمكن عبد الملك بن مروان بدهائه وحزمه ان يكسب معركة الخلافة ويثبت الحكم في اسرة ابي العاص بعد ان قضى على عمرو بن سعيد ومواليه . وقد استغل هذا الحدث لاستئصال معارضيه وتوحيد جبهته الداخليه ولهذا بدأ بملاحقة كافة المعارضين له الا ان طريقة انهائه لثورة عمرو والاسلوب الذي اتبعه اثارا مشاعر الكثير من معارضيه واتهموه بالغدر والخيانة حتى عده بعض المؤرخين اول من غدر بالاسلام[80] فهذا هشام الكلبي يروى عن جده انه لما بلغه قتل عبد الملك عمرا قال (ايها الناس ان عبد الملك قتل ابن عمه وابن عمته بعد ان امنه فلا تأمنوه ولا تصدقوه)[81] .

وكان لهذا العمل اثر سلبي في استمرار حركة المعارضة في خارج الشام فصرف محمد بن حنفية نظرة عن الذهاب الى الشام بعد ان قرر ذلك[82] كما ان زفر بن الحارث توجس خيفة من الصلح مع عبد الملك خوفا من غدره فامسك عن التوجه الى دمشق حتى بعث اليه عبد الملك بقضيب النبي (ص) امانا له لكي يطمئنه الى سلامة نيته وعهده[83] . وقد كتب اليه مصعب بن الزبير «اما ما ذكرت من ثقتي بك ومودتي واخائي فذلك كما ذكرته ، ولكن بعد قتلك عمرو بن سعيد لا يطمأن اليك وهو اقرب رحما مني اليك واولى ما عندك فقتلته غدرا ووا الله لو قتلته في حرب ومحاربة لمسلك عارةولما سلمت من اثمه»[84] . وقد سال عبد الملك احد ثقاته في عمله فقال له «امر قد فات دركه ، قال لتقولن قال : حزم لو قتلته وحييت ، قال او لست بحي قال ليس بحي من اوقف نفسه موقفا لا يوثق له بعهد ولا بعقد» . وقال عبد الملك : كلام لو سبق سماعه فعلي لامسكت[85] ويبدو ان عبد الملك كان يفخر بعمله هذا امام الناس في احدى خطبه باقليم الحجاز سنة ٧٥هـ قال «ايها الناس انا نحتمل لكم كل اللغوية[86] مالم يكن عقد راية او ثوب على منبر . هذا عمرو بن سعيد وحقه حقه وقرابته قرابته قال براسه كذا فقلنا بسيفنا هكذا»[87] .

وخلاصة القول فان قتل عمرو بن سعيد الاشدق قد حرر عبد الملك من قوة هذه العائلة وتخلص من تأثيرها ونفوذها . ولم يكتف بذلك بل طرد كافة اخوته واولاده من الشام فلحقوا بعبد الله بن الزبير في الحجاز

(٧٣) الطبرى : التاريخ : ٣/٧٨٩-٧٩٠ ، انظر ايضا : ابن الاثير : الكامل : ٤/٣٠٠-٣٠١ .
(٧٤) ن . م : ٢/٧٩١ .
(٧٥) ابن قتيبة : الامامة : ٢/٢٧-٢٨ .
انظر د . عرفان عبد الحميد : دراسات في الفرق الاسلامية : ص ٢٥٥-٢٥٦ .
(٧٦) البلاذرى : انساب : ٤/١٤٠ ، انظر ايضا : الطبرى : التاريخ : ٢/٧٩١ ، ابن الاثير : الكامل : ٤/٣٠١ .
(٧٧) فتوح مصر واخبارها : ص ١٣٤ .
(٧٨) ن . م : ص ١٣٤ .
(٧٩) التاريخ ٢/٩ ، انظر ايضا خليفة : التاريخ : ٢/٢٦٣ ، الطبرى : التاريخ : ٢/٧٩٦ ابن الاثير : الكامل : ٤/٢٩٧ ، دكسن : الخلافة الاموية : ٦٠٢ ، فاضل : التاريخ السياسي للدولة العربية – عصر الخلفاء الامويين ٤/٥٢٢ .

(٨٠) ابن الاثير : الكامل : ٤/٥٢٢ .
(٨١) البلاذرى : انساب : ٤/١٤٤ .
(٨٢) ن . م : ٤/١٤٤ .
(٨٣) ن . م : ٥/٣٠٥ .
(٨٤) ابن قتيبة : الامامة : ٢/٢٨ .
(٨٥) ابن عبد ربة : العقد الفريد : ١/٧٩/٤/٤٠٩
(٨٦) خليفة : التاريخ : ٢/٢٧٠-٢٧١ ، انظر ايضا المنجد : معجم بني امية : ص ١١٥ .
(٨٦) اللغوية : الضعف ، انظر خليفة : التاريخ : ٢/٢٧٠-٢٧١ .
(٨٧) خليفة : التاريخ : ٢/٢٧٠-٢٧١ ، انظر ايضا المنجد : معجم بني امية : ص ١١٥ .

واخيه مصعب في العراق(٨٨) .

ولاشك ان هذا الاجراء قد مكن عبد الملك ابن مروان في تنفيذ برامجه وفي بناء مستقبل الدولة الاموية وتوحيدها والقضاء على الاخطار المحدقة بها وان بدون قتل عمر بن سعيد يبقى عبد الملك مقيدا لايتمكن من ترك دمشق خوفا من حركة المعارضة وعلى رأسها هذا الثائر .

المصادر والمراجع

١ – ابن الاثير : علي بن احمد بن ابي الكرم (٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م)
الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءا ، طبعة بيروت ١٩٦٧ م .
اسد الغابة في معرفة الصحابة ١٦ جزءا . تحقيق
محمد صبيح . القاهرة ١٩٦٤ م .

٢ – البلاذرى : احمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ/٨١٢ م)
انساب الاشراف ، الجزء للرابع ، القدس ١٩٣٨
الجهشياري : اي عبد الله بن عبدروس كتاب الوزراء والكتاب
تحقيق مصطفى الق واخرون
الطبعة الاولى القاهرة ١٩٣٨ .

٣ – الجومرد : عبد الجبار .
داهية العرب ابو جعفر المنصور . بيروت ، ١٩٦٣ .

٤ – ابن حبيب : محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م)
المحبر : حيدر اباد ١٩٤٢

٥ – ابن حجر : محمد بن عمر العسقلاني (٨٥٢ هـ/١٤٤٨ م)
الاصابة في تمييز الصحابة ، كلكتا ١٨٧٣ م

٦ – ابن خياط : خليفة شباب : (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م(
التاريخ جزءان تحقيق اكرم ضياء العمري ، النجف ١٦٧ م .

٧ – دكسن ، عبد الامير :
الخلافة الاموية ، دراسة سياسة
دار النهضة – بيروت ١٩٧٣ م

٨ – ابن سعد : محمد ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م
الطبقات الكبرى – طبعة بيروت ١٩٥٧

٩ – السدوسي : مؤرخ بن عمر (ت ١٩٥ هـ / ٨١٠ م)
كتاب حذف من نسب قريش . تحقيق صلاح الدين المنجد
القاهرة ١٩٦٠

١٠ – الطبرى : محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)
تاريخ الرسل والملوك ليدن ٨٨١ م

١١ – ابن عبد البر : ابو عمر يوسف
الاستيعاب في معرفة الاصحاب . تحقيق علي محمد البجاوى
مطبعة نهضة مصر القاهرة .

١٢ – ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله القرشي (٢٥٩هـ / ٨٧٠م)
فتوح مصر واخبارها .

١٣ – عبد الحميد : عرفان
دراسات في الفرق الاسلامية . مطبعة الارشاد ١٩٦٧ .

١٤ – ابن عبد ربة : احمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ / ٩٤٠م)
العقد الفريد . القاهرة ١٩٤٠ م

١٥ – ابن قتيبة ابي محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م)
المعارف : القاهرة ١٩٣٤
الامامة والسياسة . جزءان القاهرة ١٩٦٣ الطبعة الثالثة

١٦ – ابن كثير . اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)
البداية والنهاية ١٣ جزءا القاهرة ١٩٣٢ .

١٧ – ماجد : عبد المنعم : التاريخ السياسي للدولة العربية
(عصر الخلفاء الامويين(القاهرة ١٩٧١ .

١٨ – ابو المحاسن : ابن تفرى بردى :
النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة ١٩٢٩م

١٩ – المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)
مروج الذهب ومعادن الجوهر
دار الاندلس ١٩٦٥ .

٢٠ – المنجد : صلاح الدين
معجم بني امية

٢١ – ولهاوزن : يوليوس : تاريخ الدولة العربية
ترجمة د. محمد عبد الهادي ابو ريده ، القاهرة ١٩٥٨

٢٢ – اليعقوبي : احمد بن واضح ٢٨٤هـ/
تاريخ اليعقوبي : طبعة دار صادر – بيروت

(٨٨) الطبرى : التاريخ : ٧٩٤/٢ ، انظر ايضا ابن عبد ربة : العقد الفريد : ٤٠٩/٤ ابن الاثير : الكامل : ٣٠٢/٢ . اما المنجد : معجم بني امية ص ١٩٦ فيذكر ان عبد الملك سير اخاه يحيى الى المدينة ثم عاد مستامنا .

المؤرخ توماس كارليل

حياته ، اعماله ، فكره التاريخي ، آراؤه

الدكتور نوري عبد الحميد خليل
كلية التربية /قسم التاريخ
جامعة بغداد

مقدمة

كان توماس كارليل احد المؤرخين الرومانسيين البارزين الذين انجبتهم بريطانيا في القرن التاسع عشر . ولم تأت شهرته من وضعه فلسفته للتأريخ ، لكنه كان كاتباً لامعاً كتب في التأريخ والسياسة والفلسفة والاقتصاد والمجتمع والدين بأسلوب أدبي رفيع قلما استطاع كاتب ان يجاريه فهو من اكثر البلغاء الانكليز تمكناً من اللسان واقتداراً على اللغة في عصره .

تناولت كتاباته التأريخية تأريخ بريطانيا وبعض الاقطار الاوربية وسير عدد من الشخصيات البارزة . وكان من المعتقدين بامكان كتابة تأريخ الامم من خلال دراسة تأريخ أبطالها . وفي كل كتاباته يؤكد دور البطل في عملية التغيير ، بل كان من اكثر دعاة التاويل البطولي للتأريخ غلواً .

وقد شرح مذهبه في عبادة البطولة وتقديس العظماء من الرجال في احد كتبه العظيمة وهو «حول الابطال وعبادة البطل والبطولي في التاريخ»

وتكمن اهمية كتابات كارليل بالنسبة الى المثقف العربي في تعاطفه مع العرب باعتبارهم اصحاب رسالة سماوية وحضارة انسانية ، كذلك في دفاعه عن الاسلام والرسول محمد (ص) وكانا هدفاً لاقلام الكثير من الكتاب الغربيين . وكان الفصل الذي كتبه عن الرسول (ص) «البطل في صورة رسول» من احسن ماجاء في كتاب الابطال . وقد ادت كتابات كارليل الى تخفيف الحملة الظالمة والمتعصبة التي تشنها تلك الاقلام .

ومن ناحية اخرى تظهر كتاباته أثر الثقافة العربية الاسلامية في الفكر الاوربي ، فهو يستشهد بايات من الذكر الحكيم وبالاحاديث النبوية الشريفة في رده على اعداء الاسلام . كما كان يدعم كتاباته بأدلة وشواهد من التأريخ العربي[1] مما يدل على تتبعه الشديد واعجابه بهذا التاريخ .

وزيادة على كل ذلك فأن آراء كارليل عن الدين والحياة والموت والحياة الاخرى متأثرة بشكل واضح بآراء بعض الادباء والفلاسفة العرب وبخاصة ابو العلاء المعري (٩٧٣-١٠٥٧) . ويرى كاتب هذه السطور ان كارليل ان لم يكن قد تأثر بهذه الآراء بشكل مباشر فأنه قد تأثر بما ورد في ملحمة الشاعر الايطالي دانتي (١٢٦٥-١٣٢١) «الكوميديا الالهية» التي يرى اغلب المعنيين انها اخذت من المصادر العربية والاسلامية ونسجت على منوال «رسالة الغفران» للمعري . وكذلك بقصيدتي الشاعر الانكليزي جون ملتن (١٦٠٨-١٦٧٤) المشهورتين وهما «الفردوس المفقود» و «الفردوس الموجود» التي تأثرت بالفكرة الاسلامية وبالمعري مباشرة[2] . ومن هنا فان من الواجب تعريف القارئ العربي بهذا المؤرخ وبآرائه . فمن هو كارليل ؟

1. Carlyle, On Heroes, Hero-workship and the Heroic in History (London 1926, Vol.1, p.90-91).
وقد ترجمه محمد السباعي بعنوان «الأبطال» (القاهرة ١٩٣٠)

(٢) حول هذا الموضوع تنظر عمرو فروخ ، حكيم المعرة (بيروت ١٩٤٨) ١٢٠-١٢٦

حيـاته :-

ولد توماس كارليل في الرابع من كانون الاول ١٧٩٥ في قرية اكلفكان Ecclefechan جنوبي اسكتلندا . كان ابوه جيمس كارليل فقيراً يعتنق العقيدة الكالفنية وله معرفة واسعة باللغة والبيان ، اما امه جانيت ايتكن J. Aitken فكانت ورعة تقية[٣] . وقد اوجدت أخلاق الابوين وطريقتها في الحياة تأثيراً دائماً على الابن .

اخذ عنهما المبكرة من ابويه ، وتلقى مبادئ العلوم من مدرسة القرية ، واتقن اللغة الانكليزية في السابعة من عمره ، ثم شرع بتعليم اللاتينية . وفي سنة ١٨٠٥ دخل مدرسة النحو في آنان Annan فأظهر طابعاً من العنف دل على انه صادف شيئاً من القسوة في حياته . ومع ذلك فقد تعلم الفرنسية بسرعة وكذلك اللاتينية واليونانية وتعلم الهندسة والجبر . وفي سنة ١٨٠٩ التحق بجامعة ادنبرة فتقدم في دراسة الرياضيات واظهر ولعاً في قضايا الادب ، وحاول وضع اشعار في سير الابطال[٤] .

حصل على وظيفة معلم للرياضيات في مدرسة انان سنة ١٨١٤ وقد مكنه ذلك من الاستقلال والتخفيف من الضائقة المالية التي كانت تلازمه . كما التى عدداً من المحاضرات حضرها عدد كبير من مختلف الطبقات وبعد سنتين اصبح كارليل معلماً في مدرسة كريكالدي Krikaldy فجمعت بينه وبين معلم المدرسة ادوارد ارفنك Irving صداقة دائمة واستفاد من مكتبته فقرأ مؤلفات المؤرخ الانكليزي ادوارد جيبون Gibbons (١٧٣٧-١٧٩٤) وقرأ كثيراً عن الادب الفرنسي .

ولم تكن واجباته في المدرسة جيدة ، كان كتوماً حاد الطبع شديد التهكم . وقد جعل سلوكه هذا الطلاب في خشية منه ، ولم يكن يختلط بالمجتمع الا نادراً ، وزاد من تعاسته رفض الفتاة التي احبها (ماركريت جوردون Gordon) الزواج منه وقد ذكرها في كتابه «فلسفة الملابس» باسم بلومين . وكان لهذه الحادثة تأثير على حياته في المدرسة اذ انه لم يعد يحتمل مهنته التعليم فتركها سنة ١٨١٨ قائلاً «لا طاقة لي بعد بهذه المهنة الممقوتة»[٥] .

عاد بعد ذلك الى ادنبرة لدراسة القانون ، قضى ثلاث سنوات تعيسة وحيداً واصيبت معدته بسوء الهضم الذي لازمه طيلة حياته . وكان لذلك تأثير على سلوكه ، فاصبح متردداً منعزلاً يعاني صراعاً نفسياً حاداً ظهر في لغته واسلوبه الذي تميز بكثير من السخرية التي يصعب فيها التمييز بين الجد والهزل . ترك دراسة القانون واتجه لدراسة الكيمياء ، وقد اضطره ذلك لتعلم اللغة الالمانية التي كانت من اسباب شهرته فيما بعد . وكان في اثناء ذلك يعيش من العمل في الصحافة والتعليم الخاص ، كذلك استخدمه ناشر مجلة ادنبرة David Breuster (١٧٨١-١٨٦٨) في دائرة المعارف Edinlurgh Encyclopaedia لكتابة بعض المواد التأريخية وتراجم الاشخاص وترجمة مقالات علمية عن الفرنسية[٦] .

اتجه سنة ١٨٢١ نحو الدراسات الالمانية وبخاصة الادب الرومانتيكي . فقرأ لريجر J. P. Richter (١٧٦٣-١٨٢٥) وفخته Fichte (١٧٦٢-١٨١٤) وهيجل Hegel (١٧٧٠-١٨٣١) وغوتة Goethe (١٧٤٩-١٨٣٢) وقد جذبته رصانة الاخير بسبب معارضتها لطبيعته الحادة[٧] . وفي احدى رسائله الى كوتة بين انه مدين له بمساعدته على الخروج من التعاسة الروحية التي كان يعانيها في شبابه «ان اعمالك اصبحت مرآة لي ، وقد نصحتني حكمتك كثيراً . وهكذا فان صحة النفس زارتني بعد ذلك لاني كنت قبلها غير مؤمن ليس في الدين فقط ، ولكن في جميع الرحمة والجمال وقانون الايمان»[٨] .

رغم ظروفه المالية الصعبة فقد رفض كارليل العمل سكرتيراً لبازيل هل Hill . لكنه حصل على دخل سنوي من تعليم طالبين من آل بولر Buller بصورة خاصة سنة ١٨٢٢ .

زار مدناً عدة في انكلترا واسكتلندا كما زار ابرلندا سنة ١٨٤٦ وسنة ١٨٤٩ حيث عاد غاضباً بسبب الفوضى التي احدثتها ثورة ١٨٤٨ . ومن الدول الاخرى التي زارها فرنسا سنة ١٨٢٤ والمانيا سنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٥٨ . وقد مكنته زيارته لهاتين الدولتين من تكوين انطباع عنهما وجمع معلومات كثيرة لكتابة تأريخ الثورة الفرنسية ، وحياة فردريك الكبير (١٧٤٠-١٧٨٦) فيما بعد .

تزوج كارليل من جين ويلش Welsh سنة ١٨٢٦ وهي ابنة طبيب ينحدر من اسرة جون ويلش احد الوزراء المشهورين في Ayr . وقد قبلت الزواج منه بعد تردد ، اذ كانت ترى انه ينحدر من طبقة اقل شأناً من طبقتها ومركز اسرتها الاجتماعي . وعاشا عيشة بسيطة اذ ان كارليل اعتاد الاقتصاد التام من عائلته ، وكانت اطواره غريبة عنها وعاملها بقسوة . وكان عدم انجابها الاطفال عاملاً في زيادة تعاستها وشعورها بالوحدة ، اذ ان كارليل كان يقضي اغلب اوقاته بين كتبه بعيداً عنها .

3. G.Smith, the Dictionary of National Biography (Oxford University Press, 1968) Vol.111, p.1020.
4. The New Encyclopadia Brutanica 15th. Eddition, Vol.111, p.923.
5. Smith, op. cit., p.1020; H.J.C.Grierson, Carlyle and Hitler, (Cambridge 1933), p.13.
6. The New Encyclopadia, p.923, Smith, op. cit., p.1020.
7. Carlyle, Selected Writings, Eddited with an Introduction by Alan Shelston (Hazel Watson & Viney Ltd. 1971) p.101.
8. G.M.Trevelyan, Carlyle an Anthology. (Lon. 1953) p.23.

فساءت صحتها بصورة تدريجية حتى ماتت في حادثة دهس في حزيران ١٨٦٦ [٩].

واجه كارليل فشلاً متكرراً في الحصول على مركز استاذ في جامعة لندن التي تأسست حديثاً ، وكذلك في ترشيحه لاستاذية فلسفة الاخلاق في جامعة القديس اندروس St – Andrews . ووظيفة استاذ علم الهيئة ومفتش في ادنبرة سنة ١٨٣٤ ، فاتجه الى الترجمة والتأليف ثم انتقل الى لندن واستقر فيها حتى وفاته سنة ١٨٨١ .

حصلت كتبه على رواج كبير واصبح له جمهور كبير من القراء واخذ نجمه يشتهر في اوساط المجتمع الانكليزي والاوربي والامريكي . وفتحت له شهرته بيوت الكثيرين من قادة الفكر والادب من امثال الفيلسوف الكلاسيكي للمذهب الفردي ونصير الحرية والاصلاح الاجتماعي جون ستيوارت مل Mill (١٨٠٦–١٨٧٣) . وناشر مجلة ادنبرة اللورد جيفري F. Geffrey وجون سترلنك Sterling (١٨٠٦–١٨٤٤) الذي تتلمذ على يديه وقد عرض عليه والد سترلنك وظيفة في جريدة التايمس التي كان احد اعضاء مجلس ادارتها لكنه رفض العرض . كما تعرف على الكاتب واستاذ اللاهوت فردريك دينسون موريس Mau ice (١٨٠٥–١٨٧٢) .

وهكذا اصبح كارليل قائداً للادب في انكلترا واخذ دخله يتزايد باستمرار وصارت الجامعات الكبيرة تتسابق لعرض المناصب عليه بعد ان اصبحت الوظيفة خارج نطاق تفكيره . فرفض اقتراحاً لان يكون استاذاً للتأريخ في جامعة ادنبرة سنة ١٨٤١ كما رفض اقتراحاً مشابهاً من جامعة القديس اندروس سنة ١٨٤٤ . لكنه غير رأيه بعد أن تقدم به العمر واصبح يلاقي صعوبة في الكتابة فوافق على تعيينه رئيساً لجامعة ادنبرة سنة ١٨٦٦ ، لكن وفاة زوجته في تلك السنة جعلته يعيش كئيباً منعزلاً في السنوات التالية .

وفي سنة ١٨٧٠ عين نديراً لمكتبة لندن التي يعود له الفضل في ايجادها . وظل مديراً لها حتى وفاته . لكنه اصبح عاجزاً عن الكتابة بصورة كلية قبل وفاته بسبع سنوات .

لم تكن شهرة كارليل داخل انكلترا حسب بل كان له جمهور كبير من القراء في اوربا وامريكا . وحصل على تقديرات واوسمة كثيرة . في كانون اول ١٨٧٤ عرض عليه رئيس وزارة المحافظين دزرائيلي (١٨٧٤–١٨٨٠) بعبارات مشرقة «وسام الصليب العظيم» مع راتب تقاعدي لكن كارليل رفض العرضين . كم تسلم «وسام الجدارة البروسي» تقديراً لخدماته كمؤرخ لحياة فردريك الكبير . وفي عيد ميلاده الثمانين

9. Smith, op. cit. p.1021-1022, Grierson, Carlyle and Hitler, p.13.

تسلم من رئيس للحكومة الالمانية بسمارك (١٨١٥–١٨٩٨) رسالة تحية ، كذلك وصلته مداليات وخطابات عدة من المعجبين . وعند وفاته في شباط ١٨٨١ عُرض ان يُدفن في مقبرة Westminster Abby لكن العرض رفض بناء على وصية منه فدفن في اكلفكان بجانب أبويه [١٠] .

أعمـــاله :–

١ – مقالاته وترجماته :–

اتجه كارليل في اول الامر الى الادب الرومانتيكي الالماني فترجم سنة ١٨٢٤ كتاب (Wilhelm Meister) لغوته ، وكتاب (Legendre, Sgeomtry) . ثم اتجه لكتابة المقالة القصيرة ، وبدأ اتصاله باصحاب الصحف وخاصة تيلر صاحب مجلة London Magazine الذي نشر له مسلسل Portrait of Men Genius and Cheracter الاولى كانت ترجمة لحياة الاديب والفيلسوف الالماني شيللر Schillr (١٧٥٩–١٨٠٥) . ونشر له بويد Boyd ترجمة «ويلهالم مايستر» في مجلة ادنبرة . وقد اعيد طبع حياة شيللر بشكل كتاب عدة طبعات .

كان لكتابات كارليل وترجماته صدى في المانيا فوصلته رسالة من كوتة : استحسن فيها ترجمة «مايستر» . كما تسلم تشكراً حاراً منه سنة ١٨٢٧ لترجمة «حياة شيللر» مع هدايا من الكتب . وفي السنة نفسها نشر كتاب (German Romances) [١١] عن الادب الالماني ، زاد في شهرته .

وبعد ان تعرف كارليل على اللورد جيفري تمكن من نشر عدد من المقالات في مجلته Edinburgh Review واحدة عن (J. P. Richter) واخرى بعنوان (Signs Of The Times) كانت اولى مقالاته عن الموضوعات الاجتماعية هاجم فيها الفلسفة النفعية Utilitarianism او المادية التي بشر بها الفيلسوف الانكليزي جيرمي بينشام [٥] Bentham (١٧٤٨–١٨٣٢) – والتي ترجع كل شئ الى اصلين او باعثين من ألم

10. Smith, op. cit., p.1028-1033, The New Encyclopadia, p.923-924.

11. Carlyle, Selected Writings, p.10-11, Smith, op. cit., p.1022-1023, Trevelyan, Carlyle, p.23.

(٥) اعتقد بينشام بان علم الاخلاق وعلم النفس يعتمدان على حقيقة جوهرية تنص على ان السرور هو افضل من الالم وهذا المبدأ يجب ان يكون شعار الحياة . والمنفعة هي تحقيق اكبر قسط من السعادة لاكبر عدد من الناس وهدف الانسانية الصحيح هو الحصول على اكبر كمية من المنفعة . لذا يعتقد بينشام بان الدوافع الجيدة هي الدوافع التي تحقق التوازن بين مصلحة الفرد ومصالح الاخرين . وهدفه من هذه الفلسفة هو تطبيقها على امور الاقتصاد والادارة والقانون . والمبدأ الرئيس الذي يبين كفاءة القانون هو قياس كمية الالم بالنسبة الى السرور التي يجلبها هذا القانون .

ولذة وألم لاقت قبولا من معاصريه – هجوماً شديداً . وكانت هذه المقالة احتجاجاً ضد المبادئ التي تكون المنفعة المادية[12] .

وفي السنوات التالية كتب مقالات عدة . نشرتها صحف ومجلات مختلفة منها Macmillan Magazine, London dnd Westminster Review, New Monthly Magazine, Westminster Review, Quarterly Review, Forign Review, Foreign Quarterly Review, Fraser, s Magazine, Edinburgh Review وغيرها . منها مقالات عن حياة هنريش هاين» Heine (١٧٩٧–١٨٥٦) الاديب الالماني . وعن الشاعر الالماني «نوفالس» Novals (١٧٧٢–١٨٠١) والشاعر الاسكتلندي روبرت برنز Burns (١٧٥٩–١٧٩٦) والكاتب الايرلندي جيمس بوزويل Boswell (١٧٤٠–١٧٩٥) والموسوعي الفرنسي ديدرو Diderot (١٧١٣–١٧٨٤) وفولتير Voltaire (١٦٩٤–١٧٧٨) وقد جمعت هذه المقالات في كتاب صدرت منه اربعة أجزاء باسم «مقالات نقدية متنوعة»[13] . ولايزال عدد منها لم يجمع حتى الآن .

وفي ١٩٣٠ كتب كارليل اول مقالاته التأريخية «حول التأريخ» On History ، أعلنها لتكون خلاصة لتواريخ لاتحصى ، اكد فيها على اهمية التواضع في تكوين المدنية[14] . وفي السنة التالية كتب (Characteristics) وترجمة حياة الكاتب الانكليزي صموئيل جونسون Johnson (١٧٠٩–١٧٨٤) و Bulwer (١٨٠٣–١٨٧٣) . وتأريخ الادب الالماني[15] .

٢ – كتاب فلسفة الملابس :

Sartor Resartus.

قطع كارليل كتاباته عن الادب الالماني سنة ١٨٣١ وبدأ يعمل في كتاب فلسفة الملابس الذي انتقد فيه المجتمع الانكليزي نقداً لاذعاً ، وحلل مظاهر الحياة المألوفة الى عناصرها الاولية وضمنه خلاصة ارائه واصول معتقداته وزعم انه ينقله من كتاب ظهر حديثاً لفيلسوف الماني . والحقيقة ان الكتاب كان من وضع كارليل نفسه وترجمة لحياته[16] .

كان الكتاب فلسفة وهمية غامضة هي مزيج من المرارة والفكاهة موضوعها الرئيس هو ان الاشياء العقلية التي يعتقد بها الرجال من اجدادهم كانت قد سقطت وماتت وان عقلية جديدة يجب ان تولد لتلائم روح العصر . وتحدث المؤلف عن «تجسم الروح المقدس للدين في اسطورة جديدة بصورة رداء جديد» . نشر الكتاب بشكل مسلسل في مجلة فريزر سنة ١٨٣٣ وحاز على نجاح شعبي كبير ثم طبع بشكل كتاب طبعات متعددة[17] .

٣ – كتاب الثورة الفرنسية :–

حصل كارليل سنة ١٨٣٣ على كتب مفيدة من مكتبة Advocates فجمع مواداً عن سيرة حياة الدجال الصقلي ـــشلمخحسغفح (١٧٤٣–١٧٩٥) وعن Diamond Necklase التي فيها ضوءاً على الزوايا المظلمة من العهد القديم في فرنسا . كذلك كانت كتاباته عن فولتير وميرابو (١٧٤٩–١٧٩١) اول معين له في التأريخ وكونت له مقدمة الى افضل ما كتبه وهو تأريخ الثورة الفرنسية[18] .

من ناحية اخرى كانت صداقة كارليل لجون ستيوارت مل ومراسلاته معه عاملاً في تحويل انظاره نحو الثورة الفرنسية . انجز مسودة الجزء الاول من الكتاب سنة ١٨٣٥ واعارها الى مل لكنها تلفت . وسرعان ما استعاد نشاطه وبدأ يكتب من جديد فأنجز الكتاب سنة ١٨٣٧ وسلمه الى زوجته قائلاً «انه يستطيع ان يخبر العالم انهم لم يملكوا كتاباً اكثر صراحة والتهاباً ، خرج من قلب انسان حي منذ مئة سنة»[19] .

كان الكتاب احد الاعمال التاريخية العظيمة ، استطاع كارليل ان ينقل الخيال الى حقيقة الى القراء . وكان بالنسبة للمؤلف اكثر من تأريخ احداث لانه جسّد اخلاقه ومعتقداته . انه (كتاب وحشي) كتب الى سترلنك «لقد خرج دافئاً من روحي» . لقد انطبعت مشاهده في ذهن القارئ بصورة لاتمحى : اقتحام الباستيل ، الهجوم على فرساي ، الاحتفال بالاتحاد ، هروب الملك ، محاكمة الملك واعدامه ، الجيرونديون ، ميرابو ، لافاييت ، دانتون ، المقارنة بين دانتون وروبسبير ، تصويرة للرأي العام الفرنسي اثناء فترة الارهاب[20] .

كانت قوة كارليل وقدرته على وصف الاشخاص وتصويرهم تثير العجب ، استطاع ان يرسم «صوراً حية» ، ولاحظ البعض[21] ان

12. Carlyle, Selected Writings, p.29; Carlyle Critical and Miscellaneos Essays, London 2Vols.
13. Carlyle, Critical and Miscellneos Essays, 2Vols., Selected Writings, p.10.
14. G.P.Gooch, History and Hitorians in the Ninteenth Century (London 1958), p.301.
15. Smith, op. cit. p.1025.
(١٦) كارليل ، فلسفة الملابس ، ترجمة طه السباعي (القاهرة ١٩٢٧)

17. The New Encylopadia, p.923. Carlyle, Selected Writings, p.11.
18. Gooch, op. cit. p.301.
19. Smith, op. cit. p.1027-1028.
20. Carlyle, The French Revolution (London 1968) Vol.1, p.23-170, 189, 209-212, 264, 323-344,. Vol.11, p.130-168, 246, 286.
21. Gooch, op. cit. p.303.

تصورات المؤرخين كانت «اشبه بدمية محشوة بالنخالة ، بينما كانت صور كارليل حقيقية لو وخزتها لنزفت دماً» . ويبدو ذلك من وصفه لميرابو بحيث اذا كانت لك معرفة سابقة بهذا الرجل كما يذكر المؤرخ الانكليزي H. Belloc في مقدمة للكتاب «وقرأت ما كتبه كارليل عنه بعد مدة طويلة يكون كأنما استدعي ميرابو امامك كما عرفته من قبل وكأنما وضع روحاً في جسم الرجل مرة اخرى .

ومع ذلك فقد واجه الكتاب انتقادات كثيرة اذ ان كارليل وقع في عدد من الهفوات نشأ بعضها من ظروف الوقت ، والبعض الاخر جاء نتيجة الى افتقاره لبعد النظر وقلة المعلومات . ولم يفصل اسباب الثورة . اما مصادره فكانت قليلة جداً اعتمد على الذاكرة وعلى المذكرات اكثر من اعتماده على المصادر الاولية والوثائق اذ ان دراسة الارشيفات لم تكن قد بدأت .

كانت مصادره الرئيسية هي Histoire Parlementaire, The Moniteur وروايات Lacretelle وكتابات المؤرخ الفرنسي تيير Thiers (١٧٩٧–١٨٧٧) . وعدد قليل من المذكرات . ان اعتماد المؤلف على مثل هذا العدد القليل من المصادر اوقعه في عدد من الاخطاء . وقد انهى كتابه فجأة بانفجار سنة ١٧٩٥ وتغاضى عن علاقة فرنسا باوربا . ويمكن ايضاً ملاحظة آثار الضجر على المؤلف في نهاية الكتاب اذ جاء الجزء الاخير هزيلاً لايوضح كيف تطورت الثورة وكيف تداخلت مرحلة باخرى[٢٣] .

كذلك يؤخذ على كارليل عدم قدرته على تحديد طبيعة الثورة الفرنسية ، لقد صور الشعب الفرنسي كوحش تسوقه التعاسة والظلم وكان على استعداد للاضطراب واعتقد ان الثورة كانت مجرد تخريب[٢٤] .

اختلف المؤرخون في تقويم الكتاب فوصفه المؤرخ الفرنسي ميشيلية Michelet (١٧٩٨–١٨٧٤) بانه واحد من اكثر الكتب التي كتبت منذ عدة قرون وحشية «كتاب كتب من قبل رجل متوحش» وقال الشاعر الانكليزي Wordsworth (١٧٧٠–١٨٥٠) «لا يستطيع رجل اسكتلندي ان يكتب الانكليزية» . واعلن المؤرخ الانكليزي هالم H. Halam (١٧٧٧–١٨٥٠) انه لم يتمكن من قراءته بسبب اسلوبه الممقوت . اما المؤرخ الامريكي برسكوت W. H. Prescott

22. Carlyle, F.R., Vol.1, p.X. 32. 341.
23. Gooch, op. cit. p.303-304, Carlyle,F.R. Vol.1, p.X; Selected Writings, p.113.
24. H.E.Barnes, A History of Historical Writing (New York 1963) p.189-190.

(١٧٩٦–١٨٩٥) فكان يرى ان الكتاب سواء اكان من حيث الشكل ام المضمون لا يعتد به .

ومع ذلك فق داثنى عليه كثيرون فوصفه استاذ التأريخ الحديث في جامعة كمبرج C. Kingsley (١٨١٩–١٨٧٥) بانه العمل الوحيد المختص بالبطولة في ايامه . اما انتقادات المدارس الاخرى من امثال جيفري والمؤرخ الانكليزي توماس ارنولد (١٧٩٢–١٨٤٢) وسترلنك والروائي الانكليزي W. M. Thackery (١٨١١–١٨٦٣) فقد ادركوا قدرة ونبوغ المؤلف . كما قرأ المؤرخ الانكليزي روبرت ساوثي (١٧٧٤–١٨٤٣) الكتاب ست مرات[٢٥] ، اعجاباً به .

يقع الكتاب في ثلاثة اجزاء الاول بعنوان (الباستيل) يبدأ من وفاة لويس الخامس عشر ويلخص العوامل التي ادت الى اجتماع مجلس الطبقات في ايار ١٧٨٩ . والثاني «القانون الاساسي» شرح فيه المحاولات الفاشلة للمعتدلين لتأسيس حكومة دستورية . والثالث «المقصلة» ويتناول فيه سقوط المعتدلين وعهد الارهاب[٢٦] .

٤ – كتاب الجارتية : Chartism

في عام ١٨٣٩ نشر كتاباً آخر بعنوان «الجارتية» عالج فيه بعض المشكلات الاجتماعية والسياسية في بريطانيا . وكانت لائحة الاصلاح البرلماني لسنة ١٨٣٢ لم تحقق سور مصالح الطبقة البرجوازية وتركت مصالح العمال مهضومة واحوالهم سيئة فنشأت بين العمال حركة اصلاحية دعيت بالحركة الجارتية ١٨٣٨–١٨٤٨ غايتها حمل البرلمان على سن لائحة اخرى تضمن للعمال حقوقهم ومنها التصويت العام للذكور واجراء التصويت بصورة سرية ، فتحمس العمال لهذه الحركة وقرروا الاجتماع سنة ١٨٣٩ في مؤتمر وطني وتيقديم عريضة للبرلمان تتضمن مطاليبهم لكن البرلمان رفض العريضة . وقد كتب كارليل كتابه هذا في الوقت الذي شهدت منه لندن حماساً كبيراً لمساندة الاهداف العامة للوثيقة وكانت عملاً شاقاً اظهر فيها كارليل احساسه العميق بحالة العمال ممزوجاً بكراهية شديدة للمبادئ النفعية والمادية التي اخذت تتفشى بينهم[٢٧] .

٥ – حول الابطال وعبادة البطل والبطولي في التأريخ

في سنة ١٨٤٠ نشر كارليل اشهر محاضراته عن الابطال وعالم البطولة وتم طبعها في السنة التالية في كتاب شرح فيه مذهبه في فلسفة التأريخ ورأيه في تقدير عظماء الرجال ابطال الماضي في صورة قديس

25. Gooch, op. cit, p.304-305.
26. Carlyle. F.R. 3Vols.
27. Carlyle, Selected Writings, p.149; Smith, op-cit p.1029.

ونبي وشاعر وقس وكاتب وملك من امثال معبود قدماء السويد والنرويج «اودن» والرسول العربي محمد (ص) والشاعر الايطالي دانتي والشاعر الانكليزي شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦) ورجال الاصلاح الديني مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦) وجون نوكس (١٥٠٥-١٥٧٢) والكاتب الانكليزي جونسون (١٧٠٩-١٧٨٤) وروسو (١٧١٢-١٧٧٨) وبيرنز (١٧٥٩-١٧٩٦) وكرومويل (١٥٩٩-١٦٥٨) ونابليون (١٧٦٩-١٨٢١) [٢٨] .

٦ - كتاب الماضي والحاضر Past and Present:

جسد كارليل فكرة التأريخي في كتبه التالية ففي سنة ١٨٤٣ نشر كتاب الماضي والحاضر وهو الكتاب الرابع من كتبه العظيمة لخص فيه اراءه السياسية والتأريخية وضحت فيه قوة تصوره العاطفي في ترجمة حياة Abbot Samson المقتبسة من التاريخ الوسيط «تأريخ جوسيلان البريكلندي» .

قدم لنا كارليل صورة واضحة عن انسان القرن الثاني عشر Abbot في مدفن ادموندز ورهبانه ، كانت رؤيته واضحة رغم كراهيته الموروثة للكنيسة الكاثوليكية . استعرض حالة المجتمع الانكليزي في زمانه وقارنه مع مجتمع الرهبان في العصور الوسطى بلغة بليغة . وفي الحقيقة فأن دقة وصفه لمجتمع القرن الثاني عشر تظهر المؤلف كأنما عاش في ذلك القرن .

جاء الكتاب في اربعة اجزاء الاول «مقدمة» والثاني بعنوان «الراهب القديم» والثالث «العمال الجدد» والرابع «كشف الطوالع» [٢٩] .

٧ - خطب ورسائل اوليفر كرومويل :

كان الكتاب الخامس من اعماله التأريخية هو كتاب اوليفر كرومويل وكان كارليل قد قرأ المادة التأريخية لفترة الجمهورية Commonwealth (١٦٤٩-١٦٦٠) [*] منذ سنة ١٨٢٢ لغرض كتابة تأريخ انكلترا في تلك الفترة لكنه غير رأيه واتجه لدراسة كرومويل وعهد الميثاق في انكلترا واسكتلندا . وبعد ان توضحت لديه طبيعة كرومويل بصورة تدريجية بدأ يراه واحداً من اعظم الاشخاص الذين انجبتهم انكلترا .

ثم شرع بجمع مادة الكتاب واطلع على فهارس المتحف البريطاني والوثائق التي يضمها حول الموضوع . كما قام بزيارة الاماكن التي عاش فيها كرومويل وقاتل فيها ومشاهدتها عن كثب ، وسار سنة ١٨٤٠ الى ساحة المعركة في Naseby [٣٠] ، حيث استطاع جيش البرلمان بقيادة كرومويل احراز النصر على الجيش الملكي في حزيران ١٦٤٥ . لاتخذ تصوير شامل عن تلك المعركة .

ان العمل الموحش في جمع الوثائق وقراءتها وتمحيصها يتطلب جهوداً مضنية ، وقد يثير خيبة الامل احياناً ، وبالنسبة الى كارليل فقد تراكمت المعلومات حوله وبدأت اتعابه تظهر . في احدى رسائله الى الاديب والفيلسوف الامريكي امرسون R. W. Emerson (١٨٠٣-١٨٨٢) كتب يقول «لا تسأل عن كرومويل . . . يريد ان يؤدي بي الى الجنون» لقد كان ذلك باعثاً عن كتابة تأريخ منظم . فأحرق اكثر ما جمعه من معلومات وما كتبه من مسودات وجدد عمله بجمع ونشر خطب ورسائل كرومويل مع شروح وتعليقات . وقد انجز الكتاب سنة ١٨٤٥ وطبع بجزئين ونجح نجاحاً ادهش الناشرين وادهش كارليل نفسه ، وقد تمت اعادة طبعه عدة مرات في السنوات التالية [٣١] .

قال كارليل في مقدمة الكتاب «هذه المخطوطات الاصلية للرجل كرومويل جمعتها من قريب ومن بعيد ، اصطدتها من الارض المنسية حيث تكون مطمورة فيها . اردت ان تكون نقية من الشوائب الغريبة . ان هذا الرجل يمثل روح البيورتانية (طائفة من البروتستانت الانكليز) والذي لولاه لما وجدت ثورة تذكر . ولم يكن كرومويل رجل نفاق لكنه رجل صدق وكانت كلماته تحمل معان كثيرة» [٣٢] .

كان الكتاب من اوله الى آخره تمجيداً للبيورتانية الانكليزية في القرن السابع عشر ، بين فيه المؤلف ان كرومويل كان (العين البصيرة) التي حققت النصر للبيورتان لانه عرف الامور وعرف ماهي نتائجها في الوقت الذي ضاع فيه الاخرون في ورطة النظرية الدستورية والكنسية [٣٣] . وكتب ناقد يصف مهارة كارليل بقوله «ان الكتاب ربما يثير حدة ودهشة كرومويل نفسه» [٣٤] ومع ذلك فقد وجهت اليه انتقادات كثيرة منها عدم فهم كارليل بطبيعة المسألة الدستورية التي اشغلت القرن السابع عشر من التأريخ الانكليزي ووقع في عدد من الاخطاء في معالجته لعهد

(٢٨) كارليل ، الابطال ، ترجمة محمد السباعي (القاهرة ١٩٣٠)
29. Carlyle, Past and Present (London 1960). p.i, 40, 81, 102; 141 245, Travelyan, op. cit., p.8.

(*) قام في عهد آل ستيوارت ١٦٠٣-١٦٨٨ صراع بين انصار الملك الذي اراد ان يحكم وفقاً لنظرية الحق الالهي وبين البرلمان وانصاره من الشعب الانكليزي . واندلعت الحرب الاهلية في عهد شارلك الاول بين انصاره وانصار البرلمان ١٦٤٢-١٦٤٩ انتهت بانتصار جيوش البرلمان بقيادة كرومويل ، فأعدم الملك واعلنت الجمهورية باسم «كومنويلث» .

30. Carlyle, Oliver Cromwell's Letters and Speeches (London 1926) Vol.1, p.V111, 1X, X.
31. CArlyle, Oliver Cromwell Vol.1, p.X, X1; Smith, op. cit. p.1029.
32. Carlyle, Oliver Cromwell Vol.1, p.X, X1; Smith, op. cit. p.1029.
32. Carlyle, Oliver Cromwell, p.10.
33. Grieson, Carlyle and Hitler, p.35-37.
34. J.M.Thompson, A History of Historical Writing (New York 1942) p.302.

الكومنولث . لقد شرع في دراسة الفترة قبل ان تتيسر مصادرها المهمة وكانت وثائق الحكومة الاهلية ووثائق لجان الكومنويلث واوراق وزارة الخارجية لم تنشر بعد وجاءت نصوص الخطب والرسائل رديئة في الغالب لعدم اعتماده على النسخ الاصلية المحفوظة في المتحف البريطاني(٣٥) .

٨ – كراسات الوقت الحاضر Latter Day Pamphlet :

في اواخر ١٨٤٩ نشر كارليل مقالة بعنوان «حديث عرضي عن مسألة الزنوج» Question Occasional Discourse On The Nigger اظهر فيها طابعاً من التمييز العنصري التي كانت تسود الغرب . وشهر بما دعاه «العواطف الانسانية» التي دمرت جزر الهند الغربية التي ادت – كما يزعم – الى «ان يفوض الزنوج في البربرية» وقد سببت المثالية سخطاً عاماً ضده وصدمة للانسانيين الاحرار وادت الى قطيعة تامة بينه وبين بعض اصدقائه وخاصة مل(٣٦) .

كانت هذه المقالة مقدمة لثماني مقالات نشرت بعنوان «كراسات الوقت الحاضر» اظهرت «اراءه المتوحشة وطبيعة حياته القاسية» . شن فيها حملة تهكمية على السجناء والمتشردين و «السود» و «مظاهر البذل في سبيل الانسانية دون تمييز» على الديمقراطية ، وحملات لاتلين ضد «السلطات التعسفية» وعبر عن اعتقاده في «فضائل السوط» . كل ذلك كان تعبيراً واضحاً عن شعور كارليل بخيبة المجتمع .

وفي احدى هذه الكراسات «السجون المثالية (Model Prisons حاول اقناع الجمهور «ان المتوحشين والمتشردين» كانوا يعيشون مدللين في السجون الجديدة للقرن التاسع عشر» . وقد ادت هذه الكراسات الى توسيع الفجوة بينه وبين جمهور قرائه وتراجع عدد من المعجبين بكتاباته بل انقلب بعضهم ضده باعتبروه رجعياً وان ثورته ضد اتجاه العصر كان ردة ، وتعالت الصرخات ضد هذه الكراسات ليس في بريطانيا فقط بل وفي امريكا [illegible] عدة اشهر(٣٧) .

٩ – حياة جون سترلنك (١٨٠٦–١٨٤٤) :

جمعت بين كارليل وبين تلميذه جون سترلنك صداقة دائمة وبعد وفاة الاخير نشر كارليل سيرة حياته سنة ١٨٥١ . وجاء الكتاب رصينا وصف بانه من اعظم اعمال كارليل الادبية نجاحاً(٣٨) .

35. Carlyle, Oliver Cromwell, p.XV, X1X; Barnes, op. cit. p.189.
36. Smith, op. cit. p.1030; Carlyle, Selected Writings, p.283.
37. J.P.Seigel, Thomas Carlyle, The Critical Heritage, (London 1971) 18; The New Encyclopadia, p.924, Smith, op. cit., p.1030.
38. Carlyle, Selected Writings, p.313

١٠ – فردريك الثاني ملك بروسيا (فردريك الكبير) :

كان تأريخ فردريك الكبير (١٧٤٠–١٧٨٦) احد اعمال كارليل العظيمة شرع فيه سنة ١٨٥٢ حيث زار المانيا ليشاهد بعينيه الاماكن التي وقعت فيها احداث ايام فردريك وحملاته العسكرية . وقد استمر العمل بصورة متواصلة ست سنوات انجز الجزئين الاولين سنة ١٨٥٦ وبعد ان زار المانيا مرة اخرى في تلك السنة ليثبت في ذهنه منظر القائد في سوح المعارك ، اصدر الاجزاء الاخرى تباعاً ، الثالث ١٨٦٣ والرابع ١٨٦٤ والخامس والسادس ١٨٦٥ . وقد طبع الكتاب عدة طبعات(٣٩) .

كان الكتاب قطعة من البحث التأريخي الجيد ، وترجم الى الالمانية حالاً ، وقوّم في كل من انكلترا والمانيا ، واخذ طلاب الكلية العسكرية في المانيا يدرسون معارك فردريك في تأريخ كارليل دليلاً على دراسته الجيدة ودقة ملاحظته . قال مساعده في العمل H. Larken ان كارليل فكر في كتابة تقرير كامل عن اصلاحات فردريك والتي اعتبرها الدرس الاكثر اهمية ، ولكن الكتاب كان اطول مما يتوقع» والسيدة كارليل اعلنت «ان الكتاب كان اعظم اعمال زوجها» اما امرسون فقد ذكر «انه اطرف كتاب كتب»(٤٠) .

وكان لهذا الكتاب اثر في دفع كارليل الى اظهار اعجابه بالمانيا بل وانحيازه الى جانبها سنة ١٨٧٠ وربط بين فردريك الكبير وعدالة قضية المانيا في حربها مع فرنسا (حرب السبعين) فكتب مقالة بعنوان «دفاع عن قضية المانيا في الحرب مع فرنسا» قال فيها «ان المانيا يجب ان تكون زعيمة لاوربا»(٤١)

١١ – ذكريات Reminiscences :

في سنة ١٨٦٦ كتب كارليل القسم الاول [illegible] «ذكريات» التي نشرها بعد وفاته تلميذه [illegible] Froude [illegible] (١٨١٨–١٨٩٤) فيها نتف من سيرة حياته كتبها بعد وفاة زوجته . وهذه الذكريات الهائمة والمشوشة احياناً يتضح منها شعور كارليل نحو الناس الذين احبهم واعجب بهم في حياته المبكرة : أبيه وزوجته واصدقائه ، ارفنك . اللورد جيفري . وهي كما يقول فرود مجموعة مفككة كان قد تسلمها من استاذه مع توصية بوجوب نشرها ، تضمن الكتاب اربعة اقسام «سيرة حياة والده جيمس كارليل» و «ادوارد ارفنك» و «اللورد

39. Smith, op. cit. p.1032; Carlyle, Selected Writings, p.325.
40. Gooch, op. cit. p.308-309, Thompson, op. cit. p.303.
41. The New Encyclopadia, p.924.

جيفري» و «سيرة حياة جين ويلش» كتبت عند وفاتها سنة ١٨٦٦ وكانت مقدمة لجمع رسائلها التي نشرت سنة ١٨٨٣ بعنوان «رسائل ومذكرات جين ويلش كارليل»[٤٢] .

١٢ —

Shooting Niagara: and Alter? :

كتب كارليل هذه المقالة سنة ١٨٦٧ بمناسبة البحث عن لائحة الاصلاح الثانية لتوسيع حق الانتخابات وزيادة عدد المنتخبين في عهد وزارة المحافظين التي يترأسها دزرائيلي . بين فيها رأيه في السياسة المعاصرة «بصورة وحشية خاصة فيما يتعلق بالعمال»[٤٣] ودافع عن حاكم جزيرة جامايكا E. J. Ayre الذي عزل بسبب استخدامه القسوة والبطش للقضاء على ثورة سكان الجزيرة سنة ١٨٦٥ ودعا كارليل الى انقاذ جزر الهند الغربية وشنق من اسماهم «مثيري القلاقل»[٤٤] اي «الزنوج» سكان تلك الجزر .

١٣ — اعمال اخرى :

ولكارليل مقالات ومؤلفات اخرى منها «الملوك النرويجيون الاوائل» ومقالة عن «جون نوكس» سنة ١٨٧٥ و «ذكريات عن رحلتي الى ايرلندة» وحول «اختيار الكتاب» و «الكلمات الاخيرة لتوماس كارليل» بالاضافة الى مقالات اخرى نشرتها الصحف في حينها ولم تجمع لحد الآن .

آراء كارليل :—

يمثل كارليل الصورة المعقدة للفكر والمجتمع في بريطانيا واوربا خلال القرن التاسع عشر . فمن الناحية السياسية عاصر كارليل حروب نابليون وما جرته على اوربا من ويلات وما تلاها من مؤتمرات ومحالفات . كما شهد الثورات الديمقراطية الاوربية في منتصف ذلك القرن وما سببه اخفاق تلك الثورات من صدمة لأماني الحرية الصاعدة وعودة الحكم الاستبدادي . كذلك عاصر الحركات القومية الاوربية التي توجت بوحدة ايطاليا سنة ١٨٧٠ ووحدة المانيا سنة ١٨٧١ .

ومن الناحية الاقتصادية شهد كارليل انتشار الثورة الصناعية في اوربا ومارافقها من تغييرات اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية . ادت

42. Carlyle, Selected Writings, p.13, 345.
43. Smith, op. cit. p.1032; Gooch, op. cit. p.903.
44. D.J.Delaura, Arnold and Carlyle.(NewYork 1965) p.1-8.
45. Smith, op. cit. p.1034, The New Encyclopadia, p.924.

الى زيادة الثورة وتوسيع التجارة وظهور الطبقة البرجوازية وزيادة السكان وهجرة آلاف من الفلاحين الى المدن للعمل في المصانع الجديدة مما ادى الى سوء احوالهم وتفشي المبادئ المادية والنفعية بينهم . هذا اضافة الى التقدم الكبير الذي حصل في مختلف انواع العلوم والمعرفة . وقد ظهرت آثار هذه التحولات في كتابات كارليل وآرائه التي يغلب عليها البلبلة والتشويش احياناً والتناقض وعدم الرؤية فيما تحيط به من احداث .

١ — فكره التأريخي :—

ـ لم يجد كارليل الحرية الا في التأليف التأريخي وكتابة الرسائل في القضايا المعاصرة . وقد ظهر ميله للتأريخ منذ صباه اذ كان يقول :— «هناك شيئ يسمى التأريخ ، واني انا ايضاً لابد ان أودي يوماً من الايام نصيبي منه باللسان وباليد !»[٤٦] . والتأريخ في نظره «حق ودوافع لكنه يشمل ماهو مثالي ايضاً . وهو كالحاضر واقع حي يخلع عليه تقادم الزمن غرابة رومانسية» .

لقد رفض الصورة المتداولة للتأريخ القومي الانكليزي والتي كتبها المؤرخون السابقون . اذ انه لم يكتب التأريخ الا بعد ان مارس كتابة القصة والشعر والترجمة والنقد الادبي ، وان ما زاوله من هذه الفنون علمه ماينبغي ان يكون عليه البحث التأريخي «ان للتأريخ اهدافاً عدة يجب ان يتوافر على خدمتها فهو رسالة صادرة من السماء . واول شرط من الشروط الضرورية لكل الاهداف هو ان نرى الاشياء كما جرت وان نصورها كاملة كما لو كانت امام اعيننا»[٤٧] .

ومن هنا جاء تأكيد كارليل على اهمية التراجم او سير حياة الرجال في تدوين التأريخ . وكانت دقة ملاحظته المشوبة بالفكاهة حيناً وبالاسلوب الشعري احياناً اخرى وتصويره الواضح للرجال وللاوضاع والاحداث تصويراً يثير الاعجاب ، يبعث فيها الحياة من جديد «ان عصور العالم الخالية كانت حافلة بالواقع بالناس الاحياء . لا بالبروتوكولات والاوراق الرسمية . ومحاولات الناس وتجريداتهم ، لم تكن تجريدات ورسوماً واشكالاً ونظريات ، وانما كانت اناساً يرتدون الحلل والسراويل ولهم لغة الناس الحقيقيين وسماتهم وقواهم الحيوية»[٤٨] .

(٤٦) كارليل ، فلسفة الملابس ، ترجمة طه السباعي (القاهرة ١٩٣٠) ص ٧٩
47. Alexander Carlyle (ed.), Letters of Thomas Carlyle to J.S.Mill (London 1923) p.82-83.
(٤٨) ايجري نف ، المؤرخون وروح السفر ، ترجمة توفيق اسكندر (القاهرة ١٩٦٥) ص ١٥٤

ان المسائل الاكثر اهمية في التأريخ في نظر كارليل هي الرسالة التي يحويها . انه حلقة الاتصال التي تربط الماضي بالحاضر ولا بد من اختصاصه بحياة الرجال قبل كل شيّ . يجب ان يخص نفسه بحياة الابطال ، لكنه لا يتعامل معهم برؤية منعزلة[٤٩] . وهو يؤكد ايضاً العلاقة الجدلية بين ماضي الانسانية وحاضرها «ان كل القرون بعضها ابناء بعض مباشرة وغالباً مانجد ان السمات المختلفة المميزة لاحداث الاجيال تكشف في صورة الاجداد الاول عن نفسها يتوضح كلٌ منها الآخر» . ان جوهر التأريخ لديه هو الحركة الدائمة والتجدد المستمر وان عملية الانشاء والافناء تجري سوية «وكل انواع المثل العليا لها حدودها المقدرة لها ولها حظها وفتراتها المعينة للشباب والنضج والكمال والانحلال والانحطاط والموت النهائي والزوال ولا يولد شيّ الا ليموت ! »[٥٠] . ان التأريخ في نظره هو «الذي يعالج العمل الجدير بالاعتبار وهو في الوقت الحاضر شأنه شأن العصور القديمة يدرج بين الفنون الراقية ، وربما لا يقف اعلى منه في وقتنا الحاضر . »[٥١]

لم يكن كارليل – شأنه شأن مؤرخي القرن التاسع عشر – يهتم بصورة عامة في فلسفة التأريخ . وان شهرته التأريخية جاءت من اعتماده «المذهب البطولي في التأريخ» والذي ينسب اليه احياناً ويسمى بالمذهب «البطولي الكارليلي» والذي يؤكد دور الفرد في التأريخ وتعظيم القيادة الفردية والرجل البارز والافراط في اجلاله افراطاً لاحد له فهو من اكثر دعاة التأويل البطولي للتأريخ غلواً .

وكانت هذه المسألة – دور الفرد البارز -- تؤلف احدى المشكلات النظرية في التحليل والتأويل التأريخي في القرن التاسع عشر . اذ ان بعض المؤرخين يميلون الى اعتبار النشاط الذي يمارسه هؤلاء الرجال السبب الرئيسي بل الاوحد في مسرح الحركة التأريخية . بينما يجزم الاخرون بان ذلك المفهوم محدود المدى وان على علم التأريخ ان يراعي العوامل الاخرى او مجموع الحياة التأريخية .

ولم يكن كارليل هو الذي اوجد عبادة الابطال بل سبقه في ذلك هيغل . وكان الرجل العظيم في نظر هيغل ليس نتاج الاحوال المادية او الاجتماعية والبيولوجية بل هو في المقام الاول تعبير عن «روح العالم» في زمنه . او انه «روح» حضارية . وكانت عبادة الهيغلية للابطال باعتبارهم خدما للروح الكلي[٥٢] .

49. Carlyle, Selected Writings, p.23-25; Barnes, op. cit. p.189.
50. Carlyle, Past and Present, p.41, 60.
51. F.Stern, The Varieties of History from Valtaire to the present, p.92.
(٥٢) بليخانوف ، دور الفرد في التأريخ ، ترجمة احسان سركيس (دمشق ١٩٧٤) ص ٧٧ . بليخانوف ، تطور الواحدية الى التاريخ ، ترجمة محمد مستجد مصطفى (القاهرة ١٩٦٩) ص ٢٤٦

لقد استغل كارليل التأريخ لتوضيح فلسفته في عبادة الابطال فهو في كل كتاباته يؤكد دور البطل وعدم امكان الاستغناء عن الزعامة وان التأريخ في نظره انما هو تأريخ عظماء الرجال «هو تأريخ من ظهر في الدنيا من العظماء فهم الأئمة وهم المكيفون وهم الاسوة والقدوة وهم المبدعون لكل ماوفق اليه اهل الدنيا وكل ما بلغه العالم . وكل ماتراه قائماً في هذا الوجود كاملاً متقناً فأعلم انه نتيجة افكار اولئك العظماء» . وان عبادة البطل «موجودة برغم كل شيّ وفي كل آن وفي كل بقعة ولن تفنى حتى يفنى الانسان»[٥٣] . ويرد على الذين ينكرون دور البطل وعلى القائلين بان مايأتي به الابطال ، انما تقرره النواميس التأريخية في الفترة التي ظهر فيها وانه مستمد من احوال العصر الذي ظهر فيه البطل او ان العصر هو الذي احدث ذلك البطل بقوله «وا اسفاه لقد طالما صاحت الاوقات تنادي اين البطل ولا بطل ! اين العظيم ولا عظيم . تصرخ الاوقات يا للفتى فيذهب نداؤها صيحة في واد وتنفخه في رماد ، وما ذاك الا لان البطل والفتى لم يكن وقت النداء موجوداً ، ولم يكن الله قد ارسله رحمة للعالم»[٥٤] .

واذا استثنينا العامل الديني فأن كارليل اسقط كل العوامل الاخرى في مسرح الحركة التأريخية واكد دور الابطال فقط . وكان يعتقد جازماً بان هؤلاء الرجال هم «المتون الملهمة لذلك السفر المقدس الذي يدعوه بعضهم التأريخ . اما من عدا اولئك العظماء من غمار الناس والدهماء فهم لتلك المتون الملهمة حواش وتعليقات وماكنت لاجعل موضوع بحثي ودراستي الا المتون نفسها»[٥٥] لكنا نجد كارليل يناقض نفسه ويعود ليؤكد دور العوامل الاخرى في اشهر كتبه التأريخية وهو «تأريخ الثورة الفرنسية» حين نقرأ ماكتبه عن اسباب الثورة «ان الدافع الاول للثورة الفرنسية هو الجوع والعري والاضطهاد باسم العدل الجاثم على افئدة خمسة وعشرين مليوناً . هذا وحده هو الدافع وليس التفاهات المجروحة او الفلسفات المتناقضة للمحامين الفلاسفة واصحاب الحوانيت الاغنياء ونبيلات الريف . هذا مايحدث في كل الثورات المماثلة[٥٦]

اما من حيث المنهج واستخدام المصادر فان كارليل لم يكن يهتم كثيراً بالوثائق او المصادر الاولية . ولعل ذلك راجع الى عدم تيسر دراسة الارشيفات او امكان الاطلاع على الوثائق المتعلقة بالموضوعات التي تناولها وللصعوبات التي يواجهها في مثل تلك الدراسة . لقد وصف العمل الذي يقع على عاتق المؤرخ في البحث عن الوثائق ودراستها بانه

(٥٣) و (٥٤) كارليل ، الابطال ، ص ١ ، ٢ ، ١٥ ، ١٦
(٥٥) مارليل ، فلسفة الملابس ، ص ١٤٥
(٥٦) ادوارد كار ، ماهو التأريخ ، ترجمة احمد حمدي محمود (القاهرة-١٩٦٢) ص ٦٥

«عمل اشبه بعمل النمل الحفّار في الظلام تحت الارض»(٥٧) . ويؤخذ عليه ايضاً انه لم يكن دقيقاً في نقل الاحداث وتركيز اهتمامه في اختيار الالفاظ التي تشد القارئ مما يبعده عن الهدف الحقيقي كمؤرخ . وهكذا فقد جاءت بعض افكاره عن الرجال الذين تناولهم مشوشة ويناقض نفسه في بعض الاحيان . لقد هاجم في احدى مقالاته (Histories Of The Revolution) عدم دقة تيير مع ان دقته كما يذكر الاستاذ كوج (٥٨) لم تكن بعيدة عن اللوم .

ان كارليل لم يترك مدرسة تأريخية ، ولم تكن له فلسفة واضحة او منهج او رأي ثابت تجاه الاحداث . وكان تلميذه الوحيد الذي ابدى اهتماماً بالتأريخ هو جيمس انطوني فرود الذي دون تأريخ حياته ونشر له عدة كتب بناء على وصية منه .

٢ - آراؤه الدينية

ورث كارليل العقيدة الكالفنية من عائلته لكنه لم يلتزم بتعاليمها ولا بأية تعاليم دينية اخرى . ان اساس عقيدته تدور دائماً حول فكرتين الاولى هي ان الاديان تقوم بصورة عامة على اساس الخوف من عظمة الله ، والثانية هي خلود الروح . وكان يظهر احتفاظه بالدين لكنه ينبذ شرائعه ويكره المسيحية المتعصبة والكنيسة الكاثوليكية(٥٩) .

كان كثير الشك حول مصير الانسان وماهية الروح وقد نفض كفه كما فعل ابو العلاء المعري من قبل، من الوصول الى حقيقتها ويبدو ذلك واضحاً في كتاب «فلسفة الملابس» فنقرأ له مثلاً «ماذا كنت وماذا نكون نحن؟ ألسنا ارواحاً او اطيافاً سربلت هياكل الابدان فأبرزت للعيان . وماهي الا طرفة العين حتى تتلاشى كالهباء وتدرج في طي الخفاء؟ . . . اننا ننشأ من العدم ونظهر في صورة البدن» . او هذا القول الاكثر وضوحاً «كذلك سنة الله في خلقه من البداية الى النهاية ، جيلاً بعد جيل يكتسي رداء الجسم ويخرج الى عالم الشهادة من ضمير الغيب حاملاً رسالة الله بين يديه . . . وماهي الا كرّة الطرف حتى يدعى الرسول الى وطنه السماوي فيسقط عنه الرداء الدنيوي . . . كذلك نطلع معشر البشر من ظلام الغيوب فنعبر الارض مسرعين ثم نغطس مرة اخرى في ظلام الغيوب . ولكن ناشدتك الله من اين والى اين؟ المشاعر لا تدرك والقلب لايعرف انما ننقل من الغيب الى الغيب ومن الرب الى الرب ! !»(٦٠) .

ورغم هذا الشك الواضح فانه لم ينكر اهمية الدين للمجتمع بل اعتبر الديانة الصحيحة اساس وجود المجتمع واستمراره «لئن كانت الحكومة للمجتمع بمثابة جلده الظاهر فأن الديانة هي بمثابة النسيج العصبي الدخيل والجهاز الدموي الباطن يبعث الحياة في جميع الاعضاء ويبعث الدم جارياً في كل الاجزاء»(٦١) .

لقد كان رأي كارليل في الدين عملياً ، يشبه الى حد كبير رأي أبي العلاء المعري . فهو يفضل العمل الصالح والاعتقاد الصحيح على العبادات الشكلية ، ويعجب من البشر ان يكونوا مؤمنين مثل هذا الايمان الفلسفي ويتساهل في امر اعتناق دين بعينه «ان اهم ما في الرجل دينه ، . . . ولست اذهب بلفظة الدين الى النحلة التي يتخذها الفرد والمذهب الذي ينتسب اليه . ولكن ذلك الشئ الذي يعتقده حق الاعتقاد ويوقن به كل اليقين فيما يتعلق بالروابط الجوهرية التي تربطه بهذا الكون وفيما يتعلق بواجبه في هذا الدار ووظيفته ذلك هو دينه»(٦٢) .

وهكذا فأننا لانجد في كل ما كتبه كارليل انه قد تعصب لدين معين او ينكر ديناً معيناً بل انه هاجم حتى من يقول «ان الوثنية باطل وغش» ودعا الى دفع «هذا الحكم الجائر» - كما وصفه - عن الادميين وعن اعمالهم وتأريخهم . «واني لادفعه الان عن الوثنية وعن كل ديانة حاول ان يسير بها الانسان دهراً ما في هذه الحياة فلم يك دين قط الا وفيه عنصر من الحق . . . بل لأرى الحق حتى في وثنية اهل التبت»(٦٣) .

لقد اظهر كارليل اعجابه بالاسلام وهاجم من يطعن فيه من الاوربيين هجوماً شديداً «لقد اصبح من اكبر العار على اي فرد متحدين من ابناء هذا العصر ان يصغي الى مايظن من ان دين الاسلام كذب وان محمداً خداع مزور . آن لنا ان نحارب مايشاع من مثل هذه الاقوال السخيفة المخجلة ، فان الرسالة التي اداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس امثالنا . . . فوا اسفاه ما اسوأ هذا الزعم . انه نتائج جيل كفر وعصر جحود والحاد» وان ما اودع الدين الاسلامي من قواعد كان برأيه هي الشئ الوحيد الذي للانسان ان يؤمن بها(٦٤) .

وكان ايمان كارليل ايضاً وراء الحملة التي شنها ضد المادية والفلسفة النفعية لانها تنكر وجود الله وتزعم ان الكون ماهو الا مادة جامدة تتحرك بدوافع غريزية فيه(٦٥) .

(٥٧) ايمري نف ، المؤرخون ، ص ١٥٨

59. The New Encyclopadia, p.303.

(٦٠) فلسفة الملابس ، ص ٢١٦-٢١٨

(٦١) المصدر نفسه ص ١٧٧-١٧٨

(٦٢) كارليل ، الابطال ، ص ٢-٣

(٦٣-٦٤) المصدر نفسه ، ص ٥ ، ٥٤ ، ٨٣

(٦٥-٦٦) المصدر نفسه ، ص ١٥٨ ، ١٧٢ ، ٢٢٩

اما البروتستانتية فكانت – رغم ما احدثت من ديمقراطية موضوعية كما يقول – منشأ ملوكية حرة صادقة منشأ نظام وكنى ثورة ضد اشرار الملوك واكاذيبهم والخطوة الاولى لاقامة احرار الملوك. ووصف حضور لوثر مؤتمر ورمز الذي عقده البابا سنة ١٥٢١ بانه اجل مشهد في تأريخ اوربا والمنبع الذي فاض منه تأريخ المدينة الحديثة. بل ان تلك الساعة كانت اخطر ساعة في التأريخ الحديث وعليها قامت دعائم الدستور الانكليزي وبرلماناته والحرية الامريكية واستقلالها والثورة الفرنسية ونتائجها في انحاء الارض(٦٦).

٣ – اراؤه السياسية :–

اذا كان كارليل قد ادرك سعة الدور الذي يلعبه العامل الديني في الصراع، فأن تفسيره للسياسة كان بعيداً عن الاقناع. لقد فشل في تقدير قوة المطالبة بالاستقلال السياسي كما انه لم يهتم كثيراً بالمؤسسات النيابية(٦٧) وعلى العموم فأن افكاره السياسية غير واضحة اذ انه لم يكن يلتزم بسياسة حزب من الاحزاب ويرى المؤرخ ترفليان(٦٨) انه لم يكن يعرف كثيراً عن سياسات الاحزاب المعاصرة، ولم يبد اهتماماً بهذه السياسات. لكنه كان يمتلك رؤيا واضحة اكثر من غيره في سيكولوجية الطبقة الدنيا من المجتمع.

ويبدو التناقض واضحاً على مواقفه الساسية ويبدو من بعض ما كتبه انه كان يميل الى فلسفة الراديكاليين بل انه اقام علاقات وطيدة مع قادتهم من امثال جون سترلنك. وجون ستيوارت مل. وفي الوقت نفسه اعلن نفسه نصيراً للحق المطلق. وقد تغلب ميله للحق المطلق على راديكاليته بعد ان اجتاز مرحلة الشباب. وعارض بقوة الراديكاليين من حزب الويك (الاحرار فيما بعد) واعلن ان الطرق التي اتبعها هذا الحزب فيما يتعلق بالعمال كانت بسيطة وهاجم اللائحة الانتخابية لسنة ١٨٦٧(٦٩) التي اعطت عمال النقابات حق الانتخاب.

اما فلسفته في الحكم فقد كانت اكثر وضوحاً، اذ تميز بكراهيته الشديدة للبرلمان وللنظام الديمقراطي بصورة عامة. ورغم تعاطفه مع حركة المطالبة بالاصلاح لكنه اعتبر لائحة الاصلاح لسنة ١٨٣٢ فاشلة وان البرلمان كان سبباً من اسباب ضعف الحكومة وليس قوة لها، عائقاً لها عن العمل وليس اداة لها. وبلغ من ازدرائه للحياة البرلمانية ان اخبر احد اصدقائه بصورة جادة «انه يرغب في غلق باب البرلمان ويلقي اعضاءه الى الخارج»(٧٠). وكان التبرير الذي قدمه لهذه الكراهية الشديدة للديمقراطية «انها تستبدل الملوك باوعية اوراق الانتخابات واصوات الانتخاب وتقضي على طاعة الانسان للانسان في الدنيويات والدينيات» ولان المثل الاعلى للديمقراطية برأيه هو «الغاء التنظيمات القديمة للاشياء وتترك فراغاً في التشريعات والانظمة الجديدة، في العلاقات بين المتعلمين واساتذتهم، الرعايا المخلصين وملكهم القائد. هذه العلاقات تحت شكل واحد او آخر هي العنصر الحيوي للمجتمع البشري، شيئ لابد منه وبدونه مثل الجسم الذي يفقد الروح فأنه يموت»(٧١).

ان معارضة كارليل للديمقراطية لم تكن محصورة داخل بريطانيا حسب بل وفي امريكا واوربا. فهاجم موقف «الانسانيين الاحرار» من مشكلة سكان جزر الهند الغربية (الزنوج) الذين وصفهم «بالمجرمين» لانهم ثاروا مطالبين بالاستقلال. وزعم ان العواطف الانسانية هي التي دمرت هذه الجزر وجعلت سكانها «يتمرغون في البربرية»(٧٢).

وهاجم الثورة الفرنسية ايضاً وصور الشعب الفرنسي كوحش تسوقه التعاسة والظلم وانه مجبول – على حد قوله – منذ البداية على الفوضى والاضطراب وكانت الثورة في نظره مجرد تخريب، انها مصاب كبير من الفتن والمحن جلبت شر الفضائح واشنع البلاء «انها حق ولكنه حق ملتفع في شواظ الجحيم ولظى جهنم» ويرى ان هذه الثورة «هدمت جميع التقاليد والانظمة والعقائد والملل والنحل» وهاجم الامة الفرنسية ومفكريها بخاصة فولتير الذي وصف حياته بانها «نقيض حياة المسيح وكان شيطاناً مريداً»(٧٣).

لقد وضح كره كارليل للديمقراطية وايمانه بالحكم المطلق في تصوره «للدكتاتور الصالح». كان يعتمد ان الرجل العظيم المطلق هو وحده القادر على انقاذ العالم. وان المجتمع يمكن ان يحكم بامان في حالة واحدة هي اعطاء الحكومة الى حكيم من هؤلاء الذين دعاهم «العيون المبصرة» وان النظام يمكن ان يسود عندما يحكم العامل ويخضع الجاهل(٧٤). ان خلاصة اعمال المجتمع للانساني كما يقول هو «الاهتداء الى اعقل رجال بلدك وافضلهم واحزمهم ثم تقليده الحكومة والسلطة واعطاؤه الخضوع والطاعة حتى يستطيع بذلك ان يهدي الناس حسبما يلهمه عقله... وانما الى ذلك قصدت البرلمانات وخطبها ولوائح الاصلاح والقرارات. اهتد الى اعقل رجال بلدك واكفئهم وارفعه الى المكان الاعلى وبجلّه واكبره تحرز لبلدك خير حكومة»(٧٥).

---

67. Gooch, op. cit. p.306.
68. G.M.trevelyan, British History in The Nineteenth Century and After 1782-1919.
69. Smith, op. cit. p.1027, Thompson, op. cit. p.305.
70. Carlyle, Past and Present, p.9-10.

71. Carlyle, Selected Writings, p.20. (٧١) الابطال، ص ١٥٧
72. Grierson, Carlyle and Hitler, p.11, 18.
(٧٣) الابطال ص ١٨، ٥٥، ٢٧٣، ٢٧٦
74. Grierson, op. cit. p.27; Thompson, op. cit. p.300.
(٧٥) كارليل، الابطال ص ٢٦٦-٢٦٧

ان الحرية الحقيقية في نظره هي ان يجد الرجل او يجبر على ايجاد الطريق الصحيح ليسير عليه . «هي ان يتمكن رجل حكيم نطوق نحاسي او بأية طريقة اخرى ان يمسكه عندما يخطئ وتلزمه بالعمل الصحيح»(٧٦) . وبناء على ذلك فأن مبدأ الحرية والمساواة التي بشرت بها الثورة الفرنسية لاتعني في نظره سوى «الاستغناء عن القادة الابطال والاستعاضة عنهم بالجماهير العديدة المتساوية في ضئولة القدر وخسة القيمة»(٧٧) . فوقف ضدها وعارضها اشد معارضة .

ولابد من القول بان رفض كارليل للديمقراطية والحرية كان قد استهوى الاراء الفاشستية في اوربا في عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن في كل من المانيا وايطاليا ، بل انهم اعتبروا كارليل (نبياً) بشر بمبادئهم . حتى ان هتلر نفسه كان يحمل معه كتاب كارليل «فردريك الكبير» . ويبدو ان اعجاب هتلر بمادة الكتاب كان اكثر من اعجابه بالمؤلف(٧٨) .

٤ – اراؤه الاجتماعية :–

ان حياة الفقر التي عاناها كارليل جعلته يأتلف حياة الفقراء والصناع الاجراء ويتعاطف معها في بداية الثورة الصناعية . وكان موضوع الصناعة والفقر موضوع كتبه المهمة بخاصة كتاب «الماضي والحاضر» و «الجارتية» و «كراسات الوقت الحاضر» و «عصر الماكنة» وغيرها . وطلب البرلمان بالتدخل ومعالجة الحالة السيئة التي يعاني منها العمال(٧٩) .

وقدم لنا وصفاً دقيقاً للمجتمع الانكليزي في بداية الثورة الصناعية ومحاولات العمال التخلص من التسلط والاستغلال «فقراء كالأنعام المهملة يهلكون جوعاً وهزالاً وتعباً ، واغنياء اسوأ حالاً واشد بؤساً يهلكون كسلاً وكظة وبشماً»(٨٠) . وشبه الطبقة العليا (النبلاء) والتي ليس لها واجبات تقوم بها بالشجرة المزروعة على هوة حيث تكون جميع التربة مفتتة عند الجذور ، ويتساءل «هل يوجد رجل يتظاهر بالعيش مترفاً في بيته محجوباً عن اي عمل وجميع اشغاله تقضي من قبل الآخرين ؟ هل يمكن ان يسمى هذا الرجل نبيلاً»(٨١) . ووصف في «فلسفة الملابس» مسكن الفقير (الاجير) ومسكن النبيل (المتلق) وقسم المجتمع الى طبقتين : الاجراء والمتأنقين . ولاحظ ان طبقة الاجراء آخذة في الازدياد عدداً وقوة لكنها متفرقة احزاباً . وان طبقة المتأنقين كانت قوية متحدة تعتمد على مواردها الوراثية العظيمة ، وشبه الفريقين بآلتين كهربائيتين مشتملتين على بطاريات متضادة احداها ذات بطاريات سالبة وهي طبقة الفقراء تجذب اليها كل مافي الامة من كهربائية سلبية (الجوع) والثانية وهي طبقة المتأنقين ذات بطاريات موجبة تجذب اليها كل مافي الامة من كهربائية ايجابية (المال) كل منها مشحون بمفرده في بطاريته الخاصة ، ويكفي ان يحرك طفل اصبعه حتى تقع الواقعة(٨٢) .

لم يستمر كارليل في تعاطفه مع اصحاب الاعمال الشاقة فبعد بلوغه سن الاربعين وبعد ان اجهده الفشل المتكرر وذاق كرب الفقر والمرض اخذ يتحول عن موقفه حتى اصبحت بينه وبين الفقراء هوة سحيقة خاصة بعد ان اخذت المبادئ المادية والنفعية تتفشى بينهم وتعمل على انحلال المجتمع الانكليزي وتفكك اوصاله وتدمر انظمته وتهدم مؤسساته . وقد القى اللوم في ذلك على عاتق الاحرار والاقتصاديين والنفعيين «اني لانظر الى طوائف الاحرار والاقتصاديين والنفعيين يحملون نعش المجتمع ميممين كومة الحطب حيث يوقد على الجثة الموقرة . . ألا ترى الى جمهور العمال والصناع تلك الطوائف المنتشرة في كل مكان كيف تتفشى بينهم هذه المبادئ المادية والمذاهب النفعية كانها نوع من الكلب ذريع لايزال تنتشر عدواه وتعم بلواه»(٨٣) .

هاجم الفلسفة المادية بعنف وهاجم مازعمه الماديون من ان الكون ماهو الا آلة جامدة «لست ارى سقطة اشنع من ان يتجرد رأي الانسان في هذه الخليقة من كل معنى آلهي . فالمادية تحمل اهلها على عبادة شيطان حديدي ميت ! عجبا لها اذا جردت الكون من الهة تباً لها لقد جردت الوجود الرائع من كل ايات الشرف والجلال والروعة والقدس . . . وبالاختصار هي الكفره»(٨٤) ويضيف قائلاً «لعل اقرب مافي الانسان من وجوه الشبه – الى اليوم تلك الفكرة التي تمتلكه اليوم ، فكرة المادية وارجاع كل شئ الى اصلين او باعثين من الم ولذة»(٨٥) .

وفي كل كتاباته يبدي كارليل اهتماماً بالافراد اكثر من اهتمامه بالمجامع بل انه لم يكن يسلم بوجود حياة اجتماعية او اهداف جماعية . ان اساس فلسفته الاجتماعية تقوم على فكرة ان الرجال لايمكن ان ينظموا انفسهم وانهم بحاجة دائمة الى الرجال الاقوياء لقيادتهم . ان اساس المجتمع في نظره هو عبادة الابطال ، وانه لايمكن الاستغناء عن الزعامة في كل حياة اجتماعية وفي كل شكل من اشكال التنظيم الاجتماعي .

وهاجم المفكر الفرنسي روسو وكتابه «العقد الاجتماعي» ووصف كتاباته بانها «مريضة كعقله» يغلب عليها «الحيوانية والمادية» وان آراءه

(٧٧) كارليل ، الابطال ، ص ٢٧٧

76. Carlyle, Past and Present, p.218-219.
78. Carlyle, Selected Writings, p.22: Grierson, op. cit. p.11-18.
79. Trevelyan, Carlyle, p.161-162.

(٨٠) فلسفة الملابس ، ص ١٩٠

81. Carlyle, Past and Present, p.185.

(٨٢) فلسفة الملابس ، ص ٢٣٠-٢٣٣

(٨٣) فلسفة الملابس ص ١٩١

(٨٤) كارليل ، الابطال ، ص ٢٣٠-٢٣١

(٨٥) فلسفة الملابس ص ١٨٢

شبيه بالجنون «لتفضيله عيش المتوحشين على عيش المتمدنين»[٨٦] .

وختاماً لابد من القول انه رغم ايمان كارليل الشديد بدور الافراد وعدم تسليمه بحياة اجتماعية لكنه اظهر في كتاب الثورة الفرنسية مايدل على خروجه عن ذلك وان المجتمع كان لايغيب عن باله في بعض الاحداث التي اعطاها طابعاً شعبياً والاهتمام بحياة العامة من باعة وكسبة وهو يرى ان وسط اكبر الحوادث واعنفها تسير حياة معظم الناس سيرها الرتيب «اعدم لويس السادس عشر بالمقصلة ، لقد تم ذلك في مدى نصف ساعة او نحو ذلك وتفرقت الجموع ، اما باعة الحلوى والقهوة والالبان فانهم ظلوا يطلقون نداءاتهم اليومية التافهة كما لو كان هذا اليوم يوماً عادياً» .[٨٧] وفي ذروة الارهاب ازدهرت في باريس على مايذكر ثلاث وعشرون داراً للتمثيل ومايقرب من ستين قاعة للرقص[٨٨] .

---

(٨٦) كارليل ، الابطال ، ص ٢٤٩-٢٥١

87. Carlyle, F.R. Vol.11, p.66.

(٨٨) ايجري نف ، المؤرخون ص ١٥٨

التنظيمات المالية في البصرة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر

علي شاكر علي
كلية الاداب/قسم التاريخ
جامعة الموصل

المقدمة

يتناول هذا البحث التنظيمات المالية في ايالة (ولاية) البصرة خلال القرن الاول من الحكم العثماني في العراق ، وهو من وجهة نظرنا لوحة جديدة ضرورية لاستكمال ابعاد الصورة التي حاولنا رسمها في بحث سابق تناول التنظيمات الادارية العثمانية في هذه المنطقة وتوكيدا للمبررات التي تتعلق باهمية دراسة هذه الحقبة من تاريخ العراق الحديث فان التنظيمات المالية تعبر من الناحية الواقعية عن نفوذ الادارة وقدرتها على تجسيد واقع الدولة العثمانية في الاقاليم التابعة لها . اما من الناحية التاريخية وقدر تعلق الامر بمنطقة البصرة ، فأن تطبيق النظم المالية بعد المرحلة التالية للتواجد السياسي العثماني فيها .

١ . اسس التنظيمات المالية العثمانية :—

استقر التنظيم الاداري والعثماني في ايالة البصرة ، خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وظهرت منذ ذلك الحين ضرورة ربط الايالة ، شأنها في ذلك شأن الايالات البعيدة بهيكل التنظيم المالي العثماني ، الذي كان يعتمد اعتمادا رئيسا على الادارة المحلية الذاتية في مجالي الايرادات والنفقات ، مع الاحتفاظ بالارتباط الرمزي او الشكلي بمركز الدولة العثمانية ، الذي يتجسد بارسال كمية مناسبة من الاموال الى استانبول سنويا وبشكل دائم .

وعموما فقد كانت الدولة العثمانية تعتمد خلال القرن السادس عشر على ايرادات الاقطاعات ، ويذكر المؤرخ التركي عمر لطفي بركان ، ان ٣٨٫٠٠٠ من اقطاعي البلاد « اصحاب الخاص والزعامة والتيمار » كانوا خلال تلك الحقبة التأريخية يؤدون للدولة العثمانية مهمة جمع نصف ايرادات الامبراطورية جميعا[1] . ولما لم تكن مهمة الاقطاعيين تقتصر على استيفاء ايرادات الاراضي ، وانما تعدت ذلك الى الرسوم والضرائب الاخرى ، وهي الرسوم المفروضة على الصناعات والتجارة والحيوانات والجمارك ، يتجلى حينئذ الدور الذي لعبه هؤلاء في بناء مالية الدولة العثمانية . ومن ناحية اخرى يظهر لنا ان الدولة العثمانية نجحت في انشاء جهاز مالي يضم عشرات الالاف من الجباة بصورة الية .

ومع افتراض عناصر القوة في الدولة العثمانية ، فأن هذا الجهاز الكبير

(1) Omer lutfi' Barkan' Research in the Ottoman Fiscal Surveys in Studies in the Economic of the Middle East. Edited. M. A. Cook. London 1970.

كان ايضا يعمل بطريقة الرقابة الذاتية ، بدليل ان الدولة العثمانية لم تعان من ازمات مالية خلال القرون الاولى التي صاحبت ازدهار النظام الاقطاعي العثماني غيران التطورات اللاحقة التي رافقت توسع الدولة العثمانية ، وبقدر ما ترتب عليه من عوامل ضعف تدريجي ، انعكست دون شك على شؤون الادارة وعلى الاوضاع الاقتصادية والمالية حيث مالت الدولة منذ ذلك الحين الى استخدام اساليب جديدة تضمن لها ايرادات مناسبة من الاموال تستطيع ان تغطي بها التزاماتها المالية تجاه حملاتها العسكرية المستمرة واعباء مئات الالاف من قوات الانكشارية .

ان عدم استطاعة الاقطاعيين تلبية حاجات الدولة في الميدان العسكري بسبب انتشارهم اولا والصعوبات الناجمة عن اعدادهم وتجهيزهم وتسييرهم نحو جبهات القتال ثانياً ، جعل الدولة تميل الى الاستغناء تدريجيا عن خدماتهم والتركيز على الجيش الانكشاري وقد دفع ذلك الدولة العثمانية للتفكير بالتخلص من التزاماتها السابقة التي منحتها للاقطاعيين وخاصة مهمة قيامهم بجمع ايرادات الدولة . فما دامت الادارة في الاقاليم ضعيفة فأن الاموال المجباة ستكون قليلة واسباب التحايل والتهرب من الدفع قائمة ومن هنا ظهرت الحاجة الى نظام الالتزام الذى حل تدريجيا محل النظام الاقطاعي(٢) . وتبدو هذه الصورة اكثر وضوحا في الولايات البعيدة عن مركز الدولة العثمانية التي تميزت اضافة لبعدها ، ببيئتها الاجتماعية الخاصة . وحيث ان الدولة ادركت في وقت مبكر ان ظروف هذه الاقاليم لا تسمح بتقسيمها على اساس اقطاعي ، فانها لن تجد من يتولى جباية الايرادات بالصورة والكيفية القائمة في انحاء الاناضول . ومن هنا خرجت فكرة السليانة التي ارتبطت بشخص الوالي مع منحه حرية التصرف لاتباع الاسلوب الذي يضمن جباية الايرادات من اجل ارسال السليانة والانفاق على متطلبات الادارة في الايالة(٣) . ان السليانة وفقا لهذا الاعتبار تقترب من اسلوب الالتزام الذى اعتمدته الدولة العثمانية في وقت لاحق .

ومهما يكن من امر فان فلسفة العثمانيين المالية اعتمدت على الاسس الشرعية التي تقررها الشريعة الاسلامية ، التي تعد من الناحيتين العلمية والتاريخية امتدادا للنظم التي كانت مطبقة في الدول الاسلامية فما دام السلطان هو حامي الشريعة ، لاجل ذلك اقرت الدولة الضرائب الشرعية والتي تعتبر كافة القائمين عليها متمسكين نظريا باهداب الدين .

(٢) للوقوف على تفاصيل ذلك انظر :-
هاملتون جب- هارولد بوون- المجتمع الاسلامي والغرب ترجمة د. احميد عبد الرحيم مصطفى . دار المعارف - مصر . ١٩٧١ ج٢ ص ٨٠ - ٨٢ .

(٣) هاملتون جب - هارولد بوون - المجتمع الاسلامي والغرب ج ١ - ص ٢٠٩ .

ومن هذا المنطلق ايضا كانت صيغة التمييز النسبية التي اختص بها الرعايا المسلمون على الرعايا غير المسلمين ، فأقر العثمانيون تكاليف ضريبية اضافية على الرعايا غير المسلمين بالنظر لاعفائهم من الواجبات العسكرية التي كان يؤديها المسلمون . وجدير بالذكر ان التنظيمات المالية العثمانية ظلت تتطور تبعا للظروف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية ولم يتأت لهذه التنظيمات ان ترسى على اسس ثابتة الا في عهد السلطان سليمان (١٥٢٠ - ١٥٦٦) حين وضع قوانينه المعروفة باسم «قانونامة سليمان» التي عرف لاجلها باسم سليمان القانوني ، وقد استندت اليها كافة قوانين الولايات التابعة للدولة العثمانية(٤) .

٢ - تطبيق التنظيمات المالية في ايالة البصرة :-

كان الغزو العثماني للبصرة وتعزيز النفوذ العثماني عليها بعد حملة اياس باشا سنة ١٥٤٦م(٥) ايذانا بالغاء الضرائب والرسوم وكافة التنظيمات المالية التي كانت الدولة الصفوية قد فرضتها في (ولاية البصرة سابقا) . وقد اشارت بعض المصادر الى الضرائب والرسوم الملغاة ومنها ضريبة الامر وضريبة رسوم البيوت ،(٦) وكانت الاولى يجمعها الحكام الصفويون باسم الشاه الصفوي لتغطية جهود الصفويين في نشر افكارهم والثانية من الضرائب التي عرفت في العهد الايلخاني المغولي ، وقد فرضت على اصحاب البيوت والمباني والعقارات بصورة عامة(٧) ، خلافا للشرع الاسلامي . غير ان الصفويين استمروا على استيفائها ، وكانت اوامر السلطان سليمان القانوني صريحة باقرار الضرائب الشرعية فقط . والتي تشمل الاعشار والنسب المتعارف عليها من الضرائب والرسوم على التجارة والصناعة والمحاصيل الزراعية(٨) . كما سنفصل

(٤) انظر دراسة عامة عن قانونامة سليمان والتشريعات الصادرة على ضوئه والخاصة بالولايات العربية :
Omer L. Barkan'Xvi ve Xvi Inci Asirtarda Osmanal Imparatorluqunda Zirai Eknonminini Hukuki ve Mali Esaslari.
ol — i. Kanunlar Istanbul. 1945—5—174.
وانظر ما تذكره ليلى الصباغ حول تطبيق القانون المذكور في سورية . المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني . دمشق . ١٩٧٣ ص ٣٠-٣٩ .

(٥) صالح (اوزبران) . الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ - ١٥٨١ ترجمة د. عبد الجبار ناجي . مطبعة الارشاد بغداد ، ١٩٧٩ . ص ٣٢ .

(٦) ابن الغملاس ، ولاة البصرة ومتسلموها . مطبعة دار البصري بغداد ١٩٦٢ ، ص ٥٦ الشيخ محمد بن خليفة بن حمد بن موسى ، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية (البصرة) من منشورات مركز دراسات الخليج العربي سلسلة ٣٧ البصرة - (لا . ت) ص ٢٦٦

(7) Cagatutay Osmanli imparator Luqun arazi ve erqi. Istanbul. 1950. P. 498

(٨) الغت الدولة العثمانية جميع الضرائب والرسوم التي فرضت في عهد الصفويين واعتبرتها من البدع التي حدثت في عهد قزلباش (الصفويين) انظر : اقدم وثيقة عثمانية مؤرخة في ١٤ شباط ١٥٣٧ / ٤ رمضان ٩٤٣هـ تعريب وتعليق ومحشية عطا ترزى باشي . مجلة المورد ، المجلد الثامن العدد الرابع ، سنة ١٩٧٠ ص ٥٢٢- ٥٢٣ .

ذلك في الصفحات التالية من البحث .

اشرنا سابقا الى ان الدولة العثمانية اعتبرت البصرة من ايالات الساليانة التي ترتبط بشخص الوالي ، ولاجل ذلك فهي تعرف احيانا باسم «مقطوعة مربوط» كما تعرف في احيان اخرى باسم «ميريلي» اى انها تابعة للخزانة الاميرية «خزانة الدولة» والتنظيم المتبع في ايالة السليانة هو ان يقوم الوالي بجمع ايرادات الايالة المقررة شرعا ومن ثم يستقطع مصاريف الوالي والسنجق بكية وبقية المرافق الادارية في الايالة واخيرا يرسل الفضلة الى الخزانة المركزية في استانبول تحت اسم «ارسالية» أو «سليانة»(٩) .

وعلى الرغم من ان الصورة المشار لها تفترض موعدا متأخرا نسبياً لارسال الارسالية ، الا انه ليس من الواضح تماما ، ان كانت هذه الصيغة مطبقة بشكل دقيق حينذاك ، ويعود السبب في ذلك الى ان الولاة العثمانيين ، ومن اجل اظهار كفاءتهم فيبادرون لارسال الارسالية في وقت مبكر معتمدين في جمعها على امكانياتهم العسكرية ونفوذ السنجق بيكات وخاصة شيوخ العشائر . وثمة حقيقة ينبغي ان لا تغيب عن الأذهان ، هي ان عدم استقرار التقويم العثماني(١٠) كان يتيح للولاة جمع الايرادات لاكثر من مرة في السنة ، دون ان يعني ذلك بالضرورة ارسال اكثر من ارسالية خلال سمة تقويمية واحدة .

والمصادر المتوفرة لا تسعف في بيان مقدار الارسالية التي كان ولاة البصرة يرسلونها الى استانبول غير انه بالامكان تقديم صورة عن حجم ايرادات ايالة البصرة استنادا الى المعلومات والوثائق المتعلقة بالتقسيمات الادارية ذات المسحة الاقطاعية ، والتي تظهر سناجق الايالة الثمانية عشر اقطاعات من درجة «خاص» ايراد كل منها السنوى ٢٠٠ الف اقجة في عام ١٥٧٢م(١١) وبذلك فأن مجموع ايرادات الايالة استنادا الى هذه التقديرات هي ٣٫٦٠٠٫٠٠٠ أقجة .

وكما اكدنا سابقا فأن هذه التقديرات لم تكن مبنية على اساس واقعي . وانما على اساس افتراضات اقطاعية ، تتعلق بالقيمة المقررة للاقطاع الخاص المتعارف عليها في استانبول وهذا يعني انه ليس من الضرورة دائما ان يكون بوسع السنجق بك تحصيل هذا الايراد في سنجقه ، بدليل ان والي البصرة علي باشا اضطر الى بيع «الولاية» سنة ١٥٩٦ م بمبلغ زهيد قدره ثمانية اكياس رومية الى كاتب الجند افراسياب الديرى(١٢) ، والمبلغ يقابل ٤٠٠٠ قرش اى ١٦٠٫٠٠٠ اقجة(١٣) .

ان هذه الصفقة التي تمت بين علي باشا وافراسياب ربما يكون لها دلالتها على مقدار الارسالية المطلوبة ، فعلي باشا الذي كان يريد ان يتخلص من اعباء المسؤولية في ايالة البصرة ، كان عليه ان يضمن تسليم خزانة الدولة في استانبول الارسالية المترتبة في ذمته للسنة المذكورة «ومع ذلك فأنه لم ينج من عقاب ولاة الامر هناك» الذين انكروا عليه هذا التصرف غير القانوني فتم شنقه(١٤) .

ومهما يكن من امر فأن ولاة البصرة يساعدهم السنجق بكات والبكوات وشيوخ العشائر كانوا يتولون جمع ايرادات ايالة البصرة كل حسب منطقته ، ودون أن تكون هناك قواعد واسس ثابتة في عملية التحصيل اذ يتشابك في هذه العملية الاسلوب الاقطاعي باسلوب الضمان في المناطق الزراعية واسلوب الالتزام بالنسبة لايرادات المرافق الاقتصادية الاخرى كالتجارة والصناعة . ولعل من الاسباب التي ساعدت على هذا الاشتباك هو اعتبار اراضي البصرة عشرية مملوكة لاصحابها(١٥) الامر الذي اصبح فيه من المتعذر تسديد جميع مخصصات البكلر بكية او السنجق بكية من ايرادات الاراضي فقط واضطر الى اعتبار الضرائب والرسوم بمثابة «خاص» يُعين في تسديد المخصصات المقررة(١٦) وقد اشارت وثيقة عثمانية يرجع تاريخها الى ١٥٥٢م الى أن « خاص » سنجق زكية يشتمل على رسوم «البويخانة» اي المصبغة و «القصابخانة» المجزرة و «جرم جنايت» اى الغرامات التي تفرض على المخالفين للاداب العامة ، علاوة على الاعشار والضرائب الاخرى المتعلقة بالزراعة . وفي (سنجق اخر) وهو سنجق القطيف ، تعيد الوثيقة

(٩) جب وبون ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٩ .

(١٠) عن عدم استقرار التقويم العثماني واعتماده على التقويمين الشمسي والقمرى انظر :
Halil Sahilli Oqlu . Sivis year Orises in the Ottoman . Empire , PP . 231— 241 . in . Studies in the Economic History of the Middle east .

(١١) انظر رؤوس دفترى ١ رقم ٢٥٥ .
المؤرخة في ٢٧ ذى القعدة ١٩٨٠/ ٣٠ نيسان ١٥٧٢ المنشورة في ملحق كتاب ، صالح اوزبران . المصدر السابق ص ٨١-٨٢ . وقد اظهرت بعض الوثائق التي تعود الى فترة سابقة اختلافات نسبية في ايرادات سناجق الايالة انظر:
Basvekalet— Arsiv Dariresi . Tapu Defteri Ozel Sayi : 534 .

(١٢) محمد هليل الجابرى ، امارة المشعشعين . اطروحة ماجستير (غيرمنشورة) ، كلية الأداب ، جامعة بغداد ، ١٩٧٣ ، ص ١١٦ .

(١٣) القرش ، جاء في وثيقة عثمانية مؤرخة في ١٥/٨١ موجهة من السلطان الى قاضي استانبول يأمره الا تكون قيمة القرش اكثر من ٤٠ أقجة ، ولما كان الكيس الواحد يساوي ٥٠٠ قرش فقد تم حساب المبلغ وفقا لهذه التقديرات . انظر : يعقوب سركيس ، مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد جمع وتنصيص . معن حمدان علي ، بغداد ١٩٨١ ، القسم الثالث ص ٦٣ .

(١٤) س . هـ . لونكريك ، إربعة قرون من تاريخ العراق الحديث . ترجمة جعفر خياط ، الطبعة الخامسة ، بغداد (لا ، ت) ص ١٢٧ .

(١٥) اوليا جلبي محمد ظلي بن درويش . اوليا جلبي سياحتنامة س . ايلك طبعي اقدام مطبعة س . استانبول ١٣١٤- ج ١ ص ١٨٦ .

(16). Basvekalet— Arsiv Dairesi Tapu Defteri Ozel Sayi — 282 .

ذكر الضرائب والرسوم نفسها بالاضافة الى رسم اخر هو رسم العروس وذلك « كخاص » السنجق المذكور[17] . وثمة معلومات اخرى حول ايرادات خاص سنجق ابو الخصيب الذى يتردد فيها ذكر ايرادات الاراضي الزراعية من نهر عيسى ونهر ناصر ونهر ابو الغرابية ونهر درلع ورسوم الجاموس والعروس «وجرم جنايت» والمصبغة والمجزرة والرعي[18] .

ولا شك ان الضرائب والرسوم كانت تشكل العمود الفقرى لايرادات الايالة ويمكن تصنيفها حسب المرافق التي كانت تجنى منها وهي كما يلي :

اولا : اعشار الاراضي ، ومقدارها العشر فأن الاراضي المزروعة في ايالة البصرة كانت محدودة نسبيا ، ويتولى امر زراعتها رجال العشائر شبه الرحالة[19] . ويعتبر التمر المحصول الرئيس في المنطقة بالاضافة الى الفواكه والخضراوات والحبوب[20]

والحقيقة ان كون اراضي البصرة اراضي عشرية من ناحية وعدم تطبيق النظام الاقطاعي العسكري من ناحية ثانية ادى الى اعفاء الايالة من ضريبتين مهمتين كانت الدولة العثمانية تحصل عليها من الفلاح في اراضي الميرى «التابعة للدولة» التي تكون معظم اراضي الدولة العثمانية تقريبا وهما : ضريبة «جفت اقجة سي» اى حق زراعة الأراضي الاميرية والتصرف فيها وكذلك ضريبة «جفت بوزان» اى مخرب الحقل والتي يجبر الفلاح على دفعها عند تركه الأرض بدون زراعة بعد ان عهد اليه التصرف فيها[21] .

٣ – الضرائب المفروضة على التجارتين الخارجية والداخلية :– (التمغا) . ان مركز البصرة التجارى ادى الى زيادة اهمية الضرائب والايرادات التي تحصل عليها الدولة العثمانية وبالنظر لتلك الاهمية فقد اشارت سجلات الدولة العثمانية الى معلومات تفصيلية حول الرسوم والضرائب المفروضة في اللوحة رقم ٩٦ من الدفتر ٢٣٤ (٢٢) حددت الرسوم المفروضة على البضائع والسلع الواردة بطريق البحر مثل التمر الهندي واحد الى خمسة عشر ، وينطبق الامر على الاقمشة وبضائع اخرى مثل القرنفل والدراسيني والصندل وعود البخور كما فرض ضريبة مقدارها ٦٪ على الصوف المستورد من حلب ، اما الصوف المستورد من القطيف والبحرين وعمان فقد فرض عليها ضريبة مقدارها ٢٪ وتستوفي الدولة ٢٤ أقجة (٢٣) على حمل من المحاصيل الزراعية التالية : الماش والبصل والخيار والترعوزى (الخيار القثاء) وهذه الضرائب هي محلية حددتها الوثيقة العثمانية تحت اسم رسوم الكيال .

والملاحظ ان رسوم الكيال على بعض الموارد المستوردة حددت بثمان اقجات على كل وزنه ، واشتملت بضائع الفلفل والزنجبيل والدارسين والسكر ، كما يلاحظ ايضا ان رسم الكيال يقل تبعا لزيادة الكمية من هذه البضائع . اذ انه لا يتقاضى غير ٥ اقجات عن الوزنة الواحدة اذا زادت الكمية عن عشر وزنات .

وحددت الوثيقة المذكورة الرسوم المفروضة على بعض البضائع المستوردة بين الحويزة والشوشتر والمناطق الاخرى المجاورة ، فكانت عشرون اقجة على الجاموسة الواحدة وثمان اقجات على السجادة الواحدة واقجتين عن كل بالة من الكتان ، وثمان اقجات عن كل بالة من الحبال ، وخمس اقجات وهشتي (٢٤) واحد عن كل صفيحة من السمن الحيواني ، واقجتين عن كل كيس من الحناء وخمس اقجات وهشتي واحد عن حمل الصابون و٤٨ أقجة عن كل بالة من القطن . كما حدد اربع اقجات عن كل خمسة حصران (١٥) وفي الدفتر المرقم ٢٨٢ من اللوحة ٩٦ المذكورة معلومات تفصيلية اخرى حول الرسوم والضرائب المفروضة على القوافل القادمة من بلاد الشام وخاصة الاقمشة المصنوعة من الجوخ والصوف وقلابطون والعباءة والخال حيث حددت بمقدار خمس اقجات على كل حمل تبلغ قيمته ١٠٠ أقجة ويضاف الى ذلك اقجة واحدة اضافية باسم رسم « الغلمانية » أو الحمالية . اما بالنسبة للبضائع التي تحملها القوافل القادمة من شيراز ولاردة[26] وغيرها من

(17). Basvekalet Arsiv Dairesi. Tapu Iefteri Ozel NoI – 22.

(18). Basvekalet Arsiv Dairesi Tapu Defteri. Ozel sayi – NO – 282.

(١٩) جب بوون ، المصدر السابق ج ٢ ص ٨٩ .

(٢٠) جب بوون ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٩ .

(٢١) خليل علي مراد ، تاريخ العراق الادارى والاقتصادى ١٦٣٨ – ١٧٥٠ م اطروحة ماجستير (غيرمنشورة) كلية الأداب ، جامعة بغداد . ١٩٧٥ ص ٢٩٤ . وقارن ما يذكره الدكتور عمر لطفي بركان حول هاتين الضريبتين في ايالة الموصل في نهاية القرن السادس عشر .

O. L – Barkan ' Xv ve Xvi inci Asirlaed a Osmali impertortuqund a Zirai Ekonominiri Hukuki ve Mali Esaslari.
ol. I – P – I 740

(22). Basvekalet Axsiy DairesiTapu Defteri Ozel Sayi 543 – no – 96.

(٢٣) أقجة AKCE عملة فضية وهي وحدة النقد القياسية في الدولة العثمانية حتى النصف الاول من القرن السابع عشر ، وقد ضربت في زمن الغازى اورخان سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨ – ١٣٢٩ واستخدمت لدى العثمانيين بمثابة الدرهم ، وقد سكت الاقجة في لبداية بعيار ٩٠ وبوزن ٦ قراريط اى ربع المثقال باعتبار القيراط ٢٤/١ من المثقال لمزيد من التفاصيل انظر فالترهنتش .
مكاييل واوزان الأسلامية ، ترجمة كامل العسلي ، عمان ١٩٧٠ ، ص ٤٤–٤٥ خليل علي مراد ، المرجع السابق ، ص ٤٣٧ الملحق الخاص بالنقود .

(٢٤) هشتي : وهي عملة مضروبة من النحاس وتساوى ٦/١ البارة وكل (٦) هشتي يساوى بارة واحدة انظر :– خليل علي مراد ، المرجع السابق ص ٤٤٧ .

(25). Basvekalet Arisiv Dairesi. Tapu Defteri Ozel Sayi. 534

(٢٦) لم اجد في المعاجم الجغرافية تعريفا هذه المدينة ، ومن المحتمل ان المقصود بها جزيرة اللاراالتي تقع بالقرب من مدينة سيراف وتشتهر بصناعة اللؤلؤ ، انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٧٥ ، ج ٥ ص ٧

الاقاليم الفارسية فأن الرسوم المفروضة عليها تتراوح من ٤٠ الى ٥٠٪ من قيمة البضاعة ، فاذا كانت قيمة البضاعة ١٠٠ أقجة يؤخذ منها ٤٢ أقجة يضمنها اقجتان باسم رسم الغلمانية كما يستوفي عن كل قطعتين قطعة واحدة مهما كانت البضاعة اذا كان حسابها يتم بواسطة القطع . كما حددت الوثيقة المذكورة الرسم المستوفى من الكتان بمقدار ٣ عثماني «أقجة» وهشتي واحد عن كل من واحد ، وعن الكوفية الحمراء اقجتان وهشتي واحد ، وعن كل عباءة من الشعر المعروفة باسم «بشت» أقجتان كما يطلب من التجار الايرانيين دفع رسم اخر باسم حق البواب وقدره ٣٠ أقجة عن كل حمل بعير بينما اعفت الوثيقة التجار القادمين من حلب وبغداد والشام من دفع هذه الضريبة . والملاحظ ان رسم البوابية الذى فرضته الدولة على التجار الايرانيين ، كان يستوفى من البضائع الايرانية مرة اخرى عند نقلها من سنجق الى سنجق اخر داخل ايالة البصرة[٢٧] وذلك امعانا في تقييد التجارة مع الفرس وتشير الوثيقة العثمانية المرقمة ٥٣٤ من وثائق A.D Bas Vekale . بانه يحق لحكام السناجق استيفاء هذا الرسم بمقدار أقجة وهشتي واحد عن كل بالة من القطن . كما يستوفي نفس الرسم عن كل قطعة من قماش النيل . وأقجتان عن كل عكة دهن (طلوخ) ، وهشتي واحد على كل حمل من حاصلات الجوز أو البندق أو الزبيب .

ثالثا : الرسوم المفروضة على المنتجات المحلية المباعة في اسواق ايالة البصرة «باج» ان هذه الرسوم كانت تستوفى كرسم أستهلاك للبضائع والمواد الغذائية التي يستهلكها الاهالي في ايالة البصرة وقد حددتها الوثائق العثمانية بأنها ٨ أقجات عن كل رأس غنم يذبحها القصاب و٥٦ أقجة عن كل جاموسة مخصصة للذبح هذا اذا تمت عملية الذبح في المجزرة التابعة للايالة أما اذا ذبحت في البيت فلا يستوفى عنها غير نصف الرسم اى ٤ أقجات عن كل رأس غنم ، كما قررت رسوم اخرى عن الذبائح الصغيرة فهي أقجة واحدة عن رأس الغنم التي لا يزيد عمرها عن سنة واحدة وأقجتان عن كل رأس غنم لا يزيد عمرها عن ثلاث سنوات «ديجة» اما الحيوانات التي تنحر في الاعياد والمناسبات وتوزع على الفقراء فلا يستوفي غنها شئ . واشارت الوثيقة الى فرض رسم استهلاك قدره هشتي واحد عن كل لوحة خشبية يستهلكها النجارون .

اما الأسماك فحدد الرسم بمقدار ٢ هشتي عن كل وزن بالنسبة للسمك الكبير الحجم وهشتي واحد عن كل وزنة من السمك الصغير الحجم وأقجة وهشتي واحد عن كل وزنة من السمك المجفف اما التمر المباع في اسواق البصرة فقد فرض عليه رسم استهلاك قدره أقجة واحدة عن كل خصافة واردة من منطقة الجزائر (الحمار) وأقجتان عن خصافة التمر الذي تنتجه بساتين البصرة . اما الحمضيات كالليمون والنارنج فان الرسم المفروض عليها هو ١٠٪ من الكمية المباعة ، ويستوفى ايضا أقجة وهشتي واحد عن صفيحة الزيت المخصص للوقود . واثنتين هشتي عن وزنة القير المخصصة لاغراض البناء[٢٨] .

رابعا : رسوم العبور المحلية :– خصصت حكومة ايالة البصرة قوارب كبيرة استخدمها لاغراض النقل المحلي عبر انهار ومستنقعات ايالة البصرة وفرضت لاجل ذلك رسوما على الاشخاص والحيوانات والبضائع التي يجرى نقلها بواسطة هذه المراكب الحكومية وتشير الوثائق العثمانية الى اهمية وضرورة تنوع ايرادات الايالة المالية ، وقدر تعلق الامر بهذا النوع من الرسوم . فقد ارسلت الدولة الى والي البصرة الاسس التي يتم بموجبها استيفاء رسم العبور في سناجق الولاية الواقعة قرب الاهوار وهي سناجق القرنة ، وصدر سويب ، وزكية وتحت عنوان (دستور العمل) .

وتبلغ هذه الرسوم (٨٠) أقجة عن كل حمل بعبر نهر السويب و ٣ أقجة عن كل جاموسة ، و(٨٠) أقجة عن كل بالة من الكتان وعشرين بالمائة عن الكمية التي يتم نقلها من حاصلات الحنطة والشعير .

وفي القرنة يستوفى عن مواد التمر والملح والدبس والحنطة والشعير والعنب والسمك نسبة واحد من ثلاثين ويستوفي عن الأغنام أقجة واحدة عن كل رأسين من الغنم اما السابلة فلا يستوفي منهم شيئا . وفي لواء الزكية يستوفي من البضائع التي يتم شحنها في مركب واحد (٨٠) أقجة كما يستوفي محمدى واحد عن كل جاموسة[٣٠] .

٤ – ادارة الواردات المالية في ايالة البصرة

اناطت الدولة العثمانية مهمة الاشراف المالي في ولاية البصرة – شأنها شأن الايالات الاخرى – بمؤسسة يشرف عليها موظف كبير يدعى الدفتردار يعاونه عدد من الموظفين الذين يتولون مهمة تسجيل الايرادات وبيان مصادرها وتنظيم اوجه صرفها وتحويل الباقي منها الى خزانة الدولة المركزية .

ان حرص الدولة العثمانية على ايراداتها من الايالات جعلها تمنح الدفتردار سلطات ادارية وسياسية واسعة ، تمكنه من مواجهة الوالي في

(27). Basvekalet Arsiv Dairesi Tapu Defteri Ozel Sayi. No. 282.

(28). Basvekalet Arsiv Jairesb. Tapa Defteri Ozel Sayi — 534.

(٢٩) ٨محمدى أو محمودى : من العملات الفضية المستخدمة بشكل خاص في البصرة وكان المحمودى يساوي ٨٠ هشتي اى ٨٠ منقور من كسور الاقجة . خليل علي المراد المرجع ص ٤٥٠ .

Basvekalet Arsiv Daivesi. TapuDofteri. Ozel Sayi. No. 282

(٣٠) اوليا جلبي المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨٧ .

حالة تدخل الاخير او تجاوزه على اموال الدولة فعلى الرغم من ان الوالي هو اعلى سلطة في الايالة الا ان سلطة الدفتردار تتجاوز سلطة الوالي بحيث تمكنه من الاتصال بالباب العالي مباشرة قدر تعلق الامر بشؤون الدولة المالية . وقد ترتب على هذا الوضع ان اضطر الوالي الى استحداث مؤسسة مالية خاصة به للاشراف على ايراداته الخاصة . بعد فرز حصة الخزانة المركزية وقد أنيطت مسؤولية هذه المؤسسة بشخصية عرفت باسم (الخزنة دار)(٣١) .

ومهما يكن من امر ، فأن الشغل الشاغل لهاتين المؤسستين الماليتين ، كان محصوراً ببذل الجهود للحفاظ على مستوى ثابت من الايرادات والعمل على تقليل الاثارة الناجمة عن التقلبات بسبب الظروف الطارئة .

ولا شك فأن انخفاض الايرادات يرتبط بمسألتين مهمتين اولاهما : — حالة الامن في ايالة البصرة والثانية : حجم التجارة المارة من والى البصرة . وعلى قدر تعلق الامر ، بالمسألة الأولى ، تمت ملاحظة ظاهرة انخفاض الايرادات في السناجق التي يتردد في المصادر التأريخية كثرة الاضطرابات فيها . فعلى سبيل المثال ان حكومة ايالة البصرة كانت مضطره لقبول ايراد رمزى من سنجق بلك الحمار وقدره ٨٠٠ أقجة فقط(٣٢) .

ومعروف ان هذا السنجق شهد ثورات متواصلة على امتداد النصف الثاني من القرن السادس عشر(٣٣) . ان هذا الانخفاض في الايرادات كانت تعوضه سلطات الايالة عن طريق التشدد في جباية الضرائب والرسوم من السناجق الاخرى وخاصة القريبة من مركز الايالة ، حيث كانت تصل ايراداتها احيانا الى ٠٠٠ ر ٢٠٠ أقجة(٣٤) .

اما حجم التجارة فقد ارتبط عموما بسلامة مسالك التجارة وطرقها عبر الخليج العربي وكذلك عبر الصحراء بين البصرة وحلب ، وليس ادل على رغبة الدولة العثمانية في تأمين موارد ثابتة من التجارة بالاضافة الى تأمين حاجة الدولة من التجارة نفسها ، ليس أدل عليه من الصراع الذي خاضته الدولة العثمانية ضد البرتغاليين(٣٥) على امتداد النصف الثاني من القرن السادس عشر والذى اسفر عن استعادة البصرة لمركزها التجارى بعد ضمور البرتغاليون التجارة في الخليج العربي . لقد ظهرت سريعا النتائج الايجابية على تجارة البصرة منذ ان شرعت الدولة العثمانية بمواجهة الوجود البرتغالي في الخليج العربي سنة ١٥٤٦ .

ففي سنة ١٥٥٤ تم فصل سنجق القطيف عن ايالة البصرة واتخذ شكل ايالة خاصة به(٣٦) بالرغم من تأثير ذلك على ايرادات ايالة البصرة فحتى عام ١٥٥٤ م حين كان القطيف سنجقا تابعا لايالة البصرة كانت ايراداته من اعشار الزراعة والصناعة وصيد اللؤلؤ تشكل موردا هاما لايالة البصرة ويذكر ماندفيل(٣٧) ان سنجق بلك القطيف امر في سنة ١٥٥٢ م بتجهيز خزانة البصرة بمبلغ قدره ٠٠٠ر٥٠٠ر١ أقجة . على انه تم الاستغناء عن ذلك على ما يبدو بعد ان تحسنت اوضاع التجارة في البصرة واستتبع ذلك فصل السنجق كما اشرنا الى ذلك .

يتبين لنا من خلال البحث ما يأتي :-

اولا :- ان التنظيمات المالية التي طبقتها الدولة العثمانية في الاناضول والايالات الاخرى ، انعكست بشكل او بآخر على التنظيمات المالية في ايالة البصرة خلال القرن الاول من الحكم العثماني للايالة . فقد اتخذت هذه التنظيمات اسلوبا اقطاعيا شكليا يقوم على تأمين الالتزامات المالية بدلا من الالتزامات العسكرية ، اذ راعت الدولة ظروف الايالة وهي : بعدها عن مركز الدولة وتركيبها الاجتماعي القبلي وموقعها التجارى المهم .

(31). Basvekalst Arsiv Deivesi Tapu Defteri Ozel Sayi — 534.

(٣٢) لوحة ٢٢٨ .

(٣٣) للوقوف على هذه الثورات واسبابها انظر :

ابراهيم بجوي ، تاريخ بجوى ، عامرة مطبعة س ، استانبول ١٢٨٣ ، ج ١ ص ٤٦٦-٤٦٧ .

عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ١٩٤٩ ج ٤ صفحات ٧٤٠-١٠٦-١٠٨ .

(34). Bas' Wekaltt Arsiv Dairesi Tapu Defteri Ozel Sayi I022

لوحة ٩

(٣٥) (اوزبران) ، المصدر السابق ، ص ٥٩-٦٠

جيج لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ترجمة مكتب حاكم قطر ، الدوحة ١٩٦٧ ، ج ص ١٠-١٣ .

(36) Ce iz Orhonlu : 1599 Bahreyn Seferi ai d bir Rapor. Tarih. Tarih Derqisi Xvil (1967) P — 10

وقارن ما يذكره اوزبران ، المصدر السابق ص ٣٨ ز ، حول السنة التي فصل فيها القطر حيث يجعلها عام ١٥٥٥ م .

(×) كانت في القطيف دار لصياغة اللؤلؤ وصناعة الجوهرات .

(37) Jon. E. Nandvilie.
The Ottoman Province of AL — Hasa. in the Sixteenth and Seventeenth Centuries.
Journal of the American Oriental Society — 90 — 3. 1970 — P 505.

ثانيا : بالنظر لظروف ايالة البصرة المشار لها في النقطة الاولى والتي يقع ضمنها قلة ايرادات الايالة من اعشار الاراضي فقد أسهبت الدولة في الضرائب والرسوم المفروضة على التجارة باعتبارها تشكل المورد الاساسي لمالية الايالة . ولم تترك صغيرة او كبيرة من المسائل المتعلقة بالتجارة الا وفرضت عليها ضريبة لمصلحة الخزانة .

ثالثا : تساهلت الدولة العثمانية مع التجار المحليين ، كما شجعت نشاطهم التجارى المحلي والخارجي مع الهند وجنوب شرق اسيا ، وانعكس ذلك على قيمة الضرائب والنسب المئوية المفروضة على تجارتهم بينما وضعت قيودا على التجارة مع بلاد فارس كما تعكس ذلك قيمة الضرائب والنسب المئوية المفروضة عليها . وهذا الوضع الاخير يتوافق مع طبيعة العلاقات العثمانية – الفارسية التي استحكم فيها العداء كما هو معروف .

رابعا : بالرغم من ظروف ايالة البصرة وخاصة بعدها عن مركز الدولة العثمانية وقلة السليانة الواردة منها ، فان مجريات الاحداث تدلل الاهتمام الشديد الذى اولته الدولة العثمانية بهذا الثغر النائي ، ويعود سبب ذلك الى تقدير الدولة لاهمية التجارة بين الشرق والغرب والتي تمثل عصبا الحياة في الدولة العثمانية باكملها .

حقائق جديدة عن الحركة المرابطية :

اندفاع المرابطين الى المغرب الأقصى

الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي
كلية الاداب / قسم التاريخ
جامعة بغداد

ثانيا : بالنظر لظروف ايالة البصرة المشار لها في النقطة الاولى والتي يقع ضمنها قلة ايرادات الايالة من اعشار الاراضي فقد أسهبت الدولة في الضرائب والرسوم المفروضة على التجارة باعتبارها تشكل المورد الاسامي لمالية الايالة . ولم تترك صغيرة او كبيرة من المسائل المتعلقة بالتجارة الا وفرضت عليها ضريبة لمصلحة الخزانة .

ثالثا : تساهلت الدولة العثمانية مع التجار المحليين ، كما شجعت نشاطهم التجارى المحلي والخارجي مع الهند وجنوب شرق اسيا ، وانعكس ذلك على قيمة الضرائب والنسب المثوية المفروضة على تجارتهم بينما وضعت قيودا على التجارة مع بلاد فارس كما تعكس ذلك قيمة الضرائب والنسب المثوية المفروضة عليها . وهذا الوضع الاخير يتوافق مع طبيعة العلاقات العثمانية – الفارسية التي استحكم فيها العداء كما هو معروف .

رابعا : بالرغم من ظروف ايالة البصرة وخاصة بعدها عن مركز الدولة العثمانية وقلة السليمانة الواردة منها ، فان مجريات الاحداث تدلل الاهتمام الشديد الذى اولته الدولة العثمانية بهذا الثغر الثاني ، ويعود سبب ذلك الى تقدير الدولة لاهمية التجارة بين الشرق والغرب والتي تمثل عصبا الحياة في الدولة العثمانية باكملها .

حقائق جديدة عن الحركة المرابطية :

اندفاع المرابطين الى المغرب الاقصى

الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي
كلية الاداب / قسم التاريخ
جامعة بغداد

تعتبر الحركة المرابطية في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد واحدة من اعظم الحركات الاسلامية التي شهدها جزء كبير من القارة الافريقية . وبالرغم من كثرة الدراسات عن الحركة المرابطية ، فأن عدة مظاهر من تاريخها لاتزال غامضة وغير معروفة . كما شهدت بلاد المغرب في القرن نفسه ، بروز عدد من القوى القبلية الضاربة التي ملأت تاريخ هذا العصر بنشاطاتها ، ومن بين تلك القوى القبائل الصنهاجية الصحراوية التي أسست الدولة المرابطية .

ومن المعروف تاريخيا ان قبائل صنهاجة[1] الصحراوية أو «الشعب الملثم»[2] كانت قد استقرت في الاجزاء الغربية من صحراء المغرب متقاسمة مناطقة فيابينها . فقبائل مسوفة الصنهاجية احتلت الاجزاء الشرقية منها ، واما قلب الصحراء فيعود الى قبائل المتونة ، وفي الجزء الغربي الممتد من الصحراء الغربية الممتد حتى المحيط الاطلسي نجد قبائل جدالة التي تمتد مراكز استقرارها إلى حدود بلاد السودان ، أما القسم الشمالي من الصحراء الغربية فقد استوطنته قبائل هسكوزة ولمطه وجزولة (اخوة صنهاجة)[3] . وفي القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد ، استطاعت القبائل الصنهاجية الصحراوية من لمتونه ومسوفه وجدالة من ان تنظم نفسها في اتحاد صحراوي[4] . وكانت رئاسة هذا الاتحاد لقبائل لمتونه الصنهاجة . والذي يبدو من النصوص التاريخية الوسيطة المتوفرة لدينا ان الهدف من وراء هذا الاتحاد هو حماية المصالح التجارية لقبائل صنهاجة وفعلا نجح هذا الاتحاد في السيطرة على المركز التجاري المهم اودغست الواقع في نهاية الخط التجاري الصحراوي الذي يربط المغرب الاقصى ببلاد السودان ، والذي كان تحت سيطرة مملكة غانه السودانية .

في منتصف القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد جاءت الفرصة لقبائل صنهاجة الصحراوية ، التي مكنتهم من الانبثاق السياسي والاقتصادي معاً ، وكان ذلك يوم قامت الحركة المرابطية . فمع قيام هذه الحركة استطاعت قبائل صنهاجة من الخروج من صحاريها متجهة شمالاً . وبالرغم من ان اندفاع الصحراويين شمالاً له اهمية كبيرة في قضية استقرارهم في مدن المغرب الاقصى واختلاطهم وامتزاجهم مع سكان المنطقة من العرب ، لكنه لم يحظ بالعناية اللازمة ، بل ان كل ماكتب يدور حول نشاط المرابطين المهاجين في الجنوب ، أي في الصحراء وبلاد السودان . ولذا سنركز هذا البحث لدراسة نشأة الحركة المرابطية بصورة تخدم انطلاق الصنهاجين الى الشمال ، ومن ثم نتعرف على اسباب توجههم شمالاً ، واخيراً مناطق انتشارهم واستقرارهم في المغرب الأقصى .

ارتبط تأسيس الحركة المرابطية بعدد من الشخصيات من بينها ابو عمران الفغجومي الفاسي ، الذي يعتبر اول من مصنع الاسس لقيام هذه الحركة بل يعتبره عبدالقادر زمامه[5] . أول مفكر في تأسيس الحركة المرابطية . ولد ابو عمران في مدينة فاس عام ٣٦٣/٩٧٣ ، وقيل انه انحدر من بني غفجوم احد فروع قبائل زناتة البربرية المشهورة[6] . غير ان رواية منفردة سجلها صاحب كتاب بيوتات فاس تشير الى ان وأبا عمران كان من اسرة قريشية تدعى بيت ابي الحاج[7] . اصبح ابو عمران الفاسي عالماً معروفاً بعد عدة رحلات علمية حملته الى قرطبة ، مكة وبغداد . ويبدو ان الظروف السياسية في فاس ، وبخاصة الفوضى التي عمت في المغرب الاقصى بسبب استبداد قبائل صنهاجة، اجبرته على ترك هذه المدينة الى القيروان .

ان الذي يهمنا من حياة ابي عمران هو ذلك اللقاء الذي تم بينه وبين يحيى بن ابراهيم الجدالي رئيس الاتحاد الصنهاجي في سنة ١٠٣٥/٤٢٧ ، عند عودة الاخير من رحلة الحج . ويسجل لنا البكري بعد ثلاث وثلاثين سنة من هذا اللقاء قوله ، انه في اثناء حضور يحيى ابن ابراهيم احدى حلقات العلم التي يعقدها أبو عمران في جامع القيروان ثم التعارف بين الاثنين ، والذي يبدو ان وجود هذا الغريب في حلقة ابي عمران قد أثاره فسأله عن اصله ومذهبه وقومه . عجب ابو عمران من الجهل الذي كان عليه يحيى بن ابراهيم وقومه بمبادئ وتعاليم الدين

(1) صنهاجة احدى قبائل البربر البرانس ، ويقال بانها تشكل ثلث سكان البربر ، وتتألف من قبائل مختلفة تستقر في مناطق المغرب والصحراء (ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٦ ص ٣٠٩ ، ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ٧٥) . وقد اعطيت هذه القبائل النسب من قبل العرب (الطبري ، تاريخ ج ١ ص ٤٤٢ ، ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٦ ص ٣٠١ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٩ ، صالح بن عبدالحليم ، الانساب ، ورقة ١٧ ، البكري ، المسالك والممالك ، ص ٢١) . وقد قسم ابن خلدون في تصنيفه الشامل لمهاجر البربر قبائل صنهاجه الى ثلاث طبقات ، الطبقة الاولى القبائل الصنهاجية المستقرة في مدن المغرب ، الطبقة الثانية صنهاجة الصحراء البدوية أو الملثمين الذين يجتازون الصحراء الغربية ، اما الطبقة الثالثة فيدعوها صناكة والتي تقع مستقراتها في جبال الاطلس وتجمع بين الاستقرار والبداوة (تاريخ ، ج ٦ ص ٣١٢ ، ٤٩٠ - ٤٧ ، ١٥٨ - ٢٩) .

(2) اطلق على بربر صنهاجه اسم الملثمين لارتدائهم اللثام ، فهم يتلثمون ولايكشفون وجوههم اصلاً .

(3) انظر البكري ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ ، ...

(4) عن اتحاد صنهاجه انظر ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٩٢ ، البكري ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ ، ١٦٣ ، مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص ٢١ ، ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(5) اول مفكر في تأسيس الحركة المرابطية ، مجلة البينة ، السنة الاولى ، العدد الثالث ، يوليو ...

(6) ... ترتيب المدارك ج ... ص ٧٠٢ ، ابن فرحون ، الديباج المذهب ، ...

(7) بيوتات فاس الكبرى ... ص ...

الاسلامية[8] . كما علم منه ان سبب هذا الجهل هو عدم تواجد من يعلمهم الفروض الاسلامية وان كل الذين يصلون الى مناطق استقرارهم في الصحراء هم انا معلمون جهلة أو تجار . ويسترسل البكري فيسجل لنا نتيجة هذا اللقاء بقوله ، ان يحيى بن ابراهيم قد دفعه اهتمام الفاسي بقضيته وشعوره بالخجل من جهله ، سائلاً ان يبعث معه احد مريديه ليعلم الصنهاجيين الصحراويين مبادئ الاسلام ، وليكون لهم مرجعاً في قضاياهم الدينية[9] .

وقد انفرد صاحب كتاب بيوتات فاس بذكر رواية عن الاجتماع الذي تم بين عمران الفاسي ويحيى بن ابراهيم الجدالي ونصها «ولما اجتمع مع يحيى ندبه ابو عمران الى قتال برغواطة ببلاد السوس وقتال زناتة على ماصدر منهم من الظلم واستنزال رؤسائهم من الولاية ، فوعد يحيى بالنهوض وطلب منه ان يوجه الى بلاده بعض طلبته لينظر في امور دياناتهم»[10] . اذا كانت هذه الرواية المتأخرة صحيحة ، فأنها تغير لنا ليس نتيجة اللقاء فحسب وانما طبيعته ايضاً . فما جاء عند البكري من وصف لهذا اللقاء ونتيجته هو أمر طبيعي ليس فيه أي غرابة ، حيث ليس غريباً أن يثير وجود هذا الغريب محاضر الحلقة وان يسأله عن اصله ومذهبه وهي اسئلة طبيعية يوجهها فقيه الى رجل لايعرفه . أما نتيجة هذا اللقاء التي سجلها البكري فهي الاخرى عادية ، فطلب يحيى وتمنيه بأن يرسل معه رجل يعلم قبيلته مبادئ الاسلام لم يكن امراً غير مؤلوف ، فقد جرت العادة ان يتشر رجال الدين المسلمين في المغرب وصحاريه حاملين معهم مبادئ وتعاليم الدين منذ وقت مبكر من دخول العرب الى المغرب .

اما رواية بيوتات فاس . فهي كما قلنا تعتبر تغيراً في طبيعة اللقاء ونتيجته ولكن ما الذي دعا ابو عمران الى ان يطلب من يحيى الطلب الذي سجله كتاب بيوتات فاس ؟ بل ما الذي جرى بينهما من حديث ؟ وعلى الرغم من ان صاحب بيوتات فاس لم يذكر شيئاً عن الحديث الذي جرى بين يحيى وابي عمران ، لكنه سجل لنا نتيجة هذا الحديث . ان هذه النتيجة تقودنا الى الافتراض بأن موضوعات سياسية دار حولها النقاش في هذا اللقاء ، واغلب الظن ، ان قبائل زناتة التي كانت سبب طرد الفاسي من مدينة فاس ، كانت في الوقت نفسه العدد التقليدي لقبائل فهاجه ، لاسيما اذا عرفنا بأنها كانت تخضع لسيطرتها الصنهاجيين المتواجدين في بلاد المغرب الاقصى . وبكلمة اخرى ربما يمكن القول بأنه كان لدى الشخصين مايجمعها على عداء زناتة ، وان هذا العداء يمكن ان نعتبره دون حرج السبب الذي حدا بأبي عمران ويحيى للحديث عن الفوضى السياسية والدينية التي كانت تعم المغرب الاقصى بسبب سيطرة زناتة . واذا ماصح لنا ان نفرض هذا كله ، فيصح لنا القول ان ابا عمران الفاسي قد ادرك من حديثه مع رئيس رئيس قبائل صنهاجة الصحراوية الكبيرة ، القوة الكامنة فيهم . ونعني بذلك ان ابا عمران رأى بأنه من الممكن ان تحول هذه القوة الكامنة عند الصنهاجيين الى قوة مؤثرة ، وبالتالي امكانية اندفاع الصنهاجيين الى الشمال لانهاء الفوضى السياسية والدينية التي عمت هناك بالقضاء على زناتة . والذي يبدو ان ابا عمران رأى أن يبدأ اولاً وقبل كل شيئ بأصلاح عقيدتهم الدينية ، لذا نجده يفتش بين تلاميذه عن رجل راغب في ان يصحب يحيى الى الصحراء وقادر على تحمل مشاق هذه الرحلة . وعندما لم يجد ابو عمران ذلك الرجل في القيروان نجده يوجه يحيى بن ابراهيم الى احد تلامذته وهو محمد وجاج بن زلواللمطي ، من اجل ايجاد الشخص الملائم لمثل هذه المهمة الكبيرة .

من استقرائنا للنصوص التي تتوفر لدينا ، يبدو ان ابا عمران كان قد اختار وجاج لأشراكه في هذه القضية لجملة أمور ، فاولا كان وجاج بن زلواللمطي هو تلميذ سابق لابي عمران الفاسي ، أي انه كان عارفاً بفكره ومبدئه ، وثانيا انه صاحب مدرسة دينية في العقيدة الاسلامية تدعى «دار المرابطين» في مدينة ملكيس او (ملكوس) في السوس[11] ، اي ان ابا عمران كان ايضاً بامكانية وجاج بمساعدة يحيى بأن يختار له احد تلامذته الكثيرين . ان اختيار احد تلاميذ «دار المرابطين» له دلالة ومعنى أخر . ذلك لأن مدرسة المرابطين كانت في السوس أي في منطقة يسكنها كثير من قبائل فهاجه[12] . وعلى الاغلب فان أبا عمران كان قد خطط لاختيار رجل ينتمي اصلاً الى قبائل صنهاجة ، وهذا ماحدث فعلاً ، ليكون قادراً على انجاز مارسمه لقاء القيروان بين الفاسي ويحيى . فوجاج ، على مايبدو كان قد ادخل طرفاً أخر في الخطة الموضوعة من قبل ابي عمران ويحيى في القيروان ، ويتأكد هذا الامر اذا ماأخذنا بنظر الاعتبار ماسجله لنا مؤلف كتاب الحلل الموشية الذي يقول «مخاطبة (خاطب ابو عمران وجاج) في القضية واكد عليه المشاركة فيها»[13] . فالقضية لابد ان تكون خطة القيروان التي رسمها الفاسي ويحيى ، بل ان تأكيد أبي عمران على وجاج بالمشاركة فيها لدليل على خطورة القضية واهميتها .

أما الشخص الذي اختير من قبل وجاج ليصحب يحيى بن ابراهيم الى الصحراء كفقيه لقبائل صنهاجة فهو عبد الله بن ياسين . ولابد لنا هنا من ان نعدد الاسباب التي دعت الى اختياره والامكانيات والقدرات التي يحملها والتي مكنة من التأثير على صنهاجة الصحراء وجعلها قادرة على الحركة والتغيير . كان ابن ياسين اصلا من جدالة ، وهي احدى قبائل صنهاجة الصحراوية ، وربما كان حسن اطلاعه على اللهجات المحلية المختلفة في اللغة البربرية ، ومعرفته بعادات وتقاليد بربر صنهاجة ، الذي هو منهم ، قد أدت الى اختياره . بالاضافة الى ذلك ثقافته العالية التي كان قد حصل عليها في قرطبة خلال السنوات السبع التي بقي فيها هناك[14] ، وما حصل عليه من مدرسة المرابطين» . واخيراً فأن تحمسه للذهاب ، ربما جاء نتيجة لطموحه في ان يصبح قائداً لقبائل صنهاجة الصحراوية .

---

(8) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

(9) البكري ، ن . م ، ص ١٦٥ .

(10) بيوتات فاس ، ص ٢٨ .

(11) البكري ، ص ١٦٥ ، التادلي ، التشوف الى رجال التصوف ، ص ٦٦ ، القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج ٤ ص ٦٨ - ٨١ ، السويس العاله ، ص ١٧ .

(12) البكري ، ص ١٥٢ ، ١٦١ .

(13) مؤلف مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٢٠ ،

(14) البكري ، ص ١٦٥ .

هذه المؤهلات التي ساهمت في اختياره من قبل وجاج كانت على مايبدو هي السبب نفسه فيما احرزه عبد الله بن ياسين من ولاء القبائل الصنهاجية ، وبالتالي النجاح في المهمة التي عهدت اليه .

على انه لايهمنا في هذا البحث ان نتتبع خطوات ابن ياسين في الصحراء والعقبات والصعوبات التي جابهته فيها ، والتي يمكن ان نعتبرها امراً طبيعياً يواجه أي حركة في بداية نشأتها ، كما لايهمنا الخطوات التي اتخذها ابن ياسين في التغلب عليها[١٥] . وكاالذي يهمنا هو ان ابن ياسين استطاع اخيراً من أن يخضع قبائل صنهاجة ، وان يجعل من المجموعة التي جمعها حوله من الاتباع والذين سماهم المرابطين قوة قادرة على مسك زمام السيطرة في الصحراء جميعها[١٦] .

من المعروف ان الحملات التقليدية الصحراوية الصنهاجية كانت موجهة جنوباً ضد الممالك السودانية[١٧] . ولكن مع انبثاق الحركة تغير اتجاه هذه الحملات . فتحت قيادة عبد الله بن ياسين بدأت صنهاجة الصحراء ولأول مرة في تاريخها بالاتجاه الى الشمال (المغرب الاقصى) بدلاً من الجنوب (بلاد السودان) . وهنا السؤال الذي يطرح نفسه عن ماهية الدوافع وراء اندفاع المرابطين الصنهاجيين شمالاً في منتصف القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد ؟

يمكننا ان نلخص هذه الدوافع بالنقاط التالية :

اولا ، يخبرنا كل من ابن ابي زرع[١٨] وابن الخطيب[١٩] انه في سنة ٤٤٧ / ١٠٥٥ استلم قائد المرابطين عبد الله بن ياسين ، دعوة جادة من فقهاء سجلماسه ودرعة ، وربما من ضمنهم استاذه وجاج ، للاسراع شمالاً وانقاذ المغرب من الظلم والاستبداد الذي يمارسه حكام زناتة . فاذا ماصحت هذه الرواية ، فمن المعقول الاقتراح بأن رسالة اولئك الفقهاء يمكن اعتبارها رسالة تذكير للصنهاجيين بوعدهم الذي قطعه يحيى ابن ابراهيم الى ابي عمران في لقاء القيروان ، لقتال زناتة وانقاذ المغرب من سيطرتهم . وفيما يخص هذا الامر كتب صاحب كتاب مفاخر البربر (القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد) يقول : «وهما ، اعني وجاج وعبد الله ، كانا السبب في خروج الملثمين المعروفين بالمرابطين من الصحراء بأمر الفقيه ابي عمران الفاسي»[٢٠] . ولذا يبدو بأن مجمل القضية في حركة صنهاجة الى الشمال كانت قد خططت من قبل فقهاء الشمال ، ابي عمران ، وجاج ، وعبد الله بن ياسين وبضمنهم الرؤساء الصنهاجيون . كما ان الفوضى السياسية التي عمت المغرب في تلك الفترة ، بسبب انعدام القوة السياسية الموحدة والقادرة على الحكم[٢١] ، قد يكون لها الاثر في قبول مثل هذه الدعوة .

ثانيا ، ان هذه الدعوة قد وجدت استجابة سريعة من قبل الصنهاجيين[٢٢] الذين كانوا يعيشون في صحراء قاحلة وكانوا في تزايد مستمر في اعدادهم . ولعل هذا مانستنتجه من رواية النويري الذي قال «في سنة اربعمائة وخمسين ، نبأت منطقة الملثمين من مجاعة ولذلك أمر عبد الله بن ياسين اتباعه بالخروج من الصحراء الى السوس الاقصى»[٢٣] . فاذا ماصحت هذه الرواية المتأخرة ، فأنها تعني بأن

(١٥) الحلل الموشية ، ص ٢٠ .

(١٦) انظر في ذلك البكري ص ٦٦ . ابن عذارى ، ج ٤ ص ٩ ، ابن الاثير ، ج ٩ ص ٦٠٢ ، القاضي عياض ، ن . م ، ج ٤ ص ٦٨١ – ٨٢ ، ابن ابي زرع ، ص ٧٩ ، ابن خلدون ج٦ ص ٣٧٤ .

(١٧) البكري ، ن . م ، ص ١٦٦ ، ابن ابي زرع ، ن . م ، ص ٨٠ ، مؤلف مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٢١ N. Levtzion, The early states of the western sudan vol. p. 12

(١٨) البكري ، ن . م . ص ١٦٤ ، ابن زرع ، ن . م ، ص ٧٦ .

(١٩) الانيس المطرب ، ص ٨١ .

(٢٠) اعمال الاعلام ، ص ٢٢٩ ، على الرغم من ان الكتاب العرب الاخرين لم يذكروا شيئاً عن هذه الاستغاثة ، فأنهم من الناحية الاخرى على اتفاق حول اندفاع المرابطين نحو الشمال لوضع حد لظلم زناتة . انظر البكري ، ن . م ، ص ١٦٦ ، القاضي عياض ، ن . م ، ج ٤ ص ٦٨١ – ٢ ، ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٣ ، مؤلف مجهول الحلل الموشية ص ٢٢ .

(٢١) مؤلف مجهول ، ص ٥٣ ، انظر ايضا ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ص ٦٢٢ .

(٢٢) كانت القبائل الهلالية العربية في تلك الفترة قد اجتاحت المغرب وأدت الى تفتيت القوى السياسية في كل من المغرب الادنى والاوسط ، كما انها هي نفسها لم تكن قادرة على الادارة السياسية لتلك المناطق . اما المغرب الاقصى فكان يشكو هو الاخر من عدم وجود سلطة موحدة فيه .

(٢٣) ابن ابي زرع ، ن . م . ص ٨١ .

الوضع الاقتصادي او الضائقة الاقتصادية لقبائل صنهاجة في الصحراء قد جعلت ابن ياسين يطلب من اتباعه المرابطين الخروج من الصحراء والتوجه شمالا ، لاسيما وانه كان عازما تماما غنى تلك المناطق .

ثالثا ، أن الدوافع الاقتصادية لاتقل اهمية عن غيرها في قضية اندفاع المرابطين شمالا . فسيطرة المرابطين على المغرب كان ذات أهمية للصنهاجيين لأنه يعني سيادته التجارية على تجارة القوافل التي تربط سجلماسة بأودغست . فاحتلالهم لمدينة واحدة من مدن المغرب الاقصى مثل سجلماسة كان يعني سيطرتهم على البوابة الشمالية لطرق لتجارة الصحراوية [٢٤] . فما بالهم لو سيطروا على جميع المراكز التجارية في المغرب الأقصى .

رابعا ، ان تحرك المرابطين شمالا كان قد ارتبط بدافع قبلي ايضا ، خصوصا وأن الاصقاع الشمالية (المغرب الاقصى) كانت خاضعة للسيطرة زناتة ، اعداء صنهاجة من البربر ، فكان من الطبيعي ان تقوم بتوجيه هجماتها ضد الزناتيين حالما امتلكت القدرة العسكرية لذلك[٢٥] . كما يمكن ان يفترض ايضا ان الصنهاجيين الصحراويين ربما كانوا يضمرون الرغبة في الانضمام الى ذوي قرباهم من الصنهاجيين المستقرين في المغرب الأقصى ، بل ربما تخليصهم من تسلط زناتة[٢٦] .

خامسا ، ان الروح الاسلامية القوية والتي نشأت عن العقيدة الدينية الجديدة التي غرسها ابن ياسين بين الصنهاجيين كان لابد لها من ان تثمر ، وقد برهنت على نفسها بتصديها للفوضى الدينية في الشمال . فأبن ياسين الذي اعتبر المرابطين ابطال العقيدة الاسلامية ، طلب منهم انقاذ المغرب من الفوضى الدينية التي تنتابه[٢٧] .

وبالرغم من ان معظم المصادر العربية الوسيطة تؤكد على الطابع الديني لحملات المرابطين الى الشمال[٢٨] ، لكن المؤرخين المحدثين اختلفوا في تقدير اهمية الدافع الديني في حركة المرابطين نحو الشمال . فنهم من اكد على اهمية [٢٩] ، في حين ان البعض الأخر اتجه الى التقليل من دورة[٣٠] ، وكل الذي نستطيع تأكيده هو ماقاله فرياس Farias في هذاالمجال ، حيث يرتأي وانه من المعقول جدا التخمين من ان العقيدة الدينية التي قدمها ابن ياسين لعبت الدور الرئيسي في الحركة . فالعقيدة الجديدة التي ادخلت الى الصحراء الغربية قد زودت البدو الملثمين لتلك المنطقة بقوة دافعة جديدة قد جعلتهم قادرين لأنجاز لم سبق له مثيل[٣١] .

٢فـ(٢٤)نهاية الأرب ، ج ٢٢ ص ١٧٤ .

R25 j. S. Taimaing ham, Ahistory of islam in west Africa Rlondon, 1969 P.18

R26 H. T. Norris RAbdallah Ibn Yasin, Jeune, Les Africaina R1979R.

(٢٧) انظر التقي العلوي ، اصول المغاربة ، البحث العلمي ، ج ٢٢ (١٩٧٤) ص ١٣٥ .

(٢٨)ابن عذارى ، ج٤ ، ص١٠، مؤلف مجهول ، الحلل الموشيه ، ص٢٢

(٢٩) أنظر مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص ٢٠٩ ، أبن عذارى ، ج٤ ص١٠ مؤلف مجهول ، الحلل الموشيه ، ص ٢٢ ، أبن ابي زرع ، ص ٨١ ، أبن الأثير ، ج٩ ، ص ٦٢١ .

R30 S.J.Hogbenanand A.H. Kirk — Greene, The Emirates of Northen Nigeria Rlondon, 1966 . p.45.

R31 Trimingam Rop cit, P. 24.

بعد استعراض الدوافع التي كانت وراء عملية تقدم المرابطين شمالا ، نود التساؤل عن الفرص الجديدة التي منحت للقبائل الصنهاجية الصحراوية للأختلاط مع العرب في المغرب الأقصى في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد . من المؤسف القول ان معلوماتنا عن هذه الظاهرة ضئيلة ومبعثرة في بطون الكتب العربية ، وحتى في حالة وجودها . فهي لاتكشف الشيء الكثير عن عملية الاختلاط هذه . ومع ذلك فسوف نحاول من هذه الشتاتات ان نصف تواجد الصنهاجيين الصحراويين في مدن المغرب الأقصى ، وهي أول وأهم فرصة منحت لهم للأختلاط والاقتراح ، مع عرب تلك المناطق .

من خلال التعرف على العمليات العسكرية التي نفذها المرابطون في الشمال ، سواء تحت قيادة عبد الله بن ياسين ، ابو بكر بن عمر ، ويوسف بن تاشفين ، فأنها تظهر لنا المدى الذي انتشرت فيه القبائل الصنهاجية الصحراوية في مدن الشمال . كانت الخطوة الأولى في اندفاع المرابطين نحو الشمال قد بدأت عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م . ففي تلك السنة احتل ابن ياسين وادي درعه[٣٢] وتقدم بأتجاه مدينة سجلماسة حيث دحر السلطة الزناتية فيها محتلا المدينة[٣٣] ، كان الأنتصار الادل هذا على زناتة قد فتح الطريق امام المرابطين للتقدم شمالا . وهنا يجدر أن نشير الى ان اعداد القبائل الصنهاجية المشتركة في عملية التقدم شمالا ، كانت من دون شك ضخمة[٣٤] .

في دراستنا للعمليات العسكرية التي قادها عبدالله بن ياسين ابو بكر بن عمر لأخضاع عدة مدن في المغرب الأقصى لسيطرة المرابطين . يمكننا الاقتراح بأنه من الممكن ان تكون للمرابطين معرفة سياسية وجغرافية بتلك المناطق . فعلى سبيل المثال ، فأنهم في اندفاعهم الى الشمال بعد احتلال سجلماسة لم يجتازوا جبال الاطلس العالية الوعرة ، بل أنهم اتجهوا غربا متخذين طريقا اخر هو طريق بلاد الوس وسواحل المحيط الاطلسي . لينفذوا من هذه المناطق السهلة الى مدن المغرب الاقصى . في عام ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦م غزا الجيش المرابطي منطقة الوس وأحتل عاصمتها تارودنت[٣٥] ، ثم توجه الى اغمات حيث دخلها عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧م[٣٦] . في السنة التالية (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨) وصلوا الى اراضي معمودة وتمكنوا من دحر هذه القبائل البربرية الكبيرة [٣٧] . وأخيرا وفي نفس السنة وصل ابن ياسين بجيوش المرابطين الى سهول تامسنا ، حيث استعد لحملة أخرى ضد البربر من برغواطة هذه سجلماسة ومقاطعاتها وكل منطقة السوس وأغات

R32 Farias. The Almoracids PP.3 — 4.

(٣٣)البكري . ن.م، ص ١٦٧ ، أبن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٢٩ ، أبن ابي زرع ، ن.م، ص٨١ .

(٣٤) البكري ن.م، ص١٦٧، ابن الخطيب ، رقم الحلل ، ورقة ٢٠ .

(٣٥)قدر البكري عدد الجيش المرابطي المتوجه الى الشمال بحوالي ٣٠,٠٠٠ رجل . أنظر السالك ، ص ١٦٧ .

(٣٦) البكري ، ص ١٦٧ ، مؤلف مجهول ، الحلل الموشيه ، ص ٢٣ ، أبن ابي زرع ، ص ٨٠ ، بيوتات فاس ، ص ٢٨ .

(٣٧) البكري ، ص ١٦٨ .

ومن الجدير بالملاحظة ، أن المرابطين في اثناء اندفاعهم شمالا لم يجدوا قوة موحدة تواجههم ، ولذا فقد نجحوا في القضاء على القوى الحاكمة كل على انفراد وان يتغلبوا على الأسر المختلفة ويخضعوا الأمارات الصغيرة والضعيفة في اغمات ، تادلا ، تامسنا ومقاطعات فاس والريف[٤٠] .

أستمر انتشار المرابطين الصحراويين في مدن الشمال خلال حكم أبي بكر ويوسف بن تاشفين . كما استمر معها تدفق العناصر الصنهاجية من الصحراء الى الشمال . ففي رواية لصاحب كتاب الحلل الموشيه نجد ما يؤكد بوضوح على أن عهد ابو بكر قد شهد قدوم المزيد من الصنهاجيين بما هو نصه «ولما كان في سنة ستين وأربعمائة استقامت الأمارة للأمير ابي بكر بن عمر ، وطالت له البلاد ، ووجه عماله اليها ، واستوطن مدينة اغمات ، وتوالت عليه الوفود والجيوش في الصحراء ، فكثر الخلق ، وعظم الأزدحام في الأغمات»[٤١] .

أما تحت قيادة يوسف بن تاشفين ، الذي كان أكثر المرابطين شهرة بعد عبدالله بن ياسين ، فقد نجح المرابطون في السيطرة على مابقي من مدن المغرب الأقصى مثل مكناس ، فاس وطنجة بل أنهم تقدموا الى المغرب الأوسط حيث سيطروا على تلمسان ووصلوا الى مدينة الجزائر[٤٢] . وأخيرا في عام ٤٧٠ / ١٠٧٧ تم نهائيا سحق قوة زناتة وحلفائها في المغرب الأقصى تماما . واستبدلت بقوة أخرى ألا وهي قوة الصنهاجيين الصحراويين[٤٣] . بالأنتصار النهائي للمرابطين في الشمال فتح الطريف تماما للصنهاجيين الصحراويين للتدفق الى مناطق المغرب . فمرة أخرى يسجل لنا صاحب كتاب الحلل الموشية رواية فريدة ومفصلة عن دعوة مفتوحة ليوسف بن تاشفين لقبائل صنهاجة المختلفة للقدوم الى الشمال ، ونص هذه الرواية « لما كان (يوسف بن تاشفين) في سنة سبعين واربعمائة شرع في تجديد العساكر ووفورها ، وبعث الى الصحراء الى لمتونة ومسوفة وجدالة ، وغيرهم ليعلمهم بما فتح الله عليهم من ملك المغرب وطاعة اهله ويؤكد عليهم في القدوم اليه ، فوفد عليه فهم جموع كثيرة . ولأهم الأعمال وحرف اعيانهم في مهمات الاشغال ، فأكتسبوا الأموال ، وملكوا رقاب الرجال ، وكثروا بكل مكان»[٤٤] .

لايهمنا من نتيجة العمليات العسكرية التي قام بها المرابطون في شمال الأنتشار الواسع للقبائل الصنهاجية الصحراوية في هذه المنطقة فقط ، بل مانتج عن هذا الأنتشار من استقرار الصنهاجيين في مدن المغرب الأقصى واختلاطهم ومتزاجهم ، بسكان تلك المدن من العرب .

(٣٨) المصدر نفسه .

(٣٩) قبائل برغواطة خليط من البربر ينتسبون الى مصمودة ، وقد اتبعوا منذ عام ١٢٠ هـ / ٧٣٧م نبيهم الخاص المسمى صالح . لمزيد من التفاصيل انظر البكري ، ص ١٣٠ - ٤ ، ابن ابي زرع ، ص ٨٣ .

(٤٠) البكري ، ص ١٦٨ ، القاضي عياض ، ج ٤ ص ٦٨١ ، ٨٢ .

(٤١) البكري ، ص ١٦٨ ، مؤلف مجهول ، مفاخر البربر ، ص ٥٢ .

(٤٢) مؤلف مجهول ، الحلل الموشيه ، ص ٣٣ .

(٤٣) ابن ابي زرع ، ص ٨٢ - ٩٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعمال ، ص ٢٣٥ .

(٤٤) ابن ابي زرع ، ص ص ٩١ - ٢

أن دراسة اصول القبائل الصنهاجية التي استوطنت مدن المغرب الاقصى في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد ، ليست قضية سهلة طالما ليس بين يدي الباحث الا معلومات ضئيلة نادرة ذات صلة مباشرة ، ولكن بدراسة مايتوفر بين ايدينا من نصوص نجدها في نصوص الكتب العربية الوسيطة ، يمكننا ان نتعرف على القبائل الصنهاجية الصحراوية والأسر التي استقرت في مدن المغرب الاقصى كنتيجة لأتساع سيطرة المرابطين شمالا ، اما الطريقة التي ستتبعها في معالجة هذه القضية ، هي تتبع مناطق توزيع قبائل صنهاجة الصحراوية مبتدئين من الشمال (شمال المغرب الأقصى) ومنتهين الى جنوب ، أمام المناطق الخمس التي سندرسها فهي : -

١ - المنطقة الأولى (الهبط) .

أن المنطقة الأولى التي نهتم بدراستها في المنطقة المعروفة ب «الهبط» والممتدة مابين مدينة مليلة والمحيط الاطلسي نزولا الى وادي ورغة ونهر سبيو في الجنوب . وكما هو معروف تاريخيا أن الفاتحين العرب الأوائل كانوا قد التقوا بقبائل غمارة ومصمودة في هذه المنطقة في القرن الأول للهجرة / السابع للميلاد[٤٥] ، وقد تبع هذا أن الفاتحين العرب الأوائل لهذه المنطقة مثل عقبة بن نافع وموسى بن نصير قد اسكنوا بعض المجموعات العربية بين سكانها الاصليين من البربر[٤٦] ، ويبدو أن اولئك العرب واحفادهم قد استمروا في سكنى هذه المنطقة حتى الفترة موضوعة البحث . ففي رواية للبكري في منتصف القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد تشير الى ان سكان منطقة سبته «كانوا عربا وبربرا ، وعربها تنتسب الى حدف»[٤٧] ، بالاضافة الى وجود بعض المجموعات العربية من كهلان (قحطانية) في القاطعات الجنوبية لطنجة[٤٨] . أما البربر من سكان مناطق طنجة في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد . فأن البكري يؤكد على أنهم بشكل رئيس من صنهاجة[٤٩] . وعلى الرغم من أننا نجد صعوبة بالغة في تحديد الوقت الذي وصلت فيه صنهاجة الى هذه المنطقة . لكننا يمكن ان نفترض ، مستندين في افتراضنا على ماجاء عند البكري . من ان وصولهم كان في حدود النصف الأول من القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد ، حيث شهدت هذه الفترة اختفاء قبائل غمارة ومصمودة تماما من هذه المنطقة تحت تأثير عناصر جديدة دفعتهم نحو الجنوب والجنوب الشرقي . وهذه العناصر هم الصنهاجيون الذين سيطروا على هذه المنطقة بعد طرد القوى الأخرى منها . ويبدو من المحتمل جدا ان تدفقهم الى هذه المنطقة قد استمر خلال القرنين التاليين (السادس والسابع للهجرة / الثاني والثالث عشر للميلاد) . ولاسيما اذا مااخذنا بنظر الأعتبار رواية كل من الادريسي[٥٠] وابن عذارى[٥١] . والتي نشير الى ان العناصر الصنهاجية لم تتركز في مدينة طنجة فقط . بل انتشرت ايضا في المناطق الواسعة المحيطة بها الى الشرق والجنوب[٥٢] .

(٤٥) مؤلف مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٣٣ .

(٤٦) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٩٨

(٤٧) البلاذري ، ص ٢٣٠ ، ابن حوقل ، ص ٧٩ .

(٤٨) المسالك والممالك ، ص ١٠٣

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ١٠٩

(٥٠) المصدر نفسه ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥

(٥١) نزهة المشتاق ، ص ١٦٩

(٥٢) البيان ، ج ١ ص ٢٠٦

أما فيما يخص اصل الصنهاجيين الذين استقروا في منطقة الهبط في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد ، فقد قيل بأنهم من صنهاجة الشمال ، او من الطبقة الأولى حسب تصنيف ابن خلدون [٥٣] ، ولكن بالرغم مما جاء به ابن خلدون عن اصل صنهاجة في هذه المنطقة ، فمن المحتمل ان فرصته تزايد الصنهاجيين الصحراويين لابد ان تكون قد برزت بتوافر الجيوش المرابطية الى منطقة الهبط التي كانت قد اصبحت بمثابة قاعدة انطلاق الى الأندلس [٥٤] ، ومما يؤكد هذا الأحتمال رواية نادرة للبيزق يشير فيها الى ان الصنهاجيين في طنجة كانوا من بين المجموعات التي قاومت الحركة المرابطية الموحدية بقوة [٥٥] ، ولعل هذا يشير الى صلة هؤلاء الصنهاجيين بالمرابطين .

٢ – المنطقة الثانية : وادي ودغه .

الى الجنوب من منطقة طنجة ، حيث وادي احد فروع نهر سبيو ، نجد تواجد العناصر الصنهاجية بكثرة ، اما صنهاجة هذه المنطقة فيمكن لنا ان نؤكد على أنهم من العناصر الصحراوية المندفعة الى الشمال مع الحركة المرابطية . ففي كتاب نزهة المشتاق للأدريسي نجد اشارة «الى ان هذه المنطقة كانت مستقرا لقبائل غمارة ، الى ان طردوا من هذه الأرض» ، أما طردهم فكان من قبل المرابطين الصحراويين [٥٦] . وهذا يعني ان الصنهاجيين الصحراويين . قد حلوا في مستقرات قبائل البتر في هذه المنطقة ، بل لم يكتفوا بذلك فقد ابعدوهم عنها .

من بين قبائل الملثمين الأخرى التي استقرت في حوض الورغة بعد اندفاع المرابطين نحو الشمال ، كانت قبيلة لمطة (اخوة صنهاجة) وهي احدى القبائل المشاركة في الحملة المرابطية الى المغرب الأقصى [٥٧] . استقرت لمطة في المنطقة التي تقع بين فاس وتاودا ، ويفصل الادريسي هذا الأمر بقوله «وهذه المدينة (تاودا) بناها أمير من قبل الملثم ..... وكانت على مقربة من جبل غمارة وكانت بمكانها شبه الثغر سدا مانعا من طغاة غمارة» [٥٨] . أن تشيد هذه المدينة له أهمية ، حيث يعني ان المرابطين لم يقتصروا في استقرارهم على مدن المغرب الأقصى ، بل أنهم اوجدوا لأنفسهم مستقرات جديدة في هذه المنطقة ايضا .

(٥٣) البكري، ص ١٠٤، ١٠٦، ١١٣.

(٥٤) ابن خلدون، ج٦ ص ٣٠٢. أنظر تقسيم ابن خلدون لقبائل صهاجة اعلاه.

(٥٥) أنظر التقي العلوي ، اصول المغاربة ، البحث العلمي ، العدد ٢٧ (١٩٧٧) ، ص ٢٢٠.

(٥٦) ابو بكر بن علي الصهاج المعروف بالبيذق، تاريخ الموحدين ، تحقيق ليفي بروفنسال (باريس ، ١٩٢٨) ص ١٠٨.

(٥٧) الادريسي، ص١٧.

(٥٨) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٣٣

٣ – المنطقة الثالثة : فاس

شهدت المنطقة الواقعة الى الجنوب من حوض الورغة ، حيث مدينة فاس ، في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد تدفق اعداد كبيرة من الأسر الصنهاجية الصحراوية بالمقارنة مع مدن المغرب الاقصى الأخرى . وهنا نجد ان معلوماتنا عن مدينة فاس وفيرة ، أما سبب ذلك فليس من الصعوبة معرفته ، فالمصادر العربية ، لاسيما كتب التراجم عن مدينة فاس تزودنا بمعلومات شاملة عن لعدد كبير من الأسر الصنهاجية والعربية التي عاشت فيها [٥٩] .

قبل ان نشرع في دراسة استقرار صنهاجة في فاس خلال الفترة المرابطية نجد من الضروري ان نضيف كلمة عن مدينة فاس وسكانها من العرب والبربر والفرص التي منحت لهم للأختلاط ببعضهم ، فكما هو معروف تاريخيا ان مدينة فاس قد أسست أيام أدريس الثاني في عام ٨٨ / ١٩٣ [٦٠] . وقد سكنت العناصر العربية في هذه المدينة منذ تأسيسها سواء من القحطانية او العدنانية . فمن بين تلك المجموعات الأزد ، الخزرج ، يحصب ، حدف ومذحج وهؤلاء جميعا من القحطانية ، أو المجموعة الثانية العدنانية ، فقد تألفت من مجموعات من قيس وكنانة [٦١] .

استمر هؤلاء العرب بأستيطان مدينة فاس حتى مجيء المرابطين في منتصف القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد . فعلى سبيل المثال ان احفاد عمير بن مصعب الأزدي ، وزير أدريس الثاني والذين عرفوا بأسم «بني ملجوم» في العهد المرابطي ، كانوا قد ورثوا منصب القاضي في فاس ، وعندما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس وجد احد افراد هذه الأسرة وهو يوسف بن عيسى بن ملجوم لايزال يشغل هذا المنصب فيها [٦٢] . واعترافا بمهارته القضائية ، كما يشير الى ذلك أحمد بن القاضي «ان يوسف بن تاشفين في ولايته للمغرب ولاه (يوسف بن عيسى بن ملجوم) قضاء مكناسة ثم قضاء الجماعة بمراكش» [٦٣] .

يضاف الى ذلك فأن مؤلف كتاب بيوتات فاس يسجل لنا بأن «جدهم الفقيه العالم يوسف بن عيسى من أهل الفتوا والشورا ، وهو الذي استفتاه يوسف بن

(٥٩) نزهة المشتاق، ص ٨١.

(٦٠) أنظر عن الاسر الفهاجية والعربية في فاس، بيوتات فاس الكبرى، احمد بن القاضي، جذوة الاقتباس.

(٦١) ابن ابي زرع ص ص ١٣ - ٤٠، احمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس (الرباط، ١٩٧٤)، ج١ ص ٢٧.

(٦٢) أنظر كتاب بيوتات فاس عن العناصر القحطانية والعدنانية التي سكنت فاس.

(٦٣) بيوتات فاس: ص ١٥)، ابن القاضي، جذوة ج٢ ص ٥٤٩.

تاشفين اللمتوني لما اراد الجواز الى الأندلس ... فلما اعتا له بذلك جاز امير المسلمين يوسف بن تاشفين الى الأندلس»[٦٤] . فعلاقة يوسف بن تاشفين بني الملجوم الأزديين تمكننا القول بأن المرابطين قد عبروا عن أهتمامهم وتقديرهم للأرض العربية العريقة الموجودة في فاس .

من المجموعات العربية الكبيرة التي سكنت مدينة فاس ، الأنصار من الخزرج ، الذين شكلوا الجزء الأعظم من سكانها ، كان من بينهم «بيت بنوعشرين» ، وهم أسرة فقهاء ، منهم الفقيه علي بن عشرين المعاصر للمرابطين[٦٥] ، ومن الأسر الأنصارية في فاس بيت بني حدور الخزرجي الأنصاري ، وبيت فرقاجة الخزرجي[٦٦] .

أما من المجموعات العربية العدنانية التي سكنت مدينة فاس منذ أيام الادارسة وحتى زمن تقدم المرابطين شمالا ، فنجم لقيسين . ففي باب الفتوح في حي الاندلسيين في فاس ، نجد اسرة السلاجي التي يشير صاحب بيوتات فاس وهو يتكلم عن أبي عثمان بن عبدالله القيسي المعروف بالسلاجي[٦٧] . ومن الاسر القيسية في فاس بيت بنوبكار ، فهم الفقيه بكار بن عبدالرحمن القيسي (ت ٤٥٠ / ١٠٤٥)[٦٨] .

بالعودة الى الفترة التالية مباشرة لأمتداد نفوذ وسلطة المرابطين شمالا ، فأننا نجد تزايدا مستمرا في عدد الصنهاجيين الصحراويين في فاس[٧٠] . فبعد فتح هذه المدينة من قبل يوسف بن تاشفين ، يبدو ان اعدادا كبيرة من الصنهاجيين الصحراويين بداوا بالاستقرار في المدينة وضواحيها . ففي القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد اشار الادريسي الى أن العيون التي كانت تزود النهر الكبير في فاس كانت تعرف «بعيون هاجة»[٧١] . ولعل السبب الوحيد لهذه التسمية لايمكن أن نعزوه الا الى السيطرة الصنهاجية على مناطق العيون هذه .

وربما كانت قبيلة لمتونة من بين المجموعات الصنهاجية الصحراوية الأولى التي دخلت واستقرت في فاس . فتميز ... ممنونية ، أبنة يوسف بن تاشفين ، كانت قد سكنت في فاس وعرفت بذكائها وكرمها . كما يظهر ايضا بأنها ... شاركت في بعض المسائل الادارية في فاس[٧٢] . أما بيت بني الخلوف المشهور ، الذين اعتبروا من قبل مؤلف كتاب بيوتات فاس «عربا صنهاجيين في صنهاجة الصحراء وصنهاجة من حمير»[٧٣] فقد

(٦٤) جذوة الاقتباس، ج٢ ص ٥٤٩.
(٦٥) بيوتات فاس، ص ١٥.
(٦٦) بيوتات فاس، ص ١٩.
(٦٧) المصدر نفسه، ص ٣٨، ٥١.
(٦٧) ابو عبداض بن جعفر الكتاني، سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس (فاس، ١٣١٦)ج٢ ص ١٨٣.
(٦٩) بيوتات فاس، ٤١، ابن القاضي، المصدر نفسه، ج١ ص ٦٦٩.
(٧٠) بيوتات فاس، ص ٣٩.
(٧١) كانت هاجة من بين القبائل البربرية التي استقرت في فاس خلال القرون الاولى لتأسيسها، ولكننا مع الأسف لانعرف شيئا عن اصولهم، أنظر ابن ابي زرع، ص ص١٣ – ٤، ابن القاضي، المصدر نفسه، ج١ ص ٢٧
(٧٢) نزهة المشتاق، ص ١٥٧.
(٧٣) ابن القاضي، المصدر نفسه، ج١ ص ص ١٧٣ – ٧٤.

كان احد اعضائها المدعو حسين بن الحلوف الصنهاجي الحميري شيخ فقهاء اهل فاس (٧٤)، وربما كان ايضا من بين افراد هذه الاسرة خلوف ابن خلف الله الصنهاجي، الذي شغل منصب القاضي للملثمين في غرناطة عام ٥١٠/١١٦٠ وفي فاس ومراكش بعد ذلك. وقد عرف بكونه رجل علم وتقوى(٧٥) كل هذا بالطبع يبرهن على الدور الذي اداه الصنهاجيون في مدينة فاس، كما يظهر انهم عرفوا في فاس والمناطق الواقعة الى شمالها كعرب من حمير.

من الادلة المذكورة اعلاه، يمكن للباحث ان يستنتج كيف كان الصنهاجيون والصحراويون يعيشون جنبا الى جنب مع العرب من القحطانين والعدنانين في مدينة فاس في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد. وقد اتاحت هذه الظروف المجال للاختلاط ببعضهم. بحيث لم يمض وقت طويل حتى ظهرت نتائجه. فالادريسي (في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد) اشار الى انه كان «يسكن حولها (فاس) قبائل من البربر ولكنهم يتكلمون العربية وهم بنو يوسف ومندلاوة وبهلول وزواوة ومجاصة وخيانه وسلاجيون»(٧٦). ان الفحص الدقيق لنص الادريسي يجعلنا نقول ان اختلاط القبائل العربية والبربرية في منطقة فاس يبدو واضحا واكيدا.

فالقبائل السلاجية، على سبيل المثال، اعتبرت قبائل بربرية متعربة من قبل الادريسي وكانوا في الحقيقة عربا قيسيين قطنوا مدينة فاس منذ ايام الادارسة(٧٧). والذي يبدو ان اندماجهم مع القبائل البربرية في فاس والتي استمرت في الازدياد عدديا بعد تقدم المرابطين شمالا، كان السبب في عدم قدرة الادريسي على تمييز نسبهم القيسي - العربي. فضلا عن ذلك، فان الاثر العميق للاختلاط العربي - البربري في فاس قد انعكس في هيمنة اللغة العربية بين القبائل في هذه المنطقة. والاكثر من ذلك، فان قبيلة بني بهلول، ليتكلم العربية في القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد، كانوا اصلا قبيلة بربرية. عاشت في فاس منذ ايام الادارسة وتزاوجت مع العرب الازديين الذين كانوا قد استقروا في فاس. فعلى سبيل المثال فان مصعب بن عمير الازدي، وزير ادريس الثاني، كان قد تزوج امرأة من قبيلة بني بهلول البر... (٧٨)، وهذا يعكس ... درجة الامتزاج العربي - البربري في فاس، والذي ... بمرور الزمن ... وم ...

الاشارة اليه هو ان الاختلاط العربي البربري، وكما يبدو، قد اصبح بمرور الزمن اكثر تعقيدا. فمؤلف بيوتات فاس (في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد) نجده يلاقي صعوبة بالغة في تميز الاصول النسبية لعديد من الاسر في فاس. فقد سجل عن اسرة بني قوري قوله «بيت بني القوري، وهم من العرب، واظنهم من صنهاجة، وبينهم بيت علم وفقه وعدالة وثروة وحسب، ولهم املاك كثيرة داخل فاس وخارجها»(٧٩).

فهذا النص ربما نستطيع ان نستخدمه دليلا اضافيا عن حالة الاختلاط بين الصنهاجيين والعرب في فاس وعن التأثير العربي على صنهاجة.

٤ - المنطقة الرابعة: مكناس

في منطقة مكناس، جنوب غربي فاس كانت قد شهدت انشاء مستقرات جديدة للصنهاجيين. فالادريسي اثناء وصفه لتلك المستقرات والمناطق التابعة لها يقول «وبلاد مكناس منها التي تعرف ببني زياد وهي مدينة عامرة لها اسواق عامرة مصبامات وديار حسنة، ولم يكن في ايام الملثم بعد تاقررت، اعمر قطرا من بني زياد... وبني تاورة وبني زياد مدينتين صغيرتين احداهما القصر... وهذه المدينة بناها أمير من امراء الملثمين وجعل لها سورا حصينا... كان ذلك الامير يسكنها مع جلة من بني عمه»(٨٠). ولعل من المعقول القول ان ابناء مثل هذه المدن من قبل الصنهاجيين الصحراويين قد قاد الى استقرارا هم وربما اقزاجهم مع مزاهجهم مع سكان المنطقة.

٥ - المنطقة الخامسة: سلا

في سلا، الواقعة في منطقة خصبة على المحيط الاطلسي. كانت الحركة المرابطية قد قادت قبائل الملثمين للاستقرار فيها(٨١). في الوادي الذي يقع بين سلا ومراكش، ... الممتد في اتجاه جنوبي، عاش هناك في القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد وقبله بالتأكيد» القبائل البربرية من جزلونه ... وصنهاجة (٨٢). واذا ما تذكرنا دور هذه القبائل في الزحف المرابطي شمالا ... من المؤكد ان هؤلاء الصنهاجيين الذين كانوا قد نزلوا من السوس والصحراء قد ... المنطقة كنتيجة مباشرة لتقدم المرابطين.

(٧٤) بيوتات فاس، ص ٤٨.

(٧٥) المصدر نفسه.

(٧٦) محمد بن عبد الله بن ابي بكر بن الابار، كتاب التكملة لكتاب الصلة (... ١٨٨٧ ...) ج٢ ص٦٢، الكتاني، سلوة الانفاس، ج٢ ص٢٦١.

(٧٧) الادريسي، ص ...

(٧٨) الكتاني، م.ن، ج٢ ص ١٨٣.

(٧٩) بيوتات ...

(٨٠) ...

(٨١) ...

(٨٢) ... تاريخ قبائل الاسلامية (بيروت ...

اما بالنسبة لمدينة مراكش التي اوجدها المرابطون كعاصمة لملكتهم. فقد اصبحت بمضي الوقت المستقر الرئيسي لقبائل صنهاجه ة الصحراوية[٨٣]. في السنوات التالية مباشرة لبناء هذه المدينة وبعد استقرار يوسف بن تاشفين هناء. فقد شهدت مراكش تدفقا متزايدا في عدد منالمهاجرين والبربر الذين جاءوا وا من مناطق مختلفة في المغرب والصحراء[٨٤]. وحتى من الاندلس[٨٥]. ويبدو من المرجح تماما ان وجود كل هذه العناصر من المغرب والبربر بالقرب من بعضها البعض وقد ساعد على بعض الامتزاج والتصاتصال بينها.

واذا ما وصفنا كل هذه الحقائق امامنا فاننا نستطيع ان نعلن باطمئنان بان التأثير المرابطي في المدن الشمالية للمغرب لم يكن مقتصرا على وصوفم هناء. بل انه ارتبط ايضا باستقرارهم في تلك المناطق واختلاطهم مع اهلها وبخاصة العرب.

(٨٣) الادريسي. ص ٧٠.

(٨٤) المصدر نفسه. ص ص ٦٧ ٨.

(٨٥) التادلي. التشوف. ص ٣٤٨ - ٤٢٥

(٨٦) ابن فرحون. الديباج. ج١ ص ٢١١.

ثبت بالمصادر والمراجع

(١) - مصادر ومراجع عربية:

ابن الاثير. عز الدين علي بن محمد. كتاب الكامل في التاريخ. ١٢ جزء (بيروت. ١٩٦٥ - ١٩٦٩).

ابن الابار. محمد بن عبد الله بي ابي بكر. كتاب التكلة لكتاب الصلة. ٢ جزء (مدريد. ١٨٨٧).

ابن ابي زرع. علي بن عبد الله الفاسي. الانيس المطرب بورحن القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس تحقيق سي. جي. تورنبرغ (او بسالة. ١٨٤٣).

ابن الاحمر. اسماعيل (شارك في تأليفه). بيوتات فاس الكبرا (الرباط. ١٩٧٢).

ابن حوقل. ابو القاسم محمد بن علي. كتاب صورة الارض تحقيق H. J. Kramers (ليدن. ١٩٣٨).

ابن الخطيب. لسان الدين. كتاب اعمال الاعلام (تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط) تحقيق احمد مختار العبادي واخرون (الدار البيضاء. ١٩٦٤).

ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد. كتاب البصر وديوان المبتدأ والخبر. ٧ جزء (بيروت - ١٩٦٧ - ٩٨).

ابن عبد الحليم. ابو علي صالح بن صالح. الانساب. مخطوط. الخزانة العامة في الرباط. برقم ك ١٢٧٢.

ابن عذارى المراكشي. البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب. ٤ جزء (بيروت. ١٩٦٧).

ابن فرحون. ابراهيم بن علي محمد. كتاب الديباج المذهب في اعيان المذهب تحقيق محمد الاحمدي ابو النور (القاهرة. ١٩٧٤).

ابن القاضي. احمد. جذوة الاقتباس. ٢ جزء (الرباط. ١٩٧٤).

الادريسي. محمد بن عبد العزيز. كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق تحقيق M. J. De Goeje. R. Dozy (امستردام. ١٩٦٩).

اسماعيل. عثمان عثمان. تاريخ شالة الاسلامية (بيروت. ١٩٧٥).

البكري . ابو عبيد بن عبدالعزيز . كتاب المسالك والممالك . تحقيق M.G.De Slane (الجزائر . ١٨٥٧) .

البلاذري . احمد يحيى . فتوح البلدان تحقيق دي غويه (ليدن . ١٨٦٦) .

البيذق . ابو بكر بن علي الصهاج . تاريخ الموحدين . تحقيق ليفي بروفنسال (باريس . ١٩٢٨) .

التادلي . ابو يعقوب بن يحيى . كتاب التشوف الى رجال التصوف (الرباط . ١٩٥٨) .

التقي العلوي . اصول المغاربة . البحث العلمي . الجزء ٢٢ (١٩٧٤) : ص ص ٢٠١ - ٢٣٩ .

زمامه . عبدالقادر . أول مفكر في تأسيس الحركة المرابطية . البينه . السنة الاولى . العدد الثالث . (يوليو . ١٩٦٢) . ص ص ٦٥ - ٧٢ .

السوسي . محمد مختار . السوس العالمة (الرباط . ١٩٥٩) .

الطبري . ابو جعفر محمد بن جرير . تاريخ الرسل والملوك . ١٠ جزء القاهرة ١٩٦٠ ١٩٦٩) .

القاضي عياض . ابو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي . ترتيب المدارك وتقريب المسالك . تحقيق احمد بكير محمود ٤ جزء (بيروت . ١٩٦٧) .

الكتاني . ابو عبدالله محمد بن جعفر . سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس . ٣ جزء (فاس . ١٨٩٨) .

مؤلف مجهول . كتاب الاستبصار في عجائب الامصار . تحقيق سعد زغلول عبدالحميد (الاسكندرية . ١٩٥٨) .

مؤلف مجهول . الحلل الموشيه في ذكر الاخبار المراكشية تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامه (الدارالبيضاء . ١٩٧٩) .

مؤلف مجهول . كتاب مفاخر البربر . تحقيق ليفي بروفنسال (الرباط . ١٩٣٤)

النويري . احمد بن عبدالوهاب بن محمد . نهاية الادب في فنون الادب . ١٩ جزء (القاهرة ١٩٤٩ - ٧٠) وجزء ٢٢ (غرناطة . ١٩١٧) .

ب - مصادر أجنبية :

(2)

1. Fage. J.D. A history of West Africa (Cambridge, 1969).
2. Farias, Paulo Fernando De Moraes, The Almoravids: some questions concerning the character of the movement during its periods of closest contact with Western Sudan; Bulletin de l'Institut Fundimental d'Afrique Noire, Tom XX1X, No.3-4 (Juillet-Octobre, 1967), pp.794-878.
3. Hogben, S.J. and Kirk A.H., The Emirates of Norther Nigeria (London, 1966).
4. Levtzion, N., The early states of the Western Sudan to 1s00; in History of West Africa, ed. J.F.Ade. Ajaya and M.Crowder, 2vols (London, 1971).
5. Norris, H.T., Abdallah Ibn Yassin, Jeune Afrique, Les Africains (1979).
6. Trimingham, J.S., A History of Islam in West Africa (London, 1962).

دور أمراء العراق في حركات تحرير المشرق في العصر الأموي

٧٨ـ ١٣٢هـ / ٦٩٧ ـ ٧٤٩م

الدكتور عبدالقادر سلمان المعاضيدي

جامعة بغداد كلية التربية – قسم التأريخ

لقد نشرت عدة دراسات عن حركات التحرير العربية في المشرق نخص بالذكر منها دراسات الاستاذ هاملتون جب في كتابه : (The Arab Conquest in Central Asia) والدكتور شكري فيصل في كتابه « حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول» ويوليوس ولها وزن في كتابه «الدولة العربية وسقوطها» والدكتور محمد عبدالحي شعبان في كتابه «الثورة العباسية» . وقد عنيت هذه الدراسات بحركات التحرير العربية ودور ولاة المشرق فيها . وقد جاء ذكر دور امراء العراق في هذه الحركات عرضياً وذلك ضمن الكلام عن الحوادث السياسية والعسكرية . مع ان هؤلاء الامراء في فترة – موضوع البحث – كانوا لايكتفون بوضع الخطوط العامة لهذه الحركات ، وانما كانوا يقومون باعداد الحملات العسكرية ، ويشتركون في تنفيذها ، ويستطلعون اخبارها ، وذلك لأن الادارة في الدولة الأموية في هذه الفترة اصبحت ادارة لامركزية ، فأصبح امراء العراق يشرفون على ادارة المشرق ، وقد منح الخلفاء الأمويون امراء العراق صلاحيات واسعة في الادارة المدنية والعسكرية ، فأصبح هؤلاء الامراء يشرفون بصورة مباشرة على حركات التحرير ، وقد ظل هذا الاشراف قائماً حتى سقوط الدولة الأموية سنة ٥٣٢/ ٧٤٩م .

ان الهدف من هذا البحث ليس الكتابة عن اخبار حركات التحرير التي تمت في المشرق خلال هذه الفترة التي استغرقت اربعة وخمسون عاما انما هي محاولة لالقاء الضوء على دور امراء العراق في حركات تحرير المشرق ثم نوضح اثر الاحداث السياسية في الدولة الأموية على هذه الحركات .

بعد ان حقق الاسلام وحدة العرب دينياً وقومياً خرجوا من شبه الجزيرة العربية لنشر الرسالة العربية من جهة ، ولتحرير الأرض العربية من السيطرة الاجنبية من جهة اخرى . فقد كان العراق تحت السيطرة الساسانية ، وبلاد الشام وشمال افريقية تحت السيطرة البيزنطية .

وبعد معارك حاسمة انتصر فيها العرب على الفرس والروم تمكنوا من القضاء على الامبراطورية الفارسية والى الابد[1] . ثم حرروا بلاد الشام

(١) في سنة ٣١هـ قتل يزدجرد ملك الفرس ، فانتهت المقاومة الفارسية من الناحية العملية فتوح البلاذري : فتوح البلدان ٣٨٧ ، ٣٨٨ الطبري: تاريخ الرسل والملوك : ٢٩٣/٤ ٣٠٠

وجزء من شمال افريقيا من السيطرة البيزنطية[٢] . الا ان الفتنة التي حدثت في زمن الخليفة عثمان بن عفان (رض) (٢٣-٣٥هـ/٦٤٣-٦٥٥م) ادت الى توقف حركات التحرير العربية ، كما حالت الفتن التي قامت في عهد الخليفة علي بن ابي طالب (رض) (٣٥-٤٠هـ/٦٥٥-٦٦٠) دون استمرارها .

ومع ان العرب كانوا قد حرروا شعوب هذه الأقاليم مما كانوا فيه من ظلم في ظل دولة كسرى الفارسية نجد ان هؤلاء كانوا قد انتهزوا فرصة انسحاب القوات العربية من المشرق وذلك لاشتراكها في هذه الفتن فسيطروا على الاراضي التي حررها العرب ، واخرجوا عمال الخلافة منها وامتنعوا عن رفع الخراج الى الدولة العربية[٣] ، وموقفهم هذا سببه هو ان الفرس كانوا قد وقفوا من الاسلام موقف العداء ومنذ البداية وانهم دخلوا بالدين الجديد بعد ان عجزوا عن مقاومته وبدون ان يقتنعوا به ، وكان هدفهم ، ومايزال ، هو العمل من داخل الاسلام على القضاء على السيادة العربية بأسم الدين وبحجة التمسك به والدعوة له[٤] .

وعندما تقلد الخليفة الأموي الأول معاوية بن ابي سفيان الخلافة سنة ٤٠هـ/٦٦٠م استأنف حركات التحرير ، وقد تم في عهده تحرير عدد من المدن في المشرق والمغرب[٥] ، الا ان حركات التحرير هذه كانت قد تقلصت في أيام الخليفة يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/٦٧٩-٦٨٣م) وذلك لانشغال يزيد بقمع حركات المعارضة التي قامت في عهده[٦] .

ولما تقلد الخليفة عبدالملك بن مروان الخلافة سنة ٦٥هـ/٦٨٤م استأنف حركات التحرير بعد ان تمكن من القضاء على حركات المعارضة[٧] .

ويبدو ان الخليفة عبدالملك بعد ان توسعت الدولة في عهده أراد ان يخفف من اعباء اشرافه على الأقاليم البعيدة منها فاتبع نظام اللامركزية في ادارة الدولة فقد ذكر الطبري انه في سنة ٧٨هـ/٦٩٧م اقصى الخليفة عبدالملك ، أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد عن ولاية خراسان وسجستان وضمها الى عامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي[٨] . وقد منح الخليفة عبدالملك عامله الحجاج صلاحية واسعة لحل مشاكل المشرق[٩] والظاهر ان الحجاج بعد ان قضى على معارضة الخوارج اهتم بأمر حركات التحرير في المشرق[١٠] فقد ذكرت المصادر ان الحجاج ولي المهلب بن ابي صفرة على خراسان ، وعبيدالله بن ابي بكرة على سجستان[١١] وقد وقع اختيار الحجاج عليهما نظراً لما عرفه فيهما من قابليات عسكرية[١٢] .

فعندما امتنع زنبيل ملك الترك في سنة ٧٩هـ/٦٩٨م عن دفع الخراج (مال الصلح) الى الحجاج ، أمر الحجاج واليه على سجستان عبيدالله ابي بكرة الثقفي ان يتقدم على رأس قوة عسكرية لقتاله وعندما تقدم عبيدالله على رأس القبائل العربية في العراق تمكن جيشه من التوغل في بلاد زنبيل في أول الأمر وحرر أراضي واسعة ، الا ان الترك كانوا قد نصبوا كميٌّ للجيش العربي أدى الى استشهاد عدد كبير من الجيش العربي وهزيمته فاسترجع زنبيل الأراضي التي كان قد حررها العرب[١٣] .

ويبدو ان هذه الحادثة كانت قد أثرت في نفس أمير العراق الحجاج ، فقد ذكر الطبري أنه عندما وصلت اليه اخبار هزيمة الجيش العربي «بلغ ذلك منه كل مبلغ» وكتب رسالة الى الخليفة عبدالملك بين فيها الموقف العسكري للجيش العربي في سجستان ، ويستأذنه في توجيه

(٢) عن حركات التحرير في المشرق وبلاد الشام وشمال افريقية في هذه الفترة انظر : البلاذري : فتوح البلدان : ١٢٨ -١٧١ ، ٢٤٩-٢٦٥ ، ٤٩٩-٥٠٥
الطبري : تأريخ : ٣/٣٤٣-٣٨٢ ، ٣٩٤-٤١٨ ، ٤٣٤-٤٧٩ ، ٤٨٠-٥٧٩ ، ٥٩٨ ، ٦١٣ ، ٦٢٠-٦٢٣ ، ٤/٣٨٠٥ ، ٤٩-٩٤ ، ١٠٤-١١٢ ، ١١٤-١٣٩-١٦٠ ، ١٧٣-١٨٣ ، ٢٦٩-٢٧١ ، ٢٨٨-٣٠٣ ، ٣٠٩-٣١٣
(ابن اعثم : الفتوح : ١/٨٨ -٣٣٤ ، ٢/١-١٤٥

(٣) انظر : البلاذري : فتوح البلدان : ٥٠٥ ، ٥٠٦ . تاريخ خليفة بن خياط : ١/١٥٩ ، ١٧٤ ، ١٨٣ ، ١٨٤ . الطبري : تاريخ : ٥/٦٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨

(٤) لمعلومات أوسع انظر : د .خاشع المعاضيدي : العداء الفارسي للعرب وقادسية صدام : ٨٠-٩٢ . د .نزار الحديثي : العلاقات العربية - الفارسية : ٢٤-٢٦

(٥) انظر : البلاذري : فتوح : ٥٠٦ ، ٥٠٧ . اليعقوبي : تاريخ ٢/٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ . الطبري : تاريخ : ٥/١٧٢ ، ١٨١ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٥١ ، -٢٥٣ ، ٢٨٦-٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧-٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٥ ، ٣٢٢ ، ابن اعثم : الفتوح ٤/١٩٠ -٢٠٣

(٦) عن المعارضة هذه انظر : اليعقوبي : تاريخ : ٢/٢٤١-٢٥٣ . الطبري : تاريخ : ٥/٣٤٧-٤٦٧ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٨٢-٤٩٩ ، ٥٠١-٦٢٦ .

(٧) عن حركات المعارضة في أيام عبدالملك انظر : تاريخ خليفة بن خياط : ١/٢٥٧-٢٧٥ اليعقوبي : تاريخ : ٢/٢٥٨-٢٧٦ . الأخبار الطول : ٢٦٩- ٣١٦ . الطبري : ٥/٦١١-٦٢٦ ، ٦/٧-٣١٧ . د .دكسن : الخلافة الأموية : ١٩٧-٣٠٧

(٨) تاريخ الرسل والملوك : ٦/٣١٩ . انظر : اليعقوبي : تاريخ : ٢/٢٧٦ الاخبار الطوال : ٢٨٠

(٩) شعبان : الثورة العباسية : ١٠٦

(١٠) يقول الطبري : ان المهلب بن ابي صفرة لما فرغ من الازارقة قدم على الحجاج وذلك سنة ثمان وسبعين - فأجلسه معه ، ودعا بأصحاب البلاء من اصحاب المهلب فأخذ الحجاج لايذكر له المهلب رجلاً من أصحابه ببلاء حسن الا صدقه الحجاج بذلك ، فحملهم الحجاج وأحسن عطاياهم ، وزاد في اعطياتهم ثم قال : هؤلاء اصحاب الفعال ، واحق بالأموال ، هؤلاء حماة الثغور ، وغيظ الأعداء» تأريخ الرسل والملوك : ٦/٣١٩ .

(١١) اليعقوبي : تاريخ : ٢/٢٧٦ . الطبري : تأريخ :٣١٩-٣٢١

(١٢) الطبري : ٦/٢١٩ ، ٣٢٠

(١٣) الطبري : تأريخ : ٦/٣٢٢ ، ٣٢٣ .ابن اعثم الكوفي : الفتوح : ٧/١١٢-١١٤

جيش كبير للثأر لهم[١٤] .

والظاهر ان الحجاج أراد الا تتكرر هزيمة الجيش العربي ، فهيأ كل اسباب النصر له في هذه المرة ، فاهتم بعدد الجيش وعدته وتجهيزه يقول الطبري[١٥] : «ان الحجاج أخذ في جهاز عشرين ألف رجل من أهل الكوفة ، وعشرين ألف رجل من أهل البصرة ، وجد في ذلك وشمر واعطى الناس أعطياتهم كملاً ، وأخذهم بالخيول الروائع ، والسلاح الكامل ، وأخذ في عرض الناس ، ولايرى رجلاً تذكر منه شجاعة الا أحسن معونته . . .» وقد عهد بقيادة هذا الجيش الى عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي[١٦] .

تقدم ابن الأشعث في سنة ٨٠هـ/٦٩٩م على رأس جيشه الذي اطلق عليه اسم «جيش الطواويس» لحسن هيئته ، في بلاد الترك وحرر مساحات واسعة ثم قرر قائده التوقف لكي يتعرف على البلاد ، وينظم ادارتها ثم يواصل حركات التحرير في العام المقبل ، وكتب بذلك الى الحجاج[١٧] . الا ان الحجاج لم يوافق على اجرآت ابن الأشعث ، وكتب اليه يأمره بمواصلة القتال للانتقام من زنبيل الذي نكب الجيش العربي[١٨] .

ويبدو ان ابن الأشعث لم ينفذ أوامر الحجاج فقد ذكر الطبري ان الحجاج كتب اليه كتابين آخرين ، طلب فيهما تنفيذ أوامره أو تسليم قيادة الجيش الى اخيه اسحق بن محمد بن الأشعث[١٩] .

وكان يزيد بن المهلب بن ابي صفرة عامل الحجاج على خراسان وقائد الجيش العربي هناك على اتصال دائم مع الحجاج ، فقد ذكر الطبري أنه عندما فتح يزيد في سنة ٨٤هـ/٧٠٣م ناحية «باذغيس» كتب الى الحجاج بالفتح ووصف في الكتاب كيف جرت المعركة مع الأعداء ثم بين نتائج المعركة[٢٠] .

وفي سنة ٨٥هـ/٧٠٤-٧٠٥م أمر الحجاج عامله على خراسان يزيد بن المهلب بفتح خوارزم ، الا ان يزيد اعتذر عن فتحها حيث كتب الى الحجاج متذرعاً بأنها «قليلة السلب شديدة الكلب»[٢١] ان هذا الموقف من يزيد أدى - على مايبدو - الى غضب الحجاج عليه ، فقد ذكر الطبري ان الحجاج كتب الى يزيد يستدعيه من خراسان الى واسط[٢٢] .

والظاهر ان يزيد خاف من عاقبة عدم تنفيذه لأمر الحجاج ، فكتب كتاباً اليه يستأذنه لتحرير خوارزم ثم توجه الى هذه المدينة وحررها على الرغم من عدم موافقة الحجاج[٢٣] .

ان عدم استجابة يزيد لأمر الحجاج كان - على مايبدو - أحد الأسباب المهمة التي أدت الى عزله عن خراسان ، فقد ذكر الطبري أنه في سنة ٨٥هـ/٧٠٤-٧٠٥م استأذن الحجاج الخليفة عبدالملك بعزل يزيد فتم عزله[٢٤] ، ولما وصل يزيد الى واسط أمر الحجاج بسجنه وتعذيبه[٢٥] .

ويبدو ان المفضل الذي ولاه الحجاج ولاية خراسان بعد اخيه يزيد سنة ٨٥هـ/٧٠٤-٧٠٥م أراد ان لا يثير غضب الحجاج عليه ، فتوجه على رأس قوة عسكرية وحرر «باذغيس» و «أخرون» و «شومان» على الرغم من ان ولايته دامت تسعة اشهر فقط[٢٦] .

وعندما ولى الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة ٨٦هـ/٧٠٥م ولاية خراسان ضم اليه جيشاً وقال له : « انزل خراسان فجاهد الكفار الذين بها من الترك والسغد والرقس (كذا) ، وكن بها الى ان يأتيك أمري ان شاءالله ولا قوة الا بالله»[٢٧] . فتوجه قتيبة في هذه السنة على رأس جيشه وحرر «الصغانيان» و «أخرون» «وشومان»[٢٨] ثم خلف أخاه

(١٤) تاريخ الرسل والملوك : ٣٢٤/٦ ، ٣٢٥ . وكان جواب الخليفة : « أما بعد فقد اتاني كتابك تذكر فيه مصاب المسلمين بسجستان ، واولئك قوم كتب الله عليهم القتل . وعلى الله ثوابهم ، وأما ماأردت ان يأتيك فيه رأيي من توجيه الجنود وامضائها الى ذلك الفرج الذي اصيب فيه المسلمون أو كفها ، فان رأيي في ذلك ان تمضي رأيك راشداً موفقاً» الطبري : ٣٢٧/٦

(١٥) تاريخ الرسل والملوك : ٣٢٦/٦ ، ٣٢٧ . انظر : ابن اعثم : الفتوح : ١١٥/٧ . المؤلف مجهول : تاريخ الخلفاء : ٢٨١ . ويذكر البلاذري ان عدد الجيش «اثنا عشر ويقال عشرة آلاف من اهل الكوفة ومثلهم من اهل البصرة» انساب الاشراف : ٣١٩ (١ هلورث) ويذكر ان حملة ابن الأشعث كانت في سنة ٧٩هـ . انساب الاشراف : ٣٢٠ (اهلورت) .

(١٦) اليعقوبي : تاريخ ٢٧٧/٢ الطبري : تاريخ : ٣٢٦/٦ . ابن اعثم الكوفي : الفتوح : ١١٤/٧

(١٧) البلاذري : انساب الاشراف : ٣٢٣ (اهلورت) . اليعقوبي : تاريخ ٢٧٧/٢ . الطبري : ٣٢٩/٦ .

(١٨) البلاذري : انساب الاشراف : ٣٢٣ (اهلورت) . الطبري : ٣٤٣/٦

(١٩) تاريخ الرسل والملوك : ٣٣٥/٦ .

(٢٠) الطبري : ٣٨٦/٦ ، ٣٨٧ . باذغيس : ناحية تشتمل على قرى من اعمال هراة ومرو الروذ . معجم البلدان : ٣١٨/١

(٢١) لطبري : ٣٩٦/٦

(٢٢) ن . م : ٣٩٦/٦

(٢٣) ن . م : ٣٩٦/٦

(٢٤) الطبري : ٣٩٦/٦

(٢٥) الطبري : ٤٢٦/٦ ، ٤٤٨ . ابن اعثم : الفتوح : ٢٠٨/٧ ، ٢٠٩

(٢٦) فتوح البلدان : ٥١٤ . الطبري : ٣٩٧/٦

اخرون : بلدة بخراسان تقع قرب باذغيس . فتوح البلدان : ٦٨١ شومان بلد بالصغانيان من وراء نهر جيحون ، وهو من الثغور الاسلامية ، معجم البلدان : ٣٧٣/٣ ، ٣٧٤

(٢٧) ابن اعثم : الفتوح : ٢٠١/٧

(٢٨) ان سبب تردد اخبار تحرير المدن في المشرق هو ان حكام هذه المدن المحليين كانوا ينتهزون فرصة انشغال الدولة العربية بقمع المعارضة ، فينقضون عهودهم مع العرب ، ويسيطرون على المدن التي حررها العرب ، ويغدرون بعمال الخلافة ويمتنعون عن دفع الخراج فيؤدي موقفهم هذا الى توجيه حملات اليهم وتحرير مدنهم مرة اخرى .

صالح على قيادة الجيش ورجع قبلهم الى «مرو» فلما بلغت انباء وصول قتيبة الى «مرو» قبل جنده الى الحجاج «كتب اليه يلومه ويعجز رأيه في تخليفه الجند ثم كتب اليه : اذا غزوت فكن في مقدم الناس ، واذا قفلت فكن في اخرياتهم وساقتهم»[٢٩] .

وعندما توجه قتيبة في سنة ٨٧هـ/٧٠٥م لتحرير «بيكند» كان الحجاج يستطلع أخبار هذه الحملة ، فقد ذكرت المصادر أنه لما تأخرت اخبار الجيش عن الحجاج ، نتيجة الحصار الذي فرضه الأعداء عليه «اشفق الحجاج على الجند» وأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد ، وكتب بذلك الى الأمصار[٣٠] .

وكان قادة الجيش العربي على اتصال دائم مع الحجاج يأخذون رأيه – على مايبدو – في جميع الأمور فقد ذكر الطبري انه عندما حرر قتيبة «بيكند» غنموا غنائم كبيرة ، وكان في الخزائن اسلحة وتجهيزات حربية كثيرة ، ارسل خمس هذه الغنائم الى الحجاج ثم استأذنه في توزيع السلاح على الجند ، فأذن له ، فقسمه بينهم واستعدوا لمواصلة الفتوحات[٣١] .

وبعد ان حرر قتيبة بن مسلم في سنة ٨٩هـ/٧٠٧م «راميثنة» أمره الحجاج ان يحرر «بخارى» فتوجه اليها الا انه لم يستطيع فتحها فلما رجع الى «مرو» كتب الى الحجاج بذلك ، فكتب اليه الحجاج ان يصور له أرض المعركة ، فلما بعث اليه بصورتها ، رسم له الحجاج الخطة العسكرية لتحريرها وهي ان يحرر «كس» و «نسف» ثم يتوجه الى تحرير «بخاري» على ان يسير بطريق مستقيم الى هذه المدن .

فتوجه قتيبة في سنة ٩٠هـ/٧٠٨م الى «بخارى» وكان الترك بقيادة ملكهم «وردان خذاه» فلما دارت معركة حامية بين الفريقين انتصر الجيش العربي ، فكتب قتيبة باخبار المعركة ، واخبار النصر الى الحجاج[٣٢] .

والظاهر انه كان لامراء العراق اشخاص ينقلون لهم اخبار المعارك التي كان يخوضها الجيش العربي في المشرق فقد ذكر الطبري انه مولى للحجاج كان قد شهد معركة بخارى فأخبر الحجاج ان قتيبة في اثناء المعركة ترك القيادة الى اخيه عبدالرحمن ورجع الى «مرو» فأدى هذا الخبر الى غضب الحجاج على قتيبة ، فلما وصل نبأ غضب الحجاج الى قتيبة أرسل وفداً الى العراق «فلما قدموا على الحجاج صاح بهم وعاتبهم ودعا بالحجام بيده مقراضس فقال : لاقطعن السنتك أو لتصدقني ، فالو : الأمير قتيبة . . . فسكن الحجاج[٣٣] .

وفي سنة ٩٠هـ/٧٠٨م حرر قتيبة الطالقان بخراسان[٣٤] . كما حرر في هذه السنة الفارياب ، والجوزجان ، وبلخ[٣٥] ، وسمرقند[٣٦] وكان قتيبة كلما يحرر مدينة يبعث بخبر الفتح وخمس الغنائم الى الحجاج في العراق[٣٧] .

وعندما رأى نيزك طرخان حركات التحرير العظيمة التي تمت على يد القائد العربي قتيبة بن مسلم الباهلي ، نقض العهد الذي كان بينه وبين قتيبة[٣٨] وهرب من جيش قتيبة والتجأ الى قلعته «باذغيس» وأعلن خلعه لقتيبة ، ثم كتب الى كل من اصبهبذ «بلخ» وملوك كل من «مرو الروذ» و «الطالقان» و «الفارياب» و «الجوزجان» وكابل شاه يدعوهم الى خلع قتيبة ومساعدته في قتاله له فأجابوا طلبه على الرغم من انهم كانوا على عهد مع قتيبة[٣٩] .

توجه قتيبة الى «مرو الروذ» و «الطالقان» و«الفارياب» و «الجوزجان»

---

(٢٩) الطبري : ٤٢٥/٦ . كما فتح قواد قتيبة في هذه السنة «كاسان» و «اورشت» و «بيعنخرو «خشكت» وهي من مدن فرغانة .
فتوح البلدان : ٥١٧-٥١٩ . وفرغانة : كورة واسعه بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان على يمين القاصد لبلاد الترك : معجم البلدان : ٢٥٣/٤

(٣٠) الطبري : ٤٢٩/٦ -٤٣١

(٣١) الطبري : ٤٣٢/٦ .ابن اعثم : الفتوح : ٢٢١/٧

(٣٢) الطبري : ٤٣٩/٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ . انظر : فتوح البلدان : ٥١٧
الدينوري : الأخبار الطوال : ٣٢٧ . ابن قتيبة : المعارف : ٤٠٧
ويذكر ابن اعثم ان اسم ملكهم هو «معابنون بن راع» الفتوح : ٢٢٣/٧
كس : مدينة قرب سمرقند مساحتها ثلاثة فراسخ في مثلها . معجم البلدان : ٤٦٠/٤ .
نسف : مدينة كبيرة كثيرة الاهل والرساتق بين جيحون وسمرقند . معجم البلدان : ٢٨٥/٥

(٣٣) تاريخ الرسل : ٤٤٢/٦-٤٤٤

(٣٤) الطبري : ٤٤٧/٦-٤٥٤ . ابن اعثم : الفتوح : ٢٣١/٧ . ويذكر هذا المصدر ايضاً ان قتيبة فتح سجستان صلحاً : ٢٣٤/٧ . الطالقان : بلده بخراسان بين مرو الروذ وبلخ ، بينها وبين مرو الروذ ثلاث مراحل . معجم البلدان : ٦/٤-٨

(٣٥) الطبري : ٤٥٤/٦ ، ٤٤٥ ، ابن اعثم : الفتوح : ٢٣١/٧-٢٣٥ . ويقول ابن عساكر ان هذه المدن فتحت سنة ٩١هـ . تهذيب ابن عساكر ٢٤٩/٤ . انظر ايضاً : النجوم الزاهرة ٢٢٢/١ . الفارياب : مدينة مشهورة بخراسان من اعمال جوزجان قرب بلخ غربي جيحون :
معجم البلدان : ٢٢٩/٤ . والجوزجان : كورة واسعة من كور بلخ بخراسان وهي بين مرو الرود وبلخ . معجم البلدان : ١٨٢/٢
بلخ : مدينة مشهورة بخراسان . افتتحها الاحنف بن قيس في ايام الخليفة عثمان بن عفان . معجم البلدان : ٤٧٩/١ ، ٤٨٠

(٣٦) الطبري : ٤٤٥/٦ . اليعقوبي : البلدان : ٢٩٣ . ابن اعثم : الفتوح ٢٣٩-٢٤٧ .
سمرقند : بلد يقع بما وراء النهر وهو قصبة الصغد : معجم البلدان : ٢٤٦/٣-٢٥٠

(٣٧) انظر على سبيل المثال : الطبري : ٤٤٤/٦ ، ٤٧٩
ابن اعثم : الفتوح : ٢٢٣/٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٧

(٣٨) عن غدر أهل المشرق ونقضهم للعهود التي كانت تعقد بينهم وبين العرب في فترة – موضوع البحث – انظر الطبري : ٤٣٠/٦ ، ٤٣١ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٧٢ ، ٤٨٠ ، ٥١٢ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦٢١ ، ٨/٧ : ٩ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ابن اعثم : الفتوح : ٢٢٥/٧ ، ٢٣١ ، ٢٩٠ ، ٢٩١

(٣٩) الطبري : ٤٤٥/٦-٤٤٧ ، ابن اعثم : الفتوح ٢٢٥/٧ ، ٢٢٦

و «بلخ» وادخلهم في طاعته(٤٠) ، ثم توجه الى قلعة نيزك وكانت قلعة حصينة ، فضرب الحصار عليها ، وأقام مدة الا انه لم يتمكن من فتحها ، فأرسل صورة منطقة القلعة الى الحجاج في العراق وربما كان ذلك بطلب من الحجاج – فاستشار الحجاج عثمان بن مسعود التميمي وآخرين ممن كانوا قد ساهموا في حركات تحرير المشرق وكانوا على اطلاع تام في هذه المنطقة(٤١) .

وفي سنة ٩١هـ/٧٠٩م حرر قتيبة كل من «شومان» و «كس» و «نسف» بأمر من الحجاج(٤٢) .

وبما ان الحجاج كان يشرف على ادارة الجزء الشرقي من الدولة العربية فقد كان حريصاً على المحافظة على أمن سكان تلك الأقاليم ، فقد ذكرت المصادر ان بعض النسوة العربيات قد تعرضن الى مهاجمة اللصوص قرب مدينة «الديبل»(٤٣) فنادت امرأة منهن ، وكانت من بني يربوع ، «يا حجاج» فلما بلغ الخبر الى الحجاج أرسل الى «داهر» ملك السند لتخلية النسوة ، الا ان «داهر» لم يستجب لطلب الحجاج ، فأمر الحجاج عامله على «عمان» ان يتوجه على رأس حملة عسكرية الى «الديبل» وينقذ النسوة من اللصوص(٤٤) .

وكان دور الحجاج في حركات تحرير السند دوراً متميزاً ايضاً فقد ذكرت المصادر ان الحجاج في سنة ٩٢هـ/٧١٠م وجه محمد بن القاسم الثقفي على رأس حملة عسكرية لتحرير بلاد السند ، وان الحجاج كان قد هيأ لهذه الحملة كل أسباب النصر ، فقد أمده الحجاج بستة آلاف مقاتل «وخلقاً من غيرهم» ورسم له الطريق الذي يسلكه ، وهو طريق الري – السند ، وأن يكون على مقدمته «ابو الأسود جهم بن زحر الجعفي» وجهزه بكل ما احتاج اليه حتى «الخيوط والمسال» والخل وقال «اذا صرتم الى السند فان الخل فيها ضيق ، فانقعوا هذا القطن في الماء ثم اطبخوا به واصطبغوا»(٤٥) . وأمره ان يقيم بشيراز «حتى يتتام اليه اصحابه ويوافيه ما أعدله»(٤٦)

تقدم القائد محمد بن القاسم وحرر كل من «مكران» و «وقنزبور» و «أرمائيل» ولما وصل الى «الديبل» أمده الحجاج بالسفن التي كانت تحمل «الرجال والسلاح والأداة» ثم ضرب الحصار عليها ونصب عليها منجنيقاً – يبدو انه كان كبيراً – فقد ذكر البلاذري انه كان يدار من قبل خمس مئة رجل ، وانه كان يعرف «بالعروس»(٤٧)

وكان الحجاج على اتصال دائم مع قائده محمد بن القاسم ، قال البلاذري(٤٨) :

«وكانت كتب الحجاج ترد على محمد ، وكتب محمد ترد عليه بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به في كل ثلاثة ايام» .

والظاهر ان محمداً كان قد رسم المنطقة وارسلها الى الحجاج لأخذ رأيه فيها فقد ذكر البلاذري انه ورد على محمد كتاب من الحجاج رسم له فيه الخطة العسكرية الخاصة بتحرير مدينة «الديبل»(٤٩) .

وبعد ان تم تحرير مدينة «الديبل» كتب محمد الى الحجاج يستأذنه في التقدم في بلاد السند ، فكتب اليه الحجاج : «أن سر ، فأنت أمير على مافتحته»(٥٠) . وكتب الحجاج الى عامله على خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي : «ايكما سبق الى الصين ، فهو عامل عليها وعلى صاحبها»(٥١)

تقدم محمد بن القاسم في بلاد السند وحرر عدد من المدن بعد ان خاض معارك حامية مع سكان البلاد ، ولما قتل «داهر» ملكهم تم تحرير بلاد السند(٥٢) .

والجدير بالذكر ان الحجاج كان قد انفق على تحرير السند ستين مليون درهم(٥٣) .

وفي سنة ٩٢هـ/٧١٠م أمر الحجاج عامله على خراسان قتيبة بن مسلم ان يتوجه الى رتبيل ملك سجستان ، فلما سار اليه قتيبة صالحة رتبيل(٥٤)

---

(٤٠) الطبري : ٦/٤٤٧ ، ٤٥٤ ، ٤٤٥ . ويذكر ابن اعثم ان قتيبة أدخل هذه المدن في طاعته بعد القضاء على نيزك : الفتوح : ٧/٢٣١-٢٣٥

(٤١) ابن اعثم : الفتوح : ٧/٢٣٠

(٤٢) الطبري : ٦/٤٦٢ . انظر : فتوح البلدان : ٥١٧ ، ٥١٩ . اليعقوبي : تاريخ : ٢/٢٨٦ . ويقول خليفة بن خياط ان تحرير هذه المدن تم سنة ٩٢هـ (تاريخ : ١/٣٠٧)

(٤٣) الديبل : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند . معجم البلدان ٢/٤٩٥

(٤٤) البلاذري : فتوح البلدان : ٥٣٤ . البيروني : الجماهر في معرفة الجواهر : ٤٧ ، ٤٨ معجم البلدان : ٥/٣٥٠

(٤٥) البلاذري : فتوح البلدان : ٥٣٤ . اليعقوبي : تاريخ ٢/٢٨٨ . الجماهر في معرفة الجواهر : ٤٨

(٤٦) البلاذري فتوح البلدان : ٥٣٤

(٤٧) البلاذري : فتوح البلدان ٥٣٥ . اليعقوبي : تاريخ : ٢/٢٨٨

مكران : ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى ، يحدها كرمان من الغرب وسجستان من الشمال ، والبحر من الجنوب والهند من الشرق . معجم البلدان : ٥/١٧٩ ، ١٨٠ .

قنزبور : احدى مدن السند . فتوح البلدان : ٧٦٨

ارمائيل : مدينة كبيرة بين مكران والديبل من ارض السند . معجم البلدان : ١/١٥٩

(٤٨) فتوح البلدان : ٥٣٥

(٤٩) ن .م . ٥٣٥

(٥٠) اليعقوبي : تاريخ : ٢/٢٨٩ . خليفة بن خياط : تاريخ ١/٣٠٨

(٥١) اليعقوبي : تاريخ : ٢/٢٨٩

(٥٢) عن هذه المعارك انظر : البلاذري : فتوح البلدان : ٥٣٦ – ٥٣٩ .
خليفة بن خياط : تاريخ : ١/٣٠٨-٣١١ . اليعقوبي : تاريخ ٢/٢٨٨ ، ٢٨٩

(٥٣) البلاذري : فتوح البلدان : ٥٣٨ . أما مقدار الغنائم التي ارسلها محمد بن القاسم الى الحجاج فقد بلغت مائة وعشرين مليون درهم وهذا المقدار يمثل خمس غنائم الحملة . م .م . ٥٣٨

(٥٤) خليفة بن خياط : ١/٣٠٧ . ابن اعثم : الفتوح : ٧/٢٣٤

وعندما حرر قتيبة «خوارزم» سنة ٩٣هـ/٧١١م بعث بخبر التحرير وخمس الغنائم الى الحجاج في العراق، واستأذنه بالتقدم الى تحرير «سمرقند»(٥٥). فكتب الحجاج اليه: «أما بعد فأني لست بأئس اذ فتح الله علينا وعليك خوارزم وأغنمنا أموالها وخزائنها وغنائمها ان يفتح الله عليك وعلينا مابعدها، وقد بلغني أنك تريد المسير الى سمرقند، وانا أنشدك ان غزوت بالمسلمين، وأنا أسأل الله أن يعز نصرك وأن يحسن عاقبتك، وان يمدك بالملائكة المردفين، وان يرعب قلوب اهل سمرقند، وان يخالف بين كلمتهم، وأن يلقي بأسهم بينهم وان يورثنا أرضهم، وديارهم، وأموالهم، وأن يجعل دائرة السوء عليهم، انه على كل شيئ قدير - والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»(٥٦)

فلما سار قتيبة الى «سمرقند» صالحة ملكها بعد معارك ضاربة جرت بين الطرفين(٥٧).

وفي سنة ٩٤هـ/٧١٢م حرر قتيبة «الشاش»(٥٨) و «كابل»(٥٩) كما حرر في هذه السنة «خجندة» و «كاسان» وهما من مدن فرغانة(٦٠) وبعد ان انتهى قتيبة من تحرير هذه المدن كتب الحجاج الى محمد بن القاسم الثقفي عامله على السند «أن وجه من قبلك من أهل العراق الى قتيبة ووجه اليهم جهم بن زخر بن قيس» ومع ان محمداً كان واداً لجهم الا أنه نفذ أمر الحجاج وأرسله على رأس أهل العراق الى قتيبة(٦١). كما وجه الحجاج جيشاً من العراق الى قتيبة(٦٢).

ولكي تنقل اخبار حركات التحرير في المشرق بسرعة اتخذ الحجاج المناظر(*) بين مدينة واسط(**)، وقزوين(***) وكان واذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر ان كان نهاراً، وان كان ليلاً أشعلوا نيراناً فتجرد الخيل اليهم»(٦٣)

ولما تولى يزيد بن ابي كبشه السكسكي امارة العراق والمشرق بعد وفاة الحجاج سنة ٩٥هـ/٧١٣م كتب الى قتيبة يخبره بولايته على العراق ويأمره بالمسير الى فرغانه، ويحثه على ذلك، فلما ورد كتاب يزيد على قتيبة توجه على رأس جيشه الى فرغانة وحررها بعد ان خاض عدة معارك مع ملكها، ثم أرسل بأخبار النصر وخمس الغنائم الى يزيد في العراق(٦٤). ثم تقدم قتيبة وحرر مدينة كاشغر سنة ٩٦هـ/٧١٤م(٦٥).

ومما تجدر الاشارة اليه هنا هو ان حركات التحرير العظيمة التي تمت على يد القائد العربي قتيبة بن مسلم الباهلي كانت قد توقفت وذلك بسبب الفتنة التي قامت في المشرق والتي أدت الى قتل قتيبة.

فبعد ان حرر قتيبة «كاشغر» توجه على رأس جيشه لتحرير «الصين»(٦٦) الا ان وفاة الخليفة الوليد بن عبدالملك سنة ٩٦هـ/ ٧١٤م وتولي اخيه سليمان الخلافة من بعده حال دون تحقيق ذلك، فقد ذكرت المصادر ان سليمان عزل قتيبة عن ولاية خراسان وولى مكانه يزيد بن المهلب بن ابي صفرة الأزدي(٦٧). وكان رد قتيبة على ذلك انه دعا جيشه لخلع الخليفة، فانقسم الجيش الى مؤيد له ومعارض، وقد ترأس المعارضة وكيع بن ابي سود التيمي، وذلك لأن قتيبة سبق وان أقصاه عن رئاسة تميم وولى بدله ضرار بن حصين الضبي(٦٨)، فلما جرى القتال

---

(٥٥) ابن اعثم: الفتوح: ٧/٢٣٥-٢٣٩. انظر ايضاً فتوح البلدان ٥١٨ خليفة بن خياط: تأريخ: ١/٣٠٩. الاخبار الطوال ٣٢٧-اليعقوبي: تأريخ: ٢/٢٨٧ الطبري: ٦/٤٦٩-٤٨٠

(٥٦) ابن اعثم: الفتوح ٧/٢٣٩

(٥٧) البلاذري: فتوح البلدان: ٥١٨. خليفة بن خياط: تاريخ: ١/٣٠٩. الأخبار الطوال: ٣٢٧. اليعقوبي: تأريخ: ٢/٢٨٧. الطبري: ٦/٤٦٩-٤٨٠.

ابن اعثم: الفتوح: ٧/٢٣٩-٢٤٧

(٥٨) البلاذري: فتوح البلدان: ٥١٩. تأريخ خليفة بن خياط: ١/٣١٠. الطبري: ٦/٤٨٣. الشاش: اقليم بما وراء النهر ثم ماوراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك. معجم البلدان: ٣/٣٠٨

(٥٩) تاريخ خليفة بن خياط: ١/٣١٠.

(٦٠) الطبري: ٦/٤٨٣، ٤٨٤ ويقول ابن اعثم الكوفي ان قتيبة حرر فرغانة في عهد امير العراق يزيد بن ابي كبشة (الفتوح: ٧/٢٤٩، ٢٥٠)

(٦١) الطبري: ٦/٤٨٤

(٦٢) الطبري: ٦/٤٩٢

(٦٣) معجم البلدان: ٥/٣٥٠

(٦٤) ابن اعثم: الفتوح: ٧/٢٤٩، ٢٥٠

(٦٥) الطبري: ٦/٥٠٠ ابن اعثم: ٧/٢٥١ كاشغر: مدينة وقرى ورساتيق يسافر اليها من سمرقند وتلك النواحي وهي في وسط بلاد الترك. معجم البلدان: ٤/٤٣٠

(٦٦) الطبري: ٦/٥٠٠. المؤلف مجهول: تاريخ الخلفاء: ٣١١ - ٣١٤

(٦٧) الطبري: ٦/٥٠٩. ابن اعثم: الفتوح: ٧/٢٥٢، ٢٥٣. وسبب ذلك هو ان قتيبة كان قد أيد الوليد بن عبدالملك عندما أراد ان يعزل اخاه سليمان عن ولاية العهد ويجعلها لابنه عبدالعزيز. انظر الطبري: ٦/٥٠٧. المؤلف مجهول: العيون والحدائق: ٣/١٧

(٦٨) الطبري: ٦/٥١٢

(*) المناظر: اشراف الأرض لانه ينظر منها، والمنظرة: موضع في رأس جبل فيه رقيب ينظر العدو، والمنظرة: المرقبة. لسان العرب، مادة (نظر)

(**) قد اصبحت مدينة واسط منذ ان تم انشاءها سنة ٨١هـ مقراً لامراء العراق ومركزاً لادارة العراق والمشرق الاسلامي. انظر: الدكتور عبدالقادر المعاضيدي: واسط في العصر الأموي: ١٦١ ومابعدها.

(***) قزوين: مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخاً [illegible] العرب في ايام الخليفة عثمان بن عفان. معجم البلدان: ٤/٣٤٢

بين الفريقين انتهى بمقتل قتيبة وجماعة من أهله ومؤيديه(٦٩) .

والجدير بالذكر هو ان الفرس كانوا قد لعبوا دوراً كبيراً في اثارة هذه الفتنة ، فقد ذكر الطبري، ان رئيسهم حيان أرسل الى وكيع : أرأيت ان كفقت عنك واعتك تجعل لي جانب نهر بلخ وخراجه مادمت حياً ومادمت والياً ، قال : نعم ، فقال (يعني حيان) للعجم : هؤلاء يقاتلون على غير دين ، فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً ، قالوا : نعم فبايعوا وكيعاً سراً(٧٠) وقال الناس لقتيبة «ليس يفسد أمر الناس الا حيان»(٧١) . وكان حيان وجماعته مع وكيع في اثناء القتال(٧٢) .

ويقول البلاذري(٧٣) : «فقال حيان : يا معشر العجم ! لم تقتلون انفسكم لقتيبة ؟ ألحسن بلائه عندكم ؟»

ويذكر ابن اعثم الكوفي أنه أقبل رجل من موالي بني أسد يقال له يزيد بن مسلم « فجعل يحرض الناس على قتيبة ويذكر من قتله قتيبة منهم . . . ويجدد احقادهم»(٧٤) .

وهكذا نجد ان الفرس كانوا قد رأوا ان الفرصة مواتية للانتقام من قتيبة وأهله لأنهم يعتبرون هؤلاء هم المسؤولين عن رفع راية الاسلام والحضارة العربية في ربوع بلادهم .

وفي رأينا انه لو عاش قتيبة مدة أكثر لاستطاع بقدرته الحربية ان يحرر بلاد الصين ، وربما بلدان اخرى ولاتسعت الدولة العربية اكثر مما كانت عليه .

وعندما ولى الخليفة سليمان بن عبدالملك ، يزيد بن المهلب بن ابي صفرة الأزدي اميراً على العراق ، والمشرق في سنة ٩٧هـ ، ٧١٥م استأذن الخليفة وسار الى خراسان وأقام هناك(٧٥) ، وقد اهتم يزيد بأمر حركات التحرير فتوجه في سنة ٩٨هـ/٧١٦م على رأس حملة عسكرية وحرر «دهستان»(٧٦) ثم سار في هذه السنة وحرر «جرجان»(٧٧) و «طبرستان»(٧٨) و «الرويان»(٧٩) و «دنباوند»(٨٠) .

والظاهر ان أمير العراق عمر بن هبيرة الغزاري (١٠٣-١٠٦هـ/٧٢١-٧٢٤م) كان مهتماً بحركات التحرير فقد ذكر الطبري أنه عندما حرر عامله على خراسان سعيد بن عمر الحرشي «أشروسنة» في سنة ١٠٤هـ/٧٢٢م كتب بأخبار التحرير الى الخليفة يزيد بن عبدالملك «ولم يكتب الى عمر بن هبيرة ، فكان هذا مما وجد فيه عليه عمر بن هبيرة»(٨١) .

وحرر الحرشي في هذه السنة «خجندة»(٨٢) و «كش» و «ربنجن» و «خُزار»(٨٣) .

وفي سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م حرر عامله على خراسان مسلم بن سعيد بن اسلم بن زرعة الكلابي مدينة «أفشين»(٨٤) .

---

(٦٩) البلاذري : فتوح البلدان : ٥٢١ . الطبري : ٥١٥/٦ . ٥١٦ . ابن اعثم : ٢٧٢/٧ - ٢٧٦ . العيون والحدائق : ١٨/٣ ، ١٩ .
يقول الطبري . قال رجل من أهل خراسان عندما قتل قتيبة يا معشر العرب قتلتم قتيبة ، والله لوكان قتيبة منا فمات فينا جعلناه في تابوت فكنا نستفتح به اذا غزونا. تأريخ الرسل والملوك : ٥١٩/٦ . انظر العيون والحدائق : ١٩/٣

(٧٠) تأريخ الرسل والملوك : ٥١٢/٦ . ويذكر الطبري ان وكيع وفي لحيان بما كان أعطاه . تاريخ : ٥١٨/٦

(٧١) الطبري : ٥١٢/٦د

(٧٢) الطبري : ٥١٥/٦ . اليعقوبي : تأريخ : ٢٩٦/٢ . العيون والحدائق : ١٩/٣

(٧٣) فتوح البلدان : ٥٢١

(٧٤) الفتوح : ٢٧٢/٧ ، ٢٧٣

(٧٥) الطبري : ٥٢٣/٦ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨

(٧٦) البلاذري : فتوح البلدان : ٤١٢ . الطبري : ٥٣٢/٦-٥٤١ . المؤلف مجهول : تاريخ الخلفاء : ٣٤٢ . دهستان بلد مشهور في طرف مازندران قرب خوارزم وجرجان . معجم البلدان : ٤٩٢/٢

(٧٧) البلاذري : فتوح البلدان : ٤١٢-٤١٥ . تاريخ خليفة بن خياط : ٣٢٠/١ الطبري : ٥٣٢/٦-٥٤١ . ابن اعثم الفتوح : ٢٨٩/٧ . المؤلف مجهول : العيون والحدائق : ٢١/٣ . السهمي : تاريخ جرجان : ١٠
جرجان : مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان ، وقيل اول من احدث بناءها يزيد بن المهلب بن ابي صفرة . معجم البلدان : ١١٩/٢

(٧٨) البلاذري : فتوح البلدان ٤١٣ ، ٤١٤ . الطبري : ٥٣٥/٦ ابن اعثم : الفتوح ٢٨٩/٧ . المؤلف مجهول : تاريخ الخلفاء : ٣٤٢ . العيون والحدائق : ٢٤/٣ ، معجم البلدان : ١٥/٤ . ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٣٢٨/٥ طبرستان : بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم . والغالب على هذه النواحي الجبال ، فمن اعيان بلدانها دهستان وجرجان واستراباذ وآمل وهي قصبتها . معجم البلدان : ١٣/٤

(٧٩) فتوح البلدان : ٤١٥ . الرويان : مدينة كبيرة من جبال طبرستان وكورة واسعة ، وهي اكبر مدينة في الجبال هناك . معجم البلدان : ١٠٤/٣

(٨٠) فتوح البلدان : ٤١٥ . دنباوند : كورة من كور الري بينها وبين طبرستان فيها فواكه وبساتين وعدة قرى عامرة وعيون كثيرة وهي بين الجبال . معجم البلدان : ٤٧٥/٢ ، ٤٧٦

(٨١) عمر بن هبيرة بن معية بن سكين بن خديج الغزاري ، تولى امرة العراق والمشرق سنة ١٠٣هـ . قام باعمال ادارية مهمة ، واهتم باصلاح العملة . ولمعلومات أوسع عنه انظر : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ١٩٠-١٩٥

(٨٢) تاريخ الرسل والملوك : ١٠/٧ أما عن مصادر تحرير اشروسنة فانظر : الطبري : ٧/٧ . ابن اعثم : الفتوح : ٢٦/٨ أشروسنة : بلدة كبيرة بما وراء النهر بين سيحون وسمرقند ، بينها وبين سمرقند ستة وعشرون فرسخاً . معجم البلدان : ١٩٧/١ .

(٨٣) الطبري : ٨/٧-١٠ .
خُجندة : بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ سيحون بينها وبين سمرقند عشرة أيام مشرقاً وهي مدينة نزهة في وسطها نهر جار . معجم البلدان : ٣٤٧/٢

(٨٤) الطبري : ١١/٧ . ابن اعثم : الفتوح ٢٦/٨
ربنجن : بليدة من نواحي الصغد ثم من أعمال سمرقند . معجم البلدان : ٢٦/٣ .
خزار : موضع بقرب نسف بما وراء النهر : معجم البلدان : ٣٦٤/٢

ولما تولى خالد بن عبدالله القسري ولاية العراق (١٠٦–١٢٠هـ/٧٢٤–٧٣٧م)[٨٥] كتب الى اخيه وعامله على خراسان اسد بن عبدالله القسري يأمره ان يواصل حركات التحرير[٨٦] ، فتوجه أسد في سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م على رأس جيشه وحرر «الغرشستيان»[٨٧] ثم توجه الى «الغور» وحررها[٨٨] . كما صد غارات الترك على سمرقند[٨٩].

وفي سنة ١١٠هـ/٧٢٨م حرر عامله على خراسان أشرس بن عبدالله السلمي «السغد» و «بخاري» و «كمرجه» و «كردر» بعد ان نقضوا عهودهم مع العرب ، وارتدوا عن الاسلام[٩٠] وكان أشرس على اتصال دائم مع أمير العراق خالد القسري[٩١] .

وفي سنة ١١٢هـ/٧٣٠م حرر عامله على خراسان الجنيد بن عبدالرحمن المري «الكيرج» و «المرمذ» و « المندل» و «دهنج» و «البروصس» و «سرست» و «البيلمان» و « المالبة»[٩٢] .

وفي سنة ١١٨هـ/٧٣٦م حرر عامله على خراسان أسد بن عبدالله القسري «آمل»[٩٣] كما حرر في سنة ١١٩هـ/٧٣٧م «الختل»[٩٤] و«الجوزجان»[٩٥] .

وكان أسد يرسل بأخبار حركات التحرير الى اخيه خالد في العراق[٩٦] .

وكان أمير العراق يوسف بن عمر الثقفي (١٢٠-١٢٦هـ/٧٣٧–٧٤٣م)[٩٧] يوجه الكتب الى عامله على خراسان نصر بن سيار الكناني لاستئناف حركات التحرير في المشرق ، ويأمره بعدم المخاطرة بأرواح الجيش العربي[٩٨] .وقد توجه نصر الكناني في سنة ١٢١هـ/٧٣٨م للتحرير مرتين ، كانت الاولى من «بلخ» بما وراء النهر من ناحية باب الحديد ، أما الثانية فكانت الى «ورغسر» و «سمرقند»[٩٩] .

وفي هذه السنة توجه الى «الشاش» وقتل كورصول ملك الترك[١٠٠] . وحرر «فرغانة»[١٠١] و«أشروسنة»[١٠٢] و «الشاش»[١٠٣] .

لم نسمع اخبارا عن حركات تحرير في المشرق في ايام الامراء الذين تولوا ولاية العراق والمشرق بعد الأمير يوسف بن عمر ، وحتى نهاية الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م وذلك لأن هذه الحركات كانت قد توقفت بسبب تردي الأوضاع في الدولة الأموية بعد وفاة الخليفة المقتدر هشام بن عبدالملك بن مروان سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م[١٠٤] . ففي سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م قام يزيد بن الوليد بن عبدالملك بن مروان بثورة على الخليفة الوليد بن يزيد بن عبدالملك أدت الى قتله وتولي يزيد أمر الخلافة[١٠٥] وقد رافق قيام هذه الثورة انقسام القبائل العربية على نفسها وتناحر هذه القبائل فيما بينها وبصورة خاصة القبائل اليمانية والقبائل القيسية في بلاد الشام والعراق والمشرق الاسلامي[١٠٦] . وقد انعكس هذا الوضع على العلاقة بين امير العراق وعامله على المشرق ، فلما

---

(٨٥) البلاذري : فتوح البلدان : ٥٢٥ . الطبري : ٢١/٧ . الا انه يذكرها باسم «افشينة»

(٨٦) خالد بن عبدالله بن يزيد بن أسد القسري . من أهل دمشق ، من قبيلة بجيلة اليمانية . كان كريماً جواداً ، كما كان من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة . قام بأعمال مهمة بالعراق . د . عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ١٩٥-٢٠٩

(٨٧) ابن اعثم : االفتوح : ٩٧/٨

(٨٨) تاريخ خليفة بن خياط : ٣٥١/١ . الطبري : ٤٠/٧ . المؤلف مجهول : تاريخ الخلفاء : ٤٢٥ . الغرشستان : ولاية بالمشرق تحدها هراة من الغرب والغور من الشرق ومرو الروز من الشمال وغزنة من الجنوب . معجم البلدان : ١٩٣/٤

(٨٩) الطبري : ٤٠/٧ ، ٤١ . المؤلف مجهول : تاريخ الخلفاء : ٤٢٥ . ويقول خليفة بن خياط انه تم تحريرها سنة ١٠٨هـ (تاريخ : ٣٥١/٢) .

(٩٠) البلاذري : فتوح البلدان : ٥٢٦ .

(٩١) الطبري : ٥٤/٧- ٦٦ . كمرجة : قرية من قرى الصغد : معجم البلدان : ٤٧٩/٤ . كردر : ناحية من نواحي خوارزم أو ما يتاخمها من نواحي الترك . معجم البلدان : ٤٥٠/٤

(٩٢) الطبري : ٥٢/٧ العيون والحدائق : ٨٩/٣

(٩٣) اليعقوبي : تاريخ : ٣١٦/٢ . المؤلف مجهول : تاريخ الخلفاء : ٤٢٦ . وهذه المدن جميعها تقع في بلاد السند . انظر : ابن خرداذبه : المسالك والممالك ٥٦ ، ٥٧ .

(٩٤) الأزدي : تاريخ الموصل : ٣٩
آمل : وهي قصبة طبرستان . تقويم البلدان : ٤٣٥

(٩٥) الطبري : ١٣٥/٧
(الختل) : اول كورة على جيحون من وراء النهر ، وهي على تخوم السند يقال لقصبتها هلبك . معجم البلدان : ٣٤٦/٢

(٩٦) الطبري : ١٢٤/٧
(الجوزجان : كورة واسعة من كور بلخ بخراسان ، وهي بين مرو الروذ وبلخ . معجم البلدان : ١٨٢/٢

(٩٧) الطبري : ١٢٦/٧ ، ١٢٧

(٩٨) يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن ابي عقيل الثقفي : كان اميرعلى اليمن قبل ان يتولى امرة العراق والمشرق . قام بأعمال ادارية ، وتشدد في ضرب النقود . وكان من الامراء الذين تمتعوا بنفوذ واسع في الدولة الأموية : د . عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي ٢٠٩–٢١٨

(٩٩) الطبري : ١٧٥/٧

(١٠٠) الطبري : ١٧٤/٧ . المؤلف مجهول : تاريخ الخلفاء ٤٢٩ .
ورغسر : مدينة بسمرقند : معجم : ٣٧٢/٥

(١٠١) الطبري : ١٧٣/٧–١٧٥ . المؤلف مجهول : تاريخ الخلفاء : ٤٢٩ .

(١٠٢) الطبري : ١٧٥/٧- ١٧٨

(١٠٣) ن . م .١٧٦/٧

(١٠٤) ن . م .١٧٧/٧

(١٠٥) ن . م . ١٩٢/٧

(١٠٦) عن الخليفة هشام انظر : عبدالمجيد الكبيسي : عصر هشام بن عبدالملك

عزل الخليفة يزيد امير العراق يوسف بن عمر الثقفي في سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م (١٠٧) وولى مكانه منصور بن جمهور الكلبي ، لم يعترف نصر بن سيار الكناني والي خراسان الذي كان يتعصب للقبائل القيسية على اليمانية بتبعيته لمنصور وتلقي الأوامر منه (١٠٨) ولما عين منصور أخاه منظوراً والياً على المشرق ، رفض نصر الاعتراف به (١٠٩) .

والظاهر ان الخليفة يزيد ارادا ان يعيد الهدوء والاستقرار الى ربوع العراق والمشرق ، فرأى من الأوفق ان يولي اميراً يقف على الحياد ولا يتعصب الى القبائل اليمانية أو القيسية فولى عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز ابن مروان من قبيلة قريش سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م (١١٠) وعندما جاء مروان الثاني عزل في سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م عبدالله عن ولاية العراق وولى النضر وابن سعيد الحرشي مكانه (١١١) الا ان غبدالله رفض ان يسلم ولاية العراق الى الحرشي (١١٢) فانقسم جند الشام على نفسه ، فأصبحت اليمانية مع عبدالله في الحيرة ، والقيسية مع النضر في الكوفة (١١٣) واقتتل الفريقان عدة مرات بين الكوفة والحيرة (١١٤) . وقد استمر القتال بينهما أربعة اشهر (١١٥) .

وعندما اقترب الخوارج بقيادة الضحاك بن قيس الشيباني من الكوفة أرسل عبدالله الى النضر يطلب منه ايقاف القتال بينهما .

فقال له : «هذا لايريد غيري وغيرك فهلم نجتمع عليه» (١١٦) فاتفقا على العمل معاً لمواجهة خطر الخوارج (١١٧) . وعندما نزل الضحاك في «النخيلة» سارا اليه والتقى الفريقان عند «النخيلة» ودارت بينهما معركة ضارية انتصر فيها الضحاك على جند الشام الذين انسحبوا الى واسط (١١٨) .

سار الضحاك الى واسط وفرض الحصار عليها (١١٩) واقتتل الفريقان مرات عديدة عند ابواب المدينة (١٢٠) وطال حصار الضحاك لواسط . وقد اختلف المؤرخون في رواياتهم عن مدة الحصار ، فيرى كل من خليفة بن خياط ، والبلاذري ان الحصار استمر ستة اشهر وفي رواية سنة (١٢١) في حين يرى الطبري انه استمر ثلاثة اشهر (١٢٢) .

ويبدو ان عبدالله بن عمر كان قد ادرك ضعف موقفه ، فقد ذكرت المصادر أنه أرسل رسلاً الى الضحاك لطلب الصلح وانهاء الحصار (١٢٣) فترددت الرسل بينهما واصطلحا على ان يسير الضحاك الى مروان فان قتل الضحاك فليس لأحد في عنق ابن عمر بيعة ، وان قتل مروان صار ابن عمر مع الضحاك» (١٢٤) ثم تسلم الضحاك بموجب هذا الصلح الكوفة وسوادها ، وتسلم عبدالله ما كان بيده من كسكر وميسان ودستميسان وكور دجلة والاحواز وفارس (١٢٥) . كما بايع عبدالله واليمانية الضحاك (١٢٦) .

أما القيسية فأنهم أبو مبايعة الضحاك (١٢٧) وتوجه بهم النضر بن سعيد الحرشي الى الشام (١٢٨) .

أما الضحاك فانه بعد ان عقد الصلح مع عبدالله بن عمر توجه باصحابه الى منطقة الجزيرة لقتال مروان الثاني هناك (١٢٩) .

عندما بلغت أنباء العراق الخليفة مروان الثاني ولي يزيد بن عمر بن هبيرة الغزاري (١٣٠) اميراً على العراق والمشرق سنة ١٢٨هـ/٧٤٥م (١٣١) وامره ان يتوجه الى الكوفة لاستردادها من

---

(١٠٧) عن هذه الثورة : انظر : الاخبار الطوال ٣٤٨ ، ٣٤٩ الامامة والسياسة : ١١٢/٢ ، ١١٣ . اليعقوبي : تاريخ : ٣٣٣/٢-٣٣٤ . الطبري : ٢٣٧/٧-٢٥٤

(١٠٨) انظر : الاخبار الطوال : ٣٥١ . الطبري : ٢٤٤/٧-٢٥٢ ، ٢٨٥-٢٩٣ العيون والحدائق : ١٨٦/٣ .

(١٠٩) عن اسباب عزل يوسف بن عمر انظر : د . عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٢٦١

(١١٠) الطبري : ٢٧٧/٧ -٢٨٠ . المؤلف مجهول : تاريخ الخلفاء ٤٦٣ .

(١١١) تاريخ خليفة بن خياط : ٤٠٣/٢ . الطبري : ٢٨٤/٧ . العيون والحدائق ١٥٢/٣ . المؤلف مجهول : تاريخ الخلفاء : ٤٦٠ .

(١١٢) البلاذري : انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ٨أ . الطبري : ٣١٨/٧ .

(١١٣) الطبري : ٣١٨/٧

(١١٤) ن . م . ٣١٧/٧

(١١٥) البلاذري : انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ١٨ . الطبري : ٣١٨/٧

(١١٦) البلاذري : انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ٨أ . الطبري : ٣١٨/٧ .

(١١٧) الطبري : ٣١٨/٧ . انظر البلاذري : انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ٨ ب . نبذة من كتاب التاريخ : ١٢٢أ . المؤلف مجهول : غرر السير : ورقة ١١٩أ .

(١١٨) البلاذري : انساب الاشراف : جـ ٨ ورقة ، ٨ ب ، الطبري : ٣١٨/٧

(١١٩) البلاذري : انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ٨ ب . الطبري : ٣١٨/٧ ، ٣١٩ . المؤلف مجهول : غرر السير : ورقة ١١٩أ ، النخيلة : موضع قرب الكوفة على سمت الشام . معجم البلدان : ٢٧٨/٥

(١٢٠) البلاذري : انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ٨ ب . الطبري : ٣٢١/٧ نبذة من كتاب التاريخ : ١٢٢ أ انظر : تاريخ خليفة بن خياط : ٤٣٠/٢ .

(١٢١) عن حوادث القتال راجع الطبري : ٣٢١/٧ ، ٣٢٢ .

(١٢٢) تاريخ خليفة بن خياط : ٣٩٧/٢ . انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ٨ ب

(١٢٣) تاريخ الرسل والملوك : ٣٢١/٧ .

(١٢٤) البلاذري : انساب الاشراف : ج ٨ ورقة ٩أ . الطبري : ٣٤٥/٧ . انظر تاريخ خليفة بن خياط : ٣٩٨/٢ .

(١٢٥) البلاذري : انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ٩ أ .

(١٢٦) الطبري : ٣٢٧/٧ . المؤلف مجهول : غرر السير : ورقة ١١٩ ب

(١٢٧) البلاذري : انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ٩أ . الطبري : ٣٢٧/٧ ، ٣٤٥ الأزردي : تأريخ الموصل : ٦٩/٢ . العيون والحدائق : ١٥٨/٣

(١٢٨) البلاذري : انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ١٩

(١٢٩) الطبري : ٣٢٧/٧ ، ٣٢٨

(١٣٠) ن . م . ٣٢٧/٧ .

(١٣١) يزيد بن عمر بن هبيرة : ابو خالد يزيد بن ابي المثنى عمر بن هبيرة بن معية بن سكين الغزاري ، من اهل الشام . ولد سنة ٨٧هـ ثم نشأ بدمشق . ولاه الوليد بن يزيد بن عبدالملك على قنسرين . كان مع مروان الثاني عندما غلب على دمشق . وفيات الأعيان : ٣٥٧/٥ . انظر الطبري . ٢٣٧/٧ .

الخوارج)[132] .

سار ابن هبيرة على رأس قوة عسكرية كبيرة قدرها البلاذري بستين الف مقاتل[133] قاصداً الكوفة فنزل «عين التمر» في حين خرج من الكوفة المثنى بن عمر العائذي على رأس قوة من الخوارج . والتقى الفريقان عند «عين التمر» ودارت بينهما معركة ضارية استمرت عدة أيام ، انتصر فيها ابن هبيرة ، وقتل المثنى وانسحب الخوارج الى الكوفة[134] .

سار ابن هبيرة قاصداً الكوفة فنزل «الروحاء» وقدم اليه الخوارج بقيادة منصور بن جمهور الكلبي ، فاقتتل الفريقان عند «الروحاء» فانتصر ابن هبيرة وانهزم الخوارج[135] . وبهذا الانتصار الحاسم تمهد السبيل امام ابن هبيرة لدخول الكوفة ، فسار نحوها ودخلها في شهر رمضان سنة ١٢٩هـ/ مايس ٧٤٦م بدون مقاومة[136] .

وعندما بلغت الضحاك اخبار الهزائم التي لحقت اتباعه في العراق وجه عبيدة بن سوار التغلبي على رأس قوة من الخوارج ، عسكر بهم شرق «الصراة» . ولما بلغ ابن هبيرة خبر تجمع الخوارج في الصراة ، سار نحوهم وعسكر غرب الصراة ، فدارت معركة بين الفريقين قتل فيها عبيدة ، وانتصر ابن هبيرة ، وانهزم الخوارج وتفرقوا في الأمصار[137] .

سار ابن هبيرة الى واسط ودخلها بدون اية مقاومة من قبل عبدالله بن عمر[138] فأخذ عبدالله وقيده ثم بعث به الى مروان الثاني فسجنه في مدينة حران[139] .

اضافة الى ماتقدم فان امير العراق ابن هبيرة منذ ان تولى حكم العراق كان قد انشغل بالاوضاع التي كانت سائدة في المشرق الاسلامي ، فقد تكونت هناك عدة قوى كانت مناوئة للحكم الأموي[140] ورغم محاولات والي خراسان نصر بن سيار الكناني لكسب بعض هذه القوى الى جانبه الا ان محاولاته باءت بالفشل ، مما ادى الى تكتل هذه القوى فيما بينها فأدى هذا التكتل الى ضعف الحكم الأموي هناك[141] .

وبما ان الخليفة مروان الثاني كان مشغولاً بقتال الخوارج[142] فقد عهد الى امير العراق ابن هبيرة معالجة الوضع في المشرق باعتباره انه كان تابعاً لادارته[143] . وقد بذل ابن هبيرة جهوداً كبيرة للقضاء على القوى المناوئة للحكم الأموي[144] ، الا ان جهوده باءت بالفشل وذلك لأن أخطر هذه القوى وهم دعاة العباسيين كانوا قد ركزوا جهودهم في هذه الرقعة من الدولة الأموية وتعاونوا مع بقية القوى المناوئة للحكم الأموي هناك فأعلنوا ثورتهم واستولوا على المشرق ، ثم توجهوا غرباً للاستيلاء على بقية أقاليم الدولة الأموية[145] .

يتبين مما تقدم انه نتيجة لجهود امراء العراق بلغت الدولة العربية أوج سعتها في فترة البحث ، فقد سجلت الجيوش العربية انتصارات عظيمة في المشرق ، على الرغم من صعوبة وسائل التنقل ، وقلة عددهم وعدتهم اذا ماقارناهم بعدد وعدة الامم التي اجتمعت عليهم وحرروا اراضي واسعة ومجتمعات عديدة كانت تعاني من الاستغلال والاستبعاد من قبل حكامها ، واستطاعوا ادارة هذه الأقاليم بكفاءة عالية ، وأقاموا حضارة متقدمة لاتزال آثارها شاخصة لحد الآن .

هذا ومن الجدير بالذكر هنا هو اننا لم نسمع عن حركات تحرير عربية بهذه السعة بعد هذا التأريخ بل ان الدولة العباسية لم تتمكن حتى من المحافظة على الأرض التي حررت في هذه الفترة لاسباب هي خارجة عن نطاق هذا البحث .

---

(١٣٢) تأريخ خليفة بن خياط : ٤٠٣/٢ . انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ١٠ أ . اليعقوبي : تاريخ ٣٣٩/٢ . الأزدي : تاريخ الموصل : ٧٤/٢ . العيون والحدائق : ١٩٤/٣ الطبري : ٣٤٧/٧ .

(١٣٣) انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ١٠ أ . انظر العيون والحدائق : ١٦٤/٣

(١٣٤) تاريخ خليفة بن خياط : ٤٠٣/٢ ، ٤٠٤ . انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ١٠ أ الطبري : ٣٢٨/٧ . العيون والحدائق : ١٦٤/٣ .

(١٣٥) انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ١٠ أ . الطبري : ٣٢٨/٧ . العيون والحدائق : ١٦٤/٣ الروحاء : قرية من قرى بغداد على نهر عيسى : معجم البلدان : ٧٦/٣

(١٣٦) الطبري : ٣٢٩/٧

(١٣٧) الطبري : ٣٢٩/٧ ، ٣٥١ . تاريخ خليفة بن خياط : ٤٠٤/٢ . انساب الاشراف : ح ٨ ورقة ١٠ أ . العيون والحدائق : ١٦٤/٣ ، ١٦٥ . المؤلف مجهول : غرر السير : ورقة ١٢١ أ . الصراة : يقول ياقوت : « صراة تستمد من الفرات ، بنى عليها الحجاج بن يوسف مدينة النيل التي بأرض بابل» . معجم البلدان : ٣٩٩/٣

(١٣٨) تأريخ خليفة بن خياط : ٤٠٥/٢ . ابن قتيبة : المعارف : ٣٦٩ .

(١٣٩) الاخبار الطوال : ٣٥٨ . الامامة والسياسة : ١١٦/٢ . المعارف : ٣٦٩ . انساب الاشراف : ح ٣ ورقة ٣٢ ب . الازدي : تاريخ الموصل : ٧٧/٢ المؤلف مجهول : غرر السير : ورقة ١٢١ ب .

حران : احدى مدن الجزيرة وهي قصبة ديار مضر ، تقع على طريق الموصل - الشام ، حررها القائد عياض بن غنم في زمن الخليفة عمر بن الخطاب . معجم البلدان : ٢٣٥/٢

(١٤٠) عن هذه القوى انظر : الدكتور فاروق عمر : طبيعة الدعوة العباسية : ١٦١-٢٠٤ . الدكتور محمد عبدالحي شعبان : الثورة العباسية : ٢١٨ - ٢٥٦ . الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٢٢٧ - ٢٤٣ .

(١٤١) انظر : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٢٢٦

(١٤٢) الطبري : ٢٩٢/٧ ، ٣٤٤ وما بعدها .

(١٤٣) د . عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٢٢٦ ، ٢٢٧

(١٤٤) انظر : تاريخ خليفة بن خياط : ٤٠٨/٢ ، ٤٠٩ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ الاخبار الطوال : ٣٦٩ . المعارف : ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٤١٨ . انساب الاشراف . ح ٣ ورقة ٣٣ ب ، ٣٤أ . اليعقوبي : تاريخ : ٣٤١/٢ ، ٣٤٣ . الطبري : ٣٥١/٧ ، ٣٣٣ ، ٣٩١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١٣ . الازدي : تاريخ الموصل : ١٠٧/٢ ، ١١٦ ، ١١٧ . غرر السير : ورقة ١٢١ب ، ١٣٨ب ، ١٤٠ أ . اخبار الدولة العباسية : ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٢٨ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣-٣٦٦ ، ٣٧٢ . العيون والحدائق : ١٦٥/٣ ، ١٦٦ ، ١٩٣ ، ١٩٤ .

(١٤٥) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٢٢٧

مصادر ومراجع البحث

ابن اعثم : احمد بن عثمان الكوفي (ت ٣١٤ هـ/٩٢٦م)

«كتاب الفتوح» ط ١ (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد ، الدكن – الهند ١٣٩٠– ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٠–١٩٧٥م

الازدي : ابو زكريا يزيد بن محمد (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م)

«تاريخ الموصل» تحقيق : علي حبيبة (القاهرة ١٩٦٧)

البلاذري : احمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)

«انساب الاشراف» نسخة مصورة بالفوتستات في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب بجامعة بغداد تحت رقم (١٦٣٤ ، ١٩٤٤) ١١ جزء عن النسخة الاصلية في معهد المخطوطات العربية في الرباط رقم (٦٨)

«فتوح البلدان» نشر صلاح الدين المنجد (القاهرة ١٩٥٧)

البيروني : ابو الريحان محمد بن احمد (ت ٤٣٠هـ/١٠٤٨م)

«كتاب الجماهر في معرفة الجواهر» (حيدر آباد الدكن ١٣٥٥هـ)

ابن خلكان : شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)

«وفيات الأعيان وابناء الزمان» ٨ اجزاء تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

ابن خياط : ابو عمر خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)

«تاريخ خليفة بن خياط» تحقيق الدكتور اكرم ضياء العمري (مطبعة) الآداب ، النجف ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م)

الدينوري : ابو حنيفة احمد بن داود (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م)

«الاخبار الطوال» تحقيق عبدالمنعم عامر (القاهرة ١٩٦٠)

دكسن : الدكتور عبدالأمير : «الخلافة الأموية» بيروت ١٩٧٣

الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)

«تأريخ الرسل والملوك» تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف (القاهرة ١٩٦٠ – ١٩٦٩) .

ابن قتيبة : ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)

«الامامة والسياسة» تحقيق الدكتور طه محمد الزيني ، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه (القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)

«المعارف» تحقيق ثروت عكاشة ، مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٦٠)

المعاضيدي : الدكتور خاشع

«العداء الفارسي للعرب وقادسية صدام» منشورات وزارة الثقافة والأعلام بغداد ١٩٨١

المعاضيدي : الدكتور عبدالقادر سلمان

«واسط في العصر الأموي» دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م

المؤلف مجهول :

«تاريخ الخلفاء» نشر بطرس غرياز نيويج ، دار العلم للنشر (موسكو ١٩٦٧)

المؤلف مجهول :

«العيون والحدائق في اخبار الحقائق» ج ٣ ط . دي غوية . ليدن ١٨٧١م .

المؤلف مجهول :

«غرر السير» (رقيقة) عن مخطوطات مكتبة البولديان في اكسفورد رقم (٥٤٢) نسخة الدكتور عبدالأمير دكسن .

المؤلف مجهول :

«اخبار الدولة العباسية» تحقيق الدكتور عبدالعزيز الدوري والدكتور عبدالجبار المطلبي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، (مطابع دار صادر بيروت ١٩٧١) .

ابن منظور : ابوالفضل محمد بن كرم الانصاري (ت ٧١١هـ/١٣١١م)

«لسان العرب المحيط» دار لسان العرب ، بيروت ١٩٧٠ .

ياقوت : شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)

«معجم البلدان» ٥ ج دار صادر بيروت ١٩٥٧

اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٢٨٤هـ/١٨٩٧م) :

«تاريخ اليعقوبي» ٢ جزء ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ .

«البلدان» ليدن ١٨٩٢

الكبيسي : عبدالمجيد محمد صالح

«عصر هشام بن عبدالملك» بغداد ١٩٧٥

عمر : الدكتور فاروق

«طبيعة الدعوة العباسية» بيروت ١٩٧٠

شعبان : الدكتور محمد عبدالحي

«الثورة العباسية» دار الدراسات الخليجية ١٩٧٧

السهمي : حمزة بن يوسف بن ابراهيم (ت ٤٢٧هـ/١٠٣٥م)

«تأريخ جرجان» مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد (الدكسن الهند ١٩٥٠

نظرة في مصنفات وموارد الخزرجي مؤرخ اليمن

الدكتور : شاكر محمود عبدالمنعم
معهد المعلمين - بغداد

هذه نظرة سريعة ، ولكنها فاحصة ، في مصنفات واحد من المؤرخين المهمين في التاريخ العربي الاسلامي . حداني لتدوينها ماوقع من خلط بين أغلب الباحثين في تحديد مؤلفات الخزرجي وتسميتها ولابد من اعطاء معلومات أولية تقليدية في البحث عن هذا المؤرخ .

نسبه :

هو موفق الدين أبو الحسن علي[1] بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي بن وهاس الخزرجي الزَبيدي الشافعي الأنصاري ويعرف بابن النقاش وينتسب الى قبيلة الخزرج العربية .

مولده واسرته :

ان المراجع لا تشير الى التاريخ الذي ولد فيه الخزرجي ولا الى المدينة التي ولد فيها ، غير انه ولد في اليمن على الارجح وانتسب الى احدى مدنه المشهورة ، وهي مدينة زَبيْد فلقب بالزَبيْدي[2] . وغاية ماعرفناه عن مولد لايتعدى الحدس والتخمين . لقد كانت وفاته في آواخر سنة ٨١٢ «وقد جاوز السبعين»[3] ، لذلك فان مولده قد يكون محصورا بين سنة ٧٣٢ وسنة ٧٤٢ . أما المدينة التي ولد فيها فلعلها مدينة زبيد التي اكدت المراجع على نسبته اليها .

أما اسرته فكانت عريقة في نسبها الذي ينتهي بقبيلة الخزرج العربية التي ساعدت على نصرة الاسلام في بواكير محنته مع الشرك والضلال ، فجعلهم الرسول (ص) من الانصار . والمشهور من اسرته هو جده المعروف بابن وهاس الذي نُسب الى الزمخشري[4] قوله فيه :

لولا ابن وهـــاس وسابق فضلـــه
رعـــيت هشيا واستـــقـــيت مصردا[5]

تعليمه واشتغاله بالتأليف :

نشأ الخزرجي في اسرة كانت لها يد في اكتساب العلوم والمعارف كما كانت لها وجاهة لدى ملوك اليمن وخاصة من بني رسول .

لم يلق الخزرجي عناية مناسبة من قبل المؤرخين قديما وحديثا . ولذلك فقد كان نصيبه النسيان . الأمر الذي يصعب معه معرفة تفاصيل

(١) وردت ترجمته في :
ابن حجر ، المجمع المؤسس للمعجم المفهرس ، الورقة : ٤٤٣ العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، الورقة ٣٠٢ السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٥ ص ٢١٠ . والاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ١٦٠ وص ٢٢٧ .
حاجي خليفة ، كشف ، الظنون ، ج ١ ص ٣١٠ .
ابن العماد ، الشذرات ، ج ٧ ص ٩٧ .
محمد بن زبارة اليمني ، الملحق التابع للبدر الطالع ، ص ١٦١ .
البغدادي ، هدية العارفين ، ص ٧٢٨ .
مجلة المنهل ، مجلد ٦ ج ٥ ص ٢٠٨ - ٢١٢ .
وترجمة وآخرون لامجال لذكرهم .
(٢) انظر : مراجع تخريج ترجمته المذكورة آنفا .

(٣) انظر :
العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ٢ الورقة : ٣٠٢ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٥ ص ٢١٠ . ابن العماد ، الشذرات ، ج ٧ ص ٩٧ . اليمني ، الملحق التابع للبدر الطالع ، ص ١٦١ .
(٤) صاحب الكشاف المشهور
(٥) انظر : الضوء اللامع ، ج ص ٩ ٢١٠ . شذرات الذهب ، ج ٧ ص ٩٧ .

تعليمه وشيوخه . ومع ذلك فلا يستبعد انه تشبع بثقافة عصره كاللغة والآداب والحديث والفقه والتاريخ والنحو والانساب . وهذا ما نلمسه في مؤلفاته . قال عنه العيني[٦] : وكان قد اشتغل بالادب ناظماً وناثراً وكان متولعاً بالتاريخ . وأوضح السخاوي انه اشتغل بالأدب ولهج بالتاريخ فمهر فيه وقال «ذكره شيخنا»[٧] في معجمه . . . وقال في انبائه[٨] كان ناظماً ناثراً»[٩] . ان مصنفات الخزرجي التي بين أيدينا لا تدع مجالا للشك في قول السخاوي المذكور آنفا . ولم يكن الخزرجي بارعاً في كتابة التاريخ فحسب بل لقد كانت له وجهة نظر خاصة فيه . فهو يقول في مقدمة تاريخ اليمن : «حداني على جمعه مارأيت من اهمال الناس لفن التاريخ مع شدة احتياجهم اليه وتعويلهم في كثير من الأمور عليه لما يندرج في ضمنه من المواعظ والآداب وتفصيل شوابك الارحام والانساب ولولا معرفة التاريخ ما اتصل أحد من الخلف بشيء من اخبار السلف ولا عرف فاضل مفضول ولا امتاز معروف عن مجهول»[١٠] .

اهتم الخزرجي بتاريخ اليمن فجمع له تاريخاً كبيراً على السنين وآخر على الاسماء وآخر على الدول أو الملوك[١١] ، كما كتب تاريخاً لزبيد وعدن[١٢] . وأرخ الدولة الرسولية[١٣] منذ بدايتها حتى وفاة الملك الاشرف اسماعيل .

علاقته بالاشرف الغساني[١٤] :

اهتم الاشرف اسماعيل بالعلم والعلماء وتقريبهم والاحسان اليهم ، ويبدو أن الخزرجي كان من بين اولئك الذين حباهم الاشرف وقربهم منه وادناهم . ورغم علاقته الوثيقة ببعض ملوك بني رسول وخاصة الافضل وابنه الاشرف فقد جاءت لهجته صادقة – فيما ظهر لنا – وهو يدون تاريخهم[١٥] . واشار الخزرجي الى ان الاشرف انتدبه للحج عن والدته ، ولما رجع سامحه بخراج ارضه ونخله مسامحة مستمرة مستقرة[١٦] .

وصنف الخزرجي كتابه «طراز اعلام الزمن»[١٧] نزولا على رغبة الملك الاشرف الذي حدد له شكل الكتاب وتنسيق محتوياته[١٨] .

ويبدو ان الخزرجي نبغ[١٩] في أيام الاشرف اسماعيل . . وربما كان ذلك بسبب ما كان يلقاه من قبل الاشرف من تشجيع ومكافأة .

مؤلفاته :

١ – العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية[٢٠] ، وقد صدّر المؤلف كتابه هذا بفصل عن نسب بني رسول . وينتهي بوفاة الملك الاشرف سنة ٨٠٣ . قال عنه هنري كسلي كاي « وثلثان كاملان من الكتاب نقلا في اغلبها من كتب ثلاثة هي السيرة المظفرية والعقد الثمين وتاريخ الجندي»[٢١] . و « العقود اللؤلؤية » مرتب على السنين والدول ، وفيه يذكر المؤلف حوادث ووفيات كل سنة متبعا نظام الحوليات حسب تسلسل السنوات الهجرية وقال محقق هذا الكتاب « وجنح في كثير من الاحايين الى التعبير عن الحوادث بعبارات يظهر أنها يمانية عامية»[٢٢] . وترجم الى الانكليزية ونشره أربعة من أئمة المستشرقين هم : ريد هوس Sir J.W Redhouse وبراون BROWN ونيكلسون NICHOLSON وروجرس ROGERS أما الاصل العربي فقد عني بنشره محمد بسيوني عمل وطبع على نفقة أوقاف ذكرى الاستاذ جب سنة ١٩١١–١٩١٤ .

٢ – طراز الزمن في طبقات اعيان اليمن[٢٣] :

(٦) عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ٢ الورقة : ٣٠٢

(٧) ويقصد السخاوي «بشيخنا» ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢

(٨) والمقصود هنا انباء الغمر بأبناء العمر

(٩) انظر : السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢١٠ .

(١٠) السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ ، ص ٦٢ .

(١١) انظر : العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ٢ الورقة ، ٣٠٢ . السخاوي ، الضوء اللامع . ج ٥ ص ٢١٠ . حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ص ٣١٠ . ابن العماد . الشذرات ، ج ٧ ص ٩٧ . اليمني الملحق التابع ، ص ٦١ . البغدادي ، هدية العارفين ، ص ٧٢٨

(١٢) واسمه «مرآة الزمن في تاريخ زبيد وعدن» . انظر هدية العارفين ، ص ٧٢٨ .

(١٣) انظر : كشف الظنون ، ج ١ ص ٢٨٢ . وسنذكر اسماء كتبه كاملة فيما بعد .

(١٤) هو الملك الافضل العباس الغساني (٧٦١هـ – ٨٠٣هـ) من ملوك الدولة الرسولية في اليمن . وقد كتبت عنه دراسة نشرت عام ١٩٧٥ بعنوان الملك الاشرف الغساني وكتابه العسجد المسبوك ، دار التراث الاسلامي ، بيروت /١٩٧٥ . فلتراجع .

(١٥) ورغم ذلك فلقد كنا حذرين ونحن نعتمد على مؤلفات الخزرجي ونقارن ما كتبه بالمصادر الاخرى التي تحدثت عن بني رسول ، عند دراستنا لهم في الكتاب المنوه عنه في الحاشية السابقة .

(١٦) العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٧٥ .

(١٧) سيأتي ذكره . بعد قليل .

(١٨) انظر : نجم الدين عمارة بن ابي الحسن علي الحكمي اليمني (ت ٥٦٩) ، تاريخ اليمن ، القاهرة ، ١٣٧٦/١٩٥٧ (المقدمة التي كتبها هنري كسلي كاي ، ص ٢٢) .

(١٩) انظر : جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ٢١٩ – ٢٢٠

(٢٠) وهو الكتاب المطبوع الوحيد من بين مؤلفات الخزرجي .

(٢١) انظر : تاريخ اليمن ، لعمارة اليمني ، (المقدمة بقلم كاي ص ٢١) ، وسنذكر بايجاز المصادر التي اعتمد عليها الخزرجي .

(٢٢) انظر العقود اللؤلؤية ، ج ١ المقدمة ، ص د .

(٢٣) ويرد اسم الكتاب احيانا طراز اعلام الزمن في طبقات اعيان اليمن أما عنوان النسخة التي رأيناها بالمكتبة التيمورية تحت رقم (٧٨٣ تاريخ) ، فهو ما اثبتناه اعلاه . ومن هذا الكتاب نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٢٦٥٧ح .

ويقع في جزأين بمجلد واحد . اطلعنا عليه في خزانة المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية . يتحدث في الجزء الاول عن اليمن وفضائله ، ويبين فضل التاريخ وفي خلال ذلك يستشهد بأحاديث نبوية وأقوال عدد من البارزين والصحابة وفي الورقة ١٤ يقول وأول من وضع تاريخ هذه الامة عمر بن الخطاب (رض) ، ثم تحدث عن سيرة[٢٤] الرسول (ص) . والخلفاء الراشدين والخلفاء من بني امية وبني العباس .

وخصص الجزء الثاني لذكر تراجم من اعيان أهل اليمن وبدأ الجزء الثاني بأبيات شعر مطلعها :

هذا كتاب حسن وضعه   مستوعب اعيان أهل اليمن

وقد رتبت تراجمه حسب حروف المعجم وتنتهي بحرف الحاء يلي ذلك نقل من تاريخ مختصر لمؤرخ معاصر للسلطان قايتباي في القرن التاسع الهجري .

ثم جداول بأسماء الخلفاء منذ وفاة النبي (ص) حتى الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين .

ولم يشأ السخاوي أن يذكر اسم هذا الكتاب ، بل ذكر وصفاً له واطلق عليه «تاريخ اليمن» . وذكر بيت الشعر المذكور آنفاً[٢٥] . والواقع ان الوصف الذي أورده السخاوي لاينطبق تماماً على النسخة التي اطلعت عليها في المكتبة التيمورية ذات الرقم (٧٨٣ تاريخ)[٢٦] . وهذا يدفعنا الى الاعتقاد بأن السخاوي قد وقع في اشتباه بين مصنفات الخزرجي أو ان النسخة التي راجعناها كانت ناقصة وليس من سبيل الى ترجيح أحد الاعتقادين في الوقت الحاضر وقال كاي عن هذا الكتاب هو : «تراجم مرتبة على الهجاء اقتبس اكثرها من الجَنْدي مع مقدمة في سيرة الرسول (ص) ومنه نسخة في لندن والمتحف البريطاني»[٢٧] . ونقل جرجي زيدان هذا القول حرفياً[٢٨] . وربما كان كتاب الخزرجي الموسوم «بالعقد الفاخر» مكملاً لهذا الكتاب ولكن الأمر يحتاج الى دراسة وتحقيق .

٣ — العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك[٢٩] في من ولي اليمن من الملوك .

ويقع في عدة مجلدات على مايبدو ، اطلعنا على مجلد واحد[٣٠] منه كُتب عليه «الجزء الرابع من تاريخ الخزرجي المرتب على السنين والمهم من الاخبار» . ويبدأ بالفصل الرابع فيمن ملك عدن وصنعاء ويحتوي هذا الباب على عشرة فصول . ثم الباب الخامس فيمن سكن زبيد[٣١] ويتضمن اثني عشر فصلاً حينما يتكلم عن دولة الملك الاشرف اسماعيل[٣٢] وفي الورقة ٣٦٣ زيادة ذكر انها مأخوذة من مختصر الشهاب الحاليي المسمى بالكفاءة والاعلام وفيه تكلة اخرى مأخوذة من العقود اللؤلؤية للخزرجي . ووجدنا نسخة مشابهة لهذه النسخة في معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية[٣٣] . وذكر الاستاذ حمد الجاسر[٣٤] بأنه اطلع على مجلدين مشابهين لهذه النسخة احدهما في المكتبة المحمودية بالمدينة ورقمها ٢٥٥ تاريخ ، والآخر في مكتبة الحرم المكي واثبت فهرسا لنسخة مكتبة الحرم المكي[٣٥] .

وعن قيمة هذا الكتاب قال ابن الديبع هو أحسن مؤلف عن اليمن فنقل عنه وزاد عليه باقي تاريخ دولة الملوك من بني رسول[٣٦] .

---

(٢٤) وذلك من الورقة ١٩ حتى الورقة : ١٠٨ .

(٢٥) انظر : الاعلان بالتوبيخ ، ص ٢٢٧ .

(٢٦) والنسخة المصورة عنها بخزانة دار الكتب المصرية (رقم ١٢٦٥٧ ح ١)

(٢٧) انظر : تاريخ اليمن ، المقدمة بقلم كاي ص ٢١

(٢٨) تاريخ اداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ٢٢٠ .

(٢٩) ذكره ابن الديبع في قرة العيون ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٢٤ ، الورقة : ٢ أ .

(٣٠) انظر نسخة دار الكتب المصرية تحت رقم ٢١٥ ميكروفيلم المصورة عن نسخة مكتبة الامام يحيى رقم ٥٢ تاريخ .

وعدد ورقات هذه النسخة ٣٦٩ ورقة ذات لوح واحد . ويتحدث عن فضائل اليمن واخبار عدن وخطط صنعاء من دور ومساجد وجهات ثم يذكر اسلام أهل اليمن وعمال النبي (ص) على اليمن ويتخلل ذلك الحديث عن بعض الاحداث التاريخية ، ثم يذكر عمال بني امية وبني العباس ، ويتكلم عن القرامطة والدولة الصليحية وملوك صنعاء بعد الصليحيين . ثم يبدأ بعد ذلك بالباب الخامس . وقد اخطأت قائمة المخطوطات العربية بنسبة هذا الكتاب للملك الاشرف الغساني :

انظر : قائمة المخطوطات العربية المصورة بالميكروفيلم من الجمهورية العربية اليمنية التي صورتها دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ص ٢٩ . وانظر : مقالنا «توثيق العسجد المسبوك — وهل هو كتاب واحد ؟» ، المجلة التاريخية/ العدد الرابع ، بغداد ، ١٩٧٥ ص ٢٤١ فمابعد .

(٣١) انظر : الورقة : ٩٦

(٣٢) انظر : الورقة : ٣٢٧ وما بعدها .

(٣٣) ورقها ٧٣٦ تاريخ ميكروفيلم الا أن العنوان فيها : العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك .

(٣٤) «المؤرخون المنسيون» مجلة المنهل ، المطبعة العربية بمكة ، ١٣٦٥ ، مجلد ٦ ج ٥ ص ٢٠٨ — ٢١٢ .

(٣٥) وتقع نسخة الحرم المكي في ٥٠٥ صفحات كبيرة كل صفحة ٢٥ سطرا بخط النسخ الواضح وفيها ذيل منقول من كلام ابن الديبع من صفحة ٤٩١ الى صفحة ٥٠٥ وهي بخط الناسخ عبدالله بن يحيى بن علي بن ابراهيم بن المهدي بن احمد بن جحاف أتمها يوم الجمعة ثاني عشر جمادي الآخرة سنة ٩٩٥ . انظر : مجلة المنهل ، مجلد ٦ ج ٥ ص ٢١٠ — ٢١١ .

(٣٦) انظر : قرة العيون ، نسخة دار الكتب المصرية ، رقم ٢٢٤ ، الورقة : ٢ أ . ولدى مقارنة قرة العيون مع العسجد المسبوك للخزرجي (رقم ٢١٥ ميكروفيلم) تبين ان كتاب قرة العيون يتبع نفس المنهج الذي سار عليه الخزرجي مع الاختلاف في السنة التي ينتهي بها تاريخ كل من الكتابين .

وينسب للخزرجي كتاب «الكفاية والاعلام فيمن ولي اليمن وسكنها في الاسلام» ، ولدى مقارنتنا لكثير من فقراته مع كتاب العسجد المسبوك الذي تحدثنا عنه قبل قليل وجدنا تشابها كبيرا في ترتيب الفصول والمنهج والاسلوب [٣٧] وقال المرحوم الاستاذ فؤاد سيد بهذا الصدد معلقا على كتاب الكفاية والاعلام «والمرجح ان هذا الكتاب هو القسم الخاص باليمن من كتاب المؤلف المسمى العسجد المسبوك . . وهو ينسب للملك الاشرف بن رسول» [٣٨] . غير انه لابد من الاشارة الى ان العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك الذي أثبتنا [٣٩] نسبته للملك الاشرف هو كتاب آخر يختلف في ترتيبه وفصوله وأقسامه عن العسجد المسبوك المنسوب للخزرجي .

وعلى الرغم مما تقدم فيلوح لنا أنه لمن الضروري تقديم فكرة عن هذا الكتاب المسمى ب «الكفاية والاعلام فيمن ولي اليمن وسكنها في الاسلام» . وذلك لكثرة وروده ولوجود نسخ عديدة منه .

ويبحث ايضاً في تاريخ اليمن وملوكه وعلمائه [٤٠] . تحدث المؤلف في بدايته عن فضائل اليمن ثم ذكر اسلامهم [٤١] وعمال الرسول (ص) وعمال بني امية على اليمن وعمال بني العباس . وتكلم عن الدولة الصليحية والدولة الايوبية والدولة الرسولية في اليمن .

وتجدر الاشارة الى أن مؤلفات الخزرجي بحاجة الى دراسة خاصة وان هناك خلطا بين مؤلفات الخزرجي واختلافا في نسبتها ، حتى لقد تجاوز بعض الباحثين تسمية هذه المؤلفات دفعاً للاحراج كما فعل على سبيل المثال الاستاذ كاي ، فلم يشأ ان يسمي مؤلفات الخزرجي كلها فقال «وكُتب الخزرجي الاخرى التي ذكرها حاجي خليفة في معجمه قد تمثلها المخطوطات المحفوظة بمكتبة ليدن تحت ارقام ٧٠٥ ، ٧٤٨» [٤٢] . وهو قول مبتسر تنقصه الدقة ويفتقر الى الدليل . بينما مزج آخرون بين مؤلفات الخزرجي أو بين ما ألفه هو وما الفه غيره .

٤ – العقد الفاخر الحسن من طبقات أعيان اهل اليمن [٤٣] .

وهو مجلد يشتمل على الجزأين الثاني والثالث أوله باب الظاء المعجمة وهو الباب السابع عشر وآخره الباب الثلاثون ، وهو باب في تراجم اعلام النساء آخرهن السيدة الحرة ملكة اليمن . وهو مرتب على حروف المعجم . وربما اعتبر هذا الكتاب مكملاً لكتاب «طراز الزمن» الذي تحدثنا عنه قبل صفحات .

وتنسب للخزرجي كتب اخرى مثل مرآة الزمن في تاريخ زبيدة وعدن [٤٤] .

مصادر الخزرجي :

اعتمد الخزرجي على مصنفات الذين سبقوه واشار هو الى ذلك . ويستعمل كثيرا عبارة «قال علماء السير والتواريخ» [٤٥] اما الذين اعتمد عليهم فأبرزهم :

١ – الشريف عماد الدين ادريس [٤٦] (ت ٧١٤)

هو ابو محمد ادريس بن علي بن عبدالله بن سليمان كان أميراً على القحمة وحج في زمن الدولة الرسولية بأيام الملك المؤيد وكان محباً للعلم . له كتاب «كنز الاخبار في معرفة السير والاخبار» . اعتمد فيه على تاريخ

---

(٣٧) انظر الكفاية والاعلام . نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٢٠٦ ميكروفيلم ونسخة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية رقم ١١٨٢ ميكروفيلم . وقد صورنا نسخة دار الكتب المصرية وهي من مقتنياتنا الشخصية .

(٣٨) فهرس المخطوطات المصورة ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٢٤٥ حاشية (١) و ص ٢١٢ حاشية (١) .

(٣٩) انظر : «توثيق العسجد المسبوك» ، المجلة التاريخية ، العدد الرابع ، بغداد /١٩٧٥ / ص ٢٤١ فما بعد .

(٤٠) وهو موجود في دار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٠٦ ميكروفيلم وكانت قد صورته عن مكتبة الجامع الكبير بصنعاء وهو من الكتب الصادرة في المكتبة المذكورة ويرجع تاريخ نسخه الى سنة ١٢٢٥ وعدد أوراقه ٢٢٧ ورقة ذات لوحين وينقص قليلا من بدايته ونسخة ثالثة من هذا الكتاب موجودة في معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية تحت رقم ١١٨٢ ميكروفيلم كما توجد منه نسخ اخرى تتباين من حيث تاريخ نسخها ومنها :–
نسخة ثانية في معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بخط صلاح بن علي سنة ١٠٠٤ ثم نسخة المكتبة البلدية بالاسكندرية ونسخة ليدن رقم ٩٤٢ ونسخة باريس رقم ٥٨٣٢ ونسخة الفاتيكان رقم ١٠٢٢ ونسخة المتحف البريطاني رقم ٦٩٤١ ونسخة (خدا بخش بتنة بالهند ٢٨٨٣ – ف ٣١٠١) . ونسخة جامعة برنستن رقم ٥٣٢ مكتوبة سنة ١٠٢٩ . وغيرها كما اخبرني المرحوم الاستاذ رشاد عبدالمطلب أمين معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية : وانظر : فؤاد سيد ، فهرس المخطوطات المصورة ، ج ٢ ق ٣ ص ٢٤٥ و ص ٢١٢ .

بروكلمان ، ملحق ٢ ص ٢٣٨ ، كوركيس عواد ، جولة في دور الكتب الامريكية ، بغداد ، ١٩٥١ ، ص ٨٠ ، وله ايضاً المخطوطات العربية في دور الكتب الامريكية ، مجلة سومر ، بغداد ، ١٩٥١ ، مجلد ٧ ج ٢ ص ٢٤

(٤١) يعني اسلام أهل اليمن .

(٤٢) انظر : مقدمة كتاب تاريخ اليمن ، ص ٢٢ بقلم هنري كسلي كاي
Brockelmann, Geschicht Der Arabischen Litteratur Von , op. cit. 11 . P. 238

(٤٣) اطلعنا على هذا الكتاب الذي ينسب للخزرجي في معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية وهو تحت رقم ٣٣٧ ميكروفيلم مصور عن نسخة كيمبرج ومكتوب بخط النسخ الجيد ولقد لاحظنا على الصفحة الاخيرة تقييدات غير واضحة . وذكر هذا الكتاب كل من :
فؤاد سيد ، فهرس المخطوطات المصورة ، ج ٢ ق ١ ص١٨٤ .
الزركلي ، الاعلام ، ج ٥ ص ٨٣–٨٤ . وذكره حمد الجاسر وقال لا اعرف عنه شيئاً . انظر : المنهل ، مجلد ٦ ج ٥ ص ٢١٢ .

(٤٤) انظر : الزركلي ، الاعلام ، ج ٥ ص ٨٣ – ٨٤ . البغدادي ، هدية العارفين ، ص ٧٢٨ .

(٤٥) انظر مثلا . الكفاية والاعلام ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٢٠٦ ، الورقة : ٩ ب

(٤٦) انظر ترجمته في : يحيى بن الحسين ، غاية الاماني ، ص ٤٩١ . ادريس بن الحسن الآنف ، نزهة الأفكار ، الورقة : ١٥٨ ب ، جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ٢٢٠ .

الطبري وتاريخ ابن الاثير وتاريخ المسعودي ، ثم اضاف اليه اخبار العراق ومصر والشام الى سنة ٧١٣ واخبار اليمن الى سنة ٧١٤ , ولقد تقدم ذكره فيا سبق ، واشار الخزرجي الى اعتماده على كنز الاخبار تصريحا في اغلب مصنفاته .

٢ – الجندي (ت ٧٣٢) :

القاضي ابو عبدالله يوسف بن يعقوب المعروف بالبهاء الجندي صاحب كتاب « السلوك في طبقات العلماء والملوك»[٤٧] رتبه بشكل طبقات ووصل به الى آخر سنة ٧٣٠ ويقع في عدة اجزاء اطلعنا على قسم منه في دار الكتب المصرية . وأكد الخزرجي انه اعتمد على الجندي ونهل من فيض علمه الغزير وانه سار على منواله[٤٨] .

٣ – عمارة اليمني (ت ٥٦٩) :

هو نجم الدين عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني ، له كتاب تاريخ اليمن الذي طبع عام ١٩٥٧/١٣٧٦ وقد كتب مقدمة له هنري كسلي كاي ، كما أن الخزرجي اعتمد على كتاب آخر لعمارة اليمني هو المفيد في اخبار زبيد[٤٩] .

٤ – ابن عبدالمجيد اليماني (ت ٧٤٣) :

تاج الدين عبد[٥٠] الباقي ابن ا عبدالمجيد اليماني صاحب كتاب بهجة الزمن في تاريخ اليمن . وقد طبع هذا الكتاب . ويبدو ان الخزرجي اطلع على هذا الكتاب واعتمد عليه[٥١] .

٥ – السيرة المظفرية[٥٢] . وهي في سيرة الملك المظفر يوسف بن رسول (٦٤٧–٦٩٤) . وقد اشار كاي الى اعتماد الخزرجي على هذا الكتاب[٥٣] .

٦ – ابن المجاور الشيباني (ت ٦٩٠) .

جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بأبن المجاور الشيباني الدمشقي . صاحب تاريخ المستبصر أو «صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز» وقد طبع عام (١٩٥١–١٩٥٤) في ليدن باشراف ابوبكر لوفغرين .

٧ – الحاتمي الهمداني :

بدرالدين محمد بن حاتم الهمداني . وكتابه الذي اعتمد عليه الخزرجي يطلق عليه اسم العقد الثمين[٥٣] . وفي دار الكتب المصرية اطلعنا على نسخة خطية كتب عليها : «السمط الغالي الثمن في اخبار الملوك من الغز باليمن رقم (٥٣٠) وهو مجلد ضخم يشتمل على ٣٠٥ صحيفة من القطع المتوسط ، تعرض فيه لذكر سلاطين بني أيوب كما تكلم بأسهاب عن سيرة الملك المظفر الرسولي وولده الاشرف ومناقبهما في اليمن[٥٤] .

٨ – وذكر الشيخ حمد الجاسر ان الخزرجي نقل ايضاً عن الشيخ مسلم الشيرازي في كتابه عجائب وغرائب الاشعار الذي الفه للملك المعز طغتكين . كما نقل عن جياش بن نجاح عن كتابه المفيد في اخبار زبيد[٥٥] .

يعتبر الخزرجي من المؤرخين الموثقين والمتخصصين بتأريخ اليمن . ومع أن كتاباته كانت شبه رسمية لكنك تجد فيها لهجته الصادقة .وخاصة في المدة التي عاشها والمدة التي عاصرها . أما بالنسبة لتأريخ اليمن المبكر فان أهمية كتاباته تكمن في اعتماده على مصنفات تعتبر مفقودة في الوقت الحاضر على انه لابد من الاشارة الى ان الخزرجي في منهجه كان متأثراً الى حد كبير بأسلوب عصره . الذي ازدهرت فيه الكتابات الموسوعية والتي اتسمت في بعض الاحيان بتدوين الغث الى جانب السمين ، وشابتها عامية طفيفة ، لكنها على ما فيها من هنات، لا بد من ان يصار الى دراستها وتحقيقها بدقة وحذر وحينئذ تؤتي ثمارها في مجال دراسة التاريخ والله الموفق .

---

(٤٧) منه نسخة في دار الكتب المصرية تحت رقم ٩٩٦ تاريخ مصورة عن مخطوطة كوبرلي رقم ١١٠٧ ومختصر كاي تحت رقم ٩٩٦ تاريخ لندن ١٨٩٢ . والجزء الثالث منه موجود في الخزانة المتوكلية بالجامع الكبير بصنعاء . انظر : فهرست الخزانة المتوكلية بالجامع المقدس بصنعاء ، صنعاء ، ج ١ ، ص ٧٤٤ .

(٤٨) العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٣٢ ، ص ٣٩ ، ص ٥٧ . مقدمة كتاب تاريخ اليمن ، ص ٢١ – ٢٢ المنهل ، مجلد ٦ ج ٥ ص ٢١٢ .

(٤٩) المنهل ، مجلد ٦ ، ج ٥ ص ٢١٢ .

(٥٠) انظر ترجمته في ابي مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ٢٥١ – ٢٥٣ المنهل مجلد ٦ ج ٥ ، ص ٢١٢ .

(٥١) لم نستطع التعرف على هذا الكتاب ولعله من الكتب المفقودة .

(٥٢) انظر : عمارة اليمني : تاريخ اليمن ، (المقدمة بقلم كاي) ص ٢١ .

(٥٣) انظر : المنهل ، مجلد ٦ ، ج ٥ ، ص ٢١٢ تاريخ اليمن ، المقدمة ، ص ٢١ .

(٥٤) منه نسخة في مكتبة المتحف البريطاني تحت عنوان «السمط الغالي الثمن في اخبار ملوك اليمن» برقم (٢٧٥٤١) زيادات .

(٥٥) المنهل ، مجلد ٦ ، ج ٥ ص ٢١٢

الكتابة في مثالب العرب
« جانب من جوانب التحدي الشعوبي للأمة العربية »

الدكتور : محمد جاسم حمادي المشهداني
معهد الدراسات القومية والاشتراكية
قسم الدراسات التاريخية \ الجامعة المستنصرية

يمثل التحدي الشعوبي اختباراً صعباً لقوة شخصية الامة العربية وقيمها ومثلها السامية ، اختباراً صعباً لقوة مبادىء الاسلام ، اختباراً اصعب للأرادة والسيادة العربية ، ودورها القيادي الانساني في التاريخ البشري .

فبعد نجاح عمليات التحرير التي قام بها العرب المسلمين ، واتمام تحرير بلاد فارس من براثن الوثنية ، والظلم والاستعباد تهاوت ، والى الابد اعتى واعظم قوة في عالم العصور الوسطى حينذاك الا وهي الامبراطورية الساسانية في وقت كانت فيه تلك الامبراطورية تستهين بالعرب طوال عصورها السالفة

وبدلاً من ان يشكر الفرس للعرب حسن فعلهم معهم كما فعلت شعوب اخرى في مختلف انحاء العالم ، فأنهم انتهلوا من تاريخهم كل صغيرة وكبيرة ، فكان حافزاً لهم لاستعادة امجادهم الكسروية المندثرة ، وقد كشف هرمزانهم عن حقيقة نظرتهم الى العرب عندما قال للخليفة عمر بن الخطاب (رض) : «انا واياكم معاشر العرب ما خلى الله بيننا وبينكم كنا نغصبكم ونقتلكم فلما كان الله معكم لم تك لنا بكم يدان»[1] .

من هنا بدأت مؤامرة التحدي الفارسي للامة ابتداءاً من قتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب من قبل ابي لوءلوءة الفارسي ، ومروراً بالتحدي الفكري للامة العربية ممثلاً بحركتي الزندقة والشعوبية والغزو البويهي ، وانتهاءاً بالدور المتميز السيء الذي قام به نصير الدين الطوسي الفارسي والذي كان يرافق المغول ، وحثه لهم بضرورة الاسراع والتعجيل في غزو العراق .

وشمل التحدي الفارسي للعرب كل جوانب الحياة العربية الاسلامية ، سواء كانت دينية او ثقافية او فكرية او اجتماعية او اقتصادية او سياسية وعسكرية .

وعبر التحدي الفارسي عن نفسه اصدق تعبير في حركتي الزندقة والشعوبية اللتين كانتا مترابطتين مع بعضها البعض . فمن هدف احياء العقائد المجوسية القديمة ، وهدم الاسلام الى محاولة القضاء على القومية العربية وقيمها .

وسنتطرق هنا الى جانب من جوانب التحدي الشعوبي للامة العربية ممثلاً في الكتابة في مثالب العرب التي ابتدعها الفرس للطعن بالانساب العربية والطعن في القيم والمثل العربية الاسلامية ، ودور المفكرين العرب في مواجهة هذه البدعة والانتصار عليها وابطالها .

١ – خليفة بن خياط ، التاريخ ، ج ١ (النجف ١٩٦٧) ١١٩

ان هذا الجانب من التحدي يكشف عن النزعة العنصرية الاستعلائية التي كانت تتميز بها القومية الفارسية عندما عمدت الى اختلاق المثالب للطعن في الانساب العربية وفي الشخصية العربية لانهم كانوا يشعرون بمركز الثقل الذي كان يتمتع به العرب في الدولة العربية الاسلامية .

وقد وضح هذا الثقل من خلال تأكيد القرآن الكريم على اهمية العرب ، من خلال نزول القرآن الكريم بلغة العرب فقال تعالى : «وهذا لسانٌ عربيٌ مُبين»[٢] ، وقال تعالى : «ونزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين»[٣] ، وقوله تعالى : «انا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون»[٤] وقوله تعالى : «وكذلك انزلناه قرآناً عربياً»[٥] وقوله تعالى : «قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون»[٦] وقوله تعالى : «كتاب فصلت اياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون»[٧] وقوله تعالى : «انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون»[٨] وقوله تعالى : «وكذلك اوحينا اليك قرآناً عربياً»[٩] وقوله تعالى : «وهذا كتابٌ مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا»[١٠] ، وقوله تعالى : «وكذلك انزلناه حكماً عربياً»[١١] .

وخاطب الله تعالى نبيه محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله : «وكذلك ارسلناك في امة قد خلت من قبلها اممٌ . . .»[١٢] ، وقال تعالى : «كنتم خير امةٌ اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . . .»[١٣] ، ويؤكد ابن قتيبة ان المقصود بالامة في هذه الاية هي الامة العربية لانه لم يكن قد دخل في الاسلام بعد احد من غير العرب بالقدر الذي دخله العرب ، عندما نزلت تلك الاية ، ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : «من غش العرب لم يدخل شفاعتي ولم تنله مودتي» .

يتبين هنا مدى اهمية دور العرب وفضلهم ، وتأكيد القرآن الكريم والرسول (ص) على هذا الدور ، اما الفرس فما هو دورهم ؟ وما هو

٢ – القرآن الكريم ، سورة النحل ، اية ١٠٣
٣ – سورة الشعراء ، اية ١٩٥
٤ – سورة يوسف ، اية ٢
٥ – سورة طه ، اية ١١٣
٦ – سورة الزمر ، اية ٢٨
٧ – سورة فصلت ، اية ٢٣
٨ – سورة الزخرف ، اية ١١٣
٩ – سورة الشورى ، اية ٧
١٠ – سورة الاحقاف ، اية ١٢
١١ – سورة الرعد ، اية ٣٧
١٢ – سورة الرعد ، اية ١١٠

فضلهم على الامم الاخرى ؟ وقال ابن سعيد المغربي مقارناً بين العرب والفرس بقوله « . . . وشتان بين العرب والعجم ، وقد شرف الله تعالى العرب بان بعث منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، وانزل فيهم كتابه ، وجعل فيهم الخلافة والملك ، وابتَزَّ بهم مُلك فارس والروم ، وقرع بأسنتهم تاج كسرى وقيصر وكفى بذلك شرفاً لايطاول ، وفخراً لايتناول»[١٤] غير ان الفرس تجاهلوا هذا الدور المشرف للعرب ، وكشفوا عن حقدهم للعروبة والاسلام . قال الجاحظ : «ان عامة من ارتاب بالاسلام ، انما كان اول ذلك رأي الشعوبية ، والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي الى الضلال ، فأذا ابغض شيئاً أبغض اهله وان ابغض اللغة ابغض تلك الجزيرة ، واذا ابغض تلك الجزيرة احب من ابغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل فيه حتى ينسلخ من الاسلام ، اذ كانت العرب هي التي جاءت به وهي السلف والقدوة»[١٥] . وقال ابن قتيبة : «جعلنا الله واياك على النعم شاكرين . . . واعاذنا من . . . تحامل الشعوبية فأنها بفرط الحسد ونغل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة ، وتلحق بها كل رذيلة ، وتغلو في القول ، وتسرف في الذم ، وتبهت بالكذب ، وتكابر العيان ، وتكاد تكفر ثم يمنعها خوف السيف وتغص من النبي صلى الله عليه وسلم اذا ذكر بالشجا ، وتطرق منه على القذى ، وتبعد من الله بقدر بعدها ممن قرب واصطفى ، وفي الافراط الهلكة ، وفي الغلو البوار والحسد هو الداء العياء . . .»[١٦] ، ويضيف ابن قتيبة قائلاً : «ولم ارَ في هذه الشعوبية ارسخ عداوة ولا اشد نصباً للعرب . . .»[١٧] . «ومنهم من اقام على خساسة ينافح عن لؤمه ويدعي الشرف للعجم كلها . . . ويظهر بغض العرب يتنقصها ويستفرغ مجهوده في مشاتمها واظهار مثالبها وتحريف الكلم في مناقبها ، وبلسانها نطق ، وبهممها انف ، وبآدابها تسلح عليها ، فأن هو عرف خيراً سَتَرَهُ ، وان ظهر حقره . وان احتمل التأويلات صرفه الى اقبحها ، وان سمع سوءاً نشره وان لم يسمعه نفر عنه ، وان لم يجده تخرصه ، فهو كما قال القائل :[١٨]

ان يعلموا الخير يخفوه وان علموا
شراً اذيع وان لم يعلموا بهتوا

١٤ – القلقشندي ، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، (القاهرة ، ١٩٦٣) ٧٤
١٥ – الجاحظ كتاب الحيوان ٧/٢٢٠
١٦ – ابن قتيبة كتاب العرب او الرد على الشعوبية ، ص ٢٦٩
١٧ – نفسه ، ٢٧٠
١٨ – نفسه ، ٢٧٠

وكانت التحديات الفارسية في هذا الجانب قد تمثلت بالتكابة في مثالب العرب ، ولتحقيق هذا الهدف فأنهم اتخذوا عدة اجراءات تمهيداً لتحقيق ما يهدفون اليه وذلك عن طريق التعاون بين الفرس ومن ولاهم من بعض المتعاونين معهم ، وان من بين الامور التي ابتدعها الشعوبيون والزنادقة لتحقيق هذا الهدف هو قيامهم بنشر كل ما يتعلق بالتراث الفارسي القديم والتفاخر به ، وقد عبر الشاعر الفارسي الشعوبي المتوكلي في قصيدة له عن مدى تعلقه في تراث اجداده ، وذمه للعرب عندما قال .[١٩]

انا ابن الاركام من نسل جَمّ	وحائزُ إرث ملوك العجم
وطالب أوتارهم جهرة	فمن نام عن حقهم لم أنَمْ
فقل لبني هاشم اجمعين	هلموا الى الخلع قبل الندمْ
وعودوا الى ارضكم بالحجاز	لاكل الضباب ورعي الغنَمْ
فأني سأعلو سرير الملوك	بحدّ الحسام وحرف القلَمْ

وكان ابرز ممن كتب في ميدان احياء التراث الفارسي هو عبد الله بن المقفع ابو عمرو واسمه بالفارسية روزبه ، وكان احد النقلة من اللسان الفارسي الى العربي وقد نقل عدة كتب من كتب الفرس منها «كتاب خداينامة في السير» و «كتاب اثين نامة في الايين» ، «كتاب كليلة ودمنة» ، «كتاب مزدك» و «كتاب التاج في سيرة انوشروان» و «كتاب الاداب الكبير» ويعرف بماقرا جسنس» ، «كتاب الادب الصغير» ، كتاب «جوامع كليلة ودمنة» ، وقد قتله سفيان بن معاوية بموافقة الخليفة ابو جعفر المنصور[٢٠] .

اما ابو القاسم عبد الله بن احمد بن خرداذبة الفارسي ، فأنه صنف كتاب «جمهرة انساب الفرس والنواقل»[٢١]

اما علي بن عبيدة ابو الحسن الريحاني المعروف بالكاتب ، فأنه كان «يرمى بالزندقة»[٢٢] ، وصنف عدة مؤلفات منها كتاب «مهرازادجشنش» وكتاب كيلهراسف الملك» و كتاب «ادب جوانشير» وكتاب «ابن الملك»[٢٣] .

اما ابان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي اللاحقي فأنه نقل كتاب «كليلة ودمنة» و كتاب «سيرة اردشير» وكتاب «سيرة انوشروان» و كتاب : «بلوهر وبرداسف»[٢٤] .

وبعد ان دون هؤلاء الشعوبيين في اخبار الفرس وسيرهم نجد انهم انتقلوا الى مرحلة اخرى هو التحدي الصريح والواضح للعرب ، فكان اسحاق بن سلمة الفارسي الكاتب الذي صنف كتاباً في «فضل العجم على العرب»[٢٥] .

اما سهل بن هارون بن راهيوني الدستيميساني الفارسي ، الذي كان يخدم المأمون العباسي ، وصاحب خزانة الحكمة ، فأنه كان : «شعوبي المذهب ، شديد العصبية على العرب». وله في ذلك كتب ورسائل كثيرة ، منها كتاب : «ادب اشك بن اشك» ، كتاب «ثعلة وعفرة على مثال كليلة ودمنة»[٢٦] .

وكان سليم صاحب بيت الحكمة مع سهل بن هارون ، قد ترجم عدة كتب من الفارسية الى العربية[٢٧] .

وكتب ابو الحسن محمد بن القاسم البصري كتاب : «اخبار الفرس وانسابها» و كتاب «المنافرات بين القبائل واشراف العشائر»[٢٨] .

اما ابو عثمان بن حميد بن البختكان الفارسي فأنه كان شديد العصبية على العرب وكان يدعى انه من اولاد ملوك الفرس وله من الكتب : كتاب «انتصاف العجم من العرب ، ويعرف بالتسوية» ، وكتاب «فضل العجم على العرب وافتخارها»[٢٩] .

وصنف ابو الحسن علي بن فضيل بن مروان الفارسي كتاب «الاصنام وما كانت العرب والعجم تعبد من دون الله تبارك اسمه»[٣٠] .

اما اسحاق بن سلمة الفارسي الكاتب فأنه صنف كتاب «فضل العجم على العرب»[٣١] .

وكتب حمزة بن الحسن الاصبهاني كتاب «الشعوبية»[٣٢] في حين صنف ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن غالب الاصبهاني الملقب باح كتاب : «التوشيح والترشيح في بعض الثنوية بين الشعوبية»[٣٣]

---

١٩ – انظر شوقي ضيف ، تاريخ الادب العربي ١/١٠٠
٢٠ – ابن النديم الفهرست ، ١٣٢
٢١ – نفسه ، ١٦٥
٢٢ – الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ١٢ (القاهرة ، ١٩٣١) ١٨ ، الذهبي ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، ج ٣ (القاهرة ، ١٩٦٣) ١٤٤
٢٣ – ابن النديم الفهرست ١٣٣
٢٤ – نفسه ، ١٣٢
٢٥ – نفسه ، ١٤٢
٢٦ – نفسه ، ١٣٣ ، ١٣٤
٢٧ – نفسه ، ١٣٤
٢٨ – نفسه ، ١٢٧
٢٩ – نفسه ، ١٣٧
٣٠ – نفسه ، ١٣٨
٣١ – نفسه ، ١٤٢
٣٢ – نفسه ، ١٥٤
٣٣ – نفسه ، ١٥١

التأليف في مثالب العرب :

المثالب هي «العيوب» مفردها المثلَبَةُ ، والمَثْلَبَةُ ، ورجل ثَلِبٌ مِثْلَبٌ اي معيبٌ[٣٤] ، وجمعها – المثالب وهي العيوب ، قال الزبيدي : «وما ثلبت مسلماً قط ومالك تثلبُ الناس وتثلم اعراضهم ، وما اشتهى الثلب الا من اشبه الكلب ، وما عرفت في فلان مثلبةً ، وفلان مثلوب وذو مثالب وما انت الا مثلب اي عادتك الثلب ، ومثالب الامير والقاضي معايبهُ . . .»[٣٥] .

تكاد المصادر تجمع على ان زياد بن ابيه المعروف بأبن سمية ، هو اول من الف في المثالب لما طعن عليه وعلى نسبه[٣٦] ، وعمل الكتاب لابنائه وقال لهم : «من عيركم فقرعوه بمنقصته ، ومن ندد عليكم فابدؤه بمثلبته فأن الشر بالشر يتقى والحديد بالحديد يفلح»[٣٧] ، وفي رواية قال لهم : «استظهروا به على العرب فأنهم يكفون عنكم»[٣٨] .

واتسع نطاق التأليف في مثالب العرب ، وقاد حركة التوسع هذه اقطاب الحركة الشعوبية ، وعلى رأسها علان الشعوبي الفارسي الوراق الذي كان منقطعاً الى البرامكة ، وصنف كتباً في مثالب جميع القبائل العربية ، وابرز كتبه في المثالب كتابه «الميدان في المثالب عمله للبرامكة ، والذي هتك فيه بالعرب واظهر مثالبها»[٣٩] وتناول فيه :

١ – مثالب قريش .
٢ – مثالب تيم بن مرة بن كعب .
٣ – مثالب بني اسد بن عبد العزى .
٤ – مثالب بني مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب .
٥ – مثالب سهم .
٦ – مثالب جمح .
٧ – مثالب سامة بن لؤي .
٨ – مثالب عبد الدار بن قصي .
٩ – مثالب ولد زهرة بن كلاب .
١٠ – مثالب بني عدي بن كعب .
١١ – مثالب سعد بن لؤي .
١٢ – مثالب الحارث بن لؤي .

---

٣٤ – ابن منظور ، لسان العرب ، م ١ (بيروت ، ١٩٥٥) ٢٤١
٣٥ – محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، م ١ (مصر ، ١٣٠٦) ١٦٧
٣٦ – ابن النديم ، الفهرست ، ١٠١
٣٧ – ابن قتيبة ، العرب او الرد على الشعوبية ، ٢٧١
٣٨ – ابن النديم ، الفهرست ، ١٠١
٣٩ – نفسه ، ١١٨

١٣ – مثالب خزيمة بن لؤي .
١٤ – مثالب عوف بن لوءي .
١٥ – مثالب عامر بن لوءي .
١٦ – مثالب اسد بن خزيمة .
١٧ – مثالب هذيل بن مدركة .
١٨ – مثالب بني امروء القيس بن زيد مناة بن تميم
١٩ – مثالب بني طابخة بن الياس .
٢٠ – مثالب بني ضبة بن اد .
٢١ – مثالب مزينة – بن اد .
٢٢ – مثالب الرباب .
٢٣ – مناكب عكل .
٢٤ – مثالب بلعم بن تيم .
٢٥ – مثالب تميم : ويشتمل على :
أ – مثالب عمرو بن تميم .
ب – مثالب اسد .
ت – مثالب اللخم .
ث – مثالب القين .
جـ – مثالب مأرب .
ح – مثالب الحبط .
خ – مثالب يربوع .
د – مثالب بنودارم .
ذ – مثالب ابراهيم .
ر – مثالب ربيعة الجوع .
ز – مثالب بنو سعد بن زيد مناة بن تميم
٢٦ – مثالب قيس عيلان .
٢٧ – مثالب غني
٢٨ – مثالب باهلة .
٢٩ – مثالب بني سليم بن منصور .
٣٠ – مثالب نمير .
٣١ – مثالب عامر بن صعصعة
٣٢ – مثالب ربيعة .
٣٣ – مثالب فزارة : ويشتمل على :
أ – مثالب بنو مرة بن غطفان .
ب – مثالب عبس بن بغيض
ت – مناكب ثقيف .
٣٤ – مثالب عجل بن لجيم .

٣٥ – مثالب تغلب بن وائل .

٣٦ – مثالب بني يشكر بن بكر .

٣٧ – مثالب النمر بن قاسط .

٣٨ – مثالب سدوس بن شيبان .

٣٩ – مثالب عنزة بن اسد .

٤٠ – مثالب تيم اللات (قاسط) بن ثعلبة .

٤١ – مثالب قيس بن ثعلبة .

٤٢ – مثالب حنيفة بن لجيم .

٤٣ – مثالب بني شيبان .

٤٤ – مثالب عبد القيس .

٤٥ – مثالب اياد .

٤٦ – مثالب اليمن ويشمل على :

أ – مثالب الاوس .

ب – مثالب الخزرج .

ت – مثالب قضاعة .

ث – مثالب طي .

ج – مثالب بنو الحارث بن كعب .

ح – مثالب النخع .

خ – مثالب خزاعة .

د – مثالب غسان .

ذ – مثالب كندة .

ر – مثالب الاشعريون .

ز – مثالب لخم .

س – مثالب جذام .

ش – مثالب عنس .

ص – مثالب مراد .

ض – مثالب السكاسك .

ط – مثالب القين .

ظ – مثالب نهد .

ع – مثالب زبيد .

غ – مثالب بجيلة .

ف – مثالب همدان .

ق – مثالب حضرموت .

ومن كتب في مثالب العرب ابو عبيدة معمر بن المثنى البصري مولى بني تيم (ت/٢١٠هـ) والذي كان يطعن في نسبه(٤٠) ، قال ابن حجر : «وكان مدخول النسب»(٤١) . وروى ابن حجر عن ابن قتيبة قوله عنه : «وكان يبغض العرب وصنف في مثالبها كتباً»(٤٢) . وقال عنه ابن قتيبة : «وكان ابو عبيدة اغرى الناس بمشاتم الناس والمجهم بمثالب العرب ، وحاله في نسبه وابيه الاقرب اليه حال نكره ان نذكرها فتكون كمن امر ولم يأتمر ، وزجر عن القبيح ولم يزدجر ، وهي مشهورة ، ولكن كرهنا ان تدون في الكتب وتخلد على الدهر ..»(٤٣) . وقال عنه الازهري : «كثير الخطأ في نفائس الاعراب متهماً في روايته مغري بشر مثالب العرب ، فهو مذموم من هذه الجهة ، غير موثوق به ...»(٤٤) .

ويؤكد الدوري ان ابو عبيدة رجع الى الروايات الفارسية ، ولذلك نجد اثر تيار الموالي – الفرس – واضحاً عليه(٤٥) ، وقد صنف ابو عبيدة عدة كتب في مثالب العرب والطعن في انسابهم منها :–(٤٦)

١ – كتاب المثالب .

٢ – كتاب المثالب الصغير .

٣ – كتاب المثالب الكبير .

٤ – كتاب مثالب ربيعة .

٥ – كتاب مثالب باهلة .

٦ – وقال ابن حجر نقلاً عن ثعلب قوله عنه : « ... وعمل كتاب المثالب الذي يطعن فيه على بعض اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وقارب المائة»(٤٧) .

ومن الف في مثالب العرب الهيثم بن عدي (ت / ٢٠٧هـ) والذي يضعف ويجرح من قبل علماء الجرح والتعديل عندما قال عنه يحيى بن معين (ت /٢٣٣هـ) والبخاري (ت /٢٥٦هـ) «ليس بثقة كان يكذب» وقال علي بن المديني (ت /٢٣٤هـ) : «لا ارضاه في شيء» وقال ابو داود (ت/٢٧٥هـ) : «كذاب تركوه» ، وقال النسائي «ت/٣٠٣هـ» وغيره : «متروك الحديث» ، وقالت عنه جاريته « ... فاذا اصبح جلس يكذب»(٤٨) .

---

٤٠ – نفسه ، ١١٢

٤١ – ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ج ١ (حيدر اباد) ٣٢٥ ١٣٢٧هـ) ٢٤٨

٤٢ – نفسه ، ٢٤٨/١٠

٤٣ – ابن قتيبة ، العرب ، ٢٧١

٤٤ – ابن حجر ، التهذيب ، ٢٤٨/١٠

٤٥ – د عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ١٣٤

٤٦ – الفهرست ، ١١٢

٤٧ – تهذيب التهذيب ، ٢٤٨/١٠

٤٨ – الذهبي ، المغني في الضعفاء ، ج ٢ (حلب ، ١٩٧١) ٧١٧ ، وميزان الاعتدال ٣٢٥/٤ .

وكتب في «مثالب ربيعة» ، وكتاباً بعنوان «لصوص العرب»(٤٩) .

اما تلميذه ابو حفص عمر فأنه كما يبدو قد تأثر بشيخه عندما صنف كتاب «الزناة الاشراف» ، وكتاب «ذكر سباب العرب وما جرى بينها»(٥٠) .

وممن كتب في مثالب العرب ابو الحصين محمد بن علي الاصفهاني في كتابه «مثالث ثقيف وسائر العرب»(٥١) وكتب ابو العباس احمد بن عبيد الله بن محمد الكاتب (ت / ٣١٩ هـ) رسالة في «مثالب معاوية» و «رسالة في ذم بني امية واتباعهم»(٥٢) .

دور العرب والمناصرين لهم
في الرد على اصحاب المثالث :

كان للمدرسة التاريخية العراقية دوراً مميزاً ومشرفاً في الرد على ادعاءات الحركة الشعوبية ومطاعنها في الانساب العربية وابتداعها المثالب العربية ، الامر الذي دفع المؤرخين العراقيين للدفاع عن العروبة والاسلام .

واول ادانة للمسلك الشعوبي هذا من القرآن الكريم الذي نهى فيه الناس عن اللجوء الى هذا المسلك السيّئ عندما قال تعالى : «يا أيها الذين امنوا لايسخر قوم من قوم .. ولاتنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون»(٥٣) .

ان الكتاب العرب قد بدأوا حملة منظمة لدحض الاراء والافكار الشعوبية ، ويبدو ان تفاخر الفرس كان عنيفاً ورد العرب كان اعنف ، حتى ان المؤرخ علي بن محمد المدائني البغدادي (ت / ٢٢٤ هـ) قد الف كتاباً بعنوان «مفاخر العرب والعجم» .

وقد اكد المؤرخون والنسابون تأكيداً كبيراً وواضحاً على الانساب العربية ، والكتابة فيها ، حتى انها دخلت كفرع مهم من فروع الفكر التاريخي في العراق ، بحيث دونوا التاريخ العربي الاسلامي في اطار النسب ، وابرز من دون في الانساب العربية ، منجور بن غيلان الضبي البصري (ت / في حدود ٨٥ هـ) الذي كان خطيباً ونسابة ، وصنف كتاباً في الانساب ، وكتب خراش بن اسماعيل الشيباني (ت ، ١٤٦ هـ) كتاب «اخبار ربيعة وانسابها» وكتاب «النسب العتيق في اخبار بني ضبة» ، وكتب عوانة بن الحكم الكلبي (ت / ١٤٧ هـ) «ديوان العرب واشعارها واخبارها وانسابها ولغاتها الى الوليد بن يزيد بن عبد الملك» .

اما ابو اليقظان سحيم بن حفص (ت / ١٩٠ هـ) فأنه صنف كتاب «نسب خندف واخبارها» و «النسب الكبير» ويحتوي على نسب اياد ، اسد بن خزيمة ، الهون بن خزيمة هذيل بن مدركة ، قريش بن طابخة ، قيس عيلان ، ربيعة بن نزار ، تيم بن مرة ، وكتب مؤرخ بن عمرو السدوسي (ت / ١٩٥ هـ) كتاب : «حذف نسب قريش» وكتب هشام أبن محمد الكلبي (ت / ٢٠٤ هـ) كتاب «الفريد في الانساب» و «الملوكي في الانساب» و «الموجز في النسب» و «نسب العباديين» ، وصنف محمد أبن عمر الواقدي المدني نزيل بغداد (ت / ٢٢٤هـ) كتاب في انساب القبائل ، وكتب سعيد بن الحكم بن ابي مريم (ت / ٢٢٤هـ) كتاباً في النسب ، وكتب علي بن محمد المدائني (ت / ٢٢٤هـ) كتاب «نسب قريش واخبارها» وكتب محمد بن سلام الجمحي (ت / ٢٣٢هـ) كتاب «نسب قريش» وفي رواية «انساب قريش واخبارها» اما مصعب بن عبد الله الزبيدي المدني نزيل بغداد (ت / ٢٣٦هـ) فأنه صنف كتاب «النسب الكبير» و «نسب قريش» ، وصنف محمد بن حبيب بن امية (ت / ٢٤٥ هـ) عدة كتب في الانساب منها «النسب» و «المؤتلف والمختلف في النسب» و «العمائر والربائع في النسب» .

اما أبو عبد الله محمد بن صالح البصري الهاشمي المعروف بأبن النطاح (ت / ٢٥٢هـ) فأنه صنف كتاب «انساب ازدعمان» ، وكتب احمد بن الحارث الخزاز البصري (ت / ٢٥٨هـ) كتاب «النسب» و «جمهرة نسب الحارث بن كعب واخبارهم في الجاهلية» . وكتب عمر أبن شبه النميري البصري (ت / ٢٦٢هـ) كتاب «النسب» ، ويعد احمد بن يحيى البلاذري البغدادي الكاتب (ت / ٢٧٩هـ) من ابرع علماء التاريخ والانساب ، ويعد كتابه : «انساب الاشراف» من ابرع الكتب التاريخية المكتوبة في اطار الانساب . وكتب ابو الفضل احمد بن ابي طاهر طيفور (ت / ٢٨٠هـ) كتاب «جمهرة نسب بني هاشم» . وصنف محمد بن يزيد المبرد (ت / ٢٨٥هـ) كتاب : «نسب عدنان وقحطان» ، وكتب السكري كتاب : «انساب بني عبد المطلب»(٥٤) .

وهناك بعض المؤرخين ممن كتبوا في تاريخ القبائل العربية ، فكتبوا في اصنافها ، ومآثرها ، ومناقبها ، والاحلاف فما بينها ، واخبارها . وتاريخها الامر الذي لعب دوراً مهماً في تفنيد واسقاط اساليب الدس والتزوير التي لجأت اليها الشعوبية في تشويه تاريخ القبائل العربية ، ومُثلها وقيمها . ويعلل ابن دريد (ت / ٣٢١هـ) سبب تأليفه لكتاب الاشتقاق بقوله : «ان قوماً ممن يطعن على اللسان العربي ، وينسب اهله الى التسمية بما لا اصل له في لغتهم ، والى ادعاء مالم يقع عليه اصطلاح من اوليهم ، وعدو اسماء اشتقاقها ، ولم ينفذ علمهم في الفحص عنها ...»(٥٥) .

في حين اتجه قسم اخر من المؤرخين بالرد المباشر على الادعاءات الشعوبية وتفنيد مطاعنها في العرب وقيمهم ، فكتب على بن بلال المهلبي كتاباً بعنوان «فضل

---

٤٩ – ابن النديم ، الفهرست .
٥٠ – نفسه ، ١١٣ .
٥١ – نفسه ١٥٢ .
٥٢ – نفسه ١٦٦ .
٥٣ – سورة الحجرات ، اية ١١ .

٥٤ – د . محمد جاسم المشهداني ، موارد البلاذري عن الاسرة الاموية في كتابه انساب الاشراف – اطروحة دكتوراه ج ١ (بغداد ١٩٨٣) ص ٦٤ – ٩٠ .
٥٥ – ابن دريد ، الاشتقاق (القاهرة ١٩٧٩) ص ٤ .

لعرب»[56] وكتب عبد الله بن جعفر الحميري كتاباً بنفس العنوان[57] ، اما عمر بن مطرف الكاتب المتوفى في عهد الرشيد ، فأن كان عالماً بالانساب وصنف كتاباً اسماه : «مفاخر العرب»[58] ، وكتب ابو الفضل احمد بن ابي طاهر طيفور كتاباً بعنوان : «فضل العرب على العجم»[59] ، وصنف اسحق بن سلمة كتاباً بعنوان «فضل العرب على العجم» ايضاً .

وكتب ابو عبدالله احمد بن محمد بن حميد العدوي كتاباً بعنوان «الانتصار في الرد على الشعوبية»[60] ، وكتب محمد بن سلام الجمحي (ت / ٢٣٢هـ) وكان عالماً بالانساب كتاباً اسماه : «الانتصار في الرد على الشعوبية» وكتب عمر بن مطرف الكاتب كتاب «مفاخرة العرب» و «مفاخرة القبائل في النسب» .

حتى ان ابن قتيبة الذي لم يكن عربياً ، بل كان منصفاً للعرب ، والدفاع عنهم فأنه الف كتاب «العرب او الرد على الشعوبية»[61] ومن ثم ظهرت كتب اخرى لتصحيح الاوهام والافتراءات التي جاءت بها الحركة الشعوبية ، ومنها كتاب الجاحظ الموسوم : «الصرحاء والهجناء»[62] وما كتبه في البيان والتبيين في «باب العصا» وفند فيه ارائهم السيئة في العرب ، ورد عليهم رداً عنيفاً .

ومن الامثلة على تصحيح اخطا وكذب الشعوبية ان احمد بن ابي دؤاد . قد دعي في اياد ، وهو ابو عبد الله احمد بن ابي دؤاد بن جرير بن مالك بن عبد هند بن لخم بن مالك بن قنص بن منعة بن دوس بن الديل بن امية بن حذافة بن زهر بن اياد بن نزار بن معد ، البصري المولود سنة ٢٤٠هـ ، يروى انه دعي في اياد ، وقد ذكرت حاله في احدى كتب المثالب ، عندما قال مخلد بن بكار يهجوه :

انتَ عِنْدي من اياد لَيسَ في ذاك كلام
عــربيٌ عــربيٌ عــربيٌ لايضــام
شعــر ساقــيْكَ وفـخـذيكَ خـزامى وثمام
وضلوع الشلْو من صَدْرِك نبعٌ وبشام
لو تحركت كـذا لانجفَـلتْ مِنكَ نعام
وظـبـاء مُـخضـبـاتٌ ويـرابـيع عـظـام
انـا مـاذنبي ان كـذّبني فـيكَ الانـام
ثم قالوا حاسميٌ من بني الانباط حسام
عربي عربيٌ حاسميٌ والسلام

٥٦ – الطوسي ، الفهرست (النجف ١٣٥٦ هـ) ٩٦ .
٥٧ – ابن النديم ، الفهرست ، ١٠٢ .
٥٨ – نفسه ، ١٤١ .
٥٩ – نفسه ، ١٦٣ – ١٦٤ .
٦٠ – نفسه ، ١٧٤ .
٦١ – الكتاب منشور ضمن كتاب «كنوز العرب» ونشر تحت عنوان «العرب او الرد على الشعوبية» .
٦٢ – ابن النديم ، الفهرست ، ٢١١ .

كما ان الكتاب بدأوا بايراد الادلة والاستشهاد بوقائع التاريخ التي تؤكد قوة وبطولة العرب حتى في عصور ماقبل الاسلام ، ولعل اروع نص نورده هنا لابن قتيبة عندما قال : «... واما الشجاعة فأن العرب في الجاهلية اعز الامم انفساً واعزها حريماً ، واحماها انوفاً واخشنها جانباً ، وكانت تغير في جنبات فارس وتطرقها حتى تحتاج الملوك الى مداراتها واخذ الرهن منها ، والعجم تفخر بأساورة فارس ومرازبتها ... غير ان بين العرب وبينها في ذلك فرقاً منه ان العجم كانت اكثر اموالاً واجود سلاحاً واحصن بيتاً ... والعرب يومئذ ... ليس لها نظام ومتفرقة ليس لها التئام واكثرها يحارب راجلاً بالسيوف الكليل ... والاغلب على قتال العجم الرمي ، والاغلب على قتال العرب السيف والرمح وهما ادخل في الجد وابعد من الفرار وادل على الصبر»[64] .

اما بعد ظهور الاسلام ، وتوحد العرب فأن ابن قتيبة يقارن بين العرب والفرس بقوله : «... ثم تساوى العرب وفارس في ان الفريقين ملكوا وتفضلها العرب بأن قواعد ملكها نبوة وقواعد ملك فارس استلاب وغلبة ، وتفضلها العرب بأن ملكها ناسخ وملك فارس منسوخ ، وتفضلها بأن ملكها متصل بالساعة وملك فارس محدود ، وتفضلها العرب بأن ملكها واغل في اقاصي البلاد داخل في افاق الارض ، وملك فارس شظية منه وليس فيه شام ولاجزيرة ولا خراسان في اكثر مدرهم ولا اليمن الا في ايام وهرز وسيف بن ذي يزن»[65] .

وقد نجحت جهود مواجهة التحدي بأيقافه والكف في الكتابة في مثالب العرب ، بل تعداه للرد حتى على الزنادقة ، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد ان ابو الحسن احمد بن يحيى صنف كتاباً في «الرد على

٦٣ – نفسه ، ٢١٢ .
٦٤ – ابن قتيبة ، العرب ، ٢٨٩ .
٦٥ – نفسه ، ٢٧٦ .

الزنادقة»[٦٦] ، وكتب محمد بن هارون بن محمد ابو عيسى الوراق كتاباً في «الرد على المجوس»[٦٧] ، وصنف ثمامة الاصم كتاباً بنفس العنوان اضافة الى كتاب آخر في الرد على الزنادقة[٦٨] ، وصنف بشر بن المعتمر كتاباً اسماه : «الرد على المجوس»[٦٩] ، وصنف ابو محمد بن الحكم الكوفي نزيل بغداد كتاباً بعنوان : «الرد على الزنادقة» واخر بعنوان «الرد على اصحاب الاثنين»[٧٠] ، وصنف ضرار بن عمرو ابو عمرو المعتزلي كتاباً اسماه : «الرد على الزنادقة»[٧١] ، وكذلك صنف محمد بن الليث الخطيب كتاباً بنفس العنوان ولذلك كانت البرامكة تبغضه لهذا السبب[٧٢] . وغيرها من الكتب الكثيرة .

وادت هذه الجهود المخلصة الى المحافظة على الاصالة العربية وصيانة المثل والقيم العربية ، والمحافظة على روح الاسلام الذي حمل لوائه العرب .

ولذلك فأن صراعنا مع الفرس اليوم هو امتداد تاريخي لذلك الصراع الطويل معهم على مر التاريخ وفي مختلف الجوانب ، وما نصرنا اليوم الا امتداداً لانتصاراتنا السابقة عليهم في مختلف الازمنة وعلى مختلف الاصعدة : « . . . فذو الهمة تسمو به نفسه الى معالي الامور وترغب به عن الشائنات فيخاطر في طلب العظيم بعظيمته ، ويستخف في ابتغاء المكارم بكريمته ، ويركب الهول ويدرع الليل ، ويحط الى الحضيض ، وتأبى نفسه الا علواً حتى يسعد بهمته ويظفر ببغيته ، ويحوز الشرف لنفسه وذريته . . .»[٧٣] .

٦٦ – ابن النديم ، الفهرست ، ٢١٧
٦٧ – نفسه ، ٢١٦
٦٨ – نفسه ، ٢١٤
٦٩ – نفسه ، ١٨٤ – ١٨٥
٧٠ – نفسه ، ٢٢٣ ٢٢٤
٧١ – نفسه ، ٢١٥
٧٢ – نفسه ، ١٣٤
٧٣ – ابن قتيبة ، العرب ، ٢٨١

اثر العراق الحضاري على الأندلس في القرنين الثاني والثالث للهجرة

١٠١ – ٣٠٠هـ / ٧٢٠ – ٩١٢م

الدكتور خليل ابراهيم السامرائي
كلية التربية – قسم التاريخ
جامعة الموصل

الزنادقة»(٦٦) ، وكتب محمد بن هارون بن محمد ابو عيسى الوراق كتاباً في «الرد على المجوس»(٦٧) ، وصنف ثمامة الاصم كتاباً بنفس العنوان اضافة الى كتاب آخر في الرد على الزنادقة(٦٨) ، وصنف بشر بن المعتمر كتاباً اسماه : «الرد على المجوس»(٦٩) ، وصنف ابو محمد بن الحكم الكوفي نزيل بغداد كتاباً بعنوان : «الرد على الزنادقة» واخر بعنوان «الرد على اصحاب الاثنين»(٧٠) ، وصنف ضرار بن عمرو ابو عمرو المعتزلي كتاباً اسماه : «الرد على الزنادقة»(٧١) ، وكذلك صنف محمد بن الليث الخطيب كتاباً بنفس العنوان ولذلك كانت البرامكة تبغضه لهذا السبب(٧٢) . وغيرها من الكتب الكثيرة .

وادت هذه الجهود المخلصة الى المحافظة على الاصالة العربية وصيانة المثل والقيم العربية ، والمحافظة على روح الاسلام الذي حمل لوائه العرب .

ولذلك فأن صراعنا مع الفرس اليوم هو امتداد تاريخي لذلك الصراع الطويل معهم على مر التاريخ وفي مختلف الجوانب ، وما نصرنا اليوم الا امتداداً لانتصاراتنا السابقة عليهم في مختلف الازمنة وعلى مختلف الاصعدة : « . . . فذو الهمة تسمو به نفسه الى معالي الامور وترغب به عن الشائنات فيخاطر في طلب العظيم بعظيمته ، ويستخف في ابتغاء المكارم بكريمته ، ويركب الهول ويدرع الليل ، ويحط الى الحضيض ، وتأبى نفسه الا علواً حتى يسعد بهمته ويظفر ببغيته ، ويحوز الشرف لنفسه وذريته . . .»(٧٣) .

٦٦ – ابن النديم ، الفهرست ، ٢١٧
٦٧ – نفسه ، ٢١٦
٦٨ – نفسه ، ٢١٤
٦٩ – نفسه ، ١٨٤ – ١٨٥
٧٠ – نفسه ، ٢٢٣ ٢٢٤
٧١ – نفسه ، ٢١٥
٧٢ – نفسه ، ١٣٤
٧٣ – ابن قتيبة ، العرب ، ٢٨١

اثر العراق الحضاري على الأندلس في القرنين الثاني والثالث للهجرة

١٠١ – ٣٠٠هـ / ٧٢٠ – ٩١٢م

الدكتور خليل ابراهيم السامرائي
كلية التربية – قسم التاريخ
جامعة الموصل

تمهيد :

بدأ الفتح العربي الاسلامي للاندلس عام ٩٢هـ / ٧١١م ، واستكمل فتحها عام ٩٥هـ / ٧١٤م ، وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم الحكم العربي في الاندلس الى العصور التالية :

١ – عصر الولاة ٩٥–١٣٨هـ / ٧١٤–٧٥٦م ، وفي هذا العصر كانت الاندلس ولاية تابعة للخلافة الاموية بدمشق .

٢ – عصر الدولة الاموية : وهذا العصر ينقسم الى قسمين :

أ – عصر الامارة الاموية ١٣٨–٣١٦هـ / ٧٥٦–٩٢٩م .

ب – عصر الخلافة الاندلسية ٣١٦–٤٢٢هـ / ٩٢٩–١٠٣١م .

وفي هذين العصرين صارت الاندلس مستقلة سياسيا وروحيا عن الخلافة العباسية بالمشرق ، وحكمتها اسرة عبد الرحمن الداخل الاموى .

٣ – عصر امراء الطوائف ٤٢٢–٤٧٩هـ / ١٠٣١–١٠٨٦م ويبدأ بالغاء الخلافة الاموية بالاندلس ، وتفكك الدولة الى امارات ضعيفة متنازعة .

٤ – عصر السيطرة المغربية ٤٧٩–٦١٢هـ / ١٠٨٦–١٢١٤م وفيه تحولت الاندلس الى ولاية تابعة للمغرب في عصر دولة المرابطين ٤٧٩–٥٤٠هـ / ١٠٨٦–١١٤٥م ، وفي عصر دولة الموحدين ٥٤٠–٦٢٠هـ / ١١٤٥–١٢٢٣م .

٥ – عصر مملكة غرناطة ٦٢٠–٨٩٧هـ / ١٢٢٣–١٤٩٢م وهو عصر دولة بنى الاحمر ، ويمثل سقوطها نهاية الحكم العربي بالاندلس وذهاب سلطان المسلمين السياسي فيها[1] .

واذا كانت الاندلس قد طمحت الى الاستقلال السياسي عن المشرق ، منذ بدء تاريخها ، فانها لم تستطع ان تفلت من الخضوع له في المجال الحضاري ، فكانت على بعدها عنه ، قطعت منه ، قبل ان تكون قطعة من اوربا . ولم يمنعها بعدها عن قلب العالم الاسلامي من ان يتدفق عليها التراث العربي من المشرق في شتى العصور[2] .

ان التأثير الحضاري المشرقي على الاندلس مر بمراحل تاريخية معينة ، وقد رافق كل عصر من عصور الاندلس تأثير مشرقي معين . فالقرن الثاني

١ – احمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ، (بيروت : ١٩٧٢ ص ٢٨٥–٢٨٧ – عبدالرحمن الحجي ، التاريخ الاندلسي ، (دمشق : ١٩٧٦ ، ص ٣٩ ، ٤٠

٢ – لطفي عبدالبديع الاسلام في اسبانيا ، (القاهرة : ١٩٦٩) ، ص ٣٩ .

للهجرة ١٤١ – ٢٠٠هـ والثالث للهجرة ٢٠١– ٣٠٠هـ فهما يوافقان عصر الولاة بالاندلس ٩٥–١٣٨هـ وعصر الامارة الاندلسية ١٣٨–٣١٦هـ .

في عصر الولاة وبداية عصر الامارة كان التأثير الشامي الحضاري كبيراً على الاندلس ، ثم بدأ التأثير الحجازي الحضاري ، وتبعه بعد ذلك التأثير الحضاري العراقي .

واذا أخذنا بالتقسيم السياسي لعصر الامارة الاندلسية ١٣٨–٣١٦هـ حسب منهج الدكتور احمد بدر ، وهو على الترتيب التالي[3] :

١ – عصر التأسيس ١٣٨–١٧٢هـ / ٧٥٦–٧٨٨م وهو عصر عبد الرحمن الداخل .

٢ – عصر التوطيد ١٧٢–٢٠٦هـ / ٧٨٨–٨٢٢م وهو عصر هشام الاول ١٧٢–١٨٠هـ ، وعصر الحكم بن هشام ١٨٠–٢٠٦هـ .

٣ – عصر الاستقرار والازدهار ٢٠٦–٢٧٣هـ / ٨٢٢–٨٨٦م وهو عصر الامير عبد الرحمن الاوسط ٢٠٦–٢٣٨هـ ، وعصر ابنه الامير محمد ٢٣٨–٢٧٣هـ .

٤ – عصر الحرب الاهلية ٢٣٧–٣٠٠هـ / ٨٨٦–٩١٢م وهو عصر الامير المنذر إبن محمد ٢٧٣–٢٧٥هـ وعصر الامير عبد الله بن محمد ٢٧٥–٣٠٠هـ ، نرى أن التأثير الحضاري الشامي دخل الاندلس في عصر الولاة وعصر التأسيس من عصر الامارة ، وان التأثير الحضاري الحجازي دخلها في عصر التوطيد من عصر الامارة ، والتأثير الحضاري العراقي دخلها في عصر الاستقرار والازدهار من عصر الامارة وما تلاه من عصور .

ومحور هذا البحث يدور حول توضيح اثر العراق الحضاري على الاندلس خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة موضحاً النقاط التالية :

١ – التأثيرات الحضارية المشرقية على الاندلس قبل التأثير الحضاري العراقي .

٢ – التأثير الحضاري العراقي على الاندلس متناولا فيه مايأتي :

أ – توضيح معالم ازدهار الحضارة في العراق في هذين القرنين .

ب – ابراز عوامل الجذب الاندلسية للحضارة العراقية .

جـ – بيان طرق انتقال الحضارة من العراق الى الاندلس .

د – أثر الحضارة العراقية على الأندلس ونتائجها .

٣ – دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها ، ج ١ ، (دمشق : ١٩٧٢) ص ٧٢ ومابعدها .

وهذا لايعني بان التأثير الحضاري العراقي لم يدخل الاندلس الا في فترة الازدهار من عصر الخلافة ، بل واقع الامر ان هذا التأثير دخل الاندلس قبل هذه الفترة ، وبالتداخل مع التأثيرات الحجازية والشامية ، الا ان تأثيره الكبير والواسع برز في فترة الازدهار وما بعدها .

المبحث الاول :

اولى التأثيرات المشرقية التي دخلت الاندلس قبل الاثر الحضاري العراقي ، هما التأثير الشامي والتأثير الحجازي .

أ - التأثير الحضارس الشامي على الاندلس :

من المعروف ان الحضارة الاندلسية ، لم تنشأ فجأة ، بل مرت في ادوار مختلفة ، وخضعت لمؤثرات حضارية مشرقية تربطها بالوطن الاسلامي الام باعتبارها جزءا منه ، كما خضعت ايضا لمؤثرات حضارية محلية بحكم البيئة التي نشأت فيها[٤] .

ففي الفترة الاولى من تأريخ الاندلس وحتى عصر عبد الرحمن الداخل كانت الاندلس خاضعة للسيادة الاموية سواء في بلاد الشام او في قرطبة ، ولهذا كان من الطبيعي ان تتأثر بالحضارة الشامية في جميع مظاهرها ، وهو ما يسمى بالتقليد الشامي :

فمن الناحية الدينية : اعتنق الاندلسيون في هذه الفترة مذهب الامام الاوزاعي (عبد الرحمن بن يحمد الاوزاعي ٨٨-١٥٧هـ)[٥] ، والذي كان من المجاهدين الذين رابطوا في مدينة بيروت لصد غارات العدو البيزنطي . ولهذا اهتم مذهبه - بصورة خاصة - بالتشريعات الحربية واحكام الجهاد ، وهذا الاهتمام كان يناسب وضع الاندلسيين في هذه الفترة من حياتهم القائمة على حروب الجهاد ، ولهذا اعتنقوا هذا المذهب .

وتختلف الروايات حول العالم الاول الذي نقل مذهب الاوزاعي الى الاندلس ، فترجح بين القاضي الغرناطي اسد بن عبد الرحمن السبأي (توفي عام ١٥٠هـ) ، وبين أبي عبد الله صعصعة بن سلام الشامي الاندلسي (توفي عام ١٩٢هـ أو ٢٠٢هـ)[٦] . وبذلك كانت الفتيا بالاندلس على هذا المذهب في عصر الداخل وبداية عصر ابنه هشام[٧] .

اما من الناحية المعمارية : فنجد المؤثرات الشامية المقتبسة من المسجد الاموي بدمشق ، عندما أعاد الأمير الداخل تجديد بناء جامع قرطبة عام ١٦٩هـ / ٧٨٥م ، والدليل على ذلك العقود المزدوجة التي تزيد من ارتفاع السقف وتجعله ارتفاعا مناسبا مع اتساع مساحة المسجد . وكذلك يلاحظ هذا التأثير في وضع المئذنة ، وفي الممر الذي يصل المسجد بقصر الامارة وهو المعروف بالساباط . وكذلك بنى الامير الداخل في شمال غربي قرطبة منية (قصرا-بيت ريفي) على سفح جبل قرطبة سماه قصر الرصافة مقلدا في ذلك جده الخليفة هشام بن عبد الملك الذي بنى رصافته خارج دمشق في بادية الشام ، ولم يلبث امراء بني امية في الاندلس ان اخذوا يقلدون الامير الداخل في اتخاذ القصور الريفية ، ومثال ذلك القصر الذي بناه ابنه عبد الله في مدينة بلنسية واطلق عليه اسم الرصافة ايضا[٨] .

وفي ميدان الزراعة : فقد حرص الامير الداخل على جعل قرطبة صورة من دمشق في منازلها البيضاء ذات الاحواش الداخلية المزينة بالازهار والورود ونافورات المياه . واشتهر الامير الداخل بانه كان يرسل بعض رجاله الى المشرق لجلب اشجار الفاكهة من بلاد الشام ، فنسمع عن احد رجاله المدعو سفر بن عبيد الكلاعي والذي تنسب اليه اسماء بعض الفواكه التي غرسها في جنانة بكورة رية واثمرت مثل التين السفرى والرمان السفرى ، ثم اهتم بها الامير الداخل وغرسها في منيته ، وانتشرت بذلك زراعتها في سائر انحاء الاندلس[٩] .

وبلغ من اهتمام الاندلسيين بالزراعة ، انه عندما حل المذهب المالكي بالاندلس محل مذهب الاوزاعي - هذا المذهب الجديد لا يقر زراعة الاشجار بالمساجد ، عكس مذهب الاوزاعي - بقي اهل الاندلس مقلدين مذهب الاوزاعي في مجال الزراعة[١٠] .

اما الحياة الادبية بالاندلس في هذا العصر ، فقد كانت صدى لحياة الشام الادبية ، فالشعر الاندلسي كان يحاكي شعر الفرزدق والاخطل وجرير بالمشرق . ومن اهم شعراء الاندلس في هذه الفترة الولاة والامراء

٤ - احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣١٦ .

٥ - ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، تحقيق احسان عباس ، ج ٣ (بيروت : ١٩٦٨) ص ١٢٧ .

٦ - ينظر ، ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس ، (القاهرة : ١٩٦٦) ، ج ١ ص ٧٤ (رقم ٢٣٩) ، ج ١ ، ص ٢٠٤ (رقم ٦١٠) ، الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج ١ ، تحقيق صلاح الدين المنجد (الكويت : ١٩٦٠) ص ٣٠٩ - ابن سعيد الاندلسي ، المغرب في حلى المغرب ج ١ ، تحقيق شوقي ضيف ، (القاهرة : ١٩٦٤) ، ص ٤٤ .

٧ - ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٤ (رقم ٦١٠) - الحميدي ، جذوة المقتبس ، (القاهرة : ١٩٦٦) ، ص ٢٤٤ (رقم ٥١٠) .

٨ - ينظر ، احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣١٨ - ٣١٩ - احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

٩ - ينظر ، ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ١ ، تحقيق حسين مؤنس ، (القاهرة : ١٩٦٣) ، ص ٣٧ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، تحقيق كولان وبروفنسال (بيروت : لا تاريخ) ، ص ٦٠ - احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ص ١٤٨ - احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣١٨ .

١٠ - الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٢٤٤ (رقم ٥١٠) .

الذين حكموا الاندلس امثال ابي الخطار حسام بن ضرار الكلبي ١٢٥–١٢٨هـ ، والصميل بن حاتم صاحب الوالي يوسف الفهري ١٢٩–١٣٨هـ والامير عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ، ومن ثم الحكم بن هشام[١١] .

ب – التأثير الحضاري الحجازي على الاندلس :

بدأ هذا التأثير في عصر التوطيد ، اي في عصر الامير هشام والامير الحكم . ولعل السبب الذي ادى الى ضعف التأثير الشامي على الاندلس في هذه الفترة ، هو : ان سليمان وعبد الله من اولاد عبد الرحمن الداخل قد تمردوا على اخيهم هشام ، وكان سليمان بالذات وراءه الحزب الشامي في الاندلس ، فلما انتصر هشام على اخوانه ، هربوا الى شمالي افريقية ، وضعف الحزب الشامي بالاندلس ، فنتج عن ذلك ضعف شأن الحضارة الشامية التي سيطرت على الاندلس . وبذلك نجد الاندلسيين ، بخاصة اميرهم يبحثون عن آفاق حضارية جديدة غير الشامية ، فوجدوا بغيتهم في حضارة الحجاز .

وكان الحجاز في القرن الثاني للهجرة مركزا حضاريا هاما للفنون والموسيقى وللعلوم الدينية . ففي مجال الفنون : ظهرت المدارس الموسيقية الاولى في الحجاز ، وهي عبارة عن الموسيقى العربية الاصلية الممزوجة بالمؤثرات الاجنبية والبيزنطية نتيجة حركة الفتوحات العربية ، وكان هناك تنافس بين مكة والمدينة في هذا المجال . وسرعان ما انتقل هذا الفن الى الاندلس عن طريق الجوارى والمغنيين والمغنيات الذين رحلوا الى الاندلس ، ونقلوا معهم هذه المظاهر الحضارية . وفي المقدمة تأتي المغنية المدنية (عجفاء) التي أثارت أعجاب الاندلسيين في عهد الامير هشام ١٧٢–١٨٠هـ ، ويأتي بعدها الثنائي الغنائي الحجازي (علون وزرقون) في عهد الامير الحكم ١٨٠–٢٠٦هـ[١٢] .

أما في مجال العلوم الدينية : فقد كانت المدينة المنورة مركز العلوم الدينية في هذا القرن ، وقد توج نضوج هذه العلوم وجود مالك بن أنس فيها (توفي عام ١٧٩هـ) ، صاحب كتاب الموطأ (السهل الواضح) ، وقد ذاعت شهرة الامام مالك في العالم الاسلامي ، فأقبل الاندلسيون على اعتناق مذهبه في عهد الامير هشام .

شاع المذهب المالكي في الاندلس بعد ان استهوى اميرها هشام ومن

١١ – ينظر ، الحلة السيراء ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧ – ص ٤٧ ، ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧٢ ، ص٧٩–احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣١٧ ، ص ٣٣٦–٣٣٧ .

١٢ – المقرى ، نفح الطيب ، ج ٣ ، تحقيق احسان عباس ، (بيروت : ١٩٦٨) ، ص ١٣٠ احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣٢٣ – ٣٢٤ ، السيد عبدالعزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ، ج ٢ (بيروت : ١٩٧٢) ، ص ٨٦ .

حوله من الفقهاء ورواد الاحاديث ، تاركين مذهب الاوزاعي . والروايات المختلفة تعزو هذا التحول الى الاعجاب المتبادل بين مالك والامير هشام ، هذا الاعجاب الذي جسده الفقهاء الاندلسيين تلاميذ مالك ، دون ان يرى احدهما الاخر[١٣] . بالاضافة الى التعاطف بين الامير هشام ومالك الناجم من عداوة الاثنين للعباسيين ، اذ ساند مالك حركة محمد النفس الزكية في المدينة عام ١٤٥هـ ضد الخليفة العباسي المنصور ، وقد افتى مالك بجواز تحلل المسلمين من بيعة المنصور ، ولذا لقي كبير عناء من العباسيين[١٤] .

كذلك لا ينسى دور علماء الاندلس الذين رحلوا الى الحجاز ودرسوا على يد الامام مالك ، فنقلوا مذهبه الى الاندلس . وفي مقدمتهم ابو عبد الله زياد بن عبد الرحمن اللخمي (توفي ٢٠٤هـ أو قبلها) المعروف (شبطون) ، الذي ادخل مذهب مالك الى الاندلس ، واخذه عنه يحيى بن يحيى الليثي عاقل الاندلس كما لقبه الامام مالك . وتذكر الروايات ان يحيى بن يحيى أخذ عن مالك بن أنس بالذات وروى عنه الموطأ ، وتعتبر روايته من اصح الروايات[١٥] . ويليه عيسى بن دينار الفقيه المشهور ، وعبد الملك بن حبيب السلمي الذي أخذ من طبقة اصحاب مالك وعاد الى الاندلس ليدون كتاب الواضحة[١٦] .

وتعلل الروايات ان الشبه الكبير بين طبيعة اهل المغرب والاندلس وطبيعة اهل الحجاز ، من حيث البساطة والبعد عن التعقيد ، كان من اسباب انتشار المذهب المالكي في مغرب العالم الاسلامي . ولهذا فان عقلية اهل المغرب والاندلس كانت تغلب عليها نزعة اهل الحديث ، وجانبوا نزعة اهل الرأي والقياس (مذهب أبي حنيفة)[١٧] .

ولم يقف الامر عند انتشار المذهب المالكي في الاندلس في هذه الفترة فقط ، بل تعداه الى انتشار قراءة اهل المدينة للقرآن ، وبالذات

١٣ – ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ، (بيروت : ١٩٧٨) ، ص ٢٢٤ احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٧٠ –١٧١ – ليفي بروفنسال ، العرب في الاندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط (بيروت :لا تاريخ) ص ٤٣ .

١٤ – ينظر ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ (بيروت : ١٩٦٦) ص ٣٤٠ – ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، (بيروت : ١٩٦٥) ص ٥٣٢ .

١٥ – ينظر ، ابن فرحون ، الديباج المذهب ، ج ٢ تحقيق محمد الاحمدى ابو النور (القاهرة : ١٩٧٢) ، ص ٣٥٢ – لطفي عبدالبديع ، المرجع السابق ، ص ٤٠ .

١٦ – ينظر ابن الفرضي المصدر السابق جـ١ ص ٢٦٩–٢٧١ (رقم ٨١٦) .
ج١ ، ص ٢٠٣ (رقم ٦١٠) ، ج ٢ ، ص ١٨٠ (رقم ١٥٥٦) – المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٧ ، ص ٩ – احمد امين ، ظهر الاسلام ج ٣ (القاهرة ١٩٦٢) ، ص ٤٨–٤٩–احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ص ١٧٢–١٧٣ .

١٧ – احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣٢٦–٣٢٧–احمد امين ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

قراءة نافع للقرآن (قارئ اهل المدينة) ، في الاندلس . وينسب الى الغازى بن قيس ادخال هذه القراءة على عهد الامير الداخل ، وقد امتدح مالك هذه القراءة وكذلك قلدت الاندلس الحجاز في تنقيط القرآن وتشكيله[18] .

المبحث الثاني :

التأثير الحضاري العراقي على الأندلس :

ان الالمام بهذا الموضوع يتطلب معرفة عدة امور نوضحها كما يأتي :

١ - توضيح معالم ازدهار الحضارة في العراق في القرنين الثاني والثالث للهجرة :

والعراق خلال هذين القرنين يعاصر الدولة العباسية وبالذات العصر العباسي الاول ١٣٢-٢١٨هـ ، والعصر العباسي الثاني ٢١٨-٣٣٤ هـ ، هذان العصران يعتبران عصر النضوج الحضاري للعراق .

هذه الحضارة التي بدأت بالازدهار كانت مدفوعة بعدة عوامل منها :

أ - رغبة الخلفاء العباسيين في تفوق دولتهم العلمي ، وبذلك شجعوا حركة الترجمة ، اي ترجمة كتب الامم القديمة في الطب والفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها الى العربية ، وبذلوا جهود جبارة في هذا المضمار . وخير دليل على ذلك جهود الخليفة المنصور والرشيد والمأمون وغيرهم في تنشيط الحركة العلمية وبناء دور الحكمة (مراكز العلم) ، والاغداق على العلماء والمترجمين بدون حساب[19] .

ب - نضوج العلوم العربية الدينية منها والصرفة . فهذان العصران شهدا وضوح مناهج المفسرين للقرآن ، ووضعت الطرق العلمية لتأليف كتب الحديث ، وظهور المذاهب الفقهية ، ورسوخ اسس مدارس النحو والتاريخ والجغرافية ، كما شهدا بداية نضوج الفكر الفلسفي بفروعه التصوف وعلم الكلام والفلسفة . هذا في مجال العلوم النقلية التي هي علوم عربية بحتة قوامها الدين الاسلامي ، والتي نبتت في ارض عربية اسلامية صافية - ماعدا استثناءات قليلة أثرت على تطور الفكر الفلسفي والجغرافي بعد نشاط حركة الترجمة . اما العلوم الصرفة ، فقد امتزجت اصولها العربية مع ما عرفه المسلمين من معارف الامم الاخرى في الطب والرياضيات والفلك وغيرها عن طريق الترجمة ، فنتج عنها الابداع العلمي العربي[20] .

جـ - الازدهار الاقتصادي في العراق : اذا كان هذان القرنان قد تميزا بالنضوج العلمي مع وفرة العلماء الافذاذ الذين ألفوا وكتبوا وأبدعوا في مختلف المجالات مع ظهور المراكز العلمية (دور الحكمة) التي كانت بمثابة واحات فكرية في العراق وفي غيره ، والتي عملت على نشر المعرفة في ارجاء العالم الاسلامي ، فان هذين القرنين شهدا ازدهار الحياة الاقتصادية في العراق ، الذي انعكست اثارهُ على المجتمع والحركة العلمية ، هذا الازدهار الذي وفر الاموال اللازمة للدولة والافراد واستغلاله في تنشيط الحركة العلمية .

واذا اردنا التدليل على هذه الحالة المزدهرة ، نرى ان الخليفة المنصور يعمل على زيادة الثروة ونماء رؤوس الاموال . واتساع موارد الخراج ، والرخاء العام الذي تعددت مظاهره بين الناس حتى رخصت الاسعار[21] . وسار على نهجه ابنه المهدى الذي استبدل نظام المقاسمة بنظام المساحة ، وقد اشاد ابو يوسف بهذا النظام[22] . ولعلنا جميعا نتصور الحالة الاقتصادية المزدهرة في عصر الخليفة هرون الرشيد ، والذي بلغت موارد الدولة سنويا نحوا مئة الف درهم من الفضة وعشرة الاف دينار من الذهب[23] . وعندما وقعت الخلافة العباسية تحت سيطرة النفوذ التركي وبدأ الاهمال الواضح لمرافق الدولة نتيجة هذه السيطرة قام بعض خلفاء هذا العصر امثال المتوكل والمعتضد باصلاحات اقتصادية من أجل توفير موارد للدولة وتهيئة الرخاء والنعيم لعامة الشعب[24] .

١٨ - ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٥ (رقم ١٠١٥) - الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٣٢٤ (رقم ٧٤٨) -احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ص ١٧٣ .

١٩ - ينظر ، حكمت نجيب عبدالرحمن ، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (الموصل : ١٩٧٧) ، ص ٢٧-٢٨-ناجي معروف ، اصالة الحضارة العربية (بيروت : ١٩٧٥) ص ٤٣٤ .. سليم طه التكريتي ، (بيت الحكمة في بغداد) مجلة العربي ، العدد ٢١٣ (الكويت : ١٩٧٦) ، ص ١٢٦ .

٢٠ - ينظر : غوستاف لوبن ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر (بيروت : ١٩٧٩) ص ٥٢٩-٥٣٠ -ابو زيد شلبي ، تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ، (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣٧٣ .

٢١ - الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، تحقيق السقا وأخر ، (القاهرة ١٩٣٨) ، ص ١١٧ .

٢٢ - ابو يوسف ، الخراج ، (القاهرة : ١٩٥٢) ، ص ٤٩-٥٠ صبحي الصالح ، النظم الاسلامية ، (بيروت : ١٩٧٨) ، ص ٣٨٨-٣٨٩ .

٢٣ - الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ج ٨ (دار المعارف بمصر : لا تاريخ) ص ٣٦٤ .

٢٤ - حسن احمد محمود واخر ، العالم الاسلامي في العصر العباسي ، (دار الفكر العربي : ١٩٧٧) ، ص ١٩٢ ومابعدها احمد مختار العبادي المرجع السابق ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

ونمت التجارة وازدهرت في العصر العباسي الاول والثاني بعد ان اختلط العرب بغيرهم . ومن العوامل التي ادت الى هذا الازدهار بناء مدينة بغداد وجعلها عاصمة العراق وعاصمة الخلافة العباسية والتي كانت على ملتقى الطرق البرية والنهرية الداخلية ، وقد اشتهرت محلة الكرخ بانها مركز للتجار (طولها انذاك ١٠ كم - فرسخين - وعرضها ٥ كم - فرسخ واحد)[٢٥] .

كما كان العراق اهم مركز تجاري بين الجزيرة العربية والشام ومصر من جهة ، وبين ايران والهند من جهة ثانية ، ثم بين الصين واسيا الوسطى من جهة ثالثة . واذا اضفنا الى ذلك ما كان للعراق من هيمنة على الخليج العربي ، الذي كان يصل العالم الاسلامي بالهند والصين وافريقية ، ادركنا ما وصل اليه تجار العراق من ان يكونوا وسطاء التجارة بين اطراف العالم المتمدن ، وما يعكس ذلك من امارات الثراء والرخاء في المجتمع العراقي[٢٦] .

وقد اسدت الدولة العباسية الى التطور الصناعي يدا طولى ، فقد عملت على التوسع في استخراج الثروة المعدنية التي حفل بها العالم الاسلامي ، وعملت على نقلها الى مراكز الصناعة في سهولة ويسر . وكان ذلك من اهم اسباب الانطلاق الصناعي الكبير الذي تحقق في العصر العباسي الاول والثاني ، بالاضافة الى ان الصناعات كانت تنقل في سهولة من شرق العالم الاسلامي الى غربه ، بسبب السبل الآمنة وحالة الامن المتوفرة .

واذا أخذنا ما في بغداد نموذجا لازدهار الناحية الصناعية فنجد فيها دور الصناعة المختلفة ، بين معامل صناعة الزجاج ومعامل صناعة الخزف ، ومحلات الصياغة الكثيرة التي اشتهر عمالها بالدقة والجودة[٢٧] .

نستنتج من كل هذا : ان بغداد في العصور الاسلامية الوسطى ، كانت عاصمة العالم الاسلامي ، ومقرا للخلافة العباسية ، فهي مدينة دولية ، ولهذا السبب اكتسبت صفة عالمية ، وسكنتها عناصر من مختلف الاجناس والملل ، اسلامية وغير اسلامية ، هذه العناصر لم تسكن بغداد باشخاصها فقط ، بل بثقافاتها وتجارتها وعلمها وفنها ، فأصبحت بغداد المدينة الممتازة على غيرها من المدن في العلوم والصناعات والفنون المختلفة . وهذه الصفة العالمية التي اتصفت بها بغداد جعلت انتاجها ايضا يكتسب صفة عامة لا صفة محلية ، فقصص الف ليلة وليلة وكتاب الاغاني وتاريخ الطبري كلها تقدم لنا موضوعات عامة تمثل الحياة الاسلامية بمختلف مظاهرها . هذه الصفة العالمية أثرت في انتاجها وحضارتها فلم يعد انتاجها قاصرا على العراق فحسب ، بل شمل العالم الاسلامي والحياة الاسلامية ، وهذه الصفة العالمية التي تميزت بها بغداد جعلتها محط انظار العرب والمسلمين من جميع انحاء العالم الاسلامي ، كما جعلت حضارتها تطغى على جميع الحضارات الاسلامية الاخرى كالشامية والحجازية[٢٨] .

٢ - توضيح عوامل الجذب الاندلسية للحضارة العراقية :

اذا رأينا ان العوامل السياسية والدينية قد حددت في التأثير الشامي والحجازي على الاندلس ، فان هناك عوامل غيرها كانت مراكز جذب للحضارة العراقية المزدهرة الى الاندلس ، وفي طليعة هذه العوامل :

أ - رغبة الامراء الامويين في هذه الفترة - وبخاصة الامير عبد الرحمن الاوسط ٢٠٧-٢٣٨هـ - في ترك سياسة الانعزال عن العراق التي سار عليها اباؤه ، وان يساير حركة الازدهار الحضاري التي اشتهرت بها بغداد ، ففتح ابواب الاندلس امام التيارات الحضارية العراقية . فأخذ يقلد الخلفاء العباسيين في مظهرهم وملابسهم ، وفي الاحتجاب عن الرعية ليكسب امارته علامات الرهبة والهيبة[٢٩] . كذلك فتح ابواب الاندلس للتجار العراقيين والبضائع العراقية كالملابس وادوات الزينة التي سرعان ما انتشرت بين افراد المجتمع المجتمع الاندلسي . وتذكر لنا الروايات ان هذا الأمير اشترى من احد التجار عقدا كان للسيدة زبيدة زوجة هرون الرشيد بمبلغ عشرة الاف دينار واهداه الى زوجته ، وقد كان لهذا العقد شهرة كبيرة في العراق ويعرف بعقد الشبا[٣٠] ، وقد سرق هذا العقد ضمن الاشياء الثمينة الاخرى التي نهبت في بغداد أيام الفتنة بين الامين والمأمون[٣١] .

ب - الرفاه في المجتمع والقصر : توفرت العوامل بالاندلس التي ادت الى ظهور بوادر الترف والغنى فيها ، ويأتي في مقدمة هذه العوامل النشاط الزراعي وازدهاره خلال عصر الامارة بالذات ١٣٨-٣١٦هـ ابتداء من اهتمام الامير عبد الرحمن الداخل بالزراعة ، والذي بلغ من شغفه بها ان ارسل وفوده الى الشام لجلب بعض البذور ، كما استمر هذه الاهتمام خلال عصر الامارة ، ودليلنا على ذلك قيام نشاط تجاري واسع ، حيث لايمكن ان يقوم دون الاعتماد على زراعة مزدهرة . وكذلك ازدهرت

٢٥ - صبحي الصالح ، المرجع السابق ، ص ٣٩٥ .
٢٦ - حسن احمد محمود واخر ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ وبعدها - صبحي الصالح ، المرجع السابق ، ص ٣٩٥ .
٢٧ - حسن احمد محمود واخر ، المرجع السابق ، ص ١٩٦-١٩٧ ، ص ٢٠١-صبحي الصالح ، المرجع السابق ، ص ٤٠٥ .

٢٨ - ينظر ، احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٦٠ ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠
٢٩ - احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦٣-١٦٤
٣٠ - ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩١ .
٣١ - احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣٤٠

الصناعة خلال هذا العصر ، ولعلنا نستنتج من بعض الاعمال التي قام بها الامير عبد الرحمن الاوسط ، ان الصناعة – في بعض الفروع على الاقل – كانت متقدمة الى الحد الذي سمح له ان ينشئ دارا خاصة للطراز تصنع فيها ملابس خاصة لكل مرتبة من مراتب رجالات الدولة[٣٢] .

واذا كان الاسطول الاندلسي قد نشأ في البداية كقوة عسكرية تستخدم لرد هجمات الاعداء ، او استخدامه في الحملات الجهادية ضد الممالك الاسبانية في الشمال ، وضد بعض الدول الاوربية المجاورة ، الا ان ممارسة التجارة من قبل الاندلسيين قد ازدهرت خلال عصر الامارة . فكان الاندلسيون يحملون متوجات بلادهم الزراعية والصناعية الى سواحل شمالي افريقية ، ويجلبون منها العبيد السود وبعض المحاصيل الزراعية[٣٣] . ونتيجة هذا النشاط التجاري وجدت جاليات اندلسية بصورة مؤقتة ودائمية في مدن سواحل شمالي افريقية ، وكان من نتائج وجود هذه الجاليات ان انشأت بعض المدن المغربية مثل اصيلة وتنس ووهران[٣٤] .

أدى هذا الازدهار الاقتصادي بالاندلس – وبخاصة النشاط التجاري – الى بروز مظاهر الترف والرفاه في حياة الامراء والطبقة العليا من المجتمع الاندلسي على الاقل . ويتمثل هذا الترف في فتح ابواب الاندلس نحو اسواق العراق – كما اوضحنا – بالاضافة الى مظاهر العيش الواسع للأمراء وكبار رجال الدولة ، الذي وفرته الاموال التي حصل عليها افراد المجتمع الاندلسي ، وانعكس ذلك على شراء الجواري المشرقيات الحاذقات بالادب وفنون الغناء كجواري الامير عبد الرحمن الاوسط الذي جلبهن من بغداد[٣٥] . وانعكس ايضا على بناء عدة مني (جمع منية) وهي عبارة عن قصر ريفي في ضواحي المدينة ضمن حدائق غناء .

اذن هذه الفعاليات الاقتصادية اوجدت للاندلس الامكانيات والقدرة على اقتباس عادات المجتمع العراقي الراقية في الملبس والمأكل ، التي كانت لا يمكن ان تنتقل الا الى مجتمع بلغ مستوى من الرفاه المادي موازنا او مقاربا لمستوى المجتمع العراقي[٣٦] .

جـ – اقبال اهل الاندلس على الحياة الفكرية : كانت ظروف الاندلس في عصر الولاة وبداية عصر الامارة لم تمكنها من تطوير الثقافة ، لان غالبية اهلها من المحاربين ، ولعل في مثال الصميل بن حاتم الامي أحد زعمائهم مثلا واضحاً على مستواهم الفكري . لذا يمكن القول ان ثقافتهم اقتصرت على معارف بسيطة منها ما كان متعلقا بالدين ، ومنها ما كان موروثا عن المعارف البدوية ، مع توفر ما كان عدد كبير منهم قادر على نظم الشعر[٣٨] .

كما لم يتوفر للفاتحين التأثر بثقافة اسبانيا القوطية ، نظرا لضعف هذه الثقافة وضيق افقها ، واقتصارها على المجال الديني المسيحي بصورة عامة ، اضافة الى ظروف الاضطراب السياسي التي عاشتها الاندلس خلال عصر الولاة واوائل عصر الامارة ، خلقت فيها جوا لا يلائم اي تقدم في مجال الثقافة . لهذا اقتصر اقتباس اهل الاندلس من الثقافة على ماهو ضروري لتسيير امور الحياة وفق احكام الدين الاسلامي ، اقتبسوه كله من المشرق سواء من بلاد الشام او من بلاد الحجاز ، كما وضحنا .

الا انه في فترة الازدهار خلال عصر الأمارة هيأ الاستقرار السياسي وما تبعه من نشاط اقتصادي ، من زيادة الاتصال مع الخارج وبخاصة مع العراق ، فنتج عن ذلك طبقة معينة من الناس – على الاقل – مكنتهم من السمو لطلب العلم .

لهذا نرى ان المجتمع الاندلسي اصبح على درجة كافية من الغنى لينفق فيها الناس على تعليم انفسهم واولادهم ، وهكذا تحرك ذوو الهمم منهم لطلب العلم كما تشير الروايات[٣٩] . ويأتي في مقدمة من اهتموا بالحركة العلمية الامير عبد الرحمن الاوسط الذي كان عالما بالشريعة والفلسفة ، وقد شبه بالمأمون العباسي في طلبه للكتب الفلسفية[٤٠] . وكذلك ابنه الامير محمد الذي انشأ نواة مكتبة القصر ، كما انه اقطع احد العلماء الوافدين من المشرق اقطاعا ، وعنه روى الحديث[٤١] .

وقد ساعد الناس في مسعاهم هذا حصول تطورات ملائمة في عهدهم ، منها انتقال صناعة الورق بعد انتشارها في المشرق ايام الخليفة هرون الرشيد ، واقامة مراكز لصناعته في مدينة طليطلة وشاطبة[٤٢] .

٣٢ – احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ص ١٤٨–١٤٩

٣٣ – البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ، تحقيق دي‌سلان ، ج١ «الجزائر : ١٨٥٧» ، ص ١١ .

٣٤ – احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

٣٥ – المقرى ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٣٦ ، ج ٤ ، ١٣٦

٣٦ – احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، ص ١٥٩ ، ص ١٦٠–١٦١ .

٣٧ – ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق عبدالله انيس الطباع ، (بيروت ١٩٥٧) ، ص ٦٣ .

٣٨ – احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦٩

٣٩ – صاعد الطليطلي : طبقات الأمم ، (القاهرة :لا تاريخ) ، ص ٩٧

٤٠ – السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد (القاهرة ١٩٧٤) ص ٥٢٢ – عبدالواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، (القاهرة : ١٩٦٣) ، ص ٤٨ .

٤١ – ابن الابار ، التكملة لكتاب الصلة ، ج ١ ، نشر عزت العطار الحسيني ، (القاهرة : ١٩٥٦) ، ص ٨ .

٤٢ – احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

٣ – توضيح طرق انتقال الحضارة العراقية الى الاندلس :

من اهم طرق انتقال حضارة العراق الى الاندلس هي :

أ – الوفود الرسمية : على الرغم من دور هذه الوفود كان محدودا في نقل بعض مظاهر الحضارة العراقية الى الاندلس ، الا اننا يمكن اعتبارها طريقا لنقل هذه الحضارة . فتذكر بعض الروايات ان الامير الحكم او عبد الرحمن الاوسط أرسل وفدا الى العراق برئاسة العالم عباس بن ناصح لدراسة الاثار العلمية المنقولة الى العرب عن اليونان وغيرهم واستنساخها له ، وبعد رجوع الوفد حمل معه كتاب الحساب الهندي المعروف عند العرب باسم السند هند (الخلود)(٤٣) ، وبذلك دخلت الارقام الهندية الاندلس ، ومنها انتقلت الى اوربا . ومعنى هذا ان الوفد الاندلسي عرف هذا الكتاب واطلع عليه في العراق ، لان العرب عرفوا في العصر العباسي الاول كتاب السند هانتا في الرياضيات من الهنود ، وقد أمر الخليفة المنصور ١٣٦–١٥٨هـ بترجمته الى العربية ، فقام بهذه المهمة ابو اسحاق ابراهيم بن حبيب الفزاري ، وعرف هذا الكتاب باسم السند هند ، والف الفزاري على غراره كتابا باسم السند هند الكبير . وفي عصر المأمون ١٩٨–٢١٨هـ طلب من العالم محمد بن موسى الخوارزمي بتصحيح هذا الكتاب ففعل(٤٤) .

وبذكر الخوارزمي نوعين لشكل الارقام الهندية كان يكتبها العرب ، وبقي احدهما المعروف بالارقام الهندية ، وهو الذي ساد في مشرق العالم الاسلامي ، بينما اندثر الشكل الاخر المعروف بالارقام الغبارية الذي ساد في مغرب العالم الاسلامي ومنها انتقل الى اوربا ، وهو اصل الارقام العربية الان(٤٥) .

ب – الرحلة في طلب العلم : قام العديد من طلاب العلم الاندلسيين بالرحلة الى العراق للتزود بالعلوم من منابعها ، وقد مضى بعضهم سنوات طويلة تجاوزت العشرين سنة احياناً من اجل هذه الهزيمة ، أمثال محمد بن عبد السلام الخشني(٤٦)

وانفق الكثيرون القسم الاكبر من ثرواتهم في شراء الكتب التي ادخلوا منها الكثير الى الاندلس ، بالاضافة الى ان غيرهم حملوا العلم رواية في الصدور(٤٧) . وللتدليل لهذا الامر نذكر نماذج لهؤلاء الرحلة دون الحصر : يحيى بن حكم الغزال (١٥٠–٢٥٠هـ) ينفيه الامير عبد الرحمن الاوسط الى الاعراق لانه تصدى لزرياب – كما سيذكر فيما بعد – فدخل الغزال العراق بعد وفاة الشاعر أبي نؤاس بقليل (توفي ابو نواس عام ١٩٥هـ) . وفي بغداد درس شاعر الاندلس الشعر العراقي وقلد أبا نؤاس في شعره لكي ينال الحظوة ويثير اعجاب اهل العراق ، وبعد ذلك يرجع الى الاندلس ليقوم بمهام السفارات اعتبارا من عام ٢٢٥هـ(٤٨) .

كذلك عبد الله بن محمد بن قاسم الذي رحل الى العراق ودرس فيه المذهب الظاهري ونقل اصوله الى الاندلس ، والعالم محمد بن وضاح الذي أدخل علم الحديث الى الاندلس ، رحل الى المشرق ودرس على أيدي كبار علماء الحديث ومن اشهرهم الامام احمد بن حنبل في العراق(٥٠) . كذلك اشتهر عبد الله بن مسرة بن نجيح بالفلسفة وعلم الكلام وقام برحلته المشرقية الى العراق ونزل بالبصرة في اواخر عصر الامارة مع اخيه ، وقد وصف عبد الله هذا بكونه أشقر شديد الحمرة مما جعل أحد شيوخه في البصرة يحذره مازحا «اياك ان يبيعك اهل البصرة باصقلبي» ، ثم رجع الى الاندلس يبشر بهذه العلوم التي درسها في العراق(٥١) . وقد ازدهرت مدرسة ابن مسرة الفلسفية في عصر الخلافة(٥٢) .

جـ – دور التجار في نقل كتب العلم الى الاندلس : معروف لدينا ان ابواب الاندلس فتحت امام التجار العراقيين زالبضائع العراقية ، وبخاصة في عهد الامير عبد الرحمن الاوسط . الذي ترك سياسة الانغلاق نحو العراق . فبجانب نقل التجار البضائع العراقية المختلفة الى الاندلس ، نقلوا معهم بعض الكتب العلمية وباعوها في اسواق الاندلس . حيث اشتراها علماء الاندلس واستفادوا منها في تنشيط حركتهم العلمية ، وقد كان في مقدمة هؤلاء التجار محمد بن موسى الرازي (توفي عام ٢٧٣هـ) وهو جد اسرة الرازي التي اشتهرت بكتابة التاريخ في عصر الخلافة(٥٣) وكذلك دخل كتاب العروض للخليل بن

---

٤٣ – ابن سعيد ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٥ ، بروفنسال ، العرب في الاندلس ، ص ٤٥ .

٤٤ – عبدالمنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٧٨) ، ص ٢٢٣ .

٤٥ – هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون واخر (بيروت ١٩٦٩) ص ٨٤ - احمد نصيف الجنابي ، الرياضيات عند العرب ، (بغداد ١٩٨٠) ص ٣٥ ٣٦ .

٤٦ – الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٦٨ (رقم ١٠٠) .

٤٧ – احمد امين ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

٤٨ – ينظر محمد صالح البنداق ، يحيى بن الحكم الغزال ، (بيروت ١٩٧٩) ص ٥٧ – ٥٨ ، ص ٨٢ – احمد أمين ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٥

٤٩ – ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢١٩ (رقم ٦٥٥) .

٥٠ – ايضا ، ج ٢ ، ص ١٥ (رقم ١١٣٩) .

٥١ – ايضا ، ج ١ ، ص ٢١٧ (رقم ٩٥٢) ، ج ٢ ، ص ٣٩ (رقم ١٢٠٤) صاعد الطليطلي ، المصدر السابق ، ص ٢٨-٢٩ .

٥٢ – ينظر ، لطفي عبدالبديع ، المرجع السابق ، ص ٤٦ - احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ، احمد امين ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٦٩ .

٥٣ – ينظر ، احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣٤ ، احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٧٧ ، ص ١٨٩ .

احمد الفراهيدي الى الاندلس على يد تاجر اهداه الى الامير عبد الرحمن الاوسط ، وبدا هذا الكتاب عسير الفهم على اهل البلاط ، وبعد ان اطلع عليه العالم عباس بن فرناس فسره وسهل فهمه لاهل الاندلس(٥٤) . سنذكر ذلك .

د – هجرة العلماء وبعض فئات المجتمع من العراق الى الاندلس :

نتيجة الاضطراب السياسي في المشرق وبخاصة في العراق ، الذي بدأ بالنزاع بين الامين والمأمون في نهاية العصر العباسي الاول ، ومن ثم تسلط العنصر التركي على الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني ، هذه الامور كلها أدت الى هجرة بعض العلماء ، وبعض فئات المجتمع الراقية من العراق الى الاندلس تخلصا من هذا الاضطهاد ، بالاضافة الى المكانة المرموقة والحفاوة البالغة التي يلقاها امثال هؤلاء في بلد الاندلس ، فالامر كان كما يصفه احمد امين : « . . . . علماء يضيق بهم الشرق من الفاقة فيرحلون الى الغرب ، وعلماء من الغرب يعوزهم العلم فيرحلون الى الشرق . . . .»(٥٥) ومن العلماء الذين رحلوا من المشرق الى الاندلس في هذه الفترة محمد بن موسى الرازى (٢٧٣هـ / ٨٨٦م) وهو من مدينة الرى في المشرق ، ورأس عائلة المؤرخين المشاهير في عصر الخلافة عائلة الرازى (احمد بن محمد وابنه عيسى بن احمد) . وكان محمد بن موسى الرازى تاجرا مشرقيا اتصل بالامير محمد وعمل لديه في التجسس على اوضاع المشرق ، وهو الذي الف كتاب الرايات في التاريخ(٥٦) .

وفي عصر الازدهار تقدمت العلوم الطبية بالاندلس ، وقد ساهم في تقديمها بعض الاطباء البغداديين الذين رحلوا الى الاندلس ، فعلموا اهلها ما وصل اليه اهل العراق في الطب . ويأتي في مقدمتهم اسحاق بن عمران العراقي الاصل الذي رحل الى الاندلس(٥٧) .

واذا كان رائد الحركة الطبية بالاندلس في هذا العصر احمد بن أياس (حمدين بن أبا)(٥٨) . الذي ينسب اليه (يسون = شراب حمدين) وهو يتألف من مائة صنف من الاعشاب ، فقد كان استاذه طبيبا عراقيا من حران هاجر الى الاندلس في فترة الازدهار ، وهذا الطبيب المشرقي هو الذي أدخل للاندلس معجونا لأوجاع الجوف ، كان يبيع السقية منه بخمسين دينار . وكان حمدين أحد خمسة اطباء أخذوا

٥٤ – احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٨٤

٥٥ – ظهر الاسلام ، ج ٣ ، ص ٢٥ .

٥٦ – ينظر ، ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس (نص الرسالة الشريفية) ، ص ٢٠٣ ، الحميدي ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٤ (رقم ١٧٥) لطفي عبدالبديع المرجع السابق ، ص ٩٨ .

٥٧ – احمد امين ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ .

٥٨ – ابن جلجل ، طبقات الاطباء ، تحقيق فؤاد السيد (القاهرة : ١٩٥٥) ، ص ٩٣-٩٤ .

العلم منه(٥٩) .

كما انتقلت فئات من المجتمع العراقي الراقي الى الاندلس ، ويهمنا منها في مجال نقل العادات فئتان ، وهما فئة الجوارى ، ودللنا على ذلك بجوارى الامير عبد الرحمن الاوسط ، ثم فئة المغنيين ، ويأتي على رأسهم (ابو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب) .

ومهما تكن الاسباب التي دفعت زرياب الى ترك العراق والتوجه الى الاندلس – وبالرغم من اننا نميل الى الروايات التي تؤكد هروبه الى الاندلس تخلصا من اضطهاد الخليفة المأمون ، لان زرياب كان من انصار الخليفة الامين المقتول في هذه الفتنة بين الاخوين(٦٠) . وصل زرياب الى الاندلس في عهد الامير عبد الرحمن الاوسط وبالذات في عام ٢٠٦هـ ، ونقل معه الحياة العراقية بمظاهرها الفنية والاجتماعية ، ولقيت مدرسته الموسيقية الممثلة في شخصه وفي ابنائه وجواريه نجاحا كبيرا طغى على مدرسة الحجاز الغنائية القديمة التي اخذت في الضعف والزوال(٦١) .

٤ – توضيح أثر الحضارة العراقية على الاندلس ونتائجها :

يتناول هذا الموضوع توضيح مايأتي :

أ – انتشار بعض العلوم التي تعتبر عراقية النشأة في الاندلس : على الرغم من تمسك الاندلس بمذهب مالك – كما اوضحنا ذلك – في مرحلة التأثير الحجازي الحضاري على الاندلس (توفي الامام مالك عام ١٧٩هـ) ، الا انه يبدو لنا ان مذهب ابو حنيفة العراقي (توفي الامام ابو حنيفة عام ١٥٠هـ) قد طرق ابواب الاندلس في عصر الامارة ، الا ان ولاة الامر في الاندلس اغلقوا الابواب دون دخول هذا المذهب . اذ تذكر لنا الروايات ان فريقين من علماء الحنفية وعلماء المالكية تناظرا يوما من مجالس الامير هشام (١٧٢–١٨٠هـ) فقال لهم : من اين كان ابو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة ، فقال : ومالك ؟ قالوا : من المدينة قال : عالم دار الهجرة يكفينا ، وأمر بأخراج اصحاب أبي حنيفة وقال : لا أحب ان يكون في عملي (بلدي مذهبان)(٦٢) .

٥٩ – ابن جلجل ، المصدر السابق ، ص ٩٤–٩٥–ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ١١٤ (حاشية ١) – احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٢ ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

٦٠ – ينظر ، احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣٤٤ – محمد عبدالمنعم خفاجة ، قصة الادب في الاندلس ، ج ١ (بيروت : ١٩٦٢) ، ص ٩٢–٩٣

٦١ – ينظر ، ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق محمود علي مكي (بيروت . ١٩٧٣) ص ٨٧– لين بول ، قصة العرب في اسبانيا ، ترجمة علي الجارم (القاهرة : ١٩٤٧) ، ص ٧٩ – احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣٤٢ – السيد عبدالعزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ج ٢ ، ص ٨٩ وبعدها .

٦٢ – احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣٢٧–٣٢٨–ينظر ، احمد امين ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٩ – ٣٠ .

واذا كانت البصرة المركز الاول لنشوء المدارس النحوية نتيجة لانتشار اسباب اللحن فيها[63] ، فان بلد الاندلس له ظروف البصرة نفسها تقريبا فيما يتعلق بشيوع اللحن ، منها اختلاط المسلمين بأهل البلاد الاصليين والزواج من الاسبانيات ، ومنها تكلم العرب بلغة الرومانس (اللاتينية العامية) بجانب لغتهم العربية ، كل هذا ادى الى وجود لغة عربية عامية ، كانت خطرا على اللغة الفصحى ، فهنا ظهرت ضرورة وضع قواعد لحفظها . فمن الطبيعي تبعا لذلك ان يقوم طلاب العلم الاندلسيون – وقد اصبحت العراق قبلتهم الاولى في العلم – بالرحيل الى العراق ودراسة المنابع الصافية لعلم النحو ، ومن ثم الرجوع الى بلدهم ، حاملين معهم ما يتوفر من كتب الصافية من كتب وروايات عن هذه المواضيع النحوية .

وقد شهدت فترة الازدهار من عصر الامارة دخول النتاج العراقي من علوم اللغة والنحو ، فنرى عبدالرحمن بن موسى الهواري يدرك الاصمعي في العراق ويأخذ منه علم النحو مباشرة ولكنه لم يكتف بذلك بل سلك مسلك علماء البصرة بأن داخل الاعراب وتردد في محالها وحمل ما تجمع له من رواية وشعر ، وكتب في هذا المجال ، الا ان كتبه قد غرقت ، لكن ما حفظه في صدره كان الشيء الكثير[64] . وكذلك محمد بن عبدالسلام الخشني الذي قضى في العراق خمسة وعشرين عاما ، فأخذ علم اللغة والنحو والشعر الجاهلي من شيوخ يروونها عن طبقة المشاهير في هذا الباب كالاصمعي وابي عبيدة معمر بن المثنى وسيبويه[65] ومن اشهر شيوخه سهل بن محمد السجستاني والعباس ابن الفرج الرياشي[66] .

كذلك قام جودي بن عثمان النحوي (توفي عام ١٩٨هـ) بلقاء الكسائي والفراء وابي جعفر الرؤاسي اثناء رحلته للمشرق ، وهو أول من ادخل للاندلس كتاب الكسائي[67] . وقد ذكرنا اعلاه دخول العلوم الفلسفية والمعارف الطبية العراقية الى بلد الاندلس .

ب – دور زرياب وماأحدثه في المجتمع الاندلسي :

٦٣ – ينظر ، فتحي الدجني ، ابو الاسود الدؤلي ، (الكويت : ١٩٧٤) ، ص ٤١ وبعدها .

٦٤ – ينظر ، ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٧–٢٥٨ (رقم – ٧٧٨) – احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٨٣ .

٦٥ – ينظر ، الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٦٨ ، (رقم ١٠٠) –احمد بدر المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

٦٦ – ينظر ، ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، ج ١١ ، (بيروت : لا تاريخ) ص ٢٦٣ ، ج ١٢ ، ص ٤٤ .

٦٧ – الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ،القاهرة : ١٩٧٣، ، ص ٢٥٦ – لطفي عبدالبديع ، المرجع السابق ، ص ٧٣ .

تصف لنا الروايات مدى تأثير زرياب في حياة المجتمع الاندلسي حتى ليبدو لنا ان زريابا قد حمل معه بغداد ووضعها في قرطبة . هذه التغييرات التي أوجدها زرياب تعرف باسم (مراسيم زرياب) ، وهي في الواقع رمز لتلك الحضارة العراقية التي غمرت الاندلس ايام عبدالرحمن الاوسط ، والتي تمثل نزعة التجديد والاناقة من ذلك العصر[68] .

ومن هذه المراسيم ، فقد علم زرياب اهل الاندلس طرقا موسيقية جديدة في كيفية ابتداء الغناء وكيفية انهائه ، وجعل مضراب العود من قوادم النسر بدلا من الخشب مما يساعد على نقاء الصوت ، ثم أضاف وترا خامسا للعود . ومن مراسيمه تعليمه للاندلسيين طرق الطهي العراقي ، وضرورة الترتيب في تقديم الاطعمة بدلا من وضعها دفعة واحدة ، كما علمهم طريقة تصفيف شعورهم ورفعه خلف الاذن بدلا من تركه مسدولا على جباههم وعيونهم ، كما ميز لهم بين ملابس الشتاء وملابس الصيف . وفي مجال الزينة استخدم مواد جديدة لطرد رائحة البدن ، كما طور العادات القديمة المستخدمة لهذه الغاية في استخدام درور الورد وزهر الريحان ، والتي كانت تضر الملابس ، فأرشدهم على ازالتها بالملح وتبيض لونها[69] .

جـ – نتائج التأثير الحضاري العراقي على الاندلس :

لاينكر ان هذا التأثير الحضاري العراقي ساهم في تطوير المظاهر الحضارية بالاندلس ، ابتداء من فترة الازدهار في عصر الامارة ، وبقي هذا التأثير يرفد الاندلس بالمؤثرات المستمرة خلال عصر الخلافة ، سواء فيما يتعلق بهجرة العلماء المشارقة الى الاندلس ، أو برحلة علماء الاندلس الى المشرق .

ولكن يلاحظ في بدايات التأثير الحضاري العراقي على الاندلس في عصر الامارة ، وجدت حركة معارضة من قبل اهل الاندلس لهذا التأثير ، وهذه الحركة تتمثل في مايأتي :

١ – حركة المعارضة التي قادها بعض العلماء ورجال البلاط :

تزعم حركة المعارضة هذه بعض وزراء الامير عبدالرحمن الاوسط والشاعر يحيى بن الحكم الغزال ضد زرياب ومراسيمه التي ادخلها للاندلس ، وضد بعض علماء الاندلس الذين تأثروا بالحضارة العراقية

٦٨ – بروفنسال ، العرب في الاندلس ، ص ٤٨ ومابعدها ، احمد العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣٤٢–٣٤٣ .

٦٩ – ينظر ، المقري ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١١٨ –احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦١–١٦٣–لين‌بول ، المرجع السابق ، ص ٨٠–٨١ احمد امين ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢–٣٣–محمد عبدالله عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ، ج ١ ، (القاهرة : ١٩٦٩) ، ص ٢٨١ – عبدالرحمن الحجي ، تاريخ الموسيقى الاندلسية ، (بيروت : ١٩٦٩) ص ٣٣ وبعدها .

واصبحوا من تلاميذها امثال الشاعر والعالم الاندلسي المعروف عباس بن فرناس . وقد كان من حسن حظ زرياب ورجاله ان الامير عبدالرحمن الاوسط كان يرعاهم ويظلل بحمايته عليهم فقام هذا الامير بالمصالحة بين زرياب وبين بعض الوزراء ، كما نهر بعض رجالات البلاط امثال (تمام بن علقمة) وردعهم بعدم التعرض لزرياب ، ونفى الشاعر الغزال خارج الاندلس حيث رحل الى العراق[٧٠] .

أما عباس بن فرناس الشاعر المشهور[٧١] ، والعالم الاندلسي المعروف في عصر هذا الامير ، فقد كان من الشخصيات الاندلسية الذين هضموا الحضارة العراقية ويسروا فهمها لاهل الاندلس . فهو الذي سهل فهم كتاب العروض للخليل بن احمد الفراهيدي عالم البصرة المشهور ، حيث يروى ان الامير ورجال بلاطه لم يفهموا هذا الكتاب اولا ، الى ان سمع به عباس بن فرناس فطلب من الامير ان يأذن له بالاطلاع عليه ، فلما قرأه لاحظ بذكائه ان الكتاب ناقص من اوله . فأرسل الامير الاندلسي الى العراق من احضر هذا الجزء الناقص واستطاع عباس بن فرناس بذلك ان يفهمه ويشرحه للناس ، فكان أول من أخذ عنه علم العروض بالاندلس ، وقد منحه الامير ثلاثمائة دينار وكساه . كما اشتهر عباس ابن فرناس بدراسة الفلك وبدراسة الكيمياء التي تطورت على يديه نتيجة تجاربه الكثيرة في هذا المجال .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود العلمية التي قام بها فقد لقي معارضة شديدة لان عقلية الناس انذاك تنفر من المشتغلين بالفلك والكيمياء وتعتبر هذه العلوم نوعا من السحر ، ولهذا اتهم عالمنا هذا بالسحر والزندقة[٧٢] .ورفعت عليه دعوى للقضاء ، فسمع القاضي شهادة الناس المعارضين له والتي تتهمه بأنه كان يعمل في بيته ليلا باحراق النار فتتصاعد الابخرة ، وان المياه الملونة بالاحمر كالدم تخرج من ساقية داره ، وانه يجوب عرض الدار وطوله يردد : «فعول فعيل» . ويبدو لنا ان القاضي كان متأثرا بثقافة العصر ، واسع التفكير ، فلم يدين العالم وبرأه من كل هذه التهم[٧٣] .

٢ – حركة المعارضة التي قادها المستعربون في قرطبة :

اذا كانت الخطوات الاولى لامتزاج المسلمين بالاسبان تتمثل في الزواج ، وفي نشر الاسلام بينهم ، ففي عصور تالية للفتح وبخاصة في عصر الامارة ١٣٨–٣١٦هـ أخذت اللغة العربية تشيع بين الناس جميعا في بلد الاندلس واصبحت لغة التفاهم والثقافة ، حتى يذكر ان الامير هشام ١٧٣–١٨٠هـ اتخذ اجراءا مهما وهو جعل اللغة العربية ، لغة التدريس في معاهد اليهود والنصارى بالاندلس ، وكان لذلك الاجراء اثر عميق في التقريب بين اصحاب المذاهب المختلفة ، وفي بث روح التفاهم والوئام بينها ، وكان من اثره ان اعتنق الاسبان الاسلام بعد ان عرفوا بتعقل اصوله ومعتقداته[٧٥] .

وقد ازداد هذا الامر اتساعا في فترة الازدهار من عصر الامارة حيث بدأت التيارات الفكرية العراقية تهب على سماء الاندلس ، وتؤثر في عقلية شعبها فتنميها ، وتؤثر في ملامح مجتمعها فتطورها نحو الافضل ، فكثر الاختلاط بين عناصر المجتمع الاندلسي ، فزاد وكبر حجم ظاهرة الاستعراب بالاندلس ، أي اقبال الاسبان على تعلم اللغة العربية وادابها وتقليد العرب في عاداتهم من مأكل وملبس وأمور اجتماعية اخرى . ازاء هذا الامر – والذي كان للتيار الفكري العراقي تأثير واضح في كل هذه المتغيرات – كان لبعض رجال الدين الاسبان المتعصبين موقفا معاديا لهذا التيار ، اطنبت الروايات الأجنبية في ذكرها ، هذا الموقف تصفه هذه الروايات بظاهرة الاستشهاد أو الانتحار الديني وقد عالجت حكومة قرطبة هذه الظاهرة بحكمة وروية وحنكة فزال خطرها بعد حين[٧٦] .

انحصرت اهداف هذه الحركة التي قامت منذ عام ٢٣٥هـ/٨٥٠م والى عام ٢٤٤هـ/٨٥٩م ، في محورين : الأول – محاولة اعادة بعض من اسلم حديثا الى دينه القديم من جديد ، والثاني – الطعن بالاسلام ومبادئه وشتم رسول الاسلام علنا في المساجد والساحات العامة . وعلى الرغم من ان الروايات الغربية اعادت اسباب هذه الحركة تحاملا الى فرض الضرائب الباهضة على رجال الدين اولا ، والى الاضطهاد الذي اوقعه العرب على الاسبان ثانيا[٧٧] ، فأني أميل بأن هذه الحملة التي قادها الغلاة – اذا صح خبر هذه الروايات لان مصادرنا العربية الاندلسية لم تذكر شيئا عنها – تعود الى ظاهرة التطور الحضاري الذي حصل في الاندلس في هذا العصر بسبب التأثير الحضاري العراقي ، فأقبل الناس من مسلمين ونصارى بالاندلس الى التزود من هذه الروافد الحضارية ، فقل – نتيجة ذلك – الاهتمام بالحضارة اللاتينية في اسبانيا

٧٠ – ينظر ، محمد صالح البنداق ، المرجع السابق ، ٥٧–احمد امين المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٣- احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ص ٣٤٣ .
٧١ الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٣١٨ (رقم ٣١ ث) .
٧٢ – خيرالدين الزركلي ، الاعلام ، ج ٤ ، (بيروت : ١٩٧٠) ص ٣٧ محمد عبدالله عنان ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .
٧٣ – ينظر ، لطفي عبد البديع ، المرجع السابق ، ص ٥٦–٥٧–احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣٦٣–٣٦٤ – محمد صالح البنداق ، المرجع السابق ، ص ٣٧
٧٤ – ينظر ، عبدالرحمن الحجي ، التاريخ الاندلسي ، ١٥٧ وبعدها .

٧٥ – محمد عبدالله عنان ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٩ .
٧٦ – ينظر ، عبدالرحمن الحجي ، اندلسيات ، ج ٢ ، ص ٢٧ ، وبعدها – لين بول ، المرجع السابق ، ص ٢٨ وبعدها – ابراهيم بيضون المرجع السابق ص ٢٤٤ وبعدها .
٧٧ – احمد بدر ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٤ وبعدها – ابراهيم بيضون ، المرجع السابق ، ص ٢٤٥ وبعدها .

التي بدأت بالغمور تداريجيا . ويدل على ذلك ان احد علماء الاسبان المعاصرين وهو الفارو القرطبي كتب وثيقة في عام ٢٤٠هـ/٨٥٤م يصف فيها الذعر الذي اصاب بعض الذين كانوا يحتفظون بالعاطفة المسيحية ، فيذكر كيف ان الشبان الاسبان يتقنون اللغة العربية بفصاحة ويقتنون مؤلفاتها ويدرسونها ، في حين انهم يجهلون اداب الكنيسة ولغتهم اللاتينية (٧٨) .

وصفوة القول ، اذا كانت الاندلس في عصورها الاولى مقلدة للشام والحجاز حضاريا ، فان هذا الامر لم يكن كذلك بالنسبة للعراق . لان الاندلس في فترة الازدهار من عصر الامارة وبعدها استوعبت التأثير الحضاري العراقي ، ومثلته أحسن تمثيل ، وجعلته قاعدة لبناء الشخصية الاندلسية الثقافية التي بدأت بالنمو والتكوين في القرن الثاني والثالث للهجرة ، ومن ثم ازدهرت في عصر الخلافة الاندلسية ، القرن الرابع الهجري كما هو معروف .

٧٨ - ينظر . بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس (القاهرة : ١٩٥٥) ، ص ٤٨٥-عبدالرحمن الحجي ، اندلسيات ج ٢ ، ص ٢٧ ، ص ٥٩ .

Levi — Provencal , Historie del Espagne Musul man , 1 (Paris : 1950) , P: 225 — 226.

مع النجاشي الأسدي في كتابه الرجال أو الفهرست

الدكتور
حسن عيسى علي الحكيم
كلية الفقه الجامعة المستنصرية

يعد ابو العباس احمد بن علي بن احمد النجاشي الاسدي، من اعلام القرن الخامس الهجري، ولد عام ٣٧٢هـ. وتواتر تاريخ وفاته عام ٤٥٠هـ[١]. ولكنه ترجم لمحمد بن الحسن بن حمزة الجعفري وأرخ وفاته عام ٤٦٣هـ[٢]. وهذا يجعلنا نميل الى تاريخ وفاته بعد التاريخ المذكور، الا اذا جاء مضافا من قبل النساخ او كتابته سهوا، مبررين الى ما ذهب اليه مترجموه من تحديد لوفاته في منتصف القرن الخامس الهجري.

نشأ النجاشي الاسدي في مدينة بغداد واستمع الى شيوخها وقد اشار الى بعضهم في كتابه «الرجال» من امثال الحسين بن عبيد الله الغضائري (ت ٤١١هـ)، والشيخ المفيد، ابي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري (ت ٤١٣هـ) واحمد بن عبد الواحد البزاز المعروف بابن عبدون (ت ٤٢٣هـ) والشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦هـ) وغيرهم. وكان قد عاصر ابن النديم محمد بن اسحاق صاحب «الفهرست» – على ما يبدو – في ايامه الاخيرة، وشارك الشيخ الطوسي محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ) بالدرس والتلمذة حتى عده بعض الباحثين استاذا له[٣].

لقد اطلق على كتاب النجاشي اسم «الرجال» ويرد اسمه بالفهرست كذلك[٤]. اذ ان هنالك نصا يكشف عن ان كتاب النجاشي المعروف بالرجال كان يسمى بـ (فهرست اسماء مصنفي الشيعة». وقد جاء هذا بقول المؤلف على نسخة الاصل من الكتاب المذكور ما نصه «الجزء الاول من كتاب فهرست اسماء مصنفي الشيعة وما ادركنا من مصنفاتهم وذكر طرف من كناهم والقابهم ومنازلهم وانسابهم وما قيل في كل رجل منهم من مدح او ذم»[٥]. ومن الجدير بالذكر ان كلا من ابن النديم والنجاشي والطوسي صنف كتابا يحمل اسم «الفهرست» ولكن ابن النديم امتاز عنهما بصفة العمومية وجاء شاملا لمصنفات اصحاب الاديان والمذاهب والفرق وكان نصيب المصنفات الامامية قليلا فيه، وهذا ما جعل الطوسي والنجاشي يكتبان او يدونان المصنفات الخاصة بالامامية. وقد اشارا بوضوح في مقدمة كتابيهما.

اجمع مترجمو النجاشي الاسدي على وثاقته. فقد قيل عنه انه: «ثقة معتمد عليه»[٦]، و «ثقة معظم»[٧]، ووصف بالشيخ الثقة الثبت الجليل النقاد البصير والمضطلع الخبير[٨]. وذهب البعض على تقديم رأيه عند التعارض على قول الشيخ

١ – العلامة الحلي: الرجال ص ٢١، القمي: الكنى والالقاب ٢٠٧/٣ الطهراني: مصفى المقال، ص ٥٨ الكنتوري: كشف الحجب ص ٤٣٢ ص ٤٥٧، الزركلي: الاعلام ١١٦/١.
٢ – النجاشي: الرجال ص ٢٨٩.
٣ – العلامة الحلي: الاجازة الكبيرة كتاب البحار ٢٨/٢٦

٤ – الكنتوري: كشف الحجب ص ٤٠٨ حسن الصدر: تأسيس الشيعة ص ٦٢، ٦٤، ٦٥، ١٠٠، ١٠٢.
٥ – النجاشي: الرجال ورقة ١، نسخة مخطوطة عليها اجازة مؤرخة عام ٤٥١هـ
٦ – العلامة الحلي: الرجال ص ٢١
٧ – ابن داود الحلي: الرجال ق ١ ص ٤٠
٨ – القمي: الكنى والالقاب ٢٠٧/٢

ابي جعفر محمد بن الحسن الطوسي(٩) على الرغم من مقامه الكبير، وخطورة ارائه في الفكر الامامي.

لقد صنف النجاشي عدة كتب في الرجال والانساب مث كتاب «انساب بني نصر بن قعين وايامهم واشعارهم» وكتاب «اخبار بني سنين» وكتاب «الكوفة وما فيها من الاثار والفضائل» وغيرها(١٠) وحصل على اجازات علمية. منها اجازة حصل عليها من ابي عبد الله بن الخمري عام ٤٠٠هـ وقد اجازه في مدينة النجف عند مشهد الامام علي عليه السلام(١١). واجازات من شيوخه الذين ذكرهم في كتابه من امثال ابي الفرج محمد علي القناتي ومحمد بن علي بن شاذان القمي وابن عبدون والغضائري والمفيد ومن ابيه علي بن احمد النجاشي وغيرهم(١٢). تعد ثقافة النجاشي الاسدي بغدادية في معظم مراحلها، ذلك ان معظم شيوخه من بغداد، وان كان قد استمع الى غيرهم في النجف وسامراء والجزيرة والبصرة(١٣). واستقى النجاشي معارفه في كتابه «الرجال» من مصادر عديدة، واعتمد على تصانيف مدونة مثل كتاب «الرجال» لابي عمرو محمد بن العزيز الكشي، الذي وصفه بانه «فيه اغلاط كثيرة»(١٤)، وكتاب «الفهرست» لابن النديم(١٥)، وكتاب «الطبقات» لسعد بن عبد الله(١٦). وكتاب «ذيل المذيل» للطبري(١٧). كما اقتبس من جماعة من الرجال، ولكنه لم يذكر مصدرا بعينه من تصانيفهم التي اقتبس منها، كالصدوق محمد بن علي بن الحسين، والبخاري ومسلم والواقدي وابن عقدة وابن بطة ومحمد بن موسى القزويني وغيرهم(١٨). واقتبس كذلك – من خطي ابي العباس بن نوح وابن الدهقان العباس بن عمر الكلوذاني، فقد نقل من خطيهما بصورة مباشرة(١٩). وذكر نصوصا قد اقتبسها ولكنه لم يذكر مصادرها بصورة واضحة كنقله من اصحاب كتب الرجال والنسب او عن جماعة من شيوخه(٢٠).

ان كتابه «الرجال» او «الفهرست» للنجاشي الاسدي، يرجع في حقيقته الى كونه اصلا من الاصول الرجالية المعتمدة عند الامامية حتى عد «عمدة الاصول الرجالية نظير كتاب الكافي عمدة الاصول في علم الرجال»(٢١)، وهذا الكتاب من الكتب التي اعتمد عليها ابن طاووس في كتابه «حل الاشكال في معرفة الرجال»(٢٢). ويعلل استاذنا عبد الله فياض اهمية «رجال النجاشي» بانه يمتاز عن معظم الكتب الرجالية التي سبقته مثل رجال الكشي، او التي عاصرته مثل رجال الطوسي، او التي تلته مثل رجال العلامة الحلي، بايراد معلومات متقنة ومفصلة نسبيا عمن يترجم لهم، واهتم النجاشي بذكر سنة وفاة الكثيرين ممن ترجم لهم كما يورد معلومات مفيدة عن الامكنة التي رحلوا اليها او درسوا او درسوا فيها. وبهذا يختلف عن رجال الطوسي مثلا، الذي يكتفي كتابه، في اغلب الاحيان، بذكر اسم المترجم وانه من اصحاب الامام الفلاني(٢٣).

لقد رتب النجاشي كتاب «الرجال» وفق حروف المعجم. مبتدئا بحرف الالف. ومن ثم بالحروف الاخرى. فهو يذكر الرجل ونسبة، الى جانب مؤلفاته، ومدى وثاقته، وتسلسل رواته. وقد افرد في نهاية الكتاب بابا لمن اشتهر بالكنية(٢٤). فهو قد ذكر منهجه في مقدمة الكتاب بقوله «وقد جعلت للاسماء ابوابا على الحروف ليهون على الملتمس لاسم مخصوص. وها انا اذكر المتقدمين في التصنيف من سلفنا الصالح وهي اسماء قليلة ومن الله استمد المعونة ثم قال: «وذكرت لكل رجل طريقا واحدا حتى لا تكثر الطرق فيخرج عن الغرض»(٢٥). ومن هذا ندرك ان النجاشي لم يكن راغبا ان يكون كتابه في التراجم بقدر ما يكون في ابراز المصنفات والرسائل والتعريف بها، ولكنه جهد لذكر اكبر قدر منها مما كان بوسعه فهو يقول «وقد جمعت من ذلك ما استطعته ولم ابلغ غايته لعدم اكثر الكتب. وانما ذكرت عذرا الى من وقع اليه كتاب لم اذكره»(٢٦). وقد اوضح سبب تأليفه للكتاب في المقدمة، واعتبره استجابة مباشرة لرغبة بعض الناس. بعد ان كثر القول بافتقار الامامية الى كتاب يجمع مصنفاتهم. بقوله «اما بعد فاني وقفت على ما ذكره السيد الشريف اطال الله بقاه وادام توفيقه من تعبير قوم من مخالفينا انه لاسلف لكم ولا مصنف، وهذا قول من لاعلم له بالناس. ولا وقف

---

٩ القمي: سفينة البحار ١/٣٠٢، ٣٠٣، المقاني: تنقيح المقال ٣٦٦/١

١٠ النجاشي: الرجال ص ٧٩، العلامة: الرجال ص ٢١، البحراني: لؤلؤة البحرين ص ٤١٥ الطهراني: الذريعة ١/٣٣٧، ٢/٢٨٠، ٣/٣٨١.

١١ النجاشي: الرجال ص ٥٤

١٢ ن.م ص ٣٩، ٤٥، ٥١، ٧٠، ٧١، ٢٧٩، ٢٨٣، ٣٠٢ وغيرها

١٣ ن.م ص ٥٤، ٦٣، ١٦٦، ١٨٩، ٢٥٢، ٢٧٩، ٣٠٨.

١٤ النجاشي: الرجال ص ٢٦٣

١٥ ن.م ص ٨٢، ص ٨٣

١٦ ن.م ص ١٢٦، ١٢٧

١٧ ن.م ص ١٧٥

١٨ ن.م ص ١١٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٩، ١٩٩، ٢١٤، ٢٣٥، ٢٤٣، ٣٠٧، ٣١٨.

١٩ ن.م ص ٣٣، ٨٥، ٨٧، ١٠٦، ١٥٣، ١٨١، ٢٢٣

٢٠ ن.م ص ٢٠، ٢٦، ٤٠، ٤٤، ٦٩، ٧٠، ١٢٤، ١٣٩.

٢١ الطهراني: الذريعة ١٥٤/١٠

٢٢ ن.م ٦٥/٧، الكنتوري: كشف الحجب ص ١٩٩

٢٣ فياض: تاريخ التربية عند الامامية ص ٢٧

٢٤ الحكيم: الشيخ الطوسي ص ٣٦٧

٢٥ النجاشي: الرجال ص ٢

٢٦ ن.م ص ٢

على اخبارهم ولاعرف منازلهم ، وتاريخ اخبار اهل العلم ولا لقي احداً فتعرف منه ولا حجة علينا لمن لا يعلم ولا عرف»[٢٧] . ولعل محيط بغداد يومئذ وما كان يزخر به من علماء ودور علم ومجالس نظر ، وتشجيع السلطة للحركة الفكرية مما حفزه لهذه النوع من التأليف ، وقد حذا حذوه الشيخ الطوسي ليكتب هو بدوره كتاباً بيبلوغرافياً اخر اسماه «الفهرست» الا ان النجاشي الاسدي كان رائداً بلاشك وسباقاً للتفكير به ، فالمصنفات التي ذكرها ليست كلها في العلوم الشرعية والدينية كالفقه والاصول والحديث والتفسير . وانما فيها كتب اللغة والنحو والشعر والتاريخ والنوادر ، ولكننا نستطيع ان نصنف هذا الكتاب ضمن «كتب الرجال» لان التراجم الواردة فيه ، تضمنت التعريف بالراوي بذكر اسمه ونسبته وأحياناً ذكر نسبه وبلده الذي عاش فيه ، والمدن التي رحل اليها وربما ذكر بعض شيوخ المترجم له ، وبعض من رووا عنه[٢٨] .

اما هيكل الترجمة الذي اقامه النجاشي في كتابه «الرجال» يتجلى بما يأتي :

١ – الاسم وتوابعه وملحقاته

يذكر النجاشي الاسم كاملاً ، ويلحقه باللقب . ومن ثم الكنية ، واحياناً تكون الكنية سابقة على اللقب . واللقب اما ان يكون نسبة الى قبيلة او مدينة او موضع من مدينة او مهنة ، وقد يلحق بالاسم اكثر من لقب ، إذ قد يشترك لقب القبيلة بالمهنة او المدينة او الموضع ، ولكن غالباً ما يكون اللقب الاول هو الاصيل .

٢ – الوظائف الادارية والدينية

يشير النجاشي في بعض التراجم . الى وظائف صاحب الترجمة التي كان يشغلها . كمنصب القاضي ، او المحتسب . او الوزير ، او الكاتب ، او الخازن ، او الحاجب ، او النقيب ، او صاحب العسكر ، او الناظر . وفي بعض الاحيان يحدد مكان الوظيفة كقوله : ولي قضاء الكوفة او بغداد او مكة او الري[٢٩] . او كانت له رياسة في الكرخ من بغداد[٣٠] . او كان نقيباً في سامراء[٣١] . اما الوظائف الدينية والفكرية ، فكانت تلحق بتراجم بعض الاشخاص ان كان اماماً لمسجد او قارئاً او استاذاً او مؤدباً ، او معلماً ، او تلميذاً ، او رواية او صاحب صومعة .[٣٢]

(٢٧) ن . م ص ٢
(٢٨) العمري : بحوث في تاريخ السنة ص ١٦٦
(٢٩) النجاشي : الرجال ، ص ٧٤ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١٢١ ، ٢٠٥ ، ٣١٨
(٣٠) ن . م ص ٢٨٠
(٣١) ن . م ص ١٩١
(٣٢) ن . م ص ١٤٣ ، ١٤٧ ، ٢٤١ ، ٣١١

٣ – النشاط العلمي

وفي مجال التأليف والتصنيف ، كان النجاشي يشير الى الكتب والرسائل ، ويتعرض الى بعضها بالنقد والشرح ، ولكنه في كثير منها لم يسمها ، بل يكتفي بالقول : «له نوادر ، او كتاب ، اواصل ، او مسائل» واحياناً يصف الكتاب ان كان «كبيراً» ، او صغيراً ، او لطيفاً ، او حسناً» ، ويلفت نظر القارئ في بعض الاحيان ان كان الكتاب «متحلاً» ، او فيه تخليط ، اولا يعول عليها»[٣٣] . وهذا يدل على اطلاعه على بعضها ، ومما يؤيد ذلك انه في بعض الاحيان يذهب الى التعريف بجانب من جوانب المصنفات كقوله : «كتاب في الامامة ، وهو كتاب كبير او حسن ، وكتاب الجامع في ابواب الشريعة كبير ، وكتاب يوم وليلة حسن جيد صحيح»[٣٤] ، ونحو ذلك ، وهو في بعض الاحيان يكون دقيقاً في وصف الكتاب ، كقوله عن كتاب «العباسي» به «كتاب عظيم نحو من عشرة الف ورقة في اخبار الخلفاء والدولة العباسية ، رأيت منه اخبار الامين وهو كتاب حسن»[٣٥] . ولكنه يذكر كثيراً من التصانيف دون تعقيب او نقد اوراي ، والنجاشي على العموم قد اوصل الينا اسماء مجموعة كبيرة من الكتب والاثار .

٤ – المذاهب والفرق الفقهية والكلامية

ذكر النجاشي في كثير من تراجم كتابه ، المذهب الفقهي او الكلامي او الفلسفي لصاحب الترجمة ، ان كان احدهم امامياً ، او زيدياً ، او كيسانياً ، او افطحياً او واقفياً او خطابياً ، ونحو ذلك . اما اذا تنقل بين مذهب واخر فانه يشير اليه كقوله كان «مختلطاً بالواقفة ثم عاد الى الامامة ، او كان مجرداً في مذهب الامامة قبل ذلك معتزياً ، او رجع عن مذهب المعتزلة الى القول بالأمامة»[٣٦] .

لقد اطلق النجاشي لفظ «الخاصة» على رواةالامامية ، ولفظ «العامة» على رواة اهل السنة[٣٧] . كما كان يشير الى مكانة صاحب الترجمة من مذهبه ، ان كان فيه «وجهاً» ، او عيناً ، او من خيارهم»[٣٨] . اما بالنسبة الى الغلاة فقد وصفهم بالعناد والتعصب، ووصف بعض المذاهب المتفرعة عن التسلسل الامامي بالغلو والمذاهب الردية[٣٩] . ووقف من المغالين موقفاً عنيفاً . بالقول بانه «فاسد

(٣٣) ن . م ص ١٦٣ ، ١٧٦ ، ١٩٠ ، ٢٩٤
(٣٤) ن . م ص ٣٦ ، ٩٧ ، ٢١٦ ، ٢٤٠
(٣٥) ن . م ص ٧١
(٣٦) ن . م ص ١٦١ ، ١٩١
(٣٧) ن . م ص ٢٣٢
(٣٨) ن . م ص ٢٨ ، ص ٢٩
(٣٩) ن . م ص ١١٢ ، ١٣٢ ، ١٥١ ، ١٩٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٦٨

الاعتقاد ، او غالياً كذاباً ، او فاسد الحديث» ونحو ذلك[٤٠] . وكان يقف من بعض الرجال موقف المتردد كقوله : «غلا في آخر عمره والله اعلم ، وما راينا له رواية تدل على هذا ، او انه قيل : غلا في اخر عمره»[٤١] .

اما اصحاب المذاهب الفلسفية والكلامية فكان يشخصهم بالقول : من الاشاعرة ، او المعتزلة ، او من الحشويين ، او من اهل الكلام ، او يقول بالجبر والتشبيه[٤٢] . وهناك القليل من الرجال من كان نصرانياً واسلم ، فهو يشير الى تنقله الديني هذا[٤٣] .

٥ - الاصول العربية والقوميات

حاول النجاشي ان يشخص بعض الرجال قومياً ، ان كان احدهم عربياً ، او صليباً في عروبته[٤٤] . او كان عربيا وينتمي الى مدينة معينة كقوله : عربي بصري ، او كوفي ، او قمي[٤٥] . او انه كان عربيا من قبيلة معينة ، كقوله : الليثي عربي ، او العجلي ، او من بني زهرة[٤٦] . اما اذا كان صاحب الترجمة اعجمياً ، اشار اليه بقوله : من الاعاجم ، او من الموالي[٤٧] .

٦ - الالقاب والمصطلحات

لقد اوضح النجاشي بعض الالقاب خاصة المتعلقة بالانساب ، اذ قال ان لفظ «الجعفري» ، نسبة الى جعفر الطيار ، ولفظ «القنبري» نسبة الى قنبر مولى الامام علي (ع)[٤٨] . وقال ان «الطاطري» نسبة لبيع الثياب التي يقال لها الطاطرية[٤٩] ، اما لفظ «المسترق» فان صاحبه كان يسترق الناس بشعر السيد[٥٠] ، ولفظ «المسلي» نسبة الى مسيلة . وهي قبيلة من مذحج وهي مسيلة بن عامر بن عمرو بن علة بن خالد بن مالك بن ادد[٥١] ، وسمي احدهم بالحجال ، لانه يعادل الحجال الكوفي الذي يبيع الحجل فسمي باسمه ، اما السمال فهو « الكحال » واما الشوب فنسبة الى «الثياب البيض من القز»[٥٢] ، وسمي احدهم بالرحال ، لانه رحل خمسين رحلة من حج الى غزوة[٥٣] .

٧ - المصطلحات الخاصة بالامامية

ميز النجاشي المصنفين من الامامية بالفاظ وتعابير خاصة ، فقد اطلق عليهم لفظ « الاصحاب» بان يقول لاحدهم : من اصحابنا ، واذا كان له مقال رفيع قال فيه : عين ، او وجه ، او شيخ ، او متقدم من اصحابنا ، واذا كانوا جماعة قال « قوم ، او خلق ، او غير واحد ، او جماعة ، او جماعات او جملة ، او بعض اصحابنا»[٥٤] . وفي بعض الاحيان يذكر مقام صاحب الترجمة الديني او التعبدي ، ان كان من الزهاد ، او الاخيار ، او الاجلاء ، ويلحق هذه الاوصاف بعبارة «من اصحابنا»[٥٥] ، او يحدد مكانته في مدينة معينة ، ان كان شيخاً : او عيناً ، او وجهاً بمدينة البصرة ، او الكوفة اوبغداد ، او الري ، او في مدينة اخرى ، ويلحق ذلك بلفظ «اصحابنا» ايضاً[٥٦] .

اما اذا كان صاحب الترجمة مذموماً في «اصحاب الامامية» فيشير اليه بالقول : جفاه صاحبنا ، او اصحابنا يغمزونه ، او يضعفونه ، او يطعنون عليه ، وما شابه ذلك[٥٧] . اما اذا كان ممدوحاً اشار الى وثاقته ، وتعديله ، وموقعه العلمي ، والرواية عنه ، مع ذكر عبارة «من اصحابنا»[٥٨] .

٨ - المهن التجارية والحرف

في قلة من النصوص نجد النجاشي يذكر مهن بعض الرجال ، ان كان احدهم يبيع السابري ، او يقلي السويق ، او يورق ، او يصحف ، او يبيع الخرق[٥٩] .

٩ - الخصائص الخلقية والبدنية

وفي نصوص احادية نتلمس الصفات البدنية والنفسية لبعض الرجال ، ان كان احدهم اعمى ، او انه ولد ولم ير الدنيا[٦٠] . واذا بلغ من العمر عتياً قال عنه : «في هذا الوقت علواً»[٦١] .

١٠ - المواقع والخطط

يستفاد من نصوص تراجم كتاب «الرجال» بعض الخطط والمواقع ، ولكن النجاشي لم يحددها . التحديد الدقيق ، فذكر من خطط الكوفة

(٤٠) ن ، م ص ١٣٠ ، ص ١٧٦
(٤١) ن . م ص ٣٣
(٤٢) ن . م ص ٢٦٤
(٤٣) ن . م ص ١٧٧
(٤٤) ن . م ص ٥٢ ، ١٦٦ ، ٢٢٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ . ٢٥٦ ، ٣٠٠
(٤٥) ن . م ص ١٤٥ ، ١٥٥ ، ٢٠٢ ، ٢١٩
(٤٦) ن . م ص ٧٧ ، ٨١ ، ١٣٧
(٤٧) ن . م ص ١٤٩ ، ٢٦٩
(٤٨) ن . م ص ٢٧٤
(٤٩) ن . م ص ١٧٩
(٥٠) ن . م ص ١٣١
(٥١) ن . م ص ١١٨
(٥٢) ن . م ص ٢١٠ ، ص ٢١٦

(٥٣) ن . م ص ٦٤
(٥٤) ن . م ص ٣٧ ، ٨٣ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٨ ، ١٣٠ ، ١٤٠ . ٢٠٢ وغيرها
(٥٥) ن . م ص ٨٦ ، ١٦٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٢٨٧
(٥٦) ن . م ص ٤٢ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٨٨ ، ٢٠٢ ، ٢٢٦
(٥٧) ن . م ص ٤٨ ، ١٦١ ، ١٦٣
(٥٨) ن .م ص ٦٧ ، ٨٨ ، ٢٧٦ ، ٣٠٢
(٥٩) ن . م ص ٥٠ ، ٦١ . ٢١١ ، ٢٨٣
(٦٠) ن . م ص ١٢١
(٦١) ن . م ص ٥٣

«طاق المحامل وطاقات عربية ، وكندة ، وصحن اجرم ، وسكة بني خزام»[٦٢] . وذكر قسماً من الرجال قد سكنوا في حي من احياء قبيلة معينة ، كقوله : يسكن في بني هلال او ذهل ، او شيبان ، او تميم ، او اشجع ، وغيرهم»[٦٣] ، وقد اوضح ان «عايذة قريش ليس لها بالكوفة وهو مجاور»[٦٥] . ولعله كان يقصد من لفظة «مجاور» انه في مدينة النجف ومجاورته مرقد الامام علي عليه السلام وذكر من مساجد الكوفة : مسجد سماك ، وبجيلة . ودار اللؤلؤ ، وورد ذكر جامع الكوفة والاسطوانة منه[٦٧] . وقال عن احدهم انه دفن في جعفة[٦٨] .

اما بالنسبة لمدينة بغداد فقد ذكر من خططها : سوق العطش ، وقطيعة الربيع ، والكرخ ، وميدان الاشنان ، وباب الكوفة ، والنوبختية ، ومقابر قريش ، ومشهد العتيقة ، ومسجد الربيع[٦٩] ، وقد حدد موضع الدعالجة بانه خلف باب الكوفة ببغداد[٧٠] .

وحدد النجاشي بعض المواقع واعطاها ، او جعل لها تعريفاً جغرافياً بسيطاً كقوله : «نينوى قرية على العلقمي الى جانب الحاير»[٧١] ، والسابة قرية قريبة من المدينة[٧٢] ، وكرمي من ناحية فسا وبين هذه الناحية وبين فساخمسة فراسخ وبينها وبين شيراز نيف وعشرون فرسخاً[٧٣] .

والجازية قرية بالنهرين ، وبوفك قرية من قرى نيشابور ، والسمندي بلد من اذربيجان ، وجلود قرية في البحر ، ووادي قناة يسيل من الشجرة الى المدينة ، والازد ورقاني قرية من سواد الري ، وترود قرية من كذلك الى سواد البصرة وسواد قاسان[٧٥] .

١١ – علاقة المترجم لهم بالائمة

اوضح النجاشي صلات بعض الرجال بالائمة ، والرواية عن احدهم او اكثر من واحد من الائمة ، بدءاً بالامام علي (ع) ، وانتهاء بالامام الحادي عشر الحسن العسكري (ع) . واذا كان لاحدهم كتاب او مسائل او رسالة كتبها عن امام من الائمة اشار اليه[٧٦] . او انه صحب ، او اختص ، او وقف على امام معين ذكر مكانته وعلاقته بذلك الامام[٧٧] . واذا كان كاتباً او وكيلاً ، او مولى ، او والياً ، ذلك مبينا مكان عمله[٧٨] ، وقد تكون علاقته باكثر من امام . ومن الجدير بالذكر انه لم ينوه باصحاب الحسين (ع) سوى وهب بن عامر الذي قال عنه «وهو الذي قتل مع الحسين بكربلاء»[٧٩] . ولم يورخ وفيات الائمة الا الامام الرضا (ع) الذي قال انه «مات بطوس سنة اثنتين ومائتين يوم الثلاثاء لثمان عشر خلون من جمادى الاولى»[٨٠] .

١٢ – الاطالة والاقتضاب

جاءت بعض تراجم كتاب «الرجال» طويلة ، حتى بلغت عدة صفحات وبخاصة الذين لهم مؤلفات كثيرة ، اولهم مقام رفيع من العلم من امثال ابان بن تغلب ، وابراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي ، والحسن بن علي بن فضال ، والحسن بن محمد بن سماعة الكندي ، والحسن بن عبيد الله السعدي وغيرهم[٨١] . في حين ان الكثير من التراجم لم تتعد الكتابه عنهم باكثر من سطرين .

١٣ – التخصص الثقافي والفكري

يمكن التعرف على اتجاهات التراجم العلمية من خلال ما عرفوا به في ازمانهم وقد يطغى علم من العلوم على نشاط بعضهم ، وعلى هذا يمكن توزيع هذاالنشاط على النحو الآتي :

أ – علم التفسير والحديث والقراءات :

ان اهم ما عنى به العلماء المسلمون هو القران الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، فالنجاشي قد وصف بعض الرجال بالمفسر او من اهل القراءات[٨٢] . واذا كان الشخص محدثاً اشار اليه وذكر درجة علمه في الحديث ، ان كان كثير الحديث او قليله ، او من حفاظه ، او من رواته ، او من اصحاب الحديث[٨٣] ، وقد يوجه النجاشي نقداً الى بعض الرجال بالقول : «يختلط الامر في حديثه»[٨٤] . او قد يجمع بعض

(٦٢) ن . م ص ٣١ ، ١٣٨ . ١٤٠ ، ٢٢٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١
(٦٣) ن . م ص ١٤ ، ٩٧ ، ٢٣٨
(٦٤) ن . م ص ١٦٦
(٦٥) ن . م ص ٥٣
(٦٦) ن . م ص ٨٥ ، ٨٦ ، ١٤٣
(٦٧) ن . م ص ٢٥
(٦٨) ن . م ص ٣١
(٦٩) ن . م ص ٢٤ ، ٤٨ ، ١٨٣ ، ٢٣٥ ، ٢٦٧ ، ٢٨٠
(٧٠) ن . م ص ١٥٩
(٧١) ن . م ص ٩٥
(٧٢) ن . م ص ١٩٦
(٧٣) ن . م ص ١٨٩
(٧٤) ن . م ص ١٧٦
(٧٥) ن . م ص ١٨٣

(٧٦) ن . م ص ٣٨ ، ١٩٨ ، ٢٥٩ ، ٣٠٧ ، ٣١٨ وغيرها
(٧٧) ن . م ص ٧٨ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٢٦ ، ٢٦١
(٧٨) ن . م ص ٣ ، ١٢ ، ١٤٤ ، ٢٩٦ ، ٣١١
(٧٩) ن . م ص ١٥٩
(٨٠) ن . م ص ٧٣
(٨١) ن . م ص ٧ ، ١٠ ، ١٢
(٨٢) ن . م ص ٦٨ ، ٧١ ، ٢٤١
(٨٣) ن . م ص ٣٦ ، ٦٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٣١٥
(٨٤) ن . م ص ١٢٣

الرجال بين الحديث والفقه والادب وعلم الكلام[85] .

ب – علم الادب واللغة والشعر

خص النجاشي الادباء واللغويين والشعراء باوصاف دالة على تبحرهم في هذه العلوم ان كان جليلاً ، او وجيها ، او صاحب فضيلة ، او انه من شيوخ الادب واللغة او النحو[86] . وقد يجمع الشخص هذه العلوم ، اضافة الى العلوم الاخرى كالحديث والفقه والسير . ويرجع الرجال الى اصول اسروية تعاطت الادب[87] .

جـ – علم الرجال والتاريخ والانساب

وصف النجاشي بعض الرجال المعينيين بعلم التاريخ والسير والانساب والرجال باوصاف دالة على تبحرهم بهذه العلوم ، ان كان احدهم اخباريا ، او عالماًبالاخبار والايام[88] ، واذا كان ذا سمعة كبيرة في مدينة معينة اشار الى كونه من شيوخها ، او شيخ الاخبار فيها[89] .

د – الفلسفة وعلم الكلام والعلوم الاخرى

خص النجاشي علماء الفلسفة والكلام بنعوت خاصة بهم ، ان كان احدهم جيد الكلام او من وجوه المتكلمين ، او من شيوخهم ووصف احدهم بانه من «اجدل الناس»[90] . او كان متكلماً جليلا ، او حاذقاً ، او مجيداً[91] . وكان بعض الرجال من يجمع الفقه والحديث الى علم الكلام[92] . ولم يشر النجاشي الى من كانت له معرفة بالعلوم البحتة والتطبيقية سوى علم النجوم[93] .

هـ – علم الفقه

يحتل علم الفقه مكاناً كبيراً في رجال النجاشي . فهو يذكر الفقيه مع مكانته في الفقه ان كان عارفاً ، او وجهاً ، او رعاً ، او مشهوراً ، او شيخ مدينة معينة في الفقه ، او طائفة معينة[94] . وكثيراً ما يذكر مكانة الفقيه مع عبارات التقويم ، والتعديل ، والتوثيق[95] ، اضافة الى تعداد تصانيفه في علم الفقه وغيره .

و – الوعظ والزهد

وصف النجاشي بعض الرجال بصفات زهدية وعبادية ، ان كان احدهم من العباد الخاشعين . او من الصالحين ، او من الفضلاء او الزهاد ، وقال عن بعضهم انه «حسن الطريقة»[96] ، ولعل هذا القول اشارة الى المتصوفة والعبادمن الرجال ، واذا كان زاهداً في قبيلة او اسرة معينة اشار اليه[97] .

١٣ – مصطلحات الجرح والتعديل

حدد النجاشي موقفه من بعض الرجال ، ووصفهم بما يناسبهم حسب قناعته انطلاقاً من علمه بالرجال ، وفق مصطلحات الجرح والتعديل وبيان احوالهم من حيث قبول الرواية ، اوردها ، وقد اعطى بعض الباحثين الشيخ النجاشي اهمية كبيرة في هذا العلم حتى عد قوله مقدماً على غيره من أئمة الرجال في مقام المعارضة في الجرح والتعديل[98] ، ويقول الدكتور صبحي الدين ان نقد الحديث بلغ ذروته لدى الامامية في كتاب احمد بن علي النجاشي[99] .

واذا اراد الشيخ النجاشي توثيق احد الرجال اطلق عليه لفظ «ثقة»[100] . وفي حالة التأكيد على ثقته قال « ثقة ثقة »[101] ، او يضيف الى تكرار لفظ «ثقة» عبارات تزيد في الوثاقة مثل «ثبت ، او لايعدل به احد ، او عين لالبس فيه ولاشك او عين مسكون اليه»[102] ، وكثيراً ما يلحق بلفظ «ثقة» ايضاً عدة الفاظ تفصح عن جانب من حياة ذلك الرجل وقدرته على الحديث ، مثل «صدوق ، اوعين ، او وجه»[103] . اضافة الى بعض العبارات الدالة على التعديل والتوثيق ، ويربط النجاشي بين لفظ «ثقة» ومكانة صاحب الترجمة في علم الحديث من حيث كثرة روايته او قلته او صحيحه او سقيمه .

اما بالنسبة للرواية فكان يربط الثقات من الرجال بمكانتهم في رواية الحديث ، ان كان صحيح الرواية ، او نقيها ، او كثيرها ، او قليلها[104] . وهي مصطلحات تدل على ما يوجب العمل بروايته او الطعن فيها . ويربط النجاشي بين وثاقة الرجل وعلميته في الفقه في كثير من مواضع كتابه ، اذ يكون احدهم «فقيه ثقة»[105] . ويلحق بهذا

(٨٥) ن . م ص ٣٠٨
(٨٦) ن . م ص ٦٢ ، ٧٩ ، ٧٠ ، ١٥٩ ، ٣١٣
(٨٧) ن . م ص ٢٢٧
(٨٨) ن . م ص ١٩١
(٨٩) ن . م ص ١٦٧
(٩٠) ن . م ص ٢٥
(٩١) ن . م ص ٣٣ ، ص ٤٠ . ٨٤ ، ٢٧٠
(٩٢) ن . م ص ٣٠٩
(٩٣) ن . م ص ٢٩٠
(٩٤) ن م ص ١٣٠ ، ص ١٥٠ ، ١٨٤ ، ١٩١ ، ٢٨٢
(٩٥) ن . م ص ١٨٤ ، ٢٨٢
(٩٦) ن . م ص ٢٤٥
(٩٧) ن . م ص ١٨٠
(٩٨) القمي : الكنى والالقاب ٢/ ٢٠٧
(٩٩) محي الدين: ادب المرتضى ص ١٨
(١٠٠) النجاشي : الرجال ص ٣٣ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٠ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ وغيرها
(١٠١) ن . م ص ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٧٤ وغيرها
(١٠٢) ن . م ص ٣٣ ، ١٤٩ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ٢٧١
(١٠٣) ن . م ص ١٤ ، ٩٢ ، ٢١١ ، ٢٥١ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٣وغيرها
(١٠٤) ن . م ص ٧٤ ، ١٣٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢٤٠
(١٠٥) ن . م ص ٢٩ ، ص ٢٧٩

اللفظ عبارات اخرى لها دلالات علمية في منطقة معينة او في طائفة معينة[١٠٦] ، وفي بعض الاحيان يشير الى كون الرجل عربياً ثقة[١٠٧] ، او ينتمي الى مدينة معينة اضافة الى وثاقته[١٠٨] ، وقد اعطى النجاشي رايه الشخصي بوضوح في بعض الرجال كقوله : «اصدق عندي لهجة»[١٠٩] .

اما مصطلحات التضعيف والتجريح فقد اوضحها النجاشي بعدة الفاظ كلها تفيد القدح وتجريد الثقة من بعض الرجال كلفظ «ضعيف»[١١٠] ، واحيانا يشدد في التضعيف فيقول «ضعيف جداً»[١١١] . او يضيف الى لفظ «ضعيف» عبارات تؤكد هذا اللون من التجريح كقوله «لا يعول عليه او غمز عليه اصحابنا ، او انه من الغلاة او الواقفة ، او انه يزيد في الحديث او يعتمد على المراسيل»[١١٢] .

ويتردد الشيخ النجاشي في بعض الاحيان من اطلاق لفظ «ضعيف» على بعض الرجال بقوله : «وضعف بعض التضعيف ، او رمي بالتضعيف ، او انه يروي عن الضعفاء»[١١٣] .

وهناك الفاظ لها دلالات التضعيف مثل «مضطرب ، او مضطرب الامر ، او فيه اضطراب ، او مضطرب جداً»[١١٤] ، او القول عن بعض الرجال انه «مختلط الحديث ، او ليس بنقي او يعتقد الحق والباطل معاً ، او انه خلط بعد ان كان ثبتاً»[١١٥] .

اما بالنسبة للغلاة والواقفة الذين يقفون على احد الائمة فكان يصفهم النجاشي بفاسدي المذهب او الرواية اضافة الى الضعف ، وقد وصفهم بالكذب والغمز عليهم[١١٦] ، واشار الى بعض الرجال انهم من واضعي الحديث ، والرواية عن المجاهيل . والانفراد بالرواية والطعن عليه[١١٧] .

(١٠٦) ن . م ص ١٢ ، ص ١٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٧٠
(١٠٧) ن . م ص ٣٥ ، ٩٥
(١٠٨) ن . م ص ٣٥ ، ٣٨٠
(١٠٩) ن . م ص ٢٦
(١١٠) ن . م ص ١٨ ، ٣٩ ، ٧٩ ، ١٠٠ ، ١٢٨ ، ١٤٢ ، ١٥٦ . ١٥٨ ، ٢٠٥ ، ٢٢٦ وغيرها
(١١١) ن . م ص ٢٥٨ ، ٢٣٤ ، ص ٢٩٦
(١١٢) ن . م ص ٤٦ ، ٢٠٤ ، ٢٣٧
(١١٣) ن . م ص ٢٤٧
(١١٤) ن . م ص ٥٠ ، ٢١١ ، ٢٤٠ ، ٢٩٤ ، ٣٠٩ ، ٣١٨
(١١٥) ن . م ص ٢٣ ، ٥٣ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٩٢
(١١٦) ن . م ص ٥٠ ص ٨٨ ، ص ١٩٠ ، ٢٤٧
(١١٧) ن . م ص ٨٨ . ص ١٣٠

وكان النجاشي في بعض الاحيان يتردد في ابداء راي قطعي في تجريح بعض الرجال ، ولكنه كان يقدم الفاظا لها دلالات غير بعيدة عن التجريح والتضعيف مثل قوله : فيه نظر ومشكوك في روايته ، وليس بالمتحقق[١١٨] .

مصادر البحث ومراجعه

البحراني : يوسف احمد (ت ١١٨٦هـ)

١ - لؤلؤة البحرين في الاجازات وتراجم رجال الحديث ، تحقيق محمد صادق بحر العلوم ، مطبعة النعمان / النجف

الحكيم : حسن عيسى

٢ - الشيخ الطوسي ابو جعفر محمد بن الحسن ، مطبعة الاداب / النجف الاشرف الطبعة الاولى ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥ م .

ابن داود : تقي الدين الحسن بن علي الحلي (فرغ من الكتابة سنة ٧٠٧هـ)

٣ - الرجال ، مطبعة دانشكاه / طبعة ١٣٤١هـ

الزركلي : خير الدين

٤ - الاعلام ، مطبعة كوستاتسوماس وشركاه ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٣ - ١٣٧٦هـ / ١٩٥٤ - ١٩٥٦ م .

الصدر : حسن السيد هادي الكاظمي (ت ١٣٥٤هـ)

٥ - تاسيس الشيعة لعلوم الاسلام ، شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .

الطهراني : محمد محسن (اغابزرك ت ١٣٨٩هـ)

٦ - الذريعة الى تصانيف الشيعة ، مطبعة الغري والاداب / النجف

٧ - مصفى المقال في مصنفي علم الرجال ، الطبعة الاولى ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م .

العلامة الحلي : جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهر (ت ٧٢٦هـ)

٨ - الاجازة الكبيرة لبني زهرة الحلبيين ، تقع ضمن كتاب الاجازات من «بحار الانوار» طبع حجر ١٣١٥ ه .

(١١٨) ن . م ص ٢٦ ، ١٠٨ . ١٣١ ، ١٦٧ ، ٢٣٧ .

٩ – رجال العلامة الحلي ، او خلاصة الاقوال في معرفة الرجال ، تحقيق محمد صادق بحر العلوم ، المطبعة الحيدرية / النجف ، الطبعة الثانية ١٩٦١ م .
العمري : اكرم ضياء (د .)
١٠ – بحوث في تأريخ السنة المشرفة ، مطبعة الارشاد / بغداد ، الطبعة الثانية ١٩٧٢ م
فياض : عبد الله (د .)
١١ – تاريخ التربية عند الامامية واسلافهم من الشيعة بين عهدي الصادق والطوسي ، مطبعة اسعد ، بغداد ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م .
القمي : الشيخ عباس (ت ١٣٥٩هـ)
١٢ – سفينة البحار ومدينة الحكم والاثار ، المطبعة العلمية/ النجف ١٣٥٢ – ١٣٥٥هـ .
١٣ – الكنى والالقاب ، المطبعة الحيدرية/ النجف ١٣٧٦هـ – ١٩٥٦ م .
الكنتوري : اعجاز حسين النيسابوري (ت ١٢٨٦هـ)
١٤ – كشف الحجب والاستار عن اسماء الكتب والاسفار ، مطبعة بيتس مشن/ كلكتا ١٣٣٠هـ .
المامقاني : عبد الله بن محمد حسن (ت ١٣٥١هـ)
١٥ – تنقيح المقال في احوال الرجال ، مطبعة المرتضوية/ النجف ١٣٥٠ – ١٣٥٢هـ .
محي الدين : عبد الرزاق (د .)
١٦ – ادب المرتضى من سيرته واثاره ، مطبعة المعارف / بغداد ، الطبعة الاولى ١٩٥٧ م .
النجاشي : ابو العباس احمد بن علي (ت ٤٥٠هـ)
١٧ – الرجال (او الفهرست) . طبع أوفسيت ١٣٩٨هـ .

الرُّؤيَة التَاريخيّة عِندَ ابنِ الأَثير عِزّ الدين أبي الحَسَن عَلي بن أبي الكَرم مُحَمّد ابن مُحَمّد الجزري في كِتابهِ «البَاهِر في الدَولَة الأَتابكيّة»

الدكتور محمود ياسين التكريتي
كلية الاداب قسم التاريخ
جامعة الموصل

المقدمة :

اتسمت الكتابة التاريخية عند العرب في بداية نشوئها على انها فرع من علوم الحديث متأثرة بطريقة المحدثين في جميع الروايات التاريخية ونقدها معتمدين بذلك على الاسناد او الاسناد الجمعي فسلكوا بذلك طريقتين لتلك الكتابة الأولى تتمثل عرضا إدة التاريخية على السنين تسبقها مقدمة عن بداية حركة التاريخ منذ الخليقة او ذكر «طوفان». ومن بين من سلك ذلك المؤرخ ابو علي الحسن بن جرير الطبري (ت ٣١٢هـ/٩٧٣م)، ومسكوية (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م) وابن الاثير (ت) ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) وابو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، وعرفت الطريقة الثانية بعرض الحوادث على طريقة السرد القصصي بعد تثبيت عناوين لها مرتبة على العهود كما هو الحال عند المؤرخ اليعقوبي والدينوري والمسعودي.

وان التطور في الكتابة التاريخية اعتمد في اساسه على ما توفر لدى الامة العربية من عوامل الانطلاق الشامل في الحياة العلمية والادارية والاقتصادية والتي كانت بدورها مرتبطة بالاستقرار السياسي للدولة العربية في العصر العباسي الأول فقد قرر ذلك الاستقرار السياسي للدولة العربية في العصر العباسي الأول حركة ابداع شاملة لجميع مظاهر الحياة ولهذا عبر عن كتابة التاريخ في العصر العباسي الذهبي بانها «مرآة لاعظم نواحي النهضة الاسلامية تقدماً»(١).

وان بداية القرن الثالث للجهرة / التاسع للميلاد كان يمثل بالنسبة للدولة العربية فترة استقرار، وذلك بسبب تنظيم الدواوين، وخاصة دواوين الانشاء والجند والبريد واماكن للمشتغلين بالتاريخ الانتفاع من هذه الدواوين من معلومات احتوت كتابات تواريخ القرن الثالث للهجرة على عهود رسمية ومراسلات سياسية واحصاءات للمواليد والوفيات ومعلومات عن كبار رجال الدولة من الوزراء والقادة وعمال الولايات (٢) يضاف الى ذلك ما شهده العصر من نشاط لحركة الترجمة بالاضافة الى سهولة الانتقال في انحاء الدولة الاسلامية دفعت كثير من طلاب العلم والمؤرخين الى الرحلة في طلب العلم والرواية، فكان نصيب المؤرخين متابعة الرواية وتدوين التاريخ، وهكذا شاركت هذه الظاهرة بلاشك في عملية التطور التي شهدتها الكتابة التاريخية فاذا ما انتصف القرن الثالث للهجرة نجد انفسنا امام مادة تاريخية كثيرة شملت تدوين تاريخ الأمة، واصبح التخصص واضحا اكثر من ذي قبل.

---

١ فرانزروزنثال: علم التاريخ عند المسلمين: ص ١٢٦٧ ترجمة د. صالح احمد العلي مؤسسة فرانكلن بغداد ١٩٦٧م.

٢ للاستزادة راجع عن ذلك التطور في الكتابة التاريخية: د. ربيع حسنين محاضرات في علم التاريخ، ص ١٣ (محاضرات القيت في الجامعة العربية القاهرة، ١٩٧٧ م معهد احياء المخطوطات العربية، القاهرة، حينذاك على الآلة الكاتبة، ١٩٧٧م.

ومن زخم الاحداث وفي وسط التغيرات السياسية والصراعات الفكرية والتي نتج عنها تعدد القوى السياسية بانفراط عقد الوحدة للدولة العباسية، نرى تعدد الممالك والامارات ونشأت الدويلات شرقا وغربا في الوطن العربي والعالم الاسلامي وكثرت العواصم والحواضر التي نافست بغداد، فظهر في دمشق والقاهرة وحلب والقيروان وقرطبة، واصفهان وغزنه والري وبلخ مؤرخون وعلماء اخذوا على عاتقهم كتابة تاريخ ممالكم ومدنهم، وكان لذلك الانقسام السياسي والاستقلال الاداري اثر في ازدهار الاقليمي[٣]، «التاريخ المحلي» بما فيها تواريخ الدول والامارات وتواريخ المدن.

ففي الاولى كتب ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ/٨٧١م) كتابه فتوح مصر والمغرب والبلاذري (ت ٢٧٤هـ/ في انساب الاشراف وفتوح البلدان وفي الثانية الف الخطيب البغدادي (ت ٤٦٢هـ/١٠٧١م) تاريخ بغداد وابن عساكر (ت ٥٧١هـ/١١٧٦م) تاريخ دمشق. وربما سبقهم في هذا المضمار مؤرخ اخر هو الازدي (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م) وان لم يكن في عمله قد وصل الى ما وصل اليه المؤرخون السابقون.

واستمرت حركة تأليف الكتب العام تسير جنبا الى جنب مع حركة تأليف كتب المدن والتواريخ السطحية. كما تعددت وجوه التأليف، فوضعت كتب التراجم والطبقات وبصورة عامة نستطيع ان نستنتج ان الكتابة التاريخية للفترة الواقعة ما بين القرنين الثاني والرابع للهجرة اتخذت المظاهر الاتية:-

١ - استقلال التاريخ وانفصاله عن الحديث على الرغم من اعتبارنا ان الحديث الاداة الاساسية لكتابة التاريخ.

٢ - تمتع التاريخ والمؤرخون بمكانة عالية، واصبح معه التاريخ علما قيما والمؤرخون ذوي مكانة عالية بين العلماء.

٣ - ارتباط التاريخ بالحركة الثقافية للمجتمع العربي والحياة الاجتماعية[٤] من منطلق «ان التاريخ كان دائما يمثل مركزا اكثر تواضعا كوسيلة لحفظ منجزات الفكر الاسلامي»[٥].

واخيرا فان ما وضع في هذه الفترة والعهود اللاحقة من مؤلفات تاريخية تمثل واقع المرحلة الثقافية في جوانبها المشرقة التي مر بها الوطن العربي والعالم الاسلامي. كما جاءت تعبيرا عن وضع اسس ثابتة لتطور الكتابة التاريخية الحديثة عن المشرق والمغرب معا.

وان احتواء المكتبة العربية لكتب التاريخ العام اخذت تزداد سنة بعد اخرى مما وضعه اليعقوبي والطبري والمسعودي والمطهر بن المقدسي، وما كتبه مسكوية في كتابة تجارب الامم، وما اضافة ابن الجوزي في «المنتظم» وحفيدة سبط بن الجوزي في «مرآة الزمان» الا دليل على نشاط تلك الحركة ثم جاء ابن الاثير الذي الف كتابه الكامل في التاريخ نشره (C.J.Tornberg) ١٤ جزءا (لندن، ١٨٥١م - ١٨٧٦) وابو الفداء «المختصر في اخبار البشر ١٤ جزءا (استانبول ١٨٧٠م) دليل اخر على ذلك التطور.

ان الذي يهمنا في البحث هو ابن الاثير الذي الف اربعة كتب في التاريخ كان اشهرها (الكامل في التاريخ) وهو موسوعة كبيرة في التاريخ العام بدأه بأول الزمن «بدء الخليقة» ورتب حوادثه على طريقة الحوليات «السنين» مع ذكر جميع تفاصيل الاحداث التي تقع يوما بيوم وشهرا بشهر وسنة بعد اخرى معتمدا على الصدق في الرواية عن طريق اعادة صياغة الرواية بعد سماعها مع التزام بفواصل السنين للاحداث المتصلة وعدم تكرار ذكرها[٦] واوجز خير مؤلفه هذا ابن خلكان بقوله «ابتدأ فيه من أول الزمان الى اخر سنة ثمان وعشرين وستمائة»-[٧].

ويأتي كتابه الثاني «التاريخ المباشر في الدولة الاتابكية ضمن الكتب الاربعة المشهورة والتي الفها ابن الاثير، وهو من كتب التواريخ المحلية «الخاصة». اختص ببحثه في تاريخ احدى الاسر الحاكمة في التاريخ الاسلامي وهي اسرة آل زنكي «الاتابكية» ويعود الفضل الى تأسيس حكمها الى قسيم الدولة - اقسنقر - الحاجب في الموصل سنة ٤٧٧هـ، وكانت محتويات الكتاب تضم احداث هذه الاسرة ومعطيات السياسة فيها الى سنة ٦٠٧هـ/١٢١١ وهي سنة بدء ولاية القاصر مسعود الذي اهدى اليه الكتاب اعترافا بفضل اسلافه على اسرة ابن الاثير[٧] الى جانب ذلك فقد عرف عنه انه وضع كتابين اخرين هما «اللباب في تهذيب الانساب» و «اسد الغابة في معرفة الصحابة».

فالاول من وضع ابي سعد عبد الكريم بن السمعاني وتأليفه واختصره ابن الاثير[٨] والثاني شمل تراجم الصحابة والصحابيات الذين

٣ - د. احمد محمد الحوفي: الطبري: ١٨٠ - ١٨١، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٦٣م

٤ - يقدم لنا د. عبد العزيز الدوري ضمن دوافع الكتابة التاريخية فكرة اولية عامة عن الكتابة التاريخية السائدة عند العرب حتى نهاية القرن الثالث للهجرة: انظر د. عبد العزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب: ١٣٦.

٥ راجع فرانزروزنتال: علم التاريخ عند المسلمين: ٢٨١، د. احمد الحوفي ١٨٠ - ١٨١.

٦ - سعداوي: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين / ٩

٧ - ابن خلكان: ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد: وفيات الاعيان: ٣٤٨/٣ (تحقيق د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠م)

٨ - سعداوي: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين: ٨.

صحبوا الرسول الكريم)ص)(ص) في حياته[9] وله كتاب اخر لم يشتهر مثل كتبه المشاركة اليا هو كتاب («تحفه العجائب وطرافة الغرائب» لايزال مخطوط وعلى مايبدو وانه لايقع ضمن كتب التاريخ لان مادته اختصت فيملا «تابدعته القدرة الربانية منع عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجدات)وجدات»[10] وبصورة عامة فان ابن الاثير استطاع ان يسهاهم في حرجةكة تدوين التاريخ عن طريق ماكتبه في التاريخ العام بكتابةبه «الكامل» ومادونه لنا من معلومات في كتبابه المحلي «الاقليمي» الباهر في الودلةدتلةولة الاتابكية ، في الاول فصل باكثرية الاحداث التاريخية التي تناولها الكتاب في حين فنجح في الثاني بأسلوب مهمة من المشرق لالعربي هي دولة الاتابكية في الموصل.

وعليوعليه يمكن التركيز على نقطتين اساسيتين هما :

١ – الدوافع التي دفعت ابن الاثير الى كتبه الباهر.

٢ – طبيعة الكتابة التاريخية عند ابن الاثير في الباهر.

١ – الدوافع التي دفعت ابن الاثير الى كتابه الباهر :

المهم امامنا ان نتعرف مسبقا على الدوافع التي حذت بأبن الاثير في ان يكتب الباهر في الدولة الاتابكية لكي تتاح الفرصة من خلالها التعرف على الرؤية التاريخية عند ابن الاثير ، ويمكن للقارئ ان يتعرف بسهولة على الدوافع التي وضع كتابه من اجلها من خلال مطالعة مقدمة كتابه الباهر التي كتبها بأسلوب مسجوع ويأتي في مقدمة تلك الدوافع .

أ – فضل الاسرة الاتابكية على اسرة ابن الاثير : فقد كان للاتابكية الفضل الكبير على اسرة ابن الاثير ، من خلال ماغمرت به من كرم واحسان وكان اكثرهم فضلا هو الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين ارسلان – صاحب الموصل – والذي الف من اجله كتاب الباهر والذي حكم من سنة (٦٠٧ هـ – ٦١٥ هـ) ودعنا نلتقي مع ماقاله ابن الاثير حول ذلك الفضل «اما بعد والذي غمرنا من انعام هذه الدولة العزيزة القاهرة ، والايام الاتابكية الزاهرة ، وشملنا من احسانها وانالتنا من عز سلطانها فقد اشتهر خيره وطاب خبره وطار ذكره في الافاق وتحدث به الرفاق ...»[12] .

ب – بده توفير الرغبة لديه من اجل ان يؤرخ للأسرة الاتابكية ، ويتضح هذا من خلال قوله «وكدت عازما على ان ادون اخبارهم واجمع اثارهم واذكر ما منّ الله سبحانه وتعالى على الاسلام والمسلمين ومما حفظ من ثغورهم ببلادهم وماصب على الفرنج من العقاب بايديهم ...»[13] وهكذا يطرح لنا ابن الاثير عامل اخر من العوامل التي دفعته بالكتابة عن تاريخ الاسرة التابكية ... ويكمل بقلمه الصورة لذلك الدافع بأن جهادهم ضد الفرنج كان يقف عاملا مهما دفعه بأن يؤرخ لدولتهم الى اجانب تهذا ما اثبته الملك القاهر ابو الفتح مسعود بن ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي – اقسنقر – من حسن السياسة والتدبير لأنه سار على خطى ونهج والده الملك السعيد نور الدين .

جـ – يضيف سببا ثالثا هو حبه وولعه بتاريخ ملوكهم ، فقد دفعه الى تسجيل مناقبهم ومواقعهم في الحروب التي خاضوها في سبيل نصرة الدين وذبهم على حوزة المسلمين[14] .

ان ماسبق يعبر بوضوح عن الاسباب التي دفعت ابن الاثير الى اختيار هذه الاسرة ليؤرخ لها ، وهو بلا شك يمثل باجتماع تلك العوامل مع عوامل اخرى تعود الى طبيعة الكتابة التاريخية السائدة في الفترة التي عاش بها ابن الاثير وهي اواخر القرن السادس للهجرة والعقد الاول من القرن السابع للهجرة ، ترسم لنا معا الصورة الحقيقية للرؤية التاريخية عند ابن الاثير في كتابه «الباهر» في الاول :–

من خلال قرأتنا في الباهر نرى ان مجمل مادون فيه يهتم بالتاريخ السياسي وخاصة العسكري في حين غلب على الجوانب الاخرى الاهتمام بسيرة ملوك الاسرة الاتابكية بالموصل ، وعلى الرغم من تصريح ابن الاثير في مقدمته بأن الكتاب اهتم بملوك الاسرة الا انه لا يألو جهدا في ان يتطرق الى ذكر الخلفاء والساطين الذين عاصروا ملوكهم ، كما انه لايبخل في ان ينقل القارئ الى الكلام عن فخر الدولة ابن محمد ، وعن وفاة عز الدين الديبسي ، ابو بكر صاحب الجزيرة – كما يتحدث عن احوال بغداد العباسية الى جانب شرحه للحالة السياسية لكل من المسلمين والافرنج ، ويذكر بعض الحوادث التي وقعت لبغداد كما يذكر بعض الحوادث التاريخية تحت عنوان «معرفة حسنة» ومما ذكره ماوقع للايوبيين من احداث في عهد الاتابك نور الدين محمود الى قيام دولتهم وانقراض الفاطمية[15] .

٩ – ابن خلكان : وفيات الاعيان : ٣ / ٣٤٨ .

١٠ – احمد طليمات : من مقدمة له في تحقيق الاثير : الباهر في الدولة الاتابكية : ١٤

١١ – المرجع السابق : ١٤ .

١٢ – ابن الاثير : الباهر في الدولة الاتابكية : ١

١٣ – المصدر السابق : ١ – ٢ . ويشير المرحوم د . فيصل السامر الى مثل ذلك الجهاد ضد الفرنج : راجع فيصل السامر ابن الاثير : ١٤٩ ، ١٥٠ – ١٥١ .

١٤ – المصدر السابق : ٣ .

١٥ – راجع بهذا الصدد مادون في كتابه الباهر – بالصفحات ٥ – ٨ – ٩ الخلافة ٢٠ – ٢٢ – ٢٥ ، السلاطين : ٤٢ – ٤٣ احداث الخلافة ٤٧ – ٥٥ ، الافرنج والمسلمين ، ص ٨٦ – ١٠٤ عز الدين ابو بكر الدبيسي ص ١١٢ – حصار الملك محمد لبغداد سنة ٥٥٣ هـ : ص ١١٣ الايوبيون : ١١٩ – ١٢٢ – ١٣٣ – ١٣٧ – ١٤١ سقراط الدولة الفاطمية ١٥٦ ، وصول صلاح الدين يوسف ابن ايوب الى دمشق : ١٧٦ .

ان مامر بنا لايمثل كل الرؤية التاريخية عند ابن الاثير لان المادة التاريخية في كتابه الباهر شملت الحديث عن عظمة البيت الزنكي ففصل وافاض الحديث عن المعارك التي دارت بين الصليبيين وبين كل من عماد الدين زنكي ونور الدين كما نراه في الجانب الاخر يزهو ويفتخر في بعض المناسبات التي تعود الى الزنكيين كسخريته بالصليبيين لدمياط فيقول : «ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا اذنين»[16] والتي كان من نتائجها هزائمهم المنكرة ، وكذلك حينما استولى الصليبيون على مركبتين تجاريتين للمسلمين وذلك ٥٦٧ هـ «فلما كان على نور الدين محمود الا ان يجمع العساكر ويحاصر بها حصونهم وقلاعهم بالشام فهاجم حصن عرقة وخرب وارسل طائفة من العسكر الى حصن صافيثا وعريمة فأخذها عنوة وكذلك غيرهما .....»[17] .

ولما علم الفرنج ماحل بحصونهم وخاصة بولاية طرابلس راسلوه وبذلوا اعادة ما اخذوه من المركبين على ان يجددوا الهدنة معه فأجابهم الى ذلك الى جانب هذا انه حصل في الكلام عن سيرة ملوكهم وحياتهم مما يدلل على ان كتابته اختصت في تاريخ اسرتهم ، وبهذا شغلت كتابته عن الاتابكية في الباهر مساحة اكثر مما كتبه عن الايوبيين على الرغم من انه يصل الى سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م وهي السنة التي برز فيها صلاح الدين كسياسي وكقائد معا من بين صفوف الجماهير العربية ويتجه في كتابته نحو الاسهاب في تدوين الاحداث التي جرت بعد وفاة نور الدين وخاصة توجه صلاح الدين الى دمشق واستيلائه عليها او اثناء استعراضه لعلاقة صلاح الدين مع حلب على عهد ملكها الملك الصالح ابن نور الدين محمود الزنكي ، مما يثبت لنا انه يتعامل ولو من طرف خفي مع الدولة الجديدة «الدولة الايوبية» وكما عبر عنه بعبارة اخرى ادق «ولما اقبلت الدنيا على صلاح الدين وادبرت عن سادته الاتابكية يحبس المؤرخ مشاعره واحساساته ويعجز عن الاسهاب في تدوين الاحداث المبكية التي انزلها بهم صلاح الدن والتي حلت بهم بعد وفاة كبيرهم السلطان نور الدين»[18] .

ان تسجيل الحوادث الاخيرة والمشار اليها كانت امامنا مجرد تجربة في مجال كتابة التاريخ المحلي – انتهجها ابن الاثير ونجدها بنفس الوقت في كتابة الكامل ولو انه كتبها بدقة اكثر وبصدق واضح في الاخير مادون في الكتابين وبنفس الموضوع التاريخي كما هو الحال في كتابته عن صورة العلاقة بين صلاح الدين والزنكيين الا ان صدقه مع الباحث يحجب الشك ويضعف النقد من خلال الاشارة الى تلك المواضيع وعلى مساحة واسعة في كتابه الكامل والذي سماه «المستقصى في التاريخ» ويكفي ان نشير الى مادونه في الباهر عن سيرة الملك القاهر حيث يكشف هذه الناحية بقوله «وهذه نبذة يسيرة عن محاسنه تليق بهذا المختصر وقطرة من بحر مكارمه تناسب هذا العصر ولو اردناها مفصلة لخرمنا عما اعتمدناه وتركنا ماقصدناه ، ونحن انشاء الله تعالى نأتي على كثير من ذلك في المستقصى في التاريخ»[19] .

ان صرف النظر هذا ربما فسر بانه لكي لاينخدش كبرياء الملك القاهر الذي الف له الكتاب واكتفى باحالة القارئ الى كتابة الكبير «الكامل»[20] وعليه يمكن القول ان من اهم الملاحظات على الباهر هي :

أ – الباهر : كتب بروح علمية جمعت بين التاريخ السياسي والتاريخ المحلي الا انه اسقط من التدوين حركة المجتمع لان التاريخ للمجتمع وليس فحسب للساسة والاقاليم .

ب – ان اهتمام ابن الاثير الحقيقي في مؤلفه يتركز حول جانب مهم من سياسة الاتابكية في الموصل وان مادونه جاء معبرا عن وجهة رسمية فلابد من التقيد بما تمليه من توجيه فهي التي تحدد المسار التاريخي – للتاريخ السياسي لانه كما عرف عنه انه مؤرخ القصر والبلاط .

جـ – لم يكن الحياد صفة عامة عند ابن الاثير في كتابه الباهر وهذه الصفة تجعل القارئ والدارس بأن يراجع ماكتبه في الكامل فالاختلاف واضح بين الكتابين وان اختلف الاسلوب بينهما فقد ركز في الباهر حول شخصية عماد الدين الزنكي ، ونور الدين محمود فقد لانجدها في الكامل كما اشار الى بعض نظم الاتابكة في الموصل الاجتماعية والاقتصادية والعلنية[21] في حين اغفلها في الكامل ، الى جانب انه اسهب في ذكر الاحداث التاريخية المعاصرة ، ومن هنا يصح القول ان كتابه جاء خاليا من روح النقد كما اشرنا ، تنقصه قواعد الجرح والتعديل على الرغم من انه حوى احداثا وتفاصيل تاريخية لم من التقيد بما تمليه من توجيه فهي التي تحدد المسار التاريخي –للتاريخ

١٦ – ابن الاثير : الباهر ١٥٣ .
١٧ – المصدر السابق : ١٥٤ – ١٥٥ .
١٨ – سعداوي : المؤرخون : ٨ .
١٩ – الباهر في الدولة الاتابكية : ٢٠٤ .

٢٠ – المصدر السابق : ٨ .
٢١ – سعداوي : المرجع السابق : ٨ راجع فيصل السامر : ١٤٨ .

لايمكن ان تظل رغبة المؤلف واخباره عامة[٢٢].

٢ – طبيعة الكتابة التاريخية عند ابن الاثير:

لا يمكن ان تظل رغبة المؤلف واخباره عامة[٢٢].

٢ – طبيعة الكتابة التاريخية عند ابن الاثير:

اما طبيعة الكتابة التاريخية للفترة التي عاش فيها ابن الاثير فكانت فترة تمثل الاهتمام في كتابة التاريخ العالمي واستخدام التقويم الحولي «السنين» اساسا للتأليف وكان ابن الاثير احد اولئك المؤلفين – وهذا واضح في كتابة الباهر: فان انفراط عقد الوحدة السياسية لدولة الخلافة منذ منتصف القرن الرابع الهجري تركت اثرا واضحا في المؤلفات التي وضعت فيما بعد هذا التاريخ اذ تفرغ لهذا الغرض بعض الموظفين والمقربين الى القصر والبلاط كتبوا ودونوا التاريخ السياسي لذلك البلاط والقصر، وكان ابن الاثير من هذا النوع وبمجرد الرجوع الى سيرته نستطيع ان نتعرف عليه كمؤرخ من مؤرخي القرنين السادس والسابع للهجرة وان عصره رفد وعطاء لحركة التدوين التاريخي فقد ادرك ابن العديم «ت ٦٢٨ هـ»[٢٢] وهو احد شيوخه وقد اخذ بعض رواياته منه كما كان من معاصريه ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ» الذي التقى به في اواخر سنة ٦٢٦ هـ في مدينة حلب»[٢٣] وسبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ) الذي اخذ منه ونقل عنه وكان ينعته بالاستاذ[٢٤].

واذا تعرفنا على ثلاثة من كبار المؤرخين الذين عاصروه وعاش معهم فانه اخذ عن الكثير ودرس وتابع على شيوخ اخرين ذكرهم في كتابه الكامل كما اخذ معظم رواياته في الباهر عن والده حيث عاش في كنف الاسرة الزنكية بالموصل وهنا نلتقي مع تصريح ابن الاثير حول هذه النقطة في مقدمة كتابة الباهر حيث يقول: «ونقلت اكثره عن والدي رحمه الله تعالى فانه كان راوية حسناتهم وعين الخير بحركاتهم وسكناتهم وقد فاتني كثير مما سمعته منه، لانني جمعت هذا القدر من حفظ بعد وفاته ولم اثبته قلمي في حياته ومع هذا فانني تعمدت ترك الاكثار لميل الناس في زماننا الى الاختصار»[٢٥].

اما مكانته السياسية او الادارية فلم يذكر عنه الشيء للالمقنع بانه تقلد منصب او وظيفة في هذا المجال الا ما اورده ابن خلكان «بانه قدم بغداد مرارا حاجا ورسولا من صاحب الموصل»[٢٦] وبهذا يبقى اسم صاحب الموصل مجهول فلم يعلم من هو الذي اوفده؟ ولاي غرض اوفد؟ فحين ذهب ابن الاثير ابعد من هذا بالقول بانه وزر لبعض ملوك الموصل[٢٧] ويبقى اسم هذا الملك مجهولا يظهر لك ان ابن كثير لخطأ في اطلاق صفة الوزارة على ابن الاثير فان الذي استوزر هو اخوه ضياء الدين للملك الافضل الايوبي في دمشق[٢٨].

وان تنقله بين الموصل ودمشق وبغداد وحلب كان للدراسة وتتبع العلم والفكر والحديث فضلا عما عرف عنه بانه كان مولعا بدراسة التاريخ كل هذا كون له خلفية تاريخية انطلق من خلالها الى تدوين التاريخ بابالاضافة الى معايشته لواقع الاحداث في داخل قصر الاسرة الزنكية بالموصل ولم يتفرد وحده بالاسلوب الذي ساد في فترة حياته والذي كان يمثل طبيعة الكتابة التاريخية السائدة في عصره فهناك مؤرخ عاش في القرن السادس للهجرة لاحد الاسر الحاكمة في التاريخ الاسلامي هي يوسف بن علي بن الازرق الفارقي (٥١٠هـ – ٥٧٩ هـ) واختط عنوانا لكتابة تاريخ ميافارقين «وجعله على غرار تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ونهجه وتاريخ الموصل لمحمد بن علي الشمشاطي الذي الفه لقراوش بن المقلد العقيلي ومع هذا فانه جمع فيه احداث هذه الخلافة العباسية في بغداد واستعراض لجوانب من سياسة الدولة الايوبية ومن الذين اخذوا عنه في تواريخهم هو ابن الاثير وهذا واضح في بعض نقوله في الكامل الا ان مؤرخنا ابن الاثير لا يفصح عن ذلك اذ اهمل ذكره مثلما اهمله ياقوت الحموي[٢٩] والملاحظ على كتاب الفارقي انه قلد من سبقه في الاسلوب على الرغم من كون كتابه اختص بتاريخ اسرة «دولة حاكمة» وجاء عنوانه ليقع ضمن تواريخ المدن فهو بلاشك تاريخ محلي كتبه على الحوليات «السنين».

وننتقل معا الى استعراض كتاب اخر: هو من تأليف مؤرخ عاش في عصر ابن الاثير هو «تاريخ اربل» من وضع شرف الدين ابي البركات المبارك بن احمد اللخمي الاربلي المعروف بالمستوفي (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م).

٢٢ – راجع ماذكره ضمن حوادث سنة ٥٥٩ هـ وفي وقعة قائمة حارم مع الافرنج وينقل عن المؤرخ كمال الدين بن العديم: ابن الاثير: الباهر ١٢٦.

٢٣ – ابن خلكان: وفيات الاعيان: ٣: ٣٤٩.

٢٤ – سبط بن الجوزي: مرآة الزمان: ق٢: ج٨: ٣٢٠ (مطبعة حيد اباد الدكن، ١٩٥١ م).

٢٥ – ابن الاثير: الباهر: ٣ «دون تلك الحوادث كما يلي في حالة مقارنة عماد الدين زنكي للبرسقي واتصاله بالسلطان محمود الباهر: ٢٧.

في مقتل سنقر البرسقي سنة ٥٢٠ في حصار الخليفة المسترشد الموصل: ص ٤٧ وفي حوادث سنة ٥٢٦ هـ: ص ٤٧، وفي مقتل عماد الدين ص ٢٧٤، ص ٨٢.. الخ».

٢٦ – ابن خلكان: وفيات الاعيان: ٣: ٣٤٩.

٢٧ – ابن كثير: ابو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي: البداية والنهاية في التاريخ: ١٣: ٢٠٥ (مطبعة السعادة، القاهرة).

٢٨ – ابن كثير: الباهر: ٩.

٢٩ – احمد بن يوسف بن علي بن الازرق الفارقي: تاريخ الفارقي ملدوميا فارقي: ٢٣ (تحقيق د. بدوي عبد اللطيف، القاهرة ١٩٥٩م).

ان هذا الكتاب يقع ضمن تواريخ المدن، ساريا على طريقة استعراض التراجم وبهذا يسلك في كتابه طريقة تختلف عما اتبعه ابن الاثير، لانه اراد به التعبير عن التاريخ العام زويكون لمنهجه هذا قد اجاد التعبير عن الطبيعة التاريخية التي كتبت بها التواريخ العام، وبهذا يكون بعيدا كل البعد عما كتبه ابن الاثير في كتابه (الباهر في الدولة الاتابكية) وهنا نصبح امام منهجين مختلفين يمثلان جيلا واحدا من المؤرخين تقريبا، احداهما استعرض الاحداث التاريخية على طريقة التراجم والاخر على طريقة الحوليات والاثنين يبحثان في تواريخ المدن، اما ابن الاثير فقد يبحث في التاريخ المحلي الا ان طبيعة الكتابة التاريخية تبقى هي السائدة على اسلوب التاريخ لان ما حدث من تطور في الكتابة التاريخية منذ القرن السادس للهجرة وشمل كتابة التاريخ العالمي والذي يمثله في هذه المناسبة «هو استخدام التقاويم بشكلا من اشكال العرض التاريخي»[٣٠]. ومع وضعنا ان ابن الاثير مع هذا الصنف من المؤرخين كما في كتابه الكامل الا ان كتابه الباهر، قد يرتفع عن المستوى العادي للجامع الحولي»[٣١].

في الكتاب الاخير يكون قد ارخ للفترة الواقعه مابين سنة ٥٦٩هـ – ٦٠٧هـ» لملوك الموصل باختصار كذكر سيف الدين غازي (الثاني) الى سنة ٥٧٦هـ واخبار عز الدين مسعود قطب الدين مودود وفاته سنة ٥٨٩هـ، وكذلك اخبار نور الدين ارسلان بن مسعود سنة ٦٠٧هـ ومع الاختصار نراه هنا يدون اخبار قليلة عن علاقتهم مع صلاح الدين الايوبي وخلافائه ثم نعود فنرى انه يختم اخبار كل ملك في ذكره لهذه الاحداث وخاصه علاقة الزنكي بالايوبين وبالذات صلاح الدين فني الباهر يختصرها اختصارا غير متقن حسب ميوله الشخصية وربما استخدم هذا الاسلوب في بعض الحوادث في كتابه الكامل [٣٢] وهكذا نلتقي مع اسلوب ابن الاثير في كتابين وفي مادة كتبها عن الاسرة الزنكية بانه يختصر ويضيف او يحذف حسب ميوله ونزعته الشخصية وهذا ناتج بلا شك من طبيعة المؤلف او المؤرخ الذي تسيره بهذا الاتجاه وترسم له الرواية التاريخية هي واقعية التاريخ وطبيعة التاريخ السائد في تلكا الالفترة، التي عاش فيها ابن الاثير، فترة سادة مهمة التأكيد على الصلة القائمة بين كتابه السيرة وبين التاريخ السياسي وعلى مهمة التأكيد حول تصانيف التي تتناول التاريخ العام.

ان ابن الاثير في كتابه الباهر يجمح في التأليف عن التواريخ المحلية في حين نجح بالكامل في الكتابة عن التاريخ العام، ففي الاول بقي مشدودا الى متطلبات السياسة ورغباتهم في حين سلك بالثاني ثقافة اسلامية في اطار النظرة العالمية ونزعته الانسانية حيث انه – من بدء الخليفة «ادم» عليه السلام الى حين وفاته وفي كلا الحالتين خدم التاريخ وقد في الكامل معلومات لا يتسهان بها فهو عمل عظيم موثوق به[٣٣] اما في الباهر فان عمله هو الاخر لايمكن الاستغناء عنه لان ما دونه من مادة تاريخية اصبحت مصدرا للمؤرخين الذين اعقبوه كما كان حجه خدمة التاريخ وطلابه اذ ينجح في معالجة المواضيع التي عاش فيها ابن الاثير كما ان كتابه احد اعلامها وبقي كتابه التاريخ العالم الاسلامي بنظرة علمية وعقلية متفتحه لنلتقي من خلالها مع حركة التأليف هذه والتي ظهرت منذو بداية القرن الثالث عشر للميلاد وكان في مقدمة روادها المؤرخ ابن كثير وابو الفداء والجميع استفادوا من مادة ابن الاثير[٣٤] وعليه فا دونه ابن الاثير في كتابه الباهر يمثل جزءا من حركة التدوين التاريخي للامة بالرغم من كونه كتابه اهتمه بتاريخ اسره او دوله. لان حركة التدوين للاحداث فيه تجاوز اطار التاريخ المحلي، لينقل الجميع الى مكان يلدور في بغداد او الشام وبلاد الجزيرة من احداث مجسدا اهتمامه بتاريخ الامة وشاغلها.

٣٠ – فرانز روزنثال: نفس المرجع: ٢٠٠

٣١ – المرجع السابق: ٣٠٠

٣٢ – ابن الاثير: الباهر: ١٦ – ١٧: الكامل في التاريخ: ١١، ٤٦٢ – ٤٦٣، ١٢: ١٠١ – ١٠٢، ج ١٢: ٢٩١ – ٢٩٣، وعن علاقتهم مع صلاح الدين، ذكرت في اماكن متعددة من الجزئين ١١، ١٢ (الكامل، دار صادر، بيروت.

٣٣ – فرانز روزنثال : نفس المرجع ٢٠٠ – ٢٠١

٣٤ – استفاد المؤرخون الاخرون من كتابه حول الاسرة الزنكية الاتابكية امثال ابو شامة في كتابه الروضتين وابن واصل في مفرج الكروب في اخبار بني ايوب.. انظر ذلك: فيصل السامر: ابن الاثير: ١٤٧.

دور ابراهيم بن مالك الأشتر النخعي في احداث العراق السياسية آبان الحكم الأموي

٦٦ هـ - ٧٢ هـ

الدكتور خليل شاكر حسين
كلية التربية - قسم التاريخ
جامعة الموصل

لم يتوفر لدينا معلومات دقيقة حول حياة ابراهيم بن مالك الاشتر المبكرة حتى نتمكن من تحديد الادوار التي قام بها في الاحداث السياسية التي شهدتها الدولة العربية بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان (رض) والاحداث التي وقعت خلال خلافة الامام علي بن ابي طالب (ع) والدور المؤيد الذي قام به مالك الاشتر في دعم موقف الامام علي بن ابي طالب (ع). والجدير بالذكر ان بعض الباحثين يرجحون اشتراك ابراهيم النخعي في معركة صفين مع ابيه الى جانب علي بن ابي طالب (ع) ضد معاوية بن ابي سفيان[1]. ومع ذلك فأننا نجد المصادر الاولية لا تذكر اسم ابراهيم في حوادث لاحقة بتولي الحسن بن علي (ع) للخلافة ثم بتنازله عنها لصالح معاوية بن ابي سفيان. كذلك فأن المصادر المبكرة تلزم الصمت امام اى دور قام به ابراهيم اثناء مقتل الحسين بن علي (ع) وخلال ظهور حركة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي في الكوفه مسقط رأس ابراهيم النخعي ومصره.

بيد إننا نمتلك اشارتين اوردهما المؤرخون القدامى، فتذكر الاولى ان ابراهيم كان شابا حدثا اثناء قيامه بدوره البارز في حركة المختار الثقفي في الكوفة[2]. والاشارة الثانية وردت على لسان عبيد الله بن زياد عندما رأى ابراهيم يقود جيش الكوفة لمقاتلة جيش الشام في وقعة الخازر بالقرب من الموصل. فقد استغرب عبيد الله بن زياد من جرأة ابراهيم وهو الذى ترك ابراهيم بالامس «صبيا يلعب بالحمام»[3]، عندما كان واليا على العراق ونحن ازاء هذين الاشارتين نعتقد أن ابراهيم كان صغير السن وهو سبب مهم جعله غير مرئي امام واجهات الاحداث، فلو ان ابراهيم قد قام بدور ما في الأحداث السابقة الذكر لاشارت اليه المصادر الاصلية.

ومهما يكن من أمر فأن شخصية ابراهيم النخعي لم تأخذ مكانها البارز على مسرح احداث العراق الا في مساهمته في حركة المختار بن ابي عبيد الثقفي سنة ٦٦هـ، وهو امر تتفق عليه جميع المصادر المبكرة والمتأخرة. ونجد من المناسب قوله في هذا الباب ان ابراهيم كان لا يريد ان يغمس نفسه في أحداث مصره وهو الكوفة لان تلك الاحداث لم تكن مضمونة النتائج فضلا عن اعتداده بنفسه واعتقاده انه يمتلك من الصفات التي تؤهله لان يلعب دورا قياديا لا دورا ثانويا وهو امر لا يرتضيه لنفسه. ولذا نراه يطلب ان تناط به قيادة الحركة التي اعدها المختار الثقفي وذلك عندما جاء وفد من اشراف الكوفة يعرضون على ابراهيم الانضمام الى الحركة[4]. فعن ابي مخنف يذكر الطبرى وابن اعثم الكوفي ان المختار الثقفي احس بحاجته لشخص ابراهيم بناء على نصيحة اصحابه اذا ما أراد لحركته النجاح وذلك بقولهم «. . . انه فتى بئيس وابن رجل شريف بعيد الصيت وله عشيرة ذات عز وعدد»[5].

(1) دائرة المعارف الأسلامية - مادة ابراهيم - ص ١٠١١ بالفرنسية. ينظر كذلك د. عبد الأمير دكسن، الخلافة الأموية ص ٧٣، الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج ٥، ص ٤٩ وما بعدها.

(2) ابن الاثير، ج ٦، ص ٢١٧.

(3) ابن اعثم الكوفي، كتاب الفتوح ج ٤، ص ١٧٥، ابن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، ج ٤، ص ٤٠٥.

(4) الطبري، ج ٦، ص ١٦، ابن اعثم، ج ٤، ص ٩٦، البلاذري، أنساب، ص ٢٢٢، ابن الأثير، ج، ص ٢١٥.

(5) الطبري، ص ١٥، ابن اعثم، ص ٩٦، البلاذري، ص ٢٢٢.

وعاد الوفد الى المختار يخبرونه بوقف ابراهيم فأمهله ثلاثة أيام كما يؤكد ذلك الطبرى وابن أعثم وابن الأثير الذى يعيد نفس الرواية (٦) . وبعدها توجه المختار بنفسه الى دار ابراهيم وكان مع المختار جماعة من عظماء الكوفة فدخلوا على ابراهيم عندها تكلم المختار عارضا اهداف الحركة المرتقبة وطالبا مساعدة ابراهيم لها وقدم رسالة موجهة من محمد بن علي بن ابي طالب بالملقب بأبن الحنفية الى ابراهيم لها حيث يورد الطبرى وابن اعثم والبلاذرى وابن الاثير نصها وهو : «من محمد المهدي الى ابراهيم بن مالك الاشتر ، سلام عليك فأني احمد الله الذى لا اله الا هو ، اما بعد فأني قد بعثت اليكم وزيرى واميني الذى ارتضيه لنفسي وأمرته بقتال عدوى والطلب بدماء اهل بيتي فانهض معهم بنفسك وعشيرتك ومن اطاعك فأنك ان نصرتني واجبت دعوتي كانت لك بذلك عندى فضيلة ، ولك أعنة الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومنبر وثغر فيا بين الكوفة واقصى بلاد الشام» (٧) وقد اعترض ابراهيم على اسلوب الرسالة بقوله : «قد كتب اليّ ابن الحنفية قبل اليوم وكتبت فلم يكتب اليّ الا باسمه واسم ابيه .» (٨) فرد عليه المختار مبررا : «ان ذلك زمان وهذا زمان» (٩) . ومع ذلك فأن ابراهيم سأل المختار مستوضحا وقد شك فعلا في امر الكتاب : «فمن يعلم ان هذا كتابه اليّ؟» (١٠) . فشهد الجماعة الحاضرون ومنهم زيد بن انس واحمر بن شميط وعبد الله بن كامل على ان مصدر الكتاب هو ابن الحنفية (١١) . ومن الضروري قوله في هذا المجال ان احد الشهود حضروا هذه المقابلة وهو الشعبي المحدث المشهور وابوه شراحيل لم يشهدوا مع الشهود وان المختار قد ناول الشعبي الكتاب قبل دخولهم على ابراهيم في منزله وبعد ما استقر بهم المقام طلب المختار من الشعبي اعطاء الكتاب الى ابراهيم لكي يقرأه (١٢) .

والمؤرخون الاوائل يختلفون حول موقف الشعبي هذا وكذلك حول الشخصية التي استفسرت منه عن الاسباب التي منعته من الشهادة مع بقية الشهود هل هو المختار ام ابراهيم النخعي ، فالدينورى يذكر ان الشعبي قد داخله الشك في صحة ورود الرسالة من ابن الحنفية فذهب الى الشهود واستفسر منهم واحدا واحدا فأجابوه انهم شاهدوا ابن الحنفية يكتب الكتاب للمختار باستثناء واحد من الشهود وهو ابو عمره الذى قال للشعبي : «والله ما شهدته حين كتبه ، غير ان ابا اسحق –

(٦) الطبري ، ص ١٦ ، ابن أعثم ص ٩٦ – ٩٧ البلاذري ص ٢٢٢ .
(٧) الطبري ص ١٦ ، البلاذري ص ٢٢٢ ، ابن أعثم ص ٩٧ ، ابن الأثير ص ٢١٦ .
(٨) الطبري ص ١٧ ، البلاذري ص ٢٢٣ ، ابن الأثير ص ٢١٦ .
(٩) الطبري ص ١٧ ، ابن الأثير ص ٢١٦
(١٠) الطبري ص ١٧ ، ابن الأثير ٢١٦ .
(١١) الطبري ص ١٧ ، البلاذري ص ٢٢٣ ، ابن الاثير ص ٢١٦ .
(١٢) ابن الأثير ص ٢١٦ .

يعني المختار – عندنا ثقة وقد اتانا من ابن الحنفية فصدقناه» (١٣) . ولهذا السبب فأن الشعبي قد غادر الكوفة ولحق بالحجاز ولم يشهد من تلك المشاهد شيئا (١٤) اما ابن اعثم الكوفي فيورد بأن المختار سأل الشعبي عن السبب الذى دعاه الى الامتناع عن الشهادة بصحة الرسالة مثل بقية الشهود وهل لديه شك فيهم ، فأجابه بأنه لا يشك بهم وانهم شهود حق بعد ان الح عليه المختار في التصريح بوجهة نظره (١٥) . ومع ذلك فأن ابن اعثم يؤكد ان الشعبي «كان قد علم وتيقن ان المختار كتب ذلك – يعني الرسالة – من نفسه» (١٦) . بيد ان الطبرى يذكر ان ابراهيم بن الأشتر هو الذي استفسر من الشعبي عن مبرر امتناعه من ان يشهد كبقية الشهود فأجاب الشعبي : «قد شهدوا على ما رأيت وهم سادة القراء ومشيخة المصر وفرسان العرب ، ولا ارى مثل هؤلاء يقولون الا حقا (١٧)» . ويستطرد الشعبي بقوله : «قلت هذه المقالة وانا والله على شهادتهم متهم غير اني يعجبني الخروج وأنا أرى رأي القوم واحب تمام ذلك الامر فلم اطلعه على ما في نفسي من ذلك (١٨)» . ويعقب الطبرى ان ابراهيم اراد ان يتأكد من صحة امر الرسالة بأن طلب من الشعبي ان يكتب اسماء الذين شهدوا لانه لا يعرفهم كلهم كعملية احتياطية لما يحدث مستقبلا من مفاجآت (١٩) . وينفرد ابو العباس المبرد برواية ان ابراهيم ارسل لابن حنيفة يتأكد منه عن صحة ما جاء به المختار وان ابن الحنفية اجابه بشكل غير مباشر مما دعا ابراهيم الى اعتبار ذلك الجواب تأييدا للمختار (٢٠) . وقد فند ذلك الدكتور دكسن بقوله ان ليس هنالك ما يؤكد رواية المبرد في المصادر المبكرة والمتأخرة . وان ابن الحنفية اجاب بنفس الجواب وفد من اهل الكوفة ذهب الى الحجاز مستفسرا عن صحة ادعاءات المختار مما يجعلنا نعتقد ان المبرد قد خلط بين الحادثتين (٢١) . في حين ان الطبرى واليعقوبي يتفقان من ان وفدا من الكوفيين قد توجه الى الحجاز وسأل ابن الحنفية عن مدى صحة مزاعم المختار فأجابهم بشكل عام ودون تخصيص بقوله : «فوالله لوددت ان الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه» . فرجع الوفد الى الكوفة مؤيدا موقف المختار (٢٢) .

(١٣) ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٢٩٠ .
(١٤) نفس المصدر ص٢٩٠ .
(١٥) ابن أعثم ص ٩٨ .
(١٦) نفسه ص ٩٨ .
(١٧) الطبري ص ١٧ ابن الأثير ص ٢١٦ .
(١٨) الطبري ص ١٧ .
(١٩) ابو العباس المبرد ، الكامل في الأدب ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ .
(٢٠) د . عبد الأمير دكسن ، ص ٧٥ .
(٢١) اليعقوبي ، تاريخ ، ص ٧٠ ، الطبري ص ١٤ .
(٢٢) الطبري ص ١٨ .

والحال هذا ، فأن انضمام ابراهيم النخعي الى حركة المختار اكسبها قوة . وفعالية حيث دخلها جميع المترددين والمتشككين في امرها . وبدأ ابراهيم يضع كل امكاناته في خدمة الحركة ومن اجل انجاحها . فيمدنا الطبري بتفاصيل الاعداد للحركة والدور الذي قام به ابراهيم في عملية التحضير فيذكر الطبري عن هشام بن محمد الكلبي ان ابراهيم كان يجتمع يوميا في دار المختار الذي كان يعتبر مقر الحركة . ويشير الطبري ان وقت تردد ابراهيم لبيت المختار عشية كل يوم ويبقى عنده حتى تصوب النجوم(٢٣) .

وبعد انهاء عمليات الاستعداد اتفق ابراهيم مع المختار على اعلان الحركة ليلة الخميس المصادف ١٤/ ربيع الأول/ سنة ٦٦هـ(٢٤) .

وعلم اياس بن مضارب العجلي صاحب الشرطة بتحركات ابراهيم والمختار وبتدبيرهم على الخروج يوم الاربعاء مما يثبت ان للوالي وصاحب شرطته عيونا قد نجحت في الحصول على موعد اعلان الحركة . وابلغ صاحب الشرطة الوالي عبد الله بن مطيع بتدابير ابراهيم والمختار فجمع قواده وانصاره واخبرهم بالامر وطلب من كل قائد أن يتولى جهته وأن يضبط قومه حتى يتم حصر الحركة والموالين لها وافشالها في مهدها(٢٥) .

ويعطينا الطبري وابن أعثم والبلاذري تفاصيل نشر قوات الوالي في الكوفة خاصة في الجبابين والسكك الرئيسة . فصار عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني الى جبانة السبيع من همدان وصار كعب بن ابي كعب الى جبانة بنشر وصار زحر بن قيس الجعفي الى جبانة كنده والشمر بن ذي الجوشن الى جبانة سالم وعبد الرحمن بن مخنف الى جبانة الصائدين ويزيد ابن الحارث بن رويم الى جبانة مراد وشيث بن ربعي الى جبانة السبخة وأتخذ هؤلاء مواضعهم في الالة والسلاح(٢٦) .

وتتفق المصادر الأولية حول السبب الذي من اجله تم تقديم موعد الحركة كما كان متفق عليه وهو ليلة الخميس ١٤/ ربيع الأول/ ٦٦هـ(٢٧) . وذلك ان ابراهيم قد اعتاد التردد في كل عشية ، الى دار المختار حيث تعقد الاجتماعات ، فكان من الطبيعي ان يصطدم مع قوات الوالي المبثوثة في السكك الرئيسة في الكوفة . ويذكر الطبري ان بأمكان ابراهيم تحاشي قوات الوالي ولكنه اراد ان يتحداهم بقوله «والله لامرن وسط السوق بجنب القصر ولارعبن عدونا ولارينهم هوانهم علينا»(٢٨) .

وكان مع ابراهيم جمع من ابناء عمومته يبلغ عددهم المائة عندما اعترضهم رئيس الشرطة اياس بن مضارب وسألهم عن وجهة سيرهم وعن هويتهم . وعلى الرغم من تعريف ابراهيم نفسه لصاحب الشرطة الح الاخير وبطريقة استفزازية على اصطحابهم الى الأمير للتحقق منهم وذلك بقوله لابراهيم «والله ان امرك لمريب ، وقد بلغني انك تمر في كل ليلة في جمعك هذا ، لا والله لا تزايلني او آتي بك الامير فيرى فيك رأيه .»(٢٩) .

وقد قرر ابراهيم حسم الامر لصالح الحركة وعدم مجاراة صاحب الشرطة ومهادنته لئلا يفت ذلك في عزيمة اصحابه فبادر الى حركة ذكية وهي منادته الى رجل من اصحاب اياس بن مضارب يدعى ابا قطن وهو صديق لابراهيم فدنا منه الرجل ظنا منه ان ابراهيم اراده وسيطا او شفيعا له عند صاحب الشرطة ، وبحركة بارعة لم يفطن لها ابو قطن ، اخذ ابراهيم رمحه وصوّبه الى صاحب الشرطة وضربه به فخر صريعا مما ادى ذلك الى هزيمة اصحابه وابلغوا الوالي ما حصل لصاحب شرطتهم(٣٠) .

ولنا ان نتساءل هل ان ما فعله ابراهيم مع ابي قطن عن تدبير مسبق ام مجرد غفلة من ابي قطن ، سيما وان للروابط القبلية والصداقات دورا في رسم كثير من الأمور .

هذا وان تاريخ مقتل اياس بن مضارب موضع اختلاف عند المؤرخين القدامى فالطبري والبلاذري يذكران ان مقتله كان يوم الثلاثاء اى ليلة الأربعاء وليس ليلة الثلاثاء استنادا الى قول ابراهيم للمختار : «إنا إعتدنا الخروج للقابلة ليلة الخميس وقد حدث امر لابد من الخروج الليلة»(٣١) غير ان ابن اعثم الكوفي يؤكد ان مقتل صاحب الشرطة حدث ليلة الثلاثاء(٣٢) .

ومن المفيد ذكره ان الدينوري يورد لنا خبرا مفاده ان اياس بن مضارب سبق وان حذرابراهيم من كثرة تردده الى بيت المختار ولكن ابراهيم لم ينقطع عن تردده وابلغ المختار بمضايقات صاحب الشرطة له بل وشاوره من أجل القضاء عليه حتى لا يقف عقبة امام اعلان الحركة في موعدها المحدد وقد فعل ابراهيم ما قرّ قراره عليه(٣٣) .

واحاط ابراهيم المختار علما بما حدث مع صاحب الشرطة فأستبشر

(٢٣) الطبري ص ١٨ . ابن أعثم ص . البلاذري ص ٢٢٣ . ابن الأثير ص ٢١٦ .
(٢٤) الطبري ص ١٩ . ابن أعثم ص ٩٩ . البلاذري ص ٢٢٤ . ابن الأثير ص ٢١٦
(٢٥) ابن أعثم ص ١٠٠ . الطبري ص ١٨ – ١٩ . البلاذري ص ٢٢٤ . ابن الأثير ص ٢١٦ – ٢١٧ .
(٢٦) الطبري ص ١٩ . ابن اعثم ص ١٠١ . البلاذري ص ٢٢٤ . ابن الأثير ص ٢١٧
(٢٧) الطبري ص ١٩ ، ابن الأثير ص ٢١٧
(٢٨) ابن أعثم ص ١٠١ ، الطبري ص ١٩ ، ابن الاثير ص ٢١٧ مع بعض التغيرات الطفيفة في بعض العبارات في النص الوارد عند ابن الأثير ، البلاذري ص ٢٢٤ .

(٢٩) الطبري ص ٢٠ ، ابن أعثم ص ١٠٢ ، البلاذري ص ٢٢٤ ، ابن الاثير ٢١٧
(٣٠) الطبري ص ٢٠ ، البلاذري ص ٢٢٤ ، ابن الأثير ص ٢١٨
(٣١) ابن أعثم ص ١٠١ .
(٣٢) الادينوري ص ٢٩٠ .
(٣٣) الطبري ص ٢٠ ، البلاذري ص ٢٢٥ ، ابن الأثير ص ٢١٨ .

بذلك المختار وعده «أول الفتح»[٣٤] أو «أول الظفر»[٣٥] على حد قول ابن اعثم . وبدأ المختار يعطي التعليمات لانصاره كأشارات لبدء الحركة . فأمر احد انصاره باشعال النيران في الهوادى والقصب ورفعها بالايدى والسير بها في التنكك[٣٦] . وأمر آخر بأن ينادى : يا منصور امت ، وامر ثالثا بالمناداة : يا لثارات الحسين[٣٧] .

والجدير بالملاحظة ان طرح مثل هذه الشعارات كان الغاية منها كسب كافة العناصر المناوئة للوضع القائم والساخطين عليه حيث ان ارضية الكوفة كانت مهيئة ومعدة لقبول مقل هذه الدعاوى[٣٨] .

وتجمع المصادر المبكرة والتأخرة على الدور المهم والحاسم الذى قام به ابراهيم حيث كان لجهوده في تعبئة انصار الحركة ومقاومة قوات الوالي الاثر البارز في انجاح الحركة بعد قيامها . فتذكر مصادرنا ان الكوفة كانت ليلتئذ محتلة من قبل قوات الوالي التي كانت تعيق كل تحرك للثوار وتمنع انصار الحركة من اللحاق بركب الحركة . فيورد الطبري والبلاذري ان ابراهيم قد اشار على المختار ان يذهب بنفسه الى قومه وينادى بشعارات الحركة حتى ينضم لها انصارها من الأحياء والأزقة فيكون بعمليته هذه قد كسر الطوق المضروب على الحركة ومؤيديها[٣٩] . كذلك فقد اتفق ابراهيم مع المختار على ان لا يحارب قوات الوالي ولا يكون البادئ في ذلك الا اذا اضطر الى ذلك مرغما لحين استجماع قوتها[٤٠] .

ونجح ابراهيم في الوصول الى قومه الذين انضموا اليه ومشى بهم في سكك وأزقة الكوفة مشجعا بذلك المترددين والخائفين من قوات الوالي الى الانضمام اليه . وقد تحاشى اماكن تواجد قوات الوالي ولكنه استطاع ان يهزم بعض قوات الوالي بقيادة زبير بن قيس الجعفي وكشفهم عند جبانة كندة ثم دحر سويد بن عبد الرحمن المنقري واصحابه حتى اخرجهم الى الصحراء حتى قال قائلهم : «ان هذا الامر يراد ، ما يلقون لنا جماعة الا هزموهم»[٤١] .

ومن الضروري قوله ان هذه الانتصارات لم تغرر في ثبات ابن الأشتر بل سار على نفس الأتفاق الذى تم بينه وبين المختار ، وبالفعل رفض فكرة اصحابه في مطاردة بعض القوات التي هزمها حيث قال لاصحابه : «لا ولكن نأتي صاحبنا يؤمن الله بنا وحشته ويعلم ما كان من نصرنا له فيزداد هو واصحابه قوة مع أني لا آمن ان يكون قد أتي»[٤٢] . وكما توقع ابراهيم فأن قوات الوالي بقيادة شبث بن ربعي الرياحي قد زحفت على المختار الذي استطاع ان يعبئ احد قادته المشهورين وهو يزيد بن الانس وجاء حجار بن ابجر العجلي فعبأ له المختار قائده المعروف احمر بن شميط واحتدم القتال بينهما . وبحركة بارعة تقدم ابراهيم من خلف قوات الوالي والتي يقودها حجار العجلي الذي انسحب مع قواته في الأزقة بعد ان علم بخطة ابراهيم للانقضاض عليه ووضعه في الكماشة . ويبدو ان شبث بن ربعي قد انهزم عندما تيقن استحالة القضاء على المختار وانصاره بسهوله . واخبر شبث بن ربعي الوالي عبد الله بن مطيع بذلك واشار عليه بأن يجمع كافة قواته المتواجدة في الجبابين ويوجهها للقضاء على المختار وقواته قبل استفحال امره[٤٣] . ويظهر لنا من خلال رواية ابن اعثم ان القتال ظل محتدما طيلة تلك الليلة حتى ان الناس قد نسوا ليلة الهرير بصفين الى صباح اليوم التالي[٤٤] . وجمع الطرفان قواتهما انتظارا للمواجهة الاخيرة ، حيث يزودنا الطبري والبلاذري وابن اعثم بتفاصيل المواجهة والتي كانت نتيجتها لصالح المختار . هذا وقد خرج المختار بقواته في ظهر دير هند مما يلي بستان زائدة في السبخة[٤٥] . والواقع اننا مدينون لابن اعثم لتلك التفاصيل التي اوردها لنا فيما يخص المواجهة الحاسمة حيث ذكر لنا ابن اعثم عدد قوات الوالي والتي كانت على شكل كراديس وبالصورة التالية[٤٦] .

١ – كردوس مؤلف من أربعة الاف فارس بقيادة شبث بن ربعي .
٢ – كردوس مؤلف من ثلاثة الاف مقاتل بقيادة راشد بن اياس .
٣ – كردوس مؤلف من ثلاثة الاف مقاتل بقيادة حجار بن ابجر العجلي .
٤ – كردوس مؤلف من ثلاثة الاف مقاتل بقيادة الغضبان بن القبعثري .
٥ – كردوس مؤلف من ثلاثة الاف مقاتل بقيادة شمر بن ذي الجوشن .
٦ – كردوس مؤلف من الف مقاتل بقيادة عكرمة بن ربعي .
٧ – كردوس مؤلف من الف مقاتل بقيادة شداد بن المنذر .
٨ – كردوس مؤلف من الف مقاتل بقيادة سويد بن عبد الرحمن .

والجدير بالملاحظة ان الطبري لا يذكر مثل هذه التفاصيل وكذلك الحال بالنسبة للبلاذري الذى لا يذكر عدد الجيش المرسل من قبل الوالي لقتال المختار الذى جمع انصاره وعبأهم للمواجهة الاخيرة[٤٧] .

---

(٣٤) ابن أعثم ص ١٠٢ .
(٣٥) ابن اعثم ص ١٠٢ . الطبري ص ٢٠ ، البلاذري ص ٢٢٥ ، ابن الأثير ص ٢١٨ .
(٣٦) ابن أعثم ص ١٠٢ ، الطبري ص ٢٠ ، ابن الأثير ص ٢١٨ .
(٣٧) ينظر د . دكسن المصدر السابق ، ص ٧٦ .
(٣٨) الطبري ص ٢١ ، ابن أعثم ص ١٠٣ ، البلاذري ص ٢٢٥ ، ابن الأثير ص ٢١٨ .
(٣٩) الطبري ص ٢١ ، ابن الأثير ص ٢١٨ .
(٤١) الطبري ص ٢٢ ، ابن أعثم ص ١٠٣ ، ابن الأثير ص ٢١٨-٢١٩ .
(٤١) الطبري ص ٢٢ ، ابن أعثم ص ١٠٣ ، البلاذري ص ٢٢٦ ، ابن الأثير ص ٢١٩ .
(٤٢) الطبري ص ٢٢ ، ابن أعثم ص ١٠٤ ، ابن الأثير ص ٢١٩ .
(٤٣) ابن أعثم ص ١٠٤ .
(٤٤) الطبري ص ٢٢ ، ابن الأثير ص ٢١٩ . ابن أعثم ص ١٠٥ .
(٤٥) ابن أعثم ص ١٠٥ ، الطبري ص ٢٣ مع بعض التفاوت حول عدد قوات الوالي .
(٤٦) الطبري ص ٢٢ ، ابن أعثم ص ١٠٥ ، ابن الأثير ص ٢٢٠ .
(٤٧) ابن أعثم ص ١٠٧ ، الطبري ص ٢٤ .

ويبدو لنا من خلال المعلومات التاريخية المتوفرة عند البلاذري والطبري وابن اعثم الكوفي ان قوات الوالي لم تكن تمتلك معنويات عالية على عكس قوات ابن الاشتر والمختار حيث كانت معنوياتها مرتفعة . فيشير هولاء المؤرخون الى ان المقاتلين في جيش الوالي قد طلبوا سورتين طويلتين من امام الصلاة اثناء تأديتهم لصلاة الفجر قبل بدء المعركة الفاصلة مما جعل احد قادتهم وهو شبث بن ربعي الرياحي يصرخ بهم قائلاً : «ياسبحان الله العظيم ، اترون الترك والديلم قد نزلوا بساحتكم وتقولون : لو قرأت بنا سورتين اطول من هاتين ، نعم قد كان يجب عليه ان يقرأ بكم البقرة وآل عمران»[٤٨] . وعلى اى حال فأن الجيشين تقاتلا واختلط القوم وبدأ القتال حيث يعطي المؤرخون الاوائل كالطبري والبلاذري وابن أعثم اهمية كبيرة لدور ابراهيم بن الأشتر في هذه المعركة والتي بها تمكن ابراهيم من قتل راشد بن اياس قائد القوة الكبيرة مما أضعف معنويات باقي القوات المتمثلة بالكراديس . وقد نجح ابراهيم في فك الحصار الذى ضربه شبث بن ربعي على المختار وقواته وحلت الهزيمة بقوات شبث بن ربعي[٤٩] . وانكشفت قوات الوالي وتراجعت من ميدان المعركة وهي لاجئة الى الازقة وطرقات الكوفة . ولم تنفع اشتارات الوالي من أجل رفع الهمم لواصلة القتال اذ ان بوادر الهزيمة قد لاحت على الافق[٥٠] . وقد حاول شبث بن ربعي استنهاض همة قوات الوالي التي حاولت الصمود والثبات امام زحف قوات ابراهيم والمختار ولكنها فشلت مما دعا بالوالي الى الالتجاء الى قصره مع أعوانه وغلمانه وهرب باقي القوات الى ابياتهم . وحاصروا ابراهيم الوالي في قصره طيلة ثلاثة ايام[٥١] ، وقد تمكن من التسلل متنكرا خارج قصر الامارة ولجوئه لاحد بيوت معارفه حيث علم بوجوده المختار وكان صديقا له فأرسل اليه مالا فخرج الى البصرة . وطلب المحاصرون في القصر الامان من ابراهيم بن الأشتر فمنحه لهم[٥٢] . وعندها بايع الناس المختار وتمت له السيطرة على الكوفة وتوابعها من الأقاليم عدا البصرة التي غلب عليها مصعب بن الزبير . وعين المختار عماله على الاقاليم مثل ارمينية واذربيجان والرى والماهين واصفهان وجعل يجني الخراج[٥٣] .

ان موقع العراق الجغرافي مهم بالنسبة لاى خليفة يطمح الى المركزية في حكمه والاستمرار فيه . وقد كانت هذه الحقيقة من المسلمات عند الزبيريين والمروانيين على حد سواء . من المناسب ذكره ان المروانيين منذ بدء تسلمهم للحكم قد ابدوا اهتماما بالعراق وخاصة بعد انسلاخه عن مركز الحكم في دمشق بعد وفاة يزيد بن معاوية . وكخليفة حازم من طراز عبد الملك بن مروان لا يرتضي لدولته مثل هذا الوضع الممزق . فيورد ابن اعثم والطبري والبلاذري ان عبد الملك بن مروان ارسل جيشا كبيرا بقيادة عبيد الله بن زياد بعد استتباب الامر في الشام ومصر لصالحه . وقد زود عبد الملك عبيد الله بتعليمات اهمها القضاء على مصعب بن الزبير وعلى المختار الثقفي والانتهاء بعبد الله بن الزبير في مكة وله جميع البلاد التي سيستولي عليها اثناء مسيره «من ارض الشام الى مطلع الشمس»[٥٤] . ونتيجة لذلك فأن زحف الجيش الشامي سوف يهدد وضع الكوفة الجديد ولابد من مواجهة القوة الشامية الزاحفة . وبالفعل فقد ارسل المختار جيشا من الكوفة بقيادة يزيد بن انس الاسدى الذى سار شمالا الى جهة الموصل لملاقاة الجيش الشامي . واصطدم يزيد بن انس ببعض القوات الشامية التي اندحرت من اول لقاء[٥٥] . وحال موت يزيد بن انس دون المواجهة الحاسمة بين الجيشين فقد أثر موته في معنويات الجند الكوفي مما دفعهم ذلك الى الأنسحاب نحو الكوفة . وفي هذه الحالة لابد من القيام بعمل سريع يدفع خطر الشاميين القائم . وهنا انتدب المختار ابراهيم بن الأشتر لدرء هذا الخطر فخرج بجيش آخر وضم اليه فرسان جيش يزيد بن انس وخرج من الكوفة قاصدا الموصل[٥٦] . ويذكر الطبري ان ابراهيم وصل ساباط ولكن امرا خطيرا جعله يقفل راجعا الى الكوفة بدلا من مواصلة السير نحو جيش الشام . ذلك ان رسولا وصل الى ابراهيم يبلغه بانتقاض اشراف الكوفة على المختار[٥٧] . ويؤكد ابن أعثم الكوفي ان السبب في إعلان ثورتهم على المختار هو خروج ابراهيم من الكوفة وبقاء المختار مع قلة من انصاره[٥٨] . واستطاع ابراهيم ان يصل الى الكوفة مسرعا في الوقت الذي اصبح به المختار بوضع خطير حيث تمت محاصرته ومنع عنه الماء والغذاء . ومن المناسب ذكره ان المختار كان يفاوضهم لكي يكسب الوقت لحين عودة ابراهيم بن الأشتر وقد نجح في ذلك فضلا عن استبساله في مقاومة اشراف الكوفة[٥٩] .

وعند دخول ابن الأشتر الى الكوفة تغير موقف المختار الثقفي نحو الاحسن فعمد اشراف الكوفة الى تكتيك عسكرى وهو ان لا يقاتلوا

(٤٨) الطبري ص ٢٦-٢٧ ، ابن أعثم ص ١٠٧ .
(٤٩) للتفاصيل الدقيقة ينظر ابن أعثم ص ١١٠-١١١ ، ابن الاثير ص ٢٢١ وما بعدها .
(٥٠) الطبري ص ٢١ ، ابن أعثم ص ١١٠ ، الدينوري ص ٢٩١ ، ابن الأثير ص ٢٢٤ .
(٥١) ينظر الطبري ص ٢٩-٣٢ ، ابن أعثم ص ١١٢ ، ابن الأثير ص ٢٢٥ .
(٥٢) ابن أعثم ص ١١٦ ، البلاذري ص ٢٢٨ ، ابن الأثير ص ٢٢٧ .
(٥٣) ابن أعثم ص ١٣٩ ، الطبري ص ٣٨ ، البلاذري ص ٢٣٠ .

(٥٤) الطبري ص ٣٩-٤١ ، ابن أعثم ص ١٤١-١٤٣ ، البلاذري ص ٢٣٠ ، ابن الاثير ص ٢٢٩ .
(٥٥) الطبري ص ٤٦ .
(٥٦) ابن أعثم ص ١٤٨ ، البلاذري ص ٢٣١ .
(٥٧) ابن أعثم ص ١٤٩ ، الطبري ص ٤٦ ، ابن الأثير ص ٢٣٤ .
(٥٨) الطبري ص ٤٦ ، ابن أعثم ص ١٤٩ .
(٥٩) الطبري ص ٤٧ . ابن أعثم ص ١٤٩ ، البلاذري ص ٢٣٢ . ابن الأثير ص ٢٣٤ .

ابراهيم والمختار مجتمعين . فأنفصلت ربيعة ومضر في جانب واهل اليمن في جانب آخر[٦٠] . ولابد ان نمعن النظر في موقف ابراهيم المتجرد وذلك عندما خير المختار في الجانب الذي يرغب ان يقاتله ، فأختار المختار الثقفي اهل اليمن وترك امر ربيعة ومضر لابن الأشتر ظنا منه ان ابراهيم لن يكون جادا في قتال اهل اليمن لانهم قومه[٦١] . والواقع ان المختار قد تناسى ان رجلا من طراز ابراهيم كان يقاتل عن مبادئ . وقضية وليس عن عصبية .

وتتفق مصادرنا الرئيسة بأن ابراهيم كان ناصحا في قتاله لربيعة ومضر حيث طلب منهم مرارا ترك القتال لانه يعرف سلفا ان لا طاقة لهم به ، فقد حلت بهم الهزيمة وهي نتيجة او هنت من عزيمة اهل اليمن الذين كانوا يقاتلون المختار الثقفي ، فانكسروا وفشلوا وتسمى تلك المعركة عند جميع المؤرخين القدامى بوقعة السبيع[٦٢] .

وبعد اخماد هذه الثورة بيومين خرج ابراهيم ، من جديد ، من الكوفة على رأس جيش به «فرسان اصحابه ووجوههم واهل البصائر منهم ممن له تجربة»[٦٣] . وكان ذلك في يوم السبت لثمان خلون من ذى الحجة سنة ٦٦هـ[٦٤] . هذا ويؤكد الطبري والبلاذري وابن أعثم وابن خياط والدينوري والمسعودي على ان ابراهيم عسكر بجيشه في منطقة تبعد عن الموصل بخمسة فراسخ على نهير اسمه الخازر[٦٥] . ويذكر الطبري وابن أعثم والبلاذري وابن الاثير ان جيش الكوفة قد عسكر بالقرب من قرية بارشيا اوكورة الخازر حسب رواية ابي حنيفة الدينوري[٦٦] . اما عن الجيش الشامي فقد اتخذ موقعة على ساحل الخازر ازاء جيش الكوفة . ومما يلفت الانتباه هو ذلك الاختلاف في الروايات التاريخية حول موقع المعركة وتسمية النهر الذى وقعت بالقرب منه المعركة . فالمسعودي يذكر المعركة بوقعة الخازر نسبة الى نهر الخازر[٦٧] . بيد ان المقدسي ينفرد بذكر اسم نهر الزاب بدلا من الخازر ولعله خلط بين وقعة الخازر ومعركة الزاب التي حدثت بين الجيش العباسي بقيادة عبد الله بن علي والجيش الشامي بقيادة مروان بن محمد اخر خلفاء بني امية[٦٨] . يبقى هذا الكلام مجرد افتراض استنتاجي لما ورد من اختلاف الروايات . هذا ويؤيد ياقوت الحموى في معرض وصفه لموقع الخازر ما جاء عند المؤرخين الاوائل بوقوع المعركة في الخازر[٦٩] . يبقى ان نتساءل عن الأسباب التي منعت عبيد الله بن زياد من استغلال فرصة انشغال ابن الأشتر في اخماد ثورة اشراف الكوفة ثم الزحف على العراق لاسيما وان المصادر التاريخية لا تسعفنا بتبيان ذلك بوضوح . ومهما يكن من امر فأن خروج ابراهيم بن الاشتر بتلك السرعة تدل دلالة صريحة على تحرك جيش الشام بأتجاه العراق من جهة الشمال ، كما تبين ذلك اشارات عند الطبري والبلاذري وابن اعثم وابن الأثير[٧٠] .

ان الموقع الجغرافي الذى وقعت فيه معركة الخازر يثير الاهتمام حقا . ذلك ان اختيار ابراهيم بن الأشتر لموقع عال يشرف على جيش الشام قد اكسبه جانب المباغته والتربص بالعدو ، وكان احد العوامل المساعدة في احراز النصر على جيش الشام الذى اختار موقعا على ساحل نهر الخازر . وموقع من هذا النوع غير صحيح من وجهة النظر العسكرية مما يسهل على العدو محاصرة الجيش المقابل وعدم تمكنه من التحرك بسهوله . اضافة الى ذلك ان جيش الشام لم يكن على استعداد وتعبئة . ويورد المؤرخون الاولون ان عاملا مهما قد سبب في هزيمة الجيش الشامي هو هبوط المعنويات ووجود الصراع بين القيسية واليمانية وما تبيته القيسية من نوايا سيئة ضد جيش الشام[٧١] . ومن المناسب قوله في هذا المجال ان الدينوري في الأخبار الطوال يعطي اهمية كبيرة لدور القيسية في خذلان جيش الشام اثناء معركة الخازر اذ يشير بأن اثنين من قادة القيسية احدهما عمير بن الحباب السلمي قد تسللا ليلا الى المعسكر ابراهيم واتفقا معه على الانسحاب من جيش الشام عند نشوب القتال مما يؤدى ذلك الى تحطيم معنويات جيش الشام . ويؤكد الدينوري ان القيسية قد فعلت ما قررته مع ابراهيم[٧٢] . ومن الضروري الانتباه الى ناحية يشدد عليها الدينوري هي كثرة الاعاجم في جيش الكوفة حيث يعزى اليهم النصر على اهل الشام . غير ان المؤرخين الاولين مثل الطبري والبلاذري واليعقوبي وابن اعثم لا يعطون للاعاجم كثيرا من الأهمية ولا يعطون لهم

---

(٦٠) نفس المصادر السابقة .
(٦١) التفاصيل هذه الوقعة ينظر الطبري ص ٤٨ وما بعدها ، ابن اعثم ص ١٥٠ ، البلاذري ص ٢٣٢ وما بعدها ابن الأثير ص ٢٣٣ وما بعدها .
(٦٢) ابن الأثير ص ٢٥٧ .
(٦٣) الطبري ص ٨١ ، ابن أعثم ص ١٥٩ ، البلاذري ص ٢٤٨ ، ابن الأثير ص ٢٥٧ .
(٦٤) الطبري ص ٨٦ ، ابن أعثم ص ١٧٣ ، الدينوري ص ٢٩٥ ، المسعودي ص ٩٧ . ابن خياط ص ٣٣٢ ، ابن حبيب ، ص ٤٩١ ، البلاذري ص ٢٤٨ ، ابن الأثير ص ٤٩١ .
(٦٥) الطبري ص ٨٦ ، ابن أعثم ص ١٧٣ ، ابن الأثير ص ٢٦١ ، ابو حنيفة الدينوري ص ٢٩٥ .
(٦٦) المسعودي ص ٩٧ .
(٦٧) المقدسي ، ص ٢٢ . ومما يجدر الأشارة اليه ان دائرة المعارف الأسلامية في مادة ابراهيم تذكر وقوع المعركة في الخازر . ولكنها تقع في خطأ جسيم عندما تذكر عبارة « بالقرب من المدائن » ص ١٢ . ١ . دون تعيين اى المدائن .

(٦٨) ياقوت الحموي ، ص ٣٣٧ .
(٦٩) الطبري ص ٨٦ ، ابن أعثم ص ١٧٣ ، البلاذري ص ٢٤٨ ، ابن الأثير ص ٢٦١ .
(٧٠) الطبري ص ٨٦ ، ابن أعثم ص ١٧٤ ابو حنيفة الدينوري ص ٢٩٥ ، ابن الأثير ص ٢٦١ .
(٧١) الدينوري ص ٢٩٤-٢٩٥ .
(٧٢) الطبري ص ٨٦-٨٧ ، ابن أعثم ص ١٧٤ ، الدينوري ص ٢٩٥ ، ابن الأثير ص ٢٦١ .

دورا مضخما كما يفعل الدينوري الذي يبالغ بالأرقام بشكل ملفت للنظر.

ومما يجدر ذكره ان الروايات التاريخية تختلف حول رغبة القيسية في خذلان اهل الشام. فيورد الطبري ان عميرا بن الحباب اتصل بابن الأشتر والتقى به ليلا قبل بدء المعركة الفاصلة وبايعه ونصح له بعدم مطاولة جيش الشام وعدم التريث في مناجزة جيش الشام اذا ما اراد تحقيق النصر. ثم نصح ابراهيم بترك حفر الخندق الذي كان ينوي حفره (٧٣). بيد ان ابن اعثم الكوفي يقدم لنا رواية مفادها ان ابن الأشتر قد تمكن من كسب عمير بن الحباب الى جانبه وذلك بارساله احد خاصته معطيا له الامان، فخرج ابن الحباب ليلة المعركة من معسكر ابن زياد بصحبة الف فارس من انصاره. ويؤيد ابن اعثم رواية الطبري والبلاذري حول نصيحة عمير بن الحباب لابراهيم بن الأشتر وخلاصة الفكرة هي ترك فكرة حفر الخندق ثم مناجزة جيش الشام بسرعة واجتناب مطاولتهم لأن ذلك يعطيهم الجرأة بسبب هبوط معنوياتهم (٧٤).

وعلى اية حال فأن القيسية كانت ترغب في الثأر لقتلاها في مرج راهط من اليمانية وان اتصالهم بابراهيم بن الأشتر قد ورد عند اغلب المؤرخين القدامى ولكن الامر الذي يقع عليه اختلافهم هو حول كيفية وقوع هذا الاتصال واي طرف قام به.

هذا وينفرد الدينوري برواية يذكر بها ان قيادة جيش الشام كانت للحصين بن نمير السكوني وان عبيد الله بن زياد وعمير بن الحباب كانوا تحت امرته وهو امر يخالف ما أجمعت عليه الروايات التاريخية عند أغلب المصادر المبكرة (٧٥).

وبات الفريقان ليلتها وفي تقديراتها ان المعركة اصبحت واقعة ولا مفر منها في الغداة. وعلى هذا الأساس قضى ابراهيم ليلته وهو يستعد للمعركة الفاصلة ولم يغمض له جفن وشدد الحراسة على معسكره حتى لا يؤخذ على حين غرة (٧٦).

وعلى الرغم من تأكيدات عمير بن الحباب بدعم موقف جيش الكوفة ولكن ابراهيم بن الأشتر لم يعول كثيرا على كلامه ولم يوله تلك الثقة بل اتخذ احتياطاته لمواجهة كل الجيش الشامي بما يحتويه من القيسية واليمانية على حد سواء، تحسبا لما ينطوي عليه الأمر من خديعة أو مناورة (٧٧).

ومما تجدر اليه الأشارة هو ذلك التفوق العددي الذي تميز به الجيش الشامي على جيش الكوفة وما لذلك من تأثير على معنويات الجند الكوفي. وقد يكون لذلك فعله ومردوداته السلبية على نفسية الجند الكوفي لولا موقف ابراهيم بن الأشتر الحازم في حثهم على الثبات والنصر ونبذ الخوف والجزع في قتال اهل الشام (٧٨).

ويؤكد الطبري والبلاذري وابن أعثم والدينوري على يقظة ابن الأشتر وخبرته في الحرب حيث يورد الطبري ان ابراهيم ارسل احد ثقاته لكي يستطلع حال جيش الشام واستعداداته حتى يمكنه ذلك من وضع الحسابات الصحيحة لمواجهتهم (٧٩).

وبناء على ذلك فقد عبأ ابراهيم بن الأشتر جيشه عسكريا ونفسيا قبل انبلاج الفجر وزحف على جيش الشام فكانت المبادرة بيده حيث وصل بعسكره على تل عظيم يشرف على جيش الشام الذي أخذته المفاجأة (٨٠). لقد كانت تلك الحركة العسكرية من جانب ابن الأشتر أول ظفر نفسي لصالح قواته.

وتواقف الجيشان قبل بدء المعركة الحاسمة اذ حدثت نزلات فردية كما هي العادة في المعارك والحروب السابقة. فيذكر ابن أعثم الكوفي ان القائد الشامي الحصين بن نمير السكوني قد لقي حتفه في احدى النزلات (٨١). غير ان الطبري يخالفه ويؤكد ان الحصين بن نمير كان قائد ميمنة الجيش الشامي وقد قتل اثناء المعركة الكبرى اثناء تلاحم الجيشين (٨٢). ويقدم لنا ابو مخنف رواية فريدة من نوعها وهي ان الحصين بن نمير قد وقع اسيرا في المعركة وتم ارساله الى الكوفة للمختار الذي قتله (٨٣)، وتلك رواية لم تؤيدها المصادر المبكرة والمتأخرة.

هذا وعدنا الطبري والبلاذري وابن أعثم والدينوري بتفاصيل معركة الخازر وما حدث فيها في حين ان بقية المؤرخين يتفاوتون في تقديم التفاصيل الدقيقة والمطلوبة. فبعض المؤرخين يوجزها بشكل مقتضب والبعض الاخر يقتصر فقط على نتائج المعركة.

ومهما يكن من أمر، فأن المعركة بدأت مع الخيوط الاولى للصباح وانتهت مع اصفرار شمس المغيب (٨٤). ولهذه المعركة نتائج مهمة اذ بسببها انحسرت سيطرة الخلافة الاموية عن العراق وتوابعه لفترة من

(٧٣) ابن أعثم ص ١٧٥.
(٧٤) الدينوري ص ٢٩٤.
(٧٥) الطبري ص ٨٧، ابن أعثم ص ١٧٥، البلاذري ص ٢٤٩، ابن الأثير ص ٢٦٢.
(٧٦) نفس المصادر.
(٧٧) يقدر عدد الجيش الشامي بستين الفا او ثمانين الف امام جيش الكوفة البالغ اثنا عشر الفا او يزيد. ينظر نفس المصادر السابقة.

(٧٨) نفس المصادر.
(٧٩) الطبري ص ٨٧، ابن أعثم ص ١٧٨.
(٨٠) ابن أعثم ص ١٧٨.
(٨١) الطبري ص ٩٠، الدينوري ص ٢٩٥، البلاذري ص ٢٤٩.
(٨٢) كتاب أخذ الثأر، ص ١٠٠.
(٨٣) ابن أعثم ص ١٨١ ص ١٨١، الطبري ص ٩٠، الدينوري ص ٢٩٥، دائرة المعارف ص ١١ - ١، المقدسي ص ٢١، البلاذري ٢٤٩
(٨٤) نفس المصادر، اليعقوبي ص ٨.

الزمن اضافة الى القضاء على قادة مشهورين من أهل الشام امثال عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير السكوني وشرحبيل بن ذي الكلاع [٨٥] .

اما عن مصير القائد الشامي عمير بن الحباب فقد اختلفت حوله المصادر الرئيسة . فالبلاذري يقدم لنا روايتين : الاولى تذكر إن عميرا قد أنف الفرار وقاتل مع جيش الشام ضد اهل العراق . والرواية الثانية تشير الى انه كان اول المنهزمين من جيش الشام منذ بدء القتال [٨٦] .

اما عن الطبري وابن أعثم فهما يؤكدان ان عميرا بن الحباب قد قاتل تمذيرا حيث نفهم من رواياتهما انه انسحب من جيش الشام فيما بعد بدليل ان ابراهيم قد عينه واليا على كفر توثا وطور عبدين كما يشير ابن الاثير [٨٧] . والدينوري هو المؤرخ الأكثر تسليطا للضوء على عمير بن الحباب في خذل جيش الشام انتقاما لقتلى قومه القيسية في مرج راهط . ويؤيده في ذلك المؤرخ المسعودي [٨٨] . ومن المناسب ذكره ان المقدسي يورد اسم الشمر بن ذي الجوشن من بين قتلى جيش الشام وهي رواية لم تثبت مصداقيتها امام تأكيدات المصادر الاخرى،بعدم اشتراك الشمر بن ذي الجوشن في هذه المعركة [٨٩] .

هذا وان تاريخ المعركة فيه اختلاف عند المؤرخين . فالطبري وابن قتيبة وابن الأثير والحافظ الذهبي وابن كثير يحددونها في العاشر من محرم سنة ٦٧هـ/ ١٦ آب ٦٨٦م . بينما يذكر المسعودي وابن أعثم وخليفة بن خياط سنة ٦٦هـ/٦٨٥م كتاريخ لها .

وعلى أثر معركة الخازر دخل ابن الأشتر الموصل واقام بها ووجه عماله على الجزيرة وقرقيساء وحران والرها وسميساط وكفر توثا وسنجار وميافارقين حسب رواية ابن أعثم والدينوري . غير ان اليعقوبي يذكر ان الموصل وأرمينية وأذربيجان اصبحتا تحت سيطرة ابن الأشتر وعين عماله عليها ، وفي رأينا ان هذه الرواية مقبولة لوقوع هذه الاقاليم امتدادا للموصل جغرافيا [٩٠] . وبدورنا كذلك لا نرجح بعض الروايات التي تضع المناطق تحت هيمنة ابن الأشتر في الوقت الذي تقع فيه تحت طاعة عبد الملك بن مروان واقرب الى مركز حكمه جغرافيا خاصة عند رواية ابي حنيفة الدينوري [٩١] .

ومن الطبيعي ان انتصار ابراهيم بن الأشتر قد ترك اثارا عند العراقيين . فقد ثبت هذا النصر حكم المختار في الكوفة بينما احس عبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير بخطورة المختار الذي كان وجوده مرتبطا بجهود ابن الاشتر . وبعد هذه المعركة برز اسم ابن الأشتر كقائد مشهور ويود عبد الملك بن مروان ومنافسه عبد الله بن الزبير كسبه الى جانبهما .

ومن الضروري ذكره هو ان تباعدا حصل بين ابن الأشتر والمختار بعد هذه المعركة . فقد أكد جميع المؤرخين الى حقيقة هي ان ابراهيم قد تخلى عن المختار وتركه وحيدا امام مصيره المحتوم تجاه زحف مصعب بن الزبير وقواته من البصرة . والمعلومات التاريخية التي بين ايدينا قليلة وشحيحة حيث تجعل مهمة الباحث التاريخي صعبة في الكشف عن اسباب ذلك التباعد وفي اعطاء صورة متكاملة وواضحة حول الدوافع التي دعت ابراهيم لأن يحجم عن نصرة المختار وهو في احلك لحظات حياته امام خطر مصعب الزاحف من البصرة .

ولعل أول الأسباب التي جعلت ابن الأشتر ينفر من المختار هو تشجيع المختار لبعض البدع والهرطقات مثل مسألة الكرسي الذي نسبه المختار لعلي بن ابي طالب – ع – وجعله كتابوت بني اسرائيل ، وكانت لهذا التابوت سدنة تحف به وتغطية بالحرير . وقد أثار هذا العمل اشمئزاز ابراهيم بن الأشتر عندما خرج لملاقاة عبيد الله بن زياد بقوله : «اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، هذه سنة بني اسرائيل ، والذي نفسي بيده . اذ عكفوا على عجلهم .» [٩٢] .

وقد كان ابراهيم على علم بما يجرى من حيل المختار في استمالة الناس . فمن المؤكد كانت تصل الى مسامع ابن الأشتر ما كان يدعيه المختار من معجزات ومن مزاعم بأن جبرائيل وميكائيل يأتيانه واشارته لبعض من اصحابه بأن يشهد له ان الملائكة قد نزلت لنصرة المختار . وكان يروي الروايات عن الغيب ويخبر الناس عن نبوات ويستعمل المخاريق [٩٣] . كما حدث في وقعة السبيع مع اشراف الكوفة [٩٤] ، ثم ترقبه اخبار معركة الخازر وتأكيداته بأن النصر حليف جيش الكوفة [٩٥] .

وثمة أمر مهم أوجد النفرة بين ابراهيم والمختار هو ان ابراهيم كان يعمل من أجل قضية ومبادئ وعلى هذا الأساس بايع المختار ولكن الذي اتضح لابراهيم ان المختار كان يعمل من أجل مصلحته الشخصية وانه استغل ابراهيم وانصاره كمعبر لمنفعته الذاتية . وقد تناول جمهرة من الباحثين شخصية المختار وصحة ادعاءاته [٩٦] . ففريق يرى انه كان

(٨٥) البلاذري ص ٢٥٠ .
(٨٦) الطبري ص ٩٠ ، ابن أعثم ص ١٨١ ، ابن الأثير ص ٢٦٥ .
(٨٧) المسعودي ص ٩٨ .
(٨٨) المقدسي ص ٢١ .
(٨٩) ينظر ابن أعثم ص ١٨٢ ، الدينوري ص ٢٩٦ ، اليعقوبي ص ٨ .
(٩٠) ابو حنيفة الدينوري صص٢٩٦-٢٩٧ .
(٩١) البلاذري ص ٢٤١ وما بعد ، الطبري ص ٨٥ ، ابن الأثير صص٢٥٨-٢٥٩

(٩٢) المقدسي ص ٢٢ ، البلاذري ص ٢٥٥ ، ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٤٠١ ، الدينوري ص ٢٩٣ .
(٩٣) ابن الأثير ص ٢٣٨ ، البلاذري ص ٢٣٤ .
(٩٤) الطبري ص ٨٥ ، البلاذري ص ٢٥٠
(٩٥) ينظر د. دكسن ، الخلافة الأموية ، ٥٧ وما بعدها .
(٩٦) د . فاروق عمر فوزي ، التاريخ الأسلامي وفكر القرن العشرين ، الفصل الخاص بحركة المختار .

انتهازيا متلونا ووصوليا. وفريق آخر اكد على صدق نواياه[٩٧]. والطريف في الأمر إن غالبية المؤرخين وخاصة المتأخرين منهم لا يطمئنون لدعاوي المختار حيث يصفونه بالكذاب والمراوغ.

ومهما يكن من أمر فأننا امام اشارات ومعلومات متناثرة هنا وهنالك في المصادر الرئيسة حول موقف ابراهيم من المختار. فترد اشارة عند ابن أعثم الكوفي على لسان محمد بن الاشعث الكندي الذي استجار بمصعب بن الزبير بعد وقعة السبيع بقوله: «هذا ابراهيم قد غلب على بلاد الجزيرة وخالف على المختار وهو اليوم ليس معه جيش وانما هو في شرذمة قليلة.»[٩٨].

وانه لمن الجدير قوله في هذه المناسبة ان احد الاسباب الرئيسة التي جرأت مصعب بن الزبير على الزحف الى الكوفة. بعد التجاء اشراف الكوفة اليه هو تيقنه من تخلي ابن الأشتر عن نصرة المختار[٩٩]. وهذا ما اكده ابن اعثم الكوفي بقوله: «فعلم - اى المختار - انه قد اوتي من قبل ابراهيم بن الأشتر لانه قد خذله وقعد عنه.»[١٠٠].

وليس من شك من إن المختار قد طلب عون ومساعدة ابراهيم عندما وصلته الأخبار عن استعدادات مصعب بن الزبير للزحف عليه في الكوفة بتحريض من أهل الكوفة. وكان يعلم بوضوح ان موقفه سيكون خطيرا امام هذا التحالف دون دعم ابراهيم وقد وقع ماكان يخشاه اذ اندحرت قواته في معركة المذار امام قوات مصعب بن الزبير، وقد لاقى قائد المختار المشهور احمر بن شميط مصرعه في هذه المعركة.

وعلى الرغم من مكاتبات المختار لابراهيم واستصراخه لكي ينجده من هزيمته المحققة فأن ابراهيم لزم الصمت ولم يحرك ساكنا وترك المختار يلاقي حتفه على يدى مصعب بن الزبير. ويورد ابن أعثم الكوفي قولا صريحا على لسان المختار وهو يطمح في عون ابراهيم بقوله: «ياله من يوم لو حضرني فيه ابن الأشتر ولكنه قعد عني وخذلني ووالله ما من الموت بد.»[١٠١].

ويشير الطبري ان بعض انصار المختار قد تركوا ابراهيم والتحقوا بالمختار عندما رأوه متهاونا في دعم موقف المختار. ويضيف الطبري ان انصار المختار هؤلاء قد شاركوه في قتال جيش مصعب بن الزبير[١٠٢].

وبعد مقتل المختار في الكوفة، اصبح العراق كله مع توابعه تحت سيطرة الزبيريين. عند ذلك وجد مصعب من الضروري مكاتبة ابراهيم بن الأشتر وكسبه الى جانبه. فيورد ابن أعثم ان مصعبا كان البادئ في مكاتبة ابن الأشتر ويذكر نص الرسالة والتي بها يذكر مقتل المختار وانتهاء امره ويدعوا ابراهيم للبيعة ويعرض عليه الأمان فأن اجاب ابراهيم لعرض مصعب فله أرض الجزيرة وما غلب عليه بسيفه من أرض المغرب ما بقي وبقي سلطان آل الزبير[١٠٣]. وبدورهم الطبري والبلاذري يذكران ان مصعب بن الزبير كاتب ابراهيم ولا تختلف رواية الطبري عما اورده ابن أعثم وخاصة في مضمون الرسالة وان كان هنالك اختلاف في الكلمات والصياغة[١٠٤]. ويقدم الدينوري رواية مخالفة لما جاء عند الطبري والبلاذري وابن أعثم فيذكر ان ابراهيم هو الذي كتب الى مصعب طالبا منه الأمان بعد أن تأكد له هزيمة المختار ومقتله[١٠٥]. وفي رأينا ان رواية الدينوري لا يمكن الأخذ بها لأن ابراهيم ليس مضطرا الى مكاتبة مصعب وأخذ الامان منه لانه في موقف ليس بالضعيف خاصة وان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كان يود لو يستطيع ان يكسب قائدا من نمط ابراهيم وقد حاول ولكنه فشل امام مبدئية ابراهيم.

ومن جانب اخر نجد الخليفة عبد الملك بن مروان ينتهز اضطراب حال العراق بمقتل المختار فيراسل ابراهيم حيث أورد المؤرخون القدامى نص رسالته الى ابراهيم وهي تشبه رسالة مصعب بن الزبير من ناحية الاسلوب ابتداء من المقدمة الاستهلالية الى خاتمتها. فالخليفة الأموي يركز على حق المروانيين في الحكم ويدعوا ابن الأشتر الى الدخول في طاعته مقدما له الاغراءات بأن يكون لابراهيم فيما لو قبل عرض عبد الملك كل أرض المشرق وما غلب عليه ما بقي وبقي سلطان آل مروان[١٠٦].

وازاء هذه المتغيرات اراد ابراهيم بن الأشتر استجلاء اراء انصاره وجنده لان القضية لا تهمه شخصيا حسب بل تخص الجميع. فعرض عليهم رسالة مصعب بن الزبير ورسالة عبد الملك وعروضهما. فلم يتفق اصحابه على رأى واحد. ففريق يقترح عليه الانضمام لعبد الملك بن مروان وفريق آخر يطلب منه الانضمام لمصعب بن الزبير[١٠٧]. هذا وقد استطاع ابراهيم حسم الموقف برؤيته الواضحة، فقرر ان ينضم الى جانب مصعب بن الزبير لان في العراق مصره وهي الكوفة وعشيرته وفي العراق ماضيه فليس من السهل عليه ان ينسى كل هذه الاعتبارات وينضم الى عبد الملك ويكون ظهيرا له على مصره. وقد برر ابراهيم عدم انضمامه لاهل

(٩٧) ابن أعثم ص ١٨٥.
(٩٨) دائرة المعارف الأسلامية مادة ابراهيم-ص ١٢. ١ بالفرنسية.
(٩٩) ابن أعثم ص ١٨٧.
(١٠٠) ابن أعثم ص ١٩٠.
(١٠١) طبري ص ٩٥.
(١٠٢) طبري ٩٥، ابن أعثم ص ١١٠.
(١٠٣) الطبري ص ١١١، البلاذري ص ٣٣٦، ابن الأثير ص ٢٧٥.
(١٠٤) الدينوري ص ٣٠٩.
(١٠٥) ابن أعثم ص ٢٠١، الطبري ص ١١١، البلاذري ص ٣٣٦.
(١٠٦) الطبري ص ١١١، ابن الأثير ص ٢٧٥.
(١٠٧) الطبري ص ١١٢.

الشام لانه قد وترهم في معركة الخازر فهو لا يأمنهم على نفسه(١٠٨) . ولعل رده على اصحابه يوضح وجهة نظره بهذا الموضوع بقوله : «انه ليس بالشام قبيلة الا وقد وترتها وقتلت رجالها في يوم عبيد الله وما كنت بالذي اختار علي مصري مصرا ولا على عشيرتي عشيرة واللحاق بالعراق أحب اليّ وأعود عليّ .»(١٠٩) .

ومن هذا المنطلق اختار ابراهيم بن الأشتر الطرف الذي لا يتناقض مع مواقفه السابقة ولا يجعله بصراع مع مبادئه ولا سابق سيرته ، فتوجه الى الكوفة وبايع مصعب بن الزبير ، «فقربه وادناه واجلسه معه على سريره ثم خلع عليه وامر له بجائزة سنية وصرفه الى منزله»(١١٠) . وكتب بذلك الى أخيه عبد الله بن الزبير فسر بذلك سرورا شديدا(١١١) .

وبأنضمام ابن الأشتر الى جانب مصعب قويت شوكة آل الزبير بالعراق واصبحت الدولة العربية مقسمة على النحو التالي : لابن الزبير أرض الموصل والجزيرة والعراق والحجاز واليمن وأرمينية واذربيجان ، والشام ومصر والمغرب في يد عبد الملك بن مروان(١١٢) .

وقد اصبح ابراهيم من خاصة مصعب بن الزبير ومن المقربين اليه ، وكذلك من الناس الذين يعتمد عليهم في إدارة شؤون العراق . وتذكر مصادرنا الأولية ان مصعب بن الزبير عين ابراهيم واليا على الكوفة عندما انشغل مصعب باخماد فتنة الزبيريين والمروانيين في البصرة(١١٣) . وكان أهل الكوفة يختارون ابراهيم للتوسط لدى مصعب بن الزبير في الأمور ذات الشأن الخطير كما حدث في مسألة حبس عبيد الله بن الحر وقد تفهم مصعب وجهة نظر ابراهيم ووافقه على ما طلبه منه(١١٤) .

ولا ندري هل إن ابراهيم بقي واليا على الموصل بعد مبايعته لمصعب فهناك تضارب في الروايات التاريخية . فأبن الأشتر في رواية البلاذري قد تم عزله عن ولاية الموصل وتعيين المهلب بن ابي صفرة بدلا عنه . وعين مصعب بن الأشتر على الموصل ووجه المهلب لقتال الخوارج لانه باحوالهم اعرف(١١٥) .

بينا يذكر الطبري ان ابن الأشتر كان واليا على الموصل والجزيرة سنة ٧١هـ عندما توجه عبد الملك بن مروان لمحاربة مصعب بن الزبير ، وهذا دليل على انه رجع للموصل وظل بها واليا لابن الزبير(١١٦) .

(١٠٨) ابن أعثم ص ٢٠١ ، ابن الأثير ص ٢٧٥ .
(١٠٩) ابن أعثم ص ٢٠٢ .
(١١٠) نفس المصدر .
(١١١) نفس المصدر .
(١١٢) ابن أعثم ص ٢٥٦ ، البلاذري ص ٣٣٢ .
(١١٣) ابن أعثم ص ٢٢٠ .
(١١٤) الطبري ص ١١٣ وما بعد ، ابن الأثير ص ٣٢٤ .
(١١٥) الطبري ص ٢١٤ وما بعد ، ابن الأثير ص ٣٢٤ .
(١١٦) ابن أعثم ص ٢٦٣ ، ابن الأثير ص ٢٢٤ .

ان حالة الدولة العربية وهي مجزئة الى منطقتي نفوذ لم تكن مرضية لشخص حازم مثل عبد الملك بن مروان . فقد اجمعت المصادر المبكرة والمتأخرة ان عبد الملك جمع اهله وثقاته وانصاره وأخذ رأيهم بصدد حالة الدولة العربية تلك . فعقد عزمهم على حسم الأمر عسكريا فأما ان يكون لصالح الأمويين أو لصالح الزبيريين . فجهز جيشا كبيرا وزحف به على العراق لكي يبدأ بمصعب بن الزبير ثم ينتهي بأخيه عبد الله في مكة(١١٧) . ولم تكن هذه التدابير خافية عن عين وسمع مصعب فبدأ هو الآخر في استعداداته لملاقاة عبد الملك فخرج من الكوفة وعسكر على بعد عشرة فراسخ عنها لكي يوافيه الناس هناك فخذلوه(١١٨) .

وهنا تظهر مشكلة طالما واجهها اشخاص قبل مصعب بن الزبير وهو تخاذل اهل العراق وتقاعسهم عن القتال . والمؤرخون القدامى لا يعطوننا مباشرة المبررات والاسباب لهذا التخلي ، وانما هم يزودوننا باشارات متناثرة هنا وهناك وعلى الباحث ان يجمعها لكي يكون منها فكرة واضحة . فما تجدر اليه الملاحظة ان أحد الاسباب الرئيسة والتي يشدد عليها المؤرخون هو استخدام الخليفة الأموي عبد الملك لاسلوب الترغيب وشراء النفوس واستمالتها بالأموال والمناصب . وهناك اسباب فرعية منها ان العراقيين قد ملوا القتال وحالة الاضطراب السياسي التي تعم مصرهم فهم احبوا العافية والأستقرار . فضلا عن ذلك فأنهم قد كرهوا سياسة مصعب بن الزبير الدموية تجاه انصار المختار وتجاه فتنة الزبيريين والمروانيين في البصرة . وقد نجحوا جميعا في التخلي عن مصعب وتركه امام مصيره المحتوم باستثناء ابراهيم الذي أخلص اليه وذهب ضحية قصر نظر مصعب . وقد ساهم أحد أنصار المختار في قتل مصعب وهو يقول : بالثارات المختار(١١٩) ، مما يدلل على ان جذوة الثأر لم تخمد وإن مصعبا خلق لنفسه اعداء دون مبرر .

وعلى أية حال فأن عبد الملك قد سار على نفس سياسة معاوية بن ابي سفيان فكاتب اشراف العراق وخاصة الكوفيين ومناهم بالمناصب والأموال وكان في طليعتهم ابراهيم بن الأشتر . فأخذ الرسالة وقدمها الى مصعب ففضها فكان نصها : « فأني اعلم أن تركك الدخول في طاعتي ليس الا عن معتبة فلك الفرات وما سقى فأنجز اليّ فيمن أطاعك من قومك والسلام»(١٢٠) .

ان المتتبع لاحداث عام ٧٢هـ يندهش امام غفلة مصعب بن الزبير و عدم اعتباره لما حدث لعلي بن ابي طالب وابنائه من بعده وللمختار

(١١٧) ابن أعثم ص ٢٦٣ .
(١١٨) ينظر الطبري وابن سعد والبلاذري وابن أعثم .
(١١٩) الزبير بن بكار الموفقيات ص ٥٢٨ ، بلاذري ص ٣٤٠ ، دائرة المعارف الأسلامية - مادة ابراهيم - ص ١٢ . ١ .
(١٢٠) ابن الأثير ص ٣٢٤ .

والثقفي مع أهل العراق وخاصة الكوفيين. تتمثل الرسالة الموجهة من عبد الملك ولكنه رفض ذلك العرض وابى أن يغدر بمصعب الذي أثبت انه قصير نظر برفضه كذلك نصيحة المهلب بن أبي صفرة بالبقاء معه لكي يتقوى به في حرب عبد الملك فصرفه الى حرب الخوارج الازارقة(121). ان مصعب قد سهل مهمة عبدالملك بن مروان في القضاء عليه بأن يضرب اعناق الأشراف الذين كاتبهم عبد الملك واذا لم يستطع فعليه ان يحبسهم لحين انجلاء الموقف. بيد أن مصعباً رفض نصيحة ابراهيم وترك هؤلاء الأشراف يتحركون كيفما يشاءون وطلب ابراهيم ازاء تعنت مصعب إن لا يمده اثناء القتال بهؤلاء الاشراف.

وعسكر عبد الملك بجيشه الكبير في مسكن واستغل الاشراف الليل فأنسلوا الى معسكر عبد الملك فأصبحوا قوة مضافة ضد مصعب الذي عرف بعد فوات الأوان خطل رأيه. واعلنت ربيعة عن موقفها الحيادي المتالئ مع عبد الملك فخذلت مصعب(122). والتقى الجيشان فكان ابراهيم على مقدمة جيش مصعب فجعل يقاتل قتالا «لم يسمع الناس بمثله»(123). ونجح في دحر الجيش الشامي بفضل ثباته وكاد هذا الموقف أن يعطي ثمارا في صالح الجيش العراقي ولكن مصعبا أمد ابراهيم بقائد إسمه عتاب بن ورقاء الذي كاتب عبد الملك حيث غدر بابراهيم بأن تركه وحده في الميدان فتعاورته السيوف وحز رأسه وقدم لعبد الملك الذي عده أول بوادر النصر. وبقي مصعب وحيدا مع قلة من أنصاره وإبنه عيسى. وطلب مصعب من القادة الكوفيين أن يتقدموا لقتال أهل الشام فلم يتحركوا وهم قطن بن عبد الله الحارثي وحجار ابن ابجر ومحمد بن عبد الرحمن سعيد. عند ذاك تبينت خيانتهم لمصعب وصدق رأي ابراهيم فيهم فقال مصعب «يا ابراهيم ولا ابراهيم لي اليوم»(124) واستمات مصعب في القتال ورفض امان عبد الملك له ولابنه عيسى وظل يقاتل متأسيا بموقف الحسين بن علي فكثرت جراحاته وتم قتله وقطع رأسه وقدم لعبد الملك الذي استطاع ضم العراق وتوابعه الى دولته.

وتاريخ مقتل ابراهيم يختلف فيه المؤرخون في دير الجاثليق فالطبري يعطي سنة ٧١هـ / ٦٩٠م بينما يعطيه ابن عساكر وابن سعد والمسعودي والدينوري ودائرة المعارف الأسلامية سنة ٧٢هـ/ ٦٩٢ وهو تاريخ أكثر منطقية عندنا لانه يتفق مع الحوادث اللاحقة وخاصة عملية محاصرة عبد الله بن الزبير ومقتله.

(١٢١) موفقيات ص ٥٢٨، البلاذري ص ٣٤١، المسعودي ص ١٠٦.
(١٢٢) ابن أعثم ص ٢٦٥.
(١٢٣) موفقيات ص ٥٢٩، ابن الأثير ص ٣٢٦.

حاجب باب النوبي في بغداد خلال

درج العباسيون على اتخاذ الحجاب للوقوف على ابواب الخلفاء والوزراء واصحاب الدواوين وارباب الدولة، لحجب الناس عن مقابلة المحجوبين الا بعد ان يأخذوا الاذن بذلك. وتحدثت المصادر عن هؤلاء الحجاب واصنافهم وصلاحياتهم، واشارت الى المنزلة الرفيعة التي كان يتمتع بها حجاب دار الخلافة بصورة خاصة ومن بينهم حاجب باب المراتب(1) وحاجب باب النوبي اللذين كانا يمثلان موظفين مهمين من موظفي الدولة ومن نظرائهم الحجاب الاخرين.

غير ان وظيفة حاجب باب النوبي في اخر العهد العباسي كانت تقابل مدير شرطة بغداد ومدير الامن فيها، حيث كان مسؤولاً عن المحافظة على ضبط الامن في بغداد واخماد الفتن والقبض على الجناة والمفسدين واحلال الهدوء والسلام ومراقبة تصرفات اصحاب العقائد ومعاقبة ذوي المبادىء المعادية للدولة والتي ربما تؤدي الى بلبلة افكار الناس واحداث الفوضى والقيام بجميع الاعمال التي تكفل سلامة الناس وطمأنينتهم كما يتولى اقامة الحدود (Peines Fixes) والنظر في الجرائم والاضطلاع

(١) احدى ابواب دار الخلافة ببغداد في العصر العباسي، ويبدوا ان اسمها اخذ من دابة النوبة التي كانت تقف امامه، وهو يقع في الجانب الشرقي من بغداد ويسمى باب العتبة ايضاً، نسبة الى العتبة التي كان الرسل والملوك ورؤساء مواكب الحج القادمين الى بغداد يقبلونها، وكان هذا الباب يمثل في بعض الفترات باباً رئيسياً لدار الخلافة (الكازروني) مقامه في قواعد بغداد في الدولة العباسية (بغداد - ١٩٦٢) ص ١٧، (مصطفى جواد دليل خارطة بغداد - ١٩٥٨) ص ١٥٨.

والتقى مع أهل العراق وخاصة الكوفيين . تتمثل الرسالة الموجهة من عبد الملك ولكنه رفض ذلك العرض وابى أن يغدر بمصعب الذي أثبت انه قصير نظر برفضه كذلك نصيحة المهلب بن أبي صفرة بالبقاء معه لكي يتقوى به في حرب عبد الملك فصرفه الى حرب الخوارج الازارقة[١٢١] . ان مصعب قد سهل مهمة عبدالملك بن مروان في القضاء عليه بأن يضرب اعناق الأشراف الذين كاتبهم عبد الملك واذا لم يستطع فعليه ان يحبسهم لحين انجلاء الموقف . بيد أن مصعباً رفض نصيحة ابراهيم وترك هؤلاء الأشراف يتحركون كيفما يشاءون وطلب ابراهيم ازاء تعنت مصعب إن لا يمده اثناء القتال بهؤلاء الاشراف .

وعسكر عبد الملك بجيشه الكبير في مسكن واستغل الاشراف الليل فأنسلوا الى معسكر عبد الملك فأصبحوا قوة مضافة ضد مصعب الذي عرف بعد فوات الأوان خطل رأيه . واعلنت ربيعة عن موقفها الحيادي المتالئ مع عبد الملك فخذلت مصعب[١٢٢] . والتقى الجيشان فكان ابراهيم على مقدمة جيش مصعب فجعل يقاتل قتالا «لم يسمع الناس بمثله»[١٢٣] . ونجح في دحر الجيش الشامي بفضل ثباته وكاد هذا الموقف أن يعطي ثمارا في صالح الجيش العراقي ولكن مصعبا أمد ابراهيم بقائد إسمه عتاب بن ورقاء الذي كاتب عبد الملك حيث غدر بابراهيم بأن تركه وحده في الميدان فتعاورته السيوف وحز رأسه وقدم لعبد الملك الذي عده أول بوادر النصر . وبقى مصعب وحيدا مع قلة من أنصاره وإبنه عيسى . وطلب مصعب من القادة الكوفيين أن يتقدموا لقتال أهل الشام فلم يتحركوا وهم قطن بن عبد الله الحارثي وحجار ابن ابجر ومحمد بن عبد الرحمن سعيد . عند ذاك تبينت خيانتهم لمصعب وصدق رأى ابراهيم فيهم فقال مصعب «يا ابراهيم ولا ابراهيم لي اليوم»[١٢٤] واستماتت مصعب في القتال ورفض امان عبد الملك له ولابنه عيسى وظل يقاتل متأسيا بموقف الحسين بن علي فكثرت جراحاته وتم قتله وقطع رأسه وقدم لعبد الملك الذي استطاع ضم العراق وتوابعه الى دولته .

وتاريخ مقتل ابراهيم يختلف فيه المؤرخون في دير الجاثليق فالطبري يعطي سنة ٧١هـ / ٦٩٠م بينما يعطيه ابن عساكر وابن سعد والمسعودي والدينوري ودائرة المعارف الأسلامية سنة ٧٢هـ/ ٦٩٢ وهو تاريخ أكثر منطقية عندنا لانه يتفق مع الحوادث اللاحقة وخاصة عملية محاصرة عبد الله بن الزبير ومقتله .

---

(١٢١) موفقيات ص ٥٢٨ ، البلاذري ص ٣٤١ ، المسعودي ص ١٠٦ .
(١٢٢) ابن أعثم ص ٢٦٥ .
(١٢٣) موفقيات ص ٥٢٩ ، ابن الأثير ص ٣٢٦ .

حاجب باب النوبي في بغداد خلال

درج العباسيون على اتخاذ الحجاب للوقوف على ابواب الخلفاء والوزراء واصحاب الدواوين وارباب الدولة ، لحجب الناس عن مقابلة المحجوبين الا بعد ان يأخذوا الاذن بذلك . وتحدثت المصادر عن هؤلاء الحجاب واصنافهم وصلاحياتهم ، واشارت الى المنزلة الرفيعة التي كان يتمتع بها حجاب دار الخلافة بصورة خاصة ومن بينهم حاجب باب المراتب[١] وحاجب باب النوبي اللذين كانا يمثلان موظفين مهمين من موظفي الدولة ومن نظرائهم الحجاب الاخرين .

غير ان وظيفة حاجب باب النوبي في اخر العهد العباسي كانت تقابل مدير شرطة بغداد ومدير الامن فيها ، حيث كان مسؤولاً عن المحافظة على ضبط الامن في بغداد واخماد الفتن والقبض على الجناة والمفسدين واحلال الهدوء والسلام ومراقبة تصرفات اصحاب العقائد ومعاقبة ذوي المبادىء المعادية للدولة والتي ربما تؤدي الى بلبلة افكار الناس واحداث الفوضى والقيام بجميع الاعمال التي تكفل سلامة الناس وطمأنينتهم كما يتولى اقامة الحدود (Peines Fixes) والنظر في الجرائم والاضطلاع

---

(١) احدى ابواب دار الخلافة ببغداد في العصر العباسي ، ويبدوا ان اسمها اخذ من دابة النوبة التي كانت تقف امامه ، وهو يقع في الجانب الشرقي من بغداد ويسمى باب العتبة ايضاً ، نسبة الى العتبة التي كان الرسل والملوك ورؤساء مواكب الحج القادمين الى بغداد يقبلونها ، وكان هذا الباب يمثل في بعض الفترات باباً رئيسياً لدار الخلافة (الكازروني) مقامه في قواعد بغداد في الدولة العباسية (بغداد – ١٩٦٢) ص ١٧ ، (مصطفى جواد دليل خارطة بغداد – ١٩٥٨) ص ١٥٨ .

نائب الشرطة ومدير الأمن في العصر العباسي الأخير

الدكتور سوادي عبد محمد
« قسم التاريخ - جامعة البصرة »

بالاعمال العسكرية التي كانت تعتبر وسطاً بين اعمال نائب الشرطة[٢] وقائد الجيش ، وكان ينوب عنه موظفون يعملون على حفظ النظام واستتباب الامن في اقاليم الدولة العباسية ويساعده القضاة والعمال في تنفيذ الاحكام القضائية . كما كان يتخذ صفة الحاكم لعدد غير محدود من الجنح يعاقب عليها انياً ويراقب المجرمين ويطاردهم ليجلبهم بالتالي امام القاضي ان امكن[٣] .

وليس من المستبعد القول ان تكون الدولة العربية قد اخذت تنظيمات الامن (Seturifas) عن البيزنطيين حيث كانت في بدايتها تختصر في تنظيم الحرس الخاص او حرس الليل ثم تطور مفهوم الامن بعد ذلك لتصبح وظيفة مرتبطة بالقضاء وتابعة له ومؤداها استيفاء الحدود[٤] اي ان موضوع الامن اصبح يقوم على تنفيذ العقوبات التي تحددها الاحكام القضائية .

اما في العصر العباسي الاخير الذي اقترن بظهور بعض الطوائف المفسدة من الوباش والشطار ومن الفتاك والصقور - اي اللصوص والقتلة . فقد اجازت الدولة صاحب شرطة الامن او ما يعرف بنائب الشرطة وبدأ ينفرد عن القضاء ويستقل بالنظر في الجرائم او تعقيب الطوائف المفسدة من المجرمين وكان اصحاب المهن والحرف والتجار في المدن ينظمون احياناً ما يعرف بنظام الفتوة للقيام بأعمال الشرطة واصبح لها لباس خاص يسمى (لباس الفتوة) او (سراويل الفتوة) ولها تشكيلات خاصة تشتمل على قائد ونقيب وعريف كما وجدت اسماء اخرى تدل على القائمين به مثل الفتيان والاحداث والعيار[٥] .

وقد ظلت وظيفة (صاحب الامن) مرتبطة بحجابة باب النوبي مما ترتب عليه اتخاذ باب النوبي بمرور الزمن محلا لصاحب الامن ويتضح ذلك من ترجمة بعض من تولى الشرطة ببغداد ومنهم ابو منصور ابن الطحان الذي قيل عنه كان صاحب الامن بباب النوبي[٦] وجمال الدين علي بن ابي المعالي المعروف بأبن البورى وكان قد ولي الشرطة في ايام الخليفة الناصر لدين الله وابو الفتح ابن الصيقل الهاشمي وابن الكيا الهراسي وابو القاسم علي بن محمد ابن هبة الله ابن الصاحب[٧] اللذين تقلدوا منصب صاحب الامن في بغداد .

ويبدو ان صلاحيات صاحب الامن كانت تشمل على الامن واستتبابه في ابواب مدينة بغداد[٨] بصورة خاصة ، فضلاً عن دواخل المدينة وقصبتها ، فيشير ابن الساعي الى الاجراء الذي اتخذه ابو جعفر ابن الناعم صاحب الامن بالقبض على جماعة من اهل محلة باب البصرة الذي تثبت تعدياتهم على الناس ، وعاقبهم بالزامهم بمال قرره عليهم[٩] كما حبس معلم اساء معاملة الاولاد الذين كان يعلمهم ، حبسه في حجرة بباب النوبي ثم اخرج ظاهر الباب وعوقب بالتشهير به امام حشد من المعلمين في بغداد احضرهم صاحب الامن لهذا الغرض[١٠] وفي سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤ م وقعت فتنة ببغداد بين اهل باب الازج واهل

(٢) عرفت الشرطة بهذا الاسم لانهم اشرطوا انفسهم بعلامات يعرفون بها وكان الخليفة عمر بن الخطاب اول من ادخل نظام العسس في الليل ، وفي عهد الخليفة علي بن ابي طالب نظمت الشرطة واطلق على رئيسها صاحب الشرطة اما في العهد الاموي فقد اوجد معاوية الشرطة لتقوم بحراسته اثناء الصلاة .
او انها لتكون في يد عمالة لتنفيذ سياسته انظر :
ابن الاثير الكامل في التاريخ (مصر - ١٣٤٨هـ) ج ٣ ص ١٩٨

(٣) الذي كان بالاصل (صاحب الشرطة) ويلقب (صاحب الليل) او صاحب المدينة لانه يحفظ النظام ويساعد على استتباب الامن في المدينة ويقبض على الجناة ان عاثوا فساداً في الليالي الحالكات . (د . صبحي الصالح ، النظم الاسلامية (بيروت ١٩٧٨)) ص ٣٣٤

(٤) ديمومبين ، النظم الاسلامية (دار النشر للجامعيين) (بيروت ١٩٦٠) ص ١٧٩ - ١٨٠

(٥) ابن خلدون ، المقدمة (القاهرة - ١٣٢٢ ه) ص ١٩٨ - ١٩٩

(٦) ابن المعمار ، كتاب الفتوة (تحقيق الدكتور مصطفى جواد - ١٩٦٠)
والدكتور عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى

(٧) ابن الساعي ، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ج ٩ (تحقيق الدكتور مصطفى جواد بغداد ١٩٣٤) ص ٤٦

(٨) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم (دائرة المعارف العثمانية حيدر اباد الدكن ، ١٣٥٧هـ) ج ١٠ ص ١٦١

(٩) وهي باب ابراز الازج ، البالني بدر ، البدرية ، البصرة ، البصلية ، التبن ، جامع القصر ، الحجره ، حرب ، الحرم ، الحلبة ، الخاصة ، السلطان ، الشرقي ، الطاق ، طراد ، الطلسم ، الظفرية ، العامة ، عليان ، الغربة ، الغلة ، الفردوس ، كلواذا ، المذبح ، المراتب ، المعظم ، الوسطاني ، قطفتا .

(١٠) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ج ٩ ص ٤٦ .

المأمونية ، فركب صاحب الامن ابو القاسم قيثم بن طلحة الزينبي المعروف بأبن الاتقي ليعمل على تهدأة الاوضاع واسكان رؤوس الفتنة والقضاء عليها[١١] .

ومن المحتمل جداً ان نائب الشرطة وصاحب الامن ، كان يتخذ الاجراءات التي يراها مناسبة لكل قضية من القضايا التي تعرض ، ففي سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٥م جرح احدهم شاباً بسكين جرحاً بليغاً ادى الى وفاته فطلب صاحب الامن القاتل فلم يهتد اليه فنودي عليه في الشوارع والدروب وحذر الناس من مغبة التستر عليه ، ولكن مملوكاً تركياً من خدم بلاط الخليفة الناصر لدين الله قبض عليه وهو مختبىء في سطح داره واوثقه واخذه الى حجرة باب النوبي ، فقرر صاحب الامن قتله ضرباً بالسيوف ، ليكون عبرة وموعظة لغيره[١٢] . وفي السنة التالية ثار جماعة من العوام على حراس باب النوبي واتباع الباعة ، فتسببوا في جرح عدد منهم وقتل اخرين ، فخاف صاحب الامن من ذلك العبث والفساد وانتشار البلبلة ، فأحضر شخصين ممن ساعدوا على تحريضهم وهما (براها) و (عُلَيْك) وقرر قتلهما فارتدع بهما امثالها وانحسمت مادة القتل والفساد وانكف العوام عن تطاولهم[١٣] .

وكان صاحب الامن يعاقب المسيئين على اختلاف منازلهم ومكانتهم العلمية او الاجتماعية او السياسية ، ففي سنة ٥٧٣هـ / ١١١٧ م قبض على واعظ اتهم بشرب الخمرة وجيء به الى باب النوبي فأسمعه صاحب الامن مكروهاً ثم كتب في امره الى ديوان الخلافة ففوضه الخليفة امر طرده من بغداد[١٤] وفي سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨ م احضر العدل ابو محمد عبد الله بن المأمون قاضي دجيل الذي ادعى نسبه الى الخليفة واستغل مركزه ووظيفته امام صاحب الامن في باب النوبي فعاقبه بكشف رأسه عند الصخرة ودرر ثم شهر في عمود البلد ونودي عليه (هذا جزاء من يزور) وذلك على الرغم من هذا الرجل كان من بيت كبير معروف بالشرف والعدالة والعلم والقضاء[١٥] . كما يذكر ابن الساعي

ان صاحب الامن عاقب احمد بن المقرىء بالقتل ، حيث سلمه الى غرمائه الذين تولوا قتله وكان ابن المقرىء شاباً مليحاً له فضل وعنده ادب و يقول الشعر[١٦] ، ويبدو ان المحافظة على الامن والاستقرار في بغداد الذي يسعى اليه صاحب الامن يعطيه تبريراً بأتخاذ عقوبات رادعة

(١١) المصدر نفسه ص ١٢١ .

(١٢) المصدر نفسه ص ١٤٦ — ١٤٨

(١٣) ذكر ابن الساعي انه احضر الى دار الوزير حيث استجوب فأعترف بذنبه فأوصى ان تتخذ بحقه اشد العقوبات (الجامع المختصر ص ١٩٩ — ٢٠٠) .

(١٤) المصدر نفسه ص ٢٢٨ .

(١٥) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ج ١٠ ص ٢٧١ .

(١٦) ابن الساعي ، المصدر نفسه ص ٢٧١ .

ضد كل من تسول له نفسه العبث بأمن الناس وطمأنينتهم .

ويمكن القول على ضوء النصوص المتوفرة لدينا ، ان الاعمال التي كان يعاقب عليها صاحب الامن والتي تتعارض مع استتباب الامن والاستقرار لعل في مقدمتها اثارة الفتن والاضطرابات بين الناس وتطرف العوام وشغبهم[١٧] — ففي سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦ م قتل اهل محلة الكرخ رجلاً من اهل قطفتا فحمل اهل المقتول قتيلهم وجاءوا به الى باب النوبي ليشكوا نائب الشرطة صاحب الامن واطلاعه على الامر فدخل جماعة من الخدم الى الخليفة وعرفوه وعظموا ذلك ونسبوا الى اهل الكرخ كل فساد فأمر الخليفة صاحب امن باب النوبي بروع مثيري الفتن من الكرخيين فأستغل العوام الفرصة ونهبوا محلة الكرخ وقتلوا بعضاً منهم اهلها فأتخذ صاحب الامن ما يلزم لقمع الفتنه حيث انتشر رجاله بالامان ثم وضع جميع ما اخذ من محلة الكرخ امام باب النوبي لكي يسترد كل شخص ما اخذه منه وعاقب مسبب هذه الفتنة بالصلب والقتل فتم قطع دارها واستئصال شأفتها[١٨] ويذكر ابن الساعي انه بلغ صاحب الامن خبر الفتنة التي وقعت بين عوام باب الازج واهل محلة المأمونية سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م بسبب اقدام العوام على «قتل سبع»[١٩] على عادتهم حيث جاءوا به الى باب الازج وقرروا ان يطوفوا به على المحلات ويجتازوا المأمونية لغرض احداث البلبلة والفوضى ليتسنى لهم من خلالها التسلل الى المحلات والبيوت للنهب والسلب غير ان اهل المأمونية منعوهم من الاجتياز بمحلتهم فجمع اهل باب الازج خلقاً من العوام ونشبت الفتنة فأتخذ صاحب الامن قراره لكي يسود الامن والاستقرار فأرسل اعوانه ورجاله فأدركوهم وحالوا بين العوام لتحقيق مأربهم (واحضر رووس هذه الفتنة وكفوا المغرضين عن الفساد وسكن الامر وانقطعت الفتنة)[٢٠]

ويخيل الينا ان اهم عمل كان يقوم به صاحب الامن هو مراقبة

(١٧) ولما كان بحجرة باب النوبي محبوساً عمل بيتين من الشعر :

قدمت على الكريم بغير زاد	من الاعمال والقلب السليم
وسوء الظن ان تعتد زادا	اذا كان القدوم على الكريم

(الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٠٠)

(١٨) تكثر المصادر الاولية ذكر الاحداث التي كانت تعبر عن شغب العوام وتعصبهم المفرط ومناهضتهم للقانون والنظام .

انظر : ابن الساعي ، الجامع المختصر ، ابن المعمار ، كتاب الفتوة ، مجهول الحوادث الجامعة والتجارب النافعة .

(١٩) د . بدري محمد فهد تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ١٧٥ نقلاً عن مجهول الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص ٤١٤ — ٣١٥ .

(٢٠) نسمع كثيراً في المصادر الاولية عن قيام عوام بغداد بعمليات قتل الاسود ويتكرر ذكرها خاصة في ابن الساعي ، الجامع المختصر ، ومجهول الحوادث الجامعة والتجارب النافعة

الاتفاقات التجارية والصفقات والبيع والشراء وما يترتب على ذلك من اجراءات واعمال الشهود فقد جمع صاحب الامن ، سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م الوكلاء والشهود والمحضرين[٢١] وشرط عليهم ان لا (يتبرطلوا) من احد وان لا يأخذوا الشروطي[٢٢] في كتب البراءة[٢٣] اكثر من حبتين ولا المحضر اكثر من حبة ولا الوكيل اكثر من قيراطين واشهد عليهم الشهود[٢٤] وليس اول على اهمية هذا المنصب وعلى من يتقلده من الاشارات الكثيرة التي جاءت في المصادر بأسماء تصف باب النوبي الذي كان مقراً لصاحب الامن بـ «الشريف» و «المحروس» ومن ان باب الوزارة تقع مقابلة لباب النوبي وقريبة منه[٢٥] ، حيث لا يوجد اجل ولا اعلى مقاماً ولا اكثر صلاحيات منه يتولى مهمة الاشراف على حماية هذه المؤسسة المهمة في الدولة لذلك يعد صاحب الامن واحداً من ارباب الدولة والمجتمع حيث يتقدم المواكب التي كانت تقام في الاعياد والمناسبات[٢٦] ويستحوذ على سلطات واسعة وله ان يعاقب ويقتل وولايته نوعان ولاية بالاصالة والاخرى بالانابة .

ففي الاولى يكون صاحب السلطة الفعلية ويتمتع بعمله وصلاحياته بحرية تامة اما في الثانية فلن يكون صاحب الكلمة العليا في عمله ومقرراته حيث ترفع عنه «المخده» التي يجلس عليها كما ترفع من بين يديه الدواة ويشير سبط ابن الجوزي الى ان تعيين صاحب الامن نائباً في الحجبة هو نوع من العقوبة التي تتخذ ضده[٢٧] وقد جرت الحال مع محمد ابن عبد الله بن احمد الخلال الذي عين وكيلاً بباب القضاة ثم استحب في ديوان الخليفة واخيراً عوقب بتوليته نيابة الحجبة في باب النوبي سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م[٢٨] .

ولعل من المفيد القول ان اغلب الذين تولوا نيابة الشرطة والمحافظة على الأمن كانوا من عليّة القوم ومن المشهود لهم بالرئاسة والتقدم والولاية فقد اشير الى ان ابي الحسن علي ابن حمزة بن طلحة المعروف بأبن الشلام كان صدراً فاضلاً ومن بيت معروف بالتقدم والولاية حيث تولى وظيفته بأمر من الخليفة المستضيء بأمر الله كما جاء عن ابن الاتقى الذي تولى نيابة الشرطة والأمن انه كان متولياً لنقابة العباسيين قبل ذلك[٢٩] وهو منصب رفيع في الدولة العباسية وعرف عن ابي القاسم الحسن بن نصر بن علي بن احمد بن الناقد انه تربى في ظل الخدمة الناصرية اي في عهد الخليفة الناصر لدين الله فشمله بأنعامه طفلاً ويافعاً فسما قدره وتلى الولايات وتنقل في الخدمات حتى رتب صاحب الامن في بغداد مقيماً بباب النوبي[٣٠] ولكن من الجدير بالملاحظة اننا نسمع في اخبار بعض من تولى نيابة الشرطة في باب النوبي خلال العهد العباسي الاخير انهم كانوا يكثرون من القسوة والظلم اثناء مزاولتهم لوظيفتهم فعندما صرف ابو الحسن علي بن ابي البورى عن نيابة الشرطة ورتب عوضه ابو منصور بن الطحان وخلع عليه «فارتاع الناس منه» لما كانوا يعلمونه من ظلمه وغشمه وقسوة قلبه[٣١] كما وصف بأنه (قبيح الاعمال سيء الطريقة عاتياً محباً للظلم مؤثراً للاذى اخذاً لاعراض الناس بالتحرض والكذب) ارتكب اثماً عظيماً وتقلد مظالم[٣٢] العباد ويشير ابن الساعي الى ان الناس «اعلنوا بلعنه وهموا بسحبه عند وفاته ولم اسمع احداً يترحم عليه في ذلك بل ما سمعت احداً الا وهو يلعنه ويسيء الثناء عليه[٣٣] وربما كان الاجراء الذي اتخذ بعزل صاحب الامن ابن الفشلام وابن البورى من وظيفتهما كذلك كان بسبب قسوتهما وظلمهما ، حيث حبسا وطولبا بمال ثم افرج عنهما[٣٤] .

ولاغرو ، فقد حرص الخلفاء العباسيون على تأكيد هيبة صاحب الامن سواء بين رجاله وارباب باب النوبي ، او بين رجالات الدولة من جهة او بين الناس والعوام من جهة اخرى لكي يستطيع ان يؤدي عمله ويحافظ على سطوته وتنفيذ اوامره ، فقد عيب على صاحب الامن قثم بن طلحة الزينبي ابن الاتقي موقفه من قمع فتنة العوام حيث ركب لتداركها وحمل عليهم بحربته مما جعله في موقف ضعيف فقيل له (اردت ... الهيبة وربما ضربك احد العوام فقتلك» ومن ثم عزل عن نيابة الشرطة .

(٢١) الجامع المختصر ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢٢) المحضرون الذين كانوا يكتبون في المحضر / اي السجل جميع ما يجرى امام القاضي من اقرار وحكم وما يتخذه من اجراءات .

(٢٣) الشروطي تعليق الطلاق بشرط من الشروط المقررة بين الطرفين .

(٢٤) البراءة ، الحجة التي كانت يبذلها كاتب المال للمؤدي بما يؤديه اليه (اي الوصل) .

(٢٥) د . بدري محمد فهد / تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ١٧٤ - ١٧٥

(٢٦) ابن الساعي ، المصدر نفسه ص ٢٨٦

(٢٧) ابن الجوزي ، المنتظم ج ١٠ ص ٢٥٨

(٢٨) مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٢٣٠

(٢٩) ابن الدبيثي التاريخ المذيل به على تاريخ بغداد للسمعاني ج ١ ق (مخطوطة مصورة في المكتبة المركزية ببغداد رقم ١٥٧) الورقة ٦٣ أ

(٣٠) ابن الساعي . الجامع المختصر ص ١٠٦

(٣١) وتسمى نقابة الهاشميين ويسمى متوليها النقباء وهو من رؤساء العباسيين واعيانهم ويشترط ان يكون من الفقهاء والعدول المشهورين بالصلاح والتقوى لكي يستطيع التعرف على العباسيين وللسهر على مصالحهم وكان لهم عدة نقباء في الاعالم الاسلامي نقيب في مصر ونقيب في الحجاز ونقيب في العراق ونقيب في البصرة ونقيب في واسط اشهرهم نقيب في بغداد (العراق) الذي هو نقيب النقباء (ابن الجوزى المنتظم ج ٨ ص ٩٩ وانظر ايضاً بدري محمد فهد تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ٢٣١ - ٢٣٢

(٣٢) ابن الساعي المصدر نفسه ص ٢٥٠

(٣٣) اجمعت المصادر على وصفه بالقضاضه وغلظة القلب ولا تاخذه في الناس لومة لائم انظر ابن الساعي المصدر نفسه ص ١١٧ ابن الجوزي المصدر نفسه ص ٢٨٩ سبط ابن الجوزي المصدر نفسه ص ٢٦٠ ثم الحوادث الجامعة ص ١٣١

(٣٤) ابن الساعي المصدر نفسه ج ٩ ص ١١٧

يستخدم بعد ذلك[٣٥] .

وكان لصاحب الامن اعوان يعرفون «اصحاب الاخبار» كانوا يرتدون الملابس الخاصة بهم ويتقلدون سيوفهم عما يسمعون ويرون لاتخاذ ما يلزم وينفذون مايناط بهم واجبات ولعل ما يعرف الان برجال الامن عم جميع اولئك الذين كان يترأسهم صاحب الامن في باب النوبي .

وفي مقدمتهم اصحاب الاخبار فالمهمة المناطة بهم تتشابه الى حد كبير منهم جميعاً يتقصون الاخبار ويسقطونها لدفع الضرر عن امن الناس وسلامتهم وتفادي الاخطا المحتملة التي ربما يتعرضون لها .

وكان لصاحب الامن ثلة من المجندين لامرة يشار اليهم بأعوان باب النوبي[٣٦] اركما يسمون (النقباء والمستخدمين) ينفذهم عند الحاجة لغرض الاستعانة بهم في قمع الفتن والاضطرابات التي كانت في بغداد او في اقاليم الدولة العباسية . ولعل الأعوان هم انفسهم النقباء الذين يشكلون مجموعة من ذوي الرتب العسكرية وممن يجندهم صاحب الامن ويبقيهم على اهبة الاستعداد لاى طارئ اما المستخدمون فهم العاملين تحت توجيهاتهم وقيادتهم ، ومن بين هؤلاء الاعوان الذين ذكرهم ابن رجب ، يحيى بن سعيد البغدادي ، القطفتي ، الفقيه المعدل الذي كان صاحب خبر بباب النوبي[٣٧] وابراهيم بن علي بن بكروس الذي كان فقيهاً حنبلياً ، ناظر الفقهاء وافتى ، ولكنه اصبح صاحب خبر بباب النوبي ورمى ثوب الفقهاء . .

ثم فتك بالمال والحريم وضرب جماعة ورماهم في دجلة ثم تولى نيابة الشرطة وتقلدها ولكنه خلع ومن ثم انتقم منه فضرب بالخشب حتى مات تحت الضرب ورمى به في دجلة[٣٨] .

وفي سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م نفذ صاحب الامن جماعة من النقباء والمستخدمين بباب النوبي لتثبيت العوام والحيلولة دون استفلالهم للنزاع الذي حدث بين اهل قطفتا واهل القرية في الجانب الغربي من بغداد بسبب (قتل سبع) حيث اريد تجويزه بالقرية ولكن رجال الامن من النقباء والمستخدمين والاعوان هزموا المفتنين ومثيري الشغب[٣٩] .

على اننا يجب ان نذكر بأن صاحب الامن ورجاله ومعتمديه ووكلائه في باب النوبي مسؤولون عن المحافظة على امن بغداد وسيادة الاستقرار فيها وقمع الشغب والفوضى ، الا اذا حدث امر خطير يهدد سلامتها او سلامة العراق ويعرض الدولة ومؤسساتها ورجالها الى الخطر فعندئذ يتدخل موظف اخر اعلى مرتبة منه في دار الخلافة العباسية هو الشحنة[٤٠] .

وكان صاحب الامن في الدولة العباسية في عصورها الاخيرة يشرف بنفسه احياناً على استرجاع حالة الامن وسيادة الاستقرار وكف المفسدين والعابثين وتشتيت العوام والقضاء على شغبهم ، فأن لم يتمكن من قمعها تداركه الشحنة حتى تسكن الفتنة[٤١] .

(٣٥) المصدر نفسه ص ١٣٢

(٣٦) مجهول الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص ٦٣٨

(٣٧) يذكر المؤرخ انه حمل على الطرفين المتنازعين ونادى (ياهاشم اي انه كان يستنجد بامجاد العباسيين وسطوتهم الجامع المختصر ، عنوان التواريخ ص ١٢٠ هامش رقم (١))

(٣٨) ابن الساعي ، المصدر نفسه ص ١٤٧

(٣٩) الذيل على طبقات الحنابلة (القاهرة - ١٩٥٣) ج ٢ ص ١٨١

(٤٠) د . بدري محمد فهد تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ١٧٣

(٤١) ابن الساعي - الجامع المختصر ج ٩ ص ١٤٨

(٤٢) وهو الحاكم العسكري ببغداد والشحنكية وظيفة الشحنة ، وتركيبا عربي تركي لان اصلها شحنجيه ، وقال المتريزى ان الشحنة هو محافظ المدينة او نائب الملك او رئيس الشرطة ومنصب الشحنه في عهد العباسيين الاواخر حاكم بغداد العراق معا (السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٥ هامش رقم (١)) .

مصادر البحث

رتبت المصادر بحسب ورودها في البحث

الكازروني ، ظهير الدين ابو الحسن علي بن محمد (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م)

١ – مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية (تحقيق كوركيس عواد ميخائيل عواد مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٢ م)

ابن الاثير ، عز الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)

٢ – الكامل في التاريخ (مصر – ١٣٤٨هـ) .

د . صبحي الصالح

٣ – النظم الاسلامية (بيروت – ١٩٧٨)

ديمومبين ، غود فروا

٤ – النظم الاسلامية (دار النسر للجامعيين بيروت ١٩٦٠م)

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) .

٥ – المقدمة (القاهرة – ١٣٢٢هـ)

ابن المعار ، ابو عبد الله محمد بن ابي المكارم (ت ٦٤٢هـ/١٢٤٤م) .

٦ – كتاب الفتوة (حققه ونشره د . مصطفى جواد و د . محمد تقي الدين الهلالي و د . عبد الحليم النجار واحمد ناجي القيسي (مكتبة المثنى بغداد ، الطبعة الاولى – ١٩٥٨) .

د . عبد المنعم ماجد

٧ – تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٧٢ ، نشر المكتبة الانكلو – مصرية)

ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)

٨ – المنتظم في تاريخ الملوك والامم (مطبعة دائرة المعارف الاسلامية – حيدر اباد الركن – الهند – ١٩٥٩م)

ابن الساعي – ابو طالب علي بن انجب تاج الدين (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٦م) .

٩ – الجامع المختصر في عنوان الواريخ وعيون السير (نسخه ونشره د . مصطفى جواد ، المطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد ١٩٣٤م/١٣٥٣هـ) .

١٠ – الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة المنسوب خطأ لابن الفوطي (تحقيق ونشر د . مصطفى جواد مطبعة الفرات – بغداد – ١٩٣٢م/١٣٥١هـ) .

د . بدري محمد فهد

١١ – تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير (٥٥٢ – ٦٥٦هـ/١١٥٧ – ١٢٥٨م) .

(مطبعة الارشاد – بغداد – ١٩٧٣)

سبط ابن الجوزي ، شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزاو علي ابن عبد الله البغدادي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) .

١٢ – مرآة الزمان (الطبعة الاولى ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الركن – الهند – ١٣٧٠هـ) .

ابن الدبيثي ، محمد بن سعيد بن محمد (ت ٦٣٧هـ/١٢٣٩م)

١٣ – التاريخ المذيل به على تاريخ ابن السمعاني (نسخة مصورة غير كاملة في المكتبة المركزية بغداد رقم ١٥٧) .

ابن رجب ، زين الدين عبد الرحمن بن شهاب الدين (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٢م)

١٤ – الذيل على طبقات الحنابله (القاهرة – ١٩٥٣)

المقريزي – تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)

١٥ – السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق محمد مصطفى زيادة (مطبعة دار الكتب المصرية ولجنة التأليف والنشر ١٩٣٤ – ١٩٥٨م)

مُحَمّد بن رَافِع السّلَامِي

٧٠٤ ـ ٧٧٤ هـ

سِيرَتُه ومُؤلفَاتُه

صالح مهدي عباس

مركز احياء التراث العلمي العربي – جامعة بغداد

الفصل الأول

سيرته

اولاً : تحليل موارد دراسة ابن رافع

هو تقي الدين أبو المعالي محمد بن رافع بن هجرس[١] بن محمد بن شافع بن محمد بن نعمة[٢] بن فتيان بن منير بن كعب السلامي[٣] الصميدي[٤] الحوراني[٥] الأصل، المصري المولد والمنشأ، الدمشقي الشافعي.

ترجم له جملة من المؤرخين تراجم تتفاوت في طولها وقصرها وتتباين في نوعية المعلومات التي أوردتها، ونجد بين من ترجم له شيوخه ورفاقه في طلب العلم وتلامذته وهلم جراً الى أزمنةٍ متأخرة. فقد ترجم له من معاصريه: شمس الدين الذهبي[٦] «ت ٧٤٨هـ» وصلاح الدين الصفدي[٧] «ت ٧٦٤هـ»، وشمس الدين الحسيني[٨] «ت ٧٦٥هـ». وولي الدين العراقي[٩] «ت ٨٢٦هـ»، وشمس الدين ابن الجزري[١٠] «ت ٨٣٣هـ».

وترجم له من بعد عصره جماعة منهم: تقي الدين المقريزي[١١] «ت ٨٤٥هـ»، وتقي الدين ابن قاضي شهبة[١٢] «ت ٨٥١هـ»، وشهاب الدين ابن حجر العسقلاني[١٣] «ت ٨٥٢هـ»، وجمال الدين ابن تغري بردي[١٤] «ت ٨٧٤هـ»، وقطب الدين الخيضري[١٥] «ت ٨٩٤هـ»، وسبط ابن حجر[١٦] «ت ٨٩٩هـ»، وشمس الدين السخاوي[١٧] «ت ٩٠٢هـ»، وجلال الدين السيوطي[١٨] «ت ٩١١هـ»، وأبو المفاخر النعيمي[١٩] «ت ٩٢٧هـ» وابن العماد

(١) بعض مصادر ترجمته تذكره بكنيته «أبي محمد» دون اسمه. وهجرس: بكسر الهاء والراء بينهما جيم ساكنة ثم سين مهملة. (الدرر الكامنة ٢٨٣/٢).

(٢) انفرد ابن حجر في الدرر الكامنة ٥٩/٤ بذكر نسب أوفى لابن رافع فزاد على مصادر ترجمته بما ابتناه: «... بن نعمة بن فتيان بن منير بن كعب».

(٣) نسبة الى قبيلة بني سلاّم. (غاية النهاية ١٣٩/٢، وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/الورقة ١٠٧ ب).

(٤) بضم الصاد المهملة وفتح الميم وتخفيفها واسكان التحتية، نسبة الى قرية من قرى حوران. (ذيل تذكرة الحفاظ: ٥٢ الهامش ٤، وذيل العبر لأبي زرعة الورقة ٧٢أ، ووجيز الكلام الورقة ٣٨أ).

(٥) نسبة الى حوران: وهي كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة، ذات قرى كثيرة ومزارع، وقصبتها بُصرى، (معجم البلدان ٣٥٨/٢).

(٦) معجم شيوخ الذهبي، ٢/الورقة ١٥٨ أ.

(٧) الوافي بالوفيات: ٦٨/٣-٦٩.

(٨) ذيل تذكرة الحفاظ: ٥٢-٥٤.

(٩) ذيل العبر، الورقة ٧٢أ-ب.

(١٠) غاية النهاية في طبقات القراء: ١٣٩/٢ – ١٤٠.

(١١) السلوك: ٣/القسم ١ /٢٠٩.

(١٢) تاريخه، ١/الورقة ٢١٥ب-٢٠٦أ، وطبقات الشافعية له، الورقة ١٢٧ ب - ١٢٩أ.

(١٣) انباء الغمر بأبناء العمر: ٤٧/١-٤٩، والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ٥٩/٤-٦٠.

(١٤) النجوم الزاهرة: ١٢٤/١١.

(١٥) اللمع الألمعية لأعيان الشافعية، الورقة ١١٣ أ - ب.

(١٦) رونق الألفاظ بمعجم الحفاظ، الورقة ٦٩ أ-ب.

(١٧) وجيز الكلام، الورقة ٣٨أ، والاعلان بالتوبيخ: ٢٢٣-٢٢٤ وغيرها.

(١٨) ذيل طبقات الحفاظ: ٣٦٦

(١٩) الدارس في تاريخ المدارس: ٩٤/١-٩٥و ٩٨ و ١١٣.

الحنبلي[٢٠] «ت ١٠٨٩هـ» .

وترجم له من المعاصرين عبدالحي الكتاني الفاسي[٢١] ، والمستشرق بروكلمان[٢٢] ، وعباس العزاوي[٢٣] ، وخيرالدين الزركلي[٢٤] وصلاح الدين المنجد[٢٥] ، وعمر رضا كحالة[٢٦] .

وليس في التراجم المتأخرة زيادة على ماورد في المصادر المعاصرة التي ترجمت له . الا اننا لاحظنا أهمية ترجمة شمس الدين الذهبي له في «معجم شيوخه الكبير» التي تدل على نبوغه منذ فترة مبكرة ، حيث ان الذهبي قد ألف هذا «المعجم» وكان ابن رافع في الثالثة والعشرين من عمره[٢٧] . فأخذ عنه هذا المؤرخ العظيم وادرجه ضمن شيوخه .

وأشارت ترجمة رفيقه صلاح الدين الصفدي الى رحلاته ، واهتمام العلامه تقي الدين علي بن عبدالكافي السبكي به ، واعطائه الوظائف العلمية ، وتوليه لبعض المدارس .

وانفرد رفيقه شمس الدين الحسيني بذكر رحلته الى الحج سنة اثنتين وخمسين وسبع مئة ، وتحديثه هناك . كما ذكر توليه لمشيخة النورية ، والعزية ، والزاوية الفاضلية .

أما ترجمة تلميذه الحافظ ولي الدين أحمد بن عبدالرحيم العراقي فقد انفردت بذكر نسبته ، وتخرجه بالقطب الحلبي[٢٨] ، وأبي الفتح ابن سيد الناس[٢٩] ، وانفردت كذلك بذكر تاريخ وفاته . وهو أول المصادر التي ذكرت كتاب «الوفيات» لابن رافع .

وأما ترجمة تلميذه شمس الدين ابن الجزري في كتابه «غاية النهاية في طبقات القراء» فان لها أهميتها الة ، وذلك لتخصص الكتاب بالذين عُنوا بالقراءات وروايتها ودراستها . وقد أشار ابن الجزري الى سماع ابن رافع «الشاطبية»[٣٠] و «الرائية»[٣١] من بعض شيوخه وتحديثه بهذين الكتابين ، وسماع ابن الجزري لهما عليه .

وتقدم تراجم المعاصرين اضافة لما ذكرنا تقويماً لمكانة ابن رافع العلمية ، اشترك في هذا التقويم شيوخه ورفاقه وتلامذته .

أما تراجم الذين جاءوا بعده فتتأتى قيمتها من نقلها عن كتب معاصرة لم تصل الينا ، فقد نقل ابن قاضي شهبة[٣٢] ، وابن حجر العسقلاني[٣٣] وقطب الدين الخيضري[٣٤] ، وسبط ابن حجر[٣٥] ، والنعيمي[٣٦] ، وابن العماد الحنبلي[٣٧] من كتاب «المعجم المختص بمحدثي العصر» لشمس الدين الذهبي الذي يعد من أوسع المصادر التي ترجمت لأبن رافع .

ونقل لنا أيضاً ابن حجر العسقلاني ، وقطب الدين الخيضري ، وابن العماد الحنبلي قول ابن حبيب[٣٨] الدمشقي الحلبي في ابن رافع والثناء عليه والاشادة بمكانته العلمية . كما نقل ابن قاضي شهبة ، وابن حجر العسقلاني ، وقطب الدين الخيضري ، وسبط ابن حجر ، والنعيمي وابن العماد الحنبلي قول أحمد[٣٩] بن حجي – تلميذ ابن رافع وصاحبه ، الذي أشاد بأبن رافع واتقانه وتضلعه بفن الحديث .

ان المعلومات التي قدمتها هذه المصادر المتأخرة – عن عصر ابن رافع – تدل على مكانته العلمية المرموقة واستمرار قيمة انتاجه العلمي بعد وفاته .

ومن البديهي ان تدوين سيرة اي عالم من العلماء تنصب بالدرجة

(٢٠) شذرات الذهب : ٦/٢٣٤-٢٣٥

(٢١) فهرس الفهارس : ١/٣٢٩ – ٣٣٠

(٢٢) Brock . G2, 33. S: 2, 30

(٢٣) التعريف بالمؤرخين : ١/٢٠٠-٢٠١ ، ومقدمة كتاب منتخب المختار لابن رافع .

(٢٤) الاعلام : ٦/١٢٤ ، وترجمة ثانية باسم محمد بن هجرس بن رافع سهواً منه : ٧/١٣١ .

(٢٥) المؤرخون الدمشقيون : ٥٧ ، ومقدمة كتاب ذيل مشتبه النسبة لابن رافع .

(٢٦) معجم المؤلفين : ٩/٣٠٦ .

(٢٧) تشير نسخة مكتبة أحمد الثالث ذات الرقم ٤٦٢ من معجم شيوخ الذهبي الكبير ، الى أن الذهبي أنهاه في أول صفر سنة ٧٢٧هـ .

(٢٨) قطب الدين أبو محمد عبدالكريم بن محمد بن عبدالنور بن منير الحلبي المتوفى سنة ٧٣٥هـ (ذيل العبر للذهبي : ١٨٦ –١٨٧ ، ومرآة الجنان : ٤/٢٩١-٢٩٢ ، والدرر الكامنة : ٣/١٢-١٣) .

(٢٩) الحافظ فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد ابن سيد الناس اليعمري الاندلسي المصري المتوفى سنة ٧٣٤هـ (الوافي بالوفيات : ١/٢٨٩ ، والبداية والنهاية : ١٤/١٩٦ ، والدرر الكامنة : ٤/٣٣١) .

(٣٠) هي «حرز الأماني ووجه التهاني» في القراءات ، من تصنيف الشيخ أبي محمد القاسم الشاطبي الضرير المتوفى سنة ٥٩٠هـ (كشف الظنون : ١/٦٤٦ ، ومعجم المطبوعات : ١٠٩٢) .

(٣١) وهي : عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد ، منظومة رائية في رسم المصحف الشريف ، تأليف الشيخ أبي محمد القاسم بن فيرة الشاطبي المتوفى سنة ٥٩٠هـ «كشف الظنون ٢/١١٥٩» .

(٣٢) تاريخه ، ١/الورقة ٢١٦ أ ، وطبقات الشافعية له ، الورقة ١٢٩أ .

(٣٣) انباء الغمر : ١/٤٨-٤٩ ، والدرر الكامنة : ٤/٦٠

(٣٤) اللمع الألمعية الورقة ١١٣ أ–ب

(٣٥) رونق الألفاظ الورقة ٦٩ أ–ب .

(٣٦) الدارس : ١/٩٥ .

(٣٧) شذرات الذهب : ٦/٢٣٤-٢٣٥ .

(٣٨) هو بدر الدين أبو محمد الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب الدمشقي الحلبي المتوفى سنة ٧٧٩هـ ، صاحب التصانيف المفيدة : تذكرة النبية في ايام المنصور وبنيه ودرة الاسلاك في دولة الاتراك ، وغيرهما : (ذيل العبر لأبي زُرعة ، الورقة ١٠٢ب ، وتاريخ ابن قاضي شهبة ، الورقة ٢٤٩ ب ، والبدر الطالع : ١/٢٠٥) .

(٣٩) هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجي بن موسى بن أحمد الحسباني الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ٨١٦هـ ، وهو من تلامذة ابن رافع . (انباء الغمر : ٧/١٢١-١٢٤ – ط الهندية – والضوء اللامع : ١/٢٦٩ ، وشذرات الذهب ٧/١١٦-١١٨) .

الأولى على دراسة آثار صاحب تلك السيرة وماخلفه من مصنفات لاسيما عندما يكون ظاهر الشخصية في مؤلفاته من جهةٍ ويتناول عصره الذي عاش فيه وشاهده من جهة أخرى. لذلك فقد عُنينا العناية التامة بكتاب «الوفيات» لأبن رافع الذي توفر فيه هذان الشرطان، واستنبطنا منه كل ما اتصل بسيرته منذ نشأته الى حين وفاته، فتكونت لنا بذلك ترجمة جديدة متكاملة لم نُسبق اليها.

ثانياً: مولده ونشأته:

كانت بلاد الشام منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري تعيش في ظل دولة المماليك البحرية التي قامت على انقاض الدولة الأيوبية وأصبحت من أعظم مراكز القوى في العالم الاسلامي بسبب قدرتها على ايقاف التقدم المغولي المدمر الذي قضى على الخلافة العباسية ببغداد، وأصبحت الشام مركزاً عظيماً من مراكز الحركة الفكرية، فيها من المدارس العامرة ودور القرآن والحديث العدد الكثير[40].

وكانت العناية بالدراسات الدينية من تفسير وحديث وفقه وعقائد ومايتصل بها من علوم العربية هي السمة البارزة لهذا العصر، فانتجت هذه الحركة أكلها في القرن الثامن الهجري الذي تبوأت فيه دمشق السيادة العلمية والفكرية في جميع انحاء العالم الاسلامي بما انتجت من تراث فكري وأنجبت من علماء بارزين في هذه الميادين[41]. فقد لاحظنا في هذا العصر ظهور مجموعة من العلماء البارزين في جملة من العلوم والاداب والفنون نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: تقي الدين ابن دقيق العيد «ت ٧٠٢هـ»، وجمال الدين ابن منظور الانصاري» ت ٧١١هـ، وتقي الدين ابن تيمية الحراني «ت ٧٢٨هـ»، وعلم الدين البرزالي «ت ٧٣٩هـ»، وشمس الدين الجزري «ت ٧٣٩هـ»، وجمال الدين أبو الحجاج المزي «ت ٧٤٢هـ»، وشيخ النحاة أبو حيان الأندلسي «ت ٧٤٥هـ» وشمس الدين الذهبي «ت ٧٤٨هـ»، وتقي الدين السبكي «ت ٧٥٦هـ»، وعلاء الدين مغلطاي البكجري الحنفيّ «ت ٧٦٢هـ»، وابن شاكر الكتبي الدمشقي «ت ٧٦٤هـ»، وصلاح الدين الصفدي «ت ٧٦٤هـ» وتاج الدين السبكي «ت ٧٧١هـ»، وابن رافع السلاّميّ «ت ٧٧٤هـ»، وعماد الدين ابن كثير الدمشقي «ت ٧٧٤هـ» وغيرهم ممن عرفوا بسعة انتاجهم واصالته ممن أسهموا في اغناء التراث الحضاري.

في هذه البيئة الحضارية المتوقدة ولد تقي الدين محمد بن رافع في ذي القعدة[42] سنة أربع وسبع مئة بمصر في أكناف عائلة علمية نبغ فيها غير واحد من العلماء والحفاظ والمحدثين فوالده جمال الدين رافع[43] بن هجرس ممن عني بالحديث والقراءات والعربية. وكان مقرئاً محدثاً. أعاد ودرس ببعض المدارس. وتوفي في ذي الحجة سنة ثماني عشرة وسبعمائة. ووالدته خديجة[44] بنت علي بن عبدالله الحلبية، ممن سمعت على الابرقوهي[45]، وحدثت بالقاهرة ودمشق وتوفيت سنة ٧٥١هـ.

وعمه ناصر الدين نصرالله[46] بن هجرس المتوفى سنة ثلاثين وسبع مئة، كان من المحدثين أيضاً هو وأولاده: محمد[47] وعائشة[48]، وفاطمة[49]. أما ابن عمه جمال الدين شافع[50] بن محمد بن هجرس، وولده علي[51] فلا يختلف شأنهما عن شأن سابقيهم من السماع والتحديث. وابن عمه جمال الدين همام[52] بن منبه بن هجرس، ممن سمع بمصر والشام، وحدث، وتنزل بالمدارس، حتى وافته منيته سنة ٧٤٩هـ.

فلا غرابة بعد ذلك أن تجد هذه العائلة تعنى به منذ الصغر، وتهيء الفرص أمامه لطلب العلم. والظاهر أن والده قد استجاز له جملة من متعيني رواة ومشايخ ذلك العصر بمصر والشام منهم: الحافظ شرف[53]

---

(٤٠) انظر عن مدارس الشام ودور الحديث والقران فيها «الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، وكتاب دور القرآن في دمشق، له أيضاً».

(٤١) الذهبي ومنهجه: ٧٥

(٤٢) أورد ابن قاضي شهبة في طبقات الشافعية، الورقة ١٢٧ب، وابن حجر في الدرر الكامنة ٥٩/٤ رواية تمريضية أخرى تشير الى أن ولادته في ذي الحجة من السنة، ولم يتابعهما أحد عليها، كما لم يذكراها في كتابيهما «التاريخ» و «انباء الغمر»

(٤٣) ترجمته في: غاية النهاية: ٢٨٢/١، تاريخ البرزالي، ٢/الورقة ٢٩٣أ، ومنتخب معجم شيوخ ابن رافع، الترجمة ١٧٠.

(٤٤) ترجمتها في: وفيات ابن رافع الترجمة ٦٢٢ (١٣٣/٢).

(٤٥) ابوالمعالي أحمد بن اسحاق بن محمد بن المؤيد الابرقوهي، المصري المتوفى سنة ٧٠١هـ (منتخب المختار: ٢٠-٢٣، ومستفاد الرحلة والاغتراب: ١٤٩ - ١٩٣، وبرنامج الوادي آشي: ١٠٠ - ١٠٢)

(٤٦) ترجمته في: معجم شيوخ الذهبي، ٢/الورقة ٢٠٥أ، ومنتخب معجم شيوخ ابن رافع، الترجمة ٣٧٩، والدرر الكامنة: ١٦٤/٥.

(٤٧) ترجمته في: وفيات ابن رافع: ٣١٨/٢ (الترجمة ٨٥٠)، وذيل العبر لأبي زُرعة، الورقة ٤١ ب، والدرر الكامنة: ٤٥/٥.

(٤٨) ترجمتها في: وفيات ابن رافع: ٢٣٨/٢ (الترجمة ٧٥٣)، وتاريخ ابن قاضي شهبة، ١/الورقة ١٦٢ب، ولحظ الالحاظ: ١٣١.

(٤٩) ترجمتها في: وفيات ابن رافع: ٣٩٧/٢ (الترجمة ٩٤٤)، وذيل العبر لأبي زُرعة، الورقة ٧٠ ب، وانباء الغمر: ٤٦/١. ومنتخب معجم شيوخ ابن رافع، الترجمة ١٨٩، والدرر الكامنة: ٢٨٣/٢-٢٨٤.

(٥١) ترجمته في: وفيات ابن رافع: ٣٥٨/٢ (الترجمة ٨٩٨)، وذيل العبر لابي زرعة، الورقة ٥٨ب، والدرر الكامنة: ١٢٥/٣.

(٥٢) ترجمته في: وفيات ابن رافع: ٧٥/٢ (الترجمة ٥٢٩)، ومنتخب معجم شيوخ ابن رافع، الترجمة ٣٨٢، وتاريخ ابن قاضي شهبة، الورقة ١٠٧ب.

(٥٣) شرف الدين أبو محمد عبدالمؤمن بن خلف بن أبي الحسن التوني الدمياطي الشافعي المتوفى سنة ٧٠٥هـ (منتخب المختار: ١٢٠ - ١٢٢، وبرنامج الوادي آشي: ١٤٨ - ١٥٠، وتذكرة النبيه: ٢٧٢/١-٢٧٣.

الدين الدمياطي[٥٤] «ت ٧٠٥هـ» والشيخة الصالحة فاطمة الأنصارية الدمشقية[٥٥] «ت ٧٠٨هـ»[٥٦]، والشيخ المقرئ عثمان[٥٧] الحمصي[٥٨] «ت ٧١٠هـ»، والشيخة العابدة فاطمة[٥٩] البطائحية[٦٠] «ت ٧١١هـ»، وغيرهم. ثم أخذ يصحبه الى مجالس السماع والتحديث فيسمع بافادة والده من عدد كبير من كبار محدثي العصر منهم: الشيخ بهاءالدين أبوالحسن[٦١] الثعلبي المصري[٦٢] «ت ٧١٠هـ»، والمسند العلم نورالدين[٦٣] أبو الحسن الثعلبي الدمشقي[٦٤] «ت ٧١٢هـ»، والشيخ المسند الخطيب نورالدين علي[٦٥] القرشي المصري[٦٦] «ت ٧١٢هـ»، والمقرئ زين‌الدين[٦٧] سبط الفقيه زيادة[٦٨] «ت ٧١٢هـ».

وفي سنة أربع عشرة وسبع مئة رحل به أبوه الى الشام فأحضره مجالس أشهر محدث في ذلك العصر جمال‌الدين أبي الحجاج المزي، الذي كانت شهرته قد طبقت الافاق فاسمعه جميع كتابه العظيم «تهذيب الكمال في أسماء الرجال[٦٩]» الذي يعد أضخم كتاب الف في رجال الكتب الستة. وأسمعه أيضاً من العلامة رشيدالدين[٧٠] ابن المعلم[٠] «ت ٧١٤هـ»، ومسند الشام سليمان[٧١] بن حمزة المقدسي «ت ٧١٥هـ»، ومسندة الوقت ست[٧٢] الوزراء التنوخية الدمشقية[٧٣] «ت ٧١٦هـ»، والمقرئ اسماعيل[٧٤] بن مكتوم القيسي[٧٥] «ت ٧١٦هـ»، والشيخ أبي[٧٦] بكر بن احمد المقدسي[٧٧] «ت ٧١٨هـ»،

(٥٤) ذيل التذكرة: ٥٢، وغاية النهاية: ١٣٩/٢، وتاريخ ابن قاضي شهبة، ١/الورقة ٢١٥ب، وطبقات الشافعية له، الورقة ١٢٧ب، وانباء الغمر: ٤٧/١، والدرر الكامنة: ٥٩/٤، وذيل طبقات الحفاظ: ٣٦٦، والدارس: ١/ ٩٤، وشذرات الذهب: ٢٣٤/٦، وغيرها من المصادر التي ترجمت لابن رافع.

(٥٥) الشيخة فاطمة بنت سليمان بن عبدالكريم بن عبدالرحمن الأنصارية الدمشقية المتوفاة سنة ٧٠٨هـ (تاريخ البرزالي، ٢/الورقة ١٣١أ، ومعجم شيوخ الذهبي، ٢/الورقة ١٣٥، وتذكرة الحفاظ: ١٤٨٥/٤).

(٥٦) الدرر الكامنة: ٥٩/٤، وورنق الألفاظ، الورقة ٦٩أ.

(٥٧) أبو عمرو عثمان بن ابراهيم بن أبي علي بن عبدالله الحمصي المقرئ المتوفى سنة ٧١٠هـ (تاريخ البرزالي، ٢/الورقة ١٦١أ، ومعجم شيوخ الذهبي، ١/الورقة ١٠٥ب، ومنتخب معجم شيوخ ابن رافع، الترجمة ٢٩١).

(٥٨) الدرر الكامنة: ٥٩/٤، وورنق الألفاظ، الورقة ٦٩أ وتحرف فيه الى عمر الحمصي.

(٥٩) الشيخة الصالحة فاطمة بنت ابراهيم بن محمود بن جوهر البطائحية البعلية المتوفاة سنة ٧١١هـ (ذيل العبر للذهبي: ٦٠، والدارس: ٩٠/٢، ودرة الحجال: ٢٦٤/٣).

(٦٠) الدرر الكامنة: ٥٩/٤، واللمع الألمعية، الورقة ١١٣ب، وورنق الألفاظ، الورقة ٦٩ ب.

(٦١) الشيخ بهاءالدين أبوالحسن علي بن عيسى بن سليمان بن رمضان الثعلبي المعروف بابن القيم المتوفى سنة ٧١٠هـ (تاريخ البرزالي، ٢ / الورقة ١٦٦ ب، ومستفاد الرحلة والاغتراب: ١١٢ – ١١٩، وبرنامج الوادي آشي: ١٩٠.

(٦٢) الوافي بالوفيات: ٦٨/٣، وذيل التذكرة: ٥٢، وذيل العبر لأبي زرعة، الورقة ٧٢أ، وتاريخ ابن قاضي شهبة، الورقة ٢١٥ب، وانباء الغمر: ٤٧/١، واللمع الألمعية، الورقة ١١٣ ب وغيرها من مصادر ترجمة ابن رافع.

(٦٣) نورالدين أبوالحسن علي بن محمد بن هارون الثعلبي الدمشقي المتوفى سنة ٧١٢هـ (مستفاد الرحلة والاغتراب: ١٠٨–١١٢، وبرنامج الوادي آشي: ١٥٨ – ١٥٩، وحسن المحاضرة: ٣٨٩/١).

(٦٤) انباء الغمر: ٤٨/١، واللمع الألمعية، الورقة ١١٣ب، وورنق الالفاظ، الورقة ٦٩ب.

(٦٥) نور الدين أبو الحسن علي بن نصر الله بن عمر بن عبد الواحد القرشي المصري المعروف بابن الصواف المتوفى سنة ٧١٢هـ (تاريخ البرزالي، ٢/الورقة ١٩٢ أ–ب، والسلوك: ٢/القسم ١٢١/١، وحسن المحاضرة: ٣٨٩/١).

(٦٦) ذيل العبر لأبي زرعة، الورقة ٧٢أ، وتاريخ ابن قاضي شهبة، ١/الورقة ٢١٥ب، وانباء الغمر: ٤٨/١، والدرر الكامنة: ٥٩/٤، واللمع الألمعية، الورقة ١١٣ب، وورنق الألفاظ: الورقة ٦٩أ.

(٦٧) الشيخ المقرئ زين‌الدين أبو محمد الحسن بن عبدالكريم بن عبدالسلام بن فتح الغماري المغربي المعروف سبط زيادة المتوفى سنة ٧١٢هـ (تاريخ البرزالي، ٢/الورقة ١٩٥ ب – ١٩٦أ، ومعرفة القراء الكبار: ٥٨٥/٢، وغاية النهاية. ٢١٧/١).

(٦٨) الوافي بالوفيات: ٦٨/٣، وغاية النهاية: ١٣٩/٢، وتاريخ ابن قاضي شهبة، ١/الورقة ٢١٥ب، واللمع الألمعية الورقة ١١٣ أ، وورنق الألفاظ، الورقة ٦٩ أ، وغيرها من مصادر ترجمة ابن رافع.

(٦٩) هو من تأليف الحافظ المتقن جمال‌الدين أبي الحجاج يوسف بن عبدالرحمن بن يوسف المزي المتوفى سنة ٧٤٢هـ، ويقع هذا الكتاب في مئتين وخمسين جزءاً، ويقوم الدكتور بشار عواد معروف بتحقيقه. وقد صدر منه الى الآن ثلاث مجلدات عن مؤسسة الرسالة في بيروت.

(٧٠) الشيخ العالم رشيد الدين اسماعيل بن عثمان بن محمد بن عبدالكريم الحنفي المعروف بابن المعلم المتوفى سنة ٧١٤هـ (منتخب معجم شيوخ ابن رافع، الترجمة ١٢٧، والجواهر المضية: ١٥٤/١، وكتائب أعلام الأخيار، الورقة ٢٦٥ أ–ب)

(٠) غاية النهاية: ١٣٩/٢، واللمع الألمعية، الورقة ١١٣ب، وورنق الألفاظ، الورقة ٦٩

(٧١) مسند الشام تقي الدين أبو الفضل سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر بن قدامة المقدسي الصالحي الحنبلي المتوفى سنة ٧١٥هـ (منتخب معجم شيوخ ابن رافع، الترجمة ١٧٩، والذيل على طبقات الحنابلة: ٣٦٤/٢، والقلائد الجوهرية: ١٥٩/١ – ١٦٠). وقد ذكرت معظم مصادر ترجمة ابن رافع سماعه منه.

(٧٢) الشيخة المسندة ست الوزراء أم عبدالله وزيرة بنت عمر بن أسعد بن المنجى التنوخية الدمشقية الحنبلية المتوفاة سنة ٧١٦هـ (ذيل العبر للذهبي: ٨٨، والبداية والنهاية: ٧٩/١٤، والذيل على طبقات الحنابلة: ٤٦٩/٢).

(٧٣) تاريخ ابن قاضي شهبة، ١/الورقة ٢١٥ ب، وانباء الغمر: ٤٧/١، واللمع الألمعية، الورقة ١١٣ب، وورنق الألفاظ، الورقة ٦٩ أ.

(٧٤) صدر الدين أبو الفداء اسماعيل بن يوسف بن مكتوم القيسي الدمشقي المتوفى سنة ٧١٦هـ (تاريخ البرزالي، ٢ الورقة ٢٥١ ب – ٢٥٢ أ، ومعجم شيوخ الذهبي، ١/ الورقة ٤٣ ب، ومعرفة القراء الكبار: ٥٨٥/٢).

(٧٥) تاريخ ابن قاضي شهبة، ١/الورقة ٢١٥ ب، وانباء الغمر: ٤٧/١، واللمع الألمعية، الورقة ١١٣ب، وورنق الألفاظ، الورقة ٦٩ ب.

(٧٦) مسند الوقت الشيخ أبوبكر بن أحمد بن عبدالدائم بن نعمة المقدسي الصالحي المتوفى سنة ٧١٨هـ (مرآة الجنان: ٢٥٨/٤، والنجوم الزاهرة: ٢٤٢/٩، ودرة الحجال: ٢٢١/١).

(٧٧) اشارت معظم المصادر التي ترجمت لابن رافع الى سماعه منه.

وشرف الدين عيسى[٧٨] المعظم الصالحي[٧٩] «ت ٧١٩هـ» ، والشيخ عمادالدين[٨٠] الجرائدي الانصاري[٨١] «ت ٧٢٠هـ» . ثم رجع به أبوه الى مصر . على أن المنية لم تلبث ان اختطفت والده في سنة ثماني عشرة وسبعمائة ، فترك ولده صبياً لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره . وبذلك ذاق ابن رافع مرارة اليتم ، وتسكت جميع المصادر التي ترجمت لأبن رافع عمن تكفله بعد وفاة أبيه ، والذي نراه أنه تحمل بنفسه تبعات أموره وهو لم يزل صبياً صغيراً .

وقد استمر ابن رافع في العناية بهذا الشأن فطلب بنفسه في حدود سنة احدى وعشرين وسبعمائة ، فحضر مجالس العلم والعلماء واخذ عنهم ، ولازم اثنين من عظماء العلماء في ذلك الوقت ، وتخرج بهما في علم الحديث ، الأول : قطب الدين عبدالكريم بن عبدالنور بن منير بن عبدالكريم الحلبي ثم المصري[٠] «ت ٧٣٥هـ» هو الحافظ المشهور والمؤرخ الثبت ، صاحب التصانيف النافعة ، ذكره الذهبي[٨٢] فقال : «صنف ، وخرج ، وأفاد . مع الصيانة ، والديانة والأمانة والتواضع والعلم ولزوم الاشتغال والتأليف» . والثاني : فتح الدين محمد بن محمد بن أحمد اليعمري ابن سيد الناس[٠] «ت ٧٣٤هـ» الحافظ العلامة المتفنن والأديب البارع ممن ذاع صيته واشتهر اسمه . قال فيه البرزالي[٨٣] :

كان أحد الاعيان معرفة واتقاناً وحفظاً للحديث ، وتفهماً في علله واسانيده عالماً بصحيحه وسقيمه مستحضراً للسيرة ، له حظ من العربية ، حسن التصنيف . . .» .

ثالثاً : رحلاته وشيوخه :

فلما استكمل ابن رافع شيوخ مصره تاقت نفسه الى الرحلة في طلب العلم والاستزادة منه وتحصيل علو الاسناد وقدم السماع ولقاء الحفاظ والمذاكرة لهم والاستفادة عنهم ، فرحل بنفسه الى الديار المقدسة لاداء فريضة الحج[٨٤] والسماع في تلك البلاد فسمع هناك على جماعة من الرواة[٨٥] وعرج بعد منصرفه من الحج الى دمشق فقدمها في سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة[٨٦] ، وسمع بها من مسند الشام بهاالدين[٨٧] ابن عساكر[٨٨] «ت ٧٢٣هـ» ، ومسند الوقت شمس الدين محمد[٨٩] ابن هبة الله الشيرازي[٩٠] «ت ٧٢٣هـ» ، وشيخ القراء تقي الدين[٩١] ابن الصائغ[٩٢] «ت ٧٢٥هـ» ، ومسند الدنيا أحمد[٩٣] بن أبي طالب الحجار[٩٤] «ت ٧٣٠هـ» . ثم عاد الى مصر .

ولما كانت دمشق من أعظم مراكز الحركة الفكرية في ذلك الوقت فقد تاقت نفسه الى العودة اليها في العام القابل وهي سنة أربع وعشرين وسبعمائة[٩٥] فكانت هذه هي رحلته الثالثة . وفيها أعاد سماعه[٩٦] من

(٧٨) شرف الدين أبو محمد عيسى بن عبدالرحمن بن معالي المقدسي الصالحي المطعم المتوفى سنة ٧١٩هـ (تاريخ البرزالي . ٢/الورقة ٣١٧ أ -- ٣١٨ أ . ومنتخب المختار ١٦٢-١٦٣ ، البداية والنهاية : ٩٥/١٤) .

(٧٩) ذيل العبر لأبي زرعة . الورقة ٧٢أ . وتاريخ ابن قاضي شهبة . ١/ الورقة ٢١٥ب . وانباء الغمر : ٤٧/٦ . واللمع الألمعية . الورقة ١١٣ب . وورنق الألفاظ . الورقة ٦٩ب .

(٨٠) الشيخ المقرئ عمادالدين محمد بن يعقوب بن بدران بن منصور الجرائدي الانصاري الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٠هـ .

(تاريخ البرزالي ، ٢/الورقة ٣٤٠ أ ب . ومعرفة القراء الكبار : ٥٨٦/٢ . وغاية النهاية : ٢٨١/٢) .

(٨١) غاية النهاية : ١٣٩/٢ .

(٠) ذيل العبر لأبي زرعة . الورقة ٧٢أ . وتاريخ ابن قاضي شهبة . ١/ الورقة ٢١٥ب . وطبقات الشافعية له . الورقة ١٢٧ب . وانباء الغمر . ٤٨/١ . واللمع الألمعية . الورقة ١١٣ب ، وورنق الالفاظ . الورقة ٦٩ب . وغيرها من مصادر ترجمة ابن رافع .

(٨٢) ذيل العبر : ١٨٧

(٠) نفس مصادر هامش قطب الدين الحلبي .

(٨٣) الدرر الكامنة : ٣٣١/٤ .

(٨٤) معجم شيوخ الذهبي ، ٢/الورقة ١٥٨أ . والوافي بالوفيات : ٦٨/٣ ، وذيل التذكرة : ٥٢ ، والدرر الكامنة : ٦٠/٤ .

(٨٥) ذيل التذكرة : ٥٢ ، وغاية النهاية : ١٣٩/٢ ، والنجوم الزاهرة : ١٢٤/١١ .

(٨٦) الوافي بالوفيات : ٦٨/٣ ، وذيل التذكرة : ٥٢ ، وذيل العبر لأبي زرعة . الورقة ٧٢ أ ، والدرر الكامنة : ٦٠/٤ .

(٨٧) مسند الشام بهاءالدين القاسم بن ابي غالب المظفر بن محمود بن عساكر الطبيب المتوفى سنة ٧٢٣هـ (ذيل العبر للذهبي : ١٣٠ ، والبداية والنهاية : ١٠٨/١٤ ، ومعجم الأطباء : ٣٤٢ - ٣٤٣) .

(٨٨) تاريخ ابن قاضي شهبة ، ١ الورقة ٢١٥ ب . وانباء الغمر : ٤٨/١ ، واللمع الألمعية ، الورقة ١١٣ ب . وورنق الالفاظ . الورقة ٦٩ ب .

(٨٩) العالم المسند شمس الدين ابو نصر محمد بن محمد بن محمد بن هبة الله بن نميل الشيرازي الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٣هـ (الوافي بالوفيات : ٢٨٥/١ . وبرنامج الوادي آشي . ٨٢-٨٣ . ودرة الحجال : ٢٥٥/٢-٢٥٦) .

(٩٠) مصادر الهامش ٨٨ نفسه .

(٩١) شيخ القراء تقي الدين محمد بن أحمد عبدالخالق بن علي ابن الصائغ المصري المتوفى سنة ٧٢٥هـ (طبقات الشافعية للاسنوي : ١٤٧/٢ . والسلوك ٢/القسم ١ / ٢٧٠ . وحسن المحاضرة : ٥٠٨/١) .

(٩٢) غاية النهاية : ١٣٩/٢ . ووفيات ابن رافع : ٢٩٣/٢-٢٩٤ (الترجمة ٨٢٤) .

(٩٣) مسند الدنيا شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب بن نعمة بن حسن ابن الشحنة الصالحي الحجار المتوفى سنة ٧٣٠هـ (معجم شيوخ الذهبي . ١ /الورقة ٢٣أ . وتاريخ ابن الوردي : ٤١٧/٢ . والقلائد الجوهرية : ٤١٢/٢-٤١٤) .

(٩٤) وفيات ابن رافع : ٣٢٤/٢-٣٢٥ (الترجمة ٨٥٧) . وتاريخ ابن قاضي شهبة ، ١/الورقة ٢١٥ ب ، وانباء الغمر : ٤٨/١ . واللمع الألمعية ، الورقة ١١٣ب . وورنق الألفاظ ، الورقة ٦٩ب .

(٩٥) ذيل التذكرة : ٥٢ ، وذيل العبر لأبي زرعة . الورقة ٧٢أ ، وتاريخ أبن قاضي شهبة ، ١/الورقة ٢١٥ب ، والدرر الكامنة : ٦٠ . واللمع الألمعية ، الورقة ١١٣ ب .

المزي ، وسمع فيها على جماعة من شيوخ العصر ، منهم(٩٧) : علم الدين القاسم بن محمد البرزالي «ت ٧٣٩هـ» ، والحافظ شمس الدين محمد بن احمد الذهبي «ت ٧٤٨هـ» والظاهر أنه قد أفاد فائدة كبرى من هذه الرحلة بحيث قال الذهبي(٩٨) «ثم قدم من العام القابل فاستزاد استفادة» .

ثم عاود الرحلة اليها كرة أخرى في سنة تسع وعشرين وسبعمائة وفي هذه الرحلة لم يقتصر على دمشق ، بل رحل منها الى عدد من المراكز العلمية في بلاد الشام منها : حلب ، وحماة ، والاقسام الشمالية من بلاد الشام للسماع على شيوخها(٩٩) ، حيث يذكر ابن رافع سماعه على هؤلاء المشايخ في أثناء كتابه «الوفيات» ثم قفل راجعاً الى مصر .

وفي سنة تسع وثلاثين وسبعمائه رحل(١٠٠) ابن رافع الى دمشق صحبه القاضي تقي الدين علي بن عبدالكافي السبكي ، الذي تولى في تلك السنة قضاء القضاة بها ليستقر بها ، ويتخذها موطناً حتى وفاته .

وفي سنة اثنتين وخمسين وسبع مئة رحل ابن رافع الى الحج وهي الرحلة الثانية ، وقد ذكرها الحسيني(١٠١) فقال : «وحج عام اثنتين وخمسين ، وحدث بطريق الحجاز الشريف» . ثم حج في سنة ثلاث(١٠٢) وستين وسبعمائة .

وذكر لنا ابن رافع في كتابه «الوفيات»(١٠٣) رحلته الى الحج وتحديثه في الطريق ، ولكنه لم يحدد لنا تاريخ هذه الرحلة .

والحق ان ابن رافع لم ينقطع عن السماع طيلة حياته ، فسمع من الجم الغفير ممن دل عليهم «معجم شيوخه» الذي ذكره مترجموه بأنه زاد على ألف نفر . وقد أشار الى سماعه على الكثير منهم في اثناء ترجمته لهم أو لأبنائهم في كتابه «الوفيات»(١٠٤) .

رابعاً : وفاته وأولاده :

توفي ابن رافع في يوم الثلاثاء الثامن عشر(١٠٥) من جمادي الأولى سنة أربع وسبعين وسبعمائة ، عن سبعين(١٠٦) سنة ، بالمدرسة الشامية بظاهر دمشق ، ودفن بمقابر الصوفية قريباً من قبر الحافظ ابن الصلاح(١٠٧) .

وخلف ولدين وبنتاً واحدة ، وقد سار ابن رافع على منوال أسرته في تعليم أبنائها فاعتنى بأولاده وأحسن تربيتهم واسمعهم على الشيوخ ، وابناؤه الثلاثة كلهم محدثون ولكنهم لم يكونوا في منزلة عالية في علم الحديث . وأول هؤلاء الأبناء «أحمد» فقد ذكره والده في كتابه «الوفيات»(١٠٨) واشار الى سماعه على الشيوخ ، وحفظه لكتاب «التنبيه» لأبي اسحاق الشيرازي ، الا ان المنية اختطفته ولم يزل شاباً . والثاني : «محب الدين أبوبكر محمد»(١٠٩) وهو ممن سمع على زينب بنت الكمال ، وغيرها . وقد درس بالعزيزية بعد وفاة أبيه ، وتوفي سنة ثمانين وسبعمائة .

---

(٩٦) لقد ثبت المزي خطه بسماع جمال الدين أبي محمد رافع وولده محمد في نهاية كل جزء من أجزاء «تهذيب الكمال في اسماء الرجال» مع جماعة آخرين ، وكان القارئ هو جمال الدين رافع ، وهذا نص أحد السماعات كما وجدناه بخط المزي في نهاية الجزء السابع والستين من «تهذيب الكمال» من نسخة المؤلف التي بخطه : «سمع هذا الجزء علي بقراءة الامام جمال الدين أبي محمد رافع بن أبي محمد بن محمد بن شافع السلامي : ابنه محمد ، وعلاء الدين طيبرس بن عبدالله الفاروخي ، وبنتي زينب ، وبنت ابني خديجة بنت عبدالرحمن ، وبنت خالها آسيا بنت محمد بن ابراهيم بن صديق ، وصح ذلك في يوم الاثنين الحادي عشر من جمادي الآخرة سنة أربع عشرة وسبع مئة وكتب مصنفه يوسف المزي» .

(٩٧) ذيل العبر لأبي زرعة ، الورقة ١٧٢ أ ، وتاريخ ابن قاضي شهبة ، ١١/الورقة ٢١٥ب ، وطبقات الشافعية له ، الورقة ١٢٧ ب ، وانباء الغمر : ٤٨/١ ، واللمع الألمعية ، الورقة ١١٣ ب ، ورونق الالفاظ ، الورقة ٦٩ ب ، والدارس : ٩٤/١ وغيرها من مصادر ترجمة محمد بن رافع .

(٩٨) ذيل التذكرة : ٥٢ ، والدرر الكامنة : ٦٠/٤ .

(٩٩) الوافي بالوفيات : ٦٨/٣ ، وذيل التذكرة : ٥٢ ، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ، الورقة ١٢٧ ب ، وانباء الغمر : ٤٨/١ وقد نقل صاحبه قول الذهبي في «المعجم المختص» : ... ورحل مراراً منها في سنة تسع وعشرين الى حلب وحماة وسمع بها وبغيرها» ، والدرر الكامنة : ٦٠/٤ ، واللمع الألمعية ، الورقة ١١٣ ب ، والدارس : ٩٤/١ ، وشذرات الذهب : ٢٣٤/٦ .

(١٠٠) المصدر نفسه .

(١٠١) ذيل التذكرة : ٥٣ .

(١٠٢) لحظ الالحاظ : ٢٢٧ ضمن ترجمة الامام زين الدين عبدالرحيم بن الحسين ابن العراقي .

(١٠٣) وفيات ابن رافع : ٢٧٥/٢ (الترجمة ٧٩٦) ، و ٣١٧/٢ (الترجمة ٨٤٧)

(١٠٤) انظر على سبيل المثال لا الحصر التراجم : ١٧ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٧٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢١٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٦٨ ، ٢٧٨ ، ٢٨٧ ، ٣٣٣ ، ٣٤٠ ، ٣٤٩ ، ٣٥٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٩ ، ...

(١٠٥) اتفقت مصادر ترجمته على تاريخ وفاته هذا ، الا ان ابن حجر أورد في الدرر الكامنة : ٦٠/٤ رواية غريبة أخرى تشير الى ان وفاته في الرابع عشر من جمادي الآخرة ولم يتابعه أحدٌ عليها ، ولم يذكرها في كتابه «انباء الغمر» .

(١٠٦) في النجوم الزاهرة : ١٢٤/١١ «مات عن ستين سنة» وهو وهمٌ بين ، ولعله من أخطاء النساخ .

(١٠٧) غاية النهاية : ١٤٠/٢ ، وقد ذكر ابن قاضي شهبة في طبقات الشافعية ، الورقة ١٢٩ أ : أنه «دفن بالباب الصغير» وتابعه على قوله هذا النعيمي في «الدارس : ٩٥/١» ، وابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب : ٢٣٤/٦» . وقد خالف ابن قاضي شهبة قوله اعلاه ، فقد ذكر في تاريخه ، ١/الورقة ٢١٦ أ : انه «دفن بباب الفراديس» . ولم يتابعه أحدٌ على ذلك . ونحن نميل الى قول شمس الدين ابن الجزري في غاية النهاية لأن فيه دليلاً قائماً على صحة دعواه ، ولكونه تلميذاً لابن رافع فهو أعرف به من غيره .

(١٠٨) - ٢١٢/٢ (الترجمة ٧١٩) .

(١٠٩) ترجمته في : تاريخ ابن قاضي شهبة ، ١/الورقة ٢٥٦ ب ، وشذرات الذهب : ٢٦٦/٦ .

أما ابنته «كلثم»(١١٠) فقد سمعت من عبدالرحيم بن أبي اليسر حضوراً، وأجازت لابن حجر العسقلاني، وتوفيت في سنة خمس وثماني مائة.

مكانته العلمية

أولاً: ثقافته:

لقد بينا فيما سبق عناية ابن رافع في طلب العلم، ورحلاته المتعددة في سبيل ذلك، وملازمته لكبار الحفاظ مدة طويلة، فكان لكل ذلك أثره الواضح في تكوين شخصيته العلمية وتبوئه المكانة المميزة بين محدثي عصره في الشام في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري حتى اعتبره المؤرخون أحد أبرز حفاظ العصر وقد نال لقب «الحافظ» الذي أطلقه عليه شيخه شمس الدين الذهبي(١١١)، ومعنى هذا أنه نال هذه الرتبة التي لاتطلق الا على من أتقن هذا الفن وأوتي سعةً في معرفته، والوقوف على دقائقه.

وقد ذكره تلميذه الحسيني ضمن الحفاظ في كتابه(١١٢) الذي ذيل به على كتاب شيخه الذهبي ووصفه: «بالحافظ المتقن المفيد الرحال»، ونعته تلميذه أبوزرعة(١١٣) العراقي: «بالحافظ الرحلة»، ووصفه تلميذه الجزري(١١٤): «بالحافظ الكبير»، وذكره سبط ابن حجر في كتابه «رونق الالفاظ بمعجم الحفاظ(١١٥)» فقال: «العلامة، الفقيه، المحدث، الحافظ المتقن، المفيد، الرحال».

وكان ابن رافع «مفيداً» والمفيد(١١٦): هو الذي يفيد الناس الحديث عن المشايخ، فيكون عارفاً بهم وبعلو اسنادهم حتى اذا ماجاء الطالب دله على شيوخ ذلك البلد من ذوي الاسناد العالي ومااليهم. وقد وصفه بهذا اللقب شيخه الذهبي، وصديقه الصفدي(١١٧)، وتلميذه الحسيني، وسبط ابن حجر.

وعرف ابن رافع بالضبط والاتقان وقد وصفه بذلك شمس الدين الذهبي في كتابه «المعجم المختص» فقال فيه: «العالم المحدث، المفيد، الرحال، المتقن». ووصفه عدد من المترجمين له بذلك.

وبالاضافة الى المكانة العلمية التي تميز بها، كانت له مكانة أخرى في نفوس مترجميه فكل من ذكر ابن رافع أو ترجم له لم يجد فيه الاشيخاً فاضلاً، وزاهداً ورعاً، قد هجر الدنيا وترك ملاذها، وابتعد عن السلطان وذوي الولايات، منصرفاً الى تأليفه وعبادته، فقد وصفه صديقه الصفدي بقوله: «وهو حسن الود، جيد الصحبة، مأمون الغيب، ثقة، ضابط، دين». وأثنى عليه ابن حبيب(١١٨) وقال: «وكان لايعتني بملبس ولامأكل ولايدخل فيما أبهم عليه من أمر الدنيا أو أشكل. ويختصر الاجتماع بالناس، وعنده في طهارة ثوبه وبدنه أي وسواس». وقد أثنى عليه السخاوي(١١٩) فقال: «أفاد ودرس مع الصلاح والورع والتحري الزائد في الطهارة، وما يكتبه، والتقلل من الاجتماع بالناس، والمحاسن الجمة».

ثانياً: مناصبه التدريسية

لاشك أن المكانة العلمية المرموقة التي حازها ابن رافع بين أعيان عصره بدمشق في علم الحديث وسعة باعه في حفظه اهلته لأن يتولى مناصب التدريس في أكبر دور العلم بالشام منها مما وقفنا عليه:

١ - دار الحديث النورية(١٢٠) بدمشق: ولي التدريس(١٢١) بها بعد وفاة شيخه المزي، وقد جاء في «انباء الغمر»: «ولما توفي المزي اعطاه السبكي مشيخه الحديث النورية، وقدمه على ابن كثير وغيره».

٢ - دار الحديث الفاضلية(١٢٢): وقد باشر التدريس(١٢٣) بها بعد وفاة شيخه شمس الدين الذهبي. وكانت قد شغرت بعد وفاة الذهبي فرشحه تقي الدين السبكي للتدريس فيها. وقد ذكر ابن حجر ذلك بقوله: «ولما شغرت الفاضلية عن الذهبي قدمه (السبكي) على من سواه

(١١٠) ترجمتها في: انباء الغمر: ٢٤٩/٢، ولحظ الألحاظ ٢١٨، وشذرات الذهب: ٥٢/٧ وتصحفت فيه الى «كليم».

(١١١) ذيل العبر لابي زرعة الورقة ٧٢ ب، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة، الورقة ١٢٩ أ، والدارس: ٩٥/١ نقلاً عن كتاب الذهبي: «المعجم المختص بمحدثي العصر».

(١١٢) ذيل تذكرة الحفاظ: ٥٢.

(١١٣) ذيل العبر، الورقة ٧٢ أ

(١١٤) غاية النهاية: ١٣٩/٢

(١١٥) الورقة ٦٩ أ

(١١٦) الأنساب: ٥٣٩، واللباب: ١٦٦/٣.

(١١٧) الوافي بالوفيات: ٦٨/٣

(١١٨) انباء الغمر: ٤٨/١، واللمع الألمعية، الورقة ١١٣ ب.

(١١٩) وجيز الكلام، الورقة ٣٨ أ.

(١٢٠) أنشأها الملك العادل نورالدين أبو القاسم محمود بن أبي سعيد زنكي بن آق سنقر التركي المتوفى سنة ٥٦٩هـ. وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، وهو أول من بنى داراً للحديث بدمشق. (الدارس: ٩٩/١ - ١١٣).

(١٢١) ذيل التذكرة: ٥٣، وذيل العبر لأبي زرعة الورقة ٧٢ أ، وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/الورقة ٢١٦ أ، وطبقات الشافعية له الورقة ١٢٧ ب وانباء الغمر: ٤٩/١ واللمع الألمعية الورقة ١١٣ ب، ورونق الالفاظ، الورقة ٦٩ ب، والدارس: ١١٣/١، وشذرات الذهب: ٢٣٤/٦.

(١٢٢) أنشأها محي الدين أبوعلي عبدالرحيم بن علي بن الحسن بن الحسين القاضي الفاضل ابن القاضي الأشرف اللخمي البيساني العسقلاني المتوفى سنة ٥٩٦هـ، في الكلاسة بدمشق، وأول من درس بها تقي الدين عبدالرحمن بن أبي الفهم اليلداني «ت ٦٥٥هـ. (الدارس: ٨٩/١-٩٦).

(١٢٣) نفس مصادر دار الحديث النورية.

من المحدثين».

٣ – دار الحديث القوصية[١٢٤] قال النعيمي في كتابه الدارس في تاريخ المدارس[١٢٥] عند الكلام على القوصية مانصه : «ولم نعلم ممن ولي مشيختها سوى الشيخ علاءالدين ابن العطار وقد مرت ترجمته في دار الحديث الدوادارية ، وسوى الشيخ تقي‌الدين ابن رافع كما قاله الشهاب ابن حجي». وقد تولى التدريس بها عوضاً عن ابن رافع جمال‌الدين عبدالله[٠] بن عمر بن داود الكفري ، وهو أحد تلامذة ابن رافع .

٤ – المدرسة العزيزية[١٢٦] : تفرد بذكرها ابن العماد[١٢٧] الحنبلي عند الكلام على ترجمة ولده أبي بكر محمد فقال فيه : « وحديث ودرس بالعزيزية بعد أبيه».

٥ – المدرسة العزية[١٢٨] : وقد تفرد بذكرها الحسيني[١٢٩] فقال : « .... وولي مشيخه النورية والزاوية الفاضلية ، والعزية» .

ثالثاً : آراء العلماء فيه :

ونرى من المفيد هنا أن نورد آراء بعض العلماء في ابن رافع مما يبين مكانته العلمية بين علماء عصره منذ فترة مبكرة من حياته العلمية بالأوصاف الجميلة ، فقد وصفه تلميذه الجزري[١٣٠] فقال : «كان له يد في معرفة العالي والنازل واسماء رجال المتأخرين وضبط المؤتلف والمختلف مع الدين والثقة والصيانة ، وحسن الحظ ، وصحة الضبط» ، كما ذكره جارالله بن فهد[١٣١] بقوله : «وكان اماماً علامةً ، حافظاً ، من كبار الفقهاء مع الورع والزهد والصيانة» . وقد تابع المترجمون لأبن رافع يثنون عليه بجميل القول ويصفونه بأكرم الأوصاف ، ولم يشذ منهم أحدٌ فهذا ابن حجر[١٣٢] يصفه بقوله : « وكان ذا صلاح وورع ومعرفة

(١٢٤) تقع بالقرب من الرحبة . داخل باب شرقي أحد أبواب دمشق ، وتعرف أيضاً بالمدرسة القوصية ، وقيل أن واقفها شهاب‌الدين اسماعيل بن حامد بن عبدالرحمن الانصاري القوصي المتوفى سنة ٦٥٣هـ ، وقبره فيها . (الدارس ٩٧/١ و ٤٣٨-٤٤١) .

(١٢٥) ٩٨/١ .

(٠) تاريخ ابن قاضي شهبة ١/الورقة ١٩٨ ب . والدرر الكامنة : ٣٨٦/٢ .

(١٢٦) هي من مدارس الشافعية بدمشق لصيق الجامع الأموي (الاعلاق الخطيرة ٢٣٩ ، والدارس : ٣٨٢/١) .

(١٢٧) شذرات الذهب : ٢٦٦/٦ .

(١٢٨) هي المدرسة العزية البرانية من مدارس الحنفية بالشرف الاعلى بظاهر دمشق . (انظر : وفيات ابن رافع : ٣٩٢/٢ (الترجمة ٩٣٧) . والدارس : ٥٥٠/١) .

(١٢٩) ذيل التذكرة : ٥٣ ولم يتابع الحسيني على ذلك أحدٌ ونميل الى ان ذلك محرف عن العزيزية التي ذكرها ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب ٢٦٦/٦ في ترجمة ولده أبي بكر محمد ، ولكون هذه المدرسة حنفية يشترط الواقف عادةً أن يكون المدرس فيها حنفياً .

(١٣٠) غاية النهاية : ١٤٠/٢ .

(١٣١) ذيل التذكرة : ٥٣ الهامش .

(١٣٢) انباء الغمر : ٤٨/١ . والدرر الكامنة : ٦٠/٤ .

بالفن فائقاً ، وكان الشيخ تقي‌الدين السبكي يرجحه على العماد ابن كثير» . وأورد لنا ابن قاضي[١٣٣] شهبة عن الشيخ شهاب الدين ابن حجي مانصه : « وكان الشيخ يحكي لي عن تحريره واتقانه انه لايكتب شيئاً من المشكلات حتى يكشف عنه ويحرره ويضبطه بخطه ، قال : ولأهل مصر رغبة في الأجزاء التي بخطه لذلك» . وقال السيوطي في «ذيل طبقات الحفاظ»[١٣٤] : سئل الحافظ أبو الفضل العراقي عن أربعة تعاصروا أيهم أحفظ ؟ مغلطاي وابن كثير وابن رافع والحسيني . فأجاب – ومن خطه نقلت – «ان أوسعهم اطلاعاً وأعلمهم بالانساب مغلطاي على اغلاطٍ تقع منه في تصانيفه ولعله من سوء الفهم ، واحفظهم للمتون والتواريخ ابن كثير ، واقعدهم لطلب الحديث واعلمهم بالمؤتلف والمختلف ابن رافع ، واعرفهم بالشيوخ المتعاصرين وبالتخريج الحسيني وهو ادونهم في الحفظ» .

وهكذا تظهر لنا هذه الاقوال ، والتي نقلناها عن علماء كبار عاصروا ابن رافع أو تتلمذوا عليه ، تظهر المنزلة الرفيعة التي تبوّاها ابن رافع بين علماء عصره والتي اثمرت فيها بعد بنتاج فكري واسع لأبن رافع نلمسه في قيمة مؤلفاته التي أصبحت مصدراً مهماً لكثير من العلماء والمؤرخين الذين جاءوا بعده ، وأرخوا للمدة التي عاشها وكتب عنها .

رابعاً : تلامذته :

ارتفعت منزلة الحافظ ابن رافع في البلاد الشامية وأصبح من علمائها البارزين ، ونال بذلك شهرة واسعة ، وذاع صيته بين الأنام فصار محط أنظار طلبه العلم يرحلون اليه ويأخذون عنه ويسمعون عليه . وأول مابدأ في نشر العلم بدأ بأبنائه فأنشأ منهم أسرة متخصصة في علم الحديث على غرار أسرته كما رأينا .

وقد توافد عليه الطلبة من كل حدبٍ وصوب فقدم لنا بعض من ترجم له عدداً من اسماء تلاميذه واستطعنا أن نتوصل الى عدد آخر من أسماء تلاميذه لم تذكرها مصادر ترجمته رتبناهم على سني وفياتهم ، وأشرنا الى المصادر التي ذكرت سماع هؤلاء الطلبة عليه ، أو تخرجهم به في علم الحديث ، وفيهم شيوخ له ورفاق في الطلب منهم :

١ – الحافظ شمس‌الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي[١٣٥] المتوفى سنة ٧٤٨هـ .

٢ – شمس‌الدين أبو عبدالله محمد[١٣٦] بن يحيي بن محمد بن سعد

(١٣٣) تاريخه ، ١/الورقة ٢١٦ أ .

(١٣٤) ص : ٣٦٤ في ترجمة الامام شمس‌الدين محمد علي الحسيني .

(١٣٥) معجم شيوخ الذهبي ٢/الورقة ١٥٨ أ ، وغاية النهاية : ١٣٩/٢ .

(١٣٦) ذيل العبر لأبي زرعة الورقة ٧٢ ب .

المقدسي الصالحي المتوفى سنة ٧٥٩هـ .

٣ – الحافظ شمس الدين أبو المحاسن محمد[١٣٧] بن علي بن الحسن الحسيني الدمشقي المتوفى سنة ٧٦٥هـ .

٤ – المحدث الفاضل نورالدين أبو الحسن علي[١٣٨] بن الحسين بن علي المصري المعروف بأبن البناء المتوفى سنة ٧٦٨هـ .

٥ – الفقيه جمال الدين عبدالله[١٣٩] بن عمر بن داود الكفري الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ٧٧٠هـ .

٦ – قاضي القضاة تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب[١٤٠] بن علي بن عبدالكافي السبكي الشافعي المتوفى سنة ٧٧١هـ .

٧ – المحدث الفاضل أبو موسى محمد[١٤١] بن محمود بن اسحاق بن احمد الحلبي المقدسي المتوفى سنة ٧٧٦هـ .

٨ – أبو العباس أحمد[١٤٢] بن عبدالرحيم التونسي المالكي المتوفى سنة ٧٧٨هـ .

٩ – جمال الدين أبو الفضائل محمد[١٤٣] بن أحمد بن عبدالرحمن الدمشقي المدني الشهير بأبن الشامي المتوفى سنة ٧٧٩هـ .

١٠ – أبو الحسن محمد[١٤٤] بن محمد بن محمد بن ميمون البلوي الأندلسي المتوفى سنة ٧٨٧هـ .

١١ – الخطيب ناصرالدين أبوالمعالي محمد[١٤٥] بن علي بن محمد بن هاشم بن عبدالواحد بن ابي العشائر السلمي الحلبي المتوفى سنة ٧٨٩هـ .

١٢ – صدرالدين سليمان[١٤٦] بن يوسف بن مفلح بن أبي الوفاء الياسوفي الشافعي المتوفى سنة ٧٨٩هـ .

١٣ – الحافظ شمس الدين محمد[١٤٧] بن موسى بن سند بن نعيم اللخمي المصري الشافعي المتوفى سنة ٧٩٢هـ .

١٤ – محيي الدين أبو عبدالله محمد[١٤٨] بن عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن الحسن بن ابي القاسم الموصلي ابن الشهرزوري .

١٥ – أبو جعفر محمد[١٤٩] بن محمد بن عنقة البسكري المدني المتوفى سنة ٨٠٤هـ .

١٦ – الحافظ زين الدين أبوالفضل عبدالرحيم[١٥٠] بن الحسين بن عبدالرحمن الكردي المصري الشافعي المعروف بأبن العراقي المتوفى سنة ٨٠٦هـ .

١٧ – الحافظ نورالدين علي[١٥١] بن أبي بكر الهيثمي الشافعي المتوفى سنة ٨٠٧هـ .

١٨ – شرف الدين صديق[١٥٢] بن علي بن صديق الانطاكي المتوفى سنة ٨٠٩هـ .

١٩ – شهاب الدين أحمد[١٥٣] بن محمد بن أحمد بن محمد الحريري الدمشقي المعروف بالسلاوي المتوفى سنة ٨١٣هـ .

٢٠ – الحافظ أحمد[١٥٤] بن اسماعيل بن خليفة بن عبدالعال الدمشقي الشافعي ابن الحسباني المتوفى سنة ٨١٥هـ .

٢١ – الحافظ مؤرخ الاسلام شهاب الدين أبو العباس أحمد[١٥٥] بن حجي بن موسى بن أحمد بن سعد الحسباني الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ٨١٦هـ .

٢٢ – الحافظ ولي الدين أبو زرعة أحمد[١٥٦] بن عبدالرحيم بن الحسين الكردي المصري ابن العراقي المتوفى سنة ٨٢٦هـ .

٢٣ – المقرئ نورالدين أبو الحسن علي[١٥٧] بن أحمد بن محمد بن سلامة السلمي المالكي المعروف بأبن سلامة المتوفى سنة ٨٢٨هـ .

٢٤ – المقرئ شمس الدين أبو الخير محمد[١٥٨] بن محمد ابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣هـ .

---

(١٣٧) ذيل التذكرة : ٥٤ . وذيل العبر لأبي زرعة الورقة ٧٢ ب ، وتاريخ ابن قاضي شهبة الورقة ٢١٥ ب .

(١٣٨) ذيل العبر لأبي زرعة ، الورقة ٧٢ ب ، واللمع الألمعية الورقة ١١٣ ب ، وورنق الألفاظ الورقة ٦٩ ب .

(١٣٩) تاريخ ابن قاضي شهبة ١/ الورقة ١٩٨ ب ، والدرر الكامنة ٣٨٦/٢ .

(١٤٠) معجم شيوخ السبكي الورقة ٣٠ ب . وغاية النهاية : ١٣٩/٢ ، وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/الورقة ٢٠٤ أ ، ووجيز الكلام الورقة ٣٨ أ .

(١٤١) شذرات الذهب : ٢٤٩/٦ .

(١٤٢) ذيل العبر لأبي زرعة الورقة ٩٦ ب .

(١٤٣) ذيل العبر لأبي زرعة الورقة ١٠٢ ب ، وشذرات الذهب : ٢٦٣/٦ وفيه محمد بن محمد بن عبدالرحمن .

(١٤٤) الدرر الكامنة : ٣٥٠/٤ .

(١٤٥) الدرر الكامنة : ٢٠٤/٤ – ٢٠٥ ، وشذرات الذهب ٣٠٩/٦ .

(١٤٦) طبقات الشافعية لأبن قاضي شهبة الورقة ١٣٤ أ ، والدرر الكامنة : ١٦١/٢ ، وشذرات الذهب : ٣٠٧/٦ .

(١٤٧) تاريخ ابن قاضي شهبة ١/الورقة ٢١٥ ب ، واللمع والألمعية الورقة ١١٣ ب ، وورنق الالفاظ الورقة ٦٩ ب

(١٤٨) الدرر الكامنة : ١٣٩/٤ .

(١٤٩) شذرات الذهب : ٤٦/٧ .

(١٥٠) ذيل العبر لأبي زرعة الورقة ٧٢ ب . وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/الورقة ٢١٥ ب ، واللمع الألمعية الورقة ١١٣ ب ، وورنق الألفاظ الورقة ٦٩ ب .

(١٥١) المصدر نفسه .

(١٥٢) شذرات الذهب : ٨٤/٧ .

(١٥٣) شذرات الذهب : ١٠٠/٧ .

(١٥٤) لحظ الالحاظ : ٢٤٤ .

(١٥٥) تاريخ ابن قاضي شهبة ١/الورقة ٢١٥ ب ، وطبقات الشافعية له الورقة ١٤٢ ب ، ولحظ الالحاظ : ٢٤٧ ، واللمع الألمعية الورقة ١١٣ ب ، وورنق الالفاظ الورقة ٦٩ ب ، والدارس : ١٣٨/١ ، وشذرات الذهب : ١١٦/٧ .

(١٥٦) ذيل العبر لأبي زرعة الورقة ٧٢ ب ، واللمع الألمعية الورقة ١١٣ ب ، وورنق الالفاظ الورقة ٦٩ ب .

(١٥٧) العقد الثمين : ١٣٩/٦ .

(١٥٨) غاية النهاية : ١٣٩/٢ .

الفصل الثاني

مؤلفاته

لم تحفظ لنا المصادر التي ترجمت لأبن رافع أكثر من ثلاث كتب وهي : معجم شيوخه ، وذيل تاريخ بغداد ، والوفيات ، وأسماء بعض المشيخات والأجزاء التي خرجها ابن رافع لشيوخه . وهي تدور كلها في فروع علم الحديث ومايتصل به ، ولكننا لم نجد له تأليفاً في مصطلح الحديث مع معرفتنا بتضلعه في هذا الفن :

١ - معجم الشيوخ :

وهو مما خرجه بنفسه ، وأول من ذكر هذا الكتاب هو الحافظ شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي الحسيني الدمشقي فقال[١٥٩] «وخرج لنفسه معجماً استوعب فيه شيوخه» . وذكره ابن حبيب فقال[١٦٠] : «وجمع معجمه الذي يزيد على الني نفر» . وقال فيه ابن قاضي شهبة : « وعمل لنفسه معجماً في أربع مجلدات ، وهو في غاية الاتقان والضبط ، مشحونٌ بالفوائد ، يشتمل على أكثر من ألف شيخ» . وقد ذكره غيرهم من المؤرخين[١٦١] وامتدحوه واشادوا باتقانه وضبطه وقيمته . وقد اقتبس منه ابن حجر العسقلاني في كتابه «الدرر[١٦٢] الكامنة في أعيان المئة الثامنة» في أكثرمن (١٦٠) موضعاً تصريحاً بقوله «ذكره ابن رافع في معجمه» . والظاهر أنه نقل منه في غير هذه المواضع ولم يصرح بذلك .

(١٥٩) ذيل التذكرة : ٥٢

(١٦٠) نقل هذا النص ابن حجر في انباء الغمر : ٤٨/١ ، والخيضري في اللمع الألمعية ، الورقة ١١٣ ب ، وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب : ٢٣٤/٦ .

(١٦١) انظر : ذيل العبر لأبي زرعة ، الورقة ٧٢ أ ، وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/الورقة ٢١٦ أ ، وطبقات الشافعية له الورقة ١٢٧ ب ، وانباء الغمر : ٤٨/١ ، الدرر الكامنة : ٥٩/٤ ، واللمع الألمعية الورقة ١١٣ ب ، وورنق الألفاظ ، الورقة ٦٩ ب ، والاعلان بالتوبيخ : ٢٣٨ ، ٢٥٥ ، ووجيز الكلام الورقة ٣٨ أ ، وذيل طبقات الحفاظ : ٣٦٦ ، والدارس : ٩٤/١ ، وكشف الظنون : ٣٢٨/١ وسماه «مشيخة ابن رافع» ، وفهرس الفهارس : ٣٢٩/١ ، والتعريف بالمؤرخين : ٢٠١/١ ، والمؤرخون الدمشقيون : ٥٧ وغيرها من المصادر التي تناولت سيرة ابن رافع . وقد عثرنا على نسخة خطية فريدة من هذا المعجم انتخبها الحافظ تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المكي المتوفى سنة ٨٣٢هـ ، وقد انتهينا من تحقيقها وهي تحتوي على ٤٢٣ ترجمة ، وسننشرها قريباً ان شاءالله تعالى .

(١٦٢) انظر : ١١٥/١ و ١٢٥ و ١٣٧ و ٢٧١ و ٤٠٩ و . . ١٠٠/٢ و ١٢٣ و ١٣٤ و ١٤٤ و ١٦٤ و ١٧٨ و . . ٢٦/٣ و ٤٥ و ٥٠ و ٥٥ و ٦٥ و . . ١٦/٤ و ٧٦ و ٣٠٧ و ٣١٠ و ٣٢٧ و . . ١٢/٥ و ٣١ و ٦٤ و ٢٢٥ و . . . وغيرها من الدرر الكامنة

٢ - الذيل على تاريخ بغداد لأبن النجار :

ذكره شمس الدين الحسيني فقال[١٦٣] «وعمل تاريخ بغداد» . وذكره أبو زُرعة العراقي بقوله[١٦٤] : « وصنف ذيلاً على تاريخ بغداد لابن النجار في أربع مجلدات» . وقال الجزري[١٦٥] « وذيل على تاريخ بغداد ، ولو ذيل على تاريخ دمشق لكان أولى» وتوالت أقوال المؤرخين[١٦٦] في وصفه وتوثيقه والافادة منه . فقد ذكر ابن حجر العسقلاني[١٦٧] أنه رأى بعضه بخط المؤلف وأنه كان في ثلاث أو أربع مجلدات .

ويصف لنا شمس الدين السخاوي في كتابه «الاعلان بالتوبيخ»[١٦٨] جاء فيه : « . . . وهكذا استوفيت عليه مسودة الذيل الذي للتقي ابن رافع على ابن النجار من خطه وهي في مجلد ولكن حصل فيها محوٌ لكثير من تراجمه ، وكذا بعض القول في بعضها مع أنه كتب عليها ما نصهُ « فيه نقص كثير عن المبيضة وفيه زيادات قليلة ، قال : والمبيضة في ثلاث مجلدات» . وقال في خطبته : « ذكر فيه من دخل بغداد من العلماء والفقهاء والمحدثين والوزراء والأدباء ، ومن فاتها - يعني الخطيب وابن النجار - أو أحدهما ذكره ، ذكرته» ، وعلى المسودة بخط الذهبي مانصهُ «كتاب التذييل والصلة على تاريخ بغداد ألفه ونلقفه الفقير الى الله تعالى الامام الحافظ مفيد الطلبة ، عمدة النقلة تقي الدين محمد بن رافع الشافعي ووصل به التاريخ الكبير[١٦٩] الذي جمعه حافظ العراق محب الدين ابن النجار الذي عمل كتابه ذيلاً واستدراكاً على تاريخ الحافظ أبي بكر الخطيب ، غفر الله لهم ولنا» .

(١٦٣) ذيل التذكرة : ٥٢

(١٦٤) ذيل العبر ، الورقة ٧٢ أ

(١٦٥) غاية النهاية : ١٣٩/٢ .

(١٦٦) راجع : تاريخ ابن قاضي شهبة ١/الورقة ٢١٦ أ ، وطبقات الشافعية له الورقة ١٢٧ ب ، وانباء الغمر : ٤٨/١ ، والنجوم الزاهرة : ١٢٤/١١ ، واللمع الألمعية الورقة ١١٣ ب ، وورنق الالفاظ الورقة ٦٩ ب ، وذيل طبقات الحفاظ : ٣٦٦ ، والدارس : ٩٤/١ ، وكشف الظنون : ٢٨٨/١ ، وشذرات الذهب : ٢٣٤/٦ ، وفهرس الفهارس : ٣٢٩/١ ، والتعريف بالمؤرخين : ٢٠٠/١ ، والمؤرخون الدمشقيون : ٥٧ ، وغيرهم كثير .

(١٦٧) الدرر الكامنة : ٥٩/٤

(١٦٨) ص : ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(١٦٩) هو «التاريخ المجدد لمدينة السلام وأخبار فضلائها الاعلام ومن وردها من علماء الأنام» ذيل به مؤلفه ابن النجار البغدادي المتوفى سنة ٦٤٣هـ على تاريخ الخطيب البغدادي ، فجمع ذيل ابن السمعاني وابن الدبيثي وزاد عليها . وقد استدرك ابن النجار نفسه كثيراً من التراجم على الخطيب . ولم يصلنا منه سوى المجلد العاشر والمجلد الحادي عشر من نسخة تتكون من خمسة عشر مجلداً ، وانتقاءاً لأحمد بن أيبك الدمياطي المتوفى ٧٤٩هـ . (ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد لأبن الدبيثي : ١٨-٢٠) .

ويظهر من كلام السخاوي ، أن ابن رافع في كتابه هذا قد استدرك على الخطيب البغدادي ، وابن النجار مافاتهما من التراجم التي هي من شرطهما الى جانب تذييله على ابن النجار .

ويذكر لنا تقي الدين الفاسي في مقدمة كتابه «العقد الثمين» الكتب التي نظرها لأجل كتابه هذا فقال : « . . . ومن ذلك «ذيل تاريخ بغداد» للحافظ تقي الدين ابن رافع ، و «معجمه» ، و «وفياته» .

ومن هذا الذيل انتخب التقي الفاسي مجموعة تراجم بلغت «٢١٠» ترجمة انتخبها على دفعتين ، سماها «المنتخب المختار المذيل به على تاريخ ابن النجار» وهي تسمية الكتاب الذي وضعه ابن رافع ذيلاً على تاريخ ابن النجار ، حيث سماه «المختار المذيل به على تاريخ ابن النجار»[١٧٠] .

٣ – الوفيات :

هذا الكتاب هو ذيلٌ على كتاب «المقتفى لتاريخ أبي شامة[١٧١] لعلم الدين أبي محمد القاسم بن محمد البرزالي المتوفى سنة ٧٣٩هـ ، والمعروف عند بعض المؤرخين بأسم «وفيات البرزالي» . وأقدم اشارة وردت الينا بخصوص كتاب «الوفيات لأبن رافع» ماذكره أبو زرعة في كتابه «ذيل العبر»[١٧٢] فقال : « وعمل الوفيات » . ثم ذكره ابن قاضي شهبة في «تاريخه»[١٧٣] و «طبقاته»[١٧٤] : فقال : « وجمع وفيات ذيل بها على البرزالي» . وقال ابن حجر[١٧٥] : «وجمع كتاباً في الوفيات ذيل فيه على تاريخ البرزالي ، وهو كثير الفوائد» ، وذكره حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون»[١٧٦] فقال : «وفيات الشيخ تقي الدين ابن رافع ذيل بها على تاريخ البرزالي من ٧٣٧–٧٧٤هـ ، وتوفي سنة ٧٧٤هـ بدمشق» .

وقد ذيل على هذا الكتاب شهاب الدين أحمد بن حجي بن موسى بن أحمد الحسباني الدمشقي المتوفى سنة ٨١٦هـ[١٧٨] .

(١٧٠) – نشره المرحوم عباس العزاوي المحامي ببغداد سنة ١٩٣٨م ، وقد حققناه على نسخة فريدة انتخبها تقي الدين الفاسي المكي ، وسننشره قريباً بعونه تعالى .

(١٧١) – شهاب الدين أبو القاسم عبدالرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي الشافعي المعروف بأبي شامة ، المتوفى سنة ٦٦٥ ه (العبر : ٥/٢٨٠–٢٨١ ، وفوات الوفيات : ٢/٢٦٩ – ٢٧١ ، وطبقات الشافعية للاسنوي : ٢/١١٨) ، وقد ذيل على كتابه «الذيل على الروضتين» علم الدين القاسم بن محمد البرزالي المتوفى سنة ٧٣٩هـ بكتاب ابتدأ فيه من وفاة أبي شامة سنة ٦٦٥هـ وانتهى فيه الى سنة ٧٣٨هـ وسماه «المقتفى لتاريخ أبي شامة» .

(١٧٢) الورقة ٧٢ أ .

(١٧٣) ١/الورقة ٢١٦ أ .

(١٧٤) طبقات الشافعية الورقة ١٢٧ ب .

(١٧٥) الدرر الكامنة : ٤/٥٩ .

(١٧٦) ٢/٢٠١٩

(١٧٧) الاعلان بالتوبيخ : ٣٣٤ ، والضوء اللامع : ١/٢٦٩ ، والدارس : ١/٧٣٨ ، وكشف الظنون : ٢/٢٠١٩ . والمنذري وكتابه التكملة : ٢١٨ .

(١٧٨) لقد تكلمنا على كتاب «الوفيات» بما فيه الكفاية ، ونقلنا أقوال وآراء المؤرخين فيه عند تحقيقنا له عام ١٨٠م .

٤ – ذيل مشتبه النسبة :

ذكر هذا الكتاب ابن رافع نفسه في احدى تراجم كتابه «الوفيات»[١٧٩] .

وهو ذيلٌ على كتاب «المشتبه في الرجال» لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي . وقد جاء في مقدمة الكتاب مانصه : «بسم الله الرحمن الرحيم ، قال الإمام الحافظ العمدة تقي الدين أبو المعالي محمد بن رافع بن ابي محمد السلامي المصري ، ثم الدمشقي : الحمد لله على أفضاله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله . أما بعد فاني ظفرت باسماء مشتبهة لم أرها في كتاب شيخنا الحافظ أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي رحمه الله تعالى ، المسمى «المشتبه في المؤتلف والمختلف ومشتبه النسبة» مع أنه قد كثر فيه ، فأردت جمعها في كراسة لتحصل الفائدة بها ان شاءالله تعالى ، وعلى الله التوكل في القول والعمل»[١٨٠] .

٥ – الاجازة العامة[١٨١] :

قال حاجي خليفة في «كشف الظنون» : «الاجازة العامة : أجازها جماعة من الحفاظ فجمعهم طائفة من العلماء ، كالشيخ تقي الدين محمد بن رافع المتوفى سنة اثنتين وسبعين (كذا) وسبعمئة ، فانه صنف فيهم جزءاً . والحافظ أبو جعفر محمد بن الحسين بن بدر الكاتب البغدادي رتبهم على الحروف لكثرتهم» .

٦ – كتاب ترجمة الامام امام الدين ابي القاسم الرافعي منها نسخة مخطوطة في مكتبة برلين[١٨٢] .

التخاريج

خرج ابن رافع عدداً كبيراً من المشيخات والاجزاء الحديثية فكان يجمع الشيوخ أو ماحدثوا به من سماعات الشيخ المُخَرَّج له أو مقروءاته أو مجازاته في مكان واحد ، ويبين طرقها وأسانيدها ويتكلم على رواتها وهو مايعرف بالتخريج ، ومن ذلك :

٧ – مشيخة[١٨٣] الشيخ الصالح نجم الدين أبي العز عبدالعزيز بن

(١٧٩) وفيات ابن رافع : ٢/١٧٩ (الترجمة ٦٧٨) .

(١٨٠) طبع هذا الكتاب بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد – دار الكتاب العربي – بيروت سنة ١٩٧٤م . وقد اعتمده وانتفع منه ابن حجر في كتابه «تبصير المنتبه بتحرير المشتبه» ٤/١٥١٢–١٥١٣ وقال : وقد ذيل عليه (يعني الذهبي) الحافظ تقي الدين ابن رافع تلميذه في هذا المختصر جزءاً قدر عشرة أوراق غالبة لايرد عليه لأنه أما ان يكون قد ذكره ، أو يكون لايشتبه الا على بعد» .

(١٨١) ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون : ١/١٠ ، والبغدادي في هدية العارفين : ٢/١٦٧ ، وكحالة في معجم المؤلفين : ١٢/٩١ .

(١٨٢) فهرس المخطوطات العربية في برلين – آلورد – ٩/٤٩٥ .

(١٨٣) نسخة منها في المكتبة الظاهرية (فهرس المكتبة الظاهرية – الحديث –٥٣ و ٢٩٩) .

محمد بن يوسف بن الياس بن عباس الدقوقي البغدادي .

٨ – مشيخة[١٨٤] زين الدار وجيهة بنت علي بن يحيى بن علي بن سلطان الانصارية الصعيدية ثم الاسكندرانية المتوفاة سنة ٧٣٢هـ .

٩ – مشيخة[١٨٥] العلامة مجدالدين أبي بكر بن اسماعيل بن عبدالعزيز السنكلوني المتوفي سنة ٧٤٠هـ .

١٠ – مشيخة[١٨٦] المعدل المسند بهاءالدين أبي الحسن علي بن عمر بن أحمد بن عمر بن ابي بكر المقدسي الصالحي المتوفى سنة ٧٤٩هـ .

١١ – مشيخة[١٨٧] الشيخ جمال الدين أبي اسحاق ابراهيم بن محمود بن سلمان بن فهد الحلبي المتوفى سنة ٧٦٠هـ .

١٢ – مشيخة[١٨٨] القاضي ناصرالدين أبي عبدالله محمد بن يعقوب الحلبي المتوفى سنة ٧٦٣هـ .

١٣ – مشيخة[١٨٩] الأمير ناصرالدين محمد بن عبدالله بن عبدالوهاب بن فضل الله العمري العدوي المتوفى سنة ٧٦٥هـ .

١٤ – مشيخة[١٩٠] المعدل فتح الدين ابي الحرم محمد بن محمد بن ابي الحرم بن ابي طالب القلانسي الحنبلي المتوفى سنة ٧٦٥هـ .

١٥ – مشيخة[١٩١] الشيخ المسند شمس الدين محمد بن ابراهيم بن محمد بن أبي بكر بن ابراهيم البياني الدمشقي المتوفى سنة ٧٦٦هـ .

١٦ – مشيخة[١٩٢] قاضي القضاة جمال الدين محمد بن عبدالرحيم بن عبدالملك المسلاتي المالكي المتوفى سنة ٧٧١هـ .

١٧ – جزء[١٩٣] للشيخ شهاب الدين أبي الفرج عبداللطيف بن عبدالعزيز بن يوسف الحراني الشافعي المتوفي سنة ٧٤٤هـ .

١٨ – شرف الدين أبو زكريا يحيى[١٩٤] بن يوسف بن أبي محمد بن أبي الفتوح المقدسي المتوفى سنة ٧٣٧هـ .

١٩ – معجم[١٩٥] الشيخ أبي عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن عثمان السلامي الطرابلسي ، من طرابلس الغرب .

---

(١٨٤) الدرر الكامنة : ٥/ ١٨٠ .

(١٨٥) أعيان العصر : ٢/الورقة ١١٤ ب ، ووفيات ابن رافع ١/٣٠٤ (الترجمة ١٨٣) ، والمنهل الصافي ٢/الورقة ٨٧١ .

(١٨٦) وفيات ابن رافع : ٢/٦٣ (الترجمة ٥٠٧) ، وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/الورقة ٩٨ أ .

(١٨٧) وفيات ابن رافع : ٢/٢٢٤ (الترجمة ٧٣٣) ، وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/ الورقة ١٥١ ب .

(١٨٨) وفيات ابن رافع : ٢/٢٥٤ (الترجمة ٧٧٢) ، وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/الورقة ١٦٧ أ . والدرر الكامنة : ٥/٦٠ .

(١٨٩) وفيات ابن رافع : ٢/٢٨١ (الترجمة ٨٠٦) ومصادر الترجمة كافة .

(١٩٠) وفيات ابن رافع : ٢/٢٨٤ (الترجمة ٨١١) ، وذيل العبر لأبي زُرعة الورقة ٢٥ ب ، وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/ ١ الورقة ١٧٥ ب ، والدرر الكامنة : ٤/٢٥٣ .

(١٩١) وفيات ابن رافع : ٢/٣٠١ (الترجمة ٨٣٢) ومصادر الترجمة كافة .

(١٩٢) وفيات ابن رافع : ٢/٣٦٠ (الترجمة ٩٠١) ومصادر الترجمة كافة .

(١٩٣) وفيات ابن رافع : ١/٤٤٨ (الترجمة ٣٥٦) ومصادر الترجمة كافة

(١٩٤) ذكره ابن حجر في الدرر الكامنة : ٥/٢٠٦ وقال : «وكان يتعاسر في الحديث ، وخرج له ابن رافع وغيره» . قلت : لعله خرج له جزءاً من حديثه ، والله أعلم .

(١٩٥) فهرس الفهارس : ٢/٤٦ وفيه «خرجه (يعني المعجم) له الحافظ ابن رافع نرويه من طريق التقي بن فهد ، عن علي بن سلامة عنه .

فهرس المصادر والمراجع

أولاً : المصادر المخطوطة :

١ – أعيان العصر وأعوان النصر : لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي «ت ٧٦٤هـ» الجزء الثاني ، مصورة خزانة كتب الدكتور بشار عواد معروف عن نسخة مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٦٢١ .

٢ – تاريخ ابن قاضي شهبة «الاعلام بتاريخ أهل الاسلام» لتقي الدين أبي بكر بن أحمد بن محمد الأسدي «ت ٨٥١هـ» نسخة دار الكتب الوطنية بباريس رقم ١٣٩٨ عربي .

٣ – تاريخ البرزالي «المقتفي لتاريخ أبي شامة» لعلم الدين أبي محمد القاسم بن محمد البرزالي «ت ٧٣٩هـ» مصورة خزانة الدكتور بشار عواد معروف عن نسخة مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٩٥١ .

٤ – تهذيب الكمال في أسماء الرجال – لجمال الدين أبي الحجاج يوسف بن عبدالرحمن المزي «ت ٧٤٢هـ» مصورة خزانة كتب الدكتور بشار عواد معروف عن نسخة مكتبة فيض الله أفندي رقم ١٤٢٧ .

٥ – ذيل العبر لأبي زُرعة : لولي الدين أبي زُرعة أحمد بن عبدالرحيم بن الحسين العراقي «ت ٨٢٦هـ» نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي رقم ٥٦٥ وقد انتهينا من تحقيقه وسننشره قريباً ان شاء الله تعالى .

٦ – رونق الألفاظ بمعجم الحفاظ : لسبط ابن حجر ، يوسف بن شاهين الكركي «ت ٨٩٩هـ» نسخة المكتبة الخالدية بالقدس ، اعارنيها مشكوراً الاستاذ الحاج صبحي السامرائي .

٧ – طبقات الشافعية لأبن قاضي شهبة ، تقي الدين أبي بكر بن أحمد الأسدي «ت ٨٥١هـ» نسخة مصورة في مكتبة الاوقاف المركزية ببغداد رقم ٢٨٠ .

٨ – كتائب أعلام الاخيار من فقهاء مذهب النعمان المختار ، للمولى محمود بن سليمان الكفوي «ت ٩٩٠هـ» نسخة المكتبة القادرية ببغداد رقم ١٢٤٢ .

٩ – اللمع الألمعية لأعيان الشافعية ، لقطب الدين محمد بن محمد بن خيضر الخيضري «ت ٨٩٤هـ» نسخة مكتبة المتحف العراقي ببغداد رقم ٨٦٤٢ .

١٠ – معجم شيوخ الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي «ت ٧٤٨هـ» نسخة مكتبة أحمد الثالث رقم ٤٦٢ .

١١ – معجم شيوخ السبكي ، تاج الدين عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي «ت ٧٧١هـ» نسخة خزانة كتب الدكتور بشار عواد معروف عن نسخة المكتبة التيمورية رقم ١٤٤٦ تاريخ .

١٢ – منتخب معجم شيوخ ابن رافع ، محمد بن رافع بن هجرس السلامي «ت ٧٧٤هـ» انتخبه تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المكي «ت ٨٣٢هـ» وقد انهيناه تحقيقاً .

١٣ – المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي «ت ٨٧٤هـ» نسخة مصورة في خزانة كتب الدكتور بشار عواد معروف عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٦٧٠ .

١٤ – وجيز الكلام في ذيل تاريخ دول الاسلام ، لشمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي «ت ٩٠٢هـ» نسخة مصورة في خزانة كتب الدكتور بشار عواد معروف ، عن نسخة مكتبة كوبرلي رقم ١١٨٩ .

ثانياً : المصادر المطبوعة :

١٥ – الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، لعزالدين أبي عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد «ت ٦٨٤هـ» تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق .

١٦ – الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ – لشمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي «٩٠٢هـ» حققه وعلق عليه بالانكليزية – فرانز روزنثال ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي – مطبعة العاني – بغداد ١٣٨٢هـ = ١٩٦٣م .

١٧ – انباء الغمر بابناء العمر ، لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني «ت ٨٥٢هـ» تحقيق الدكتور حسن حبشي ، القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

وقد استعملنا أيضاً طبعة دار المعارف العثمانية الهندية ، وأشرنا لذلك في الهامش .

١٨ – الأنساب ، لأبي سعيد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني «ت ٥٦٢هـ» نشرة المستشرق د . س . مرجليوث سنة ١٩١٢ م واعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى بغداد ١٩٧٠م .

١٩ - البداية والنهاية . لعمادالدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي «ت ٧٧٤هـ» مطبعة السعادة بمصر ، دون تاريخ .
٢٠ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، للقاضي محمد بن علي الشوكاني «ت ١٢٥٠هـ» مطبعة السعادة - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ .
٢١ - برنامج الوادي آشي : لمحمد بن جابر الوادي آشي التونسي «ت ٧٤٩هـ» تحقيق : محمد محفوظ ، دار الغرب الاسلامي ، ط ٢ ، بيروت ١٩٨١م .
٢٢ - تاريخ ابن الوردي «تتمة المختصر في اخبار البشر» لزين الدين عمر بن مظفر ابن الوردي «ت ٧٤٩هـ» منشورات المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م .
٢٣ - تذكرة الحفاظ - لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي «ت ٧٤٨هـ» الناشر محمد أمين دمج ، دار احياء التراث العربي - بيروت ، دون تاريخ .
٢٤ - تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه - للحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب الحلبي «ت ٧٧٩هـ» الجزء الأول تحقيق الدكتور محمد محمد أمين ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٦ .
٢٥ - تهذيب الكمال في اسماء الرجال - لجمال الدين أبي الحجاج يوسف بن عبدالرحمن المزي «ت ٧٤٢هـ» الجزء الأول تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الاولى - ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م .
٢٦ - الجواهر المضية في طبقات الحنفية - لمحيي الدين عبدالقادر بن محمد بن أبي الوفاء القرشي «ت ٧٧٥هـ» حيدرآباد الدكن - الهند - الطبعة الاولى - دار المعارف العثمانية - ١٣٣٢هـ .
٢٧ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - لجلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر السيوطي «ت ٩١١هـ» تحقيق ، محمد أبوالفضل ابراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م .
٢٨ - الدارس في تاريخ المدارس - لأبي المفاخر عبدالقادر بن محمد بن عمر النعيمي «ت ٩٢٧هـ» عني بنشره وتحقيقه جعفر الحسني ، مطبعة الترقي - دمشق - الجزء الأول . ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م والجزء الثاني ١٣٧٠هـ = ١٩٥١م .
٢٩ - درة الحجال في أسماء الرجال «ذيل وفيات الأعيان» - لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بأبن القاضي «ت ١٠٢٥هـ» تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور ، دار النصر للطباعة - القاهرة - ١٩٧٠م .
٣٠ - الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة - شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني «ت ٨٥٢هـ» تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، مطبعة المدني - القاهرة - ١٣٨٥هـ = ١٩٦٦م .
٣١ - دور القرآن في دمشق - لأبي المفاخر عبدالقادر بن محمد بن عمر النعيمي «ت ٩٢٧هـ» تحقيق : الدكتور صلاح الدين المنجد - دار الكتاب الجديد - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٧٣م .
٣٢ - دول الاسلام - لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي «ت ٧٤٨هـ» تحقيق : فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٤م .
٣٣ - ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد - للحافظ أبي عبدالله محمد بن سعيد المعروف بأبن الدبيثي «ت ٦٣٧هـ» تحقيق : الدكتور بشار عواد معروف ، مطبعة الجمهورية - بغداد ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .
٣٤ - ذيل تذكرة الحفاظ - للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن الحسن الحسيني « ت ٧٦٥هـ» الناشر محمد أمين دمج - دار احياء التراث العربي - بيروت ، دون تاريخ .
٣٥ - ذيل طبقات الحفاظ - لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي «ت ٩١١هـ» الناشر : محمد أمين دمج . دار احياء التراث العربي - بيروت ، دون تاريخ .
٣٦ - ذيل العبر للذهبي - لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي «ت ٧٤٨هـ» تحقيق : محمد رشاد عبدالمطلب ، مطبعة حكومة الكويت - ١٩٧٠م .
٣٧ - الذيل على طبقات الحنابلة لزين الدين عبدالرحمن بن أحمد البغدادي الحنبلي المعروف بأبن رجب «ت ٧٩٥هـ» باعتناء محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة . ١٣٧٢هـ = ١٩٥٢م .
٣٨ - ذيل مشتبه النسبة - لتقي الدين أبي المعالي محمد بن رافع السلامي «ت ٧٧٤هـ» تحقيق : الدكتور صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد - بيروت - ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م .

٣٩ – السلوك لمعرفة دول الملوك – لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي «ت ٨٤٥هـ» الجزء الثاني – نشره محمد مصطفى زيادة – القاهرة، ١٩٤٢ – ١٩٥٨م، والجزء الثالث تحقيق: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب بالقاهرة، ١٩٧٠م.

٤٠ – شذرات الذهب في اخبار من ذهب – لأبي الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد ابن العماد الحنبلي «ت ١٠٨٩هـ» القاهرة – ١٣٥٠هـ.

٤١ – الضوء اللامع لأهل القرن التاسع – لشمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي «ت ٩٠٢هـ» نشرته مكتبة حسام الدين المقدسي – القاهرة – ١٣٥٣هـ.

٤٢ – طبقات الشافعية للاسنوي – لجمال الدين عبدالرحيم بن الحسن بن علي الأسنوي «ت ٧٧٢هـ» تحقيق: الدكتور عبدالله الجبوري، مطبعة الارشاد – بغداد ١٩٧٠م.

٤٣ – العبر في خبر من عبر – لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي «ت ٧٤٨هـ» الجزء الخامس تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، الكويت. ١٩٦٠م.

٤٤ – العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين – لتقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي «ت ٨٣٢هـ» مطبعة السنة المحمدية – القاهرة – ١٣٧٨هـ – ١٩٥٨م.

٤٥ – غاية النهاية في طبقات القراء – لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد ابن الجزري «ت ٨٣٣هـ» عني بنشره ج. برجستراسر، القاهرة – ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م فما بعدها.

٤٦ – فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات – للحافظ عبدالحي بن عبدالكبير الحسني الادريسي الكتاني – المطبعة الجديدة بفاس ١٣٤٧هـ.

٤٧ – فوات الوفيات – لصلاح الدين محمد بن شاكر الكتبي الدمشقي «ت ٧٦٤هـ» تحقيق الدكتور احسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٧٤م.

٤٨ – القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية – لشمس الدين محمد بن علي بن احمد بن طولون الصالحي «ت ٩٥٣هـ» تحقيق محمد أحمد دهان – مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق – ١٤٠١هـ = ١٩٨٠م.

٤٩ – كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون – لمصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة، وبكاتب جلبي «ت ١٠٦٧هـ» الطبعة الثالثة – ١٣٨٧هـ = ١٩٤٧م.

٥٠ – اللباب في تهذيب الأنساب – لعزالدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني ابن الأثير «ت ٦٣٠هـ» منشورات مكتبة حسام الدين المقدسي – القاهرة – ١٣٥٧هـ.

٥١ – لحظ الالحاظ بذيل طبقات الحفاظ – لتقي الدين أبي الفضل محمد بن محمد بن فهد الهاشمي المكي «ت ٨٧١هـ» الناشر محمد أمين دمج، دار احياء التراث العربي – بيروت، دون تاريخ.

٥٢ – مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان – للامام أبي محمد عبدالله بن أسعد بن علي اليافعي اليمني المكي «ت ٧٦٨هـ» مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت – الطبعة الثانية – ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م.

٥٣ – مستفاد الرحلة والاغتراب – للقاسم بن يوسف التجيبي السبتي «ت ٧٣٠هـ» تحقيق: عبدالحفيظ منصور – الدار العربية للكتاب – ليبيا – تونس – ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م.

٥٤ – معجم البلدان – لشهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي «ت ٦٢٦هـ» تحقيق: فستنفلد الألماني – لايبزك ١٨٦٦م.

٥٥ – معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار – لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي «ت ٧٤٨هـ» تحقيق: محمد سيد جادالحق، القاهرة – الطبعة الأولى – دون تاريخ – وقد عثر استاذنا الدكتور بشار عواد معروف على نسخة خزائنية نفيسة من هذا الكتاب فحققناه بالاشتراك معه ومع الشيخ شعيب الارناؤوط وصدر في مجلدين عن مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٨٤م.

٥٦ – منتخب المختار – أو تاريخ علماء بغداد – لتقي الدين محمد بن رافع السلامي «ت ٧٧٤هـ» انتخاب تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي «ت ٨٣٢هـ» نشره المرحوم عباس العزاوي المحامي مطبعة الأهالي – بغداد – ١٣٥٧هـ – ١٩٣٨م.

٥٧ – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي «ت ٨٧٤هـ» المؤسسة

المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – تراثنا – ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م .
٥٨ – الوافي بالوفيات – لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي «ت ٧٦٤هـ» تحقيق جماعة من العرب والمستشرقين .
٥٩ – الوفيات – لتقي الدين أبي المعالي محمد بن رافع السلامي «ت ٧٧٤هـ» تحقيق : صالح مهدي عباس – مؤسسة الرسالة في بيروت ، الطبعة الأولى – ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م .

ثالثاً – المراجع

٦٠ – الآثار الخطية في المكتبة القادرية – الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف ، مطبعة المعارف –بغداد ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م «الجزء الرابع» .
٦١ – الاعلام – قاموس تراجم – لخيرالدين الزركلي – الطبعة الرابعة – دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٧٩م :
٦٢ – التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان – للمحامي عباس العزاوي – شركة التجارة والطباعة المحدودة – بغداد – ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م .
٦٣ – الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الاسلام – للدكتور بشار عواد معروف – مطبعة عيسى البابي الحلبي – القاهرة – ١٩٧٦م .
٦٤ – فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية – المنتخب من الحديث – لمحمد ناصرالدين الألباني ، مطبعة الترقي – دمشق ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م .
٦٥ – مخطوطات التاريخ والتراجم والسير ، اسامة ناصر النقشبندي وظمياء محمد عباس – المؤسسة العامة للآثار والتراث . دار الحرية بغداد – ١٩٨٢م .
٦٦ – معجم الأطباء – للدكتور أحمد عيسى بك – مطبعة فتح‌الله وأولاده – مصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٦١هـ = ١٩٤٢م .
٦٧ – معجم المطبوعات العربية والمعربة – ليوسف إليان سركيس ، مطبعة سركيس – مصر – ١٣٤٦هـ = ١٩٢٨م .
٦٨ – معجم المؤلفين – تراجم مصنفي الكتب العربية – لعمر رضا كحالة ، مطبعة الترقي – دمشق – ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م .
٦٩ – المنذري وكتابه التكملة لوفيات النقلة . للدكتور بشار عواد معروف ، مطبعة الآداب في النجف الأشرف ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م .
٧٠ – المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة من القرن الثالث الهجري الى نهاية القرن العاشر – للدكتور صلاح‌الدين المنجد ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
٧١ –

Foschichte Der Arabiseni Litteratur: Carl Brookelmann , Leiden , Brill , 1949

٧٢ –

Vereichniss Der Arabischen Hands Chriften Der Koniglichen Bibliother Zu Berlin, Von, W. Ahlwardt , Berlin, A, Asher and Co. 1897, No, 4.

هيرودوتس وكتاباته

الدكتور سامي سعيد الاحمد
كلية الاداب قسم التاريخ
جامعة بغداد

ان غالبية الاخبار المعروفة عن حياة هيرودوتوس نقرأها في معجم السويداس Suidas (الذي ظهر حوالي سنة ٩٧٠ والذي يتضمن كل ما يتعلق باللغة والكتابات اليونانية مرتبا حسب الحروف الابجدية دونما مهارة ودقة. ورغم غزارة معلوماته فأنه مليئ بالاخطاء). ويذكر السويداس انه ولد سنة ٤٨٤ ق.م او حوالي تلك السنة وانه دوري الاصل ولد في هاليكارناسوس في منطقة كاريا جنوب غربي اسيا الصغرى المشهورة بزراعتها وصناعتها والمهمة تجاريا. ومن الجدير بالذكر ان هاليكارناسوس كانت بالاصل مستوطنة دورية مثل كوس وكنيدوس ورودس [illegible] Triopian League [illegible] وممارسته [illegible] هاليكارناسوس [illegible] Panyassis [illegible] (Khoero [illegible] Dry [illegible] على ثقافة واسعة طيبة [illegible] للشعر الملحمي [illegible] (٦) [illegible]

ادبيا كتب عن الشعر الملحمي وله محاولات في اعطاء تفسيرات عقلية للا[illegible] والاشارات الفلكية والظواهر التي كان الناس يعزونها الى الارباب. و[illegible] هيرودوتوس في عائلة احب افرادها الاسلوب الشعري القديم والاساطير الم[illegible] المعروفة. وذكر ان تحصيله لم يكن كاملا فلم يستمر في تعلم الحساب وجاءت م[illegible] بالموسيقى قليلة لكنه احب الفن ولا نعرف هل ان هناك نفس نظام اثينا في [illegible] الاطفال القواعد والموسيقى والرياضة في هاليكارناسوس زمن طفولته هيرودوتو[illegible] ولكن يظهر من كتابه بانه حصل على معرفة واسعة بأدب زمانه المعاصر وال[illegible] ونعرف من كتاباته ان له معرفة بالادب اليوناني حيث كثيرا ما يذكر هسيود و[illegible] [illegible] الاشعار المنسوبة الى هوميروس وبندار الى جانب قراءتنا في [illegible] [illegible] (٣) ثم (اسكيلوس فقط من بين الشعراء) [illegible] والمامه بالالياذة والاوديسة. ولم [illegible] هيرودوتوس كثيرا عن [illegible] لنا التقاليد ما نتلهف لمعرفته عن [illegible] [illegible] هيرودوتوس اكثر وقته في السوق حيث البيئة ذات ال[illegible] [illegible] الصفقات والبيع والشراء بالاشيا[illegible] [illegible] احب الملاحين بوجه خاص واهتم بما ير[illegible] [illegible] البحار واظهر منذ طفولته حبا لمعرفة ال[illegible] [illegible] (بقدر ما اتمكن على التعلم بالاستف[illegible] [illegible] الحصول على المزيد من المعلومات(٥). واسهمت

1. John L. Myres, Herodotus Father of History, (Oxford, 1953) p.2
2. Diodorus Siculus, History 4:32

3. Herodotus Vi:52
4. Ibid II: 156
5. T.R. Glover, Herodotus, (Berkely, 1924), p. 26.

هذه المعلومات التي يمكن على استحصالها من هنا وهناك نظرا لحبه في الاطلاع في جمع الافكار الكثيرة والاراء المتنوعة التي دونها بعد ذلك في كتابه. ويظهر من كتاباته انه كان ذو شخصية محببة ظريفة يتكلم مع الناس الذين جمع منهم معلوماته. ويدل كتابه على سعة اطلاعه وقدرته على الحفظ لانه لابد وان حفظ الكثير من ذكرياته عن ظهر قلب قبل تدوينها لان ليس من المعقول وغير العلمي ان يحمل هيرودوتوس الكثير من ملفات البردى ورق الغزال والجلود معه اينما ذهب للكتابة عليها. وكانت هاليكارناسوس (بودروم الحالية) ابان ولادة هيرودوتوس تحت الاحتلال الفارسي تحكمها الملكة ارتيميسيا ابنة ليغدامس وقادت هذه الملكة خلال فترة وصايتها على ولدها قوة بحرية في اسول احشويريش لدى هجومه على بلاد اليونان سنة ٤٨٠ ق.م ومدح هيرودوتوسوس شجاعتها وحكمتها. وجاء بعدها حفيدها ليعيد اميس نجل ولدها بيسيندليس الذي قل نفوذ فارس زمانه في هاليكارناسوس وحكم كطاغية وعمت الفوضى في هاليكارناسوس زمانه حيث زادت حده الخلاف بين اليونانيين والكاريين وبين الاغنياء والفقراء وبين التجار وملاكي الاراضي وقد قتل ليغداميس هذا عمه بانياسيس وكان شاعرا لكتابته قصيدة ملحمية لاثارة الاضطراب وحماس الناس ضد طغيان ليغداميس وسرعان ما طرد هذا هيرودوتوس نفسه للدور الذي لعبه ضده فلجئ الى سلوس ثم عاد هيرودوتوس بعدها الى هاليكارنارنا سوس وقاد ثورة فيها ضد ليغداميس ولكن هيرودوتوس لاى نفسه كما تذكر الاخبار دونما شعبية بين المواطنين بعد انتهاء الثورة فلم يبق في مدينته بل رحل منها الى اثينا وهو امر ترفضه السويداس التي تصر على ذهابه الى ساموس وكونه لم يذهب الى ثوري فورا. ولم يعد هناك جدل حول ذهاب هيرودوتوس الان الى اثينا خاصة وان السويداس مصدر متأخر جدا وهناك من الادلة ما يشير الى وجود هيرودوتوس في اثينا امثال وجود جزء من قصيدة لسوفوكليس الى هيرودوتوس الى جانب تناقض دليل السويداس نفسها حيث تذكر عبارة تشير الى وجود هيرودوتوس في اثينا لذا فيمكننا ان نقر برواية وجوده في اثينا الى جانب دفاع هيرودوتوس عن بركليس واعجابه به. ومن الجدير بالذكر ان هناك من يعتقد ان سكنى هيرودوتوس في ساموس رواية مفتعلة ابتدعت لتفسير تعلم هيرودوتوس اللهجة الايونية ويتحمس البعض الى كتابة هيرودوتوس تواريخه في ساموس[٦].

وتذكر السويداس بان هيرودوتوس قد كتب تاريخه في ساموس وتضيف بان كان لهيرودوتوس دورا في شؤون هذه المدينة. ويرى الكتاب الاسكندرانيون ان هيرودوتوس[٧]. وبعد سكنى قصير في اثينا ذهب مع حملة استيطانية اثينية الى ثوري في جنوب ايطاليا حوالي سنة ٣٣٤ ق.م واستقر في ثوري وصار مواطنا لها. ولكن السويداس تذكر بان هيرودوتس ذهب مباشرة من هاليكارناسوس الى ثوري في وقت نستنتج به من قصيدة سوفكليس بان هيرودوتس في اثينا حتى سنة ٤٣١ ق.م ومنها ذهب الى ثوري ثانية. ويذكر سترابون وبلوتارخ وبليني الكبير ذهاب هيرودوتس الى ثوري. فربما بقي في ثوري سنة ٤٣٤ق.م ثم عاد اليها في اواخر حياته وربما زار اثينا واليونان ثانية بين ٤٤٣ و ٤٢٦ ق.م ومن الجدير بالذكر ان اخراج ليغداميس لهيرودوتوس غرس فيه كره الحكم الطغيان الذي بالنسبة له عكس الحرية والقانون والنصا ولكن هيرودوتوس لم يهاجم حكم الطغاة بل دون محاسنه وعيوبه ولكن يمكن تتبع شعوره الحقيقي تجاهه فنقرأ في مكان عن تثمينه للحرية عندما سأل احشويريش عاهل فارس الملك اسبارطة الاسيرد ديماراتوس ان كان الاسبارطيين سيحاربون فأجابه بأنهم سوف يحاربون واعطاه السبب (انهم احرار ولكنهم ليسوا احرار في كل شيء فعليهم رئيس وقانون يخافونه اكثر مما يخافونك انت رجالك. انهم بكل تأكيد يعملوا بكل ما يأمرهم به سيدهم وهو يأمرهم بنفس الامر فيأمرهم ان لا يهربوا من المعركة مهما كانت امامهم من جموع بشرية ولكن الالتزام بمراتبهم حتى النصر او الموت)[٨] ثم يذكر كيف ان الاثنين اذا كان الطغاه يحكمون فيحاربوا مثل اي شعب اخر ولكنهم لو تخلصوا من الطغاة فيصبحوا محاربين من الدرجة الاولى. فعندما يكونوا خاضعين على حد قوله فلا يمكنهم القيام بكل ما يستطيعون القيام به لانهم يعملون الى شخص ولكنهم عندما يصبحوا احرارا فكل منهم يعمل على احراز شيء لنفسه)[٩]. وهذا خير مثل على معارضة هيرودوتوس للحكم الفردي علما بان الحرية قد مكنت هيرودوتس من الذهاب حيث يريد.

اطلق البعض على هيرودوتس التسمية (ماركوبولو العصور القديمة)[١٠] قيل انه سافر مبكرا في حياته وجمع المعلومات التي ادرجها في كتابه اخيرا وحتى قدر احدهم المسافة التي غطاها خلال اسفاره بألف وسبعمائة ميلا.[١١] واذا كان هيرودوتوس قد قام فعلا بأسفاره في مقتبل عمره (بداية العشرينات) وهذا يصعب تقبله فيفسر سر تصديقه التفاسير التي سمعها. ودامت اسفاره سبع عشرة سنة. وكان هم هيرودوتوس ان يكتب بالتفصيل عن الحرب الفارسية اليونانية. وكل ومثل هذا العمل

6. W.W.How and J. Wells. A commentary on Herodotus, Books IIX. (Oxford, 1950) Vol. 1,p.9.

7. Myers, op. cit. Glover, op. cit.
8. Herodotus VII:104.
9. Ibid, V:73
10. How and Wells, op.cit.Vol. 2,p.16.
11. George C. Swayne, Herodotus, (Philadelphia, 1926), p.2.

يحتاج الى مقدمة يشرح ويتعقب بها بلاد فارس والمناطق التي تحتلها حتى يتعرف القارىء اليوناني على انواع الامم التي تحتلها فارس ومعبوداتهم ومنتجات بلادهم ومناخها وفنها وتجارتها. وربما سافر هيرودوتوس كتاجر من التجار حيث اننا نعرف ولعه بالقوارب واهتم بالمياه الصالحة للملاحة والاوزان والمقاييس والبضائع التجارية والصناعة. ونقرأ ذكره للمواد التجارية والبضائع (١٢) واجتهاده على ذكر وسائل المواصلات خاصة في الفرات والنيل (١٣) وكونه عارفاً وملماً بتفاصيل حياة الملاح وذكره لاشكال غريبة من التجارة كالمترجمين السبعة في طريق القوافل عبر السهوب (١٤) وتجارة افريقية الغربية (١٥) واستعماله الاصطلاحات التجارية مثل طاسة ليسبوس (١٦) وطاسة اركوليس (١٧) ويظهر انه كان حراً في تجواله مما يدل على احترام اليونانيين في المناطق التي مر بها. ومن الجدير بالذكر ان تواريخ اسفارهيرودوتوس لا تزال غير واضحة وحتى الاقطار التي زارها فعلا نعرفها فقط من اشاراته. فقد سافر الى مصر حوالي سنة ٤٤٩ ق. م (١٨) ثم الى القرم وسيكثيا (جنوب روسيا). (١٩) وربما كانت هذه اطول سفرة قام بها. وربما زار قورينه (ليبيا) خلال اقامته في ساموس على اساس العلاقة التجارية الموجودة بين قورينة وساموس. ثم سافر الى اسيا الصغرى وساردييس ومخر في سفينه من غرب الى شرق البحر الاسود وزار مدينة خالكيس في ايوبيه. وكان هيرودوتوس عارفاً بأحوال جنوب ايطاليا وصقلية واماكن مثل سرقوسة. ونعرف من اشارات في كتابه انه على معرفة ببلاد اليونان واثينا. بقي فترة في اثينا التي وصلها بعد خروجه من هاليكارناسوس وهو في أواخر الثلاثينات من عمره ولو انه لم يكن متفقا مع الاتجاهات السائدة فيها زمانه رغم هيامه بأفكار بركليس في الحرية الفكرية والسياسية. وادلتنا على سكنى هيرودوتوس في اثينا اشاراته العديدة لها وذكره الكثير اليها في كتابه الى جانب دليل التقاليد. وقد غادر اثينا سنة ٤٤٧ ق. م (٢٠) وقد قدمت عدة افتراضات عن سبب ترك هيرودوتوس لاثينا امثال احتمال نضوب امواله التي معه بحيث اصبح لا يتمكن من اعالة نفسه في المستوى الذي اعتاد عليه. وربما كان السبب عدم رضائه بمركزه السياسي فيها. ونعرف عن تركه اثينا بعد اربع سنوات ووصوله غرباً واقامته في ثوري على خليج تارينتو بجنوب ايطاليا التي جعلها البعض خمس عشرة سنة سافر خلالها الى صقلية وايطاليا وقورينة وهناك اشارات في كتابه تدل على عودته الى بلاد اليونان وزيارته اثينا ثانية بين ٤٣١ - ٤٣٠ ق. م ولكنه عاد الى ثوري حيث قضى بقية عمره (٢١).

ان تاريخ اية سفرة من اسفار هيرودوتوس لا تزال غير واضحة فهيرودوتوس لم يدعي روءية كل المناطق التي تكلم عنها. فنعرف بأنه لم يسافر في جنوب بلاد الغول والا لما اخطأ في وضع نهر الدانوب او تجاهل نهر الرون وخطأه في تقدير الشمس وحرارتها بالهند عندما قال بأنها اكثر حرارة عند الشروق وعندما تصل الى ما بعد الظهر تصبح الشمس بالنسبة لهم ما هي بالنسبة للاخرين عند البزوغ (٢٢) وكل هذه لابد وان عرفها من مصادر غير موثوقة. وهناك محلات نعرف بأنه لابد وان زارها فعلا. وكثيراً ما يقول انه رأى البلد او المكان بنفسه. واحياناً يذكر عن معالم اثرية القول (انها موجودة حتى عصري هذا) مما يدل على زيارته لها. فنقرأ قوله عن النيل (عندما يغمر النيل الاراضي ترى المدن فوقه اشبه بجزر بحر ايجه وتغدو بقية مصر مثل البحر المكشوف وتبرز فيه المدن فقط ولا تقطعه الناس...). (٢٣) وعندما ذكر البحر الاسود قال (منظر يستحق الروءية). (٢٤) ومن الجدير بالذكر ان الباحثين الغربيين لا يشكون ابدا في سفرته الى بلاد الرافدين ولكن من يقرأ ما دونه هيرودوتوس عن العراق يجزم فورا بأن قدميه لم تطأ ارضه البته بل لابد وان اعتمد على مارواه من اخباره على كتابات كانت متوفرة زمانه. فقد استعمل لفظتي بلاد اشور وبابل كمدلولين لمنطقة واحدة حين قال (وفي بلاد اشور مدن كثيرة... منها مدينة بابل) (٢٥) فبابل مدينة ليست في بلاد اشور. ثم نقرأ قوله بأن نسبة المطر في بلاد اشور (شمال العراق) قليلة الأمر الذي جعلها تعتمد على انهار المنطقة (٢٦). وهذا الحكم يصدق على بلاد بابل وليس اشور. ثم قوله عن انعدام اشجار العنب والتين في بلاد بابل والتي نعرف عن وجودها في العراق بقرون عدة سبقت هيرودوتوس. وادعائه بأن النخيل كان منتشراً في بلاد اشور فلا اساس له لان النخيل ينعدم تقريبا كلما اتجهنا شمالاً من موقع مدينة تكريت الحالية. ثم وصفه لاسوار بابل التي تعرف بأنها هدمت في سنة ٤٨٢ ق. م اي قبل زيارة هيرودوتوس المفترضة لبابل بسنين كثيرة وربما حتى قبل ولادته. ثم قوله بأنعدام وجود الاطباء في العراق وكون البابليين يضعون

12. Herodotus. III: 110-111.
13. Ibid,11:96.
14. Ibid, 1V:24.
15. Ibid, 1V:196.
16. 1V152.
17. Ibid, 1V:61.
18. Selincourt de Aubery The World of Herodotus, (Boston, 1962), p.31.
19. How and Wells. op. cit. Vol.1, p.5.
20. Ibid, footnote 5, p.31.

21. Ibid Vol.1, pp. 19-20.
22. Herodotus, 111:104.
23. Ibid, 11:97.
24. Ibid, 1V:85.
25. Ibid, 1:178.
16. Ibid, 1:193.

مرضاهم امام بوابات بيوتهم حتى يروهم المارة ويصفون لهم الدواء المجرب حسب خبرتهم . فالتقدم البابلي في الطب بز جميع ما لدى الامم القديمة جمعاء ولهم فيه باعا طويلا بقرون سبقت هيرودوتوس .[٢٧] اضافة الى قوله بأن العراقيين كانوا يدفنون موتاهم بالعسل والذي لا يمكن تقبله . ثم ادعائه بأن البابليين يستعملون نوعاً من الخبز يصنعونه من التمر . اما عن عدم تفصيله في قصة سميراميس فربما يكون سببه ان القصة بعد لم تكتمل تفاصيلها وما نسج حولها من اخبار زمانه .

اما عن اسباب أسفاره فقيل انه ارادها للاستفسار والملاحظة وبعد ذلك ادرك ضرورة تجميع المعلومات وكتابه تاريخاً . وقيل انه سافر من اجل جمع المعلومات لاخراج كتابه[٢٨] . وبعد ان استقر حوالي سنة ٤٤٧ ق . م بدأ في كتابه[٢٩] بعد ان تزود بمعلومات جغرافية وتاريخية واثارية واجتماعية عن المناطق التي زارها .

اعتبر دايونيسيوس الهاليكارناسي من القرن الاول ق . م هيرودوتوس بين المؤرخين الرئيسيين على اسس ادبية . وهو اول يوناني يدون كتابه طويلة وموسعة مزجت بها اجزاء عدة ورتبت بشكل تجعل الكل جزء واحدا . ومدح دايونيسيوس اسلوب ووضوح هيرودوتوس ومقاراناته الماهرة بين مختلف الاجزاء ، وقال ان هيرودوتوس هو أول من أعطى النثر جاذبية الشعر ويتفق الكثيرين من الباحثين المعاصرين مع اراء دايونيسيوس ووجه هيرودوتوس كتابه الى جميع اليونانيين وغايته جعلهم ينسون خلافاتهم ويعتبروا انفسهم امة واحدة . ونجده يقدم الاعتذارات عن الكثير من المدن اليونانية حول مواقفها من الحرب الفارسية . وفي الغالب عمل ذلك لتوحيد الشعور اليوناني والقضاء على اي نوع من الحقد . لذا فقد تكون اسباب كتابته لتاريخه رغبته لحفظ الاحداث الجسام للاجيال القادمة وكسب القوت والرغبة التي تخالجه في توحيد اليونان حيث عرف اهمية الوحدة من خلال خبرته وما يمكن تعلمه من دروس الماضي فاراد تقديم تاريخا لهم يفيدهم في المستقبل ويستمدوا منه العبر والدروس . وقد تحرى هيرودوتوس في تواريخه اشياء عدة ولكنه وضع الكل في كتاب واحد يدور حول موضوع واحد وهو كيف ولماذا اصطدم اليونانيين بالفرس ؟ وقسم تاريخه الى جزئين اساسيين تشمل الحديث عن الصراع بين الفرس واليونان منذ الثورة الايونيه حتى اندحار أحشويريش سنة ٤٨٠ ق . م ثم شيئاً عن الصراع بين الشرق والغرب وبدء نشوء دولة فارس[٣٠] ولو ان الكثير من ملاحظات هيرودوتوس وتعليقاته قد انتقدت واعتبرت اساسا خالياً من الواقع التاريخي ولكن بعض ما جاء به قد برهنت على صحته الادلة الاثارية[٣٢] . ودون هيرودوتوس تاريخه في مزيج لغوي للهجات ايونياً المحلية ونظراً لولعه بالالياذة والاوذيسة فقد جاءت كتاباته من ناحية الاسلوب متأثرة بهما . واسلوبه الكتابي هذا وكتابته المليئة بالحيوية تسند الرأي القائل بأن هيرودوتوس قد اعد كتاباته للالقاء وانه قد قرأها في محاضرات عامة . وهذا الرأي تؤيده قصة يذكرها بلوتارخ من القرن الاول تعرض بها الى قراءات عامة من قبل هيرودوتوس الى حشود اليونانيين في اولمبيا واثينا . وذهب الى القول بأن الاثنيين قد أجمعوا على مهارة هيرودوتوس وكافئوه بجائزة مقدارها عشرة طالينات من الفضة .[٣٣] ويذكر ديللوس Diyilus الذي لدينا شذرات من كتابه تاريخ العالم عن تسلم هيرودوتوس عشرة طالينات عن قراءاته اخباره الى اهل اثينا . ونعرف ان هناك تقليدا يذكر ان الشاعر بيندار تسلم عشر دراخمات عن قراءته لبعض اشعاره الى الاثينيين فربما امتزج هذين الخبرين مع بعضهما . علماً بأن لوقيانوس اخبرنا بأن هيرودوتوس فتش عن طريقة يجعل بها كتابه عاما معروفاً و يصبح هو بها مشهوراً فذهب الى الالعاب الاولمبية حيث قرأ بعض اخباره . ويتعرض ليسياس Lysias الى تكريم الاثينيين لهيرودوتوس على قراءته قطعا من اشعاره . ولكن لماذا حصل هيرودوتوس على تأييد الاثينيين الشعبي ؟ ولماذا قرىء كتابه من قبل الكثيرين مثله في ذلك مثل الكتابات المنسوبة الى هوميروس ؟ فالمعروف بين الكل ان كتابات هيرودوتوس سلسة ومسلية وكون كتابه يقرأ للمتعة وليس لذا اسماه الكثيرون قاصاً . واهتمامات هيرودوتس واسعة والتاريخ بالنسبة له يشمل التاريخ والجغرافية والفن والعادات والقصص الشعبية فلقد سافرو تحرى ودون بعد ذلك ما رآه حتى لا تنسى المآثر على حد قوله . وقد وضع الكثير من مشاعره الشخصية في كتابه وتكلم عن شخصيات وليس عن حركات . وان دقته وتنويعه لكتاباته وتطعيمها بالقصص اعطت بعدا عميقاً لها اثرت على افكار الناس عنها . ولم يعطنا هيرودوتس تفصيلاً عن ارائه لانه كما يظهر يعتقد ان ليس من واجبه ان يقدم ارائه بل يتقبل الأخبار والحقائق كما رويت له . واحياناً يعلن عن قصة لا يعتقد بها بقوله (ولكن كل شيئ محتمل)[٣٤] وهذه العبارة توضح شخصيته حيث تصور ادراكه بان كل ما يعرف ويسمع ليس هو الشيئ الصحيح الوحيد . واعتقد ان واجبه المؤرخ ان ينقل ما يسمع وليس ان يفسر وان يعرض ما يسمع ويتحرى في طريقه يفهمها الناس . وان الكتب الستة الاولى من كتابه المتألف من تسعة كتب عبارة عن مقدمة عن الحرب ملئها بأخبار مدهشة عن

27. Ibid. 1:197.
28. Myres, op. cit. p.9.
29. Will durant, The life of Greece, (New York, 1939), p.430.
30. How and Wells, op. cit. Vol.1, p.47.
31. Myres, op. cit. p.60.
32. Harry Carter, trans., The Histories of Herodotus, Vol.1, (New York, 1958), p.10.
33. Plutarch, Morablia 855-75 De Malignitate Herodotus.
34. Herodotus, 1V:195.

الشعوب الخاضعة للامبراطورية الفارسية وعاداتهم . وقد اتهم هيرودوتس كما سترى بأنه جمع اخباره من كلام الناس والمسافرين وكونه لم يزر المناطق والاماكن التي ذكرها في كتابه . ويستشهدوا في عدم اهتمامه بوصف التضاريس الارضية للاماكن التي يفترض انه زارها وكثيرا ما يناقض نفسه فيما اورد وفشله في معرفة اسباب الاحداث التي ذكرها وكونه مرتبك على الدوام لا يعرف النتائج من الاسباب للحوادث التي يسطرها . وزغم تأكيده على الفعاليات البشرية فأنه لم يتفهم الحركات العامة والدوافع الحقيقية . الى جانب عدم معرفته بالامور العسكرية وكون بساطته جعلته عرضة لعدم الوقوف على حقائق الامور خاصة في قضايا التعبئة والحرب ولكن بساطة اسلوبه ولغته السهلة واخباره الطريفة اخفت الكثير من عيوبه .[٣٥] ولم تخف هذه العيوب عن الكتاب القدامى فهذا سترابون (٦٣ ق . م – ٢٣) يقول ان هناك الكثير من الامور التافهة في هيرودوتس .[٣٦] ويطلق عليه ارسطو صانع الاساطير ولا نعرف ان كان شيشرون جادا عندما نعته بأبي التاريخ كما هاجمه بلوتارخ . ورغم كل ذلك فقد قدم لنا هيرودوتس كتابا بأخبار هامة . ورغم الاخطاء الكثيرة التي حواها كتابه لكن اراته عن الحضارة القديمة هي بين الامور ذات الفائدة في التاريخ . ويحوي كتابه الكثير من المميزات التي تطغى على عيوبه حقاً . وحاول هيرودوتس ان يقيم مختلف انواع الادلة ويقدر درجة قيمتها . كتابه موجه الى دائرة واسعة من اليونانيين من مختلف المدن المتحاربة ويحاول جعلهم يتناسون خلافاتهم ويعتبروا انفسهم امة واحدة . ولم يكن هيرودوتس متعصباً لاية جماعة معينة وبعيد عن التعصبات الاقليمية والنعرات المحلية ونرى ذلك واضحاً عند تقييمه لاعدائه الفرس . وعزى اندحارهم في الحرب الى انحطاط اسلحتهم . ويجمع الباحثون ان تاريخه ثيولوجي وكتابه اشبه بخطبة دينية طويلة . والتاريخ من وجهة نظره هو صفحة هامة لحياة الامة تبرز فيها منجزات العناية الالهية .[٣٧] وانه متأثر بروح التساؤل والتحري والاستفسار . وهو ليس كالكتاب الاخرين الذين اهتموا بأديانهم ومبادئها فقطوأ وضحوا مساوئ وعيوب الاديان الاخرى بل ان هيرودوتس انتقد اربابه الخاصة ولم ينتقد العقائد القديمة في الأرباب والاساطير وتكلم عن الدين بكل احترام واعتبر هيرودوتس عامل الصدفة والقدر فوق كل شيء .[٣٨] وما الدين الامزيج من المحافظة والخرافة والانسجام من اجل الاخلاق السامية والطبائع العالية . ومن الجدير بالذكر ان هيرودوتوس عاش وقت تغيرات عظيمة في الافكار والمبادىء اليونانية . ويكمن عيب هيرودوتوس في اعتماده على اقوال مخبريه الاجانب ولكنه عندما يتكلم عن امور رآها بنفسه فيمكن انذاك الثقة بأقواله والاعتماد على احكامه . والمعروف انه ظل حتى نهاية حياته يعمل على تشذيب وتعديل اسلوب ولغة كتابه . وانه متسامح قادر على الاحتمال يحب الفضيلة يوءمن بالطيب بعقليه راجحة وذكاء . واعتقد بأن الاعمال العظيمة لاية امة وأي رجل ليست هي حكرا على شعب معين وهو مقتنع بأن الحاضر له اسباب تكمن في الماضي ولدراسة الماضي ! اهمية تفهم الحاضر وهو خير دليل للمستقبل .

ولكن اين كتب هيرودوتس كتابه – ؟ تذكر السويداس انه دونه في ساموس وهذا الاستنتاج متأت من كون ما كتبه عن الجزر يصور معرفته الكلية بها .[٣٩] ولكننا نعرف انه عدل ونقح في مدوناته حتى نهاية حياته ووضع كافة اجزائه سوية حتى اخرجه كما هو عليه الان . ومن الجدير بالذكر ان هناك نظريتين حول ذلك طرحها كرشهوف وباور في القرن التاسع عشر . وتتلخص نظرة كرشهوف في – ١ . ان تاريخ هيرودوتس قد كتب في شكله الحالي وهذا يتضمن رفضه لاي تعديل لاحق . ٢ . ان الكتابين الاولين وحتى الفصل ١١٨ من الكتاب الثالث قد دون في اثينا . ٣ . بعض اجزاء الكتاب الخامس التي سبقت الفصل ٧٧ قد دونت في ايطاليا . ٤ . ان هيرودوتس قد اكمل كتابه بحيث صار كما هو عليه الان بعد عودته الى اثينا سنة ٤٣١ ق . م وانه مات سنة ٤٢٨ ق . م وهو لا يزال مستمراً في كتابه . ويصر كرشهوف بعدم وجود اية اشارة الى الغرب في القسم الاول من كتب هيرودوتس .[٤٠] ولكن كرشهوف حسب ما يظهر قد غض النظر عن فصل مهم من الكتاب الاول (١٦٣) الذي يذكر (ان الفوكيين هم اقدم اليونانيين الذين قاموا برحلات طويلة واكتشفوا الادرياتيك وساحل تيبرسينيا Typresnia وايبريا وتارتيسوس Tart isus (تارشيش) . وقاموا بهذه الحملات في سفن ذات خمسون مجذافاً وليس في سفن مدوره . وعندما وصلوا الى تارشيش رحب بهم اركانثونيوس Arganthonius ملك البلاد الذي حكم ٤٠ سنة حتى ذلك الوقت وعاش الى سن ١٢٠ واستحصلوا على رضاه بحيث التمسهم على ترك ايونيا والسكنى في اجزاء من مملكته ولكنه لم يتمكن من اقناعهم . ولما عرف انهم في خطر عظيم من قوة الميديين المتزايدة اعطاهم اموالاً لبناء سور حول مدينتهم بكل كرم) .[٤١] واضاف كرشهوف عن التوقف في الفصل الثالث ان هيرودوتس في الكتاب الاول (١٠٦) والكتاب الثاني (١٨٤) اعطانا وعودا لم ينفذها

35. J.B.Grundy, The Great Persian War, (London, 1901), p.373.
36. Strabo, Geography, XV11, 1. 52.
37. How and Wells, op. cit. Vol.1, p.48.
38. Glover, op. cit. p.9.
39. How and Wells, op. cit. Vol.1, p.10.
40. A.Kirchhoff, Enstehung des Herodotus Geschichtswerke (Leipzig, 1878).
41. Carter, op. cit. p.67.

ثم انه اشار في الكتاب الاول (١٣٠) الى ثورة ميدية لابد وان اراد معالجتها في قسم لاحق من الكتاب الثالث ولكنه لم يكتبها . وهذا النوع من عدم الثبات يحتاج الى تفصيل ويعلله كرشهوف بهجرة هيرودوتس الى ثوري الذي جعله ينسى ما وعد به وكل ما يتعلق برغباته السابقة . وبسبب كثرة الاشارات الى اثينا في الكتابين الاولين فلابد وان تكون هي برأي كرشهوف مكان كتابتها . اما رجوع هيرودوتس الى اثينا فيبرهنه كرشهوف بعدم سماع هيردوتس بالزلزال الذي حدث لجزيرة ديلوس في ربيع سنة ٤٣١ ق.م .

وعلى النقيض من نظره كرشهوف تأتي نظره باور[٤٢] الذي يعتقد ان كتاب هيرودوتس قد دون في اجزاء منها ما دونه عن حمله احشويرش على بلاد اليونان (الكتب ٧–٩) والتي ليس من الضروري ان تكون هي الاولى والتي كتبها في اثينا سنة ٤٤٥ ق.م ويقول باور ان هيرودوتس ذهب من اثينا الى سكيثيا وبعدها كتب تاريخ سكيثيا ثم الى مصر وكتب الكتاب الثاني بعد رجوعه . ومن هناك ذهب الى ثوري ودون حتى منتصف الكتاب الخامس ثم عاد الى اثينا حيث اكمل الكتاب وتنقيحه . اما البراهين التي يقدمها باور فهي – ١ . ان هيرودوتس قد ذكر في كتبه الاخيرة اشخاصاً واماكنا كان قد ذكرها في كتبه الاولى وكأنها غير معروفة امثال داريوس وماردونيوس وديماراتوس في الكتاب السابع . ٢ . ان كتبه الاولى ومواضيع في الاقسام الاخيرة من كتبه عولجت بكل تفصيل واحياناً تتميز بعدم الثبات في المعلومات مثل ماسرد عن الاحباش في الفصل ٧ من الكتاب السابع ويعتقد الكثيرون ان آراء باور مقنعه . وان عدم الثبات الذي لاحظه باور عند هيرودوتس هي امور تافهة يمكن ملاحظتها في كل كتاب . ويعتقد هول وويلز ان انتقادات كرشهوف وباور مستندة على مقارنات مع الكتب الحديثة ولكن الكتب القديمة غير مطبوعة مثل الحديثة وكتبت في طريقة طرأت عليها عدة تنقيحات بعد ذلك .[٤٣] .

يمكن تصنيف مصادر تاريخ هيرودوتس الى – ١ . مدونة ٢ . شفهية ٣ . اثارية فمن الوثائق المدونة التي استعملها اثباتات اسماء الكهنة والملوك والفائزين في مختلف الالعاب الوطنية باليونان (البيثية والمضيقية والنيمية والاولمبية) ثم الكتابات المدونة على العطايا النذرية التي عثر عليها في مزارات دلفاى واولمبياد والمعابد في مختلف المدن اليونانية والساحات العامة والتي منها الاوعية البرونزية والذهبية المكرسة الى الاله ابولو بعد الانتصار على الفرس في معركة بلاتايا وعليها اسماء الجماعات اليونانية التي لعبت دوراً في الصراع . وقد اخبرنا مرة (هذا ما اعرفه بالوثائق عن اهل دلفاى) .[٤٤] واقتطف هيرودوتس من الشعراء الذين عاشوا زمانه خاصة ما نسب الى هوميروس وتلك لبندار كما استعمل الوثائق الاجنبية الرسمية التي وجدها . وذكر لنا ايفوروس (حوالي ٣٤٠ ق.م) ودايونيسيوس الهاليكارناسي من القرن الاول وبروفيري ان هيرودوتس قد استفاد من كتابات خانثوس الليدي الذي ولد في بدء الاحتلال الفارسي لاسيا الصغرى وشارون من لامبساكوس المولود في نهاية القرن السادس ق . م . الذي له كتب عده امثال كتاب الهند (انديكا) واليونان (هيلينيكا) ورحلة فيما وراء أعمدة هرقل (جبل طارق) الخ ثم هيلانيكوس الميتيليني المولود حوالي ٥٠٠ ق.م . الذي تذكر المصادر له خمسة وعشرون عنواناً لكتب منها (حول كاهنات هيرا في ارغوس) و (الفائزين الكارنين) وهكتيوس . كما استعمل هيرودوتوس الادلة الشفاهية نعرف ثلاث منهم من بلاد اليونان هم ارخياس الاسبارطي وتيمينيس Typmnes من اولمبيا وثيرساندر من اورخومينوس .[٤٥] واعتمد على شهود عيان كثار وسمع اخباراً من اناس سمعوها عن ابائهم واجدادهم . اما الدليل الاثاري فمنها ذكره لتماثيل قورينه[٤٦] وقبور سكيثيا[٤٧] ونافورة ايكزامبويس[٤٨] Exampoeus الكبيرة والهرم قرب مدينة ممفيس .[٤٩]

ان معنى هيستوريا Historia في اليونانية التساؤل والتحري لذا فأن كتاب هيرودوتس هو (التحريات والاستفسارات)[٥٠] . وقد استعمل هيرودوتس كل المعلومات التي جمعها وادخلها في تاريخه . ولم يشغل نفسه في ماضي اية امة بل بأمور امثال اسباب الزلازل وتشييد السفن على الفرات وارتفاع وسمك اسوار بابل وبجغرافية ومناخ البلدان التي كتب عنها . وكان يسبح في الخيال ويؤثر في العواطف وكتب عن منجزات شخصيات يونانية وأجنبية . وقدرت كتاباته الغنية والمختلفة المادة بالشكل التقليدي (على شكل اخبار واقاصيص كما عمل سابقيه) ولكنه نسج اقاصيصه بنموذج تاريخي جعلها تدور وتخدم موضوع واحد هو الحرب الفارسية – اليونانية . ويتملك اسلوب هيرودوتس السهل المسترسل حتى في تراجعه سحراً ملائماً الى قصة طويلة تقرأ بصوت عالي . وتناول بدراسته حدود الذاكرة البشرية عن تاريخها وحدود العالم المعروف زمانه ثم دون قصصه الخاصة وتلك التي اخذها من سابقيه

42. A.Bauer, Enstehung des Herodotus Geschichte, (Berlin, 1878).
43. How and Wells, op. cit. Vol.1, pp.12-13.

44. Herodotus, 1:20.
45. Ibid, 111:55; 1V:76;1X:16.
46. Ibid, 11-182.
47. II:71.
48. 1V:81.
49. 11:101, 125, 134, 136, 149.
50. Selincourt, op. cit p.34.

ترد عند مؤرخ غيره[22] وبهذا فان اسلوبه تأرجح بين الاسهاب والاطناب في الحوادث المتقاربة والمتشابهة ستجعل الخلل واضحا في رؤيته الى التاريخ الذي يجب ان يكون ذا بعد انساني الى ان ابن الاثير طالما وقع ضمن قائمة المؤرخين للتاريخ الحولي في كتابه الباهر فله الحق بان يبقى مشدودا الى افق الكيان السياسي – لان الفرق بين التاريخ العام او تاريخ الاقليم «المحلي» واضح ففي الاخير لايمكن ان تظل رغبة المؤلف واخباره عامة[23] ..

واخرجوا منها تاريخاً جامعاً واحداً . ومقاييس احكامه هي ملاحظاته الشخصية ولكنه كثيرا ماكان يعتمد على السماع . فقد ادرك هيرودوتس ان موضوعه هو جزء من عملية كبرى وانه عارف بالخيوط التي تربط بلده بالبلدان الواسعة ذات الاخبار المسحرة في مصر واسيا . فيتمكن القارئ ان يعرف لدى قراءة هيرودوتس ان مركز اهتمامه هو بلد واحد وسط عالم واسع ومتنوع والمعروف عن هيرودوتس عدم تحيزه حيث ابدى نظرة محايدة الى الاجانب ولم يكن لديه اي كره لهم . فامتدح الروح البحرية للفينيقيين.[51] ومهارتهم في صنع السفن ثم عاديات مصر[52] وبابل والمنتجات الطبيعية لنهاية العالم[53] ورفض القول بان سياسة اسبارطة انانية او ان ارغوس مفتوحة الى اي لوم ولكنه شعر بالامتنان الى المدن التي استضافته مثل ساموس واثينا . وكتب عن قدم الدين المصري وسبقه للدين اليوناني وقال (ان المصريين هم اول من استعمل الاصطلاحات ١٢ ربا واخذ اليونانيون ذلك منهم وهم اول من بنى المذابح ونحتوا التماثيل وبنوا المعابد للارباب وصنعوا التماثيل للاحياء من الحجر وقد اروني الكثير منها كبرهان).[54] ثم ارجع بعض اصول الدين اليوناني الى البلاسيكيين . وكلامه هذا عن المصريين والبيلاسيكيين[55] يظهر لماذا وجهت الانتقادات الى هيرودوتس . وهو اول كاتب اوربي يستعمل النثر كواسطة لعمل فني . ولغته هي الدارجة زمانه وامتدح الكتاب اليونانيين اللاحقين سهولة وحلاوة اسلوب هيرودوتس ويجمعون بانه قد دون تاريخه عن الحرب في طريقة مستقيمة ولغة واضحة . وان تقيده واعتداله قد اثركثيرا في كتاباته التاريخية فقدم نموذجا للاسلوب العالي في وصف العمل البطولي والتفاني في سبيل الواجب . ولم يقتصر اهتمام هيرودوتس بالادب اليوناني فقط بل بالعالمي . فمنذ عشرات السنين لم يعتبر الباحثون هيرودوتس مؤرخا او مهتما باليونان فقط بل بأبي النثر وأب الجغرافية البشرية .[56] ونعرف بانه قد تأمل بالكثير من الظواهر وقدم لها تفاسيره

الخاصة امثال دائرة السماء والشمس والقمر والجو برياحه ومناخه . ويمكن اعتبار هيرودوتس انسكلوبيدي والحلول التي يقدمها نابعة من نفسه ونراه يقدم حلا لكل مايراه محيرا واذا كانت هناك اراء متناقضة فيقدم الافتراضات التي يمكن ان توفق بينها . واذا تم تفحيص مواضيع هيرودوتس على انفصال نجدها ذات اهمية كبيرة . ونراه يجتهد على شد القارئ بكتابة يتدفق مواضيعه وتنوعها . فنراه في كتابه مهتما بالقضايا الطبيعية والاساطير واصول الطقوس الدينية واهميتها والاقتصاد السياسي لذا جاء كتابه مليئا بالقصص والنكت والتحري والاخبار الطريفة بكل موضوع اظهرته ككاتب قادر على تصوير حركات التاريخ العظمى بكل نبل وقوة . وقد انتقد لمئات السنين على طريقته ولكنه بالواقع كان يختبر الادلة ويحاول تقدير درجة قيمتها الى جانب كونه اول من يدون كتابه طويلة على حد معرفتنا الحالية ومفصلة ذات اجزاء عدة مرتبطة مع بعضها لتخرج مزيجا واحدا . ثم حب استطلاعه لمعرفة احوال الشعوب التي تكلم عنها واثارت استغرابه الكثير من الامور وكانت تسره الامور العملية مثل طريقة بناء السفن على النيل والهندسة التي مكنت احشويرش لشق قناة خلال قمة جبل اثوس الداخلة في البحر ووصف بناء الاهرامات المصرية بكل تتفصيل . وكذلك اسوار بابل وتحويل مجرى الفرات من قبل الملكة الاشورية (؟) وخرج كتابه يمتاز بالجدية وعدم التحيز والتحرر من الغرور الوطني والعاطفة السياسية والوحدة . في الموضوع رغم تشابك وكثرة احداثه والمهارة في تصوير الشخصيات (امثال الفرس والاثينيين والاسبارطيين وثيموستكليس واريستايديس والطغاة امثال كرويسوس واماسيس وتوميريس ونيتوكريس) الى جانب قوته الدراماتيكية وصبره ونكته وتنوعه وايضاحاته وبساطته وجمال اسلوبه . ورغم كون الفرس اعدائه فأن لم يخف اعجابه بنظامهم التربوي ودينهم وحتى اظهر بعض صفات احشويرش الطيبة وكتب عن ميزات الاجانب الحميدة ولم يخف اعجابه بمصر او يكتب فقط عن انتصارات اليونانيين واندحار غيرها بل اعطى التقريرين كما وصلا . فهيرودوتس لم يرى العالم يونانيا فقط بل ان لكثير من العالم الطيب ليس يونانيا . وفي مقدمته لكتابة حاول ان يظهر الجيد والرديئ للشعوب التي اهتم بها لانه عارف بوحدة التاريخ[57] وليس امامنا الا ان نكبر حبه للمعرفة فنقرأ مرة قوله (لقد زرت طيبة وهليوبوليس لهذا الغرض المهم لاني ارغب في المعرفة).[58] وكثيرا ماكان يستعمل الالفاظ (عجيب) و (يستحق الرؤية) وكلها تدل على تعطشه بالمعرفة . وقد ادهل هيرودوتس في كتابة الكثير من القصص الممتعة والنكات الطريفة ومن هذه على سبيل المثال الطريقة التي حصل بها كايكيس **Gyges** على عرش ليديا وكيفية نجاة كرويسوس ملك ليديا من الحرق وهو ملق على كوم الحطب

51. Herodotus 44, 99.
11: 23(44(99.
52. Ibid(1: 93.
53. Ibid(111: 106(114.
54. Ibid(1: 53.
55. Ibid(114.

وترعرع كورش في كوخ الراعي ثم قصة رامبسينيتوس **Rampsinitus** وسرقة كنز الفرعون وانقاذ قبطان البحر لاحشويرش وسط عاصفة بالبحر الايجي. ويمكن رؤية حبه للمتعة في كتابته عن دوره الشمس (تشرق الشمس كما يظهر في الهند ولهذا السبب يحترق الهنود بأشعتها وقت الفطور فيدخلون الى الماء حتى ذقونهم بينما يتمتع الغربيون بفطورهم ويتناولونه بكل راحة. وعند الظهيرة حيث ترتفع الشمس مراحلا عن الهند تخرج هذه المخلوقات من انهارها فيجدون الاحوال احسن واكثر تحملا.. ثم تذهب الشمس لتسابق فوق ادمغة الاحباش والليبين حيث تحرق ... الخ).

لقد وقع هيرودوتوس بأخطاء عدة فاعتماده على المخبرين والتقاليد وتقبله الخوارق والتقاليد حتى عن عصور سبقته بكثير كلها عيوب يوأخذ عليها الى جانب الكثير من قصصه لا قيمة تاريخية لها.[٥٩] وينتقص كتابه للاطار الكرونولوجي خاصة للقرن السادس ق. م. ومن عيوبه الاخرى تأكيده على العنصر الالهي وتدخل الارباب في الاحداث اي نظرته الثيولوجية الصرفة ثم اهتمامه بالمعجزات وحب المغالاة التي نعرف انه اراد بها جذب قراءه ثم التناقض في الكثير من اخباره وفشله في معرفة الاسباب الحقيقية للاحداث. وكثيرا ماكان هيرودوتس يؤكد على الفعاليات الفردية ودور الفرد وينسى الحركات العامة واوضاع تلك البلاد التي خلقت الفرد ودفعته. الى جانب معرفته القليلة بالتكنيك والاستراتيجية التي نعرفها من اوصافه الفقيرة للمعارك. وكذلك ايمانه بالفال والوحي والاحلام وكثرة التكرار وعدم الثبات وانتقاصه احيانا الى الدقة والضبط وافتقاره للبعد التاريخي. ويزودنا احيانا بمعلومات جغرافية غير صحيحة واحوال مناخية خاطئة واخطاء نحوية. كما يؤمن هيرودوتس بانتقام الارباب التي اعطته كما ذكرنا تفسيرا ثيولوجيا للمشاكل الخلقية والسياسية وهذا الاعتقاد حجب عنه رؤية الاسباب الحقيقية للحداث. ونضيف الى كل ذلك عدم الدقة في احصائياته وتواريخه. ومن لك هذا نرى لماذا لايعتبره المؤرخون مؤرخاً اعتمد الموضوعية.[٦٠].

وقد اطلق على هيرودوتس ايضا ابو الكذب وهذه التسمية غير صحيحة ولاتنطبق عليه ابدا. في اطار الاحداث العام يمكن الثقة بهرودونس ولكن هذه الثقة تتناقص في القضايا التفصيلية. وطريقته عندما يحصل على معلومات متضاربة عن حدث واحد ان يذكر كل الروايات ويتعرض الى الواحدة التي يعتبرها اكثر رجحانا واحيانا يضع الاساطير والاخبار التي لايمكن الثقة بها كبراهين على ما يريد. ومن هذه على سبيل المثال القصة التي رواها عن طواف الفينيقيين حول القارة الافريقية في سفينة لهم حيث قال ان بينما كان البحارة يسيرون غرب الساحل الجنوبي للقارة جعلوا الشمس في وسط النهار على يمينهم. ان هيرودونس لم يقصد الكذب في حالة روايته لشيء غير صحيح فانه صادق حيث يستعمل الكلمات (يقال) و (قيل لي) ويمكننا ان نثق بالاشياء التي قول انه رآها بنفسه. ومما اخبرنا عن سماعه (الانثروبوفاكي والجماعة التي تنمو رؤوسها تحت اكتافها) والتي ربما ذكرها للمتعة وتسلية القارئ ولو ان هناك الكثير من الامور التي ذكرها هيرودوتس بعيدة عن الصحة مثل تقديره جيش احشويرش. فقد قدر هيرودوتس عددة باكثر من مليونين ونصف محارب الى جانب نفس العدد من الجنود المرافين المسؤولين عن المؤونة وملاحي السفن ثم قوله بان عدد نساء الجنود الذين مع المحاربين لايمكن تقديره وهذا معناه انه قدر جيش احشويرش بحوالي ستة ملايين. ويميل الباحثون الان الى اعتبار جيش احشويرش لايزيد عن ثلثمائة الف جندي.

واشد نقد تعرض له هيرودوتس من الكتاب الاقدمين جاء من بلوتارخ الذي قال ان هيرودونس يميل الى الشخصيات الفضة القاسية القلب في وقت يمكنه استعمال الاكثر شفقة ورحمة. ثم حبه تقديم معلومات سيئة عن شعوب بمجرد الاتهام ويخفي امورا طيبة عنهم. ويضيف بلوتارخ بأن هيرودوتس بتفضيله ذكر الاخبار السيئة لايتعرض لذكر السبب الحقيقي وكونه يحب اليونانيين. ولاثبات اتهامه الخير يسرد لنا بلوتارخ اقوال هيرودوتس بكون اليونانيين ق تعلموا دينهم من غير اليونانيين واتهامه كلايسثينيس برشوة كهنة معبد دلفاي واطلاقة عبارة بدء الاضطراب على حرق سارديس والتي كان اليونانيين يعتبروها منار الحرية. ورأي بلوتارخ في هيرودوتس متطرف لانه يعتقد ان كل ما رواه صحيح واتهامي.

ولكن ماهو دين هيرودوتس؟ ان الكثير من كتاباته متأثرة بالعقائد الدينية فنراه يتكلم عن التدخل الرباني في الاحداث وينسب المعجزات والعلاقات الى الارباب دون ان يسميهم بالاسم. ويعتقد ان الرب يظهر في الطبيعة كسبب للنظام[٦١]. وان العناية الاهلية يمكن تسلمها في التوازن بالطبيعة[٦٢]. ويشارك سوفوكليس النظرة بان البرئ والمجرم يلقيا جزائهما في هذه الدنيا ويعلل ذلك بنصيب الانسان في الحياة. ومن بين الارباب اكد هيرودونس على الاله ابولو فالكتب ١ - ٦ مليئة بأسم هذا الرب الذي كانت له شعبيته في اليونان وايونيا ومواحية مهمة في السلوك والقانون اليوناني. ويؤمن بالمواحي التي يقول عنها (بالنسبة للمواحي فاني لا اتمكن ان اعارضها واقول انها ليست صحيحة لاني ليست لي الرغبة لاحاول رمي دليلها عندما كلم بكل وضوح). وايمان.

هيرودوتس الكلي بالخرافات يجعل من الصعب فصله عن المواحي ويحاول على الدوام تقديم الاعذار عن فشلها وعدم تحقيقها ولو انه لا يمكن القول بأنه وقف مكتوف الايدي تجاهها وتقبلها كلياً . فنعت احدها (مزاحاً) جاعلاً احد الارباب يعتذر بخجل عن اخرى . وقال عن وحي اخر ان كهنة الاله ابولو هم الفاسدين .(٦٣) وان الاعتدال والحكمة تعم الاقسام الاولى من كتاب هيرودوتس .

لقد تقبل هيرودوتس الاساطير ولكنه حاول ادخال العنصر العقلاني عليها بتحويل العناصر الخارقة بها الى امور يمكن تقبلها والتصديق بها . ولكننا نراه يمزج بين الاساطير اليونانية والشرقية ويفشل على الدوام في معرفة الاساس الشرقي للمعتقدات والعبادات اليونانية .(٦٤) وان الفصل بين الاسطورة والتاريخ واضحاً عند هيرودوتس لذا صار من السهل عنده غض النظر عن عدم الثبات في نظرته عن البيلاسيكيين وقوله بأن غير اليونانيين زمانه هم من بقايا الجماعات من يوناني عصور ما قبل التاريخ .(٦٥) ويظهر ان هيرودوتس قد افترض عند كتابته لتاريخه معرفة اليونانيين لتاريخ بلدهم ومدنهم والارواح المرتبطة مع جبالهم و انهارهم وبحارهم . فأبطال اساطير هيرودوتس ذوى مزارات معروفة والغير المتدين هو الذي لا يؤمن بالارباب الابطال . وفي اللحظات الحاسمة في تاريخه وقبل المواقع الفاصلة ووقت انتظار الحلول الهامة زمن الاوقات العصيبة يتذكر هيرودوتس شخصيات اساطيره .

اما في الجغرافية فأن هيرودوتس غير واضح في تحديداته لحدود الدول وشكل الارض وطول واتجاه اية رحلة وطبوغرافية اية معركة . ومن الصعب جداً رسم افكار هيرودوتس الجغرافية . فقد اخبرنا مرة(٦٦) بأنه يحاول وصف ما يشبه اسيا واوربا حتى يسهل تصويرها . فبدأ بأسيا حيث يضع خمسة شعوب تعيش فوق بعضها البعض تمتد من بحر الى بحر . ومن تلك الارض تمتد شبه جزيرتين غرباً في البحر وهي اسيا الصغرى وبلاد العرب مع ليبيا (افريقيا) المتصلة بها بواسطة رقبة ضيقة من الارض . ومن العجيب ان نرى يونانيا مثل هيرودوتس يبدء خارطته للعالم (كما يتصورها) من اراضي تقع وسط بلدان محتلة من قبل فارس انذاك . واحياناً يخلط بين المناطق فيشير الى ليبيا كمصر واخرى يرفض ذلك . ومرة يذكر اسبابه في عدم اعتبار مصر اسيوية ولا افريقية ولكن محايدة بصورة مصطنعة من قبل نهر النيل الذي يجعله الحد الفاصل بين اسيا وافريقيا .

وفاته —

من الصعب جداً معرفة تاريخ وفاة هيرودوتس ولكنه لابد وان مات بعد سنة ٤٣٠ ق . م . حيث لم يذكر اي حدث بعد هذا التاريخ ولم يتعرض الى ما يتعلق بالحرب البولوبونيزية . وهناك من يجعل وفاته سنة ٣٩٤ ق .م . ويدعون انه امتد به العمر الى سن التسعين . كما يصعب معرفة المكان الذي توفي فيه . فغالبية الكتاب القدامى يفضلون وفاته في ثورى ودفنه في سوقها . ويضيف اصطيفان البيزنطي الذي يؤيد الرواية ان تمثالاً برونزياً في ثورى لهيرودوتس . كما ذكر وجود قبر لهيرودوتس في ثورى مدون عليه (هذا التراب يخفي جسم هيرودوتس ابن ليكسيس وأمير التاريخ الايوني القديم الذي جاء من بلاد الدوريين هارباً من ازدرائهم له وجعل ثورى وطنه) . وهناك من يذكر وفاته في بيلا بمقدونيا أمثال السويداس .(٦٧) في وقت يرى به اخرون ومنهم مارسيلينوس Marcellinus انه توفي في اثينا .

منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية

تاليف : الدكتور هادي حسين حمود

عرض : الدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني

يتناول الكتاب دراسة المسعودي (ت ٣٤٦هـ) كمؤرخ للأديان ، والعقائد ، حيث تطرق الى ترجمته بصورة مفصلة متناولاً شخصيته ، وتوثيقه من خلال أراء العلماء فيه ، وتاريخ عصره ، ومؤلفاته الباقية والمفقودة المطبوعة والمخطوطة ، اضافة الى رحلاته في الامصار ، وما شاهده ودونه من عادات وتقاليد ، وشعائر وعبادات ، كما تناول المؤلف دراسة التيارات الفكرية والدينية ، واكد على اهم الخصائص الثقافية لذلك العصر . ثم بين مصادر المسعودي عن الاديان والعقائد وما استفاده من رحلاته وما شاهده من شعائر وعبادات ، ولقاءاته ببعض علماء المسلمين وغيرهم ، وتناول الباحث موضوع «الاجازة» في عصره ، وما طرأ عليها من تغيير ، وما قام به المسعودي من دراسة لتاريخ الخليقة والانبياء حتى ظهور النبي موسى (ع) كما اوردها المسعودي في مؤلفاته .

وقسم الدكتور هادي هذه الدراسة الى ثمانية فصول :

تناول في الفصل الاول حياة المسعودي ، ورحلته ، وعصره ، معتمداً على ما اورده المسعودي عن نفسه من خلال هذه الرحلات وما شاهده من عادات وتقاليد وشعائر وعبادات .

ودرس في الفصل الثاني مصادر المسعودي عن الاديان والعقائد وبين ثلاثة جوانب في هذا الفصل هي اهمية رحلته الى اقطار العالم القديم كمصدر من مصادره عن تلك العقائد ، ومدى استفادة المسعودي ، لقائه ببعض العلماء من مسلمين وغير مسلمين ، واهم الكتب التي اطلع عليها المسعودي في مجال العقائد .

وتناول في الفصل الثالث مؤلفات المسعودي ، مبيناً المفقودة منها في ميدان الاديان والعقائد ، وكذلك المؤلفات المطبوعة .

اما في الفصل الرابع فقد قام المؤلف بدراسة تاريخ الخليقة والانبياء حتى ظهور النبي موسى (ع) كما اوردها المسعودي في مؤلفاته ، وقد بين فيها منهج المسعودي في بحث هذه المسائل ومصادره عنها اسلامية او غير اسلامية مقارناً ذلك بما جاء عنها في التوراة ، وما جاء به الطبري في تاريخه .

اما في الفصل الخامس فتناول اراء المسعودي ومصادره ومعلوماته عن اديان الصين والهند وفارس وعقائد الصابئة .

واوضح في الفصل السادس ما جاء به المسعودي عن اليهودية والمسيحية وهذا الفصل اوسع الفصول واشملها فيما توصل اليه المسعودي من حقائق ، وما جاء به من اراء ومصادر .

اما في الفصل السابع فقد درس فيه المسعودي مؤرخاً لعقائد العرب قبل الاسلام ، وبين ما جاء به عن هؤلاء ومصادره عنهم . وفي الفصل الثامن تحدث عن الاسلام والمذاهب الاسلامية في كتب المسعودي مبيناً أهم ما جاء به عن الموضوع ، ومدى حياده وموضوعيته في بحث هذا الموضوع . وقد ركز على اهم موارد المسعودي ، وحاول فيه معرفة الكتب والمؤلفات التي اعتمدها في هذه الدراسة وقيمتها .

وفي الحقيقة فأن هذه الدراسة تقوم اصلاً على مؤلفات المسعودي وما جاء فيها من اراء ومناهج ومصادر وهي مرآة تنعكس عليها اراءه وما جاء فيها من حقائق او اخطاء ، كما انها خير طريقة يمكن بها تقييمه ، وما اتبعه من مناهج ومصادر في بحث هذا الجانب من تفكيره .

(١) الكتاب من منشورات دار القادسية للطباعة والنشر (بغداد ١٩٨٤) .

العراق في الوثائق البريطانية سنة ١٩٣٦

اختيار وترجمة وتحرير نجدة فتحي صفوة(١)

عرض : الدكتور محمد كريم ابراهيم

كتاب : «العراق في الوثائق البريطانية سنة ١٩٣٦م» وقد قام بأنتقاء الوثائق وترجمتها الاستاذ نجدة فتحي صفوة الذي يعتبر من الخبراء المتضلعين في الدراسات التاريخية الوثائقية ، اضافة لكونه من الدبلوماسيين الذين عاصروا احداثاً وتطورات سياسية عديدة في تاريخ العراق الحديث .

لقد نجح الاستاذ نجدة في ترجمة تلك التقارير الوثائقية التي اختارها من الارشيف البريطاني وفهرستها حسب المواضيع التي احتوتها ، وبذلك استطاع ان يهيئ تلك الوثائق للدراسة والتتبع لمن يريد الدراسة والاستزادة من الباحثين والمثقفين وطلبة الدراسات العليا .

يقع الكتاب في (٥٠٣) صفحات من القطع الكبير ، صَدّره المترجم بمقدمة رائعة (ص ٩-٢٥) أبرَز فيها اهمية الوثائق البريطانية في دراسة تاريخ العراق الحديث ، وطريقة اختيارها وترجمتها بصبر وعناء فائقين ، كما بَيّنَ اسباب اختياره لوثائق سنة ١٩٣٦ م نشرها نظراً لاهميتها وكونها قريبة ادركها الكثير من الذين ما زالوا على قيد الحياة ، كما انها تعتبر من السنوات الحافلة بالاحداث الخطيرة التي اثرت تأثيراً كبيراً في تاريخ العراق الحديث وتوجيه مستقبله السياسي من ابرزها : انقلاب بكر صدقي - حكمة سليمان وهو أول انقلاب عسكري وقع في العراق بل في الوطن العربي ، وموضوع زواج الاميرة عزة شقيقة الملك غازي من خادم يوناني وهربها معه والذي اثر على شخصية الملك ، وموضوع القضية الفلسطينية . . .

ولا تزال نواح كثيرة من تلك الاحداث على خلاف بين المؤرخين لغموض اسرارها كما شهدت تلك السنة ظهور اتجاهات سياسية وقيادات فكرية جديدة كان لها تأثيرها البعيد في مستقبل العراق السياسي .

وقد درس المترجم الشخصيات السياسية الرئيسية وراء تلك الوثائق او التي دارت احداثها حولهم والذين وردت عنهم الاراء والمعلومات الكثيرة في الوثائق وقدم نبذة وافية عن اهمهم منهم السرارجيبولد كلارك كير السفير البريطاني في العراق سنة ١٩٣٦ في بغداد سنتين ومنها نقل سفيراً الى الصين في بداية سنة ١٩٤٢ ونقل سفيراً لبلاده في موسكو سنة ١٩٤٦ ، والمستر انطوني بيتمان المساعد الرئيس للسر كلارك ، والمستر ادموندز مستشار وزارة الداخلية العراقية سنة ١٩٣٦ وهو شخصية خاصة ذات صفة غريبة نوعاً ما ، ويبدو من التقارير التي كتبها انه كان على اطلاع واسع في شؤون العراق الداخلية ، كما يتضح لنا دوره الهام الذي كان يقوم به بهدوء في حل الكثير من الازمات والتقريب بين وجهات النظر البريطانية - العراقية .

شملت وثائق ١٩٣٦ تقارير السفارة البريطانية في بغداد ومراسلاتها مع وزارة الخارجية البريطانية وبعض الممثليات البريطانية الاخرى ، وقد اختارها المترجم من بين اكداس التقارير والمراسلات التي اعدت في تلك السنة .

تتميز وثائق تلك السنة بأهميتها وقيمتها الكبيرة بسبب طبيعة المواضيع التي تناولتها في اماطة اللثام عن احوال العراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتي ستكون ضئيلة اذا ما بقيت تلك الوثائق بعيدة عن ايدي الباحثين والمتخصصين والمهتمين بدراسة تاريخ العراق الحديث ، رغم انها تعبر عن رأي كاتبها او محررها بل تمثل في اغلب الاحيان رأي الدولة التي يمثلها من خلال التقارير والبرقيات التي تبودلت بين السفارة البريطانية ووزارة الخارجية او مؤسساتها الاخرى .

لذا فأن على الدارس والمتتبع لهذه الوثائق عدم ابداء قناعته بخصوص ما ورد فيها بسهولة بل يتطلب ذلك التحليل والغربلة والمقارنة الى ان تتكون لديه قناعة معينة بخصوص ما اطلع عليه ودرسه ، وبذلك يستطيع ان يتوصل الى استنتاجات واضحة موضوعية وقريبة من الواقع ، وكما يقول الدكتور فاضل البراك : «على الباحث في التاريخ ان يتعامل مع الوثائق تعاملاً مرناً وحذراً وليس تعاملاً جامداً وقاطعاً» .

ويقول الفيلسوف الفرنسي الشهير ارنست رينان : «الوثائق اداة خرساء في يد من لا يعرف كيف يحييها ، وينفخ من روحه فيها» . ونستنتج مما سبق بأن تجريد الوثيقة من الظروف العامة المحيطة بها للفترة التي شملتها داخلياً وخارجياً وعدم اخذها بنظر الاعتبار يؤدي الى جعل التعامل معها تعاملاً جامداً ، اذ ان الوثائق المجردة ليست «تاريخاً» وانما هي «مادة خام» للتاريخ .

(١) الكتاب يصدر عن مركز دراسات الخليج العربي .

تضمن فهرس الوثائق البريطانية لسنة ١٩٣٦ عن العراق (١٤٢) وثيقة توزعت على مواضيع متعددة ذات اهمية كبيرة ابرزها التقرير السري الذي كتبته السفارة البريطانية في بغداد (١ كانون الثاني ١٩٣٦) عن الشخصيات الرئيسية والبارزة في العراق سنة ١٩٣٥ م من قبل السر كلارك السفير البريطاني الى المستر ايدن وزير الخارجية الذي بدأه بالعائلة المالكة اورد فيه معلومات عن الملك غازي ملك العراق، وعلي بن الحسين ملك الحجاز السابق والامير عبدالاله الابن الوحيد لعلي بن الحسين، والامير زيد اصغر ابناء ملك الحجاز حسين. كما تضمن التقرير معلومات عن «شخصيات اخرى» بلغ عددها (٨٥) شخصية شملت رؤساء العشائر العربية والكردية وشخصيات ذات نفوذ سياسي واجتماعي وعسكري وضحت اعمالهم وانتماءاتهم ومناطق نفوذهم... ويتضح لنا من خلال هذه المعلومات الاهمية البالغة التي كانت توليها بريطانيا لمراكز القوى في العراق ودورها في احداثه عن طريق جمع المعلومات التي تحتاجها في تعاملها مع العراق ومع تلك القوى التي تتوزع الخارطة السياسية والاجتماعية للبلد.

واحتوت تلك الوثائق التقرير السنوي السري عن العراق سنة ١٩٣٥ كتبه السفير البريطاني كلارك الى وزير الخارجية ايدن، وهو تقرير شامل عن احداث العراق وشؤنه السياسية والاقتصادية والمالية والعسكرية، كما احتوت الوثائق اموراً اخرى منها موضوع: الشؤون الداخلية (١٨ اذار لغاية ٢٢ نيسان سنة ١٩٣٦)، وموضوع «اضطرابات العشائر» كما تسميها الوثائق البريطانية من وجهة نظرها وهي ثورات وانتفاضات العشائر العراقية ضد الوجود البريطاني، وقد واجهتها بريطانيا بالقمع والشدة للقضاء عليها (٥ اذار لغاية ١٠ تموز منها)، وموضوع العلاقات الخارجية التي افردت لها الوثائق المدة من ٤ حزيران لغاية ٢٧ تموز منها، وموضوع زواج الاميرة عزة شقيقة الملك غازي من خادم يوناني وهربها معه بعد اخذها مبلغاً كبيراً من المال والمجوهرات العائدة لشقيقتها الاميرة راجحة وبينت الوثائق الخاصة بها (١٧) وثيقة خلال المدة من ٢٨ مايس لغاية ٣٠ تموز منها، ومن المواضيع هذه الوثائق ما يتعلق بالملك غازي، وقضية فلسطين والوضع السياسي قبل الانقلاب، والنفوذ الالماني في العراق.

واستأثر موضوع انقلاب بكر صدقي بأهتمام كبير في الوثائق البريطانية لتلك السنة، بل انه شكل الجزء الاعظم منها، اذ عرضت بشكل تفصيلي الاحداث والتطورات التي رافقته واعقبته من ٢٩ تشرين الاول لغاية ٣١ كانون الاول من تلك السنة، وبلغ عدد الوثائق التي تضمنته التقارير والبرقيات والمراسلات والمذكرات والاستفسارات الخاصة بهذا الموضوع.

واخيراً فأن الكتاب يعد من الكتب العلمية القيمة ذات الاهمية الكبيرة في دراسة تاريخ العراق والوطن العربي الحديث وبعد اصداره خطوة رائدة من مركز دراسات الخليج العربي في نشر الموسوعة الوثائقية المهمة والتي سيكون لها الاثر الكبير والفائدة العظيمة للقارئ والمثقف والباحث والدارس في التاريخ الحديث.

ان نشر الجزء الاول من هذه الموسوعة هو بداية الطريق الذي خطاه المركز في نشر الدراسات الوثائقية التاريخية وهو انجاز سيكون له دور كبير في هذا المجال.

فلسطين تاريخها وحضارتها
للدكتور عز الدين غربية
(بغداد، ١٩٨١)

عرض : الدكتور سامي سعيد الأحمد

ان الكتاب من منشورات اتحاد المؤرخين العرب . وقد تحدث المؤلف في مقدمته عن الغاية التي توخاها من طرق هذا الموضوع حيث قال مانصه (على الرغم من كثرة الدراسات والابحاث التي تناولت تاريخ فلسطين الا ان غالبيتها العظمى قد جانبته الموضوعية والأمانة التاريخية وخضع لاغراضاً سياسية او دينية رسخت في اذهان بعض المستشرقين الصهيونيين ، ونشرت بشكل واسع في العالم الغربي حتى أصبحت في غياب الدراسات العربية وكأنها حقيقة مسلم بها) . ثم أعقب ذلك ملخصاً بكتابه حسب الفصول التي يتألف منها الكتاب .

وكان عنوان الفصل الاول (بعض المصادر المهمة التي اعتمدت في الدراسة) ، تكلم فيها المؤلف عن كثرة الحفريات التي اجريت في فلسطين منذ تأسيس صندوق استكشاف فلسطين سنة ١٨٦٥ ثم توسع البحث الاثاري خلال فترة الاحتلال البريطاني لفلسطين . وسارت الجمعيات والمؤسسات الامريكية في الاتجاه البريطاني منذ تأسيس جمعية استكشاف فلسطين سنة ١٨٧٠ كما اتبعت نفس الاسلوب الجمعية الالمانية الشرقية . وعلق الباحث على الدراسات التي قام بها الغربيون عن فلسطين وتاريخها واثارها بالقول (وقد ساند التعصب الديني الغايات السياسية في تقويم الاثار الفلسطينية فأستخدم معظم الباحثين التوراتيين اصطلاحات وتقسيمات لحلقة التسلسل التاريخي الفلسطيني . بحيث يتفق مع المعطيات المتوارثة ، وليس من خلال الاستجواب الحقيقي للموقع وطبيعة مكتشفاته وتصنيفها وتاريخها) . ويعتقد الباحث ان اوائل القرن الحالي حمل معه ظهور اتجاه معتدل سار عليه بعض الالمان وجامعة شيكاغو فيما بعد . كما بحث المؤلف النهضة العلمية والتكنولوجيا الحديثة وما قدماه من منجزات في مجال مصادر البحث . وقسم ادلته سواء النصوصية او الاثارية الى ما وجد داخل فلسطين أو خارجها (مصر ، العراق ، حاتو شاش) .

وخصص الفصل الثاني من الكتاب الى عصور فلسطين الماقبل التاريخية حيث تكلم فيه عن انسان الكرمل الذي يعتبر حلقة الوصل بين النياندرتال والانسان العاقل ثم تكلم عن موقع أريحة (التي يظهر اسمها اسم الاله يراح وهو القمر عند الكنعانيين) اقدم مدن فلسطين حسب معلوماتنا الحالية حيث عثر على بقايا من حبوب ومناجل تعود الى بداية العصر الحجري الحديث . . ثم بحث تسمية فلسطين بأرض كنعان المشتقة من كنع التي معناها باللغة الفينيقية المنخفض . وأخذ يعدد مختلف الاراء الخاصة بأصل الكنعانيين وكون كلمة فلسطين نسبة الى احد القبائل النازحة من منطقة بحر ايجة وهي البليستي . كما عالج أهمية فلسطين الاستراتيجية والطر "تجارية التي تمر بها واعطى نبذة عن جغرافيتها (السهل الساحلي ، النطاق الجبلي ، اقليم الغور ، اقليم بئر السبع) .

وعنون الفصل الثالث (فلسطين قبل العصر التاريخي) حيث عالج فيه فلسطين خلال العصر الحجري القديم ثم العصر الحجري الوسيط الذي يتمثل في موقع وادي نطوف شمال غرب القدس حيث وجدت اثار الحضارة النطوفيه . ثم العصر الحجري الحديث الذي قسمه الى مرحلتين أ – مرحلة ما قبل الفخار . ب – مرحلة الفخار . ثم العصر الحجري المعدني المتمثل في الحضارة الغسولية حيث مارس الفلسطينيون الزراعة وتربية الماشية وعاش في قرى مستقرة بأودية الانهار او السهول ، وانفردت بظاهرة استخدام بعض الاواني الفخارية ذات شكل المنازل بأسقف دائرية لحفظ عظام الموتى الى جانب العثور على معبد واسع طول ضلعه ٢٠ متراً .

وفي الفصل الرابع عالج الباحث فلسطين في العصور التاريخية حيث غطى به تاريخ فلسطين خلال العصر البرونزي المبكر الذي تمثل بحكومات المدن التي انتشرت في جميع ارجاء فلسطين وامتدت زمنياً من أواخر الالف الرابع ق .م . حتى القرن الثالث والعشرين ق .م . وكانت هذه الدويلات تقوم عادة في مكان مرتفع مشرف على طرق المواصلات أو بالمناطق الساحلية الخصبة وتحاط بالأسوار الدفاعية . وقسم الباحث هذا الدور الى اربعة اطوار تميز الوضع خلالها بوجود كيانات سياسية تتمثل بالمدن المستقلة ذاتياً والمحاطة بالاسوار الدفاعية . وكانت بعض المدن دونما اسوار مثل بيت مرسيم وتل العجول وتل الضوير واعتبر المدينة

(١) الكتاب من منشورات اتحاد المؤرخين العرب (بغداد ، ١٩٨١) .

عند تل الفارعة (الشمالي) خير نموذج لمدينة هذا العصر. ثم تكلم عن الكنعانيين وعلاقاتهم وحياتهم الاقتصادية وعن مناطقهم مقتطعاً من قصة سنوحي المصرية القول (كانت بساتينهم ملأى بفواكههم، ووجدنا أنبذتهم دنانها كالماء في كثرتها، وكانت حبوبهم في الاجران بعد درسها اكثر من رمال الشاطئ). وقد زرعوا الزيتون وعصروا منه الزيت وكانت لهم قطعان ماشية كثيرة الى جانب تقدم الصناعة على اختلاف انواعها. وتكلم عن الحياة الاجتماعية والسياسية للكنعانيين حيث كان النظام القبلي هو السائد ولكل قبيلة قائدها. ثم تكلم عن القبائل الكنعانية معتبراً اليبوسيين منهم.

وفي الفصل الخامس عالج المؤلف الثقافة الكنعانية امثال معتقداتهم الدينية ومواسمهم الدينية وأعيادهم ومن الهتهم ايل وبعل وموت وأنات. ثم تطرق الى العلاقات الدينية بين كنعان من جهة ومصر والعراق وبلاد الأناضول من جهة اخرى. ثم الاداب الكنعانية التي تمتاز كما يذكر المؤلف (بطابعها المحلي وموضوعاتها الدينية واتساع مجالها الى جانب تأثرها بثقافة الاقطار المجاورة) واتسمت اساطيرهم (بطابع التخيلات... وكانت ظاهرة التناسق في الادب والفن الكنعاني من الظواهر الهامة، فقد ظهرت في القصائد في صورة الثنائي الالهي مثل شروق وغروب الشمس أو نجم الصباح ونجم المساء وكذلك الضباب والندى). وامتازت لغة الادب الكنعاني القديمة (بأحتوائها على عناصر بلاغية منها المجاز والتشبيه كما اهتمت بالوصف الشعري واستخدام الجمل القصيرة في معظم القصائد الملحمية، وبالاضافة الى ذلك فقد تميزت العبارات الادبية الكنعانية بالتكرار وترادف الجمل بهدف توكيد المعنى وابرازه بصورة واضحة). ثم تعرض الباحث الى اقتباس العهد القديم للعديد من مجالات ومظاهر الثقافة الكنعانية التي ادعى اليهود فيما بعد ملكيتها. حيث هناك جملة صفات مشتركة مثل تكرار العبارات وتشابهها مع اغاني دبورا وبعض ترانيم العهد القديم. وحتى ان ملاحم هوميروس (الالياذة والاوذيسه المنسوبتان الى هومروس) متأثرة بالثقافة الكنعانية واخذت منها الوحي والالهام. كما اكد المؤلف على بناء عمال من صور لهيكل سليمان الذي شيد على النمط الكنعاني في العمارة واستعملت فيه الرمزيه الكنعانية.

وعالج المؤلف في الفصل السادس العصر البرونزي الاوسط في فلسطين (٢٠٠٠ - ١٢٠٠ ق.م.) الذي قسم فترته الى ثلاث فترات متميزة. بحث فيه العلاقات المصرية مع بلاد كنعان خلال المملكة القديمة والوسطى والحديثة. ثم تطرق الى الطرق الخمس التي استخدمها الكنعانيون في الكتابة وهي (الاكدية المسمارية، الهيروغليفية الهجائية، الالفباء المسمارية لاوغاريت وكتابات بيبلوس المقطعية). كما بحث التطور الفني وتقدم الصناعات الكنعانية. واعتبر عاجيات مجيدو (١٣٥٠ - ١١٥٠ ق.م.) التي عثر على كمية ضخمة منها في قصر بمجيدو نموذجاً واضحاً لتداخل وتنوع الانماط الحضارية في كنعان. ثم تحدث عن تعرض فلسطين الى موجات عناصر هندية واوربية قادمة من بحر ايجة هم اهل البحر الذين منهم الفلسطينيين وميزاتهم الحضارية واستقرارهم في البلاد..

اما الفصل السابع فقد خصصة الباحث الى معالجة شخصية فلسطين التاريخية اي خصوصيتها عبر تاريخها القديم ذاكراً احتمال كون تضاريس فلسطين وموقعها الجغرافي وعلاقاتها بالاقطار المجاورة ذات اثر واضح في كيانها الحضاري والسياسي - كما تعرض الى تسرب العناصر الاسرائيلية الى البلاد مع مطلع الالف الاول ق.م. ووصلو كقبائل رحل مع قليل من الموجودات التي تعود لهم.

وتخلل البحث صوراً توضيحية متخذة من الاثار المتعلقة بتاريخ فلسطين مع خرائط للبلاد والمنطقة..

الفكر السياسي في العراق المعاصر ١٩١٤–١٩٥٨

للدكتور فاضل حسين

عرض : اسامة عبد الرحمن الدوري

اشار المؤلف في مقدمة الكتاب الى أنه عالج الموضوع معالجة علمية وموضوعيه محايدة ونزيهة وانه بحث مختصر جداً وبمثابة دليل للقارئ . وأن الأفكار الواردة في البحث نظرية في مجملها وقد تختلف عن الواقع العملي .

وقسم الكتاب الى ثمانية فصول .

تناول الفصل الأول الفكر السياسي العربي الأسلامي شارحاً فيه طبيعة المجتمع العربي قبيل الأسلام ومفهوم القبيلة والمدينه في ذلك المجتمع ، محاولاً أن يصل بالقارئ الى حقيقه أن للعرب – من خلال دار الندوة في قريش بالذات– ادارة تدير شؤون مكة وأهلها وتقضي امورهم ، فأعتبرها دار حكومة ، وهذا يعني أن مكة بمثابة دولة المدينة الواحدة .

ثم جاء الأسلام وحاولت الرسالة الأسلاميه جهدها القضاء على العصبية القبلية فقامت الدولة الأسلامية العالمية وأنشأ نظام الخلافة شارحاً المواقف التاريخية من الخلافة ومؤهلات الخليفة وواجباته وأنهى الفصل بأراء بعض المفكرين في الخلافة مثل ابن المقفع وابو يوسف والجاحظ والفارابي والماوردي ونظام الملك والغزالي ونصير الدين الطوسي وأبن الطقطقي ونجم الدين الطوفي وابن تيميه وابن جماعة .

وتطرق في الفصل الثاني الى أثر الفكر الغربي متناولاً تأثر سلاطين الدولة العثمانية وحكام مصر وسوريا والعراق بمبادئ الثورة الفرنسية في القومية والحرية .

وتناول بأختصار التفاعل بين مبادئ التراث العربي الأسلامي وبين مبادئ الفكر الغربي .

وعنونَ الفصل الثالث بالقومية متخذاً من الجمعيات العربيه التي ظهرت أثناء السيطرة العثمانيه على الوطن العربي وبالذات بين ١٩٠٨–١٩١٤ بدايةً للفكر القومي العربي الحديث ، حيث تألفت نواد وجمعيات عربية تدعو الى بعض الأصلاحات في البلاد العربيه منها اقامة حكم لا مركزي ، مركزاً على جمعيتان سريتان طالبتا باستقلال البلاد العربيه وهما العربية الفتاة والعهد حيث تتضح فيها الفكرة القوميه .

لم يكتف العرب بتأليف الجمعيات والنواد لبيان رغبتهم القوميه فقد قاموا بثورات منها الثورة العربية الكبرى في الحجاز ضد طغيان الأتراك ، فعلى الرغم من أنها قامت في الحجاز ولكن اشتركت فيها اعداد كبيرة من العراقيين والسوريين ويذكر بالتفصيل اسماء القادة من الضباط وضباط الصف العراقيين الذين اشتركوا في الثورة .

بعد عقد اتفاقية سايكس بيكو واعلان وعد بلفور ونظام الأنتداب ، أدرك العراق وسوريا ضرورة النضال من أجل تحرير بلادهم كل قطر على حدة ليعودوا بعد ذلك التفكير بالوحدة العربية ، فتأسس في العراق فرع لجمعية العهد لها منهاجها كما أن جمعية حرس الأستقلال التي أسسها بعض مثقفوا بغداد ١٩١٩ طالبت بأستقلال العراق والشام وتأليف حكومة دستورية والأنضواء تحت لواء الوحدة العربية وكان لهذه الجمعيه دور مهم في قيادة ثورة العشرين العراقية ، واعتبر المؤلف تلك الثورة بأنها «ثورة قومية مكملة للثورة العربية الكبرى في الحجاز في أهدافها وفي بعض عناصرها» .

ويشرح المؤلف أهداف جمعية الجوال ١٩٣٤–١٩٤١ التي ضمت في صفوفها بالأضافة الى العراقيين أعضاءاً عرباً من سوريا ومصر وفلسطين ولبنان ودعت الى الوحدة العربية الشامله .

وهدف نادي المثنى ١٩٣٥–١٩٤١ «بعث الروح القومية بين أبناء الشعب وايقاظ شعور المواطنة العربيه العامه في نفوسهم والعمل على أحياء التراث القومي ونشر الثقافة العربيه بين أفراد المجتمع » ونشط عمل النادي من أجل القضايا القوميه وخاصة القضيتين السورية والفلسطينية وأتصل مع قادة الحركات الوطنية التحررية في مصر وسوريا ولبنان وفلسطين .

(١) الكتاب من اصدارات معهد البحوث والدراسات العربية ، قسم البحوث والدراسات التاريخية ، بغداد .

وجاءت ثورة مايس ١٩٤١ التي رغب قادتها في تحرير سوريا وفلسطين ، وتعاطف مع الثورة بعض القوميين العرب في سوريا وفلسطين ومصر .

أما الفصل الرابع فتناول موضوع الدمقراطية ويرى المؤلف أن الدمقراطية لم تطبق في العراق تطبيقاً صحيحاً بل طبقت في أضيق الحدود وليس هناك مجال للقول بأن الدمقراطية فشلت في العراق لأنها لم تطبق أصلاً بشكل يمكن القول معه أنها طبقت ثم فشلت رغم تشكيل المجلس التأسيسي العراقي وما تضمنه الدستور من مواد في الدمقراطية وتأسيس البرلمان وتشكيل الأحزاب السياسية التي نادت بالدمقراطية .

ولابد من القول أن التخلف السياسي العام وعدم نضوج الوعي الشعبي السياسي وأنتشار الأمية كلها عوامل أخرى أثرت بشكل سلبي على بناء الدمقراطيه .

وتناول المؤلف موضوع الأشتراكية في الفصل الخامس مشيراً الى أن حسين الرحال كان رائد الفكر الأشتراكي في العراق ، كما تأثر رواد الفكر الأشتراكي في العراق برواد الفكر الأشتراكي في مصر أمثال شبلي شميل وسلامه موسى ونقولا الحداد واسماعيل مظهر ، وعقد المؤلف مقارنة مبيناً الفروق بين الأشتراكية والشيوعية في ذلك الوقت . وأشار الى جماعة الأهالي يمثلون الرعيل الثاني من الأشتراكيين بمفهوم عشرينات القرن العشرين ، حيث أكدت جماعة الأهالي على مبدأ الشعبية وعلى أن «منفعة الشعب فوق كل المنافع» وأوضح المبادئ الشعبية السياسية والأجتماعية والأقتصادية ، وأختتم الفصل بأشارة واضحة الى أن الأفكار السياسية الدمقراطية الأشتراكية التقدمية مختلطة مع بعضها في الفترة بين ١٩٤٢-١٩٥٠ .

وأشار المؤلف الى موضوع الشيوعيه في الفصل السادس من الكتاب موضحاً أن أول أجتماع لمؤسس أول منظمة شيوعية في العراق باسم «لجنة مكافحة الأستعمار والأستثمار» عقدت في ٣١ آذار ١٩٣٤ في بغداد ومثلت عدداً من المدن العراقية بغداد والبصرة والناصرية والنجف .

وفي عام ١٩٣٥ أبدل اسم اللجنة باسم الحزب الشيوعي العراقي ، وأصدر الحزب صحفاً بأسم كفاح الشعب وجريدة الشرارة ، وأعتمد على التثقيف الحزبي وتضمن التنظيم الداخلي بثلاثة مبادئ هي المركزية الدمقراطية والنقد الذاتي والطاعة الواعية . وتعرض الحزب لانشقاقات متوالية بين ١٩٤٢-١٩٥٨ ، وأشار الى مؤتمرات الحزب وموقف الحزب من موضوع الأقليات . وتطرق الى نشاط الحزب السري والعلني في تلك الفتره والأسماء التي إختفى وراءها .

لقد بقي الحزب الشيوعي العراقي رغم محدودية عمله - بعد اعدام فهد ١٩٤٩- في داخل العراق تبعاً تبعية مباشرة لموسكو وهذا واضح من خلال تطابق موقفه مع موقف الأتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية بشكل عام .

وفي الفصل السابع يتناول المؤلف موضوع « البعثيه » مشيراً الى أن البعثيين اسسوا حزب البعث العربي الأشتراكي يمزج بين القومية العربية والاشتراكية العربية وهو المزج الذي لم يستطع الزعماء السياسيين القدامى في سوريا والعراق والوطن العربي كله من تحقيقه ، ومن رواد الحزب الأوائل في العراق الطالب أدهم مصطفى وهو من الطلاب السوريين في العراق الذي التحق بدار المعلمين العالية وكون أول خلية حزبيه في العراق عام ١٩٤٧ ومنهم أيضاً فائز اسماعيل الطالب السوري الذي درس في كلية الحقوق العراقيه وتولى العمل الحزبي بعده عبد الرحمن الضامن ومساعدة يحيى ياسين .

وأشار الى تمركز نشاط الحزب في العراق في منطقة الأعظمية ثم أنتشرت الفكرة الى البصره ، وتناول تشكيلات الحزب وصحافته السرية والعلنية والأسماء التي أتخذها البعثيون في العراق وأسماء قادة الحزب وأهم نشاطاته في العراق .

وفي الفصل الأخير يشير المؤلف الى أن أصحاب الأفكار السياسية السابقه المختلفة تعاونوا في مواقفهم ضد الحكم القائم في العراق وضد السياسة الأستعمارية البريطانيه فيه وفي الشرق الأوسط .

لقد كانت أكثرية الضباط الاحرار متأثرة بالفكر القومي والبعض الاخر متأثر بالأفكار الدمقراطية التقدمية .

لقد نجح المؤلف في إعطاء صورة مقتضبة عن نشوء وتطور الفكر السياسي في العراق المعاصر مشيراً الى روافد هذا الفكر السياسي ولكن النتيجة التي يمكن أن يخرج بها القارئ من خلال قراءة الكتاب هو أن الفكر القومي الأشتراكي هو الفكر الأرجح الذي يمكن أن يجمع أفكار جماهير العراق .

والنتيجة الاخرى هي أن البذور التي بذرت في العراق من أفكار غربية وشرقية لم ينبت منها الا ما يلائم الفكر العربي الأصيل ورغبات أبناء العراق .

ولا بد من القول في النهاية أن الكتاب كان ثمرة طيبة لجهد مؤلفه الذي كتبه بعد خبرة عشرات السنين في التدريس والكتابة عن تاريخ العراق السياسي رغم أنه كان « بحثاً مختصراً جداً » كما عبر عنه المؤلف نفسه .

عرض الرسائل العلمية الجامعية التأريخية

واسط في العصر العباسي[1]

المؤلف : للدكتور عبدالقادر المعاضيدي

عرض : الدكتور حمدان الكبيسي

ذكر المؤلف أن بحثه في تنظيمات مدينة واسط الادارية وحياتها الاجتماعية والفكرية ، وبما أن الدكتور المعاضيدي سبق له أن أصدر كتاباً عن مدينة واسط منذ نشأتها سنة ٨١هـ/٧٠٠م حتى نهاية الحكم الأموي سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م . لذا رأى من المفيد أن يستكمل دراسة هذه المدينة التي شهدت تطورات جذرية عميقة بعدئذ .

ويبدو أن الباحث كان قد تلمس أثناء بحثه الأول ، أن مدينة واسط ظلت احدى ولايات العراق الرئيسة ، وأنها احتفظت باهميتها لفترة طويلة . وكان واليها يشرف على ادارة منطقة واسعة. ضمت عدداً كبيراً من المدن والقرى ، كما أن موقعها الجغرافي الجيد، ساعدها على المشاركة الفاعلة في معظم الأحداث السياسية المهمة .

ونتيجة لذلك امتد عمران المدينة على جانبي نهر دجلة ، وظلت محتفظة بازدهارها العمراني . وبنفس الوقت تطورت فيها الحياة الاجتماعية ،كما ونشطت فيها المرافق الاقتصادية ، وحينئذ أصبحت أحد المراكز الثقافية المهمة في الدولة العربية الاسلامية ، حيث ظهر فيها عدد من العلماء والقراء والمحدثين ، والفقهاء ، والأدباء ، والشعراء ، وهي بجانب هذا كله بقيت متمسكة بمكانتها الادارية المتميزة ، لاسيا بعد أن الغيت التقسيمات الادارية القديمة في العراق ، في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، وحلت محلها تقسيمات ادارية جديدة ، أعار أهمية كبيرة للمراكز الحضارية العربية الاسلامية . فأصبحت واسط أحدى ولايات العراق ، واحتفظت بأهميتها طيلة الفترة التي بحثها المؤلف .

لقد عقد المؤلف لبحثه هذا خمسة فصول ، خصص الفصل الاول لدراسة ملامح الحياة السياسية بمدينة واسط طيلة العصر العباسي . وعزى نقل هذا الدور الى أهمية واسط الاقتصادية ، ولقربها من البطائح والمشرق ولوقوعها على طريق بغداد – المشرق . وأبان بوضوح مدى مشاركة واسط في الاحداث السياسية التي وقعت في العراق مابين (٣٢٤–٦٥٦هـ) (٩٥٣–١٢٥٨م) ومن خلال ذلك ، أظهر الدور البارز الذي لعبه ولاة هذه المدينة في تلك الأحداث ، مما جعل واسط تصبح مركزاً لادارة العمليات العسكرية ضد التمرد الذي كان يحدث في البطائح وفي بعض ولايات المشرق .

لقد ظلت ولاية واسط تشارك في الأحداث السياسية الهامة التي وقعت في العراق في العصور العباسية المتأخرة .في عصر أمرة الأمراء اتخذت هذه المدينة قاعدة لادارة العمليات العسكرية ضد البريديين ، ثم تبادلتها القوى المتنازعة مرات عديدة . وأقام بها ، في أثناء ذلك ، بعض القادة البريديين ، وأجرو الأمراء . ولما رجحت كفة البريديين ، اتخذها هؤلاء مقراً لادارة العمليات العسكرية ضد بغداد .

وإبان محاولات البويهيين الاستيلاء على بغداد ، كانوا قد استولوا على مدينة واسط أربع مرات قبل دخولهم بغداد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م . كما جعل البويهيون مدينة واسط مركزاً لادارة العمليات العسكرية ضد الثورات والانتفاضات التي كان يتقد إمراءها في منطقة البطائح ضدهم باعتبارهم أجانب متغلبون يجب التخلص منهم ، على الرغم من محاولات بعضهم التودد الى أهل واسط بين الحين والآخر .

وتصدى أهل واسط لجميع الأطماع الاجنبية التي حاولت أن تنال من هذه الولاية ، أو أن تستأثر بالسلطة . واشتبك أهلها مع أولئك الغزاة بمعارك ضارية انتهت معظمها بانتصار الواسطيين .

وعندما قام النزاع بين أبناء البيت البويهي على السلطة ، تبادلت جيوش الأمراء المتنازعين احتلال هذه المدينة مرات عديدة ، كما اقام بها بعض القادة مع جيوشهم .

اما في فترة التغلب السلجوقي ، فقد لعب أهل واسط وجيشها دوراً كبيراً في الصراع الذي دار بين أبناء السلاطين السلاجقة على السلطة ، وأدى ذلك الى احتلال واسط مرات عديدة . وقد تعرضت هذه المدينة ومنطقتها للنهب من قبل الجيوش المتنازعة ، كما أقام بعض ابناء البيت

(١) الكتاب من اصدارات وزارة الثقافة والاعلام ،
(بغداد ، ١٩٨٣)

السلجوقي بواسط .

وفي أثناء النزاع بين الخلفاء العباسين والسلاطين السلاجقة ، وقف بعض ولاة واسط الى جانب الخلفاء فرجحت كفتهم .

ولما حول بعض أمراء الحلة والبصرة والأحواز مد نفوذهم الى ولاية واسط – وكان بعضهم من غير العرب – تصدى لهم جند واسط وأهلها واشتبكوا معهم في معارك حادة انتهت معظمها بانتصار الواسطيين وطرد المعتدين .

وخصص الفصل الثاني لدراسة مدينة واسط وتطورها العمراني . وتناول بالبحث ، أقسام المدينة ، فتحدث عن دار الامارة ، والمنشآت الدينية ، والمحلات السكنية ، والشوارع ، والأسواق ، والأسوار ، والمدارس والربط . واستطاع تحديد مواقع هذه الأقسام من المدينة . كما أوضح أن التطور العمراني بمدينة واسط واتساعها وامتدادات منشآتها العمرانية على جانبي نهر دجلة ، أدى الى أن تتحد هذه المدينة مع مدينة كسكر بحيث أصبحتا مدينة واحدة أطلق البلدانيون اسم واسط على المدينة الجديدة .

ونظراً لأهمية واسط الاقتصادية والعسكرية والادارية والعلمية ، فقد قصدها كثير من الناس ، من مدن العراق المختلفة ، واتخذوها مسكنا لهم . فزاد عدد سكانها ، وتطور عمرانها ، حتى أنها زخرت بالمساجد الجامعة ، والمساجد والمدارس والربط والأسواق . ويبدو أن هذه المدينة ظلت محتفظة بازدهارها العمراني طيلة العصر العباسي .

فالبلدانيون الذين زاروها في فترات متباينة ، أو الذين كتبوا عنها ، قد لاحظوا هذه الظاهرة وأشاروا اليها .

وتناول في الفصل الثالث ، إدارة ولاية واسط ، حيث قام بتحديد الولاية ، وأثبت أن قسماً مهماً من الأحواز كان يقع ضمن حدود هذه الولاية . ثم انتقل الى معالجة التقسيم الاداري في الولاية . وأوضح بجلاء أن العرب المسلمين ، بعد تحريرهم العراق ، لم يتبعوا التقسيمات الادارية القديمة التي كانت سائدة هناك قبل التحرير ، وإنما الغوا تلك التقسيمات ، وأحلوا محلها تقسيمات ادارية جديدة . ذلك أن التطورات الكبيرة التي حدثت في العراق إبان الحكم العباسي كانت تستلزم إعادة النظر في التقسيمات القديمة ، واحداث تقسيمات ادارية بديلة عنها تتلاءم مع هذه التطورات . وان التقسيمات الجديدة أخذت بنظر الاعتبار أهمية ومكانة المراكز الحضارية الجديدة التي صارت تلعب دوراً مهماً في جميع جوانب الحياة آنذاك .

وكانت الولاية مقسمة الى خمس مناطق ادارية ، يطلق عليها «أعمال» . تضم كل منطقة منها مجموعة من المدن والقرى . وإن الولاة كانوا على رأس الجهاز الاداري في واسط . وكانت هناك دوائر ادارية عديدة تساعد الوالي في تدبير الشؤون الادارية . ويبدو ان بعض الولاة تمتع بصلاحيات واسعة ، وإن قسماً منهم اتخذ له وزيراً يقوم بمهمة مستشار في الأمور الادارية والمالية ، ويشترك ، أحياناً ، في الحملات العسكرية . والى جانب والي واسط قوة من الجيش لحماية الولاية وحفظ النظام فيها ، ويقود أمرها عدد من الأمراء .

ولم يفصل الباحث في هذا المجال تبيان علاقة واسط بالسلطة المركزية ببغداد ، كما أوضح الوظائف الادارية في هذه الولاية . فتحدث عن طبيعة هذه الوظائف ، وصلاحيات وأعمال الموظفين الاداريين ، والعلاقة بينهم وبين ولاة واسط . وتحدث عن وظيفة القضاء والحسبة والنقابات واختصاصات كل منها .

وبحث في الفصل الرابع ، الحياة الاجتماعية بمدينة واسط ، فتناول عناصر السكان ودخلهم ومكانتهم الاجتماعية ، وأثرهم في الحياة الاجتماعية والسياسية .

وأظهر أن مدينة واسط انشئت في الأصل لسكنى القبائل العربية التي رافقت الحجاج بن يوسف الثقفي في أثناء قدومه العراق ، كما سكنتها جماعة من القبائل العربية التي كانت قاطنة في مناطق أخرى من العراق ، ثم قدم قسم من أهل الحجاز الى هذه المدينة وسكنوا فيها .

كما تحدث عن الطوائف الدينية ، وبين أن المسلمين كانوا يؤلفون الغالبية العظمى من سكان مدينة واسط . وبمرور الزمن وجدت بينهم طوائف دينية أخرى ، تمتعت بقسط وافر من الحرية فكانت علاقتهم بالعرب المسلمين علاقة حسنة نابعة من روح التسامح الذي تحلى بها المسلمون وفي نفس الوقت أظهر دور الأجانب الدخلاء في قيام الفتن المذهبية في هذه المدينة . وعند معالجته التنظيم الاجتماعي في واسط ، ذكر أن المجتمع شهد نمواً اقتصادياً في مجالات الزراعة والتجارة والصناعة . وان ذلك أضعف اسس التمييز الاجتماعي الذي كان قائماً بمدينة واسط ، ذلك أن الثروة أصبحت ذات أهمية بالغة في تحديد مركز الشخص الاجتماعي .

وتبين له أن المجتمع في هذه المدينة كان يتألف من ثلاث فئات : الفئة الخاصة ، والمتوسطة ، والعامة ، وتحدث باسهاب عن هذه الفئات التي ضمها المجتمع ، مبيناً أثرها واسهاماتها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مدينة واسط .

وأظهر أن هذه الفئات تجمعت في أسواق ومحلات خاصة بهم . وبلاريب ، فان ذلك زاد في تضامنهم وقوة الرابطة بينهم ، وشعورهم بكيانهم ووحدة مصالحهم . ومن المحتمل أنهم كانوا قد أوجدوا تنظيمات

حرفية لهم .

وذكر أن المجتمع الواسطي زخر بعدد من العلماء والقراء والمحدثين والفقهاء والزهاد والمتصوفة . وقد كون هؤلاء فئة اجتماعية متميزة كان لها أثر كبير في الحياة الاجتماعية والعلمية بواسط .

ومن الأمور المهمة التي توصل اليها الدكتور المعاضيدي في الفصل الخامس ، هي تقويم الحياة الفكرية في مدينة واسط ، وان هذه المدينة أصبحت احدى المراكز الثقافية المهمة في الدولة العربية الاسلامية انذاك ، إذ كثرت فيها المؤسسات التعليمية وتنوعت ، وشهدت نشاطاً علمياً واسعاً ، وظهر فيها عدد من كبار العلماء والقراء والمحدثين والفقهاء والنحويين والأدباء . وقد نالوا منزلة علمية كبيرة ، وشهرة واسعة ، فشد الرحال اليهم عدد من طلبة العلم من شتى أقاليم الدولة ، للدراسة عليهم والحصول على اجازاتهم العلمية .

كما ظهر فيها عدد من العلماء اختصوا في العلوم التاريخية والجغرافية ، والطبية والصيدلية والفلك والرياضيات ، وعلوم اخرى ، وقد وصلتنا بعض مؤلفاتهم في هذه العلوم .

وقد تبين أن البيئة العلمية بواسط لم تكن بمعزل عن البيئات العلمية في حواضر الدولة العربية الاسلامية آنذاك ، فقد وفد اليها عدد من طلاب العلم للقاء مشايخها والدراسة عليهم ، كما رحل عدد من العلماء الواسطيين الى أقاليم أخرى من الدولة ، وقد درس بعضهم القرآن الكريم والحديث وعلوم اللغة العربية في تلك الأقاليم . وغادرها بعض ابنائها الى مختلف المراكز الثقافية في بقية الأقاليم طلباً للعلم .

وان تقدم الحياة الفكرية بواسط أدى الى ظهور عدد من البيوتات العلمية في هذه المدينة ، فبرز أبناؤها في مختلف العلوم آنذاك . ومن خلال التتبع والاستقصاء وجد الباحث أن واسط قد ورثت الكوفة والبصرة في بعض الجوانب الفكرية .

عدن
دراسة في أحوالها السياسية والأقتصادية
٤٧٦ - ٦٢٧هـ / ١٠٨٣ - ١٢٢٩م *

للدكتور محمد كريم ابراهيم

عرض : شايف عبد سعيد

كلية الاداب/جامعة عدن

يشكل هذا العمل المقدم من قبل الأخ الدكتور محمد كريم إبراهيم حول التاريخ السياسي الحربي والاقتصادي لعدن ترسانة ضخمة من المعطيات التاريخية التي بذل المؤلف جهداً جباراً في بنائها والعكوف الجاد لدراسة المصادر المتعددة والمعقدة والنادرة . فتاريخ عدن وبالتالي تاريخ اليمن الوسيط (الاسلامي) معقد وغير مدروس دراسة مستفيضة من قبل مدينة عدن ميناء قديم في اليمن تميزت بنشاط كبير منذ عهد اليونان والرومان وكانت إحدى أسواق العرب القديمة في الجاهلية وقد حافظت على أهميتها في العهد الإسلامي ، وورد ذكرها كثيراً في الكتب الإسلامية الكلاسيكية . ورغم إنحسار إزدهارها التجاري في العصر العباسي الأول عندما تحولت أكثر الطرق التجارية الأسلامية من البحر الأحمر إلى الخليج العربي فقد إستعادت مكانتها المهمة بقيام الخلافة الفاطمية في مصر ، فانتعشت موانئ البحر الأحمر في اليمن مثل عدن والمخا ومصر مثل عيذاب وغيرها .

(*) بمناسبة دفاع الأخ الدكتور محمد كريم إبراهيم عن أطروحته : «عدن - دراسة في أحوالها السياسية والأقتصادية في الفترة ٤٧٦ - ٦٢٧هـ/ ١٠٨٣ - ١٢٢٩م» ونيله درجة الدكتوراة من جامعة بغداد رأيت أن أقدم هذا العرض والذي جاء بعد أن أهداني الدكتور محمد كريم نسخه من رسالته قبيل مناقشتها . وهدفي من هذا العرض ، ولو جاء متأخراً ، هو دفع الأخ الدكتور محمد كريم على نشر الأطروحه في كتاب الشئ الذي ستكون له فائده قصوى لمجرى المناقشات حول التاريخ العربي الأسلامي عامة وتاريخ اليمن خاصه .

في مطلع القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي كانت بلاد اليمن قد تجزأت إلى دويلات وإمارات قبلية همدانية وحميدية ، وكانت عدن إحدى مدن اليمن التي ذابت في خضم تلك التجزئة . فقامت فيها إمارة بني معن الحميديين . وتتناول الرسالة حكم بني معن والصليحيين الذين أبقوا بني معن أمراء على عدن وأعمالها وتتناول الرسالة أيضاً إمارة بني المكرم الجشمي اليامي الهمداني التي تأسست في حدود ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م. واستقل بنو زريع بحكم عدن وفصلوها عن تبعية الصليحيين إلى أن دخل توران شاه الأيوبي إلى اليمن وقضائه مع إمارة بني زريع في عدن وذلك في سنة ٥٦٥هـ / ١١٧٣م .

تبين الرساله الظروف والعوامل التي ساعدت الأيوبيين في السيطرة على اليمن وكان أبرز ميزات حكمهم في اليمن القضاء على أنصار الفاطميين و دعاتهم في عدن وزبيد وصنعاء واعتبار اليمن إقطاعاً لسلاطينهم الذين غادروها وعينوا النواب عليها وهم بدورهم كانوا يرسلون الأموال السنويه إلى مصر والشام ويثيرون الحروب والصراع فيا بينهم محاولين التوسع تارة والأستقلال تارة أخرى . وكان أن عاشت اليمن عهداً من عدم الأستقرار والحروب الكثيرة الدائمة خاصة وأن الأيوبيين اهتموا بتثبيت سيطرتهم على اليمن بمختلف الوسائل وخاضوا معارك مستمرة مع معارضيهم وكان من نتائجها إهمالهم شؤون اليمن .

وبرغم عدم استقرار أحوال اليمن الداخليه في العهد الأيوبي ، إلا أن عدن تمتعت بمركز إقتصادي مهم ، فانتعشت تجارتها الداخليه والخارجيه وكثرت مواردها الماليه وعنى النواب بها عناية فائقه من بناء المؤسسات الأقتصاديه والأجتماعيه ذات النفع العام فتدبرتها أقوام من جنسيات مختلفه ، وقد تجلى ذلك بصوره خاصه في عهدي عثمان الزنجبيلي والمعتمد التكريتي ، والنظره إلى عدن باعتبارها ميناء مهما وسوقاً تجارية نشطه توضح مدى تزايد مركزها الأقتصادي وأهميته منذ عهد بني المكرم وبني زريع وخلال العهد الأيوبي إذ كانت ذات صلات تجارية مع أرجاء العالم المعروف آنذاك فدخلتها بضائع كثيره وجمعت أموال طائله من رسوم التجارة وكانت عدن مركزاً لضرب العملة في عهد بني المكرم والأيوبيين واصبحت مركزاً لاستقطاب العاملين في الوسط التجاري من مختلف ارجاء العالم .

أما المدة المحددة التي شملتها الرسالة بين ٤٧٦ – ٦٢٧هـ / ١٠٨٣– ١٢٢٩م فيعزيها المؤلف إلى قيام إمارة بني المكرم الهمداني التي كانت مواليه للفاطميين في مصر في حدود ٤٧٦هـ ، ثم القضاء عليها من قبل الأيوبيين ٥٦٩هـ / ١١٧٣م وحتى قيام الدوله الرسوليه في اليمن وذلك كي يوضح المقارنة بين عهدين متباينين ودراسة سياسة كل منهما في اليمن عامة وفي عدن خاصة ، ودراسة التطورات السياسية والأقتصادية لمدينة عدن خلال العهدين المذكورين ، والحقيقه أن المقارنه لم يمر بها المؤلف بصورة مستقلة ولكن القارئ للرسالة يلحظها أما الغرض الثاني فقد برز بوضوح .

تتكون الرسالة . بعد تحليل المصادر والمقدمة التي استغرقت ٦٥ صفحه وستة فصول وخاتمة ، يحوي الفصل الأول جغرافية عدن واعمالها بدءاً بتسمية عدن في المصادر اللغوية والتاريخية وموقعها الجغرافي وأهميته في تاريخها وأنعكاساته على مكانتها الأقتصادية المميزة لها ، ثم دراسة لسطحها وطبيعتها ومناخها وتأثيره على نشاط سكانها وتكيفهم له ، بعد ذلك يوضح المؤلف أعمال عدن أي ما أرتبط بها من النواحي والقرى التي ورد ارتباطها بعدن سياسياً واداريا في المصادر مع تبيين موقع كل ناحية وقرية والمسافة بينها وبين عدن وكذلك اشتهرت به من منتجات ومحاصيل زراعية وما امتازت به من نشاط إقتصادي آخر ، بسبب موقعها أو شهرتها بوجود مواد أوليه معينه ، أو قيام صناعة بها .

والفصل الثاني عرض لدراسة ظهور إمارة بني المكرم في عدن وايضاح حالة اليمن السياسية في الربع الأول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وينتهي الفصل بتأسيس إمارة بن زريع في عدن بعد استقلال سبأ بن أبي السعود بحكم عدن سنة ٥٣٣هـ / ١١٧٣م .

ودرس المؤلف في الفصل الرابع عدن في العهد الأيوبي منذ دخول توران شاه لليمن وفتحها ، وقضائه على إمارة بني زريع فيها ، إلى سقوط الدوله الأيوبية سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م وتأسيس دولة بني رسول في اليمن . وخصص الفصل الخامس لدراسة الفعاليات الإقتصادية داخل ميناء عدن فأوضح شهرة عدن كسوق قديم وصلاتها مع العالم وخبرة أهلها التجاريه والعشور المفروضه على البضائع من حيث مقاديرها وانواعها وتطورها والعمله المتداوله ودراسة المعاملات التجاريه الأخرى من بيع وشراء واستيفاء الرسوم ومعاملات الطول والمساحه وغيرها .

يبرز الفصل السادس دور عدن في التجارة الداخلية والخارجية بتمهيد عن سكان عدن والعاملين فيها ثم دراسه التجارة الداخلية وأثر سياسة الدولة عليها في عهد بني المكرم ومن بعدهم بني زريع ثم العهد الأيوبي مبينا دور القادة والنواب الذين تولوا عدن بناء المؤسسات الإقتصادية والأجتماعية ذات النفع العام للسكان وتجديد البعض منها ، وموقفهم من تجارتها سلبا وإيجابا ، كبناء الأسوار والأسواق والأهتمام بالميناء والتدخل في العشور من زيادتها ونقصانها واعفاء المواد الضرورية للسكان منها ، وبين بعض الصناعات المحلية في عدن وفي بعض نواحيها كصناعة العطور والنبيذ والزجاج والخزف والقنبار . وفي هذا الفصل

يعد درس المؤلف النشاط التجاري الخارجي لعدن من خلال علاقاتها مع أرجاء العالم المعروف آنذاك وتبادل المنتجات والبضائع بواسطة عدن التي كانت وسيطا لنقل تلك البضائع وتوافرها و بذلك كملت صورة النشاط الأقتصادي لميناء عدن مع نشاطها الداخلي ، وكانت محصلة ذلك كله انتعاش عدن تجارياً وكثرة مواردها المالية من الرسوم والعشور المتنوعة على البضائع ، والتي اسهمت في تطورها ، وارتفاع دخل سكانها ورفاههم إقتصادياً من خلال عملهم في الوسط التجاري فزادت أهمية عدن ، واصبحت محط الصراع بين قوى محلية وعالمية من أجل غزوها والسيطرة عليها .

تشكل الرسالة التي قدمها الدكتور محمد كريم أهمية بالغة لدراسة تاريخ اليمن الوسيط (الأسلامي) ليس السياسي الحربي فحسب وإنما تاريخها الأقتصادي ، وهي دراسة جادة تقع في ٦٨٠ صفحة . بما فيها ثمانية جداول وسبع خرائط تدل على ما بذله من جهد جهيد . وبرغم ما واجهه من صعوبات وما تجشمه من متاعب محاولاً التأكد من مطابقة ما أوردته المصادر على الواقع الجغرافي بتعرفه على عدن ذاتها ، فأنه يقع في بعض الهنات خاصة وأنه لم يتمكن من زيارة عدن ذاتها . ء

تحشد الرساله في الفصل الأول – عدن وأعمالها – مجموعة كثيرة من المعلومات من مصادر شتى دون نقد أو تحليل أو مناقشة لها بل أحياناً مكرره أو مبالغ فيها أو متناقضة ، فمثلاً عند ذكر إسم عدن يقول د. محمد كريم «نستطيع القول بأن كثيراً من الروايات التي سبق وأن أوردناها أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق ، ولعل رأي ابن المجاور حول اشتقاق اسم عدن هو الأقرب إلى واقع التسمية» ، ثم يورد قول إبن المجاور : «وما اشتق إسم عدن إلا من المعدن وهو معدن الحديد» ثم يبالغ في دعم هذا القول : «ومما يدعم هذا الرأى أن مدينة عدن تشتهر بوجود معدن الحديد بكميات كبيرة إذ أن أحد جبالها يسمى جبل الحديد»[1] ، ناسيا أنه ذكر لأبن المجاور قولا من صفحه ٧٢ : (بأن عدن كانت حبساً لاصحاب الجرائم وقد جعلها شداد بن عاد حبساً لمن غضب عليه . . . وقيل إن أول من حبس بها رجلاً إسمه عدن فسميت البلدة باسمه» ذكر ذلك دون أن يناقش إبن المجاور أو ينقده ويبين تناقض أقواله .

تستخدم الرسالة وحدات قياس مختلفة فتذكر المسافات والأرتفاعات . . . كما جاءت في النصوص دون تحويلها إلى وحدة قياس واحدة أو بين قوسين أو الهامش فمثلا فعلى سبيل المثال : «وذكر الخزرجي أن طول المسافة من عدن إلى مكه تزيد عن ثلاثين مرحلة ، وفي رواية ابو الفدا أن مدة السفر من مكه إلى عدن كانت تستغرق نحواً من شهراة» و «تبعد رباك عن عدن مسافه فرسخين أي أقل من ١٠ كم أما لحج فتقع على مسافه لا تزيد عن ٢٨ ميلاً»[2] ، ونصاً آخر : «تتميز عدن بميزات طبيعية نادراً ما تتوفر لغيرها ، فهي تقع على فوهة بركان قديم يبلغ ارتفاعه ٣٣٥ متراً»[3] ، وتعتبر قمة جبل شمسان أعلى قمة في البركان الخامد الذي تتكون منه مدينه عدن ، إذ ترتفع ١٧٧٥ قدم»[4] ، فكلمات مثل مرحلة ، شهر ، فرسخ ، كم ، متر ، ميل وقدم لا تربك المؤرخ الدارس ولكنها تجهد وتتوه القارئ العادي في حاله طباعه الرسالة ككتاب .

ومن التناقضات البارزة في هذا الفصل تحديد المواقع والأتجاهات الجغرافية ويبدو ذلك أنه كان نتيجة لعدم زيارة المؤلف عدن وعدم مناقشته ونقده للنصوص المقتبسة فعلى سبيل المثال مواقع جبل العر وجزيرة صبره وجبل التعكر والمباه وقرية رباله وغيره فهو يذكر أن جبل العر المعروف بجبل شمسان «يقع جنوب عدن ، وهو عباره عن سلسلة تلال واقعة جنوب عدن وتمتد إلى جنوب غرب عدن ، وتعتبر قمة جبل شمسان أعلى قمة في البركان الخامد الذي تتكون منه مدينه عدن ، إذ ترتفع ١٧٧٥ قدم فوق سطح البحر ، ويشرف على الجهه الغربيه من عدن»[5] ، فهل ياترى – في هذه الفقرة – يقع الجبل في الغرب أم الجنوب أم يمتد في كل هذه الجهات . و يحدد موقع جزيرة صبره : «يشرف جبل صيره على مدينة عدن من ناحية الجنوب الشرقي ، وهو من جهة الشرق في عدن»[6] ، و «أما جزيره صيره الواقعه في البحر والمواجهة لرأس عدن من الشرق»[7] ، و «إن موقع قريه رباك وغيرها . ولايناقش الدكتور محمد كريم هذا التناقض أو ينتقد المرجع التي إقتبس منها هذه النصوص .

وفي بقية الفصول نجد بعض التكرار والهنات وحبذا لو أضاف ملاحظات وشروح حول بعض الأمور الجديدة بالملاحظة فمثلا لاحظ إبن

(١) ن . م . ص ٩١ .

(٢) ن . م . ص ٩٣ .

(٣) يعالج الدكتور أسامه عبد الرحمن النور في تعقيب له لرساله الدكتوراه قدمها الدكتور محمد عبد الكريم عكاشه بعنوان «تاريخ حضرموت السياسي» في (مجلة الثقافة الجديده ، عدد (٥) ، أغسطس ١٩٨٢ ، ص ١١–١٩) منهجيه البحث بحيث يمكن على أسامه معالجة تاريخ العرب الأسلامي (اليمن الوسيط) معالجة هادفه .

(٤) ابلغني الدكتور محمد كريم أنه حاول زياره عدن ولكنه لم يتمكن من الحصول على تأشيره زيارة عدن في حينها . . . ومع ذلك وحتما يمكنه اليوم – هو وغيره – لزيارة عدن وحبذا أن تكون قبل طبع الرساله .

(٥) د . محمد كريم : عدن – دراسه في أحوالها السياسيه والأقتصاديه ٤٧٦–٦٢٧هـ ١٠٨٣–١٢٢٩م (رسالة دكتوراه لم تنشر) ١٩٨١ ص ٧٤ .

(٦) ن . م . ص ١١٥ .

(٧) ن . م . ص ٨٨ .

المجاور أن ابو الحسن علي بن الضحاك الكوفي أول من أظهر المقلاع في عهد بني زريع وكان أهل يجلبون الحجر من أعمال عدن في أبين وأقرب نقطة هي جبل خنفر قرب جصار في أبين . فكيف كان أهل عدن يجلبون الحجاره من أبين ومدينتهم محاطه بالجبال !! إنها حقيقة تاريخيه أول من تنبه لها إبن المجاور فحبذا لو نشر الدكتور ذلك بالنسبه لمنهجيه البحث فن الواضح أن المؤلف لم يحلل تاريخ اليمن الوسيط (الأسلامي)وفق نظريه أو فلسفه معينه واضحه ولم يشر إلى ذلك ولا يتضح ذلك لا في المقدمه ولا في صلب الرساله[٨] .

ولا شك أن هذا العمل الذي أنجزه الدكتور محمد كريم سيكون له أبعد الأثر في دفع عجله البحث في تاريخ اليمن الوسيط الأسلامي الذي لا زال في بطون المخطوطات – سواء كانت في اليمن أو المكتبات العالمية – وبحاجة إلى دراسة جادة كهذه . والرساله رائده في ميدانها ، وهي جهد محمود وعمل يستحق الذكر ، وكل ما يؤمل منه هو أن يعيد المؤلف النظر في الرساله عند طباعتها ككتاب .

(٨) ن . م . ص ٩١ .

ايران في سنوات الحرب العالمية الاولى

للسيد فوزي خلف شويل

عرض : اسامة عبد الرحمن الدوري

تكونت الرسالة من مقدمة واربعة فصول وخاتمة .

ركز الباحث في الفصل الاول لاعطاء لمحة تاريخية عن اوضاع ايران الداخلية عشية الحرب العالمية الاولى مركزاً على التوزيع العرقي للشعوب الايرانية والواقع الاقتصادي والسياسي لايران ، ففي الجانب الاقتصادي كان الاقتصاد الايراني متردياً بفعل الاستغلال الاقطاعي ، وكانت ميزانية الدولة تعاني من عجز مستمر ، والتي دفعت بالدولة الى اعطاء عدد من الامتيازات وعقدت سلسلة من القروض .

اما الجانب السياسي فقد كانت الاسرة القاجارية والفئة البيروقراطية اضافة الى رجال الدين والتجار الكبار هم المجموعات المؤثرة في الحكم .

أن تردي الأوضاع الاقتصادية والسياسية خلقت الظروف الملائمة لتغلغل الدول الكبرى في ايران قبل الحرب العالمية الاولى وهي روسيا القيصرية والولايات المتحدة الامريكية والمانية اضافة الى بريطانيا التي كان لها وجود تجاري كبير منذ بداية القرن التاسع عشر ، اضافة الى المحاولات الفرنسية لعقد اتفاقية تجارية مع ايران .

ولكن التغلغل الاكثر وضوحاً ذلك الصراع الذي شهدته الساحة الايرانية بين بريطانيا وروسيا بعد ان اتفقا عام ١٩٠٧ على تقسيم ايران بينهما ، اضافة الى التغلغل البلجيكي في نهاية القرن التاسع عشر حيث حصلت على عدة امتيازات .

(١) نوقشت الرسالة في اروقة كلية الاداب . قسم التاريخ جامعة بغداد . في اذار ، ١٩٨٣

وتناول الفصل الثاني صراع العسكرين المتحاربين في ايران ١٩١٤ - ١٩١٧ مشيراً الى الاطماع الالمانية في ايران وخططها العسكرية لتنفيذ ذلك ، وبشيءٍ من التفصيل الوجود الاقتصادي البريطاني في ايران وخاصة امتلاكها لشركات النفط العاملة هناك ، اي بمعنى اخر ان بريطانيا موجودة تحت ذريعة حماية مصالحها هناك .

وتناول النشاط الالماني - التركي في بداية الحرب في ايران موضحاً محاولات الاتراك جر الشعوب الايرانية تحت ستار الدين الاسلامي ضد دول الشرك - دول الحلفاء - واوضح الجهود الالمانية سواء الدبلوماسية منها أو البعثات التي ارسلتها قيادة الاركان الالمانية الى ايران لضمان وقوفها الى جانبها في الحرب .

وامام هذا النشاط الالماني - التركي كان للحلفاء رد فعل ادى الى تفاقم الصراع ، فقد تحرك الروس مستخدمين شتى الاساليب لتحديد نشاط الالمان في ايران .

امام ذلك الصراع الدولي في ايران لم تقف ايران مكتوفة الايدي بل حاولت الحكومة الايرانية جعل ايران منطقة محايدة بين الطرفين المتحاربين ، وبرزت المقاومة الايرانية في الجنوب ضد الانكليز حتى ارجحت كفة النفوذ الالماني هناك ، حتى ان تطور الاحداث في ايران لصالح المانيا لم يحل دون التدخل العسكري الروسي - البريطاني المباشر ، ومن ثم للتدخل العسكري التركي - الالماني في ايران اثر هزيمة الانكليز في الكوت (مركز محافظة في العراق) على ايدي الاتراك ، الا ان الانكليز لم يستسلموا لتغيرات الاحداث بل استمروا في ارسال البعثات العسكرية الى جنوب ايران وشرقها .

ان سقوط بغداد بأيدي الانكليز ترك أثار معنوية على المسلمين كافة وايران بشكل خاص بحكم تقرب البريطانيين من حدودها وبأتجاه جديد ، وهذا أثر على موازين القوى بشكل مباشر وعلى مستقبل ايران .

اما الفصل الثالث «ايران في المرحلة الاخيرة من الحرب» فقد اراد الباحث في بدايته بيان ان ايران لم تكن معزولة عن الاحداث خارجها فتناول اثر ثورة اكتوبر ١٩١٧ في روسيا على الوضع السياسي في ايران حيث قامت الحكومة الروسية الجديدة بالغاء كافة الاتفاقيات السرية المعقودة بشأن تقسيم ايران واعادت لايران كل ما أخذ منها بالقوة ، الا ان العلاقات بين الطرفين لم تكن كما يرام بل ظل التوتر يسود تلك العلاقات .

ان طبيعة العلاقات الايرانية . السوفيتية الجديدة دفع بالايرانيين لمطالبة البريطانيين بموقف مماثل عبر عدد من المذكرات والزيارات ومن ثم الاشتباك المسلح بين الايرانيين والبريطانيين حتى اذا جاءت بريطانيا بحكومة ايرانية ميالة لسياستها في اب ١٩١٨ ، كل ذلك جرى في جنوب ايران واتبعت بريطانيا نفس السياسة في شمال ايران بعد انسحاب القوات الروسية من هناك أضافة الى اسلوب البعثات العسكرية المتعددة في شمال ايران .

ان الصراع بين روسيا وانكلترا ضد المانيا والدولة العثمانية قد أفسح المجال لتغلغل النفوذ الامريكي في ايران قبل الحرب بسنوات وبدفع من بعض الساسة الايرانيين في محاولة للتنفيس عن مشاكل البلاد ، وهذا اعطى الامريكان فرصة للتفرد بأيران وهذا واضح من خلال الرسائل المتبادلة والبعثات التي ارسلتها حكومة واشنطن الى ايران وابرزها «اللجنة الايرانية» حتى أصبحت لامريكا مكانة لا يمكن تجاهلها في ايران مع نهاية الحرب العالمية الاولى .

وناقش الفصل الرابع نتائج الحرب العالمية الاولى بالنسبة لايران ، متناولاً خسائر ايران المادية والبشرية في سنوات الحرب جراء العمليات العسكرية لمختلف الاطراف داخل الاراضي الايرانية منذ بداية الحرب وحتى انتهائها .

فحسب تقديرات المصادر الفارسية وغيرها بلغت الخسائر البشرية حوالي (٣٠٠) الف شخص وقدرت لجنة الفتها الحكومة الايرانية عام ١٩١٨ قيمة الخسائر المالية التي لحقت بالبلاد بـ (٤٣٦) مليون تومان .

لقد خلقت تلك الظروف السياسية والاقتصادية في ايران سلسلة حركات كان قسم منها ذا طابع عفوي والبقية ذات طابع قومي غير متكامل . بأنتهاء الحرب العالمية الاولى حاولت الشعوب المغلوبة على امرها ، ومنها ايران ، عرض قضيتها على مؤتمر فرساي فبعثت بوفد برئاسة وزير خارجيتها قدم كراساً مطبوعاً الى المؤتمر يضم المطالب الايرانية الخاصة بضمان الاستقلال السياسي والاقتصادي ، واستعادة الاراضي التي سيطر عليها الروس والتعويض على اضرار الحرب .

ورغم محاولات الوفد الامريكي عرض قضية ايران على مجلس (الاربعة الكبار) اكثر من مرة الا انها باءت بالفشل نظراً لموقف بريطانيا المتشدد ، وربط قضية ايران بحل المسألة التركية ، وادركت بريطانيا مغزى المحاولات الامريكية ، ولكن في النهاية ادرك الوفد الايراني ما اكده البريطانيون من ان «المخرج هو في وايت هول لا في فرساي» .

وبهذا يخرج الباحث بأن ايران اصبحت اثناء الحرب العالمية الاولى ميداناً مهماً من ميادين القتال في جبهة الشرق الاوسط ولم يبق لسلطة الشاه شيئاً حقيقياً سوى الاسم لسيطرة القوات الروسية والبريطانية حتى عام ١٩١٧ وبشكل مباشر على ايران .

وبعد انتهاء الحرب وانسحاب روسيا بعد ثورة اكتوبر حلت الولايات المتحدة الامريكية وحلها ، وحاول الساسة الايرانيون اللعب بالورقة الامريكية للتنفس ولو قليلاً عن الضغط الذي كانت القوى التقليدية تمارسه بالنسبة للبلاد .

ولكن هذا لا يمنع من ان الحكومة الايرانية قد بدأت مطامعها بأراضي عراقية حساسة ومناطق ماوراء القفقاس واسيا الوسطى عند عرض قضيتها على مؤتمر فرساي .

لقد بدأت السلطة القاجارية تضعف وتنهار مع نهاية الحرب وبدأت تنمو قوى المعارضة الوطنية وفي مقدمتها الحركات الثورية غير الفارسية وبهذا بدأت مرحلة جديدة من تاريخ ايران .

تنوعت مصادر الرسالة فأعتمدت الباحث على الوثائق غير المنشورة من المركز الوطني لحفظ الوثائق (بغداد) .

اضافة الى وثائق وزارة الخارجية البريطانية(Foreign office) **وكذلك على الوثائق المنشورة ، واعتمد على مصادر ومراجع باللغات العربية والفارسية والانكليزية والروسية ، واستفاد من الصحف والمجالات العراقية والعربية .**

عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة - لنائل حنون[1]

للسيدطه باقر

عرض : الدكتور سامي سعيد الأحمد

ويتألف الكتاب من تقديم للسيد طه باقر الذي أشرف على الرسالة ثم مقدمة للمؤلف شرح بها أهمية الموضوع وما يود توضيحه للقارئ ثم القى نظرة على المصادر الأساسية التي استندت عليه دراسته . وقد قسمها الى مصادر آثارية بما أظهرت الحفريات من مخلفات القبور وصورت المسلات والأختام من أشكال ثم كتابية تشمل كافة النصوص من اساطير وقطع أدبية ورقي وتراتيل ومرثيات ورسائل وشرائع وحوليات ملوك الخ . ثم تعرض لأهم المصادر الحديثة بموضوعه .

وفي المدخل الذي أفرزه لرسالته عالج تأثير ظاهرة الموت عند انسان النياندرتال وممارساته الدفينة ثم الأفكار الاسكاتالوجية في كافة مراحل العصر الحجري القديم والوسيط والحديث والعصر البرونزي المبكر . وكانت معالجته مقتضبة تنقل بها من اوربا الى مصر وفلسطين .

وبحث بالفصل الأول الذي عنوانه الموت والخلود ، العلاقة بين الموت والخلود والمغزى الأساسي لفكرة الخلود الذي هو (نكران الموت كحقيقة باعتباره أبعد من ان يؤثر في كيان الفرد) .

فالعراقيون القدامى اعتقدوا بان الخلود هو من الصفات التي احتكرتها الآلهة لنفسها عندما قدرت الموت على البشر ، الذي فسره المؤلف بمسؤولية الآلهة عن ادارة الكون . ورغم ذلك فقد ذكرت اساطير الخليقة وأصل الآلهة بعض الأرباب التي ادركها الفناء امثال أبسو الذي يقول عنه المؤلف (انه لم يفن من الوجود بعد ذكر مقتله في الاسطورة وانما استمر بهيئته المادية التي هي مياه العمق المسماة باسمه) . ثم قتل كنكو وتيامات على يد الاله مردوخ . ويؤكد المؤلف ملاحظتين حول مقتل

(١) رسالة ماجستير . نوقشت على أروقة كلية الآداب . قسم الآثار . جامعة بغداد في ١٩٧٦

الألهة هما : ان الفعل «أضجعه» الذي يذكره النص بالنسبة الى الآلهة القتيلة يدل على الموت الوقتي . ثم ان اغلب الآلهة المذكورة في الاسطورة تستمر في الوجود بكامل قدراتها رغم مقتلها مثل الالهة أماكاندو ولاخاو (ص ٥٢) . ويتعرض الى حقيقة كون هذه الأحداث قد وقعت قبل خلق الانسان . ثم يتعرض المؤلف الى اسطورة نزول انانا الى العالم الأسفل وموت تموز كل سنة وأخذه الى العالم السفلي ثم عودته الى الحياة . ويذكر ان اخذ تموز الى العالم السفلي لايعني عملياً موته بل انضمامه الى جميع آلهة ذلك العالم (ص ٦٢) . وان الالهة انانا قد أرغمت زوجها تموز (دوزي) على دخول العالم السفلي كما نقرأ في الرواية السومرية من هذه الاسطورة بعد ان خرجت هي من هذا العالم . وسبب ذلك ، كما يرى المؤلف ، هو حنقها على تموز لعدم اكتراثه من غيابها في العالم الأسفل ويستند في ذلك على (ارتداء تموز لثياب بهية في مجلس مهيب) وكون شهر ايلول قد أسماه السومريون عيد تموز . وعالج المؤلف ايضاً الموت السنوي لأرباب العالم القديم الرئيسية مثل أسر مردوخ الوقتي كل سنة في العالم السفلي ، ثم دامو ونتازيموا وساتران وننكرزو وتشباك وأبو وحتى الى آنو . وحتى ان بعض الآلهة كانت تتعرض للموت في مناسبات معينة مثل الاله انليل ويشكر وسن .

وبحث المؤلف حتمية الموت على البشر وتعذر الخلود . فمن دخل عالم الأموات لا يستطيع الخروج منه واقتنعوا بالفناء المحتم عند الموعد الذي قدره الآلهة للانسان الذي ربما يموت قبل ذلك حيث نقرأ احياناً في النصوص عن موت البعض في وقت لم يكن يوم مصيرهم . ولذلك صاحب الانسان القلق من الموت الذي يدركه بأي وقت واعطى مثلاً من كلكامش بعد ان رأى مصير صديقه أنكيدو . وهناك بشر منحتهم الآلهة الخلود مثل اوتونابيشتم . وتؤكد ملحمة كلكامش واسطورة أدابا حتمية الموت على الانسان .

وكان موضوع الفصل الثاني الروح والعقاب والثواب ، عالج فيه المؤلف الروح وحالتها في عالم الأموات عند العراقيين القدامى . فالسومريون أطلقوا كلمة كيديم على روح الميت وشبحه مثلها مثل كلمة ايتيممو الأكدية التي عنت في العهد الآشوري والبابلي القديم اشباح الآلهة . وتنفصل الأتيممو عن الجسم عند الموت وتحول الى كائن آخر بطريقة غامضة . ونستدل من ملحمة كلكامش انهم تصوروا روح الميت بالعالم السفلي كمخلوق بجناحين من الريش . كما بقت الصلة قوية بين روح الميت في العالم الأسفل وجسده سواء أكان مدفوناً أم لا ، فروح الميت الذي دفنت جثته تكون مستقرة في عالم الموتى ويظل استقرارها في الأخير يعتمد على استقراره في قبره . فنبش القبر تحرم ارواح الموتى من الراحة . وتظل أشباح الذين ظلوا بدون دفن غير مستقرة وتطارد الأحياء وتنزل بهم الأذى . ولذلك اتخذ من بقاء الموتى دون دفن وتعريضه للكواسر والحيوانات وسيلة للانتقام من الأعداء لحرمان أرواحهم في عالم الموتى من الاستقرار . وشددت القوانين الآشورية على عقوبة الامرأة التي ماتت اثناء الاجهاض . كما كان لأرواح الموتى صلة بعالم الأحياء تمكنها أن تشعر بما يحدث فيه وتتأثر به وذلك لعدة أيام بعد موت الشخص حيث جاء في نص (ان اورنامو كان يسمع بوضوح (عويل بلاد سومر) عليه ونزوله الى عالم الموتى كما غمره القلق هناك على أسوار أور وقصره الجديد لانه مات قبل ان يكتمل بنائها) . وان حالة ارواح الموتى في العالم السفلي تعتمد على مكانة الميت في الدنيا سابقاً وما يقدمه ذووه اليه من شعائر جنائزية .

والقى المؤلف نظره شاملة على فكرة بعث الأموات حيث ان مصير الروح ومعاملتها في عالم الأموات لا يتقرران بموجب حساب واضح . وكان ينجم عن ارتكاب الخطايا بنظرهم اضرار شديدة على الشخص المقترف للذنب ومدينته . اما الثواب فاعتقدوا بأنه يأتي كجزاء على أعمال الانسان التقية امثال حسن سلوكه وتقديمه الأضاحي للآلهة وصنعه التماثيل لها يكون كما يذكر المؤلف (بصفاء العيش وطول العمر) حيث تقرأ في نص (ان الخوف (من الآلهة) مدعاة للعطف وان القرابين تطيل العمر . . . ان من يخاف الآلهة تطيل آلهة (الانوناكي) عمره) . ولذلك وصفت الالهة كولا (حافظة الحياة لمن يخافها) .

وفي الفصل الثالث بحث المؤلف العالم السفلي مثل اسماءه المتعددة امثال (القبر ، الأرض العظيمة ، ارض الموتى ، الاراللو ، الأبسو ، الأرض ، الأرض السفلى ، الأرض الفسيحة ، ارض اللا عودة ، أرض النحيب ، الصحراء أو السهل ، الخربة ، البادية ، القفر ، الجبل ، خوبور ، مسكن أركالا ، بيت دموزي ، بيت الأسر ، البيت الجبل ، كوتو ، بيت الظلام ، المدينة العظيمة الخ) . ثم موقعه فاعتقدوا ان القبر هو مدخله ، وله مدخل آخر بالجهة الغربية حيث تغرب الشمس ، ولها بوابات في بعض المدة مثل اوروك . واعتقدوا ايضاً ان بالامكان النفاذ الى العالم السفلي من اية حفرة عميقة بالأرض . ثم وصف المؤلف العالم السفلي كما تصوره العراقيون القدامى فهو الطبقة الأخيرة في الأرض ذات أسوار يتقدمها نهر خوبور الذي يعبر الموتى فيه اله خاص هو خمط تبال . وهي محاطة بسبعة أسوار بيد الآلهة أيريش كيكال . وترك المؤلف ملخصاً بآلهة العالم السفلي امثال ايريش كيكال ، نركال ، واتباعهم من الالهة الصغرى مثل نمتار (مقرر المصير بالسومرية) وبيده زمام ٦٠ نوعاً من الأوبئة وهو وزير ايريش كيكال . ثم بعلة

صبري كاتبة ايريش كيكال ، والملاح خمط تبال وحراس ابواب العالم السفلي السبعة ، ايشوم ، نن كيشزيدا ، آللوخبو ، نصير الشر (مخلوق له رأس طير واجنحة ويدان وقدمان بشرية ويطير بالعالم السفلي)» اوتوكو ، شلاك ، ممو - لمنو (معنى اسمه كل ما هو شر) ثم لوكال سولا (ملك الذهاب) . كما تعرض المؤلف الى أصناف الشياطين في عالم الموتى الذين اعتقد بهم العراقيون القدامى ..

وخصص الفصل الرابع الى طرق الدفن والشعائر الجنازية سواء تحت أرضيات المساكن أو في القصور الملكية أو في المقابر سواء كانت داخل المدن أو خارجها أو بأضرحة مستقلة . ثم صنف المقابر الى (١) عامة (بسيطة أو مشيدة باللبن والآجر ، الابنية) . ثم التوابيت وانواعها (خشبية ، فخارية) . ثم وضع الجثة واتجاهها بالقبر خلال مختلف المراحل التأريخية والمواقع في العراق والاثاث الجنازي . (٢) القبور الملكية التي بحث فيها أضرحة ملوك سلالة اور الثالثة والملوك الآشوريين في اشور ومقبرة اور الملكية وتفسير الأضاحي البشرية التي دفنت مع الموتى بهذه المقبرة عند مختلف الباحثين المحدثين . كما عالج مواضيع شواهد القبور وما كان يدون عليها معطياً الأمثلة النصوصية ، وكذلك الدفن والشعائر الجنائزية ثم الحداد وندب الموتى .

وفي الملاحق الخاصة بالرسالة وضع المؤلف اسطورة نزول انانا (عشتار) الى العالم السفلي السومرية والاكدية واسطورة نركال وايرش كيكال ورؤيا الأمير الآشوري كومايا عن العالم السفلي ثم اللوح الثاني عشر من ملحمة كلكامش .

«موارد البلاذري عن الاسرة الاموية» - في كتابه انساب الاشراف -

للدكتور: محمد جاسم حمادي المشهداني
عرض : الدكتورة اعتماد احمد القصيري

تعد دراسة موارد الكتب التاريخية العربية من اكثر الدراسات اهمية في دعم مناهج البحث العلمي الحديثة والسير بها في طريق أمينة ناجحة ، واية ذلك انها الوسيلة المؤدية الى الوقوف على مصادر المعلومات الاولى وتقويمها بأعتبارها المنابع الاساسية لمعرفتنا بالوقائع التاريخية ، فيمكننا التعرف الى قيمتها استناداً الى دراسة كل مورد أصيل وصلته بالحدث التاريخي وتفاعله معه ، ويحتل كتاب «انساب الاشراف» للبلاذري (ت ، ٢٧٩) مكانة متميزة بين الكتب التاريخية الاولى ، اضافة الى شموله على معلومات واسعة ورائعة عن الامويين حيث اشتملت معلوماته عنهم على ثلث كتابه الانساب اضافة الى توثيقه لرواياته من خلال التزامه بسند الرواية .

لقد اقتضت الدراسة بأن يكون البحث في بابين رئيسيين . الاول منهما خصص لدراسة البلاذري ومنهجه في كتاب الانساب ، وخصص الباب الثاني لدراسة انواع الموارد التي عني البلاذري بالافادة منها . وقد جعل الباب الاول في اربعة فصول ، تناول في الفصل الاول منها ، «حياة البلاذري ومنزلته العلمية حيث تناول فيه عصر البلاذري ونشأته من حيث اسمه نسبه وعائلته ومولده ، وعنايته بطلب العلم ، ورحلاته الى البلدان الاخرى وسماعه فيها ، وصلاته الشخصية ، بالدولة العباسية ورجالاتها ، ومن ثم وفاته .

كما تناول بالدراسة اثار البلاذري ، وما بقي منها وما فقد منها ، وقدم ملخصاً عن كل كتاب منها نتيجة دراسته لها ، وابان فيه ما كان للرجل من منزلة علمية استناداً الى ما خلفه من آثار كتابية ، والى اراء العلماء المعاصرين له والذين جاؤا من بعده .

(١) رسالة دكتوراه نوقشت على اروقة كلية الاداب ، قسم التاريخ ، جامعة بغداد في عام ١٩٨٣

وتوصل الباحث في هذا الفصل الى ان البلاذري لم يكن فارسي النسب وان من ادعى ذلك لم يقدم الدليل المنطقي الملموس ، وعلى العكس من ذلك ,أثبت أنه عربي النسب ، وقدم ادلة على ذلك ، كما بين ان الشيوخ الذين اخذ عنهم في بغداد والكوفة والبصرة وواسط والمدائن ، هم الذين اثروا في تكوينه الفكري وكانوا من اكثر الشيوخ الذين افاد منهم في تأليفه لكتبه ولا سيا كتاب «انساب الاشراف» .

كما توصل الباحث الى انه كان على صلة حسنة بالدولة العباسية ، وان صلته الحسنة هذه لم تؤثر في كتاباته تأثيراً سلبياً وحينما تناول مؤلفات البلاذري بين ان كتاب «الفتوح» المطبوع هو كتاب «الفتوح الصغير» الذي اشار اليه مترجموه ، وهو ليس كتاب «الفتوح الكبير» الذي لم يتمه .

وتناول في الفصل الثاني عناية العرب بالنسب ، فأبان اهمية النسب عند العرب قبل الاسلام وفي العصور الاسلامية ، ثم تحدث عن كل من عني بالنسب ، وقدم قائمة بهم ، ثم تناول المصنفين في الانساب قبل البلاذري وما وصل الينا من مصنفاتهم ، وقد استطاع في هذا الفصل ان يبين ان تأكيدات الاسلام على تحريم العصبية القبلية المقيتة لم يكن عاملاً من عوامل تفكك القبيلة ، ولا مانعاً للعناية بالانساب بل ظلت القبيلة تمثل الوحدة العسكرية في ميدان القتال ، وكانت اساساً للتنظيم الاجتماعي والاداري والمالي في الامصار . واهم ما في هذا الفصل هو الدراسة المنهجية التي وصلت الينا مما ألف حتى عصر البلاذري فقد درس مناهجها دراسة قائمة على دراسة الكتب نفسها ، وحاول ان يبين مدى افادة البلاذري من تلك المناهج .

اما الفصل الثالث فقد خصصه للمنهج الذي اتبعه البلاذري في تنظيم كتابه والاساليب التي سار عليها في عرضه ، فتناول عنوان الكتاب ، والخطة العامة له ، ولغة المؤلف في كتابه .

وتناول في الفصل الرابع منهج البلاذري في استخدام الموارد وانتقاء المادة التاريخية ونقدها ، فأوضح فيه عنايته بالاسناد ، وتوصل الى ان الاسانيد وتسلسلها وصحتها لا يقتضي بالضرورة ان يكون البلاذري قد اخذها عن شيوخه عن طريق المشافهة فقط ، واوضح فيه ان الشيخ لا بد له من اصل مدون يحدث منه والا ما قبلت روايته في الاغلب الاعم ، وقد اوضحت الدراسة للمعلومات التي اوردها البلاذري عن شيوخه بالاسانيد ودراسته الموسعة لهؤلاء الشيوخ ، بأنه اخذ هذه المعلومات من مدونات ، وان كان قد سمع بعضها على شيوخه ، او انه اخذ اذناً بروايتها ، وهذه في رأيه من ابرز النتائج التي توصل اليها في هذه الدراسة .

اما الباب الثاني فقد اقتضت الدراسة ان يشمل على اربعة فصول كبيرة تناول في الفصل الاول المؤلفين السابقين الذين افاد منهم سواء أكانوا من شيوخه الذين اخذ عنهم مباشرة ام من غير شيوخه ممن لم يدركهم ولكن كانت تآليفه معروفة في الوسط الثقافي ايامئذٍ ، وكان منهجه في هذا الفصل انه لا يعد المؤلف مؤلفاً الا عندما ينص احد المترجمين له على انه الف كتاباً اوكتباً ذكر عناوينها صراحة ، دال على اتصاله به او سماعه عليه او ينص احد من ترجم للبلاذري فذكر انه من شيوخه ، وقد جمع روايات كل مؤلف ورتبها وفق اسانيدها التي اقتبسها البلاذري من ذلك المؤلف ثم سلسل ملخصها تاريخياً لكي تقدم فكرة واضحة عن طبيعة المادة التي تناولها ذلك المؤلف مما اقتبسه البلاذري عنه مع عنايته في كل ذلك بتحليل اسانيد لهؤلاء المؤلفين الى شيوخهم الاصليين للوقوف على مصادر معلومات تلك الموارد بغية التوصل الى بيان قيمتها التاريخية .

واظهرت الدراسة ان اكثر شيخ افاد منه البلاذري في هذا الشأن هو ابو الحسن علي بن محمد المدائني (ت ، ٢٢٥هـ) ، ومن ثم محمد بن سعد (ت ، ٢٣٠) ، اما المؤلفين من غير شيوخه ، فأبرزهم هشام بن محمد الكلبي (ت ، ٢٠٤هـ) ، والهيثم بن عدي الكوفي (ت ، ٢٠٩هـ) .

اما الفصل الثاني فقد خصصه لاصحاب التصانيف الذين لا نعرف اسماء مصنفاتهم . وهم مصنفون لم تذكر الكتب اسماء مصنفاتهم لسبب او لاخر ، واقتصر على النص على قيامهم بالتصنيف او صرح البلاذري بالنقل من تصانيفهم ، وقد قسم هؤلاء المصنفين الى شيوخه وغير شيوخه ، وقام بتحليل اسانيد الروايات ، كما تم ترتيب الرواة تبعاً لوفاتهم ، وتم ترتيب ملخص المادة التاريخية التي اقتبسها عنهم ترتيبياً زمنياً للوقوف على الهيكل العام لكل مصنف ، واظهرت الدراسة ان ابرز شيوخ البلاذري في هذا الشأن هو احمد بن ابراهيم الدورقي البغدادي (ت ، ٢٤٦هـ) وعبدالله بن صالح العجلي (ت ، ٢١١هـ) وكثير غيرهم .

وخصص الفصل الثالث لموارده من الذين لم تذكر لهم مؤلفات سواء اكانوا من شيوخه ام من غيرهم ، وقد اقتبس البلاذري عن مجموعة من الاشخاص لم يذكر هو ولا غيره من مؤلفي كتب التراجم ان لهم تأليفاً بعينه او انهم قد عنوا بالتصنيف اصلاً ، وقد عني في هذا الفصل بتحليل الاسانيد ودراستها بعد تقسيمها على مجموعات تنتظم الرواة ، ودرس اسم كل من يرد فيها من حيث القوة والضعف ، للوقوف على قيمة تلك الاسانيد ، وقد اظهرت الدراسه ان ابرز شيوخه

هو عباس بن هشام الكلبي ، وحفص بن عمر العمري وكثير غيرهم ، وقد اظهرت دراسة هذا الفصل ان اغلب هؤلاء كانوا رواة لمؤلفين سابقين استخدموا البلاذري واسطة للوصول الى مؤلف معين ذكره في الاسناد في الاغلب الاعم ، بينما يحتمل ان يكون بعضهم قد الف او كانت له عناية بالتأليف ، ولم تذكر له كتب التراجم ذلك لانه لم يكن صاحب تأليف في موضوع معين ، ويرجح ان يكون ممن دون مروياته في دفتر خاص به .

اما الفصل الرابع فقد خصصه للمعلومات العامة التي اوردها البلاذري عن الاسرة الاموية ولم يسندها ، وقد رجح ان تكون هذه من المعلومات العامة المتداولة التي لا تحتاج الى مصادر ، واما ان يكون البلاذري قد اخذها من مؤلفات لم يذكرها ، واما - في احيان قليلة - هي استمرار لروايات طويلة عن شيوخه الذين يجمع اسانيدهم بلفظ «قالوا» ثم يذكر مروياته . وقد الحق رسالته بستة ملاحق .

«مساجد بغداد في العهد العثماني»
دراسة معمارية اثرية

للدكتورة اعتماد يوسف احمد القصيري

عرض : الدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني

نظام تخطيط وعمارة المساجد التي اقيمت في بغداد خلال فترة الاحتلال العثماني لم تدرس بصورة علمية وفنية كافية من قبل الباحثين العرب والاجانب ومن جهة اخرى فأن اغلب هذه المساجد تعرضت للهدم واعادة بنائها من جديد وبعضها طرأ عليها بعض التغييرات . والبحث الذي نعرضه هنا والصادر باللغة العربية من تأليف الدكتورة اعتماد يوسف القصيري(١)

ان فترة الاحتلال العثماني التي عالجت الدكتورة اعتماد العمارة العراقية خلالها تمتد من سنة ٩٤١ - ١٠٣٢هـ ١٥٣٤ - ١٦٢٢م ومن سنة ١٠٤٨ - ١٣٣٥هـ (١٦٣٨ - ١٩١٦م) ضم الجزء الاول من الكتاب مقدمة وستة ابواب وخلاصة البحث .

المقدمة من (١-١٧) تناولت فيها عرض موجز للحالة السياسية والاقتصادية التي كان عليها العراق خلال تلك الفترة واستعرضت وصف الرحالة الاجانب والعرب لمدينة بغداد ، كما اشارت الى التعليم والثقافة وما اقيم فيها من مدارس علمية أنشأها الولاة وبعض الفاضلات من سيدات المجتمع العراقي ، واتت على الناحية الدينية واشارت الى اقتران الولاة الدين بالدولة وجعلوا من الدين رائدهم الاول ومما يدل عن ذلك قيام معظم الولاة ببناء مساجد وجوامع اقترنت بأسمائهم ولم يقتصر عمل الخير على الرجال وانما شاركت النساء ايضاً فكان لهن النصيب الوافي . وخصصت المؤلفة الباب الاول من هذه الاطروحة لدراسة جامع المرادية وقسم هذا الباب الى خمسة فصول . الفصل الاول / ص ١٧ - ٣١) استعرضت فيه حياة الوالي مراد باشا واعماله العمرانية وكان ابرزها بناء جامع المرادية سنة ٩٧٨هـ (١٥٧٠ م) ذكرت موقعه واصل تسمية المحلة التي يقوم فيها الجامع محلة الميدان ، وتاريخ البناء كما تناولت دراسة أصل

(١) اطروحة دكتوراه . نوقشت في اروقة كلية الآثار . جامعة القاهرة . عام ١٩٨٢ .

ارضية الجامع وفكرة انشاء المدرسة حتمت بناء الجامع منذ صدر الاسلام واستمرار هذه الظاهرة في بناء مساجد بغداد والعالم الاسلامي في فترة الاحتلال العثماني واتت المؤلفة في الفصل الثاني (ص ٣١ – ٣٩) على الاحداث التي جرت على البناء سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٣م، واعمال الصيانة وفي الفصل الثالث (ص ٣٩ – ٥٢) خصص لدراسة تخطيط البناء ومميزاته ومقارنته بتخطيط مساجد بغداد ومساجد اقطار العالم المعماري للمبنى وتأصيل بعض العناصر المعمارية البارزة فيه منها مراحل انتقال القباب، القبو المحفل، الرواف، نظام تخطيط المحراب الواوين، وتأجيل ظاهرة استخدام قبة ذات شكل نصف كروي ونصف القبة في تغطية المباني الدينية، المئذنة، وظاهرة اقامة الدخلات في واجهات المباني اما الفصل الخامس فقد خصص لدراسة الزخارف المعمارية منها ١ – العقود بانواعها. أ – العقد المدبب. ب – العقد المبطوح / العقد المستقيم / العقد النصف دائري. ٢ – المقرنصات حيث وجد أ – مقرنص كروي، ب – مقرنص الخردة كار. ج – الم مقرنص كروي استطال شكله ظهر لاول مرة في المباني التي اقيمت في فترة الاحتلال العثماني، واصلت الزخارف النباتية الدقش العربي) وقراءة النصوص المدونة على المبنى بخط الثلث والطغراء مع دراسة وتأصيل كلا الخطين.

البال ب الثالث الفصل الاول (ص ١٦٩ – ١٨٠) استعرضت حياة الوالي حسن باشا واعماله الحربيئة ة والعمرانية منها بناء جامع الوزير سنة ١٠٠٨ هـ مع ذكر اسباب البناء وتحقيق في اصل ارضية المبنى وعالجت في الفصل الثاني الاحداث التي جرت على الجامع ومدرسته، وفي الفصل الثالث (ص ١٨٨٧ – ١٨٩) درست تخطيط البناء قبل عملية الهدم وتخطيطه الحالي ثم اتت المؤلفة في الفصل الرابع ص (١٩٤ – ٢١٩ على) على وصف البناء وتأصيل بعض العناصر المعمارية منها الشمسيات (القمريات) وذكر مااماكن تواجدها في عمارة مساجد بغداد ومساجد اقطار العالم الاسلامي/ القبة المزودة بنافذة في قبتها وذكر اماكن تواجدها في عمارة مساجد معظم اقطار العالم الاسلامي، وتأصيل حينة المحراب المجوفة والمغلفة ببلاطات خزفية وكذلك المنبر، وتأصيل حيناالفصل الخامس فقد خصص اللدراسة الزخارف الهندسية والنباتية ودراسة النصوص المدونة على واجهات المبنى المدونة بخط كوفي مزوي الطرف. وكوفي هندسي الشكل وذكر مميزات كلا الخطين، والباب الثالث: الفصل الأول (ص٢٤٦ – ٢٦١) خصص لدراسة حياة الوالي محمد باشا الخاصكي اعماله العمرانية منها بناء جامع الخاصكي سنة ١٠٦٩ هـ (١٩٥٨)م اصل ارضية المبنى محلة القرية تسمية حديثة ام قديمة وسبب بناء الجامع وذكر وقفيته اما الفصل الثاني (ص ٢٦٢ – ٢٦٥) فقد تناولت اعماله الصيانة والاحداث، واتت المؤلفة في الفصل الثالث (ص ٢٦٦ – ٢٨٤) على دراسة تخطيط المبنى ومقارنته بتخطيط مساجد بغداد وتأصيل فكرة اقامة الضريح ضمن بناء الجامع اما الفصل الرابع فقد خصص لدراسة مبنى المبنى وتأصيل العناصر المعمارية البارزة فيه أ – محراب جامع المنصور، الاعمدة الرخامية، التاج الناقوسي وخصص الفصل الخامس لدراسة طراز زخرفة المئذنة وزخارف واجهات المبنى وتأصيل النماذج الفريدة، والنصوصو المدونة على واجهة المبنى باللغة التركية وبخط التعليق وذكر اهم مميزات هذه النصوص اما الباب الرابع (ص ٣١٧ – ٤٩٣) فقد خصص لدراسة جامع الاحمدية الذي بناه احمد باشا كتخدا الوالي سليمان باشا الكبير سنة ١٢١٠ هـ (١٧٩٥)م. الفصل الاول منه خصص لدراسة حياة احمد باشا واعماله العمرانية وتاريخ بناء الجامع ومدرسته واصل ارضية المبنى وما اوقف له من اموال. وفي الفصل الخامس (ص ٣٣٠ – ٣٣٧) تحدثت عن الاحداث التي جرت على الجامع والمدرسة واتت في الفصل الثالث على دارست خطط البناء ومقارنته بنظام تخطيط مساجد القاهرة واستانبول وايران والشام حيث وجد وجه الشبه الكبير بينه وبين تخطيط جامع رستم باشا سنة ١٩٨٤ هـ (١٥٤١)م والذي يعتبر تخطيطه تطورا لنظام المساجد الصغيرة في تركيا وخصص الفصل الرابع (ص ٣٤٧ – ٤١٩) لوصف المبنى ودراسة العناصر المعمارية البارزة فيه منها الدعائم الضخمة القبة المزدوجة، القبة البصلية ذات الرقبة الطويلة وتعرف بالقباب السمرقندية، واخيرا البصلية الى ذات الرقبة الطويلة وتعرف بالالباب الباب الخامس (ص٤٩٦ – ٦٥٠) في الفصل الاول تحدثت بصورة مختصرة عن اصل الوالي داود باشا قدومه الى العراق صفاته واعماله العمرانية التي اقامها في بغداد وخارجها، جامع الحيدر خانة موقعه، امع اصل ارضية المبنى محلة الحيدر خانة سبب هذه التسمية المدرسة الداودية ومدرسة جامع الحيدر خانة واخيرا

ذكرت ما اوقف عن المبنى والمدرستين من اوقاف (ص٤٩٦ – ٥١٥) وفي الفصل الثاني استعرضت الاحداث وما جرى على المبنى من اعمال صصيانة (ص ٥١٦ – ٥٢٣)، اما مع تخطيط مساجد بغداد السالفة الذكر، وعالجت في الفصل الرابع الوصف المعماري للبناء (ص ٥٣٤ – ٥٧٣) وشمل تأصيل ودراسة الاعمدة الرخامية، ذي التاج المركب العمودي الايوني العمود الكورنثي، ودراسة الزخارف النباتية منها ورقة الاكنش، قرون الرخاء، الفواكه، الاشرطة الصرر والجامات. كما تناولت قراءة الكتابات المدونة على واجهات المبنى وذكر ميزاتها منها كتابها خط كوفي هندسي، كوفي مربع وخط الثلث. واختتمت المؤلفة متابها كتابها بالباب السادس الذي خصص لدراسة جامع العادلية الكبير والصغير، الفصل الاول (ص ٦٥١ – ٦٦٢) تناولت الحديث عما حياة عادلة صفاتها واعمالها تاريخ بناء جتمع جامع العادلية الكبير شسنة ١١٦٨ هـ – ١٧٥٤م وعالجت في الفصل الثاني ما جرى على المبنى من احداث وتطورات اما الفصل الثالث فقد شمل على وصف تخطيط البناء، والفصل الرابع خصص لدراسة الوصف المعماري وتناولت في الفصل الخامس والاخير دراسة الزخارف النباتية والهندسية وقراءة النصوص التركية وترجمتها الى اللغة العربية وذكر ميزاتها.

وفي النهاية افردت خاتمة انطوت على اهم النتائج التي توصلت اليها من خلال دراستها نظام تخطيط وعمارة هذه المساجد.

الجزء الثاني من الكتاب:

اتماما للفائدة العلمية زودت البحث بمجموعة من الرسوم التخطيطية بلغ عددها ٢٤ تخطيط ارضي للمباني و١٩ قطاع طولي وافقي لكل مبنى كما زادت البحث بـ ١٥٣ شكلا يمثل الاشكال الهندسية والزخارف البنائية والكتابات المدونة بخط الثلث، والكوفي بانواعه، والطغراء، ونستعليق، وبعض هذه الاشكال تمثل عناصر معمارية منها العقود بانواعها، والاعمدة، والمقرنصات كما زود البحث بـ ١٥٤ صورة فوتوغرافية (اسود وابيض) معضمها صورت من قبل صاحبة البحث، كما رافقت بهذا البحث ملحقا خاصا بوقفيات الجوامع بعضها تمثل الصورة الاصلية للوقفية مدونة باللغة التركية. مرفقة معها النص العربي، ترجمة الوقفية كما عينت بعمل فهارس خصصت بعضها لوصف الصور واخرى للاشكال وثالثة للمقاطع والمخططات ورابعة للمراجع العربية والاجنبية بالاضافة الى فهرست الموضوعات.

ولم يكن الكتاب تجميعا للمعلومات والدراسات التي كتبها الباحثون والاجانب بل احتوى على دراسات ومعالجات علمية عميقة لانه لم تكن مدروسة من قبل

ولهذا فان ما قدمته المؤلفة يشكل اضافة علمية قيمة في ميدانها واعطت صورة موضوعية واضحة للعمارة العراقية خلال فترة الاحتلال العثماني وتطورها.

« ندوة العدد »

الندوة الدولية: «الخليج العربي والعالم الخارجي»

— بغداد ٢٩/٤–١/٥/١٩٨٤ —

مركز دراسات الخليج العربي (جامعة البصرة)

مركز الدراسات العربية (لندن)

انعقدت في بغداد للفترة من ٢٩/٤–١/٥/١٩٨٤ الندوة الدولية (الخامسة) التي نظمها مركز دراسات الخليج العربي ـ جامعة البصرة بالاشتراك مع مركز الدراسات العربية – لندن.

ولقد شارك فيها عدد كبير من المفكرين والاساتذه والباحثين والسياسين العرب والاجانب والقيت على مدار ثلاثة ايام بحوث علمية عديدة تلتها تعقيبات ومناقشات كثيرة ولقد سادت الندوة اجواء من الحوار الجدي والصريح والموضوعي لكافة القضايا والمشاكل التي يتعرض لها الخليج العربي.

القضايا الاساسية التي برزت في ابحاث ومناقشات الندوة

اولاً – أكد كافة المتحدثين على أن منطقة الخليج العربي يجب أن تكون منطقة سلام واستقرار وتنمية وليست مسرحا للصراعات الدولية أو الاقليمية. وبهذا الصدد فلقد أجمع المتحدثون ضرورة وضع حد للحرب العراقية الايرانية بما يضمن السلام العادل والحقوق المشروعة للطرفين وبهذا الشأن فلقد أعرب المشاركون عن تقديرهم لمساعي العراق السلمية وقبوله لوقف اطلاق النار والتفاوض من أجل السلام كطريق أساسي لتسوية المشاكل بين البلدين ولقد اتفق المجتمعون على ضرورة بذل جهدا اكبر من قبل الجهات العربية الاسلامية والدولية المختلفة لأيقاف هذا النزيف الدموي حيث ان الجهود الحالية ليست بالمستوى المطلوب.

ثانيا – رأى اغلب المجتمعون أن أمن الخليج العربي يجب أن لا ينظر اليه بمعيار أمن أمداد النفط الى الدول الاجنبية فقط، وانما بالاضافة الى ذلك أمن يقوم على استقرار وسلامة سكان المنطقة واقطارها. وبما يضمن تحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي بعيدا عن التبعية ويوفر امكانات التنمية الحضارية والاقتصادية وبما يحقق أوسع مشاركة سياسية لمواطني المنطقة.

أن الاعتماد المتزايد والكبير في الاقتصاد الخليجي على مورد مهما بلغت اهميته، فهو في التحليل الاخير احادي وناضب. ولذلك وحرصاً على مستقبل الاجيال الخليجية ذاتها فأن تنمية حقيقية يكون الوطن العربي ميدانها الفسيح هو أمر ضروري لمستقبل الخليج العربي ولبناء اقتصاده على اسس راسخة ومتينة.

ان تنمية كهذه لابد لها ان تعتمد على العمالة العربية بالأساس والاستهلاك الرشيد، وضمن اطار التنسيق والتكامل الخليجي العربي.

ثالثا – أكد غالبية المجتمعون ان الخليج العربي لايمكن ان ينظر اليه الا كجزء من الوطن العربي وقضاياه المصيرية.

وبهذا الصدد فلقد نوقش البعدين العربي والاسلامي للخليج العربي، ولم يجد المجتمعون ثمة أي تناقض بين عروبة الخليج وكونه والوطن العربي جزءاً من العالم الاسلامي حيث لايمكن ان يوجد تناقض بين العروبة والاسلام.

ان محاولات افتعال تناقض بين الاسلام والعروبة لا أساس لها من الناحية التاريخية والواقعية ان هذا الافتعال يهدف الى اغراض سلبية بالدرجة الاولى تؤدي الى البعثرة والتشرذم بدلاً عن التضامن والاخوة الطبيعين.

رابعا – ان ازمة الخليج العربي الراهنة وتفاقم التدخل الخارجي في شؤونه انما تعكس في حقيقة الأمر ازمة الأمة العربية ذاتها تلك الأزمة التي تتضح معالمها في غياب استراتيجية واضحة للعمل العربي المشترك، بل وفي قيام صراعات داخلية بين الاقطار العربية أو في داخل بعضها الاخر.

ان ذلك يشكل تهديداً جدياً للتضامن العربي وللمصير العربي ذاته خاصة عندما تعمد البعض على دعم قوى اجنبية في خلافاته مع هذا القطر العربي أو ذاك .

ان الاقطار العربية التي تواجه تحديات بالغة الخطورة ليس بوسعها الصمود والمقاومة بشكل منفرد . . . ان الاعداء لايستهدفون قطراً معيناً بل كافة اراضي الوطن العربي وان من يتجاهل هذه الحقيقة يضر بمصالح الأمة العربية وأمن قطره بالذات .

ان القوى الكبرى في ممارساتها السياسية وانما تستهدف مصالحها الذاتية ، وعلى ذلك فأن الأمة العربية مطالبة بالاساس بوضع استراتيجية خاصة بها بهدف المحافظة على استقلالها من أجل تحقيق امال شعبها وقيام علاقاتها الدولية على اسس من التوازن والمصالح المشروعة والمشتركة .

ولقد كان هناك شعور قوي داخل الندوة بأنه من الضروري التمييز بين موقفي الولايات المتحدة المناهض للمصالح العربية والمتحالف مع الكيان الصهيوني ، وبين الاتحاد السوفيتي الذي لاقت منه القوى العربيه دعماً واضحاً .

خامسا — اعرب المجتمعون عن قلقهم البالغ من التهديدات الصهيونية لاقطار الخليج العربي واحتمال استخدام القوة النووية التدميرية في الوقت الذي قام به الكيان الصهيوني بالعدوان على المفاعل النووي السلمي في العراق .

ان هذا يحتم على الامم العربية وقفه جديه لاتخاذ الاجراءات المناسبة والحاسمة .

سادسا — اعرب غالبية المجتمعون عن رغبتهم في ان تمارس المجموعة الاوربية دوراً اكثر ايجابية في تفهم قضايا الخليج العربي والأمة العربية من أجل تحقيق المصالح المشتركة لأوربا والعرب .

سابعا — نوقشت احتمالات اغلاق مضيق هرمز وأبدى الكثير من المجتمعين استبعادهم لمثل هذه الاحتمالات وذلك لاسباب التالية . .

أ — ان مثل هذا الاجراء سيضر بالاقتصاد الايراني بالدرجة الاساس اكثر من ضرره على دول الخليج .

ب — ان من شأن ذلك قطع طريق الامدادات العسكرية لايران نفسها .

جـ — وتساءل البعض كيف بوسع ايران ان تستخدم سلاحها المستورد من الغرب للاضرار بالاقتصاديات العربية .

لذلك فلقد استنتج غالبية المشاركون بأن هذا الاحتمال هو اما مجرد عملية ابتزاز يمارسه حكام ايران وانما انه يخدم موضوعيا كتبرير يقدمه هؤلاء الحكام للقوى العسكرية والاساطيل الغربية للتواجد في هذه المنطقة الحاسمة .

ان ذلك من شأنه خلق توتر كبير يعرض سكان واقطار المنطقة للتدخل الاجنبي .

وسيقوم كل من مركزي دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ومركز الدراسات العربية في لندن بتوزيع التقرير النهائي التفصيلي لهذه الندوة الدولية على اصحاب القرار العربي ومراكز الدراسات العربية والاجنبية التي تهتم بشؤون الشرق الاوسط .

من نشاطات الاتحاد العلمية

أ ـ تشكيلات الاتحاد في مجال النشر

اولا ـ الهيئة العربية العليا لكتابة تاريخ الامة العربية :

١ ـ الدكتور محمد عدنان البخيت	ممثل مشروع كتابة تاريخ بلاد الشام المملكة الاردنية الهاشمية
٢ ـ الدكتور عبدالجليل التميمي	ممثل مشروع كتابة التاريخ العثماني الجمهورية التونسية
٣ ـ الدكتور عبدالرحمن الانصاري	ممثل كتابة تاريخ الجزيرة العربية المملكة العربية السعودية
٤ ـ الدكتور نبيه عاقل	ممثل لجنة كتابة تاريخ العرب الجمهورية العربية السورية
٥ ـ الدكتور سلمان سعدون البدر	ممثل هيئة كتابة تاريخ الامة دولة الكويت
٦ ـ الدكتور صالح احمد العلي	ممثل هيئة كتابة تاريخ الامة العربية الجمهورية العراقية
٧ ـ الدكتور محمد الطاهر الجراري	ممثل مؤتمر تاريخ الامة العربية الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ثانيا ـ لجنة تعضيد المنشورات التاريخية :

١ ـ الدكتور فاضل عبدالواحد (رئيسا)

٢ ـ الدكتور حسن فاضل زعين

٣ ـ الدكتورة رجاء حسني الخطاب

٤ ـ الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي

٥ ـ الدكتور عبدالامير عبد دكسن

٦ ـ الدكتور فاروق عمر فوزي

٧ ـ الدكتور هاشم صالح التكريتي

٨ ـ الدكتور يحيى الشامرلي

٩ ـ الدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني (مقررا)

ثالثا ـ اللجنة الاستشارية للمنشورات التاريخية

١ ـ الدكتور صالح الحمارنة	المملكة الاردنية الهاشمية
٢ ـ الدكتور سلطان القاسمي	دولة الامارات العربية المتحدة
٣ ـ الدكتور سعيد خليل هاشم	دولة البحرين
٤ ـ الدكتور محمد الهادي الشريف	الجمهورية التونسية
٥ ـ الدكتور محمد البشير شنيتي	الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
٦ ـ الاستاذ محمد عبدالله ريراش	جمهورية جيبوتي
٧ ـ الدكتور يوسف الثقفي	المملكة العربية السعودية
٨ ـ الدكتور تاج السر أحمد حران	جمهورية السودان الديمقراطية
٩ ـ الدكتور عادل زيتون	الجمهورية العربية السورية
١٠ـ الاستاذ محمد علي كريم	جمهورية الصومال
١١ـ الدكتور ابراهيم خليل أحمد	الجمهورية العراقية
١٢ـ الاستاذ علي احمد الشنفري	سلطنة عمان
١٣ـ السيد أحمد العناني	فلسطين
١٤ـ الدكتور حسن محمد صالح	دولة قطر
١٥ـ الدكتور عبدالمالك التميمي	دولة الكويت
١٦ـ الدكتور عمر عبدالسلام تدمري	الجمهورية اللبنانية
١٧ـ الدكتور عبدالرحيم عبدالرحمن	جمهورية مصر العربية
١٨ـ الدكتور محمد المختار بن ريان	جمهورية موريتانيا الاسلامية
١٩ـ الدكتور عبدالهادي التازي	المملكة المغربية
٢٠ـ الدكتور حسين عبدالله القمري	الجمهورية العربية اليمنية
٢١ـ الدكتور محمد عكاشة	جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

ب نشاطات الاتحاد في مجال النشر

أولا ـ الكتب المنشورة

قام الاتحاد بنشر الكتب التالية :

١ ـ كتاب يوميات البصرة بجزئين تأليف الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار والدكتور عبدالامير محمد أمين (بيروت ١٩٨٠) باللغة الانكليزية

٢ ـ بحوث مهرجان المؤرخ توينبي (بغداد ١٩٧٩) باللغة الانكليزية والعربية وأشرف على اعدادها الدكتور هاشم التكريتي والدكتورة عالية سوسة

٣ ـ الحركة الصهيونية في تونس من الفترة ما بين(١٩١١ ــ ١٩٢٧) تأليف الاستاذ التيمومي (بيروت ١٩٧٩) •

٤ ـ نشأة الحركة الاباضية الدكتور عوض خليفات (عمان ١٩٧٨) •

٥ ـ ملامح النهضة العلمية في العراق من القرنين الرابع والخامس الهجريين (٣٣٤ هـ ــ ٤٤٧ هـ) (١٤٥ م ــ ١٠٥٨ م) للدكتور محمد حسين الزبيدي (بيروت ١٩٨٠) •

٦ ـ ديوان جواهر الملوك في مدايح الملوك ، للشاعر هلال بن سعيد بن عرابة العماني تحقيق الدكتور داود سلوم (بيروت ١٩٧٩) •

٧ ـ القبائل العربية في المشرق خلال العهد الاموي (٤٠ ــ ١٣٢ هـ/٦٠٠ ــ ٧٤٩ م) للدكتور ناجي حسن (بيروت ١٩٨٠) •

٨ ـ حضارات الوطن العربي كخلفية للمدنية اليونانية للدكتور سامي سعيد الاحمد (بيروت ١٩٨٠)•

٩ ـ الامير مسلمة بن عبدالملك بن مروان ، للدكتور عواد مجيد الاعظمي (بيروت ١٩٨٠) •

١٠ـ مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني للدكتور فاروق عمر فوزي (بغداد ١٩٧٩) •

١١ـ المدخل الى تاريخ اللغات الجزرية للدكتور سامي سعيد الاحمد (بغداد ١٩٨١) •

١٢ـ دراسات تاريخية لمعاهدات الحدود الشرقية للوطن العربي للدكتور مصطفى عبدالقادر النجار (بيروت ١٩٨١) •

١٣ـ فلسطين تاريخها وحضارتها للدكتور عزالدين غربية (بيروت ١٩٨١) •

١٤ـ كتاب المسعودي مؤرخا للاستاذ عبدالرحمن العزاوي (بغداد ١٩٨٣) •

١٥ـ مقدمة في التصوف وحقيقته للامام أبي عبدالرحمن السلمي البغدادي تحقيق الاستاذ الدكتور حسين أمين (بغداد ١٩٨٤) •

١٦ـ فهارس مجلة المؤرخ العربي للدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني (بغداد ١٩٨٤) •

١٧ ـ النظام الاساس لاتحاد المؤرخين العرب (الكويت ، ١٩٧٥) •

١٨ ـ دليل اتحاد المؤرخين العرب للدكتور محمد جاسم المشهداني ، والاستاذ علي محسن الظاهر (عمان ، ١٩٨٦) •

ثانيا ـ الكتب التي تحت الطبع :

١ ـ كتاب مخطوطة المفاخر في اخبار العرب الاواخر، تحقيق الدكتورة رمزية الاطرقجي .

٢ ـ كتاب المستنصرية في التاريخ ، لنخبة من المؤرخين والباحثين .

٣ ـ كتاب دليل المؤرخين العرب .

٤ ـ كتاب دليل رسائل الماجستير والدكتوراه في التاريخ .

٥ ـ كتاب دليل المراكز التاريخية الدولية (باللغة الانكليزية) .

٦ ـ كتاب دليل تعاد المؤرخين العرب في الصحافة العراقية والعربية والعالمية .

ثالثا ـ المجلة

قام الاتحاد بأصدار مجلة تاريخية علمية وهي (مجلة المؤرخ العربي) تحتوي على النتاجات العلمية الجيدة للمؤرخين والباحثين العرب .

أن الاتحاد يعتزم تطوير مجلة المؤرخ العربي وجعلها أكثر ملائمة مع تطور الدراسات والمفاهيم العلمية ، وقد تم الان أصدار (٢٦) عدد من المجلة أعتبارا من سنة ١٩٧٥ تاريخ صدور العدد الاول ولحد الآن (١٩٨٦) وهو تاريخ صدور العدد السادس والعشرين .

علما أن الاعداد الثامن والعشرين والتاسع والعشرين والثلاثين والحادي والثاني والثالث والرابع والثلاثين تحت الطبع .

من نشاطات الاتحاد في مجال الندوات والمؤتمرات اعتبارا من ١ـ٩ـ١٩٨٤

أولا ـ المؤتمرات والندوات التي نظمها وسينظمها الاتحاد :

أ ـ المؤتمرات التي تم عقدها خلال العام الدراسي الحالي

١ ـ ندوة تأصيل المقام العراقي تاريخيا بغداد ١ـ٩/١٠ـ١٩٨٤ .

٢ ـ الشهيد في التاريخ العربي الاسلامي بغداد ١ـ١٢ـ١٩٨٤ .

٣ ـ المخطوطات والتراث ٢٢ـ١٢ـ١٩٨٤ .

٤ ـ مكانة الأسير في التاريخ العربي الاسلامي ٨ـ١ـ١٩٨٥ .

٥ ـ الدول الكبرى والقضية الفلسطينية ١٨ـ٢ـ١٩٨٥ .

٦ ـ المستنصرية مدرسة وجامعة (بالاشتراك مع الجامعة المستنصرية) ٤ـ٥ـ١٩٨٥ .

٧ ـ حركة مايس ١٩٤١ ، ٢ـ٥ـ١٩٨٥ .

٨ ـ تطور الفكر العربي القومي (اتحاد المؤرخين العرب ، بالاشتراك مع مركز دراسات الوحدة العربية ، والمجمع العلمي العراقي ، ومركز البحوث والدراسات العربية) ٨/١٠ـ٥ـ١٩٨٥

٩ ـ الندوة العلمية الاولى لمدراء تحرير المجلات الانسانية ٢٧ـ٦ـ١٩٨٥ .

ب ـ المؤتمرات والندوات التي ينوي الاتحاد عقدها حتى نهاية عام ١٩٨٦

١ ـ البطل في التاريخ بالاشتراك مع وزارة الثقافة والاعلام .

٢ ـ الاسطورة بين الواقع والخيال في حضارة العراق القديم .

٣ ـ الحضارة العربية الاسلامية .

٤ ـ الاسلام والقومية .

٥ ـ المستشرقون والتاريخ العربي .

٦ ـ التحدي الشعوبي للامة العربية (بالاشتراك مع نقابة المعلمين) .

٧ ـ جوانب من تاريخ ايران الحديث والمعاصر

٨ ـ كتابة تاريخ الامة العربية ، ضرورة وطنية وقومية ، بالتعاون مع هيئة كتابة التاريخ العراقية .

ثانيا ـ المؤتمرات العربية والعالمية التي شارك ويشارك بها الاتحاد

اسم المؤتمر او الندوة	مكان الانعقاد	الجهة المنظمة	التاريخ
١ ـ مؤتمر الثروة النفطية واثرها على السياسة العربية المعاصرة	ـ ولاية نيوجرسي الامريكية	جامعة روجسر	آب/١٩٨٤
٢ ـ ندوة الحوار العربي الاوربي	ـ ميلانو ،كادانيا أيطاليا	المعهد الدولي العالمي التابع لمؤسسة كونرادايناور	٢٥/١١ـ١/١٢/٩٨٤
٣ ـ الاجتماع الثالث للتنسيق بين الامانة العامة/الجامعة العربية/ الادارة العامة لشؤون الاعلام المنظمات والاتحادات العربية	ـ تونس مقر جامعة الدول العربية	جامعة الدول العربية الادارة العامة لشؤون الاعلام	٩/١٠ـ٢ـ١٩٨٥
٤ ـ المؤتمر الثالث للعلاقات العربية التركية	ـ جامعة اليرموك	جامعة الاردن /جامعة اليرموك/ جامعة مؤتة	٢٠/٢٥ـ٤ـ١٩٨٥
٥ ـ ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي	ـ سلطنة عمان	مكتب التربية لدول الخيج العربي	١٥/١٧ شعبان ١٤٠٥
٦ ـ اجتماعات الدورة (٤٢) للجنة الدائمة للاعلام العربي	ـ تونس مقر الجامعة العربية	جامعة الدول العربية الادارة العامة لشؤون الاعلام	٢٩/٣٠ـ٦ـ١٩٨٥
٧ ـ الدورة العادية (٢١) لمجلس وزراء الاعلام العربي	ـ تونس/مقر الجامعة العربية	جامعة الدول العربية الامانة العامة لشؤون الاعلام	٢/٣ـ٧ـ١٩٨٥
٨ ـ اجتماع الامانة العامة للخليج العربي والجزيرة العربية	ـ جامعة صنعاء	مركز البحوث اليمني	٥ـ٧ـ١٩٨٥
٩ ـ اجتماعاتالدورة (٢٧) للمجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم	ـ تونس/مقر ـ الجامعةالعربية	المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والامانة العامة للمجلس التنفيذي والمؤتمر العام	١ـ٩/٧/١٩٨٥
١٠ـ الدورة التدريبية العربية في طرق التدريس واستخدام التقنيات التربوية	ـ قابس/تونس	الاتحاد العربي التقني بالتعاون مع وزارة التعليم العالي والبحث العمي التونسية	٢٨/٦ـ١٢/٧

اسم المؤتمر او الندوة	مكان الانعقاد	الجهة المنظمة	التاريخ
١١ـ ندوة حول ثورة أكتوبر والعالم الثالث	شتوتغارت المانيا الاتحادية	معهد البحث العلمي السوفياتي	آب/١٩٨٥
١٢ـ الاجتماع السادس عشر للمؤتمر	المانيا الاتحادية ،	المنظمة العالمية للعلوم التاريخية	٢٥/٨ـ١/٩ـ٨٥
١٣ـ الحلقة الدراسية في ادارة وتطوير التعليم التقني	بغداد	الامانة العامة	
١٤ـ ندوة الوحدة العربية تجاربها	جامعة صنعاء	الاتحاد العربي للتعليم التقني/	٢٥/٩ـ٢/١٠
١٥ـ المؤتمر السنوي لجمعية دراسات الشرق الاوسط	مدينة اورلياس الولايات المتحدة الامريكية	مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع جامعة صنعاء	١٧ـ١٢/٢/٩٨٦
١٦ـ المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز آل سعود	الرياض/جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية	بالتعاون مع اتحاد المؤرخين العرب	١٩٨٦
١٧ـ الندوة العلمية الاولى لدراسة مصادر تاريخ البصرة	جامعة عدن		١٩٨٦
١٨ـ اجتماع الدورة التاسعة للامانة العامة لمراكز الخليج والجزيرة العربية	بغداد		١٩٨٦

Finally the Unoin plans to participate in these conferences:

1 - The Arab Union : Experience and Expectations,
University of Sana,
The Yemen, February 1986.
2 - Annual East Association New Orleans, U.S.A. **1986.**
3 - History of King Abdul Aziz al-Siud,
Riyathe, 1986.
4 - References on Basra History 1986.
5 - History of Yemen, Aden, 1986.
6 - Stategies of Arab Policy,
7 - Meeting of Arab Gulf and Arab Peninsula Centers,
Baghdad 1986.

A quarterly Issued by :
The Union f Arab Historians
Baghdad
No. (27) (1985.
Eleventh Year (1405) A.H.

Besides, the Union did participate lately in these conferences :

1 - Oil Wealth, U. S. A. August 1984.

2 - The Arab -- European Dialogue,

2 - The Arab -- European Dialogue,
Italy, November, 1984.

3 - Third Meeting between the Arab League and Arab Unions,
Tunis, February, 1985.

- Arab -- Turkish Relations,
Jordon, April, 1985.

5 - Cultural Challenges in the Arab Gulf,
Uman, Shabaan, 1405 A.H.

6 - Meetings of Permenant Committee of Arab Information,
Tunis, June, 1985.

7 - Meeting of Arab Information Ministers,
Tunis, July, 1985.

8 - Meeting of General Secretarianship of the Arab Gulf and Arab Peninsula,
Sanai (the Yemen) July 1985.

9 - Meeting of the Executive Board of the ALECSO,

10- Technology in Methods of Teaching,
Tunis, July 1985.

11- October Revolution Stutgart, Federal German,
August 1985.

12- International Conference in [illegible] Sciences, Stutgart, Federal Germany,
August, 1985.

13- Seminar of Developing Arabic Institutes Technical Teaching,
Baghdad September, 1985.

14- Liberated Africa,
Ethupia, November 1985

15- Iraq in the Revolution,
Mosel, November, 1985.

16- Arab Gulf Ports,
Baghdad, January, 1986.

THE JOURNAL

The Union is issuing an academic historical journal (the Arab Historian), which includes the truly academic product of Arab historians and researchers.

The Union plans to develop this journal and make it more suitable to scientific studies.

It has published 25 issues since 1975 till now (1985) the publishing of the twenty -- fifth issue.

Issues No. 26 through 30 are under print.

CONFERENCES

The Union recently arranged these conferences :

1 - The Iraq Maqam from a historical point of view,
October 1, 1984.

2 - The Martyr in Arabic Islamic History,
December 1, 1984.

3 - Manu scripts and Heritage,
December 22, 1984.

4 - The Martyr's place in Arabic Islamic History,
January 8, 1985.

5 - Super Powers and the Palestinian Issue,
February 18, 1985.

6 - May Movement, 1941,
May 2, 1985.

7 - Al-Mustansiriyya : A School and a University,
May 4, 1895.

8 - Development of National Arab Thought,
May 8, 1985.

9 - First Scientific Symposium of Editors - in - chief of Humanitarian Journals,
June 27, 1985.

THE UNION'S ORGANIZATIONS

A. The Upper Committee for Writing Arab's History :

1 - Dr. Mohamed A. Bkheet, Jordon.
2 - Dr. Abdul Jaleek Timeemi, Tunisia.
3 - Dr. Abdul Rahman Al-Ansaari, Saudi Arabia.
4 - Dr. Nabeeh Akil, Syria.
5 - Dr. Salman Al-Badr, Kuwait.
6 - Dr. Sahil A. Al-Ali, Iraq.
7 - Dr. Muhwi Al-Jaraari, Libya.

B. The Union's Committee for subsidizing historical publications :

1 - Dr. Fadhil Abdul Wahid, Chairman.
2 - Dr. Hasan F. Zain.
3 - Dr. Raja H. Al-Khattab.
4 - Dr. Sabah Al-Shekhli.
5 - Dr. Abdul -- Ameer Diksin.
6 - Dr. Farouq U. Fawzi.
7 - Dr. Hashim Al-Tikreeti.
8 - Dr. Yihya Al-Shahirli.
9 - Dr. Mohamed Jasim Al-Mashhadaani, Secretary.

CONSULTATIVE COMMITTEE

1 - Dr. Salih Al-Hamaarna, Jordon.
2 - Dr. Sultan Al-Qasimi, Arab Emarites.
3 - Dr. Said Khalil Hashim, Bahrain.
4 - Dr. Mohamed Al-Shareef, Tunisia.
5 - Dr. Mohamed Shneiti, Algeria.
6 - Mr. Abdulla Rirash, Giboti.
7 - Dr. Yousif Al-Thaqafi, Saudi Arabia.
8 - Dr. Taaj as-Sir Heran, Sudan.
9 - Dr. Adil Zaytoon, Syria.
10- Mr. Muhamed Ali Kareem, The Somalia.
11- Dr. Ibraheem Ahmed, Iraq.
12- Mr. Ali Al-Shanfari, Uman.
13- Mr. Ahmed Al-Anaani, Palestine.
14- Dr. Hasan M. Salih. Qatar.
15- Dr. Abdul Malik Al-Timeemi, Kuwait.
16- Dr. Umar Tadmuri, Lebanon.
17- Dr. Abdul Raheem Abdul-Rahmaan, Egypt.
18- Dr. Mohamed Bin Rayaan, Moritanya.
19- Dr. Abdul Hadi Al-Taazi, Yemeni Republic.
20- Dr. Husein Abdulla Al-Qamari, Yemen Republic.
21- Dr. [illegible] [illegible]kasra, Democratic [illegible]

BOOK REVIEW :

1 - Al-Masudi's Study of Religious Beliefs,
By Dr. Muhamed Jasim Al-Mashhadaani.
2 - Iraq in British Documents in 1936,
By Dr. Muhamed Ibraheem.
3 - Palestine, by Dr. Sami S. Al-Ahmed.
4 - Political Thought in Iraq 1914 -- 1958,
By Dr. Usaama ad-Doori.
5 - Wasit in Abaside Era,
By Dr. Hamdaan Al-Kubaisi.

THESES :

1 - Iran in the First World War,
Exposed by Dr. Usaama ad-Doori.
2 - Aden 1083 -- 1221,
Exposed by Shayif Said.
3 - Post Death Beliefs,
Exposed by Dr. Sami S. Al-Ahmed.
4 - Al-Balathery's References,
By Dr. Aetemad Al-Qasiri.
5 - Baghdad Mosques in Ottoman Era,
By Dr. Muhamed J. Al-Mashhadani.

The Issues Symposium :
The Arab Gulf and the Outside World,
Babhdad, April 29 -- May 1, 1984.

13- Dr. Khaleel I. Al-Samurai.
College oi Education,
University of Mosel :
Iraqi Impact on Andulus.

14- Dr. Mahmood Yaseen,
College of Arts,
University of Mosel:
Historical Insight of Ibn -al-Atheer.

15- Dr. Khaleel Sh. Husain,
College of Education,
University of Mosel:
Ibrahim bin Al-Ashtar.

16- Dr. Shakir M. Abdul Munim,
Institute of Teachers, Baghdad :
Al-Khazraji's Works.

17- Mr. Salih M. Abbas,
Legacy Centre :
Muhamed Al-Salami.

18- Dr. Hasan Al-Hakeem,
College of Islamic Law :
Al-Najashi Al-Asadi.

19- Dr. Salahaddeen Ameen,
University of Mosel,
Movement of Amru Al-Ashdag.

ANCIENT HISTORY

20- Dr. Sami Al-Ahmed,
College of Arts,
University of Mosel,
University of Baghdad :
Herodutus and his Works.

CONTENTS

A. CONTEMPORARY HISTORY :

B. ARABIC -- ISLAMIC HISTORY:

EDITORIALS :

With great pride the office of the General Secretary of the Union of Arab Historians issues this new edition of Al-Muarrikh Al-Arabi Bulletin. It is number 27. The hard era which the Arab Nation passes now puts great responsibilities on the Arab historian, in order to turn history a decisive weapon against enemies. So, Arab historians bring back the glorious history of the Arabic Nation so that this history may contribute to the welfare and the progress of all Arabs today, and so that the Arab historians may successfully show the authentic aspects of all Arabs.

This is Why we do urge Arab historians to exert all their efforts in rewriting the history of the Arab Nation in a better way. For this reason, an upper committee for rewriting Arab history has been formed, and the union will hopefully play its vital role in enabling Arab historians in this great job.

Prof. Mustafa Al-Najjar
General Secretary
of the Union of
Arab Historians
Editor - in - Chief.

ANNUAL SUBSCRIPTION :

		Inside Iraq	Outside Iraq
1 -	Governmental and Semi-Governmental Offices	50 dinars	150 dollars
2 -	Historians	20 dinars	60 dollars
3 -	Students of History	10 dinars	30 dollars

All Correspondence : To Editor – in – Chief

P.O. Box 4085

Baghdad -- Iraq

Union of Arab Historians.

Tel. 4448006

REQUIREMENTS OF PUBLICATIONS

1 - Research should be truly academic.
2 - It coincide with aims of the union.
3 - Not more than 50 pages.
4 - Original and not sent elsewhere.
5 - May cover any area in history, and written either in Arabic or in English.
6 - Title typed on a seperate sheet, with names of researchers in full.
7 - Typed in two copies on every other page, and properly numbered.
8 - In case the research is delivered in a conference, this may be foot -- noted.
9 - Foot -- notes unified and correctly numbered.
10- All papers are evaluated before being admitted.
11- Papers are artistically ordered.
12- Address and name clearly written in English.

THE ARAB HISTORIAN

AL — MUARRIKH AL — ARABI

A QUARTERLY ISSUED BY :

THE UNION OF ARAB HISTORIANS

BAGHDAD

NO (27) (1985)

EIEVENTH YEAR (1405) A.H.

THE ARAB HISTORIANS

AL — MUARRIKH AL — ARABI

A QUARTERLY ISSUED BY :

THE UNION OF ARAB HISTORIANS

BAGHDAD

NO (27)   (1985)

EIEVENTH YEAR (1405) A.H.